كارين آرمسترونغ

التحول الكبير

بدايات تقاليدنا الدينية

نقله إلى العربية: محمد الجورا



عنـــوان الكتـــاب : التحول الكبير: بدايات تقاليدنا الدينية

الكاتـــــــــــب: كارين آرمسترونغ - Karen Armstrong

عنـــوان الكتـــاب باللغـــة الأم: The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions

نقلـــه إلى العربيـــة: محمد الجورا

الطبعـــة الأولـــى : 2016م

التنفيـــذ والإشـــراف : دار الفرقد

الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية

Email: alfarqad70@Gmail.com
alfarqad71@hotmail.com

هاتف : (00963-11) 6618303 - 6660915

فاكس : (00963-11) 6660915

ص . ب : 34312

كارين آرمسترونغ

التحـــول الكـــبير
بـــدايات تقاليـــدنا الدينيـــة

نقله إلى العربية: محمد الجورا

المحتويات



مقدمة

ربما يعتقد كل جيل أنه قد وصل إلى نقطة انعطاف تاريخية، بيد أن مشكلاتنا تبدو صعبة الحل، ويبدو أن مستقبلنا غير مؤكد، لأن الكثير من مصاعبنا تغلفها محنة روحية أكثر عمقاً. فخلال القرن العشرين رأينا انفجار العنف على مجال غير مسبوق. إن قدرتنا على إيذاء وتشويه بعضنا قد بقيت مسايرة لتقدمنا العلمي والاقتصادي غير العادي. فكما يبدو، تنقصنا الحكمة كي نلجم عدوانيتنا ونبقيها ضمن أطر آمنة وملائمة. فتفجير أول قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناغازاكي قد وضع نزعة تدمير ذاتي جلية في قلب الإنجازات المتألقة لثقافتنا الحديثة.

كما أننا نغامر بكارثة بيئية؛ لأننا لم نعد نرى الأرض مقدسة، ونعدها بكل بساطة مجرد مصدر للموارد. فما لم يكن هناك نوع من ثورة روحية تستطيع أن تحتضن عبقريتنا التقانية، فإن لمن غير المرجح أننا سننقذ كوكبنا. إن تربية عقلانية محضة لن تكون كافية. لقد وجدنا - على حسابنا - أن جامعة عظيمة قد توجد قربنا، مثلما قد يوجد معسكر اعتقال. إن معسكرات أوشفيتز، ورواندا، والبوسنة، وتدمير مركز التجارة العالمي كانت جميعاً تجليات قاتمة كشفت عما يمكن أن يحدث عندما يفقد المرء الإحساس بحرمة وانتهاك ما هو مقدس لكل كائن بشري.

الدين - الذي من المفترض أن يساعدنا في تشذيب هذا الموقف يبدو - في أغلب الأحيان - يعكس العنف واليأس في أزماننا. ففي كل يوم تقريباً، نرى أمثلة على إرهاب وكراهية، وعدم تسامح محركها ديني. وفي الوقت ذاته، يجد عدد

متزايد من الناس العقائد والممارسات الدينية التقليدية ليست بذات علاقة، وغير قابلة للتصديق، فيتحولون إلى الفن والموسيقى، والأدب، والرياضة، أو المخدرات كي تعطيهم تجربة متسامية يحتاجها البشر، كما يبدو. إننا ـ جميعاً ـ نبحث عن لحظات نشوة وبهجة عندما نساكن إنسانيتنا أكثر من المعتاد، ونشعر أننا متأثرين بكل عمق في داخلنا، ونُرفّع لحظياً خارج ذواتنا . إننا مخلوقات تبحث عن معنى، ولسنا على شاكلة حيوانات أخرى تسقط بكل سهولة في اليأس، إذا لم نستطع أن نجد معنى وقيمة في حيواتنا. بينما يبحث البعض عن سبل جديدة ليكونوا متدينين. فمنذ أواخر سبعينات القرن العشرين، نجد حركة بعث روحية في أصقاع عديدة من العالم، وليست التقوى المحاربة ـ التي نسميها غالباً "الأصولية" سوى إحدى تبديات بحثنا ما بعد الحداثي عن الإستنارة.

في مأزقنا الراهن، أعتقد أن باستطاعتنا أن نجد إلهاماً في الفترة التي أسماها الفيلسوف الألماني كارل غاسبار العصر المحوري، لأنها كانت محورية في تطور البشرية الروحي[1]. فمن نحو عام 900 إلى 200 ق.م، وفي أربع مناطق مميزة ظهرت إلى الوجود التراثات العالمية العظيمة التي استمرت في تغذية البشرية؛ الكونفوشيو ـ سية، والداوية Daoism في الصين، والهندوسية والبوذية في الهند، والوحدانية في إسرائيل، والعقلانية الفلسفية في اليونان. هذه الفترة كانت فترة بوذا، وسقراط، وكنفوشيوس، وإرميا، ومتصوفو الأبانيشاد، ومينسيوس Mencius، ويوريبيديس. فخلال هذه الفترة من الإبداع المركّز كانت هذه العبقريات الفلسفية والروحية رواداً لنوع جديد كلياً من التجربة البشرية. لقد عمل العديد منهم دون أن يُعرَفوا، بينما أصبح آخرون نجوماً ساطعة بإمكانهم أن يملؤنا بالإحساس، لأنهم يبينون لنا ما الذي ينبغي أن يكون عليه أي كائن بشري.

لقد كان العصر المحوري واحداً من أهم الفترات للتحول الفكري، والنفسي، والفلسفي والديني في التاريخ المدوَّن، ولم يكن هناك ما يماثله حتى التحول الغربي العظيم الذي أوجد حداثتنا العلمية، والتقانية.

لكن كيف يستطيع حكماء العصر المحوري ـ الذين عاشوا في ظروف شديدة الإختلاف عنا ـ أن يخاطبوا ظرفنا الراهن؟ لماذا علينا أن نتطلع إلى كونفوشيوس، أو بوذا طلباً للمساعدة؟ إن دراسة هذه الفترة البعيدة يمكنها ـ بكل تأكيد ـ أن تكون مجرد تدريب في أركيولوجيا روحية، فما نحتاجه هو خلق دين تجديدي أكثر يعكس حقائق عصرنا نحن. مع ذلك، في الحقيقة، إننا لم نتجاوز رؤى العصر المحوري. ففي أوقات أزمة روحية واجتماعية رجع الرجال والنساء إلى هذه الفترة بحثاً عن توجيه لهم. فلربما قد فسروا اكتشافات العصر المحوري بطريقة مختلفة، لكنهم لم ينجحوا أبداً في تجاوزه. فيهودية الأحبار، والمسيحية، والإسلام على سبيل المثال كانت كلها إزهارات تلت العصر المحوري الأصلي. وكما سنرى في الفصل الأخير من هذه الكتاب أن هذه التراثات الثلاثة قد اكتشفت ثانية النظرة المحورية، وترجمتها بطريقة رائعة إلى مصطلح تحدث مباشرة إلى ظروف عصرها.

أنبياء، ومتصوفو، وفلاسفة، وشعراء العصر المحوري كانوا متطورين جداً، وكانت نظرتهم جذرية جداً لدرجة أن أجيالاً تالية مالت إلى تخفيفها. ففي هذه السيرورة غالباً ما أنتجوا نوعاً من الغلو في التدين، وهذا ما أراد المصلحون المحوريون التخلص منه. وكما أعتقد، ذلك ما قد حدث في العالم المعاصر. فحكماء العصر المحوري لديهم رسالة مهمة لعصرنا، لكن آراءهم الثاقبة ستكون مذهلة، وصادمة حتى لمن يعدون أنفسهم متدينين في أيامنا هذه. فعلى سبيل المثال، يُعتقد أن الإيمان هو مسألة تصديق مقولات معتقدية محددة. ومن الشائع ـ فعلاً ـ أن نطلق على المتدينين كلمة "مصدقين"، وكأنما هم الموافقون على أن أركان الدين كانت فاعليتهم الرئيسية. بيد أن معظم فلاسفة العصر المحوري لم يكن لديهم اهتمام مهما كان بالمعتقد أو الميتافيزيقا. فالمعتقدات اللاهوتية لدى شخص كانت مسألة لا مبالاة إجمالية لدى امرئ مثل بوذا.

لقد رفض بعض الحكماء بكل قوة حتى أن يناقشوا اللاهوت، لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك مدعاة للتشتت والضرر، وجادل آخرون أن من السابق لأوانه، بل

وغير واقعي، ولا يعدو عن كونه مشاكسة، البحث عن يقين مطلق يتوقع أناس كثيرون أن يقدمه الدين.

جميع التراثات التي طُورت خلال العصر المحوري قد دفعت إلى الأمام حدود الوعي البشري، واكتشفت بعداً متسامياً في صلب وجودها، لكنها لم تكن تعد هذا خارقاً للطبيعة، بل رفض معظمها مناقشته. بدقة لأن التجربة كانت لا سبيل إلى وصفها، والموقف السليم الوحيد كان صمتاً مبجلاً.

لم يسع الحكماء إلى فرض رأيهم ـ بما يتعلق بهذه الحقيقة النهائية ـ على أناس آخرين. بل على العكس من ذلك تماماً، اعتقدوا أنه لا يتوجب على المرء أن يتلقى أياً من تعليم ديني في الدين، أو ما هو منقول حوله. فالأمر الأساسي كان أن يساءل كل شيء، وأن يختبر كل عقيدة عملياً وفقاً للتجربة الشخصية. فلو أن نبياً أو فيلسوفاً أصر على معتقدات إلزامية، لكان ذلك دلالة على أن عصر المحور قد فقد قوته الدافعة. فلو وجه سؤال إذا بوذا أو كونفوشيوس ما إذا كان يؤمن بالله، لكان من المحتمل أنه يشعر بالامتعاض، ويشرح بلباقة أن هذا السؤال لم يكن سؤالاً مناسباً. ولكان عاموس أو حزقيال شعر بالحيرة إذا ما سأله امرؤ ما إذا كان موحداً. فالوحدانية لم تكن هي القضية.

ففي الكتاب المقدس نجد تأكيدات صريحة قليلة للوحدانية، فما هو مهم فعلاً هو أن يبتعد صرير بعض هذه المقولات العقائدية فعلياً عن الروح الرئيسة للعصر المحوري. فما كان مهماً لم يكن ما تعتقده، بل كيف كنت تسلك. كان محور الدين هو فعل الأشياء التي تحولك في مستوى عميق. فقبل العصر المحوري كان الطقس والقربان الحيواني مركزياً في المسعى الديني. كنت تشعر بالإلهي في مسرحيات مقدسة، مثل تجربة مسرحية في أيامنها هذه، تدخلك إلى مستوى وجودي آخر.

لقد غيّر حكماء العصر المحوري هذا، واستمروا في تقدير الطقس، لكنهم أعطوه معنى أخلاقياً جديداً؛ ووضعوا الأخلاق في قلب الحياة الروحية. فالسبيل الوحيد الذي من خلاله تستطيع أن تقابل ما أسموه "الله"، أو "النيرفانا" أو

"براهمن"، أو الطريقة The Way كان أن تعيش حياة تتسم بالرحمة. في حقيقة الأمر، الدين كان الرحمة. في أيامنا هذه، غالباً ما نعتقد أن قبل تبنينا لأسلوب حياة دينية يتوجب علينا أن نثبت لرضانا الشخصي أن "الله" أو "المطلق" موجود. هذه ممارسة علمية جيدة. عليك أولاً أن ترسي مبدءاً، ومن ثم يمكنك أن تطبقه. لكن حكماء عصر المحور يقولون إن هذا يمثل وضع العربة أمام الحصان. أولاً يجب أن تلزم نفسك بالحياة الأخلاقية، ومن ثم تسامح، وانضباط اعتيادي، وليس اقتناعاً ميتافيزيقياً، سيعطيك لمحات من المتعالي الذي سعيت إليه.

هذا كان معناه أنه كان عليك أن تكون على استعداد لأن تتحول. لم يكن حكماء عصر المحور مهتمين بتزويد مريديهم بنقلة أعلى قليلاً، والتي بعدها يمكنهم العودة بقوة متجددة إلى حيواتهم العادية المتمحورة حول ذواتهم. بل كانت غايتهم هي خلق نوع مختلف كلياً من الكائن البشري. لقد بشر جميع الحكماء بروحانية الشعور بما يشعره الآخر، والرحمة. لقد أكدوا على أنه ينبغي على البشر أن يتخلوا عن نزعة الأنانية، وعن الجشع، وعن عنفهم، وعن قسوتهم. لم يكن خطأ أن تقتل إنساناً آخر وحسب، بل عليك ألا تنطق كلمة أو أن تبدي حركة تغيظه. زد على ذلك، أدرك جميع حكماء عصر المحور تقريباً أنه يتوجب ألا يقتصر تسامحك على أناسك، بل يجب أن يتسع اهتمامك بحيث يشمل العالم كله. وعندما بدأ الناس في تضييق آفاقهم وعواطفهم، كان ذلك دليلاً آخر على أن عصر المحور كان يشرف على نهايته. فكل تراث طور صياغته الخاصة به للقاعدة الذهبية:

عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك. أما ما يتعلق بحكماء العصر المحوري فكانوا مهتمين باحترام الحقوق المقدسة للبشر جميعاً، ولم يكونوا مهتمين باعتقاد متشدد. وهذا كان هو الدين. فلو تصرف الناس بطيبة وأريحية تجاه الآخرين، لكان باستطاعتهم إنقاذ العالم.

إننا بحاجة لأن نعيد اكتشاف هذه الروح العامة لعصر المحور في قريتنا الكونية. لم يعد باستطاعتنا احتمال نظرة دينية ضيقة تستبعد الآخر، إذ يتوجب

علينا أن نتعلم ونتصرف وكأن الناس في بلدان بعيدة عن بلادنا هم بمثل أهمية أنفسنا. لم يوجد حكماء عصر المحور مبدأ الرحمة الأخلاقي في ظروف رائعة. فكل تراث تطور في مجتمعات مثل مجتمعاتنا نحن، كانت ممزقة بالعنف والحروب، كما لم يحدث من قبل. في حقيقة الأمر، المحرك الأول للتحول الديني كان عادة رفض مبدأي للعدوان الذي كان يراه الحكماء في كل ما حولهم. وعندما بدأوا بالبحث عن أسباب العنف في النفس البشرية، غاص فلاسفة عصر المحور في عالمهم الداخلي، وبدأوا باكتشاف عالم غير مكتشف بعد من التجربة الإنسانية.

إجماع عصر المحور هو شهادة بليغة على الإجماع على السعي الروحي للجنس البشري. لقد وجدت شعوب عصر المحور كلها أن خُلق الرحمة كان فعالاً. وجميع التراثات التي تم خلقها في هذه الفترة متفقة حول الأهمية الكبرى للمحبة والتسامح، ويخبرنا هذا شيئاً مهماً عن إنسانيتنا. أن نجد أن إيماننا متوافق بعمق مع إيمان الآخرين هو تجربة مؤكدة. ولذلك، دون مغادرة تراثنا الخاص بنا، نستطيع أن نتعلم من الآخرين كيف نعلي من سعينا إلى حياة نحس بها بما يحس به الآخرون.

لا نستطع أن نثمن إنجازات عصر المحور مالم نكن عارفين لما حدث من قبل، لذلك فإننا بحاجة لأن نفهم دين ما قبل العصر المحوري في بداية العصور القديمة. كان لهذا الدين سمات مشتركة ستكون مهمة لعصر المحور. فعلى سبيل المثال، كان لدى معظم المجتمعات إيمان مبكر بإله متعالٍ كان يدعى إله السماء، لأنه كان مرتبطاً بالسماء[2]. وبالأحرى لا يمكن الوصول إليه، فأبدى ميلاً لأن يتوارى عن الوعي الديني. قال البعض أنه توارى، وقال آخرون أنه قد أزيح بعنف من قبل آلهة أكثر ديناميكية وأكثر شباباً. كان الناس يشعرون ـ عادة ـ بالمقدس كحضور محايث في العالم من حولهم، وداخل أنفسهم. وكان البعض يعتقد أن الآلهة، والرجال، والنساء، والحيوانات، والنباتات، والحشرات، والصخور كانت كلها تشترك في الحياة الإلهية ذاتها. كلها كانت خاضعة

لنظام كوني مهيمن يبقي كل شيء في الوجود. حتى الآلهة كان عليها أن تطيع هذا النظام، وكانت تتعاون مع البشر في الحفاظ على قدرات الكون الإلهية. وإذا لم تكن تتجدد هذه القدرات، فإن العالم قد ينزلق في عماء بدئي.

كان القربان الحيواني عادة دينية عالمية في العالم القديم، فكان سبيلاً لإعادة تدوير القدرات المستنفذة التي تبقي العالم في الوجود. كما كان هناك اقتناع راسخ أن الحياة والموت، الخلق والدمار، متلازمة لا تنفصم. وكان الناس يدركون أنهم أحياء لأن مخلوقات أخرى كانت تبذل حياتها من أجلهم، لهذا السبب كان القربان الحيواني يُكرَّم لأنه كان يضحي بنفسه[3]. فدون موت كهذا قد لا يكون هناك حياة، لذلك تخيل البعض أن العالم جاء إلى الوجود كنتيجة للقربان عند بداية الزمن. وروى أخرون قصصاً عن إله خالق يذبح تنيناً ـ رمز شائع لما لا شكل له ولا يمكن تمييزه ـ لخلق الاستقرار من العماء. وعندما كانوا يعيدون تقديم هذه الأحداث الأسطورية في طقس القربان الإحتفالي، كان العابدون يشعرون أنهم قد تم رميهم في زمن مقدس.

في أغلب الأحيان كانوا يبدؤون بخطة جديدة، من خلال تأدية طقس يعيد تقديم عملية نشأة الكون الأصلية، كي يمدوا فاعليتهم الفانية الهشة بدفقة من القوة الإلهية. لا شيء بإمكانه أن يدوم، لو لم تبث الحياة فيه أو يوهب روحاً بهذه الطريقة[4].

اعتمد الدين في القديم على ما يسمَّى "الفلسفة المستمرة Perennial" لأنها كانت حاضرة ـ بشكل ما ـ في معظم الثقافات ما قبل الحديثة. كل شخص، أو شيء، أو تجربة على الأرض كان ظلاً لنسخة شاحبة لحقيقتة ما في العالم الإلهي[5].

بالتالي كان العالم المقدس هو النموذج الأصلي للوجود البشري، وبما أنه كان أكثر غنى، وأقوى، وأكثر ديمومة من أي شيء على الأرض. كان الناس رجالاً ونساءً ـ يريدون يائسين أن يشاركوا فيه. الفلسفة المستمرة ما تزال عاملاً أساسياً في يومنا هذا في حياة بعض القبائل البدائية. فالأروميون الأستراليون ـ على

سبيل المثال ـ يشعرون بعالم المقدس مثل فترة حلم أكثر حقيقية من عالم المادة. لديهم لمحات قصيرة لفترة أحلام في النوم، أو في لحظات الرؤية، إنه لا زمن له و"في كل حين". إنه يشكل سقوطاً ثابتاً إلى الخلف ـ مثل ستارة المسرح الخلفية ـ إلى الحياة العادية التي يوهنها الموت باستمرار، وبالتدفق والتغير الذي لا يتوقف.

فعندما يذهب أسترالي إلى الصيد فإنه ينمذج سلوكه بدقة كبيرة وفقاً لسلوك الصياد الأول First Hunter، لدرجة أنه يشعر أنه متحد معه كلياً، ومحاط في وجوده الأكثر فاعلية. بعد ذلك، عندما يسقط بعيداً عن تلك الوفرة البدئية، فإنه يخاف من أن عالم الزمن سوف يمتصه، ويخفضه وكل شيء يفعله إلى اللاشيئية[6]. كان هذا هو أيضاً شعور من عاشوا في العصور القديمة. فقط عندما كانوا يحاكون الآلهة في طقس، ويتخلون عن فرديتهم الضعيفة الموحشة في حياتهم الدنيوية، فإنهم كانوا يشعرون أنهم كانوا موجودين حقاً. أي أنهم كانوا ينجزون إنسانيتهم عندما يتوقعون أن يكونوا أنفسهم، عندما كانوا يكررون إيماءات وحركات آخرين[7]:

الكائنات البشرية اصطناعية حتى الأعماق[8]. إننا نسعى جاهدين باستمرار كي نتفوق على الطبيعة، وأن نقترب من مثل أعلى. فحتى في الوقت الحاضر عندما تخلينا عن الفلسفة المستمرة، نجد أن الناس يتبعون كعبيد ما تمليه الموضة، ويمارسون العنف على وجوههم وأشكالهم كي يعيدوا إنتاج المعيار الراهن للجمال. عبادة الشهرة تدل على أننا ما زلنا نبجل نماذج تلخص "البشرية الخارقة Super-Humanity". ويقطع الناس مسافات طويلة كي يروا معبوديهم Idols، ويشعرون بشحنة نشوية أن يكونوا في حضورهم. إنهم يقلدون ملابسهم، وسلوكهم. فكما يبدو، يميل البشر طبيعياً إلى ما هو نموذج أصلي، أو نموذج ما.

لقد طور حكماء عصر المحور نسخة أكثر صدقية لهذه الروحانية، وعلموا الناس البحث عن المثل الأعلى والذات النموذجية في داخلهم.

لم يكن عصر المحور كاملاً، فأحد أشكال فشله كان لامبالاته تجاه النساء. لقد تطورت هذه الروحانيات ـ جميعها تقريباً ـ في بيئة مدينية تهيمن عليها سلطة عسكرية ونشاط تجاري عدواني حيث كادت النساء أن يفقدن المكانة

التي نعمن بها في اقتصاد زراعي أكثر. ليس هناك حكيمات في عصر المحور وحتى عندما سمح لهن القيام بدور أكثر فاعلية في الدين الجديد، كان يتم تحييدهن. لم يكن حكماء عصر المحور كارهين للنساء، لكن بكل بساطة لم يلحظوهن معظم الوقت. فعندما تحدثوا عن "الإنسان العظيم" أو "الإنسان المستنير" فإنهم لم يكونوا يقصدون الرجال والنساء، على الرغم من أن معظمهم إذا ما تم تحديهم لكانوا اعترفوا أن النساء كن قادرات أيضاً على هذا التحرر.

بدقة لأن مسألة النساء كانت هامشية في العصر المحوري، لذلك وجدت أي نقاش مستمر لهذا الموضوع كان مشتتاً. وكلما حاولت الخوض في هذه القضية كانت تبدو تطفلاً، وأشك في أنها تستحق الدراسة لوحدها. يبدو الأمر وكأنما حكماء عصر المحور كانوا كارهين للنساء مثل بعض آباء الكنيسة على سبيل المثال.

لقد كانوا رجال عصرهم، ومنشغلين جداً بالسلوك العدواني لجنسهم لدرجة أنهم لم يعيروا النساء اهتماماً. لا نستطيع تتبع مصلحي عصر المحور بعبودية، فإن نفعل ذلك، فإننا ننتهك أساساً روح عصر المحور التي أكدت أن هذا النوع من المطابقة توقع الناس في رؤية غير ناضجة عن أنفسهم. ما بوسعنا فعله هو أن نوسع المثل الأعلى لعصر المحور: اهتمام كوني تجاه كل إنسان، من بينهم الجنس النسائي. وعندما نحاول أن نعيد خلق نظرة عصر المحور، يتوجب علينا أن نجلب أفضل رؤى الحداثة إلى الطاولة.

لم تتطور شعوب عصر المحور بطريقة متسقة، لأن تطور كل شعب وفق إيقاعه الخاص به. وأحياناً كان يتم إنجاز رؤية كانت جديرة حقاً بعصر المحور، لكنها بعدئذ تراجعت عنها. فسكان الهند كانوا دائماً في طليعة تقدم عصر المحور. وفي إسرائيل، أنبياء وكهنة، ومؤرخون تناولوا المثل الأعلى من حين لآخر حتى تم نفيهم إلى بابل في القرن السادس، وتعرضوا لفترة قصيرة من الإبداعية المركزة غير العادية. أما في الصين، كان هناك تقدم إضافي بطيء حتى طور كونفوشيوس الروحانية المحورية التامة الأولى في أواخر القرن السادس. بينما مضى الإغريق - في البداية - في اتجاه مختلف تماماً عن الشعوب الآخرى.

لقد اعتقد جاسبر أن عصر المحور كان أكثر معاصرة مما كان فعلياً. كما نوه أن بوذا، ولاوتزي، وكونفوشيوس، وموزي Mozi، وزرادشت عاشوا بشكل أو بأخر في الفترة الزمنية ذاتها. لكن الدراسات الحديثة قد نقحت هذا التاريخ. من المؤكد الآن أن زرادشت لم يعش خلال القرن السادس بل في فترة أقدم بكثير. كما أن من الصعب جداً تحديد تاريخ بعض هذه الحركات بدقة، في الهند - على وجه الخصوص - حيث كان الاهتمام بالتاريخ قليلاً، ولعدم القيام بمحاولة للاحتفاظ بسجلات تاريخية دقيقة. فعلى سبيل المثال، يوافق معظم دارسي التراث الهندي، أن بوذا قد عاش بعد قرن تالٍ مما كان يعتقد سابقاً. وأن لاوتزي ـ الحكيم الداوي Daoist ـ لم يعيش في القرن السادس كما اعتقد غاسبر. بدلاً من أن يكون معاصراً لكونفوشيوس وموزي، فبالتأكيد عاش في القرن الثالث. لقد حاولت أن أضمِّن معظم النقاشات الدراسية الحديثة، غير أن الكثير من هذه النقاشات قد يكون تخمينياً فقط، ومن المحتمل أنها لن تكون معروفة بشكل يقيني أبداً.

لكن على الرغم من هذه الصعوبات، فإن التطور العام لعصر المحور يعطينا فعلاً رؤية داخل التطور الروحي لهذا المثل الأعلى المهم. ولسوف نتتبع المسار التاريخي لهذه العملية، راسمين تقدم شعوب العصر المحوري الأربعة جنباً إلى جنب، ونراقب النظرة الجديدة وهي تضرب جذورها تدريجياً، لتبلغ تصاعداً تدريجياً، وفي النهاية لتخبو في نهاية القرن الثالث. لكن ذلك لم يكن نهاية القصة على أية حال.

فرواد عصر المحور قد وضعوا الأسس التي استطاع الآخرون أن يبنوا عليها. وسيحاول كل جيل، أن يكيف هذه الرؤى الأصلية وفق ظروفه الخاصة، وذلك يجب أن يكون مهمتنا في أيامنا هذه.

الفصل الأول

الشعوب المحورية

من 1600 ـ 900 ق.م

الناس الأول الذين حاولوا إيجاد روحانية محورية كانوا رعاة يعيشون على السهول في الجنوب الروسي، الذين أسموا أنفسهم الآريين. لم يكن الآريون جماعة إثنية متميزة، ولذلك لم تكن هذه التسمية كلمة عرقية بل تأكيداً على الاعتزاز، إذ كانت تعني "نبيلاً" أو "مجيداً". كان الآريون شبكة مفككة الصلة من قبائل تجمعها ثقافة مشتركة. لكنهم كانوا يتكلمون لغة تشكل الأساس لعدة ألسنة آسيوية وأوربية، ويسمون أيضاً هندو أوربيين.

لقد عاشوا على السهول القوقازية منذ نحو 4500، لكن بحلول منتصف الألف الثالثة بدأت بعض القبائل تتجول أبعد فأبعد في السهول حتى وصلت إلى ما نسميه الآن اليونان، وإيطاليا، واسكندينافيا وألمانيا. أما الآريون الذين بقوا في السهول فتفرقوا تدريجياً، وأصبحوا شعبين منفصلين يتكلمون أشكالاً مختلفة من اللغة الهندو أوربية الأصلية. استخدم أحدهما اللهجة الأفستية Avestan، والآخر شكلاً مبكراً من السنسكريتية. كانوا قادرين على الحفاظ على التواصل لأن في هذه المرحلة كانت لغتيهما متشابهتين كثيراً. وحتى نحو عام 1500 استمروا في العيش سوياً، وكانوا يشتركون بالتراثات الثقافية والدينية ذاتها.

كان وجودهم يتسم بالهدوء والاستقرار، إذ لم يستطع الآريون الترحال بعيداً لأن الخيول لم تكن قد دجنت بعد. وبالتالي كانت آفاقهم محاطة بالسهول، فزرعوا أرضهم، ورعوا أغنامهم وماعزهم وخنازيرهم، وكانوا يعلون شأن

الاستقرار والإستمرارية. لم يكونوا شعباً محارباَ. فعدا بعض المناوشات التي كانت تحدث فيما بينهم، أو مع مجموعات منافسة أخرى، لم يكن لهم أعداء، ولا طموح فتح منطقة جديدة. كان دينهم بسيطاً ومثالياً. ومثلهم مثل شعوب قديمة أخرى، شعر الآريون بقوة خفية داخلهم، وفي كل شيء شاهدوه وسمعوه ولمسوه. فالعواصف، والرياح، والأشجار، والأنهار لم تكن غير شخصية، ظواهر لا عقل لها. بل شعروا بصلة قرابة معها، وبجلّوها كإلهية. فالبشر، والآلهة، والحيوانات، والنباتات، وقوى الطبيعة، كلها كانت تمظهرات لنفس "الروح" الآلهية التي أسماها الأفستيون Mainyu وأسماها الناطقون بالسنسكريتية manya أنها أحيتهم، وحافظت عليهم، وربطتهم جميعاً سوياً.

مع الزمن، طور الآريون مجمع آلهة أكثر رسمية. ففي عصر مبكر جداً عبدوا إله السماء وأسموه Dyaus pitr، خالق العالم[2]. لكنه ـ مثل آلهة عليَّة أخرى كان بعيداً جداً لدرجة أنه قد تم استبداله بآلهة أخرى يمكن الوصول إليها، والتي كانت تتماهى مع قوى الطبيعة والكون. Varuna حافظ على استقرار الكون، وميثرا Mathra كان إله العاصفة والرعد والمطر الواهب للحياة. مازدا Mazda رب العدل والحكمة كان مرتبطاً بالشمس والنجوم. وإندرا Indra إله محارب قتل تنيناً ثلاثي الرؤوس يدعى Vritra، وجلب النظام والاستقرار من العماء. أما النار التي كانت حاسمة لمجتمع متحضر كانت أيضاً إلهاً أسماه الآريون "أجني" Agni، الذي لم يكن فقط الإله الراعي للنار، بكل كان النار التي كانت تشتعل في كل موقد. حتى النباتات المسكرة التي ألهمت الشعراء الآريين كان لها إله يدعى "هاوما" في اللغة الأفستية، وسوما Soma في السنسكريتية:

لقد كان كاهناً حمى الشعب من المجاعة، واعتنى بقطعانهم من الماشية.

أسمى الآريون الأفستيون آلهتهم كلمة daevas، أي " النيرون" وameshe أي الخالدون. هاتان الكلمتان في السنسكريتية أصبحتا deavs وamrita[3]. لا أحد من هذه الكائنات الإلهية كان ما نسميه عادة "آلهة" في أيامنا هذه. إنها لم تكن

كلية القدرة، وليس لها سيطرة مطلقة على الكون. بل كانت مثل كائنات بشرية وكان على جميع قوى الطبيعة أن تخضع للنظام المقدس الذي يضم الكون سوياً. الشكر لهذا النظام، فالفصول تتعاقب في مسار معلوم، والمطر يهطل في أوقات معلومة، والمحاصيل نمت كل سنة في الشهر المحدد. أسمى الآريون الأفستيون هذا النظام آشا asha، بينما أسماه متكلمو السنسكريتية ريتا rita، لقد جعل الحياة ممكنة، وأبقى كل شيء في مكانه الملائم، وحدد ما كان صحيحاً.

اعتمد المجتمع البشري على هذا النظام المقدس، فكان على الناس أن يشددوا على عقد اتفاقيات حول حقوق الرعي، والزواج، وتبادل السلع، وإذا ما ترجمت آشا وريتا على شكل مصطلحات اجتماعية فإنها كانت تعني الولاء، والصدق، والاحترام، والمثل التي كان يجسدها فارونا varuna، حارس النظام، وميثرا مساعده. فهذان الإلهان كانا يشرفان على جميع الاتفاقيات الموثقة التي كانت تنتهي بيمين مغلّظ. لقد تعامل الآريون مع الكلمة المنطوقة بجدية كبيرة. فالكلام - مثل جميع الظواهر الأخرى - كان إلهاً adeva.

لم يكن الدين الآري بصرياً جداً، فحسب ما نعرف، لم يصنع الآريون تماثيل لآلهتهم، لكن بدلاً من ذلك وجدوا أن السماع كان يقربهم من المقدس. وبصرف النظر عن معنى الكلام، فمجرد صوت أنشودة كان مقدساً، وحتى مقطع واحد بوسعه أن يضم الإلهي. فما أن يتم النطق بنذر حتى يغدو ملزماً أبداً، والكذبة كانت شراً تماماً، لأنها كانت تحرف القدرة المقدسة الكامنة في الكلمة المنطوقة[4]. لم يفقد الآريون هذا الشعور حيال الصدق المطلق.

ففي كل يوم كان الآريون يقدمون قرابين إلى آلهتهم كي تزودها بالطاقة التي استهلكتها في الحفاظ على نظام العالم، كان بعض هذه الشعائر بسيطاً جداً. فصاحب القربان كان يرمي حفنة القمح أو اللبن، أو الوقود في النار كي يغذي أجني agni، أو يدق مسحوق السوما، أو يقدم العجينة إلى الإلهات الماء، كي يصنع شراباً مقدساً. لقد قدموا الماشية أضاحي. لم يكونوا يزرعون

محاصيل كافية لاحتياجاتهم، لذلك كان القتل ضرورة مأساوية. كما أنهم كانوا يأكلون لحم القرابين المذبوحة طقوسياً من قبل البشر. فعندما كان يقدم حيوان طقوسياً إلى الآلهة، فإن روحه لا تخمد، بل كانت تعود إلى Geush urvan (روح الثور) الحيوان المدجن البدئي. لقد شعر الآريون أنهم قريبين جداً من ماشيتهم. وأكل لحم حيوان لم يكن مقدماً كقربان كان يعد ذنباً، لأن الذبح غير المقدس كان يدمره إلى الأبد، وبالتالي انتهاكاً للحياة المقدسة التي جعلت جميع المخلوقات أقارب[5]. لم يفقد الآريون أبداً هذا الاحترام العميق "للروح" التي كانوا يتشاركونها مع الآخرين، وهذا سيغدو مبدءاً حاسماً لعصرهم المحوري.

إزهاق حياة أي كائن كان عملاً مخيفاً، ويجب ألا يعامل باستخفاف. كما أجبر الطقس القرباني الآريين على مواجهة هذا القانون الأساسي للوجود. وبالتالي أصبحت الأضحية، وستبقى الرمز المنظم لثقافتهم، ومن خلاله فسروا العالم ومجتمعهم.

لقد اعتقدوا أن الكون ذاته له أصله في تقدمة القربان. لقد قيل إن الآلهة - في البداية - العاملة بالامتثال الإلهي قد خلقت الكون في سبع مراحل. أولاً خلقت السماء التي كانت مكونة من حجارة مثل قوقعة دائرية ضخمة، وبعدئذ الأرض التي استقرت مثل صحن مسطح على الماء الذي تجمع في قعر القوقعة، ثم خلقت النار.

لكن في البداية كل شيء كان ساكناً ودون حياة. لم يدم الأمر طويلاً حتى قدمت الآلهة قرباناً ثلاثياً: سحق النبات، وقتل الثور، والإنسان حتى أصبح العالم حياً. بدأت الشمس تتحرك عبر السماء، وأُرسيَ تبدل الفصول، وولدت القرابين الثلاثية من نوعها. فالأزهار، والمحاصيل، والأشجار انبثقت من النبات ذي اللحاء. وانبثقت الحيوانات من جثة الثور، وجثمان الإنسان الأول أدى إلى ولادة الجنس البشري، لأن الآريين كانوا يرون الأضحية خلاقة دائماً. فمن خلال التفكير في هذا الطقس أدركوا أن حيواتهم كانت تعتمد على موت مخلوقات أخرى. والمخلوقات البدئية الثلاثة قد أرست حياتهم، ومكنت الآخرين من أن

يعيشوا. ليس ممكناً تحقيق تقدم ـ سواء كان مادياً أو روحياً ـ من دون تضحية بالنفس[6]. وهذا أيضاً سيغدو أحد مبادئ عصر المحور.

لم لدى الآريين مزارات ومعابد تفصيلية. فالأضحية كانت تقدم في الهواء الطلق على قطعة أرض صغيرة مميزة عن بقية المستوطنة بأخدود. وجميع عمليات الخلق السبع كانت ممثلة رمزياً في هذه الحلبة: الأرض ممثلة بالتراب، والماء في الأوعية، والنار في الموقد، وكانت السماء الصخرية حاضرة في سكين الصوان، والنبات في سوق السوما المسحوقة، والثور في قربان، والإنسان الأول في الكاهن. واعتقدوا أن الآلهة كانت حاضرة أيضاً، فالكاهن خبير في التراتيل القربانية، كان يرتل ترنيمة كي يدعوا الآلهة إلى مأدبة. وعندما كانوا يدخلون الحلبة المقدسة، كانت الآلهة تجلس على العشب المقصوص حديثاً، والمكوم حول المذبح كي تستمع إلى ترانيم التعظيم هذه. فصوت هذه المقاطع الموحاة كان بحد ذاته إلهاً، فبينما كانت الترنيمة تملأ الهواء، وتدخل إلى وعيهم، كان الجميع يشعرون أنهم محاطين بالألوهية، ومندمجين بها. وأخيراً كان يكرر القربان البدئي. يذبح الثور، وتعصر السوما، ويضع الكاهن أفضل أجزاء القرابين على النار. بحث يستطيع إله النار أن يقدمها إلى أرض الآلهة. كان الاحتفال ينتهي بطعام جماعي مقدس، أي الكاهن والمشاركون كانوا يتشاركون مع آلهتهم في وجبة مقدسة. يأكلون من اللحم المقدس، ويشربون السوما المسكرة التي بدت أنها كانت ترفعهم إلى مستوى أعلى من وجودهم.

كان للأضحية فوائد عملية أيضاً، وكان يشرف عليها فرد من الجماعة ـ التي كانت تأمل أن تلك الآلهة قد لبت دعوته وحضرت، فالأضحية تساعده في المستقبل. مثل أي عمل من أعمال الكرم، كان الطقس يفرض على الآلهة أن تستجيب بالمثل، فكان الكاهن يذكرها أن تحمي أسرة الراعي، ومحاصيله، وقطيعه. كانت الأضحية تعلي من مكانة مقدمها في الجماعة. فضيوفه البشر كانوا مدينين له، مثلما كانت الآلهة، فتقديم الثور للمأدبة، وإعطاء الكهنة الرسميين هبات جميلة، كان يثبت أنه كان رجلاً معتبراً[8]. فوائد الدين كانت مادية صرفة ودنيوية. أراد الناس من الآلهة أن تمدهم بالأبقار، والثروة والأمن. في

البداية، لم يكن لدى الآريين أمل بحياة بعد ا لموت، لكن بحلول نهاية الألف الثانية بدأ يعتقد بعضهم أن الأثرياء الذين قدموا أضاحي كثيرة، سيكونون قادرين أن ينضموا إلى الآلهة في فردوس بعد موتهم[9].

بلغت هذه الحياة البطيئة غير الحافلة بالأحداث نهايتها عندا اكتشف الآريون تقانة حديثة. ففي نحو عام 1500 ق.م بدأوا يتاجرون مع مجتمعات أكثر تقدماً في جنوب القوقاز، وفي بلاد الرافدين، وفي أرمينيا. لقد تعرفوا على الأسلحة البرونزية من الأرمن، وشاهدوا وسائل جديدة للنقل: أتقنوا ـ في البداية ـ صناعة عربات خشبية تجرها الثيران، وبعدئذ صنعوا العربة الحربية. كما تعلموا كيف يدجنون الخيول البرية في السهوب، وكيف يسرجوها إلى عرباتهم، فنعموا بمباهج التنقل وأصبحوا قادرين أن يسافروا إلى مسافات بعيدة بسرعة عالية. وأسلحتهم المتفوقة مكنتهم من شن غارات سريعة على مستوطنات مجاورة، وأن يسرقوا الماشية والمحاصيل. كان هذا أكثر ربحية ونشوة من الزراعة. قسم من الرجال الأصغر سناً خدموا كمرتزقة في جيوش الممالك الجنوبية، فأصبحوا خبراء في حروب العربات. ولدى عوتهم إلى السهوب كانوا يضعون مهاراتهم الجديدة قيد الاستخدام، وبدأوا يسرقون مواشي جيرانهم. قتلوا، وسلبوا، ونهبوا ناشرين الرعب وسط الآريين الأكثر محافظة، هؤلاء كانوا مربكين، ومذعورين ولا يدرون ماذا يفعلون، وكانوا يشعرون أن حياتهم قد انقلبت رأساً على عقب.

تصاعد العنف في السهوب كما لم يكن من ذي قبل. فحتى القبائل الأكثر تقليدية التي كانت تريد أن تترك لوحدها، كان عليها أن تتعلم الأساليب العسكرية الجديدة كي تدافع عن نفسها. وهكذا فقد بدأ عصر بطولي. القوة كانت صواباً، فسعى الزعماء إلى الربح والعظمة، وتغنى المنشدون الجوالون بالعدوان، والشجاعة المتهورة، والبسالة القتالية. لقد بشر الدين الآري القديم بتبادل المنافع، وبالتضحية بالنفس، واللطف مع الحيوانات. وهذا لم يعد يعجب سارقي المواشي، الذين بطلهم Indra القوي قاتل التنين وراكب عربة على غيوم السماء[10]. لقد غدا إندرا الأنموذج الذي كان يطمح إليه الغزاة. "أبطال مع خيول

نبيلة، متلهفون للمعركة، محاربون مختارون ينادون إليَّ في نزال". كما صاح "أنا إندرا الكريم، أثير النزاعات، أحرك الغبار، صاحب القوة الخارقة"[11]. فعندما كانوا يحاربون، ويقتلون، ويسرقون رعاة البقر الآريين، كانوا يشعرون أنهم متحدين مع إندرا، الإله العدواني الذي أرسى استقرار العالم بقوة السلاح.

لكن الآريين الناطقين بالأفستية الأكثر تقليدية فقد راعهم عدوان إندرا الصريح فبدأت تتنابهم شكوك حيال الآلهة. هل جميع الآلهة عنيفة ولا أخلاقية؟ فالأحداث على الأرض كانت تعكس أحداثاً كونية في السماء، هكذا فسروا هذه الغزوات المرعبة، أي لا بد أن لها نموذجاً إلهياً. فسارقو المواشي الذين حاربوا تحت راية أندرا، لا بد أنهم كانوا نظراؤه الأرضيون. لكن من كانت الآلهة التي كانت تهاجم في السماء؟ فالآلهة الأكثر أهمية مثل فارونا varuna، ومازدا، وميثرا حارس الاستقرار أسبغوا عليه لقب التعظيم الرب أهورا. وربما كانت الآلهة المسالمة التي دافعت عن العدالة والصدق، والاحترام للحياة والملكية كانت عرضة لهجوم يشنه إندرا والآلهة الأكثر عدوانية على أية حال هذه كانت نظرة كاهن حالم زعم في عام 1200 أن أهورا مازدا قد كلفة ان يعيد الاستقرار إلى السهوب[12]، وكان اسمه زرادشت.

عندما تسلم مهمته الإلهية كان هذا النبي في الثلاثين من عمره، ومتعمقاً في الدين الآري. من ا لمحتمل أنه درس الكهنوت منذ أن كان في سن السابعة، فكان متعمقاً جداً في التراث لدرجة أنه كان باستطاعته أن يرتجل ترانيم مقدسة إلى الآلهة أثناء القربان. لكنه كان متضايقاً جداً من الغارات التي كانت تشن على القطعان. بعد إكمال تعليمة أمضى ردحاً من الزمن في نقاشات مع كهنة آخرين، وتأمل في الطقوس كي يجد حلاً للمشكلة. فذات صباح بينما كان يحتفل بمهرجان الربيع، نهض عند الفجر، ونزل إلى النهر كي ينقل ماء من أجل القربان اليومي. خاض فيه حتى غمر نفسه في العنصر الطاهر، ولدى خروجه رأى كائناً بهياً واقفاً على ضفة النهر، أخبر زرادشت أن اسمه هو vohu manah (أي هاتف خير). وبعد أن تأكد من نوايا زرادشت الخيرة قاده إلى حضرة ahuras (أهورا الأعظم: مازدا رب الحكمة والعدل الذي كان محاطاً بسبعة من

أتباعه المشعين. طلب منه ان يعبئ شعبه في حرب مقدسة ضد الرعب والعنف[13]. فالقصة حافلة بالوعد ببداية جدية. عصر جديد قد بزغ: كان على كل امرئ أن يتخذ قراراً، الآلهة والبشر على السواء. هل كانوا إلى جانب الاستقرار، أم إلى جانب الشر؟

نظرة زرادشت أقنعته أن الرب مازدا لم يكن مجرد واحد من الآلهة العظام بل كان الإله الأعلى، فلم يعد مازدا محايثاً في العالم الطبيعي بالنسبة لزرادشت وأتباعه، بل غدا متعالياً، مختلفاً في النوع عن أية ألوهة أخرى[14]. هذه لم تكن وحدانية تامة، أي الإيمان بإله واحد فريد. فالكائنات السبعة المنيرة بين أتباع مازدا - الخالدون المقدسون - كانوا أيضاً آلهة: منهم من يعبر عن صفة من ألقاب مازدا، ويرتبطون بالطريقة التقليدية بواحدة من عمليات الخلق الأصلية السبع. مهما يكن من أمر، كانت نظرة زرادشت تنطوي على ميل إلى الوحدانية، "الرب مازدا قد حل محل الخالدين المقدسين، لقد كانوا من عقل واحد، صوت واحد، وفعل واحدمعه"[15]. لم يكن مازدا الإله الوحيد، بل كان الأول الذي وُجِدَ. لقد توصل زرادشت إلى هذه الفكرة - ربما - عن طريق تأمل قصة الخلق التي قالت أن في البداية كان هناك نبات واحد، حيوان واحد، وكائن بشري واحد. كان من المنطقي افتراض أنه كان هناك فقط إله واحد أصلاً[16]. لكن زرادشت لم يكن مهتماً بالتأمل اللاهوتي حباً في اللاهوت. بل كان منشغلاً كلياً بالعنف الذي دمر عالم السهوب المسالم، وكان يسعى جاهداً لإيجاد سبيل لوضع حد له. فالترانيم السبع عشر المنسوبة إلى زرادشت عابقة بضعف مذهل، وعجز وخوف:

"أعلم لماذا أنا عاجز، يا مازدا"، " لأنني أملك أبقاراً قليلة، ورجالاً قليلين". جماعته كانت مرعوبة من الغزاة " المحملين بأفعال الشر لتدمير الحياة". محاربون قساة يحاربون تحت إمرة إندرا الشرير، الذي شن حرباً على محبي السلام، وعلى الجماعات التي تلتزم بالقانون. لقد عاثوا فساداً، وسلبوا مستوطنة تلو أخرى، قتلوا القرويين، وحملوا ثيرانهم وبقراتهم. كان الغزاة يعتقدون أنهم أبطال يحاربون إلى جانب إندرا، لكن الترانيم توضح لنا كيف رأى ضحاياهم العصر البطولي. فحتى البقرة اشتكت إلى الرب مازدا:

"من أجل من كونتني؟ من صاغني؟ فالسخط والعنف والغزو والوحشية والقوة تجعلني أسيرة." عندما أجاب الرب مازدا أن زرادشت فقط من بين الآريين استمع إلى تعاليمه، وسيكون حاميها، لم تفاجئ البقرة. ما فائدة زرادشت؟ كانت تريد عوناً أكثر فاعلية. صاحت الترانيم بصوت عالٍ طالبة العدالة. أين كان الخالدون المقدسون أوصياء آشا asha؟ متى سيجلب الرب مازدا الخلاص[18]؟

عذاب وعجز شعبه قد صدم زرادشت ودفعه إلى نظرة متضاربة ممزقة. بدا العالم مستقطباً، ومنقسماً إلى معسكرين لا يتصالحان. فإندرا وغزاة القطعان ليس بينهما شيء مشترك مع الرب مازدا، فلا بد أنهم قدموا الولاء إلى أهورا مختلف. لقد استنتج زرادشت أنه إذا كان هناك أصل واحد لكل شيء طيب وخيّر، فلا بد أن يكون هناك إله شرير يلهم وحشية الغزاة. هذه الروح العدائية Angra Mainu كان ـ كما اعتقد ـ مساوياً في القوة للرب مازدا، لكنه كان ضده. في البداية كان "هناك روحان بدئيان، توأم كتب عليهما الصراع" مع بعضهما، كل منهما اتخذ خياراً. فالروح الشريرة رمى قدره مع الكذب، فكان خلاصة الشر. وكان العدو الأبدي لآشا ولكل شيء حق وصادق. لكن الرب مازدا انحاز إلى الخير، وخلق الخالدين المقدسين والبشر كحلفاء له. يتوجب على كل رجل وامرأة وطفل أن يتخذ نفس الاختيار بين آشا وبين الكذب druj[19].

طوال أجيال عبد الآريون إندرا وآلهة أخرى، لكن زرداشت توصل إلى أن لا بد أن الالهة قد قررت أن تحارب إلى جانب الروح العدائية[20]، وغزاة القطعان كانوا نظرائها على الأرض. فالعنف غير المسبوق في السهوب جعل زرادشت يقسم مجمع الآلهة الآرية إلى جماعتين متحاربتين. فالصالحون يجب ألا يقدموا القرابين إلى إندرا والآلهة الأخرى، ويجب ألا يدعونها إلى المنطقة المقدسة. بدلاً من ذلك يجب أن يكرسوا أنفسهم كلياً إلى الرب مازدا، وخالدوه المقدسون إلى أهورا، الآخرين الذين يستطيعون وحدهم أن يجلبوا السلام والعدل والأمان. والآلهة، وغزاة القطعان وتابعوهم الأشرار يجب أن يتم تدميرهم وهزيمتهم[21].

الحياة كلها قد أصبحت الآن أرض معركة، ولكل امرئ دور فيها، فحتى النساء والخدم يمكنهم أن يقدموا مساهمة قيمة. قوانين الطهر القديمة التي نظمت السلوك الطقوسي قد أعطيت معنى جديداً الآن. فالرب مازدا خلق عالماً كاملاً نظيفاً تماماً لأتباعه، لكن الروح العدوانية قد غزت الأرض وملأتها بالذنوب والعنف والغبار، والقذارة، والمرض، والموت، والفساد.

لذلك يجب على الصالحين الحفاظ على بيئتهم المباشرة خالية من القذارة والتلوث. بفصلهم الطاهر عن الدنس، والخير عن الشر فإنهم يحررون العالم لصالح الرب مازدا[22].

يجب أن يصلوا خمس مرات يومياً. ففي فصل الشتاء كانت الآلهة في صعود، لذلك يتوجب على الصالحين في هذا الفصل ـ أن يقاوموا تأثيرها من خلال التفكير في خطر druj. يجب أن ينهضوا ليلاً عندما تكون الأرواح الشريرة تجوس الأرض، وأن يرموا البخور في النار لتقوية أجني agni في الحرب ضد الشر[23].

بيد أن ما من معركة تستمر إلى الأبد. فالحياة في العالم المسالم القديم بدت حَلَقَية: الفصول تلت بعضها، والنهار يتلو الليل، والحصاد يتلو الزرع. لكن لم يؤمن زرادشت بهذه الإيقاعات الطبيعية. العالم كان مندفعاً إلى الأمام باتجاه كارثة. لقد عاش وأتباعه في زمن يحيط به تسعير نزاع كوني، لكنهم سيرون النصر النهائي للخير والقضاء على قوى الظلام. بعد معركة رهيبة سينزل الرب مازدا والخالدون إلى عالم الرجال والنساء ويقدمون قرباناً. وسيكون هناك حساب كبير، وسيمحى الأشرار عن وجه الأرض، وسيتدفق نهر مشتعل في الجحيم، ويحرق الروح العدوانية.

بعد ذلك سيعاد الكون إلى كماله الأصلي. وستتحول الجبال والوديان إلى سهل كبير يعيش البشر والآلهة جنباً على جنب، يعبدون الرب مازدا إلى الأبد. ولن يكون هناك موت. فالكائنات البشرية ستكون مثل آلهة، خالية من المرض والشيخوخة والموت[24].

"إننا نعرف الآن هذا النوع من النظرة الأخروية، لكن لم يكن هناك ما يماثلها في العالم القديم قبل زرادشت. لقد انبثقت من سخطه على معاناة شعبه وحنينه إلى العدل. أراد أن يعاقب الأشرار مقابل الألم الذي كانوا يوقعونه بالصالحين البريئين. لكن مع الزمن بدأ يدرك أنه لن يكون حياً ليرى الأيام الأخيرة.

عالم آخر قد أتى بعده، وجود كائن بشري خارق "الذي هو أفضل من رجل صالح[25] أسماه saosh yant gaths الواحد الذي سيجلب الفائدة" إنه هو وليس زرادشت سيقود جيوش الرب أهورا إلى المعركة النهائية.

بعد قرون تالية ـ عندما بدأ العصر المحوري، حاول جميع الفلاسفة والأنبياء والمتصوفون مواجهة وحشية وعدوانية عصرهم من خلال الترويج لروحانية قائمة على اللاعنف. لكن نظرة زرادشت الرضّية بصورها من حرق ورعب وإبادة كانت انتقامية. فحياته تذكرنا أن الاضطراب السياسي والوحشية والمعاناة لا تولد بكل نجاح ديناً على النموذج المحوري، بل تستطيع أن تلهم تقوى مقاتلة تستقطب الواقع المعقد في مجالات مبسطة جداً من الخير والشر. نظرة زرادشت كانت صراعية حتى العمق. وسنرى أن agon "المسابقة التي كانت سمة شائعة في الدين القديم" لأحداث سباق كوني بين الخير والشر تحتل موقعاً مركزياً في رسالته. زرادشت كان ينتمي إلى العالم الروحي القديم. لقد أسقط عنف عصره على الإلهي وجعله مطلقاً.

لكن زرادشت في نظرته الأخلاقية الانفعالية لم يتطلع إلى الأمام، إلى عصر المحور. لقد حاول أن يدخل بعض أخلاقية في الروح العامة المحاربة. فالأبطال حقاً لا يرعبون أخوتهم من المخلوقات، بل حاولوا مواجهة العدوان. المحارب المقدس كان مكرساً للسلم، والذين اختاروا أن يحاربوا من أجل الرب مازدا كانوا صبورين، منضبطين، شجعاناً وسريعين في الدفاع عن جميع المخلوقات الصالحة من هجمات الأشرار[26] .ashavans (أبطال الاستقرار) يجب أن يحاكوا الخالدين المقدسين في اهتمامهم بالبيئة. فعلى سبيل المثال "الهاتف الخيّر" الذي تبدى

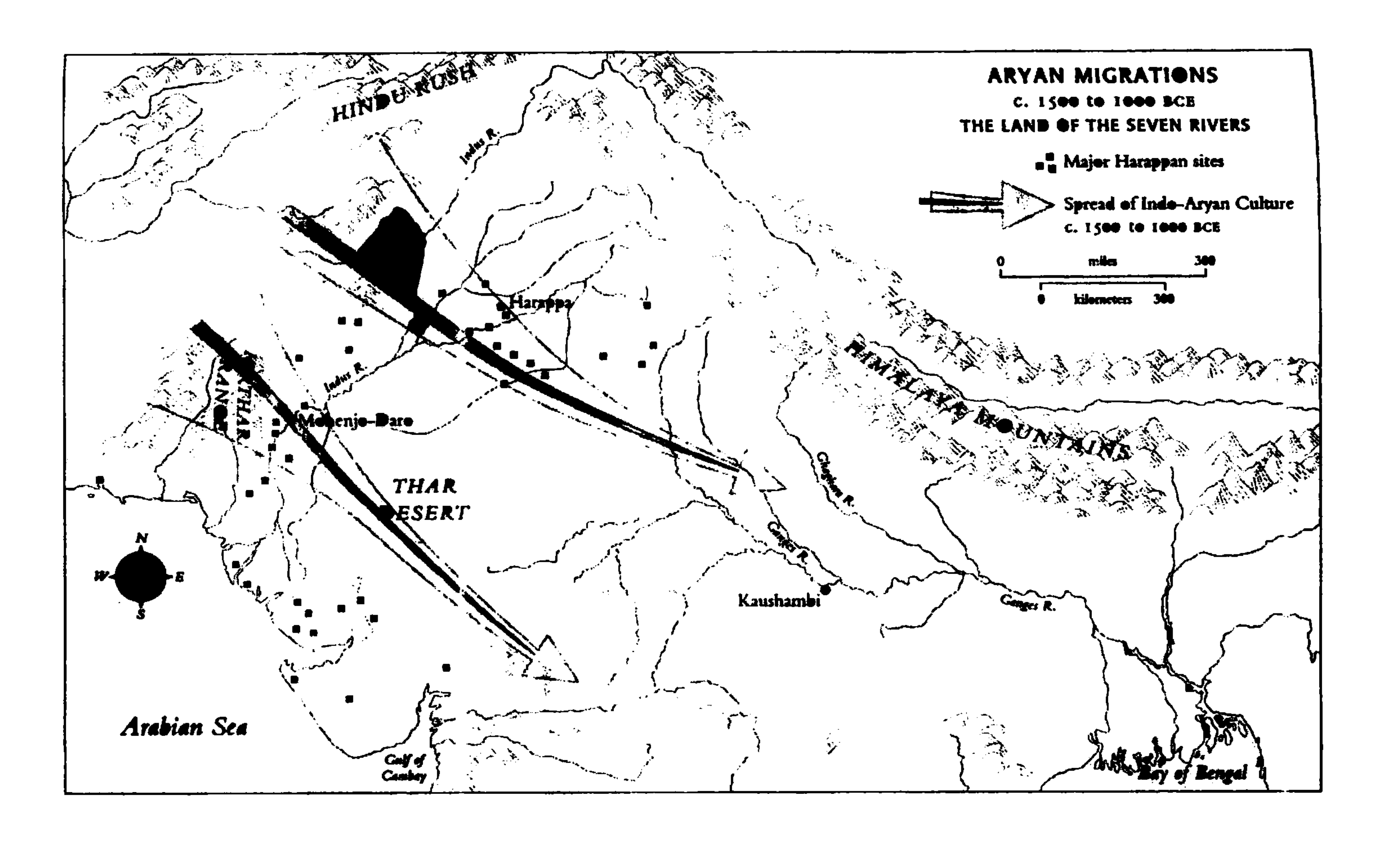
لزرادشت على ضفة النهر كان الحارس للبقرة، والأبطال يجب أن يسيروا على خطاه، لا على خطا الغزاة الذين كانوا يسرقون القطعان من المراعي، ويسرجونها إلى العربات، وقتلوها، وأكلوها دون طقس لائق[27].

فتجسيد العدالة الإلهية كان الحامي للسماء الصخرية، لذلك يتوجب على الأبطال أن يستخدموا أسلحتهم الصخرية للدفاع عن الفقراء والضعفاء[28]. عندما دافع الزرادشتيون عن الضعفاء، واعتنوا بأبقارهم، ونظفوا بيئتهم الطبيعية، أصبحوا واحداً مع الخالدين، وشاركوا في صراعهم ضد الروح العدوانية.

مع أن نظرة زرادشت كانت راسخة في التراث الآري القديم، فقد ألهمت رسالة زرادشت عدوانية كبيرة، إذ وجدها الناس متطلبة جداً، وتبشيره الموجه إلى النساء والفلاحين قد صدم البعض، وكذلك اعتقاده أن كل امرئ يستطيع بلوغ الفردوس، وليس النخبة فقط. وربما أُربك البعض برفضه للآلهة: فهل القوة هي التي تنتقم وليس إندرا[29]؟ فبعد تبشير لمدة سنوات في قبيلته لم يؤمن برسالته سوى شخص واحد، لذلك غادر القرية ووجد راعياً له في فيشتاسبا vishtaspa ـ زعيم قبيلة أخرى عمم الدين الزرداشتي في منطقته. وهنا عاش في بلاط الزعيم سنوات عديدة خائضاً معركة بطولية ضد الشر حتى النهاية العنيفة المريرة. فوفقاً لإحدى الروايات قتله كهنة منافسون أغضبهم رفضه للدين القديم. لا نعرف شيئاً عن تاريخ الزرادشتية بعد موته. ومع حلول نهاية الألف الثانية هاجر الآريون الأفستان جنوباً واستقروا في شرق إيران حيث أصبحت الزرادشتية الدين القومي، وبقيت ديناً إيرانياً مسيطراً. وما يدعو للدهشة أن سارقي القطعان الآريين الذين أدانهم زرادشت هم الذين أوجدوا الدين المستمر الأول في العصر المحوري المبني على مبدأ اللاعنف ahimsa بينما كان بعض الآريين الناطقين بالسنسكريتيه يخافون الدمار في السهوب، بدأ آخرون بالهجرة جنوباً، متنقلين في مجموعات صغيرة عبر أفغانستان، واستقروا أخيراً في الأراضي الخصبة في البنجاب بين روافد نهر Indus. أسموا موطنهم الجديد "أرض الأنهار السبع". هناك جدل كبير حول الاستيطان الآري في الهند[30].

فبعض العلماء ينكرون حدوث الاستيطان، بالقول أنهم الشعب الأصلي للهند الذي أوجد الحضارة التي تطورت في البنجاب في هذه الفترة. لم يترك الآريون سجلاً آركولوجياً عن هذه الفترة المبكرة في الهند. مجتمعهم كان متنقلاً، وعاش الناس في البرية أو في معسكرات مؤقته. مصادرنا الوحيدة هي فقط النصوص الطقوسية المكتوبة بالسنسكريتية المعروفة باسم "الفيدا" (أي المعرفة). لغة الفيدا مماثلة جداً للغة الأفستان، ومزاعمها الثقافية قريبة جداً من Gathas لدرجة أن من المؤكد تقريباً أن الفيدا هو الكتاب الآري المقدس. في أيامنا هذه، يقبل معظم المؤرخين أن خلال الألف الثانية استعمرت القبائل الآرية من منطقة السهوب وادي Indus فعلياً. لكنها لم تكن حركة جماهيرية ولا غزواً عسكرياً. إذ ليس هناك دليل على قتال أو مقاومة أو دمار واسع الانتشار. بدلاً من ذلك، من المحتمل أنه قد حدث تسلل إلى المنطقة من قبل بعض الجماعات الآرية المختلفة على مدى فترة طويلة.

عندما وصل الآريون الأوائل شاهدوا بقايا حضارة سابقة في وادي الأندوس[31] في ذروة قوتها ونجاحها (2300 ـ 2000 ق.م). كانت هذه الإمبراطورية الهندية القديمة أكبر من كل من مصر وبلاد الرافدين. كان فيها مدينتان جميلتان في Mohenjo – Dara في السند الحديثة، والأخرى هارابا Harappa على بعد نحو 250 ميلاً إلى الشرق. كما تم اكتشاف مئات من البلدات الأصغر منها ممتدة لمسافة 800 ميلاً على طول نهر الأندوس، و800 ميلاً أخرى على طول الساحل الغربي، كلها مبنية وفق نموذج شبكة متماثلة. كانت حضارة وادي الأندوس معقدة، وفيها شبكة تجارية قوية جداً كانت تصدر الذهب والنحاس والخشب، والعاج والقطن إلى بلاد الرافدين، وتستورد البرونز والقصدير والفضة واللازورد والحجر الصابوني.


ARYAN MIGRATIONS
c. 1500 to 1000 BCE
THE LAND OF THE SEVEN RIVERS
Major Harappan sites
Spread of Indo-Aryan Culture
c. 1500 to 1000 BCE
0
miles
300
0
kilometers
300
HINDU KUSH
Indus R.
Harappa
Indus R.
Mohenjo-Daro
THAR
DESERT
HIMALAYA MOUNTAINS
Ghaghara R.
Ganges R.
Kaushambi
Ganges R.
N
W
E
S
Arabian Sea
Gulf of
Cambay
Bay of Bengal

بكل أسف لا نكاد نعرف شيئاً عن الهاربانز، أو عن دينهم، مع أن هناك تلميحات معذبة إلى أن بعض عبادات دينية قد أصبحت شديدة الأهمية بعد عصر المحور ربما كانت مستمدة من حضارة وادي الأندوس. لقد عثر علماء الآثار على تماثيل صغيرة للإلهة الأم Mother Goddess، وعلى نقوش حجرية، وثلاثة أختام تصور شخصاً جالساً تحيط به حيوانات، يبدو أنه على شكل أحد أوضاع اليوغا. فهل كان هذا هو الإله شيفا Shiva. في الهندوسية القديمة، شيفا هو رب الحيوانات واليوغي العظيم، لكنه ليس إلهاً آرياً، ولا يرد ذكره في الفيدا السنسكريتية. ففي غياب أي دليل قوي لا يمكننا أن نثبت الاستمرارية. فعندما وصل الآريون الأوائل إلى المنطقة، فإن إمبراطورية هارابان كانت قد زالت عملياً. لكن ربما كان هناك بعض الاحتلالات في المدن المدمرة. ربما كان هناك تداخل وتبادل متبادل، ربما تبين بعض الآريين عناصر من دين محلي ودمجوها في دينهم.

لم يكن لدى المهاجرين الآريين رغبة بإعادة بناء المدن القديمة وإعادة إحياء الإمبراطورية. كانوا ينتقلون دائماً ويزدرون أمن حياة الاستقرار. اختاروا yoking yoga سرج خيولهم إلى العربات في بداية أية غارة. لم يكونوا مثل الزرادشتيين، إذ لم يكن لديهم اهتمام في وجود سلمي هادئ. لقد أحبوا عرباتهم الحربية، وسيوف البرونز الصلبة. كانوا رعاة بقر يكسبون عيشهم من سرقة مخزون جيرانهم. بينما حياتهم كانت تعتمد على سرقة المواشي، فقد كانت أكثر من رياضة، ونشاطاً مقدساً مع الطقوس التي أسبغت عليها نفحة من سلطة إلهية. أراد الآريون الهنود ديناً ديناميكياً، وكان أبطالهم محاربين رجالاً، ومحاربو العربة. لقد وجدوا الآلهة التي عبدها زرادشت مملة وسلبية. كيف يمكن لأي شخص أن يلهمه asura مثل varuna كان بكل بساطة جالساً في قصره السماوي منظماً العالم من مسافة آمنة؟ لقد فضلوا الآلهة المغامرة التي كانت تقود العجلات، بينما الآلهة كانت تجلس في قاعات بيوتهم[32].

بعد أن وطنوا أنفسهم في البنجاب فإن عقيدة فارونا، كان الزعيم asura مسبقاً في تراجع، وكان إندرا يصبح الإله الأعلى مكانة[33]. بلحيته المسترسلة

الشعثة، وبطنه الممتلئ بالسوما، وشغفه هو المعركة، فكان إندرا الآري النموذج النمطي الذي كان يطمح إليه جميع المحاربين.

في بداية الزمن رمى صاعقته المشعة على التنين ذي الرؤوس الثلاثة الذي منع تدفق المياه التي تهب الحياة، حتى أن الأرض تشققت من الجفاف. وهكذا فقد جعل إندرا العالم قابلاً للسكن بخوض معارك مرعبة ضد المفاجآت الكاسحة، وليس من خلال الجلوس في البيت مثلما فعل فارونا. في النصوص الفيدية، تنقل جميع فضائل فارونا إلى اندرا، الإدارة القانونية، والوصاية على الحقيقة ومعاقبة التزييف. لكن الحقيقة المزعجة التي بقيت بالرغم من تألقة هي أن اندرا كان قاتلاً وتمكن من أن يهزم التنين عن طريق الكذب والخداع. كانت هذه هي النظرة العنيفة والمضطربة لمجتمع متورط دائماً في حرب يائسة. فالترانيم الفيدية رأت العالم منغمساً في نزاع مرعب، ومنافسات حامية. فالآلهة Devas وasuras حاربت بعضها في السماء، بينما كان الأريون يكافحون من أجل البقاء على الأرض[34]. كان هناك عصر ندرة، والسبيل الوحيد الذي كان أمام الآريين لتثبيت أنفسهم في وادي الإندوس كان سرقة المواشي في المجتمعات المستقرة الأصلية، فهؤلاء هم النظراء الأرضيون لآلهة asuras الماكثة في البيت[35].

كان الآريون يعيشون حياة تقشف، يشربون كثيراً وأحبوا الموسيقا والمقامرة والخمرة. وحتى في هذه المرحلة المبكرة جداً أظهروا عبقرية روحية. فبعد فترة قصيرة من وصولهم إلى البنجاب بدأت نخبة متعلمة بجمع أقدم الترانيم Rig veda (أي المعرفة في قالب شعري)، وهي القسم الأرفع مكانة من بين الكتب الفيدية المقدسة. بلغ عدد الترانيم عند اكتمال جمعها 1028 ترنيمة في عشرة كتب. وهذه كانت مجرد جزء واحد من كمية ضخمة من الأدب شملت دواوين، وأغانٍ، وما نترات (صيغ نثرية قصيرة تستخدم في الطقوس)، وإرشادات، كي تتلى. كانت هذه النصوص والقصائد مصدر إلهام، كانت shruti "أي الذي يسمع" الوحي إلى العرافين العظام في الزمن القديم. لقد كانت سلطوية تماماً، غير مميزة بصياغة بشرية، إلهية وأزلية.

قد يكون بعض ترانيم الريغ فيدا مغرقاً في القدم، لأن عندما حطت القبائل الآرية رحالها في الهند كانت لغتها منقرضة. كانت القصائد ملك سبع جماعات صغيرة من أسر كهنوتية، تحتفظ كل جماعة بمجموعة منها، ولها الحق بنسخها، كانوا يرتلونها أثناء طقوس القربان. لقد حفظ أفراد الأسرة الترانيم غيباً، ونقلوها شفوياً إلى الجيل التالي. لم تدون الريغ فيدا حتى الألف الثانية للميلاد. فمنذ قدوم التعليم تراجعت قدرات ذاكراتنا، ونجد صعوبة أن نصدق أن هؤلاء الناس كانوا قادرين على حفظ نصوص طويلة كهذه. إن الكتب المقدسة الفيدية كانت تنقل بعصمة وبكل دقة حتى بعد أن أصبحت السنسكريتية المنقرضة غير مفهومة، ولا تزال هذه اللكنات الصوتية الدقيقة، وتصاريف اللغة الأصلية المفقودة محفوظة تماماً في أيامنا هذه، ومعها الحركات الموصوفة الطقوسية للذراعين والأصابع. فعلى الدوام كان الصوت مقدساً لدى الآريين، وعندما كان الناس يستمعون إلى هذه النصوص المقدسة كانوا يشعرون ان الإلهي كان يغزوهم. وبما أنها كانت تلزمهم بالذاكرة، كانت عقولهم ممتلئة بحضور مقدس. لم تكن المعرفة الفيدية مجرد اكتساب معلومات حقيقية، بل كانوا يشعرون بها كملكية إلهية.

لم تكن قصائد الريغ فيدا تسرد قصصاً متسقة عن الآلهة، أو تقدم أوصافاً لطقوس القرابين، بل كانت تُلمّح بأسلوب أحجياتي مبطن إلى أساطير كانت معروفة مسبقاً بين الجماعة. لم يكن ممكناً نقل الحقيقة التي كانت تحاول أن تعبر عنها في خطاب منطقي أنيق. فالشاعر (rishi) كان عرافاً، ولم يكن يبتكر هذه الترانيم. لقد أفصحت عن نفسها له في رؤى، بدت أنها تأتي من عالم آخر[36]. كان باستطاعة الشاعر أن يرى الحقائق، ويقيم علاقات لم تكن ظاهرة للناس العاديين، كان يحظى بموهبة إلهية لنقلها إلى أي امرئ كان يعرف كيف يصغي. صدم جمال هذا الشعر الموحى مستمعيه، وأدخلهم في حالة رهبة، وعجب، وخوف، ومتعة، لدرجة أنهم كانوا يشعرون أن قدرة إلهية كانت تلامسهم مباشرة. فالمعرفة المقدسة للفيدا لم تتأتى من معنى الكلمات وحسب بل من صوت نطقها الذي كان إلهاً بحد ذاته adeva.

كانت الحقيقة الرؤيوية للريغ فيدا تسيطر على المستمعين الذين كانوا يستمعون بانتباه إلى المعنى الدفين للمفارقات، وللتلميحات المحيرة الغريبة للترانيم التي كانت تربط سوياً أشياء بدت ليست لها علاقة كلياً. فأثناء استماعهم كانوا يشعرون أنهم على تماس مع القوة الغامضة التي تبقي الكون متماسكاً. هذه القدرة كانت rita نظام إلهي مترجم في كلام بشري[37]. بينما كان الشاعر ينطق جسدياً المقاطع المقدسة، كانت rita تكتسي لحماً وتصبح فعّالة، حقيقة حية في العالم الممزق المتنازع في البنجاب. كان المستمعون يشعرون أنهم كانوا على صلة مع القدرة التي جعلت الفصول تتالى بانتظام، والنجوم تبقى في مساراتها، والمحاصيل تنمو، ومكنت العوامل المشتتة للمجتمع البشري من أن تنسجم. بالتالي، لم يكن الكتاب المقدس ينقل معلومات يمكن استيعابها مفهومياً بل كان يعطي الناس رؤية حدسية أكثر، فكانت جسراً يربط البعد المرئي بالبعد الخفي في الحياة. تعلم الشعراء أن يبقوا أنفسهم في حالة استعداد مستمر لتلقي كلمات موحاة بدت أنها كانت لا تأتي من الخارج، بل كانوا يشعرون بها كصوت داخلي. فلربما كانوا قد بدأوا مسبقاً بتطوير أساليب التركيز التي مكنتهم من النفاذ إلى مادون اللاشعور. لقد اكتشفوا أنهم إذا ما تخلصوا من مشاغلهم المعتادة التي تشتت انتباههم "فإن أبواب العقل قد تفتح[38]". وأن أجني agni مبتكر الكلام الأنيق، نور العالم، مكنهم أن يروا بذات الطريقة مثلما يُرى إله. لقد وضع الشعراء أسساً للعصر المحوري الهندي. ففي هذا التاريخ المبكر جداً قاموا بجهد متعمد للمضي إلى ما وراء المعرفة الإمبريقية (العملية)، وعرفوا بالعقل الشعوري حقيقة أعمق وأكثر جوهرية. مع ذلك، كان الشعراء يمثلون أقلية صغيرة من المجتمع الآري. فالمحاربون والغزاة كانوا يعيشون في عالم روحي مختلف كلياً. كانت حياتهم تتناوب بين القرية والغابة. فأثناء الأمطار الموسمية كان عليهم أن يعيشوا مثل وجود asura في معسكرات مؤقتة متنقلة. لكن بعد الانقلاب الشتوي كانوا يسرجون خيولهم وثيرانهم وينطلقون إلى البرية في دورة جديدة من الغارات ليجددوا ثروة الجماعة. فتناقض القرية والغابة أصبح مثالاً روحياً واجتماعياً يحتذى في الهند[39]، كل منهما يكمل الآخر.

فالجماعات المستوطنة كانت تقدم المحاصيل، وتربي الأبقار التي كان يحتاجها المحاربون، مع ذلك كانوا باستمرار يخافون من غارات سارقي المواشي الذين كانوا يتجولون في ضواحي الجماعة. بينما كانت الغابة الاستوائية المكان الذي يثبت فيه المحارب شجاعته، ويستكشف المجهول. وفي فترة عصر المحور، كان النساك ينسحبون إلى الغابة، إلى العالم الروحاني. في الغابة مارس الآريون العنف إلى جانب الاستنارة الدينية، ومن هذه المرحلة المبكرة جداً أصبح الاثنان متلازمين. بدلاً من الانتظار بصبر، وإفراغ ذهنه وقلبه مثلما يفعل شاعر، كان المحارب يعلم أن عليه أن يشق طريقاً إلى حلم ورؤيا.

منذ أن تبنى الآريون الغزو في السهوب، غيروا نماذج طقوسهم، ليفكروا بالصادح المعذب لوجودهم اليومي، كان زرادشت شديد الضيق تجاه الشعائر القربانية الجديدة للصوص المواشي، مع أنه لم يصفها بشكل مفصل. فكما جاء في نص طقوسي هندي يعود إلى فترة لاحقة: "علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة في البداية[40]". وجاء في نص آخر: "هكذا فعلت الآلهة، هكذا يفعل البشر[41]". كان المحاربون الآريون في غاراتهم ومعاركهم يعيدون تمثيل الحروب الإلهية بين devas وasuras. وعندما كانوا يحاربون كانوا يتفوقون على أنفسهم، ويشعرون أنهم متحدين مع إندرا. فهذه الطقوس أعطت حربهم روحاً، ومن خلال ربط معاركهم الأرضية بالنمط البدئي المقدس، جعلوها طقوساً مقدسة.

كان القربان في القلب الروحي للمجتمع الآري في الهند، لكنه كان أيضاً في صلب الاقتصاد. فالشعائر السلمية القديمة في السهوب قد غدت أكثر عدوانية بكثير، وتنافسية، وعكست الحياة الخطرة لسارقي المواشي وأصبح القربان الآري مماثلاً لـ pot latch (عيد عند الهنود الحمر يتصف بالإسراف في الهدايا إلى حد إتلاف مال المضيف)، الذي تحتفل به القبائل الأمريكية الأصلية في الشمال الغربي، حين تعرض باعتزاز الغنائم التي فازوا بها، وبذبح عدد كبير من الحيوانات لإقامة مآدب باذخة. وإذا ما راكمت جماعة حيوانات ومحاصيل أكثر مما كانت تحتاج إليه، فهذا الفائض يجب أن يحرق. من المحال بالنسبة

لجماعة من الرحل، دائمة التنقل أن تخزن هذه السلع، والمآدب الباذخة كانت طريقة أولية لإعادة توزيع الثروة. كما كان الطقس يظهر أيضاً مدى نجاح الزعيم، وعلو مكانته.

في الهند الراجا هو المفوض بتقديم القربان[42]. يدعو شيوخ قبيلته وبعضاً من زعماء مجاورين إلى حلبة قربانية خاصة حيث يعرض فيه فائضه من الغنائم: أبقار، خيول، سوما، أو المحاصيل. يقدم بعض هذه السلع إلى الآلهة، وتؤكل في مأدبة باذخة صاخبة، وكل ما يتبقى يوزع على زعماء آخرين كهدايا. وهذا كان يفرض على ضيوف الراعي أن يردوا له هذه الخدمات، ويتبارون فيما بينهم بتقديم مزيد من القرابين الضخمة. كان الكاهن يرتل الترانيم إلى الآلهة، وينشد المدائح إلى الراعي، لأن جوده سيجلب ثروات أكبر له. فبينما كان الراعي يسعى للفوز برضا الآلهة وللتماهي مع إندرا الذي كان مضيفاً مبذراً ومضحياً، كان يريد أن ينال المديح والاحترام. كما أنه كان منشغلاً في توكيد ذاتي عدائي في الوقت الذي كان من المفترض أن يترك ذاته الدنيوية خلفه ويصبح واحداً مع نظيره السماوي. هذه المفارقة في الطقس القديم ستكون مصدر قلق للعديد من المصلحين في العصر المحوري.

لقد زاد القربان العنف الذي كان مستوطناً مسبقاً في المنطقة. فبعد انتهاء المأدبة وإذا لم يتبقى لديه أبقار كان يتوجب عليه البدء بسلسلة جديدة من الغارات كي يجدد ثروته. ليس لدينا أوصافاً معاصرة لهذه الأضاحي، لكن نصوصاً لاحقة تحتوي على إشارات مقتضبة تعطينا فكرة عما كان يحدث. كان القربان مناسبة مبجلة، كما أنه كان مهرجاناً صاخباً ضخماً. كميات هائلة من الخمر والسوما كانت تستهلك، بالتالي كان الناس إما مخمورين أو مسرورين لطفاء. كما كان هناك جنس عرضي مع فتيات عبدات مستلقيات بجانب الزعيم الراعي. كما كانت هناك مسابقات طقوسية عدوانية: سباق عربات، مباريات إطلاق سهام، ولعبة شد الحبل. كما أن فرقاً من الراقصين، ومغنين، وعازفي الناي كانت تتنافس. كما كانت تمارس ألعاب النرد مقابل

رهانات باهظة. ومجموعات من محاربين تقدم معارك وهمية، كانت ممتعة لكنها كانت خطرة. في هذا الجو من التنافس الحاد، المعارك الوهمية التي كانت تحدث بين محاربين محترفين متعطشين للشهرة والمكانة، سرعان ما كانوا ينخرطون في قتال جدي. قد يراهن راجا في لعبة النرد ويفقد كل قطيعه. زعيم محمول بعيداً بانفعالات المناسبة قد يقرر أيضاً شن هجوم على عدوه، وراجا مجاور لم يكن على علاقة سيئة به، أو راجا آخر كان يقدم أضاحي أكثر منه. تدل النصوص أن devas وasuras كانت غالباً ما تناقض أضاحي بعضها، فتأخذ المسلوبات، ورهائن مما يوحي أن هذا التدخل العنيف كان أيضاً شائعاً على الأرض[43]. فراجا لم يتلق دعوة إلى الطقس كان إهانة له، وأن معيار الشرف كان يملي عليه أن يشق طريقه إلى داخل المعسكر المعادي ويحمل الغنائم. ففي هذه الغارات الناجمة عن طقس القربان كان الناس يقتلون أو يقتلون.

كان القربان يقدم في جو طقسي يبلغ الذروة، عظمة ورعب العرف البطولي الآري[44]. فحياة المحارب كلها كانت صراعاً، وسباقاً مميتاً خطراً على الطعام والثروة، وهذا السباق قد ينتهي بموته. فمنذ أن عاش الآريون في السهوب كان يعتقدون أن الأفضل والأغنى سينضم إلى الإلهة في السماء. واعتقدوا أن محارباً مات في معركة نبيلة، كان يمضي مباشرة إلى عالم الآلهة. ففي العرف البطولي كانت الاستنارة لا تنفصل عن موت عنفي. هناك قصة قديمة توضح ذلك. تجمعت مجموعة محاربين لتأدية قربان محكم، وكما كان يحدث في أغلب الأحيان طوقتهم قبيلة منافسة، ودارت معركة ضارية، وقتل قائدهم sthura بطريقة مأساوية. وعندما انتهت المعركة جلس أبناء عشيرته يقيمون الحداد عليه. لكن أحدهم رأى حلماً: رأى ساتورا ماشياً عبر أرض القربان إلى النار المقدسة، ثم بدأ صعوده إلى السماء. فصاح برفاقه" لا تندبوا. لأن من تندبوه قد صعد إلى أعلى من موقد النار، ودخل إلى السماء"[45]. انضم ساتورا إلى الآلهة لأنه قتل في مسار طقس خطر. فرفيقه رأى هذا الحلم المجيد لأن قائده قد قتل قبل أوانه، ودون غاية من مقتله.

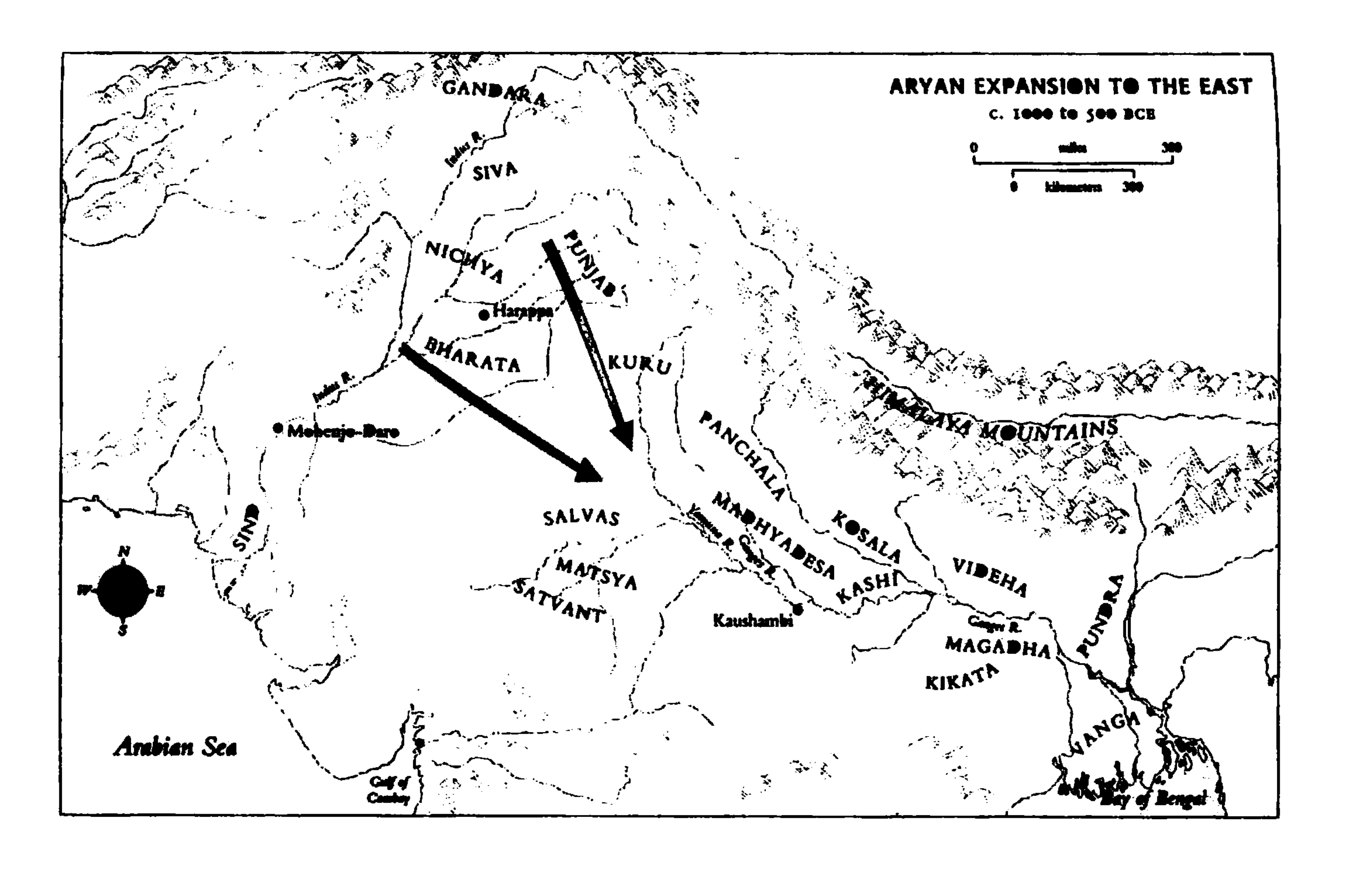
أدرك بعض المحاربين عدم جدوى الروح البطولية لديهم، فقصائد قليلة متأخرة من الريغ فيدا تعبر عن كآبة وتشاؤم جديدين. شعر الناس أنهم منهكين: "الفاقة، والعري، والإرهاق، تضغط علي بشدة". كما اشتكى الشعراء: " عقلي يرفرف مثل طائر. مثلما تأكل الجرذان خيوط الحائك، إن الهموم تلتهمني"[46].
هذا الضعف شكل علامة لبداية الفترة الفيدية المتأخرة، فترة تحول اجتماعي قلق[47]. في القرن العاشر بدأت الكيانات النخبوية القبلية بالانهيار، وسيطرت أرستقراطية من عائلات محاربة تعرف باسم Kshatriys (أي الناس المقتدرون). ومن يتحدرون من عائلات أقل نبلاً بدأوا يتخلون عن الإغارة وأصبحوا مزارعين. فعندما كان المقتدرون يسرجون خيولهم إلى عرباتهم في بداية موسم الإغارة كان رجال القبيلة يبقون في القرية مثلهم مثل الشودرا shudras أي السكان غير الآريين الذين أصبحوا يشبهون asuras الذين بقوا في البيت، وكانوا عرضة للسلب[48].

بدأت قلة من الزعماء بإقامة ممالك جنينية، والملك لم يكن ينتخب طوال الحياة، وفي كل سنة عليه أن يخضع إلى طقس الترسيم كي يثبت جدارته بالمنصب. شخص لا على التعيين كان دائماً مستعداً لأن يتحداه، وكان على الراجا القديم أن يستعيد السلطة من خلال ترؤسة لغارة ناجحة في مسار الشعيرة، وأن يهزم خصمه بالنرد. فإذا خسر الراجا كان ينفى إلى الغابة، لكنه كان عادة يعود ليتحدى منافسه في طقس آخر. حالة عدم الاستقرار في المملكة الهندية كان متأصلاً لدرجة أن دليلاً لفن الحكم جعل عدو الملك جزءاً مكوناً من الدولة[49].

خلال الفترة الفيدية المتأخرة حدثت موجة جديدة من الهجرة. ففي القرن العاشر بدأ بعض الآريين بالاندفاع شرقاً للاستقرار في Doab وما بين Yamuna وروافد الغانج. أصبحت هذه المنطقة arya varta (أي أرض آريا) حيث نشأت ممالك صغيرة أيضاً. استقر ملوك kuru-panchala على الشريط الشمالي الغربي لسهل الغانج، وعاصمتهم hastina pura، بينما استقرت قبيلة yadava في منطقة Mathura إلى الجنوب حيث كانت الأرض مختلفة جداً عن البنجاب. فالغابات المزدهرة من أشجار غريبة كانت فردوساً أخضر، لكن بناء بلداتهم ومخيماتهم

الصغيرة تطلب أن يشعلوا النار في الأشجار كي يحضروا الأرض. إله النار أجني agni أصبح مكملاً لهذا الطور الجديد من الاستعمار. كان الاستيطان بطيئاً يتم خطوة خطوة. فكل سنة كانت مملكة كورو بانشالا ترسل مجموعات من المحاربين كي يخترقوا أعماق الغابة الكثيفة، ويخضعوا السكان المحليين أثناء الطقس البارد. ثم أقاموا مركزاً جديداً أبعد قليلاً إلى الشرق أكثر من السنة المنصرمة[50]. لقد أغاروا على مزارع shudras واستولوا على محاصيلها وأبقارها، وعادوا إلى موطنهم كي يحرثوا حقولهم قبل الأمطار الموسمية[51]. وهكذا كانت الحدود الآرية تزحف ببطء إلى الأمام، عملية مستمرة منضبطة تنبأت بالفتح المنهجي الآري للفضاء الداخلي خلال العصر المحوري.

صيغت طقوس جديدة تقدس هذا الاندفاع التدريجي المتزايد نحو الشرق. فكانت الحركية ما تزال قيمة مقدسة: أرض القربان كانت تستخدم مرة واحدة فقط، وبعد إتمام الشعيرة كانت تهجر. في الطرف الغربي لمنطقة القرابين كوخ من القش كان يمثل قاعة صاحب البيت المستوطن. فأثناء أداء الشعيرة كان المحاربون يحملون النار بكل تبجيل من الكوخ إلى الطرف الشرقي للساحة حيث يكون قد بُني موقد جديد في الهواء الطلق. في اليوم التالي، كانت تشيد أرض قربان - أبعد قليلاً إلى الشرق - وتكرر الشعيرة. فالاحتفال كان يعيد تمثيل التقدم المظفر لأجني agni في المنطقة الجديدة. فكما شرح أحد المشرفين على الطقوس في فترة متأخرة: "هذه النار يجب أن تخلق حيزاً لنا، هذه النار يجب أن تمضي في المقدمة هازمة أعداءنا، بكل عنف هذه النار يجب أن تهزم أعداءنا، هذه النار يجب أن تكسب الجوائز في السباق[52].


ARYAN EXPANSION TO THE EAST
c. 1000 to 500 BCE
0
300
0
kilometers
300
GANDARA
Indus R.
SIVA
NICHYA
PUNJAB
Harappa
BHARATA
KURU
Indus R.
Mohenjo-Daro
PANCHALA
HIMALAYA MOUNTAINS
SALVAS
MADHYADESA
KOSALA
SIND
Yamuna R.
Ganges R.
MATSYA
KASHI
VIDEHA
SATVANT
Kaushambi
PUNDRA
Ganges R.
MAGADHA
KIKATA
VANGA
Arabian Sea
Gulf of
Cambay
Bay of Bengal
N
W
E
S

أجني agni كان راعي المستوطنين، فمستعمرتهم كانت بداية جديدة، ومثل عملية الخلق الأولى قد انتزعت الإستقرار من العماء. كانت النار تجسد قدرة المحاربين على السيطرة على بيئتهم. إنهم كانوا يتماهون بعمق مع نارهم. فإذا استطاع محارب أن يسرق ناراً من موقد مزارع من قبيلة vaishya، فإن باستطاعته أن يغري قطيعة ويسحبه بعيداً، لأنه سوف يتبع أيضاً ألسنة النار. "يجب أن يأخذ ناراً مشتعلة من بيت منافسه" كما تقول إحدى النصوص المتأخرة "وبذلك يأخذ ممتلكاته وثروته"[53]. فالنار كانت ترمز إلى قدرة المحارب ونجاحه، فكانت نقطة أخرى مهمة في أناه الأخرى. كان باستطاعته أن يضرم ناراً جديدة، وأن يتحكم بها ويدجنها، فالنار كانت مثل ابنه، وعندما كان يموت وتحرق جثته كان يصبح أضحية قربانية، وأجني agni سيحمله إلى أرض الآلهة. فالنار كانت تمثل أفضل ما فيه وذاته الأعمق "أتمان"[54]. وبما أن النار كانت agin، فالذات كانت مقدسة وإلهية أيضاً.

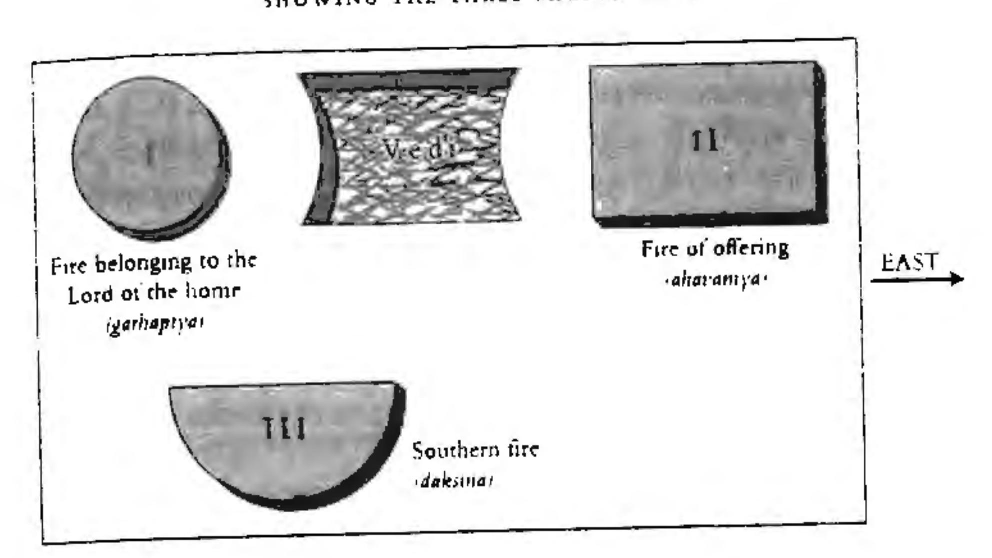
أجني agni كان حاضراً في كل مكان، لكنه كان متخفياً في الشمس، والرعد، والمطر العاصف، وفي البرق الذي يجلب النار إلى الأرض. كان حاضراً في البرك، والسواقي، وفي غضار ضفة النهر، وفي النباتات التي كان وقوداً لإضرام النار[55]. كان يتوجب استعادة agin من هذه المخابئ بكل تبجيل، وأن يضغط في خدمة البشرية.

فبعد تشييد مستوطنة جديدة كان المحاربون يحتفلون بطقس agni cayana عندما يبنون ـ طقوسياً ـ مذبحاً من الطين لـ agni. يسيرون في موكب إلى ضفة النهر كي يجمعوا الطين ـ حيث كان agni متوارياً، ويستولون ـ طقوسياً ـ على منطقتهم الجديدة. من المحتمل أنه كان عليهم أن يحاربوا ويقتلوا السكان الأصليين الذين كانوا يقاومون هذا الإحتلال. وفي عودتهم إلى أرض القربان، كان المحاربون المنتصرون يبنون مذبحهم على شكل طائر ـ أحد رموز agni، فكان agni يكشف عن نفسه عندما تتأجج النار الجديدة[56]. عندئذ فقط كانت المستعمرة الجديدة تصبح حقيقية: "المرء يصبح مستوطناً عندما يبنى مذبح النار"

كما قالت إحدى النصوص المتأخرة، "ومن كانوا بناة مذابح النار، فإنهم قد استوطنوا"[57].

كانت الإغارة في صلب الطقوس الآرية. ففي طقس السوما بدا أن الشراب المقدس كان يرفع المحاربين إلى عالم الآلهة. وبعد أن يمتلئوا بهذه القدرة المقدسة للإله، كانوا يشعرون أنهم "قد تجاوزوا السماوات، وكل هذه الأرض الشاسعة". بدأت هذه الترنيمة "هذا كان قراري، أن أفوز ببقرة، أن أفوز بحصان، ألم أشرب من عصير السوما؟"[58]. أثناء طقس السوما، كان على المضيف وضيوفه مغادرة أرض القربان ليغيروا على مستوطنة مجاورة كي يجلبوا الأبقار والسوما من أجل القربان. ففي مملكة الراجا suya، بعد أن كان الملك الجديد قد شرب منقوع السوما يرسل في غارة. فإذا ما رجع ومعه أسلاباً، كان الكهنة يقرون به ملكاً: "أنت أيها الملك براهمن"[59].

THE VEDIC SACRIFICIAL ARENA
SHOWING THE THREE SACRED FIRES



1. النار التي تخص صاحب البيت كانت تستخدم في تحضير الطعام إلى القربان. كان لها مذبح دائري يمثل الأرض.

2. نار النذر، حيث كانت توضع النذور، هناك مذبح مربع الشكل ممثلاً السماء الرباعية الأبعاد. النذور من الأرض إلى السماء عن طريق agni.
3. النار الجنوبية كانت تستخدم أقل في الطقوس لإبعاد الأرواح الشريرة، وتلقي النذور إلى أسلاف خاصين. مذبح نصف دائري ممثلاً الجوبين الأرض والسماوات المقوسة فوقها. وهناك حفرة مليئة بالعشب حيث توضع النذور فيها، كما توضع فيها أواني الطبخ عندما لم تكن تستخدم، كي تحتفظ بقدراتها. أما المذابح فكانت تصنع عادة من الرمل والتراب، والعصي، وقطع الخشب.

أثناء الفترة الفيدية المتأخرة، طور الآريون فكرة "براهمن، الوجود الأسمى. براهمن لم يكن إلهاً ، بل قدرة كانت أعلى، وأعمق، وأكثر أهمية من الآلهة، قوة تبقى جميع عناصر الكون المتباينة متماسكة، وتمنعها من أن تتجزأ[60]. براهمن كان المبدأ الأساسي الذي مكن جميع الأشياء من أن تصبح قوية وأن تتمدد. لقد كانت الحياة ذاتها[61]. براهمن لا يمكن وصفه أو تعريفه.

لأنها كانت موجهة الجميع: ليس في وسع البشر الخروج خارجها، ويرونها بموضوعية لكن بالإمكان أن يحس بها المرء في طقس. فعندما كان الملك يرجع سالماً من غارته ومعه بعض الغنائم من المعركة، فقد أصبح واحداً مع براهمن. لقد أصبح المحور، أو قب العجلة التي تجر مملكته، وتمكنها أن تزدهر وتتوسع. بالإمكان أن يحس المرء براهمن في الصمت. كان هناك طقس ينتهي غالباً بمسابقة brahmodya لإيجاد صيغة فعلية كانت تعبر عن سر براهمن. فالشخص المتحدي كان يطرح سؤالاً أحجياتياً وصعباً، ويجيبه خصمه بطريقة مراوغة مساوية. كانت المسابقة تستمر حتى يغدو أحد المتسابقين غير قادر على الإجابة: يخفض إلى الصمت، كان مجبراً أن ينسحب[62]. تسامي البراهمن كان بالإمكان الشعور به في التصادم الغامض لأسئلة لا يمكن الإجابة عليها، والتي كانت تفضي إلى إدراك مذهل للعجز عن الكلام طوال بضع لحظات مقدسة يشعر المتسابقان خلالها أنهما متحدان مع القوة الغامضة التي تبقى كل الحياة متماسكة، وكان باستطاعة الفائز أن يقول أنه كان هو البراهمن.

بحلول القرن العاشر بدأ بعض الشعراء بإيجاد خطاب لاهوتي جديد، لأن الآلهة التقليدية بدأت تبدو بسيطة وغير مقنعة، يجب أن تؤشر إلى شيء خارج ذواتها. اتجهت بعض الترانيم المتأخرة من الريغ فيدا إلى إله كان جديراً أكثر بالعبادة. "ما الإله الذي سنعبده في نذورنا؟" كما سأل أحد الشعراء في الترنيمة121 من الجزء العاشر للريغ فيدا. "من كان الرب الحقيقي للبشر والقطيع؟ من كان يملك الجبال المعممة بالثلوج، والمحيط الهادر؟ أي من الآلهة كان قادراً على حمل السماوات؟ وجد الشاعر في هذه الترنيمة إجابة ستغدو واحدة من الأساطير الأساسية في العصر المحوري الهندي. لقد رأى حلماً لإله خالق خارجاً من العماء البدئي، نسخة مشخصنة لبراهمن، اسمه براجاباتي أي "الكل"، كان براجاباتي مماثلاً للكون، كان قوة الحياة التي تمده، بذرة الوعي، والنور الذي انبثق من مياه مادة اللاشعور. لكن براجاباتي كان أيضاً روحاً خارج الكون، باستطاعته أن يأمر قوانين الطبيعة، محايث ومتعالٍ، هو وحده كان "إله الآلهة". لكن هذا كان أكثر وضوحاً عند شاعر آخر: في البداية ـ كما قال ـ لم يكن هناك شيء. لم يكن هناك وجود ولا وجود، لا موت ولا خلود، بل فقط "عماء لا يمكن تمييزه." كيف كان ممكناً أن يصبح هذا العماء منظماً ؟ قرر الشاعر أنه لا يمكن أن يكون هناك جواب لهذا السؤال:

من يعرف فعلاً، ومن يستطع هنا أن يعلنه

متى ولد، ومتى أتى هذا الخالق؟

الآلهة أتت بعد انتاج هذا العالم

فمن يعلم إذن متى ظهر العالم إلى الوجود؟

هو، الأصل الأول لهذا الخلق، سواء شكله كله أم لم يشكله،

عين من تسيّر هذا العالم في السماء الأعلى، هو فعلياً يعرفه او ربما لا يعرف[64].

القصيدة كانت مسابقة، طرح الشاعر سؤالاً بعد سؤال، لا يمكن الإجابة عليها، فتراجع الشاعر وسامعوه إلى صمت عدم المعرفة.

في ترنيمة purusha الشهيرة فكر شاعر في قصة الخلق القديمة لدى الآريين، ووضع الأساس لعصر المحور الهندي[65]. لقد استحضر أن قربان الإنسان الأول قد جلب الجنس البشري إلى الوجود. ثم وصف هذا الشخص البدئي purusha سائراً بملء إرداته في أرض القربان، ومستلقياً على العشب المقصوص حديثاً، وسامحاً للآلهة أن تقتله. هذا العمل من الاستسلام الذاتي قد وضع الكون في حالة حركة. البوروشا نفسه كان الكون . كل شيء ولد من جثته: الطيور، والحيوانات، والخيول، والمواشي، وطبقات المجتمع البشري، السماء والأرض، والشمس والقمر. حتى الإلهان العظيمان agni، وإندرا انبثقا من جسده. لكنه مثل براجاباتي كان أيضاً متعالياً: 75٪ من كيانه كان خالداً لا يتأثر بالزمن والفناء. لم يكن هناك قتال في هذا القربان كما كان في الطقوس الحربية لدى المحاربين. لقد قدم بوروشا نفسه دون صراع.

بوروشا وبراجاباتي كانا شخصيتين بعيدتين وظليتين دون مثيولوجيا متطورة.

هناك الكثير مما يقال عنهما. قيل أن الإسم الحقيقي لبراجاباتي كان سؤالاً: "who من؟" على بداية عصره المحوري حينما كان عرافو الهند يتحركون خارج المفاهيم والكلمات نحو تبجيل صامت للذي لا يمكن وصفه. لكن لم توضح ترنيمة بوروشا لماذا استمروا في أن يستمدوا إلهاماً من الطقس القديم. فعلى الرغم من أن الشعائر كانت خطرة جداً وعنيفة، فإنها بقيت مصدر الإلهام للتحول العظيم في الهند. بحلول نهاية القرن العاشر، أرسى الشعراء الرموز المعقدة التي ستخلق الروحانية العظيمة للعصر المحوري.

* * *

الملوك الصينيون من سلالة شانغ shang الذين حكموا وادي النهر الأصفر منذ القرن السادس عشر كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله. لقد قيل أن Di إله مقتدر

جداً لم يكن له أي احتكاك مع كائنات بشرية، وأنه أرسل طائراً أسود اللون إلى سهل الصين العظيم. باض الطائر بيضة أكلتها سيدة، ومع مرور الزمن ولدت الجد الأولى لملوك سلالة شانغ[66]. وبسبب علاقته الفريدة مع Di، كان الملك هو الشخص الوحيد في العالم الذي يسمح له بالاقتراب مباشرة من الله العلي High Dod. هو وحده من استطاع أن يفوز بالأمن لشعبه من خلال تقديم القرابين إلى Di. وبمساعدة عرافيه كان يستشير Di حول القيام بحملة عسكرية، أو تأسيس مستوطنة جديدة. وكان باستطاعته أن يسأل Di ما إذا سيكون الموسم جيداً. لقد استمد الملك شرعيته من سلطته كعراف ووسيط مع العالم الإلهي. وبناء على مستوى دنيوي أكثر، اعتمد أيضاً على أسلحته البرونزية المتفوقة. ربما شيدت مدن شانغ الأولى من قبل معلمي الحرف الذين كانوا رواداً في صنع الأسلحة البرونزية، والعربات الحربية، والأواني الناصعة التي استخدمها شانغ في تقديم القرابين. هذه المقدرة في تقانة جديدة كانت تعني أن الملوك استطاعوا أن يعبؤا آلاف الفلاحين للعمل أو الحرب مجبرين.

عرف عن سلالة شانغ أنها لم تكن أول ملوك الصين. زعموا أنهم قد انتزعوا السلطة من آخر ملك من سلالة زيا Xia(2200 ـ 1600). ليس هناك دليل أركيولوجي أو وثائقي على زيا، لكن ربما كان هناك نوع من مملكة في السهل العظيم بحلول نهاية الألف الثالثة[67]. لقد وصلت الحضارة ببطء وبألم إلى الصين. كان السهل العظيم معزولاً عن المناطق المحيطة بجبال شاهقة، وأرض مستنقعات غير قابلة للسكن. كان المناخ قاسياً، درجات حرارة قائظة صيفاً، وبرد قارس شتاءً، وكانت المستوطنات تلفحها الريح القارسه المحملة بالرمال. كان الإبحار في النهر الأصفر صعباً، وعرضة للفيضان. كان على المستوطنين الأول أن يشقوا ترعاً لتجفيف المستنقعات، وأن يبنوا السدود لمنع الفيضانات من تدمير المحاصيل. لم يكن لدى الصينين ذاكرة تاريخية عن الناس الذين شيدوا هذه الأعمال القديمة، بل رووا قصصاً عن الملوك الإقطاعيين الذين حكموا الامبراطورية الصينية قبل سلالة xia، وجعلوا الريف قابلاً للسكن. هوانغ دي

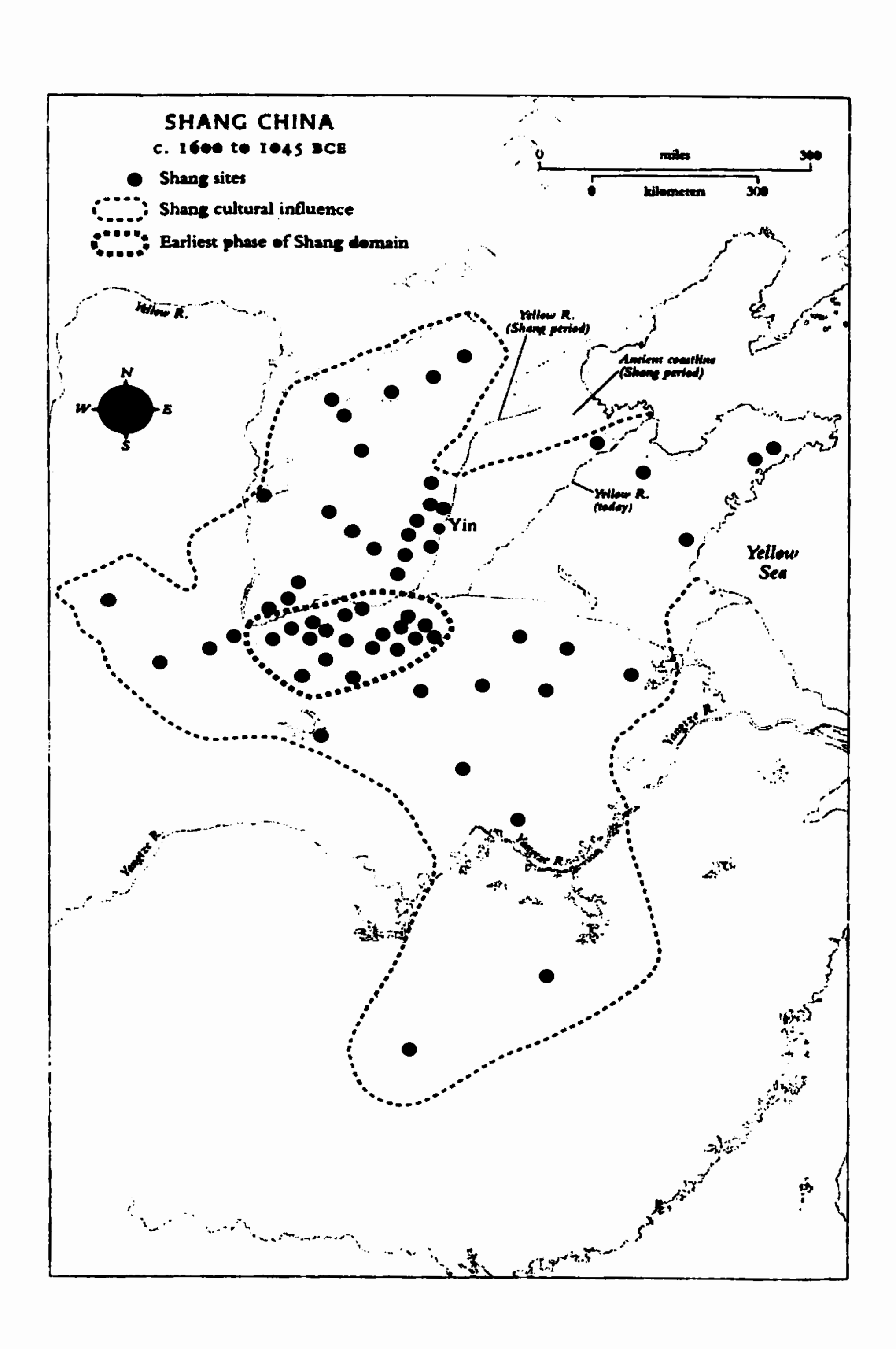
huang Di الإمبراطور الأصفر ـ قتل غولاً، وثبت مسارات الشمس والقمر والنجوم. وعندما ابتكر shen nong الزراعة في القرن 23 أرسى أباطرة yao وshun عصراً ذهبياً من العلم والرخاء. فخلال عهد شون اجتاح فيضان رهيب اليابسة فكلف yu رئيس الأشغال العامة لديه أن يحل المشكلة. طوال 13 سنة بنى yu ترعاً، واستصلح المستنقعات، وصرف الأنهار إلى البحر بحيث أنها تدفقت بانتظام وكأنها لوردات ذاهبين إلى حفل استقبال ضخم. الشكر الجزيل لجهود yu الجبارة التي مكنت الناس من أن يزرعوا الأرز والجاورس. كان الامبراطور shun شديد الإعجاب به لدرجة أنه رتب أن يخلفه yu على العرش. وهكذا أصبح yu المؤسس لسلالة xia[68]. جميع هؤلاء الملوك الحكماء الأسطوريين سيغدون ملهمين لفلاسفة الصين في العصر المحوري.

كان استقراطيو شانغ يعرفون بعضاً من هذه القصص بكل تأكيد، وأن الحضارة كانت إنجازا صعب المنال، وغير مأمون، واعتقدوا أن قدر العيش كان رهناً ملازماً لأرواح من قضوا قبلهم. الشانغ ربما لم يكن قوياً مثل yao، وشون أو yu، لكنهم سيطروا على منطقة شاسعة من السهل العظيم[69]. امتد مجال هذه الممالك حتى وادي Huai في الجنوب الشرقي وحتى شانتونغ في الشرق، وبالإمكان أن نلمس تأثيرهم حتى وادي wei في الغرب إنهم لم يحكموا دولة مركزية بل أسسوا شبكة من مدن ـ القصر صغيرة، يحكم كلاً منها ممثل للبيت الملكي. كانت البلدات صغيرة تتألف من مجمع سكني للملك وأتباعه، محاطاً بأسوار عالية من تراب مكوم كي يكون سداً يمنع فيضاناً أو هجوماً. في yin آخر عاصمة لـ shang كان محيط الأسوار يبلغ 800 ياردة، وبلدات شانغ تتبع نموذجاً متسقاً، مستطيلة الشكل عادة، كل سور موجه إلى إحدى الجهات الأربع للبوصلة، وجميع المساكن مواجهة للجنوب. كان في القصر الملكي ثلاث ساحات وقاعة للحضور من أجل الطقوس والمناسبات الدينية، وإلى الشرق من القصر كان معبد الأسلاف. أما السوق فكان يقع شمال منزل الملك. أما الحرفيون وصانعو العربات والأقواس والسهام، والحدادون، وصانعو الفخار

يعيشون في المناطق الجنوبية من المدينة مع كتبة الملك، ورجال الدين وخبراء الطقوس.

هذا المجتمع لم يكن مجتمع مساواة. لقد أوضح شانغ أن الشاغل الأساسي بالتراتبية والطبقة سيصبح واحداً من العلامات الرئيسية للحضارة الصينية. الملك بصفته ابناً لـ Di كان على قمة الهرم الإقطاعي في طبقة خاصة به. تتلوها مرتبة أمراء البيت الملكي حكام المدن الشانغية، وتحتهم يأتي رؤساء الأسر الكبيرة الذين كانوا يشغلون وظائف في البلاط، والبارونات الذين عاشوا على عائدات الضرائب من المناطق الريفية خرج أسوار المدينة. أما عند قاعدة الهرم الاقطاعي فكان الناس العاديون وطبقة المحاربين.

كانت المدينة دائرة ارستقراطية صغيرة، عالماً بحد ذاته. كرس نبلاء شانغ وقتهم إلى الدين والحرب والصيد فقط وكانوا يأخذون فائض الإنتاج الزراعي من الفلاحين المحليين مقابل تقديم الحماية العسكرية. لكن القليل من المنطقة كان يخصص للزراعة في هذه الفترة: معظم وادي النهر الأصفر كان ما يزال مغطى بغابات كثيفة ومستنقعات. في عهد شانغ كانت الفيلة والخرتيت والجواميس، والنمور، والفهود تتجول عبر الغابات إلى جانب الغزلان والنمور والثيران البرية والدببة، والقرود. فالحيوانات قد تغدو وبالاً، لذلك كان الصيد واجباً إضافياً إلى كونه متعة. في العودة المظفرة للملك إلى المدينة كانت الطرائد تقدم قرابين وتؤكل في مآدب شراب صاخبة. كان هناك فارق بسيط بين الحرب والصيد. فالحرب كانت فاعلية تقتصر على الارستقرطيين وحدهم كان يسمح لهم امتلاك سلاح وعربات حربية. أما حملة عسكرية نموذجية فكانت شأناً متواضعاً، تتكون من نحو مائة عربة، والفلاحون الذين كانوا يمشون خلفها لم يكونوا يشاركون في القتال بل يقومون بدور خدم خاصين، أو حمالين، أو يعتنون بالخيول. لم يكن لدى شانغ طموحات إقليمية، فكانوا يشنون الحرب ليعاقبوا المدن المتمردة فقط من خلال أخذ السلع الثمينة: المحاصيل، المواشي، العبيد والحرفيين.


SHANG CHINA
c. 1600 to 1045 BCE
Shang sites
Shang cultural influence
Earliest phase of Shang domain
miles
kilometers
Yellow R.
Yellow R. (Shang period)
Ancient coastline (Shang period)
Yellow R. (today)
Yin
Yellow Sea
Yangtze R.
N
S
E
W

وأحياناً كانت تنطلق حملة ضد البرابرة ـ الشعوب التي كانت تحيط بمستوطنات شانغ، والذين لم يتمثلوا بعد الحضارة الصينية. إنهم لم يكونوا مميزين إثنياً عن الشانغ، وعندما أصبحوا متحضرين في نهاية المطاف كانوا يقدمون مساهماتهم الخاصة بهم إلى الحضارة الصينية. أما ضمن المدن فكان للبرابرة الذين عاشوا في المناطق المجاورة عادة حلفاء الشانغ. أما البرابرة الذين عاشوا في المناطق النائية فكان الاحتكاك بهم قليلاً.

حياة المدينة بالنسبة لنبلاء الشانغ، لم يكن فيها ما هو مشترك مع حياة الجماعات الفلاحية التي كانت تزرع الأرض، فبالكاد كان الأرستقراطيون يعدونهم بشراً. مع ذلك كان للفلاحين تأثير مستمر على الحضارة الصينية. إنهم تماهوا مع التربة، وكان مجتمعهم منظماً حول إيقاعات متكررة للطبيعة. كان الفارق بين الشتاء والصيف مهيمناً على الحياة الفلاحية. في الربيع يبدأ موسم العمل. فكان الرجال ينتقلون إلى خارج القرية ويقيمون في أكواخ في الحقول. وأثناء موسم العمل لم يكن لهم اتصال بزوجاتهم وبناتهم إلا عندما تجلب النساء لهم الطعام. لكن بعد الحصاد، كانت الأرض تترك كي ترتاح، فيعود الرجال إلى بيوتهم. كانوا يغلقون بيوتهم، ويبقون داخلها طوال الشتاء. كانت هذه فترة سبات من أجل الراحة، واستعادة العافية. لكن النساء اللواتي كان عملهن أقل أثناء الصيف كن يبدأن موسم العمل: ينسجن، يغزلن، ويصنعن الخمر. ربما ساهم هذا التناوب في المفهوم الصيني yin وyang .yin الجانب الأنثوي من الواقع مثل النساء الفلاحات، فصلها كان الشتاء، نشاطها في الداخل وتؤديه في أماكن مظلمة مغلقة. أما يانغ فهو الجانب الذكري، نشيط في الصيف، وفي ضوء النهار، خارجي، طاقة خاصة، مخرجاتها كانت وفيرة[70].

لم يكن نبلاء شانغ مهتمين بالزراعة، لكنهم كانوا يحسون أن المشهد الطبيعي غني بالمعنى الروحي: الجبال، الأنهار، والرياح كانت كلها آلهة مهمة، كما كانت آلهة الجهات الرئيسية الأربعة. آلهة الطبيعة هذه كانت تنتمي إلى الأرض التي كانت النظير الإلهي لـ Di إله السماء. وبما أنها كانت تؤثر على

المحاصيل، لذلك كانوا يسترضونها ويتقربون إليها بالأضاحي. أسلاف البيت الملكي كانت لهم أهمية أكبر حتى، إذ كانت عبادتهم في قلب الدين الشانغي. لقد كشفت التنقيبات الأثرية في yin (أنيانغ الحديثة) عن قبور تسعة ملوك في أكفانهم، على منصة مركزية محاطة ببقايا جنود قدموا كقرابين في جنازات الملوك التسعة. فبعد موت أحد الملوك كان ينال مكانه إلهية، ويعيش في السماء مع Di، وكان بوسعه أن يطلب منه مساعدة أقاربه الأحياء على الأرض[71].

كان الشانغ مقتنعين أن مصير السلالة يعتمد على إرادة الملوك الخيرة المتوفين. لم يكن لـ Di عبادة خاصة به، وليس لآلهة الطبيعة شعائر منتظمة. لقد عبدوا الأسلاف في طقوس باذخة، فلكل منهم احتفال خاص به في التقويم الطقوسي. كما أقام الملوك احتفالات تستضيف أجدادهم. فأفراد الأسرة الملكية كانوا يلبسون مثل لباس أقاربهم المتوفين، وكانوا يشعرون أن السلف الذي كانوا يجسدونه كان مسيطراً عليهم، وعندما كانوا يدخلون البلاط، كان الملك ينحني أمامهم. كما يطلب من آلهة الطبيعة أن تشارك في المأدبة في باحة القصر حيث كانت أعداد من القرابين تذبح وتطهى. بعد ذلك كانت الآلهة والأسلاف والبشر يُعيِّدون سوياً.

قلق عميق كان يكمن خلف هذا الطقس[72]. Di حارس البلدات والمدن كان يتحكم بالأمطار والرياح، ويصدر الأوامر إلى آلهة الطبيعة مثلما كان ملك الشانغ يصدر توجيهاته إلى موظفيه وجنوده.لكن من غير الممكن التنبؤ بما يفعله Di. اعتقد الشانغ أن أرواح الموتى قد تكون خطرة، لذلك كانوا يدفنون المتوفين في توابيت سميكة من الخشب، ويعاملون جثثهم بـ jade، ويحشون فتحاتهم كي لا تخرج الأرواح وتسيطر على الأحياء. لقد صممت الطقوس كي تحول شبحاً مزعجاً قوياً إلى حضور مفيد متسامح. فالمتوفى كان يُعْطى إسماً جديداً، ويخصص يوم خاص للعبادة على أمل أن يكون لطيفاً تجاه الجماعة.

فمع مرور الزمن أصبح أحد الأسلاف أكثر قوة، لذلك صممت الطقوس كي تقنع المتوفى أن يدافع عن قضية أقاربه مع الأسلاف المجدين أكثر، والذين بدورهم قد يتوسطون مع Di.

معظم معلوماتنا عن الشانغ مستمدة من عظام الحيوانات وقواقع السلاحف التي نقش عليها كتبة الأسرة الملكية أسئلة إلى Di وإلى آلهة الطبيعة، وإلى الأسلاف[73]. لقد كشف علماء الآثار 150 ألفاً من هذه العظام المنقوشة. إنها توضح أن الملوك قدموا جميع فاعليتهم للتحري عن هذه القوى، طالبين نصائحها حول حملة صيد، أو محصول، وحتى ألم أحد الأسنان. أما الطريقة فكانت بسيطة إما الملك أو عرافه كان يوجه تهمة إلى قوقعة سلحفاة معدة خصيصاً، أو إلى عظم بقرة، وهو يستخدم مجباساً حامياً. فقد يقول "سنحصل على محصول الجاورس" أو يتوجه إلى الملك السابع عشر في سلالة الشانغ، "إننا ندفع ثمن محصول جيد[74]". بعد ذلك يدرس التشققات التي نشأت في القوقعة، ومن ثم يعلن إذا ما كانت النبوءة ميمونة أم لا. وفي النهاية يقوم النحاتون الملكيون بنقش التهمة. وكانوا - أحياناً ينوهون بالنبوءة التي أتت من الإله، أو من السلف المعني، وأحياناً يوردون النتيجة. بكل وضوح، لم تكن عملية عقلانية، بيد أن العرافين كانوا يحاولون الاحتفاظ بسجلات حقيقية. نوه بعضها أن الملك قد تنبأ بحمل زوجته، وأنه سيكون جيداً (أي أنها ستلد صبياً)، مع أنها كانت تلد بنتاً، والملك قد أخطأ في اليوم[75].

فمحاولة ملوك الشانغ التحكم بالعالم الروحي قد فشلت في معظم الأحيان. فكثيراً ما أرسل الأسلاف محاصيل سيئة، والحظ السيء. والإله Di أرسل مطراً مواتياً، لكن النبوءة حفظت أيضاً: "إنه Di الذي يوقع الضرر بمحاصيلنا.[76]" Di كان حليفاً عسكرياً لا يمكن الاعتماد عليه. كان باستطاعته أن يقدم العون، أو يلهم أعداء الشانغ "Fang يلحقون الأذى بنا ويهاجموننا، إنه Di من يأمرهم أن يوقعوا كارثة بنا[77]". Di غير الفعال، وغير المعتمد عليه لبى المصير المعتاد لإله السماء، فبدأ يتوارى بعيداً. لم يطور الشانغ أبداً قرباناً روتينياً لطلب العون. وبحلول القرن الثاني عشر، توقفوا عن مخاطبته مباشرة، فاتجهوا إلى الأسلاف وأرواح الطبيعة فقط[78].

كان مجمع الشانغ خليطاً غريباً من التشذيب، والتعقيد، والبربرية. لقد أعجبوا بجمال بيئتهم. فنّهم كان معقداً ومبتكراً، وآنيتهم الطقوسية البرونزية

تدل على ملاحظة دقيقة للحيوانات البرية، وللماشية، والثيران، والخيول. لقد صنعوا جراراً رائعة على شكل خروف أو خرتيت، أو بوم. لكنهم لم يكونوا متحفظين حيال قتل الحيوانات التي كانوا يعاملونها بلطف، فأحياناً كانوا يذبحون عدة مئات من الحيوانات في مناسبة قربان واحدة. وأثناء حملة الصيد الملكي، قتل الشانغ حيوانات برية بلا مبالاة، وأكلوا مئات الحيوانات الأليفة في مأدبة أو جنازة. كان لدى الملوك والنبلاء ثروة عظيمة كانوا يقدرونها بالمخزون من المعدن، وبالمحاصيل، وبالصيد في بيئتهم المليئة بالحياة البرية. كما قدم الفلاحون كميات ضخمة من القمح والأرز، فبدا لهم أن مواردهم لا تنضب. لم يكن لديهم فكرة الادخار للغد[79].

لقد استذكر موزي mozi ـ أحد فلاسفة العصر المحوري ـ جنازات باذخة لملوك الشانغ ـ أبناء السماء، فثار بكل وضوح على هذا الإسراف السوقي، والقتل الطقوسي للخدم والأتباع العاثري الحظ:

"في موت الأمير أفرغت المخازن، والثروات. فالذهب، واللازورد، واللؤلؤ وضعت على الجثمان. لفافات الحرير، والعربات مع خيولها طمرت في القبر. لكن وفرة من معلقات كانت مطلوبة لغرفة الدفن، بالإضافة إلى المزهريات الثلاثية الأرجل، والطبول، والطاولات، وحاويات الجليد، وفؤوس الحرب، والسيوف، وقطع العاج، وجلود الحيوانات. لا أحد يرضى ما لم ترافق جميع هذه الثروات المتوفى. أما الرجال الذين كان يضحى بهم ـ إذا كان ينبغي أن يكون ابناً للسماء ـ سيكون تعدادهم بالمئات أو بالعشرات. وإذا كان المتوفى ضابط كبير أو بارون، سيبلغ عددهم العشرات أو الآحاد[80].

كان في دين شانغ وحشية وعنف. وفي نهاية المطاف بدا للصينيين أن حتى الإله Di الذي كان قليل الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية، قد نفذ صبره على سلالته الحاكمة.

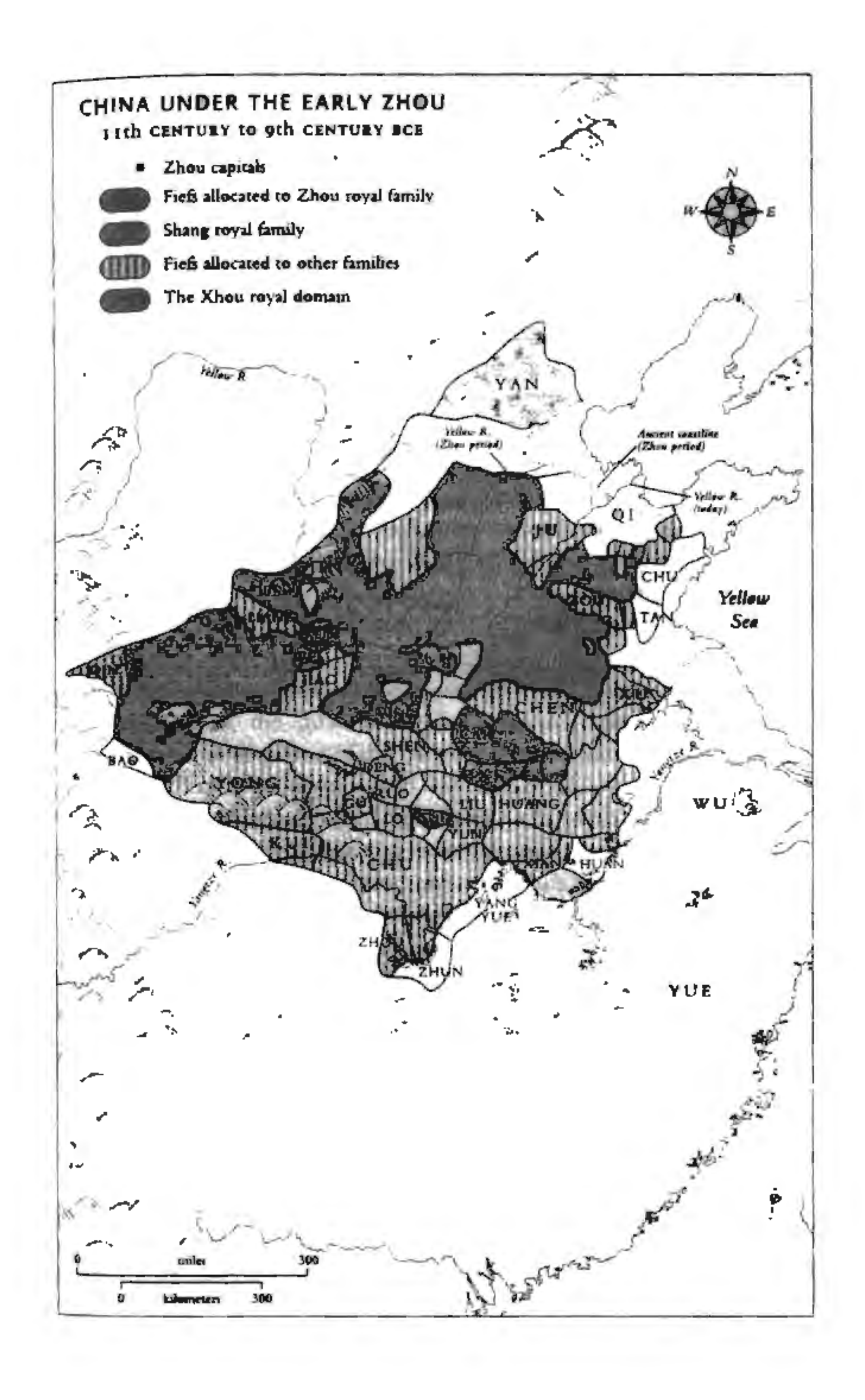
في عام 1045 الملك wen، لشعب zhou حكم إمارة في وادي wei غزا منطقة شانغ بينما كان الملك بعيداً عن العاصمة، وقتل الملك wen بطريقة مأساوية،

لكن ابنه wo تابع تقدمه داخل منطقة شانغ وهزم جيش شانغ في معركة Mu-ye شمال النهر الأصفر. قطع رأس الملك شانغ، واحتل zhou مدينة yin. بعدئذ قسم الملك wu الغنائم، وقرر البقاء في العاصمة القديمة zhou في وادي wei، لذلك عين ابنه شينغ cheng حاكماً لـ yin وعهد بإدارة المدن الشانغية الأخرى إلى wu-keng ابن آخر ملوك الشانغ. بعد ذلك عاد الملك wu إلى وادي wei حيث توفي بعد مدة قصيرة.

بعد موته انتهز الأمير شانغ الفرصة وتمرد على حكم zhou. لكن أخو الملك wen ويدعى Dan المعروف باسم دوق زهو سحق التمرد، وفقد الشانغ السيطرة على السهل الأوسط. أصبح الأمير cheng الملك الجديد، لكن بما أنه كان لا يزال صغير السن عُيّن دوق زهو كوصي، وأنشأ نظاماً شبه إقطاعي. أعطيت مدينة لكل من أمراء وحلفاء الزهو كهدية شخصية. بنى zhou عاصمة جديدة كي يحتفظ بحضور في المناطق الشرقية في مملكته. أسماها zhou cheng تكريماً للملك الجديد.

سار ملوك الزهو ـ بأشكال كثيرة ـ على خطا ملوك شانغ، فكانوا يستمتعون بالصيد ورمي السهام، وقيادة العربات، والحفلات الباذخة. كما نظموا مدنهم وفق نموذج المدن القديمة لملوك شانغ، وعبدوا آلهة الطبيعة، والأسلاف، واستشاروا العرافين. واستمروا أيضاً في عبادة Di ـ بطريقة كانت نموذجية في الدين القديم ـ فأعلوا مكانة Di مع إله السماء الذي أسموه Tian (أي السماء). لكنهم واجهوا مصاعب. فملوك الشانغ حكموا مئات السنين بمباركة واضحة من الإله Di. فإذا ما أرادوا الفوز على نبلاء شانغ الذين استمروا في العيش في السهل العظيم، فإن الاستمرارية كانت أمراً أساسياً. أراد الزهو أن يعبدوا ملوك الشانغ الموتى إلى جانب موتاهم. لكن ـ الآن ـ هل كان باستطاعتهم عبادة أرواح الشانغ في الوقت الذي دمروا فيه سلالتهم؟

لقد أوجد دوق الزهو حلاً: فالإله Di كان يستخدم أحياناً قبائل معادية لمعاقبة الشانغ، وبدا أنه قد جعل من الزهو أداة له. ففي مناسبة ترسيم العاصمة


CHINA UNDER THE EARLY ZHOU
11th CENTURY to 9th CENTURY BCE
Zhou capitals
Fiefs allocated to Zhou royal family
Shang royal family
Fiefs allocated to other families
The Xhou royal domain
N
W
E
S
YAN
QI
CHU
TAN
Yellow Sea
CHEN
SHEN
BAO
YONG
LIU
HUANG
CHU
HUAN
YANG
YUE
ZHUN
WU
YUE
miles
0
300
kilometers
0
300

الشرقية الجديدة cheng زهو ألقى الدوق خطاباً مهماً محفوظاً في إحدى الكلاسيكيات العظيمة الستة الصينية[81]. قال إن ملوك الشانغ قد أصبحوا مستبدين وفاسدين، وأن السماء قد امتلأت شفقة على عذابات الشعب، ولذلك قام Di بإلغاء التفويض الذي أعطاه إلى الشانغ، وفتش عن حكام جدد. وأخيراً وقع بصره عل ملوك الزهو الذين أصبحوا الأبناء الجدد لـ Di: Tianchang، أي السماء الأعلى.

بتلك الطريقة أصبح الملك chang ابن السماء ـ كما شرح الدوق ـ مع أنه كان ما يزال غراً جداً، كانت مسؤولية ثقيلة على كاهل الشاب. أما وقد تسلم التفويض، كان على شينغ أن يكون حذراً جداً. "يتوجب عليه أن يكون منسجماً مع الناس الصغار ـ ـ ـ يخشى كثيراً مما يقوله الناس". فالسماء ستسحب تفويضها من حاكم يضطهد رعاياه، وتمنحة إلى سلالة تستحقه أكثر منه. كان هذا السبب وراء فشل سلالة xia. فالعديد من ملوك شانغ كانوا حكاماً فاضلين لكن في السنوات الأخيرة من حكم السلالة كان الناس بؤساء، ونادوا السماء غاضبين " السماء حزنت عليهم من جيمع بقاعهم" فقررت أن تمنح التفويض إلى الزهو لأنهم كانوا ملتزمين جداً" بالعدل. لكن لم يكن باستطاعة الزهو أن يكونوا مقنعين.

السكن في هذه المدينة الجديدة أتاح للملك أن يكون لديه اهتمام جديد بفضيلته. فإذا ما كانت الفضيلة هي التي يستخدمها الملك، فبإمكانه أن يصلي للسماء من أجل تفويض دائم. فبينما كان يؤدي عمله كملك مقيد، لأن عامة الناس يتوهون ويفعلون ما هو خطأ، إذن يفترض أن يحكمهم من خلال عقوبات قاسية، وبهذه الطريقة سينجز الكثير. كونه ملكاً، دعه يأخذ مكانته في أولوية الفضيلة. والناس الصغار سوف يصيغون أنفسهم وفق نموذجه في أرجاء العالم وبالتالي أصبح الملك أنموذجاً إيضاحياً[82].

لقد كانت هذه لحظة بالغة الأهمية، لأن الزهو قد أدخلوا مثلاً أعلى أخلاقياً في الدين، الذي كان ـ حتى هذه الفترة ـ غير مهتم بالناحية الأخلاقية.

فالسماء لم تكن تتأثر فقط بذبح الخنازير والثيران، بل كانت تتأثر بالرحمة والعدل. وتفويض السماء سيغدو مثلاً أعلى مهم أثناء العصر المحوري الصيني. فإذا كان حاكم أنانياً، وقاسياً، ومستبداً، فإن السماء لن تسانده، وسوف يسقط. فقد تبدو دولة ضعيفة وغير مهمة ـ مثل الزهو قبل انتصارهم، إذا كان حاكمها حكيماً وإنسانياً، ومهتماً فعلاً بمصلحة رعاياه، فإن الناس سوف يتقاطرون إليه من أنحاء العالم، والسماء بدورها سترفعه إلى المكانة الأعلى.

في البداية لم يكن هناك اتفاق حول تفسير التفويض[83]. فدوق الزهو وأخوه دوق shao Gong كانا على خلاف خطير في الرأي. إذ اعتقد دوق الزهو أن السماء قد أعطت التفويض إلى جميع شعب الزهو، وبالتالي يجب على الملك أن يعتمد على نصائح وزرائه. لكن جونغ قال إن الملك وحده قد تسلم التفويض. لقد ارتد إلى الفكرة القديمة ـ أن الملك كان ابن الله، وبالتالي الشخص الوحيد الذي باستطاعته مخاطبة السماء مباشرة. فالملك سوف يستشير وزراءه بالتأكيد لكنه قد تلقى قدرة غامضة فريدة منحته التفويض كي يحكم.

لأسباب واضحة وجد الملك cheng أن نقاش خال Gong مستحسن، فوَحَّد الإثنان قواهما وضغطا على دوق الزهو كي يتقاعد. فاتخذ سكناً له في مدينة Lu في القسم الشرقي من السهل الأوسط، التي منحت له كإقطاعية شخصية. ولذلك أصبح بطلاً وسط سكان Lu الذين بجلوه على أنه سلفهم الأكثر تميزاً. قناعة الدوق أن الفضيلة كانت أكثر أهمية من الجاذبية السحرية كانت نظرة جديرة بالعصر المحوري. فبدلاً من تبجيل إنسان عاش حياة لا أخلاقية، لأنه فقط أحد الأسلاف، فالعبادة يجب أن تعظم رجالاً متميزين ويستحقون ذلك[84]. بيد أن الصينيين لم يكونوا جاهزين بعد لقبول هذه النظرة الأخلاقية، فارتدوا إلى طقوس الماضي الخارجة عن المألوف. لا نكاد نعرف شيئاً تقريباً عن الملوك الذين حكموا بعد الملك شينغ، لكن بعد مضي مائة سنة على فتح الزهو، كان واضحاً أن سلالة الزهو قد بدأت تنهار على الرغم من تفويض السماء. فالنظام الإقطاعي كان فيه ضعف بنيوي. فمع مرور السنين، روابط الدم التي كانت

تربط حكام المدن بالبيت الملكي قد أصبحت واهية، لدرجة أن أمراء المدن كانوا مجرد أولاد عمومة بعيدين للملك. استمر الملوك يحكمون من عاصمتهم الغربية. وبحلول القرن العاشر كان واضحاً أن المزيد من المدن الشرقية كانت تصبح مضطربة. أي أن امبراطورية الزهو قد بدأت بالتفكك، بالرغم من احتفاظ السلالة بهالة دينية ورمزية لفترة طويلة بعد أن أصبح ملوك الزهو ذوي أهمية سياسية قليلة. لن ينسى الصينيون أبداً السنوات الأولى من حكم سلالة الزهو، وسيكون عصرهم المحوري مصدر إلهام في البحث عن حاكم عادل يستحق تفويض السماء.

* * *

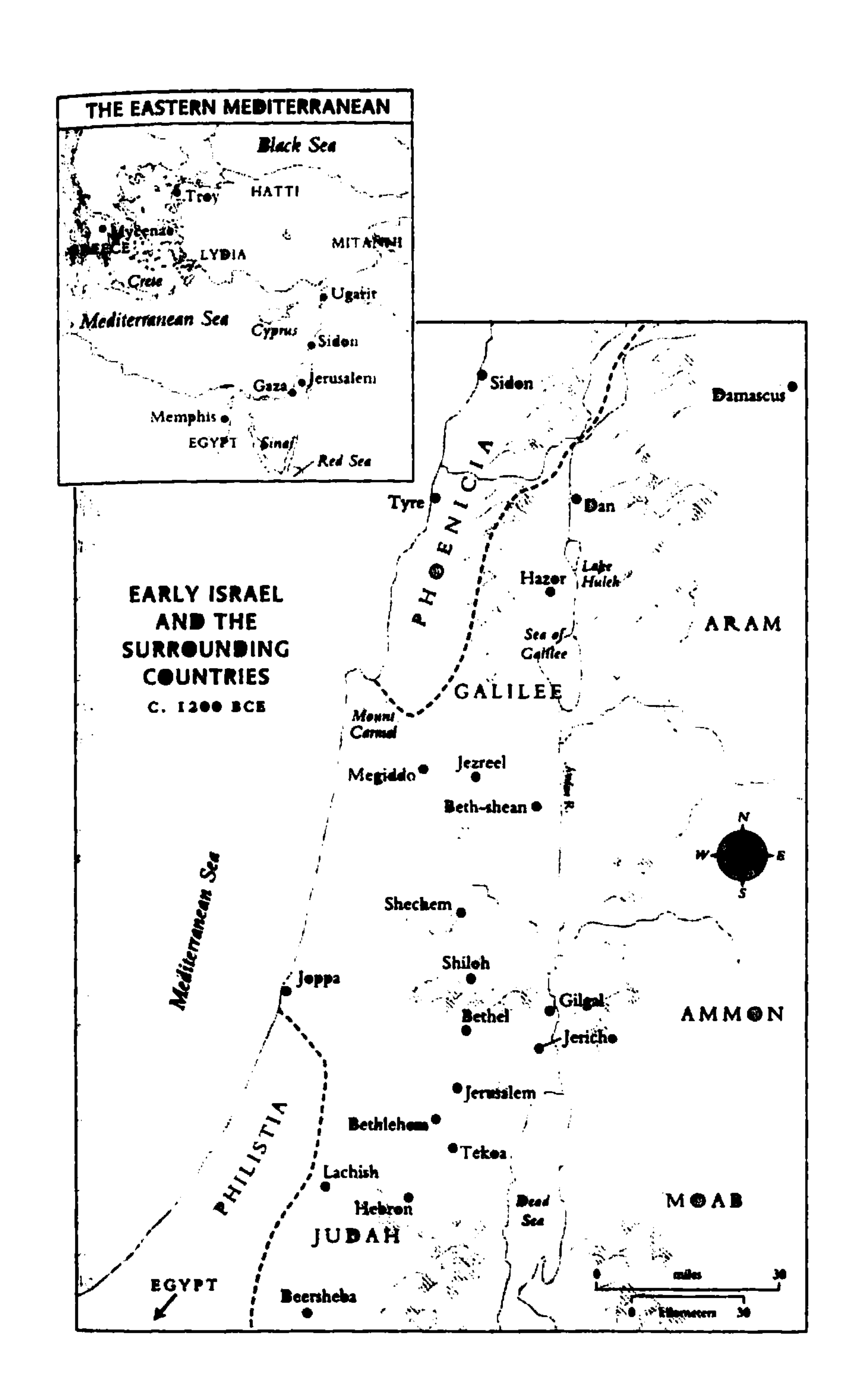
في القرن الثاني عشر، كان شرق المتوسط غارقاً في محنة قضت على ممالك الإغريق والحثيين والمصريين، وغرقت المنطقة كلها في عصر مظلم. إننا لا نعرف تماماً ما قد حدث. فقد اعتاد العلماء إلقاء اللوم على "شعوب البحر" المذكورة في السجلات المصرية، جحافل فوضوية لا جذور لها من البحارة والفلاحين من كريت وأنا طوليا تدفقت عبر المدن والقرى في الشرق الأدنى ودمروها. لكن ـ كما يبدو ـ أن شعوب البحر ربما كانوا أحد أعراض المحنة أكثر مما كانوا سببها. فلربما أدى التغير المناخي والبيئي إلى جفاف وقحط شديدين حطما الاقتصاديات المحلية، التي كانت تفتقر إلى المرونة كي تستجيب بإبداعية إلى حالة التمزق. فالحثيون والمصريون ـ طوال قرون ـ اقتسموا الشرق الأدنى فيما بينهم. إذ سيطر المصريون على كامل الجزء الجنوبي من سوريا، وفينيقيا، وكنعان، بينما حكم الحثيون آسيا الصغرى، والأناضول. بحلول عام 1130 كانت مصر قد فقدت معظم ولاياتها الأجنبية والعاصمة الحثية كانت مدمرة، والموانئ الكنعانية الكبيرة في كل من أوغاريت ومجيد وMegiddo، وحاصور، كانت مدمرة. أما في اليونان فكانت مملكة ميسينا مفككة. شعوب يائسة مشتتة كانت تتجول في المنطقة بحثاً عن عمل وعن أمن.

هذه النهاية المخيفة للكارثة أحدثت تأثيراً لا يمحى على كل من مر بها. من شعوب عصر المحور ظهرت خلال عصر الظلام الناجم عن الكارثة: حضارة إغريقية جديدة نهضت من أنقاض ميسينا. واتحاد قبائل يسمى إسرائيل ظهر في تلال كنعان. كان هذا عصر مظلم حقاً، بسجلات تاريخية قليلة.

لا نعرف سوى القليل عن كل من اليونان وإسرائيل خلال هذه الفترة. فحتى القرن التاسع ليس لدينا معلومات يمكن الركون إليها عن الإغريق، وإشارات قليلة مبعثرة عن إسرائيل الأولى.

انهيار كنعان كان تدريجياً تماماً[85]. دول المدينة الكبيرة على السهل الساحلي التي كانت جزءاً من الإمبراطورية المصرية منذ القرن الخامس عشر تفككت واحدة تلو أخرى، لأن مصر انسحبت، وهذه عملية ربما استغرقت أكثر من قرن. لا نعلم لماذا انهارت المدن بعد أن غادر المصريون. فربما حدث نزاع بين النخبة المدينية وبين الفلاحين الذين كانوا يزرعون الأرض التي كان الاقتصاد يعتمد عليها. وربما لعدم وجود استقرار اجتماعي ضمن المدن، أو منافسات بين دول المدينة بينما كانت سلطة المصريين تتراجع. فسقوط هذه المدن كان له تأثير مهم. فلوقت قصير قبل عام 1200 شُيدت شبكة من مستوطنات جديدة في التلال الممتدة من الجليل الأدنى في الشمال حتى إلى بئر السبع في الجنوب[86].

هذه القرى لم تكن حصينة: دون أسوار، ودون تحصينات، وليس فيها أبنية عامة كبيرة، أو قصور أو معابد، ولم تحتفظ بأرشيفات. فالمنازل المتواضعة المتشابهة تدل على مجتمع مساواة توزع الثروة فيه بالعدل. كان على الناس أن يكافحوا على الأرض الصعبة الصخرية. كان عماد اقتصادها محاصيل الحبوب، وتربية الماشية، فكما يبدو من السجل الأثري أن هذه المستوطنات ازدهرت. خلال القرن الحادي عشر كان هناك انفجار سكاني في التلال التي بلغ عدد سكانها 80 ألف نسمة. يتفق العلماء على أن سكان القرى كانوا شعب "إسرائيل" المذكورين في مسلة النصر للفرعون ميرنفتح (1210 ق.م)


THE EASTERN MEDITERRANEAN
Black Sea
Troy
HATTI
Mycenae
GREECE
LYDIA
MITANNI
Crete
Ugarit
Mediterranean Sea
Cyprus
Sidon
Gaza
Jerusalem
Memphis
EGYPT
Sinai
Red Sea
EARLY ISRAEL
AND THE
SURROUNDING
COUNTRIES
C. 1200 BCE
Sidon
Damascus
PHOENICIA
Tyre
Dan
Hazor
Lake
Huleh
ARAM
Sea of
Galilee
GALILEE
Mount
Carmel
Megiddo
Jezreel
Beth-shean
Mediterranean Sea
N
W
E
S
Shechem
Shiloh
Joppa
Gilgal
AMMON
Bethel
Jericho
Jerusalem
Bethlehem
PHILISTIA
Tekoa
Lachish
Hebron
Dead
Sea
MOAB
JUDAH
miles
30
EGYPT
Beersheba
kilometers
30

كان هذا أول ذكر ليس من الكتاب المقدس لإسرائيل، ويدل أن في هذه الفترة أن سكان الجبال كان يعتبرهم أعداؤهم مميزين عن الكنعانيين والحوريين والبدو الذين كانوا أيضاً يسكنون الريف[87].

لا يوجد وصف معاصر لتطور إسرائيل الأولى. إلا أن الكتاب المقدس يروي القصة بتفصيل كبير. لكن قد مضى وقت طويل قبل أن كانت هذه السرديات تروى شفوياً أصلاً، قبل أن يتم تدوينها. إيجاد الكتاب المقدس ـ كنتاج للعصر المحوري ـ كان عملية روحية طويلة استغرقت عدة قرون. فقد كتبت أقدم النصوص التوراتية خلال القرن الثامن، واتخذت الشريعة التوراتية شكلها النهائي خلال القرن الخامس أو الرابع. خلال عصرهم المحوري، فكر مؤرخون، وشعراء وحوليون، وأنبياء، ومدافعون عن الاسرائيليات في تاريخهم بكل عمق. فالآباء المؤسسون للأمة: إبراهيم، وموسى ويشوع وداوؤد كانوا مهمين روحياً لإسرائل مثلما كان yao وshun، ودوق الزهو بالنسبة للصينيين. فكر هؤلاء في قصة بداياتهم بكل مثابرة كما فعل حكماء الهند في تمحيص معنى الطقس القرباني. ولسوف تصبح قصة أصول إسرائيل الرمز المنظم الذي يدور حوله الاختراق المحوري. فكما سنرى، طور الإسرائيليون قصتهم، غيروها، زخرفوها، أضافوا إليها، أعادوا تفسيرها، وجعلوها تتحدث إلى الظروف الخاصة بالعصر. فكل شاعر، ونبي وعراف أضاف طبقة جديدة من سرد متطور كان يوسع ويعمق في المعنى.

تزعم القصة السردية التعريفية أن شعب إسرائيل لم يكن أصيلاً في كنعان. فسلفهم ـ أبراهام ـ أتى من أور في بلاد الرافدين، واستقر في كنعان بناء على أمر ربه في نحو عام 1750 ق.م. فالبطاركة قد عاشوا في أجزاء عديدة من بلاد التلال: أبراهام في الخليل، وابنه إسحاق في بئر السبع، ويعقوب ـ الإبن الأكبر لأبراهام ـ والذي سمي لاحقاً إسرائيل في منطقة شكيم sh-echem. لقد وعد يهوه البطاركة أنه سيجعل إسرائيل أمة قوية، ويعطيهم أرض كنعان. لكن خلال مجاعة، فإن يعقوب (أو إسرائيل) وأبناءه الإثني عشر (مؤسسو القبائل

الإسرائيلية) هاجروا إلى مصر. في البداية ازدهرت أحوالهم هناك. لكن في النهاية استعبدهم المصريون، فبقوا في الأسر طوال 400 سنة. لكن في عام 1250 أشفق إلههم يهوه عليهم، وباستعراض قوي للقدرة ـ حررهم بزعامة موسى. بينما كان الإسرائيليون يهربون من مصر، شق يهوه مياه بحر القصب بطريقة إعجازية، فعبروا إلى السلامة، وأغرق فرعون والجيش المصري الذي تبعهم في البحر في مطاردة ساخنة. وفي المنطقة الصحراوية إلى الجنوب من كنعان، أبرم يهوه عهداً مع إسرائيل على جبل سيناء، وأعطاهم الشريعة التي ستجعلهم شعباً مقدساً. لكن كان عليهم أن يمضوا 40 سنة في التيه قبل دخولهم أرض الميعاد. لكن في عام 1200 قاد يشوع جيوش إسرائيل إلى نصر. دمر الإسرائيليون جميع البلدات والمدن الكنعانية، وقتلوا السكان، واتخذوا الأرض ملكاً لهم.

لكن تنقيبات علماء الآثار الإسرائيليين منذ عام 1967 لا تؤكد هذه القصة. إنهم لم يعثروا على أي أثر للدمار الجماعي الموصوف في شعر يشوع، ولا دلائل على غزو أجنبي، ولا مصنوعات يدوية مصرية، ولا دليل على تبدل في السكان. وغالباً ما يتخذ النقاش بين العلماء طابعاً شرساً وعدوانياً في أغلب الأحيان أو طابع الخصومة، مثل النقاش حول أصول الثقافة الفيدية في الهند. الإجماع العام بين العلماء هو أن قصة الخروج من مصر ليست واقعة تاريخية. والسرد التوراتي يعكس ظروف القرن السابع أو السادس عندما كتبت معظم هذه النصوص، بدلاً من القرن الثالث عشر. ويعتقد عدد من العلماء أن العديد من المستوطنين الذين أوجدوا المستعمرات الجديدة في التلال ربما كانوا مهاجرين من دول ـ المدينة الفاشلة على الساحل.

ومن المحتمل أن العديد من الإسرائيليين الأوائل لم يكونوا أجانب بل كنعانيين. والأجزاء الأقدم من الكتاب المقدس تقول أن يهوه كان أصلاً إله الجبال الجنوبية. ويبدو أن من المرجح أن قبائل أخرى هاجرت إلى التلال من الجنوب جالبة يهوه معها. وربما أتى بعض الإسرائيليين ـ خاصة قبيلة يشوع ـ من مصر. ربما شعر الإسرائيليون الذين عاشوا تحت الحكم المصري في دول المدينة

الساحلية، أنهم تحرروا من مصر، لكن في أرضهم هم. لم يكن الكتاب التوراتيون يحاولون كتابة عرض دقيق علمياً يرضي مؤرخاً حديثاً. إنهم كانوا يبحثون عن معنى وجودي، فكانت قصصاً ملحمية، وأساطير قومية ساعدت الناس على خلق هوية مميزة[88].

لماذا زعم الإسرائيليون أنهم أجانب إذا كانوا في حقيقة الأمر مواطنين أصليين في كنعان؟ لقد وجد علماء الآثار دليلاً على اضطراب اجتماعي ـ اقتصادي كبير في التلال، وانزياحات سكانية رئيسية، وصراعات موت وحياة بين جماعات إثنية متنافسة[89]. فحتى العرض التوراتي يوحي أن إسرائيل لم تتحدر من سلف واحد، بل كانت تتكون من عدد من اثنيات مختلفة ـ Gibeonies، Jerhmeeltles ، Kenite، وكنعانية من مدن Hepher , Tirzah، التي أصبحت جميعاً جزءاً من "إسرائيل"[90]. فهذه الجماعات والعشائر يبدو أنها قد ربطت نفسها باتفاق عهد[91]. فاتخذوا جميعاً قراراً شجاعاً مقصوداً أن يديروا ظهورهم على الثقافة المدينية القديمة لبلاد كنعان. بهذا المعنى كانوا فعلاً لا منتمين، وتجربة العيش على الهامش ربما ألهمت اعتقادهم بالأصول الأجنبية لإسرائيل، والجدل المناهض للكنعانيين في الكتاب المقدس. فإسرائيل كانت وافداً جديداً في عائلة الأمم، مولودة برض نفسي وثوران، ومهددة باستمرار بالتهميش. فطور الإسرائيليون هوية معاكسة وقصة مقابلة: كانوا مختلفين عن الأمم الأخرى في المنطقة، لأنهم كانوا يحظون بعلاقة فريدة مع إلههم يهوه[92].

فالروح العامة القبلية كانت تطالب أن ينتقم أفرادها لمقتل أقاربهم، فالعشيرة كانت جسداً واحداً، ويتقاسم رجال القبيلة حياة واحدة[93]. من هنا كان عليهم أن يحبوا "أفراد قبيلتهم مثلما يحبون أنفسهم. وكلمة hesed غالباً ما تترجم الحب love كانت أصلاً كلمة قبلية تعني الولاء لعلاقة قرابة تتطلب سلوكاً إيثارياً وكريماً تجاه جماعة عائلة المرء[94]. أما من لم يكونوا أقارب بالدم، بالإمكان إدماجهم في القبيلة عن طريق الزواج، أو معاهدة ميثاق تعطيهم مكانة أخوة. كان على رجال القبيلة أن يحبوا هؤلاء الأعضاء الجدد محبتهم

لأنفسهم، لأنهم أصبحوا لحماً من لحمهم، وعظماً من عظامهم. فقد استخدم العديد من المواثيق المبكرة في الشرق الأوسط هذه الكلمات الدالة على القرابة. ومن المرجح أن هذه الروح العامة تروي العهد الذي كان يربط الجماعات الإثنية ـ المختلفة ـ سوياً في إسرائيل الجديدة[95]. بينما كانت الوحدات الاجتماعية تصبح أكبر في العالم السامي الغربي، كانت مفردات القرابة تستخدم أكثر من ذي قبل كي تؤكد على قدسية الرابطة التي كانت تربط الإتحاد الأكبر سوياً. مؤسسات وشرائع إسرائيل الأولى كانت محكومة بالمثل الأعلى القبلي. شعر الإسرائيليون ـ مثلهم مثل شعوب أخرى في المنطقة ـ أنهم مرتبطون بإلههم القومي، فأسموا أنفسهمamyahweh أي (الأقارب) أو شعب يهوه[96].

يوضح السجل الأثري أن الحياة في بلاد التلال كانت تتسم بالعنف. كان عصراً فوضوياً في شرق المتوسط، وكان على المستوطنين الأوائل أن يقاتلوا من أجل الأرض التي كانوا يحاولون أن يستعمروها. فالكتاب المقدس يحتفظ بذكرى انتصار عظيم عند نهر الأردن: القبائل التي هاجرت من الجنوب عبر منطقة مؤاب قاومت جماعات محلية أرادت أن تمنعها من عبور النهر. بعد أن كان المستوطنون يستقرون في منطقة كانوا مجبرين أن يتعايشوا مع جيرانهم، ويتحدوا ضد من يهددون أمن مجتمعهم الناشئ. يعتقد الآثاريون أن الحروب المتقطعة الموصوفة في سفري القضاة وصموئيل I أنها وصف دقيق معقول للظروف في القرنين الحادي عشر والقرن العاشر. كان على إسرائيل أن تتنافس مع جماعات كهذه، مثل الفلسطينيين الذين استوطنوا قبلهم على الساحل الجنوبي لكنعان في نحو عام 1200، بينما كانت القرى الأولى تبنى في التلال. كان ينبغي على القائد القبلي أن يكون قادراً على جمع الدعم من مستوطنات مجاورة إذا ما هوجمت قبيلته. ولهذا السبب كانت مؤسسات الحرم (herem) (أي حرب مقدسة) كانت حاسمة في المجتمع الإسرائيلي. فإذا ما هوجمت هذه القبيلة، أمر القاضي عشائر أخرى بالانضمام إلى ميليشيات يهوه. أما تابوت العهد فكان يحظى بمكانة مركزية في معتقد إسرائيل palladium، أي رمز للعهد الذي يربط

الإسرائيليين مع يهوه، وكان التابوت يحمل في المعركة. وعندما كانت تنطلق الجيوش كان القاضي ينادي على يهوه كي يرافق تابوت العهد.

قم يارب - يهوه - فلتبدد أعداءك ويهرب

مبغضوك من أمامك. (سفر العدد، 10 : 32)

كانوا يعيشون معرضين للهجوم باستمرار، ومستعدين للحرب، ولذلك طوروا عقيدة محاربة:

على الرغم من أن شعب إسرائيل شعروا أنهم منفصلين كثيراً عن جيرانهم كما يوحي السجل التوراتي، فإن دين إسرائيل حتى القرن السادس، لم يكن في حقيقة الأمر مختلفاً جداً عن دين المحليين الأخرين. فابراهام، واسحاق، ويعقوب عبدوا الإله إيل إله بلاد كنعان العظيم، كما دمجت الأجيال التالية عبادة إيل بعبادة يهوه[98]. لقد أشار يهوه إلى هذه العملية عندما شرح لموسى أن في بداية تاريخ إسرائيل، أسماه البطاركة دائماً إيل، أما الآن فقط كان يكشف اسمه الحقيقي "يهوه"[99]. بيد أن الإسرائيليين لم ينسوا أبداً إيل. طوال زمن طويل مزار يهوه كان خيمة مثل الخيمة التي كان يجلس فيها إيل الكنعاني في محفل الآلهة الكنعانية.

في بلاد كنعان، لاقى إيل أخيراً مصير معظم الآلهة العلية high gods، وبحلول القرن الرابع كانت عبادته في حالة تراجع. لقد تم استبداله بالإله بعل، إله العاصفة الديناميكي، محارب إلهي يركب السحاب في عربته، ويخوض معارك ضد آلهة أخرى، ويجلب الأمطار الواهبة للحياة. في الأيام الأولى، كانت عبادة يهوه مماثلة جداً لعبادة بعل، وبعض ترانيم بعل عدلت كي تستخدم في هيكل يهوه في أورشليم. الدين الشرق أوسطي كان لا أدرياً agnostic (أي لا يمكن معرفة أي شيء عن ذات الله)، وتهيمن عليه قصص الحروب، عراك بالأيدي، ومعارك مخيفة بين الآلهة. ففي بابل الإله المحارب مردوخ قتل تيامات - البحر البدئي - شق جثته نصفين وخلق السماء والأرض. ففي كل سنة كان يعاد تمثيل هذه المعركة في معبد Esagila أثناء الاحتفال بالسنة الجديدة لإبقاء العالم

في الوجود لسنة أخرى. وفي سوريا قتل الإله بعل لوتان Lotan تنين بحر له سبعة رؤوس - هو نفسه لويثان leviathan في الكتاب المقدس. وحارب أيضاً يام yam أي البحر البدئي رمز العماء، وحارب موت mot إله الجفاف والموت والعقم. احتفالاً بانتصاره بنى بعل لنفسه قصراً على قمة sapan، جبله المقدس. فحتى القرن السادس، تخيل الإسرائيليون أيضاً يهوه محارباً التنينات البحرية مثل لويثان لخلق العالم وإنقاذ شعبه[100].

الترانيم الإغريقية توضح أن طريقة بعل الإله المحارب قد زلزلت الكون كله عندما كان يتقدم على أعدائه مع حاشيته " من الأشخاص المقدسين" ملوحاً بصاعقته:

السموات التفت إلى أعلى مثل لفافة،

وجميع الجنود ذبلوا

كما تذوي ورقة العنب،

مثلما تسقط ثمرة التين[101].

الصوت المقدس لبعل زلزل الأرض، والسماوات ارتجفت لزئيره[102]. عندما رجع منتصراً إلى جبل sapan رعد صوته من قصره، وجلب المطر[103]. شارك عباده في صراعه ضد الجفاف والموت بإعادة تمثيل هذه المعارك في القربان الأوغاريتي. بعد معركة الحياة والموت التي خاضها بعل ضد mot، كان يلتم شمل بعل وعناة بسعادة. عابدوه احتفلوا بلم الشمل أيضاً في جنس طقوسي لكي ينشطوا القدرة المقدسة للتربة فتنتج محصولاً وفيراً. نعرف أن الإسرائيليين كانوا يشاركون في احتفالات القصف والعربدة هذه حتى القرن الثامن، فكان هذا مصدر نفور لأنبيائهم.

في أقدم النصوص في الكتاب المقدس هناك أبيات معزولة كتبت في نحو القرن العاشر، وأدخلت في السرديات التالية، تقدم يهوه كمحارب إلهي مثل بعل. في هذه الفترة كانت القبائل تعيش حياة خطرة عنيفة، وكانت بحاجة إلى دعم إلهها. صورت القصائد يهوه سائراً من بيته في الجبال الغربية وآتياً لمساعدة شعبة في التلال، وهذه أنشودة ديبوره Deborah:

يا رب بخروجك من سعير، بصعودك من صحراء أدوم
الأرض ارتعدت. السماوات أيضاً قطرت
كذلك السحب قطرت ماءً.
تزلزلت الجبال من وجه الرب. (القضاة، 5: 4 ـ 5).

في قصيدة أخرى من هذه القصائد المبكرة، عندما يأتي يهوه من جبل فاران فرجفت الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم

بغضب خطرت في الأرض. بسخط دست الأمم. (105) حبقوق 3 ـ 8

في إسرائيل الأولى لم يكن هناك حرم مركزي عدا عن عدد من المعابد في شكيم وGilal، وبيت إيل، وسيناء، والخليل. ما نستطيع قوله من نصوص متأخرة في السرد التوراتي المتأخر كان تابوت العهد يحمل من مقام إلى مقام، واجتمع الإسرائيليون عند معبدهم المحلي ليجددوا عهدهم في حضرة يهوه. كانت المعابد ـ في أغلب الأحيان ـ مرتبطة بشخيصات عظيمة من ماضي إسرائيل. فأبراهام كان البطل المحلي للقبائل الجنوبية حول الخليل، وأسس يعقوب المقام في بيت إيل، ويوسف ـ أحد أبناء يعقوب المفضلين كان يعظم بين قبائل التلال الشمالية. كما كان موسى محبوباً أيضاً في الشمال خاصة في Shiloh[106]. أثناء احتفالات التابوت كان المنشدون، والكهنة، والقضاة يروون القصص عن هؤلاء الرجال العظام. وكانوا يستحضرون أن أبراهام قد استضاف ذات مرة ثلاثة غرباء في خيمته في المريا قرب الخليل، وأن أحد الغرباء كان يهوه شخصياً، وأن يعقوب رأى يهوه في المنام في بيت إيل، رأى فيه سلماً كبيراً يصل بين السماء والأرض. وبعد فتح يشوع للبلاد ربط القبائل سوياً في عهد شكيم. من المحتمل أن كل مقام كانت له أسطورته التي كانت تنقل شفوياً من جيل لآخر، وتروى في مناسبات كي تذكر القبائل بواجباتها تجاه قرابتها. من المحتمل أن الإسرائيليين كانوا يعيدون تمثيل هذه الأعمال العظيمة في احتفالاتهم. فعلى سبيل المثال يعتقد بعض العلماء أن سفر يشوع يحتوي على سجل لمهرجان الربيع في Gilal، الذي كان يحتفي بعبور القبائل المظفر لنهر الأردن[107]. يقطع المؤرخ التوراتي الوصف

الطقوسي من خلال شرح أن في وقت الربيع، أثناء وقت الحصاد "يفيض نهر الأردن على طول ضفتيه[108]". ويبدو أن الماء كان يجمع من أجل الاحتفال الذي كان يحيي ذكرى معجزة عظيمة.

عندما قاد يشوع الناس إلى طرف ماء الفيضان، طلب منهم أن يقفوا ساكنين، ويروا ما حدث. فحالما لامست المياه أقدام الكهنة حملة التابوت، انشقت المياه بشكل إعجازي وعبر الناس بسلام دون أن تبتل أقدامهم ودخلوا أرض الميعاد في Gilal. عندما سمع الناس المحليين، وملوك العموريين على الضفة الغربية من نهر الأردن، وجميع ملوك الكنعانيين في المنطقة الساحلية ما قد حدث " أصبحت قلوبهم ضعيفة، وخانتهم معنوياتهم، بينما كان الإسرائيليون يقتربون[109]". في كل سنة، في مهرجان العبور الربيعي يعاد تمثيل هذه اللحظة العظيمة طقوسياً. كانوا يجتمعون على الضفة الشرقية لنهر الأردن، ويطهرون أنفسهم، ويعبرون المياه إلى الضفة الغربية. ثم يدخلون المعبد في Gilal حيث توجد حلقة من حجارة واقفة جلجلة gilgal. واحدة لكل من القبائل الأثنتي عشرة إحياء لذكرى الحدث. فهناك نصب الإسرائيليون مخيماً جددوا العهد، واحتفلوا بالعبور بأكل خبز الفطير، والقمح المحمص في ذكرى آبائهم الذين ذاقوا انتاج البلاد لأول مرة بعد دخولهم إلى البلاد[110].

ربما كان هناك إعادة تمثيل للحلم الذي رآه يشوع بعد أن انطلق الجيش الإسرائيلي من Gilal:

وحدث لما كان يشوع عند أريحا، رفع عينيه ونظر. وإذ برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده. فسار يشوع إليه وقال له: هل لنا أنت أو لأعدائنا. فقال كلا بل أن رئيس جند الرب. الآن أتيت. فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض، وسجد، وقال له: بماذا يعلم سيدي عبده. فقال رئيس جند الرب ليشوع: اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس ففعل يشوع كذلك" يشوع 5: 13 ـ 15

مهرجان العبور كان استعداداً للحرب المقدسة من أجل أرض الميعاد، بدأت بهجوم على أريحا التي بدأت أسوارها تتهاوى إعجازياً، والإسرائيليون تدفقوا في المدينة:

"لقد فرضوا الحرم على كل شيء في المدينة: الرجال والنساء، الشبان والشيوخ، حتى الثيران والأغنام والحمير، فتلوها كلها"[112].

كان يهوه إله حرب. مهرجان Gilal كان يحدث في وقت الربيع، ولم يكن هناك صلوات على محصول جيد، بل إحياء لذكرى حملة عسكرية فقط. سمي إله إسرائيل يهوه صبوات sabaoth أي إله الجيوش، وكان يرافقه جيشه السماوي، وقائده قاد الإسرائيليين في المعركة. فالحرب كانت نشاطاً مقدساً. كان الناس يطهرون أنفسهم قبل المعركة وكأنها كانت شعيرة دينية، وأرض المعركة ـ حيث رأى يشوع رؤياه ـ كانت مكاناً مقدساً ايضاً. شعوب كثيرة في الشرق الأوسط تعيد تمثل معارك كونية، لكن إسرائيل بدأت تفعل شيئاً مختلفاً. بدلاً من إحياء ذكرى نصر تحقق في زمن مقدس في العالم البدئي للأسطورة، احتفل الإسرائيليون بنصر كان ـ كما يعتقدون ـ قد حدث في زمن بشري في الماضي غير البعيد.

هذا الإنتقال من الأسطورة إلى التاريخ جلي في واحدة من أقدم قصائد الكتاب المقدس، وربما كانت تنشد خلال مهرجان Gilal، وربما أنها تعود إلى القرن العاشر[113]. في النص التوراتي النهائي " مزمور البحر[114]" قد تم إدخاله في قصة الخروج، مباشرة بعد عبور بحر القصب ووضع على شفاه مريم أخت موسى. يوضح أن أعداء إسرائيل لم يتم إغراقهم في بحر القصب بل في نهر الأردن. فالناس الذين رأوا هذه المعجزة لم يكونوا الشعب المصري أو سيناء، بل سكان كنعان أو الممالك على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

حينئذ يندهش أمراء أدوم.

أقوياء مؤاب تأخذهم الرجفة.

يذوب جميع سكان كنعان

تقع عليهم الهيبة والرعب.[115] الخروج 15:15 ـ 16

وصف المزمور يهوه قائداً شعبه في مسيرة مظفرة عبر أرض الميعاد، وليس عبر شبه جزيرة سيناء. وتم تعديلها لاحقاً كي تناسب قصة الخروج. لكن يبدو أن

الطقس المبكر الذي يحتفي بعبور الأردن قد ساعد في تشكيل العرض التوراتي التالي لعبور بحر من القصب[116].

كان سهلاً إدخال نصر في بحر من القصب بالمعجزة عند نهر الأردن. ففي الميثولوجيا الكنعانية جعل بعل الكون قابلاً للسكن من خلال قتل يم yam البحر البدئي، الذي كان دائماً رمزاً لقوى العماء المدمرة في الشرق الأوسط. لكن يم أسميت Prince river، فكلمتا بحر ونهر كانتا تبادليتين. مزمور البحر يوضح التأثير القومي لعبادة وميثولوجيا بعل[117]. يهوه - مثل بعل - كان يُعظّم كإله محارب.

بيمينك يارب تحكم العدو

وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك

ترسل سخطك فيأكلهم كالقش.[118] الخروج 15: 6 - 7

يهوه - على شاكلة بعل - سيطر بكل اقتدار على البحر / النهر، نفخة صاهرة من فتحتي أنفه جعلت المياه تعلو وكأنها سد[119]. وبعد نصره، سار يهوه إلى جبله المقدس حيث كان قد ثُبّت كملك إلى الأبد، تماماً كما توج بعل على جبل sapan بعد انتصاره على يم.

لكن هناك اختلافات مذهلة، عندما سار بعل قدماً زلزلت الجبال والغابات والصحارى، بينما في مزمور البحر كان الناس المحليون هم الذين شلّهم الرعب عندما مر بهم يهوه. فالإيقاعات التحتية الأسطورية أعطت معنى متعالياً للمعارك التاريخية لإسرائيل.

كما سنرى في الفصل التالي سيصبح الاسرائيليون لاحقاً معادين جداً لبعل، لكن عند هذه المرحلة وجدوا عبادته ملهمة. إنهم لم يكونوا موحّدين بعد. كان يهوه إلههم الخاص بهم، لكنهم كانوا يقرون بوجود آلهة أخرى، وعبدوها، ولن يصبح يهوه الإله الوحيد حتى أواخر القرن السادس. في الأيام المبكرة كان يهوه مجرد واحد من "المقدسين holy ones أو "أبناء إيل الذين كانوا يجلسون في المجلس الإلهي.

في بداية الزمن ـ قيل ـ إن إيل قد عين "واحداً مقدساً" كي يكون الإله الراعي لكل أمة، ويهوه قد عيّن " الواحد المقدس لإسرائيل". لقد عبرت قصيدة أخرى مبكرة تم إلحاقها بسفر التثنية عن هذا اللاهوت:

حين قسّم العلي للأمم، حين فرق بني آدم نصب تخوماً

لشعوب حسب عدد بني إسرائيل. إن قسم الرب هو شعبه

يعقوب حبل نصيبه.[120] *التثنية 32: 8 ـ 9*

الكلمة الآكادية الدالة على القداسة هي ellu "أي النظافة، البهاء، والنور"، تم ربطها بالكلمة العبرية إيلوهيم Elohim التي ترجمت "إله"، لكنها بالأصل قد لخصت كل ما تعنية الآلهة للبشر. "الواحدون المقدسون" في الشرق الأوسط كانوا مثل آلهة devas "الواحدون المشرقون" في الهند. في الشرق الأوسط، كانت القداسة قدرة تقع خارج الآلهة، مثل براهمن. كلمة ilam "ألوهة" في بلاد الرافدين القديمة كانت تشير إلى قدرة مشعة تتجاوز أي إله محدد، كانت حقيقة أساسية، ولم يكن بالإمكان ربطها بشكل واحد مميز. لم تكن الآلهة المصدر لـ Ilam، بل مثل كائنات بشرية، جبال، أشجار، نجوم كانت تساهم في هذه القداسة. والكائن الذي يحتك بهذه Ilam كان يصبح مقدساً أيضاً: سواء كان ملكاً، كاهناً، معبداً، حتى أواني الطقوس أصبحت مقدسة عن طريق التداعي. وسيبدو غريباً لدى الإسرائيليين الأوائل أن يقصروا المقدس على وجود إلهي وحيد[121].

مع حلول بداية الألفية الأولى، كان المجتمع الإسرائيلي قد تطور، وأصبح أكثر تعقيداً، لأن النظام القبلي القديم لم يعد كافياً. فعلى الرغم من أن كثيرين قاوموا هذه الخطوة، فقد اتخذ قرار أن إسرائيل بحاجة إلى ملكية. فوفقاً للكتاب المقدس الملكان داؤود (1000 ـ 970)، وسليمان (970 ـ 930) حكما مملكة متحدة من عاصمتهما في أورشليم. لكن مع حلول القرن العاشر انقسمت هذه المملكة إلى دولتين منفصلتين: مملكة إسرائيل في الشمال التي كانت أكبر مساحة وأكثر ازدهاراً، وضمت 90٪ من السكان. فالأرض كانت

خصبة، ووفيرة الإنتاج، كما سهل الاتصال والنقل ذلك نسبياً. كما أن وادي جزريل كان ـ منذ زمن طويل ـ طريقاً رئيسياً للتجارة بين مصر وبلاد الرافدين. ومملكة يهودا الصغيرة في الجنوب التي حكمها أحفاد الملك داؤود، كانت أصغر مساحة بكثير، وأكثر عزلة، وكان من الصعب زراعة أرضها الوعرة.

إننا نعرف الكثير عن مملكة يهودا، لأن كاتبي التوراة انحازوا إلى مملكة الجنوب، التي كانت مملكة كنعانية نموذجية. فالعبادة تركزت على شخص الملك الداؤودي، النظير الأرضي للمحارب الإلهي، وشخصية مقدسة لعلاقته العبادية بيهوه. فعند تنصيب الملك الداؤودي كان يصير واحداً من " الواحدين المقدسين"، ابن الله.

لقد تبناه يهوه الذي أعلن : " أنت ابني اليوم، اليوم أصبحت أباك"[123]، وكخادم خاص ليهوه، جلس في المجمّع الإلهي مع أبناء الله الآخرين. وبصفته وكيلاً ليهوه سيدمر منافسيه الأرضيين، كما هزم يهوه القوى الكونية: البحر، والنهر. أما طقوس تابوت العهد فقد تم دفعها إلى الخلف، والعهد الذي أقام تحالفاً بين يهوه والقبائل قد انخسف في يهودا من خلال العهد الذي قطعه يهوه إلى الملك داؤود، واعداً إياه بأن سلالة حكمه ستدوم إلى الأبد. لقد ركزت احتفالات العهد القديمة على التاريخ الإسرائيلي، لكن عبادة الملك عادت إلى الميثولوجيا القديمة. فمزامير الهيكل من القرن العاشر وصفت يهوه وهو يخطو عبر البحر مثل بعل ورعده وبرقه الذي يومض على العالم ـ بينما كان يسرع لنجدة أورشليم[124]. في احتفال السنة الجديدة، ربما أن موكباً كبيراً كان يعيد تمثيل مسيرة يهوه المظفرة إلى صهيون ـ جبله المقدس، وحمل تابوت العهد إلى داخل الهيكل الذي بناه الملك سليمان.

كانت الجوقات تنشد مزموراً " يهوه القوي والباسل، يهوه الباسل في المعركة".

الأبناء الآخرون " إيل" رعاة إلهيون لأمم منافسة يجب أن تدفع جزية ليهوه، الذي قضى على أشجار الأرز في لبنان، وشحذ حراب البرق، عندما دخل هيكله

المقدس[125]" صوت يهوه زلزل البرية، وعرى الغابة من أوراقها " يهوه يجلس متوجاً على البحر، يهوه يجلس ملكاً إلى الأبد"[126].

كان يهوه ما يزال إلها محارباً، لكنه لم يكن الإله الوحيد المعبود في إسرائيل. آلهة، وإلاهات أخرى كانت أكثر لطفاً، كانت ترمز إلى الانسجام والتوافق، وكانت تجعل الأرض خصبة. فبعد أن هزم موت Mot أعيد لم شمله على عناة، حتى بعل الشرس أعلن أن انتصاره قد دشن توافقاً عميقاً بين السماء وأعماق الأرض:

كلمة من شجرة، وهمسة حجر، حديث السماء مع الأرض من الأعماق إلى النجوم"[127] كان الإسرائيليون بحاجة إلى دعم من إلههم المحارب، وكانوا فخورين بيهوه، لكن معظمهم كان يريد أشكالاً أخرى من القداسة أيضاً. هذا كان سيؤدي إلى نزاع مع الأقلية الصغيرة التي كانت تريد عبادة يهوه وحده.

لم يكن العصر المحوري قد بدأ بعد. جميع هذه التراثات كانت تتسم بمستوى عالٍ من القلق. فقبل تغير الحياة في السهوب من جراء عنف لصوص المواشي، كان الدين الآري مسالماً ولطيفاً، لكن الصدمة التي أحدثها هذا العنف غير المسبوق قد أجبر زرادشت أن يطور نظرة لا أدرية قطبية. وفي إسرائيل والهند أيضاً فإن انعدام الأمن، والصعوبات التي تبقي المجتمع في منطقة معادية جديدة، قد أدخلت صور العنف والعدوان في العقيدة. فالناس لا يستطيعون العيش إلى مالا نهاية مع هذه الدرجة من التوتر. لقد علمهم الطقس أن ينظروا في الجحيم، ويدركوا أنه كان بالإمكان أن يصمدوا في وجه المحال وأن يعيشوا. في القرن التاسع، الاغريق الشعب الرابع من الشعوب المحورية كانوا يبدؤون الخروج من عصرهم المظلم، وأظهرت تجربتهم كيف أن مسرحيات الطقوس ساعدت أناس العالم القديم أن يتعاملوا بإبداعية مع كارثة ويأس تاريخيين.

الفصل الثاني

الطقوس

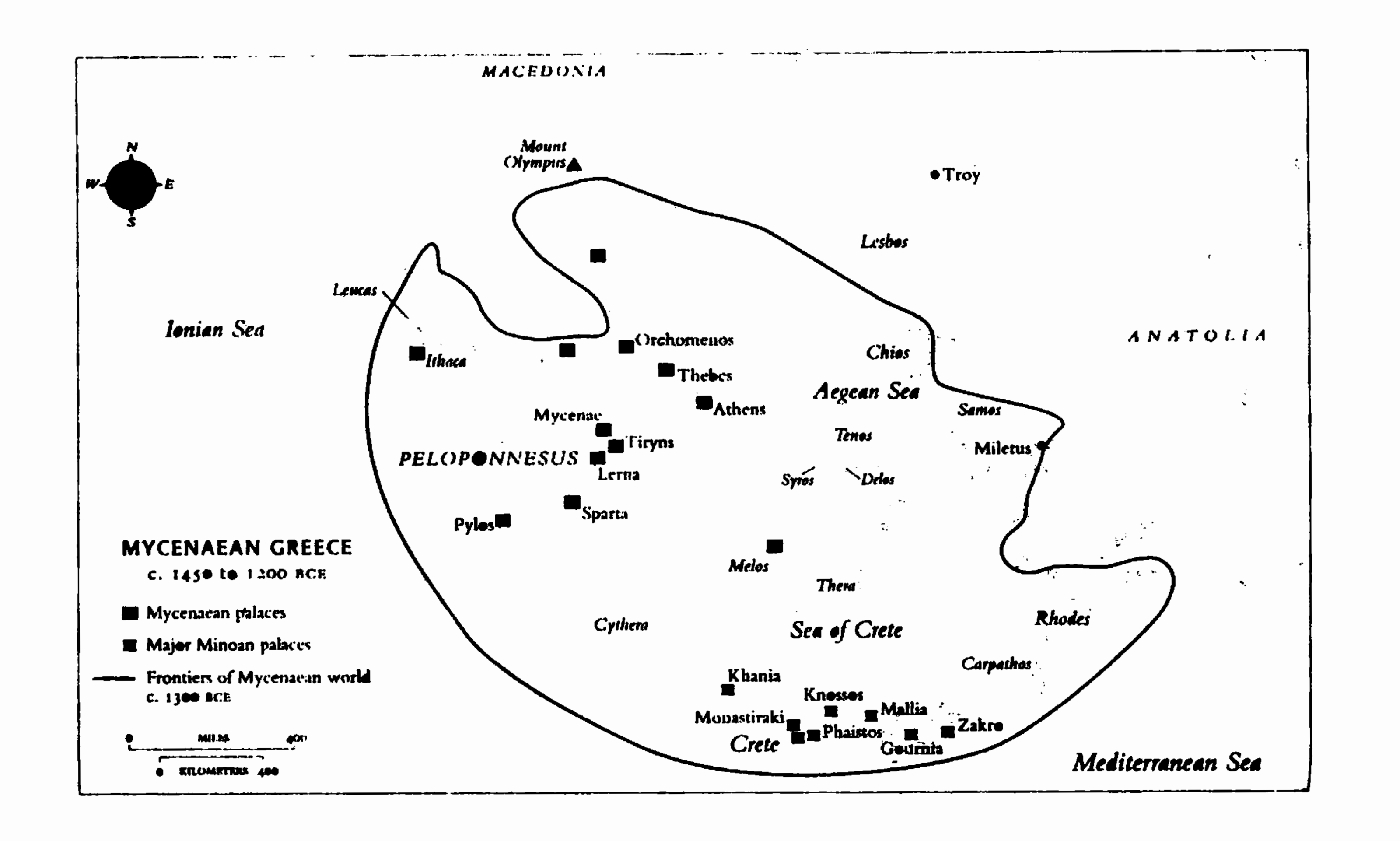
من 900 ق.م إلى 800 ق.م

ضربت الأزمة في شرق المتوسط اليونان في نحو عام 1200 ق.م. من الممكن أن في آخر انفجار للقدرة دمر الإغريق المسينيون مدينة طروادة في آسيا الصغرى: لقد كشف الأثاريون عن دليل للدمار الذي يعتقدون أنه حدث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. لكن على شاكلة ممالك الشرق الأدنى انهارت المملكة المسينية أيضاً، ودخلت اليونان عصراً مظلماً دام 400 سنة. كان المسينيون قد سيطروا على المنطقة منذ القرن الرابع عشر، وأقاموا شبكة مدن تجارية كانت تصدر زيت الزيتون إلى الأناضول وسوريا مقابل الزنك والنحاس. لم يكن المجتمع المسيني على شاكلة الحضارة الميونية Minoan (2200 ـ 1375) بل كان عدوانياً وعسكرياً. ويبدو أن هؤلاء الذين حكموا من knssor كانوا شعباً مسالماً لطيفاً. فقصورهم كانت مزينة بلوحات ملونة بشكل جميل من الفريسكو، ولم تكن محصنة لأن الحرب كانت تهديداً بعيداً. بينما سيطر الإغريق المسينيون على الجماهير بعروض استعراضية لأحدث التقانة العسكرية: عربات حربية مستوردة من الإمبراطورية الحثية، وقلاع حصينة، وقبور جميلة، كما كان الملك قد طور إدارة كفؤة. من عاصمتهم في مسينا حكم المسينيون مسينا، وpylos بيلوس، وأتيكا وBoetia، وThesslay، والجزر الإغريقية وقبرص. ووفقاً لمصادر حثية كانوا قد بدأوا يغيرون على المدن الساحلية بحلول القرن الثالث عشر.

هـذه الحضارة القوية اختفت بين ليلة وضحاها. والمدن المسينية، pylos، وTiryn ومسينا تعرضت للدمار من قبل شعوب البحر، ربما، فهاجر بعض السكان إلى أركاديا، وقبرص، وآخيا Achaea في شمال البلبونيز، وأصبحت ملجأ للمسينيين الذين أصبحوا يعرفون من تلك الفترة فصاعداً باسم الآخيين[1]. لكنهم بالكاد تركوا أثراً. عَدَّل المسينيون الكتابة Minoan وفقاً للغتهم، لكن النصوص بقيت مجرد قوائم لمعدات، وإمداد، ومشتريات، ولذلك لا نعرف سوى القليل جداً عن مجتمعهم الذي ـ كما يبدو ـ كان يدار وفق مسارات كريتية أو مسارات الشرق الأدنى، ويحمل علاقة بسيطة بالثقافة اليونانية التي ستظهر في عصر المحور.

كان الإغريق شعباً هندو ـ أوروبي بدأ يستوطن في المنطقة في نحو عام 2000 ق.م. على شاكلة آريو الهند، لم يكن لديهم ذاكرة عن السهوب، واعتقدوا أن أسلافهم قد عاشوا دائماً في اليونان. لكنهم كانوا يتكلمون لهجة هندو ـ أوربية، وكان لديهم بعضاً من نفس العادات الدينية والثقافية مثل الهندو ـ آريين كانت النار أساسية في العبادة الإغريقية، كما كانوا منافسين متحمسين، يقيمون سباقاً على كل شيء كان باستطاعتهم فعله. في البداية استوطنت القبائل الإغريقية على أطراف المجتمع الميوني، لكن مع حلول عام 1600 بدأوا بإرساء حضور قوي على البر الرئيسي، وكانوا مستعدين للسيطرة وتأسيس مملكة مسينية عندما تراجعت الحضارة الميونية بعد سلسلة كوارث طبيعية.

إننا نعرف القليل جداً عن الدين الميوني أو المسيني، من أعمال النحت وقرابين النذور التي اكتشفها علماء الآثار. فكما يبدو أنهم كانوا يحبون الرقص والمواكب، وعبادة أشجار مقدسة، وقدموا قرابين حيوانية إلى آلهتهم على قمم الجبال، وكان لديهم رؤى نشوية. فالخواتم الذهبية، والتماثيل الصغيرة تظهر الرجال والنساء متأهبين ومنتصبي القامة، عيون محدقة نحو شكل إلهة محلقة في السماء. وأماكن الدفن كانت مقدسة، الملك كان شريك الألهة: تصوره خواتم في حديث مع إلهة تسلمه رمحاً وعكازاً. وبقي بعض هذه الطقوس في الدين الإغريقي اللاحق: زيوس، أثينا، بوسيدون، وديونيسيوس.


MACEDONIA
N
W
E
S
Mount Olympus
Troy
Lesbos
Leucas
Ionian Sea
ANATOLIA
Ithaca
Orchomenos
Chios
Thebes
Aegean Sea
Athens
Samos
Mycenae
Tiryns
Tenos
Miletus
PELOPONNESUS
Lerna
Syros
Delos
Sparta
Pylos
MYCENAEAN GREECE
c. 1450 to 1200 BCE
Melos
Thera
Mycenaean palaces
Major Minoan palaces
Frontiers of Mycenaean world
c. 1300 BCE
Cythera
Sea of Crete
Rhodes
Carpathos
Khania
Knossos
Mallia
Monastiraki
Phaistos
Zakro
Crete
Gournia
Mediterranean Sea
MILES
400
KILOMETERS
400

لكن الانهيار الكارثي في شرق المتوسط صعّب على الإغريق الاستفادة من هاتين الحضارتين، فسقطت اليونان في الأمية وفي بربرية نسبية: لم يكن هناك سلطة مركزية، والزعماء المحليون حكموا المناطق المختلفة. كانت الجماعات معزولة، ولم يكن هناك احتكاك مع بلدان الشرق الأدنى التي كانت أيضاً في كارثة. لم يعد هناك أبنية ضخمة، ولا مزيد من فن تصويري، وتراجعت الحرفية. لقد احتفظ الشعراء ببعض من الأساطير القديمة حية، وكانوا ينظرون إلى الوراء - إلى الفترة المسينية - كعصر ملحمي لمحاربين رائعين. فرووا قصصاً عن أخيل - أعظم الآخيين - الذي قتل خلال الحرب الطروادية، كما استذكروا المصير المأساوي لأغما منون ملك مسينا الذي مات في ثأر مرسوم إلهياً. كما أبقوا ذكر أوديب حياً، ملك طيبة الذي قتل والده، وتزوج أمه دون أن يعرفهما. كان الشعراء الشعبيون يتجولون في اليونان، فساعدوا في إعطاء الجماعات المبعثرة هوية ولغة مشتركتين.

إحدى المدن التي قيض لها أن تنجو من الكارثة كانت أثينا - في شرق أتيكا - التي كانت معقلاً مسينياً مهماً. تراجعت المدينة، وقلّ عدد سكانها، لكن الناس لم يهجروا المكان كلياً. مع حلول منتصف القرن الحادي عشر، بدأ الحرفيون ينتجون فخاراً مزخرفاً معقداً - يسمى اليوم بأسلوب proto-geometric. وفي الوقت ذاته هاجر بعض الأثينيين إلى آسيا الصغرى وأسسوا مستوطنات على طول الساحل الإيجي الذي حافظ على اللهجة الإيونية المدينية. في أواخر القرن العاشر، بدأت تظهر قرى جديدة في الريف حول أثينا. كان سكان أتيكا منقسمين إلى أربعة قبائل التي كانت إدارية أكثر منها وحدات إثنية، على شاكلة "منازل" في مدرسة عامة بريطانية. كان المد قد بدأ يعود إلى أثينا[3]. كان الأثينيون يحتفلون سنوياً بتوحيد ثيسيوس لمنطقتهم في مهرجان ديني على الأكروبوليس، التلة المقدسة، بجانب المدينة.

في القرن التاسع معظم المجتمع الإغريقي كان ريفياً. مصادرنا الرئيسية هي ملحمتا هوميروس اللتان لم تكونا قد دونتا حتى القرن الثامن، لكنهما احتفظتا

ببعض تراثات شفوية قديمة. فثروة اللوردات المحليين كانت تقاس بالأغنام، والأبقار، والخنازير. لقد عاش هؤلاء منعزلين عن المزارعين والفلاحين، وكانوا ما يزالون يعدون أنفسهم محاربين، وكانوا يتباهون بغنائمهم، ويطالبون بالهتاف والتزلف لهم، كما كانوا منافسين شرسين وذوي نزعة فردية. ولاؤهم الأول كان لأنفسهم، ولأسرهم ولعشائرهم، بدلاً من أن يكون ولاءهم للمدينة ككل. لكنهم كان يشعرون بصلة قرابة مع زملائهم الأرستقراطيين في أرجاء إيجة، وعلى استعداد للتعاون معهم بسخاء، ويقدمون حسن الوفادة للمسافرين.

لكن في نحو نهاية العصر المظلم، انتعشت التجارة في بحر إيجة، وكان الأرستقراطيون بحاجة إلى الحديد لصناعة أسلحتهم ودروعهم، وإلى سلع الرفاهية كي يتباهوا بها أمام منافسيهم. أول شركاء تجاريين لهم كان الكنعانيون من المدن الساحلية الشمالية أسماهم الإغريق الفينيقيين ـ لأنهم احتكروا الصباغ الأرجواني الفينيقي في الزمن القديم. في البداية، امتعض الإغريق من الفينيقيين الذين كانت حضارتهم متقدمة أكثر من حضارتهم. لكن مع حلول القرن التاسع بدأوا يعملون بإبداعية معاً. فبنى الفينيقيون قاعدة لهم في قبرص، وأتى الحرفيون الفينيقيون ليعملوا في أثينا ورودوس، وكريت. وبدأ تدشين مستعمرات فينيقية في غربي المتوسط. وفي عام 1814 أسسوا قرطاج على ساحل الشمال الإفريقي. لقد بينوا للإغريق أهمية البحر للتجارة، وبدأ الإغريق يقيمون علاقات جديدة مع سوريا. وفي أواخر القرن التاسع أسس الفينيقيون، والقبارصة، والإغريق المركز التجاري في الميناAl-Mina عند مصب نهر العاصي، كانوا يتاجرون بالعبيد، والفضة مقابل الحديد، والصناعات المعدنية، والعاجية، والمنسوجات.[4]

وهكذا كانت اليونان تعود إلى الحياة، لكن بقي الناس في سجن روحي. لقد بقيت عناصر قليلة من العبادات المينوية Minoan والمسينية: على سبيل المثال، كان هناك شجرة زيتون مقدسة على الأكروبوليس.[5] بيد أن كارثة القرن الثالث عشر قد هشمت الدين القديم، ورأى الإغريق عالمهم يتهاوى، والرضى عن

النفس قد غيرهم. كانت أعمال الفريسكو المنوية واثقة، ومضيئة، والرجال والنساء والحيوانات كانوا مترقبين ومفعمين بالأمل. وكان هناك ظهورات لإلاهات في مروج مزهرة يرقصن سعيدات. لكن مع حلول القرن التاسع، كان الدين الإغريقي تشاؤمياً، وغريباً، آلهته خطرة، قاسية، وعشوائية[6]. ومع مرور الزمن سينجز الإغريق حضارة ذات ألق مبهر، غير أنهم لم يفقدوا أبداً إحساسهم بالمأساة، وهذا سوف يكون واحداً من أهم المساهمات الدينية في عصر المحور. وسوف تلمّح طقوسهم وأساطيرهم إلى مالا يمكن قوله، وإلى ما هو ممنوع في أحداث مرعبة تحدث خارج المسرح، خارج البصر، في الليل عادة. لقد أحسوا بالمقدس في كارثة عندما انقلبت الحياة رأساً على عقب لا يمكن وصفه، في انتهاك للمحرمات، وعندما كانت تتمزق الحدود التي أبقت المجتمع والأفراد عقلاء، بشكل مفاجئ.

نستطيع أن نرى هذه النظرة القاتمة في القصص المخيفة لولادة الآلهة الإغريقية. في العالم الإغريقي، لم يكن هناك إله خيّر ولا نظام إلهي في بداية الزمن، بل فقط الكراهية ونزاع لا يرحم. ففي البداية، قيل أنه كان هناك قدرتان بدئيتان هما: العماء والأرض Gaia، كانتا عدائيتان يستحيل أن تتجبا، فولدتا نسليهما بشلك مستقل كل منهما عن الأخرى. أنجبت الأرض أورانوس (السماء) إله السماء، ثم ولدت البحار والأنهار والتلال والجبال في عالمنا. بعدئذ استلقت الأرض وأورانوس سوياً، فولدت الأرض ستة أبناء، وست بنات. هؤلاء كانوا هم التايتنز، السلالة الأولى للآلهة.

لكن أورانوس كره أبناءه، وأجبرهم جميعاً على العودة إلى رحم الأرض لحظة ولادتهم. في النهاية، رجت الأرض حزينة أطفالها طلباً للعون، لكن ابنها الأصغر كرونوس cronus كانت لديه الشجاعة لأن يفعل ما طلبته منه. فبقي منكفئاً على نفسه في رحم أمه منتظراً أباه ومسلحاً بمنجل. وفي المرة التالية التي ضاجع فيها أورانوس الأرض قطع ابنه أعضاء أباه التناسلية ورماها إلى الأرض. والآلهة العلية كانت - في أغلب الأحيان - ما يطيح بها أبناءهم الأكثر ديناميكية.

لكن قصصاً قليلة تجعل الصراع البدئي عدائياً كهذا. فأصبح كورنوس الإله الرئيسي، وحرر أخوته وأخواته من أعماق الأرض، وتزوجوا بعضهم ليلدوا جيلاً آخر من التيتانز من بينهم أطلس الذي حمل الأرض على كتفيه، وبروميثيوس الذي سرق النار من السماء، وأعطاها إلى البشر.

بدلاً من أن يتعلم من رعب الماضي، كان كرونوس مستبداً كأبيه. تزوج أخته ريا Rhea التي ولدت خمسة أطفال: السلالة الثانية للآلهة: هيستر Hester حارس الموقد المقدس، وديميتر إلهة القمح، وهيرا راعية الزواج، وهاديس إله العالم التحتي، وبوسيدون إله البحر. لكن كرونوس قد أُخبر أن واحداً من أبناءه سوف يطيح به، لذلك أخذ يبتلع كل واحد بعد ولادته مباشرة. ريا الحامل بطفلها السادس عادت يائسة إلى أمها الأرض، وعندما ولد الابن زيوس خبأته الأرض على جزيرة كريت، وقدمت ريا إلى كرونوس بدلاً منه حجراً ملفوفاً بقماط الطفل، ابتلع كرونوس الحجر دون أن يلاحظ شيئاً. عندما كبر زيوس أجبر أباه أن يرد أخوته وأخواته، واستقرت العائلة ـ على جبل الأوليمب.

حاول كرونوس أن يقاوم، فسعّر طوال عشر سنوات هو والتيتانز الآخرين حرباً على الأوليمبيين في معركة هزت الكون حتى أساساته. ودامت المعركة حتى حقق زيوس النصر النهائي وسجن أباه والتيتانز الذين دعموه في تارتاروس Tartarus منطقة مظلمة ومرعبة في أعماق الأرض.

في هذه الأثناء العماء chaos القدرة البدئية الثانية ـ كانت ولدت ذريتها المرعبة: Erebus (المكان المظلم) في أعماق فجوات الأرض، وNight الليل الذي أنجب ذرية من البنات بينهن Fates الأقدار، وMoirai، أرواح الموت Keres، وFuries الثلاث، (Erinyes)[7]. آلهة الانتقام كن مخيفات بشكل خاص، تخيلهن الإغريق على هيئة حيز بونات منفرات يضعن أكاليل من الأفاعي، وزاحفات على أيديهن وأقدامهن كي يشممن رائحة فريستهن، ويعوين، وينبحن مثل الكلاب. تقول إحدى الأساطير أنهن قد ولدن من قطرات الدم التي سقطت على الأرض عندما قطع كرونوس أعضاء أورانوس التناسلية.

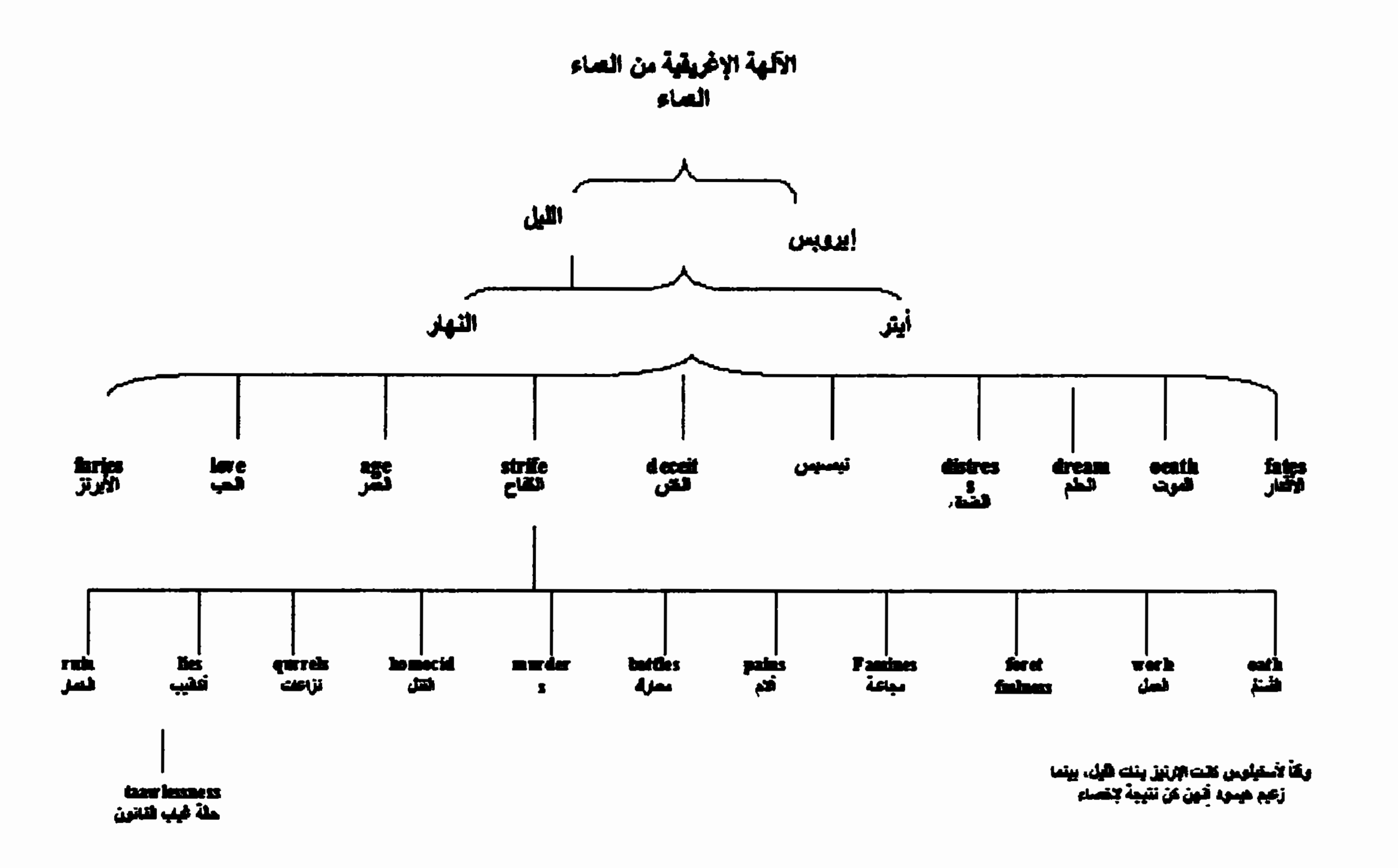
وبالتالي أقدم من الأولمبيين، وكان العنف الأسري محفوراً في وجودهن ذاته. هذه القدرات البدئية التي عاشت في أعماق الأرض هيمنت على الدين الإغريقي خلال العصر المظلم. وفي القرن التاسع اعتقد الناس أن هذه القدرات هي التي كانت تحكم الكون، وليس الأوليمبيين. فكما شرح شاعر لاحق، هذه الآلهة المظلمة " كانت تتعقب ذنوب البشر والآلهة، ولم تكن تمتنع عن الغضب الرهيب حتى يوقعن العقاب على المذنب"[8]، لأن عملاً شنيعاً من قبل امرئ تجاه أحد أقاربه كان يعد انتهاكاً للنظام الاجتماعي كله. بما أن أورانوس، وكرونوس، وزيوس، جميعاً كانوا مذنبين وارتكبوا جريمة أسرية شنيعة، كانت الآلهة البدئية الجانب القاتم عند الأولمبيين. ما أن تنشط، فإن قدراتها كانت تعمل آلياً، ولا يمكن إيقافها. ما أن كانت ضحية تلعن قاتلها، وتصرخ بصوت عالٍ مطالبة بالانتقام حتى تنطلق erinyes وتبحث عن المرتكب مثل مجموعة من كلاب متوحشة حتى يكفر عن ذنبه في ميتة مرعبة عنيفة.

لم تفقد آلهة الانتقام، قبضتها أبداً عن المخيلة الإغريقية، فاستمر الإغريق في انشغالهم بحكايات رجال ونساء قتلوا والديهم، وأساؤوا معاملة أطفالهم. فحتى إذا ما ارتكبت هذه الأفعال غير الطبيعية عن غير قصد، كانت تحتوي على قدرة معدية لها حياتها الخاصة بها، وحتى يتم تطهير المخطئ بموت قرباني، سيكون المجتمع مصاباً بعلة، أو بالطاعون، أو كارثة. فعلى سبيل المثال، أسطورة عائلة أتريوس Atreus تخبرنا عن صراع شائن بين أخوين: هما أتريوس والآخر ثيستس Thyestes على عرش مسينا. في إحدى المناسبات دعا أتريوس أخاه إلى مأدبة، وقدم له ثريداً لذيذ الطعم، من الخضار، واللحم فيه هو أجساد أبناء ثيستس، هذه الفعلة المرعبة أطلقت عدوى دنس انتقلت إلى أسرة أتريوس كلها، وقضوا جيعاً في انتقام شائن فيه كل جريمة عنف غير طبيعية أدت إلى جريمة أخرى. ابن أتريوس ـ أغمامنون ملك مسينا ـ أُمر أن يضحي بابنته إفجينا كي يضمن ريحاً مواتية تمكنه من أن يأخذ الأسطول الإغريقي إلى طروادة. وزوجته كليمنسترا أنتقمت بقتله لدى عودته من الحرب الطروادية، وأُجبر ابنها

أوريستس أن يقتلها انتقاماً لوالده. هذه القصة الإشكالية والملفقة ستغدو واحدة من أكثر الأساطير الإغريقية توليدية. على شاكلة حكايات إغريقية كثيرة، تصور البشر أنهم عاجزين تماماً. وفي القرن الثامن، اعتقد هوميروس بوضوح أن كليمنسترا، وأوريستس لم يكن لديهما خيار سوى أن يفعلا ما فعلاه. وكانت أفعالهما تنال المديح على أنها فاضلة لأنها خلصت الأرض من عدوى مدنسة.[9]

عندما كان الإغريق يصبحون أقوياء لم يشعروا أبداً أنهم مسؤولين عن مصائرهم. فحتى زمن متأخر من القرن الخامس، عندما كانت الحضارة الإغريقية في أوجها، كانوا يعتقدون أن الأقدار Fates أو آلهة الأوليمب تجبر الناس أن يفعلوا ما فعلوه، وبعد ارتكاب جريمة، كانت توقع أحزاناً لا تروى على بشر بريئين، شاءت الصدف أنهم كانوا يعيشون في المنطقة الملوثة. كانت الحياة البشرية دون مسؤولية، وتخدم أهواءهم، وتدمر من كانوا يثيرون غضبهم دون اكتراث بالعواقب. الإلهة الوحيدة التي كانت تظهر أي حسٍ أخلاقي كانت آلهة الانتقام التي كانت تغضبها هذه الأفعال العنيفة، لكنها كانت تنقصها دائماً الشفقة والرحمة. من هنا في بعض روايات القصة، طالما أنه مجبر أن يقتل أمه، كان أوريستس مطارداً عبر العالم من قبل آلهة الانتقام حتى يتم استئصال العدوى التي انطلقت من خلال عائلته المحكوم عليها.

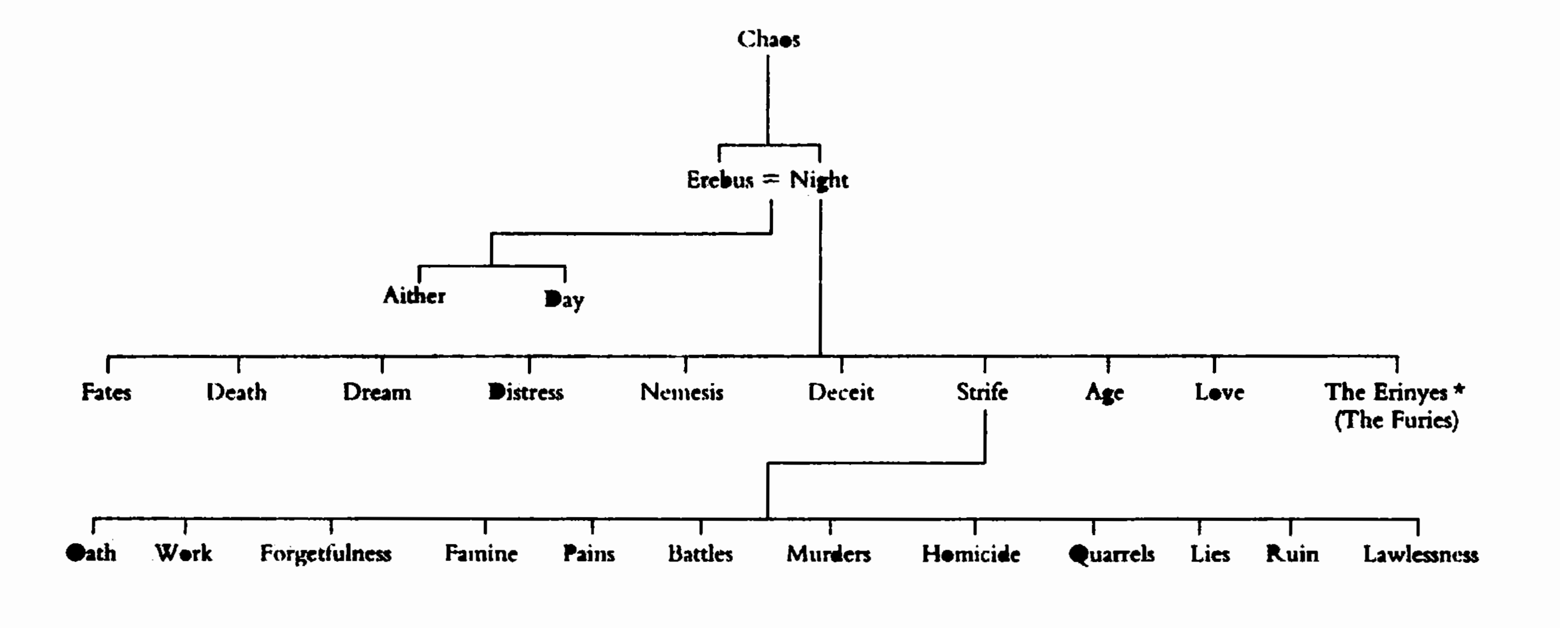
كان الإغريق مسكونين بصور العنف والكارثة. فالأولمبيون لم يكونوا قساة وحسب على البشر، بل كان باستطاعتهم أيضاً أن يضطهدوا ويعطب أحدهم الآخر. فعلى سبيل المثال، هيرا زوجة زيوس كان ابنها المقعد هيفاستوس يكرهها كثيراً، فعندما ولد رمته بقوة إلى الأرض. وكونها إلهة همجية غاضبة كانت تبحث دون كلل عن الأطفال المولودين من عشيقات زوجها غير الشرعيات. تآمرت مع التيتانز لقتل ديونيسيوس ـ ابن زيوس ـ من المرأة الغانية سيميل semele، وفي النهاية جعلته مجنوناً.



الآلهة الإغريقية من العماء
العماء
الليل
إيريبس
النهار
أيثر
furies
love
الحب
age
strife
deceit
distres
s
dream
الحلم
death
الموت
fates
الأقدار
ruin
lies
quarrels
نزاعات
homocid
murder
s
battles
pains
Famines
مجاعة
foret
fulness
work
oath
lawlessness

FAMILY TREES OF THE GREEK GODS

THE OFFSPRING OF CHAOS



* According to Aeschylus, the Erinyes were the three daughters of Night; Hesiod claimed that they were the result of Uranus's castration.

بقي يركض سنوات في بلدان الشرق قبل أن يشفى أخيراً. كما حاولت هيرا أيضاً أن تقتل هرقل، ابن آخر لزيوس بوضع أفاعي في مهده، وجننته أيضاً لدرجة أنه قتل زوجته وأطفاله. كانت الأسرة هي أساس المجتمع. وفي ثقافات أخرى ـ كما سنرى ـ كانت تعد مؤسسة مقدسة، فيها يتعلم الناس قيم الاحترام والتقدير للآخرين. أما في اليونان فكانت ساحة معركة قاتلة. وهيرا ـ إلهة الزواج ـ أظهرت معظم العلاقات الأساسية كانت تلهم انفعالات وحشية قاتلة. وعبادة هيرا كانت مشوبة بالذنب والرعب والقلق العميقين.

المعبد الإغريقي الأول الذي بني بعد العصر المظلم كان معبد هيرا على جزيرة ساموس المقابلة لساحل آسيا الصغرى. وعبادتها هناك أظهرت أنها كانت الإلهة التي لا يمكن الركون إليها، والغامضة التي بوسعها أن تتوارى في لحظة، وتأخذ معها كل الأشياء الجيدة في الحياة. ففي ليلة احتفالها كل سنة يختفي تمثالها ـ قطعة خشب لا شكل لها ـ بطريقة غامضة من المقام. وفقدانه كان يكتشف فجراً، وكان جميع سكان ساموس يبحثون عنه. وعندما كانوا ـ يجدون رمز العبادة، كانوا يظهرونه، ويلفونه بأغصان الصفصاف الطرية لمنعها من الهرب ثانية ـ لكنها كانت دائما تهرب. كانت هيرا أم الحياة، وأصل كل شيء موجود. واختفاؤها كان يهدد كل النظام الطبيعي.

ربما أخذ الإغريق الأسطورة المزعجة للإلهة المتخفية من الشرق الأوسط، وستكون ملهمة أيضاً لبعض من أكثر طقوسهم أهمية. فهذه الشعائر كانت تعلمهم أنه كان محالاً بلوغ النشوة في الحياة مالم تشعر بأعماق الخسارة. أما ديمتر الإلهة الراعية للقمح كانت الإلهة الأم الأخرى التي توارت عن الأنظار. لقد ولدت لزيوس ابنة جميلة تدعى بيرسيفون. خطب زيوس بيرسيفون إلى أخيه هاديس، رب العالم السفلي مع أنه كان يعلم أن ديميتر لن توافق على ذلك، وساعده في خطف الفتاة. امتلأت ديميتر حزناً وغضباً فغادرت جبل الأوليمب ساحبة معها جميع المنافع البشرية، وعاشت على سطح الأرض متنكرة في زي امرأة عجوز باحثة عن ابنتها في كل مكان.

أصبح العالم صحراء قاحلة، إذ لم يكن باستطاعة الحبوب أن تنمو، وبدأ الناس يتضورون جوعاً حتى الموت. لذلك آلهة الأوليمب التي كانت تعتمد على قرابين البشر ـ رتبت أمر عودتها. لكن بما أنها كانت قد أكلت بعض بذور الرمان في العالم السفلي، كان عليها أن تمضي جزءاً من كل سنة في العالم السفلي. وعندما تم لقاؤها بديميتر تفجر العالم أزهاراً. أما عندما كانت تمضي فترتها في العالم السفلي خلال أشهر الشتاء، كانت الأرض تبدو ميته. الحياة والموت توأمان لا ينفصمان. كانت ديميتر إلهة الحبوب، لكنها كانت إلهة العماء الأخروية أيضاً، لأن الحبوب نمت من أعماق الأرض. وهاديس ـ رب الموت ـ كان الحارس وواهب الحبوب، وبيرسفون الصبية الأزلية، أما كور kore (كانت سيدة العالم التحتي).

كل سنة أثناء الاحتفال القديم تيسموفرويا، كان الإغريق يعيدون تمثيل هذه الدراما المزعجة[10]. طوال ثلاثة أيام، جميع المتزوجات في الجماعة كن يغادرن أزواجهن، ويتوارين مثل ديميتر. كن يصمن وينمن على الأرض، مثلما فعل أناس بدائيون قبل ظهور الحضارة. وكن يلعنّ الرجال طقوسياً، وهناك تلميحات إلى شكل من فحش طقوسي. وفي ذكرى الخنازير التي ابتلعتها الأرض عندما اختطف هاديس بيرسيفون كانت النسوة يقدمن خنازير صغيرة كقرابين، يرمين الخنازير في حفرة، ويتركنها حتى تتعفن. لم تكن هناك نهاية سعيدة: لم تكن النساء يحتفلن بعودة بيرسيفون. كانت المدينة تبدو وكأنها قلبت رأساً على عقب، أما الحياة الأسرية التي كان يعتمد عليها المجتمع كانت تتصدع. كما كان الإغريق مجبرين على التفكير في المأمول من دمار الحضارة، ومن التنافر العميق بين الجنسين، والكارثة الكونية التي كانت تهدد العالم عندما سحبت ديميتر معروفها.[11] في نهاية الاحتفال، كانت النسوة يمضين إلى بيوتهن، ثم تعود الحياة إلى إيقاعها المعتاد. بيد أن العبادة جعلت الإغريق يواجهون مالا يمكن التعبير عنه. لقد شاهدوا مجتمعهم ينهار خلال العصر المظلم، مع أنهم كما يبدو ـ قد طمسوا ذكرى هذه الكارثة. لكن تذكراً دفيناً لذلك الزمن جعلهم

"يدركون أن مهما كان ما أنجزوه، فقد يتلاشى في هنيهة، وأن الموت، والإنحلال، والعداوة، كانت أبدية، وأخطاراً كامنة. لقد أجبر الطقس الإغريق أن يعيشوا عبر خوفهم وأن يواجهوه، ومن ثم أوضح لهم أنه كان ممكناً العبور بسلام إلى الجانب الآخر.

التراثات الدينية التي نشأت خلال العصر المحوري في كل المناطق الأربعة كانت متجذرة في الخوف والألم. وسوف تصر جميعها أن عدم إنكار هذه المعاناة أمر جوهري، بل الإقرار بها تماماً كان شرطاً أساسياً كمقدمة من أجل التنوير. حتى في هذه المرحلة المبكرة - قبل عصر المحور بزمن طويل - كان الإغريق قد فهموا أهمية هذا. كان جلياً في مهرجان تكريم ديونيسيوس إله الخمرة الذي كان يقام في فصل الربيع anthesterion في وقت قطاف العنب[12]. كان ديونيسيوس قد تعلم سر زراعة العنب في الشرق، وكشفها إلى سكان أثينا - كما تروي الأسطورة. أثناء الشعائر الغريبة لهذا المهرجان، التي ربما تعود إلى العصر المظلم، كانت تعيد تقديم هذه القصة، وتحتفي بالقدرة المحولة الإلهية للخمرة التي كانت ترفع الناس إلى بعد آخر، بحيث بدا لهم ولوقت قصير أنهم كانوا يشاركون في غبطة الآلهة الأولمبية.

أخذ عينات من الخمرة الجديدة لا بد أنه كان مناسبة سعيدة، لكنه كان مهرجان موت. لقد شرحت القصة الأسطورية المرتبطة بهذا الطقس أن ديونيسيوس قدم الخمرة الأولى إلى إيكاريوس - مزارع من أتيكا، وبين له كيف يجني العنب. لكن عندما ذاق أصدقاؤه الخمرة، صعد الكحول مباشرة إلى رؤوسهم، وسقطوا إلى الأرض منذهلين. وبما أنهم لم يعرفوا السكر من قبل، ظن القرويون أن إيكاريوس قد قتلهم. فظلوا يضربونه بالعصي حتى لاقى حتفه، وامتزج دمه بالخمرة. وكخاتمة مأساوية، عندما وجدت ابنته إيريجون Erigone جسده المحطم شنقت نفسها. فالإغريق فقط كان باستطاعتهم تحويل مهرجان ربيع مبهج إلى إحياء ذكرى رعب مجاني كهذا.

كان المهرجان يبدأ عند مغيب الشمس في معبد صغير لديونيسيوس في المستنقعات خارج المدينة. كل سكان أتيكا، العبيد، والنساء والأطفال كانوا

يسيرون معاً لحضور المهرجان الافتتاحي عندما كان يهرق الخمر كهدية إلى الإله. وفي اليوم التالي كانت تغلق جميع المعابد، وجميع المنازل كانت تمرغ بالقار. كل واحد كان يبقى في البيت، وعلى كل فرد من الأسرة أن يشرب مالا يقل عن لترين من الخمر، لقد كانت مسابقة شرب كئيبة قاتلة. لم يكن هناك فرح، ولا غناء ولا محادثة، أي نقيض تام لمناسبة اجتماعية عادية في أثينا. كل شارب كان يجلس وحيداً إلى طاولته، يشرب من كوب كبير في صمت مطبق. فلماذا؟ تساءلت أسطورة محلية لماذا بينما كان أوريستس هارباً من آلهة الإنتقام وصل إلى أثينا؟ فالملك كان خائفاً من العدوى التي كان يحملها معه، لكنه لم يكن يريد أن يطرده بعيداً. دعا أوريستس كي يشارك في تناول الخمر الجديدة. غير أنه أجبره أن يجلس وحيداً، ولم يتحدث إليه أحد. لكن بالرغم من هذه المحاذير، كانت المدينة قد تلوثت، وبالتالي اشتركت في خطيئة دم الجريمة التي ارتكبها أوريستس. ولذلك كان الأثينيون مدركين لدنسهم يشربون في صمت مطبق. وبشكل مفاجئ يقطع الصمت الرهيب تنكر غريب. أفراد مقنعون يمثلون keres اشباح الموت البدئية، يتدفقون في الشوارع راكبين في عربات محملة بأواني الخمر يطالبون بحسن الضيافة بعدوانية، ويضحكون بصمت قاسٍ، ويطلقون الإهانات، وتهديدات همجية. لكن في المساء كان يستعاد الهدوء. يترنح السكان جميعاً سكارى عائدين إلى المعبد الصغير في المستنقعات يضحكون، يغنون حاملين أباريقهم الفارغة. وكانت تقدم كاهنة إلى ديونيسيوس كعروس له. الإله كان راضياً، ويطرد مندوبي الموت.

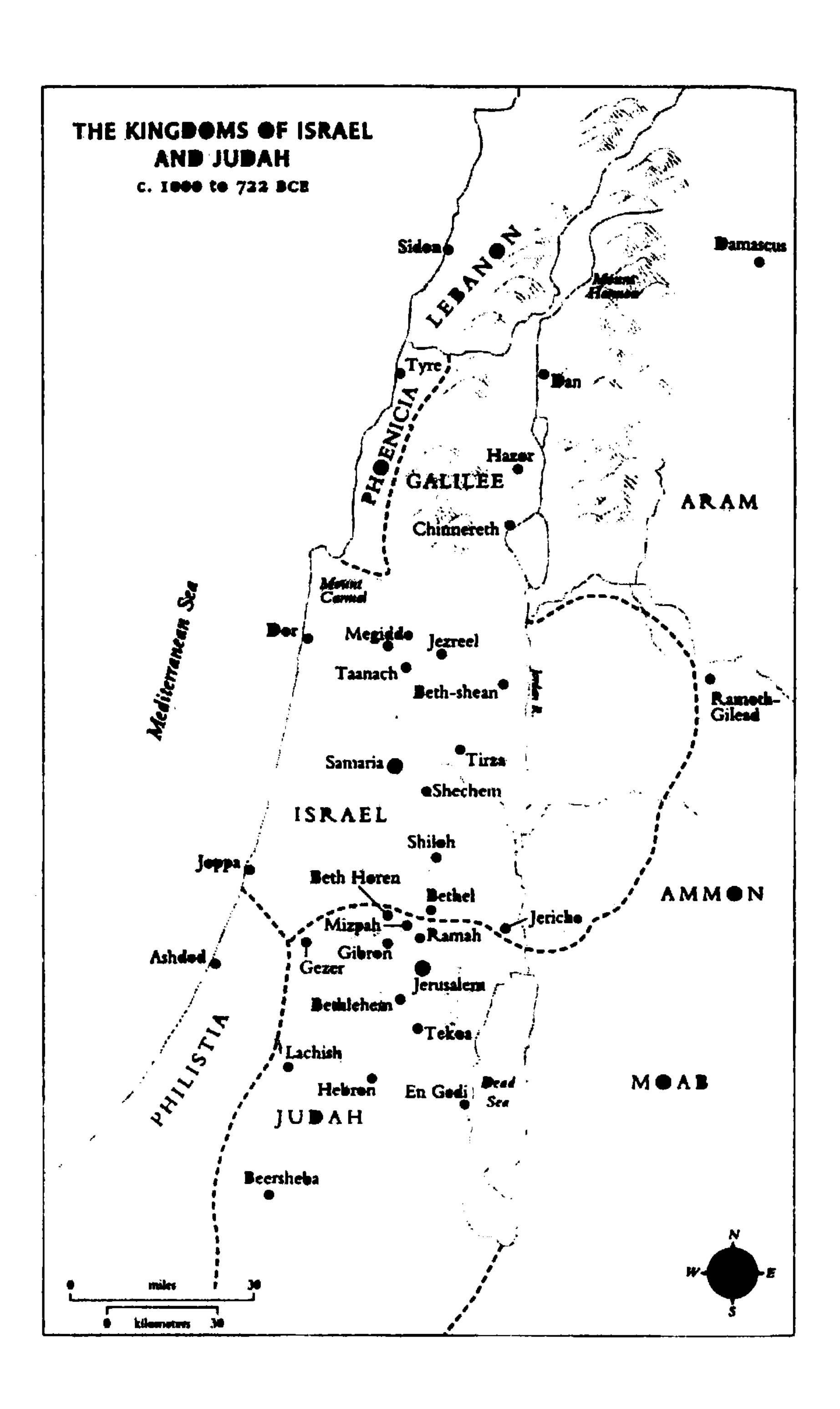
اليوم الثالث كان يعد بداية سنة أخرى وبداية جديدة. كان هناك جو ألطف وأكثر بهجة. ولوضع علامة للزمن الجديد كان كل امرئ يأكل صحناً من الحبوب ـ قيل ـ إن المزارعين الأوائل كانوا يأكلونه في أزمنة غابرة قبل اختراع حجر الرحى والخبز. وكانت تجرى مسابقات من بينها أرجحة الفتيات الصغيرات. لكن الرعب كان يكمن هنا، لأن الفتيات المتأرجحات كن يستذكرن جسد إيرغون المسكينة المعلق. إنك لا تستطيع أن تنسى المأساة الفطرية للحياة.

وجميع الطقوس الإغريقية كانت تنتهي بتطهير catharsis، الإله قد تم استرضاؤه، والعدوى قد تلاشت، وقد بدأت حياة جديدة، وأمل جديد. فحتى ذكرى الموت المأساوي لآريغون كانت ممتزجة بالضحك، أطفال متحمسون في بداية حياتهم. كان المشاركون قد أحسوا بالتطهير من خلال الخروج خارجاً" طوال ثلاثة أيام، كانوا قادرين أن يوقفوا جانباً من وجودهم العادي ليواجهوا مخاوف دفينة، وعبرها يمرون إلى حياة متجددة.

لم يكن هناك استبطان، ولا محاولة لتحليل الرض الدفين الذي كان يسكن النفس الإغريقية. هذا ما كانت تلامسه الطقوس الخارجية بشكل غير مباشر. فمن خلال إعادة تمثيل الأسطورة القديمة، لم يكن المشاركون يسلكون كأفراد. لقد وضعوا ذاتهم العادية جانباً، وفعلوا النقيض لما كان يأتي بشكل طبيعي. كان الإغريق يحبون المآدب والبهجة، لكنهم طوال يوم بأكمله كانوا ينكرون ميولهم العادية، ويشربون خمرهم في صمت حزين. فمن خلال محاكاة دراما الماضي، كانوا يتركون ذاتهم الفردية خلفهم، ويشعرون أنهم متأثرين ومتحولين من قبل ديونيسيوس الذي كان حاضراً في الخمرة المسكرة. الطقس كان إدخالاً، شعيرة عبور عبر الحزن، عبر الخوف من الموت والتلوث إلى حياة جديدة. وعندما كانت تحين وفاتهم قد يتذكر البعض anthesteria ويرى الموت مجرد إدخال آخر.

* * *

شرق المتوسط كان قادماً إلى الحياة ثانية. فمع حلول القرن التاسع كانت مملكة إسرائيل الشمالية قد أصبحت قوة رئيسية في المنطقة. وعندما غزا الفرعون المصري شيشاك shishak بلاد كنعان عام 926، فإنه لم يستبح أورشليم فقط بل دمر أيضاً 150 بلدة في إسرائيل ويهوذا، والمعاقل الكنعانية القديمة في مجيدو، وrehob، وبيت شبن، وتاناخ Tanach. ولم تتعافى أبداً الثقافة الكنعانية. وتوسعت إسرائيل في داخل المناطق الكنعانية، واستوعبت سكان المدن المدمرة، واستغلت مهاراتهم[13]. الملك أُمري omri (885 ـ 874) بنى عاصمة جديدة رائعة في


THE KINGDOMS OF ISRAEL
AND JUDAH
c. 1000 to 722 BCE
Sidon
LEBANON
Damascus
Tyre
PHOENICIA
Dan
Hazor
GALILEE
ARAM
Chinnereth
Mediterranean Sea
Dor
Megiddo
Jezreel
Taanach
Beth-shean
Ramoth-
Gilead
Samaria
Tirza
Shechem
ISRAEL
Shiloh
Joppa
Beth Horen
Bethel
AMMON
Mizpah
Jericho
Ramah
Ashdod
Gibron
Gezer
Jerusalem
Bethlehem
Tekoa
PHILISTIA
Lachish
Hebron
En Gedi
MOAB
JUDAH
Beersheba
miles
kilometres
N
W
E
S

السامرة، وحصن ملكية ضخمة مساحتها خمس أفدنة. ابنه أحاب Ahab (874 ـ 853) بنى قصراً عاجياً فخماً هناك، وأقام علاقات تجارية مع فينيقيا وقبرص واليونان. كما تزوج من أميرة فينيقية أسمها جيزيبل jezebel أصبح اسمها معرة يدل على الدهاء والخبث.

فالكاتب التوراتي الذي دوّن عرضاً سلبياً لأحاب في سفر الملوك الأول روعته جيزيبيل لأنها استوردت عبادة بعل الفينيقي إلى إسرائيل. غير أنه كان يكتب في القرن السابع، وفي عالم شديد الاختلاف، ولكان زواج آحاب اعتبر انقلاباً سياسياً لو حدث في القرن التاسع. كان أمراً مهماً لمملكة إسرائيل أن تتكامل مع المنطقة، وتحافظ على نفسها ضد دمشق، وفينيقيا ومؤاب. لم يكن أحاب يفعل شيئاً جديداً. فالملك سليمان قد عقد زيجات دبلوماسية بأميرات أجنبيات، وأدخل آلهتين في العبادة الملكية، وبنى لها معابد على التلال خارج اورشليم[14]. لكن أحاب كان سيء الحظ فأثار غضب أقلية متزمتة جداً كانت تعتقد أن شعب إسرائيل يجب أن يعبد يهوه وحده.

لم يكن أحاب مرتداً، وكان يستشير أنبياء يهوه بانتظام، ولم ير شيئاً خاطئاً في ولاء زوجته إلى بعل. وطوال قرون كانت عبادة يهوه تغذيها الترانيم وشعائر بعل. فكما اكتشف بعض علماء الآثار أن معظم السكان عبدوا آلهة محلية إلى جانب يهوه، وازدهرت عبادة بعل في إسرائيل حتى القرن السادس[15]. لكن مع حلول القرن التاسع بدأ بعض الإسرائيليين بتقليل عدد الآلهة التي عبدوها. ففي سوريا وبلاد الرافدين كانت تجربة الإلهي شديدة التعقيد، ومهيمنة بحيث يتعذر حصرها في رمز وحيد. رمز المجلس الإلهي بمراتبه المخصصة بكل دقة للزوجات، والأطفال، الإلهيين، والخدم، دلت أن الالوهية كانت متعددة الوجوه، وبالرغم من ذلك شكلت وحدة متماسكة[16]. كانت رمزية المجمع الإلهي مهمة جداً لشعبي يهوذا وإسرائيل. لكنها مع حلول القرن التاسع كانت تصبح أكثر اتساقاً، فبدلاً من ترؤس منزل إلهي ضخم مثل إيل وعشيرته عشيرة، ترأس يهوه فقط على حفنة من كائنات سماوية أقل عدداً[17]. كانوا " مضيفيه السماويين" المحاربين في جيشه المقدس.

بما أنه لم يكن للإله القومي يهوه نظراء، ولا منافسين، ولا من هو أعلى منه، كان محاطاً بمجلس من "الواحدون المقدسون" و"أبناء الله" الذين يهللون جميعاً لوفائه لشعبة:

السماوات تحمد عجائبك يا رب.

وحقك أيضاً في جماعة القديسين، لأنه من في السماء يعادل الرب.

من يشبه الرب بين أبناء الله. إله مهوب جداً في مؤامرة القديسين ومخوف عند جميع الذين حوله.

يا رب إله الجنود من مثلك قوي رب، وحقك من حولك.

مزمور 89: 5 ـ 8

عندما صاح الناس " من مثل يهوه بين الآلهة الأخرى؟ فإنهم بكل جلاء لم يكونوا ينكرون وجود آلهة أخرى، بل يعلنون أن إلههم الحارس كان أكثر فاعلية من " أبناء إيل" الآخرين، الآلهة القومية لدى جيرانهم. ما من أحد استطاع منافسة وفاء يهوه[19]. لكن يهوه كان إلهاً محارباً، لم يكن لديه خبرة في الزراعة أو الخصوبة، ولهذا السبب كان العديد من الإسرائيليين يؤدون الطقوس القديمة لبعل وعناة لضمان محصول جيد، لأن بعل كان القدرة التي كانت تخصب الأرض.

أرادت جماعة صغيرة من الأنبياء أن تعبد يهوه فقط، لاقتناعها أن باستطاعته أن يقدم كل ما كان يحتاجه شعبه. فالنبوءة كانت روحانية راسخة في الشرق الأوسط القديم. فمن بلاد كنعان إلى ماري في الفرات الأوسط، كان أنبياء نشويون " يتكلمون باسم" آلهتهم. وفي إسرائيل ويهوذا كان الأنبياء عادة على علاقة بالبلاط الملكي. وتدل المصادر التوراتية أنهم غالباً ما كانوا ينتقدون الملك، ومهتمين بالحفاظ على نقاوة عبادة يهوه. نعرف القليل جداً عن النبوءة الإسرائيلية المبكرة لأن مصدرنا الرئيسي هو المؤرخ التوراتي في القرن السابع الذي كان يدون بعد مضي فترة طويلة على الأحداث التي يصفها. لكن الأساطير حول النبي إيليا ـ في القرن التاسع ـ وتلميذه اليشع Elisha في السفرين الأول

والثـاني مـن الملوك تحمـل علامـات مـن تـراث شـفوي أكثـر قـدماً. فالمـادة ليسـت تاريخية كلياً لكن هذه القصص قد تعكس المحرضات المبكرة جداً لما يسميه العلماء "حركة يهوه وحده".

تـصف الحكايـات الـصدام المريـر بـين إيليـا وأحـاب، وتقـدم جيزبيـل امـرأة شريرة ساندت كهنـة بعـل، واضـطهدت أنبيـاء يهـوه[20]. اسـم اليـشع يعـني "يهـوه هـو إلهي". إنه أول نبي في سجل يصر على عبادة يهوه وحده فقـط. في ثيولوجيـا الـشرق الأوسـط القـديم، إيـل قـد نُـصِّبَ إلهـا لكـل أمـة. أمـا يهـوه فكـان الإلـه المقـدس لإسـرائيل. وChemosh شمش الإله المقدس لمؤاب، وميلـكوم Milkom الإله المقدس لآمون. لـكـن بعـض الأنبيـاء قـد بـدأوا يشعرون أن يهوه سـوف يـزاح إذا مـا اسـتورد ملك إلهاً أجنبياً إلى العبـادة الملكيـة، وفـضله علـى إلـه إسـرائيل المقـدس. لم يشك إيليا بوجود بعل، لـكنه لم يكن إله إسـرائيل، واعتقد إيليا أن بعل يجـب أن يبقـى في فينيقيا.

علـى الـرغم مـن وصـاية بعـل، عنـدما كـان انحبـاس شـديد للمطـر يـضرب إسـرائيل، رأى إيليـا فرصـته، وتحـدى 450 كـاهنـاً مـن كهنـة جيزبيـل في منافسة على جبل الـكرمل[21].

في البداية، تهجم علـى الـذين أتـوا للفرجـة، لـكـن حـان الوقـت كـي يختـاروا بين يهوه وبـين بعـل، مـرة وإلى الأبـد طلـب إحـضار ثـورين، ثـور ليهـوه، وثـور لبعـل، وطلب أن يوضعا على مذبحين. ناشد كهنـة بعـل آلهتهم أن ترسـل نـاراً كـي تلتهم الـضحية. طـوال صـباح كامـل صـاح كهنـة بعـل باسمـه، وصـارخين، وضـاربين أنفسهم بالسيوف والرماح، وربما مـؤدين رقـصة عرجـاء حـول مـذبحهم، لـكـن لم يحدث شيء. لكن إيليا الثاني نادى على يهوه فـسقطت نـار مـن الـسماء، والتهمـت كـلا الثـور والمذبح. خـر النـاس علـى وجـوههم: يهـوه كـان إلههم! أمـر إيليـا بقتـل جميع كهنة بعل في وادٍ مجاور، ثم صـعد إلى قمـة جبـل الـكرمـل، وجلـس واضـعاً رأسـه بـين ركبتيـه مـستغرقاً في الـصلاة، ومتوسـلاً إلى يهـوه كـي ينهـي هـذا الجفـاف. فهطـل المطـر مـدراراً. لـف إيليـا عباءتـه مـن الـشعر علـى وجهـه ودخـل في

غيبوبة قرب عربة أحاب. لقد انتزع يهوه وظيفة بعل بكل نجاح، وأثبت أنه كان فعالاً في الحفاظ على خصوبة الأرض، مثلما كان فعالاً في الحرب.

لقد أدخل إيلياً توتراً جديداً إلى دينه القديم في اقتراحه أن تعبد إسرائيل إلهاً واحداً فقط. فتجاهل بعل كان يتطلب أن يتخلى الناس عن مصدر إلهي مهم وثمين. لقد وجد آلاف الناس أن عبادة بعل قد عمقت فهمهم للعالم، وجعلت حقولهم خصبة، وأعطت معنى للصراع الذي كان يقصم الظهر ضد العقم والمجاعة. فعندما كانوا يؤدون الشعائر كانوا يعتقدون أنهم كانوا يلامسون القدرات المقدسة التي كانت تجعل الأرض وفيرة الإنتاج. وإيليا كان يطالب الإسرائيليين أن يتخلوا على كل ذلك، وأن يضعوا كل إيمانهم في يهوه الذي لم يكن لديه معرفة في مجال الخصوبة[22].

بعد العاصفة، سقط إيليا في حالة إحباط، وخاف على حياته، وكان مقتنعاً أن جيزيبل سوف تنتقم للمذبحة التي وقعت لأنبيائها. فغادر إسرائيل واختبأ في معبد يهوه على جبل سيناء الذي أسماه شعب المملكة الشمالية جبل حوريب حيث اختبأ في شق صخري منتظراً نزول الوحي[23]. في الماضي، الإله يهوه كان يظهر نفسه في اضطراب الطبيعة ـ مثلما كان بعل ـ اهتزت الجبال، وذبلت الأشجار، والأنهار انحسرت لدى اقترابه. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً:

وإذا بالرب عابر، وريح عظيمة شديدة قد شقت الجبال،

وكسرت الصخور أمام الرب. ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح

زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف. فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه، وخرج ووقف في باب المغارة.[24] الملوك 9: 11 ـ 13

هذا كان إلهاً خفياً لم يعد ظاهراً في قوى الطبيعة العنيفة، بل في صوت هامس خفيف، في نسمة بالكاد يحس المرء بها، وفي مفارقة صمت ناطق.

لقد كان لحظة متعالية. بدلاً من ظهور الإله كمحايث في العالم الطبيعي، فقد أصبح يهوه منفصلاً، وآخر. غالباً ما يتحدث المؤرخون عن "اختراق المتعالي"

للعصر المحوري. هذه الحادثة كانت بكل وضوح حدثاً لهذا الاختراق. لكن مثل دين إسرائيل القديم، كان أيضاً لا أدرياً بكل عمق، حدث في أعقاب مذبحة، ودشن جولة جديدة من العداوات. سمع إيليا وهو واقف خارج الكهف، ومغطياً وجهه بردائه، حكم يهوه على خلفاء أحاب بالموت. سيهلكون جميعاً عدا الذين لم يسجدوا لبعل.[25]

عندما ركز الناس على تعريف الإله الذي كانوا يتسامون إليه ـ بدلاً من التركيز على الجشع والحقد والأنانية التي كانوا يتسامون منها، كان هناك خطر صرير وشوفينية عدوانية، فالحرية كانت قيمة أساسية في العصر المحوري، وخطط إيليا القوية كانت ما أسماه بعض حكماء العصر المحوري اللاحقين "غير بارعة". إذ لم يكن مجدياً إجبار الناس على الدخول في روحانية لم يكونوا مستعدين لها بعد، ومن غير المفيد أن يكون المرء دوغمائياً حيال تعالٍ لا يمكن تعريفه أساساً.

لقد شكلت المنافسة بين إيليا وكهنة بعل علامة لبداية نزاع جديد في إسرائيل ويهوذا، فمن هذه الفترة فصاعداً، السباق المرير مع آلهة متنافسة سيفضي إلى روحانية الأنبياء. ففي بعض النواحي أصبحت العقيدة أكثر سلمية، وسقطت الصورة القديمة للإله المحارب خارج الخدمة لأنها كانت إحدى البقايا القديمة لبعل. بدلاً من رؤية يهوه في عاصفة دراماتيكية، فإن الأنبياء ـ من هذه الفترة فصاعداً ـ كانوا يرون أحلاماً ليهوه في المجمع الإلهي.[26] لكن حتى هذا أصبح تنافسياً وصراعياً. هذا المزمور العبري يصور يهوه يقاتل من أجل التفوق على أبناء الله الأخرين في المجمع:

الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي.

حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار سلاه.

اقضوا للذليل واليتيم . انصفوا المسكين والبائس.

نجوا المسكين والفقير من يد الأشرار أنقذوا .

لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشون.

تتزعزع كل أسس الأرض. أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم.

لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون.

قم يا الله. دين الأرض. لأنك أنت تمتلك كل الأمم. مزمور 82

في الأيام الغابرة كما يعني المزمور أن يهوه كان مستعداً لقبول "أبناء الله" الآخرين كآلهة، لكنهم أصبحوا الآن مهملين، وسوف يذوون مثل بشر فانين. يهوه الذي فاز بزعامة المجمع الإلهي قد حكم عليهم جميعاً بالموت.

اتهم يهوه الآلهة الأخرى بإهمال الواجب الأول للعدالة الاجتماعية. إيليا الذي أكد على الرحمة والاهتمام بالفقراء والمضطهدين. عندما أمرت جيزيبل برجم نبوت Naboth ـ مالك أرض في وادي جزريل حتى الموت، لأنه رفض تسليم كرم عنب كان مجاوراً للملكية أحاب، حكم يهوه على الملك بنهاية مرعبة: "في المكان حيث لعقت الكلاب دم نبوت، الكلاب سوف تلعق دمك أيضاً"[28]. وعندما سمع أحاب هذه النبوءة سيطر عليه تأنيب الضمير، وصام ونام في كيس من الخيش، فلان يهوه. لم يكن القلق على غياب العدالة الاجتماعية تطوراً جديداً، ولم يكن حكراً على إسرائيل ويهوذا. فحماية الضعفاء كانت منذ أمد طويل سياسة شائعة في جميع أنحاء الشرق الأدنى.[29] فحتى بداية الألف الثالثة كان يصر ملوك بلاد الرافدين على أن العدل للفقراء واليتامى والأرامل كان واجباً مقدساً أمر به إله الشمس شمش shamash الذي كان يستمع إلى ندائهم طلباً للعون.

لقد رسم مطلع مدونة حمورابي القانونية (1728 ـ 1686) أن الشمس يجب أن تشرق على الناس إذا كان الملك والمقتدرون لم يضطهدوا رعاياهم الضعفاء، وكان ملوك مصر يأمرون أيضاً برعاية المعوزين،[30] لأن رَعْ إله الشمس كان "وزير الفقراء".[31] وفي أوغاريت كان بالإمكان تجنب المجاعة والقحط إذا عمت العدالة والمساواة الأرض، وحماية الضعفاء كانت تحمي الاستقرار الإلهي، وهذا ما أنجزه بعل في معركته مع موت Mot.[32] في كل أنحاء الشرق الأوسط كان العدل ركناً أساسياً من أركان الدين، كما أنه كان سياسة براغماتية جيدة.

لم يكن هناك جدوى من هزيمة أعداء أجانب كونيين إذا كانت سياساتك الاجتماعية الظالمة تخلق أعداء في وطنك.

إيليا وأليشع كانا كلاهما يذكران بأفعالهما الطيبة العملية بالإرضافة إلى كلماتهما النارية. تعطي هذه القصص أهمية كبيرة مثل أهمية معارك إيليا ضد بعل.[33] يهوه ـ مثل آلهة الشرق الأوسط الأخرى ـ كان مدفوعاً ببلاء المعوزين، وكان يجزي الرحمة العملية على أنها نقاء عقيدة. عندما تقاسمت امرأة من صيدون آخر حفنة لوجبة وزيت مع إيليا أثناء قحط، وعد يهوه أن يزودها بالطعام طوال مدة المجاعة.[34] لكن هذه الحكايات لا تدل على بداية عصر محوري جديد، لأن العدل الاجتماعي كان متجذراً من قبل في التراثات القديمة في المنطقة.

إلى الشرق من إسرائيل نوع مختلف كلياً من امبراطورية كانت تظهر ببطء إلى الوجود. في عام 876 كان الملك الآشوري قد هزم المدن الفينيقية على ساحل المتوسط، وعندما جلس شلمنصر الثالث على العرش عام 859، حاول اتحاد قوي لملوك محليين بزعامة Hadadezer الدمشقي إيقاف الزحف الآشوري نحو الغرب. ساهم أحاب بفرقة عربات للجيش، وسار ضد آشور عام 853، وهزم في معركة قرقر Qarqar على نهر العاصي. لم تكن آشور قوية بعد بما فيه الكفاية كي تضم إليها منطقة في الغرب، فبقيت دمشق الدولة الأقوى في المنطقة. وفي تلك السنة حاول أحاب تحدي سلطتها لكنه مات في معركة ضد حليفه السابق، وتلك كانت نهاية الأسرة الأوميرية، في انقلاب في القصر، استولى Jehu ـ مرشح كان يدعمه اليشع على العرش، وعقد تحالفاً مع آشور. وفي عام 841 هزمت آشور دمشق، وأصبحت سيدة المنطقة. وكتابع مفضل نعمت مملكة إسرائيل بفترة سلم ورخاء.

قصة احتفال التابوت في شيكم الواردة في الاصحاح 24 من سفر يشوع، من المحتمل أنها تعود إلى هذه الفترة.[35] إنه نص أكثر قدماً أدخله المؤرخ الذي عاش في القرن السابع في تاريخه، ومن المحتمل أنها كانت مبنية على مهرجان تابوت

العهد القديم الذي كان يحتفل به عند هذا المقام. عند أول وصول للإسرائيليين إلى كنعان، ربطهم يشوع بكل مهابة بيهوه في معاهدة رسمية ـ إذا كانوا يريدون أن يصبحوا شعب يهوه، عليهم ألا يعبدوا الآلهة التي قد عبدوها على الجانب الآخر من نهر الأردن، وأن يعبدوا يهوه فقط. كان عليهم أن يختاروا بين يهوه والآلهة الأخرى في المنطقة.

حذرهم يشوع أن هذا كان قراراً خطيراً، ويهوه كان إلهاً غيوراً لن يغفر التجاوزات إذا ما تركتم يهوه لتتبعوا آلهة غريبة، فإنه سيعذبكم ويدمركم". لكن كان الناس صلبين. يهوه كان إلههم. " إذن تخلوا عن الآلهة الغريبة وسطكم صاح يشوع، وأعطوا قلوبكم إلى يهوه إله إسرائيل"[36].

في أواخر القرن التاسع، آلهة أخرى كانت ما تزال مغرية، لكن كان عليها أن تبقى على الجانب الآخر المقابل من نهر الأردن. وهذا لم يكن نصاً وحدانياً. فإذا لم تكن هناك آلهة أخرى سيكون من غير الضروري للناس أن يقوموا بمثل هذا الاختيار.[37] الأحدية (أي عبادة إله واحد) كانت تدبيراً طقسياً: حركة يهوه فقط حثت الإسرائيليين على تقديم الأضاحي إلى يهوه فقط، وتجاهل عبادة الآلهة الأخرى. لكن هذا الموقف كان يتطلب شجاعة، وتضييق موارد إلهية، وفقدان مقدسات مألوفة ومحبوبة.

كانت إسرائيل على وشك البدء برحلة مؤلمة موحشة لقطيعة عن الإجماع العباداتي والأسطوري في الشرق الأوسط.

* * *

قطيعة مؤلمة كهذه لم تكن مطلوبة من الصينيين الذين لن ينقطع عصرهم المحوري عن الماضي، بل سيتطور من خلال فهم أعمق للطقوس القديمة التي مارسها ملوك الزهو. كان القرن التاسع فترة ضعف كبير في الصين. فالنظام الإقطاعي كان يتفكك، وكانت مملكة الزهو تتعرض لهجوم مستمر من شعوب بربرية تسكن الأراضي المحيطة بها. نعرف اليسير عن الأحداث التاريخية

لهذه الفترة. لكن مراجع متفرقة تشير إلى مكائد في القصر - ففي مناسبتين على الأقل - أُجبر الملك على الهروب من عاصمته. كان باستطاعة الملك أن يمارس سيطرة قليلة على مدن السهل الأوسط، والملكية القديمة قد استبدلت باتحاد لوردات من خلال ولائهم الآيديولوجي إلى الزهو، لكنهم عملياً كانوا يعملون بشكل مستقل،[38] لأن الشيء الوحيد الذي كان يجمعهم هو العقيدة . كانت الشعائر تذكر أتباع الملك أن الملك كان Tianzi "أي ابن السماء". لقد تلقى تكليفاً من Tian shang Di أي "السماء العلية" بحكم الشعب الصيني. فهو وحده المسموح له أن يقدم الأضاحي إلى الله العلي High God. ومدينة zhouzhuang في وادي wei كانت المركز الديني لكل شبكة مدن الزهو. لم يكن يسمح لأية مدينة أخرى إقامة الشعائر الملكية المرموقة تكريماً لملوك الصين المتوفين عدا Lu ، الذي كان أميرها ينحدر مباشرة من ذرية دوق الزهو. أما في ما تبقى من السهل العظيم، فكانت كل مدينة مسورة يحكمها أمير كان يَعُدُّ مملكته إقطاعية ممنوحة له من الملك. كل مدينة كانت مصممة وفق نموذج عاصمة الزهو، والأمير يقيم في وسط المدينة بجانب معبد أسلافه. وكان في خدمة الأمير بارونات، وضباط كبار، يشغلون مناصب مهمة في الإدارة، ويشرفون على مآدب الأضاحي الضخمة، وكانوا يشاركون في حملات الأمير العسكرية، ويزودون الجيش بالمحاربين وبلوازم العربات. تحت البارونات والضباط كان الـ shi أي الناس العاديين الذين من ذرية الفروع الأدنى للأسرة الكبيرة، ويخدمون في وحدات العربات. فعلى مر السنين كانت المدن تزيد باستمرار المناطق التابعة لها، لتغدو مراكز مهمة. المدينة الأهم كانت song التي زعم أميرها أنه من سلالة ملوك شانغ، فحافظ على تراثاتهم. ومدينة Lu كانت شديدة الولاء لطقوس الزهو. وما أن حلت نهاية القرن الثامن، حتى كانت قد أنشئت عشرات من هذه المدن المهمة في السهل العظيم.

كان الدين يهيمن كلياً على الحياة في جميع هذه المدن.[39] تركزت العبادة على شخص الملك، ابن السماء، الذي ورث التكليف مما ولّد لديه سلطة سحرية

كان ينقلها إلى اللوردات الإقطاعيين في المدن المهمة. كان النظام الصيني ـ على شاكلة معظم النظم الدينية الأخرى في هذه الفترة ـ منشغلاً بالحفاظ على النظام الطبيعي للكون عن طريق الطقوس التي تضمن أن المجتمع البشري ملتزم بطريقة السماء way of Heaven. الأعمال الاحتفالية كان يؤديها الملك، لأنهم كانوا يعتقدون أن باستطاعته أن يتحكم بقوى الطبيعة، ويضمن تتالي الفصول في تعاقب راسخ، وأن المطر يُرسل في الوقت المناسب، وأن الأجرام السماوية باقية في مساراتها المحددة. وبذلك كان الملك شخصية إلهية، لأنه كان النظير للإله العلي على الأرض. لم يكن هناك فصل معرفي بين السماء والأرض. لم يكن الصينيون مهتمين أبداً بإله تعالى على النظام الطبيعي، ولكانت تجربة إيليا لإله منفصل كلياً عن العالم محيرة لهم. فالسماء والأرض كانتا متكاملتين، شريكين نديين ومقدسين.

السماء، والله العلي كانا يحملان سمات تشبه البشر: لكنهما لم يكتسبا أبداً شخصية مميزة أو جنساً. فالله العلي لم يكن يصدر الأوامر من قمم الجبال، بل حكم من خلال ممثلية على الأرض. كانوا يشعرون بالسماء في الملك ـ ابن السماء ـ وكل من الأمراء هو ابن السماء في مجاله الخاص. لم يكن للأرض نظير بشري، وكل مدينة كان فيها مذبحين للأرض: مذبح جنوب القصر قرب معبد الأسلاف، والمذبح الآخر في الضواحي الجنوبية قرب مذبح الحصاد. الموقع كان كل شيء في الدين الصيني.

موقع مذبح الأرض كان يدل أن حراثة التربة، وجني المحاصيل وضع الناس مباشرة على صلة مع أسلافهم الذين حرثوا الأرض قبلهم، وبذلك رسخت طريق السماء. فقبل وبعد الحصاد كانوا ينشدون ترانيم الشكر، حتى مذبح الأرض وطريق المساء كان "مبهجاً": رابطة الاستمرارية المقدسة الماضية والحاضرة.

إنها عظمة المنطقة،

إنها راحة الشيوخ،

إنها ليس فقط هنا أن الأشياء هي كما هي هنا!

ليس فقط اليوم الأشياء موجودة كما هي اليوم!

فبين أجدادنا الأكثر قدماً كانت الحالة كذلك.[40]

عندما كان الناس يعملون في الأرض، فإنهم لم يكونوا مسرورين بإنجازاتهم الفردية وحسب " كما هم اليوم"، فجهودهم قد وحدتهم مع الأسلاف ـ الكائنات البشرية النمطية، وبالتالي بالطريقة التي يجب أن تكون عليها الأشياء.

دون عمل البشر لا تستطيع السماء أن تفعل.[41] لذلك كانت الأعمال الدنيوية العادية أنشطة مقدسة، وسراً قربانياً مكن الناس من أن يشاركوا في عملية إلهية. عندما كانوا يقطعون الغابات فإنهم يحلون السلام في الريف، وعندما شقوا الطرق، كان ملوك الزهو يكملون عملية الخلق التي بدأتها السماء. وفي القصائد الغنائية الكلاسيكية استخدم الشاعر نفس الكلمة ليصف العمل الإلهي للسماء، وليصف النشاط الدنيوي للبشر. ملوك Tai وWen قد أصبحوا شركاء السماء، ويجب أن يستمر أحفادهم الإحياء في هذه المهمة المقدسة:

السماء جعلت zuo الجبل العالي

الملك Tai ضخمه

الملك zuo قد قطع غاباته

الملك wen جعله هادئاً

سار حوله

و Qi شق طريقاً مستوية

ليحفظ أبناؤهم وأحفادهم.[42]

بدلاً من رؤية برزخ بين السماء والأرض، رأى الصينيون استمرارية فقط. الأسلاف الأكثر نفوذاً كانوا مع Tian shang Di الجد الأعلى، لكنهم عاشوا على الأرض.

باستطاعة السماء أن تتواصل مع الأرض عبر نبوءات، وبشر، وسكان الأرض بوسعهم أن يشاركوا الأسلاف في وجبة، والآلهة في طقس bin.

عندما تحدث الصينيون عن الأرض والكون أو حتى عن الإمبراطورية الصينية كانت هذه المجالات الدنيوية تشمل المقدس. كانوا أقل اهتماماً بخلق شيء ما مقدس "هناك خارجاً"، من اهتمامهم في جعل هذا العالم إلهياً تماماً، من خلال التأكيد أنهم ملتزمون بالنمط البدئي لصورة السماء. طريقة السماء المتجلية في العمليات الكونية والطبيعية كان أكثر أهمية من أية ألوهة محددة بوضوح، كانوا يشعرون بالمقدس في السعي العملي اليومي لجعل كل شيء ملتزم بطريقة السماء هنا على الأرض. كانت السماء أكثر رفعة، لكن الأرض كانت مركزية للحياة السياسية للمدينة. وجميع المجالس الإقطاعية الكبيرة كانت تتعقد عند مذبح الأرض. كان الزهو يرون أن الحرب كانت سبيلاً لعقاب المتمردين والأرذال، وبذلك يعيدون استقرار الـ dao. حملة عسكرية كانت تنطلق دائماً من تلة الأرض Earth، وبعد العودة كان الجيش يضحي بسجناء جرحى هناك. عندما كان لورد يمنح إقطاعية ويصبح واحداً من أبناء السماء كان الملك يعطيه حفنة من تربة مأخوذة من مذبح الأرض. وعند كسوف الشمس، كان الملك وأتباعه يتجمعون حول مذبح الأرض، كل منهم في مركزه الصحيح كي يعيدوا الاستقرار الكوني. فالأرض كانت ـ بذلك ـ شريك السماء التي لم يكن باستطاعتها فرض قانونها dao دون مساعدة نظرائها هنا على الأرض.

عندما كان الملك يُقلّد تفويضاً ملكياً، وأصبح الابن الرئيسي للسماء، فهذا "كان يفتح الطريق إلى السماء، وعلى الأرض، فإنه كان يتلقى مفعولاً سحرياً يسمى daode أي "قدرة الطريقة" التي كانت تمكنه من أن يهزم أعداءه، ويجتذب أتباعاً مخلصين، وأن يفرض سلطته. وإذا لم يكن الملك يمارس daode بالشكل الصحيح، فإنها تصبح ضارة.[44]

وبعد أن كان ينال هذه القدرة ـ كما قيل ـ فإن مجرد حضور الملك كان مؤثراً، وكانت تمارس تأثيراً كان يجبر البشر والظواهر الطبيعية أن تسلك بشكل صحيح. فكرة عابرة في ذهن الملك كانت تترجم إلى فعل فوراً:

فكرة الملك لا حدود لها

إنه يفكر بالخيول وهي قوية

فكرة الملك صحيحة كلياً

إنه يفكر بخيول، فتنطلق في سباق.[45]

عندما كانت قدرة الملك قوية، كانت الأرض تتفتح أزهاراً، وإذا ما كانت تتراجع فإن رعاياه سيمرضون ويموتون قبل الأوان، والمحاصيل تسوء، والآبار تجف. من جديد، هذه النظرة كانت تقديسية. العالم الطبيعي والمجتمع البشري كانا مرتبطين أحدهما بالآخر لا ينفصمان.

وظيفة الملك كانت أن يتأكد أن العالمين البشري والطبيعي كانا فعلاً في حالة انسجام. وفقاً للتراث الشعبي كان الملوك الحكماء يبقون الدورة المنتظمة للفصول عن طريق السفر إلى مناطقهم متبعين مسار الشمس.[46] ولذلك هوانغ Di الإمبراطور الأصفر مشى حول العالم كله، زائراً الاتجاهات الأربعة للبوصلة في ترتيب محكم. لكن قدرة yao كانت شديدة القوة لدرجة أنه لم يكن بحاجة لأن يقوم شخصياً بهذه الجولات، فأرسل بدلاً عنه مندوبين إلى الجهات الأربع كي يرسخوا الفصول بالنيابة عنه، shun قام بجولة أفضل ببساطة أدى طقساً عبر البوابات الأربعة لعاصمته، التي تتجه كل بوابة إلى الاتجاهات الرئيسية الأربعة.[47] وملوك الزهو لم يكونوا بحاجة لأن يغادروا قصورهم. بنوا قاعة خاصة، تدشن فيها الفصول بالوقوف في كل من زواياها الأربعة مواجهة الشرق أو الجنوب، الغرب أو الشمال.

بينما كانت السنة تتقضي في مسارها، كان على الملك أن يغير ملابسه، وإكسسواراته ويتبع حمية ليجعل كامل شخصه في حالة انسجام مع النظام الطبيعي. في الشتاء كان يرتدي لباساً أسود، ويمتطي حصاناً أسود، ويتنقل في عربة سوداء، ويحمل راية سوداء. ولكي يدشن هذا الفصل كان عليه أن يقف في الزاوية الشمالية الغربية من القاعة، وأن يأكل الجاورس ولحم الخنزير، أي طعام الشتاء. وبينما كان يقترب الربيع كان يرتدي لباساً أخضر، ويحمل راية

خضراء، ويأكل طعاماً حامضاً، ويقف في الزاوية الغربية من القاعة. أما في الصيف فكان يرتدي الملابس الحمراء، ويقف في الزاوية الجنوبية.

كان للملك سلطة عليّة، لكن لم يكن بوسعه أن يفعل ما شاء. في كل لحظة من حياته كان مجبراً أن يلتزم بالنموذج السماوي، والأشياء التي كان يحبها ويكرهها ليس لها أهمية كلياً. لم تكن وظيفته أن يضع سياسات خارجية أو محلية حتى، بل فقط أن يتبع الطريقة The way. وهذا المثل الأعلى القديم سيكون لاحقاً مصدر إلهام للكثير من روحانيات العصر المحوري الصيني. إذا ما قام الملك بواجباته الطقوسية بشكل صحيح ـ كما قيل ـ فإن قدرته daode ستجعل جميع الأشياء " هادئة وطيعة".[48] الأرض، المياه، النباتات، الحيوانات، الآلهة، الرجال، النساء، الأمراء، والفلاحين سوف يزدهرون جميعاً دون أن يخترق أحد مجالات الآخر. هذه الحالة من الاستقرار الإلهي كانت تسمى السلام العظيم Great peace. لكن إذا ما فشل الملك ـ ولأي سبب ـ وتراجعت قدرته كانت تحدث الفوضى. فالمطر يحدث في زمن غير موات، فيدمر المحاصيل، والشمس والقمر يضلان عن مسارهما فيحدث كسوف شمسي أو زلزال. عندئذ يعرف الملك أن عليه أن يعيد الاستقرار. كان يقرع طبلاً كبيراً، ويضع جميع رعاياه في حالة تأهب عسكري، ويستدعي الأمراء من مدنهم. لدى وصولهم إلى العاصمة مرتدين ملابس تقابل اتجاه البوصلة لمقاطعاتهم: لون أسود، أو أخضر، أو أحمر أو أبيض، ويقفون في الأمكنة المخصصة لهم في ساحة وسط العاصمة. وإذا ما حدث قحط كان الملك يعترف بأخطائه علانية أمام الناس، مقراً أن حكومته السيئة، وموظفيه من الدرجة الثانية، وبذخ بلاطه كانت المسؤولة عن ذلك. ثم يقدم قرباناً عند مذبح الأرض في الضواحي الجنوبية. إعادة الترتيب السحري لعالم البشر سوف تجلب السلام إلى الكون وتعيد ترسيخ طريق السماء.

في القرن التاسع، أصبح الطقس علنياً أكثر.[49] من المحتمل أن هذه الشعائر الملكية كانت خاصة في مطلع فترة ملوك الزهو، شؤوناً أسرية، ومن ثم أصبحت تؤدى أمام حشد كبير من الناس. أخصائيو الطقوس يترأسونها للتأكد أنها

كانت تؤدى بطريقة صحيحة. فالطقس العلني الجديد كان يعني أن باستطاعة الناس الالتزام والمشاركة في تطبيق الطريقة Way ، وبالتالي سيأتي جميع سكان العاصمة ليشاهدوا الملك والملكة يدشنان السنة الجديدة كل ربيع. كان الملك يركب عربته مرتدياً رداءً مطرزاً بالشمس والقمر إلى مذبح الأرض في جنوب المدينة، ويؤدي أول عمل ديني في السنة الجديدة، ومقدماً قرباناً إلى السماء.

كان الملك يقولب حياته وفقاً للسماء، وكان الناس يتبعون الملك الذي كان عليه أن يكون الأول في تأدية أي نشاط فصلي. إنه الأنموذج الأصلي الحي. ففي محاكاة السماء كان الناس يجعلون حياتهم في حالة انسجام مع الطريقة the way. وبذلك كان على الملك أن يحرث أول أخدود بعد استراحة الشتاء، من ثم كان باستطاعة الفلاحين البدء بالحراثة. وفي الربيع كانت زوجاته يقدمن أنفسهن طقوسياً إلى الملك كي يفتتح فصل التزاوج. وفي نهاية الخريف، كان الملك يركب إلى الضواحي الشمالية مع وزرائه وضباطه كي يلقي التحية إلى الشتاء ويعيد البرد. وهناك كان يعلن أن فصل الراحة والظلام قد بدأ، ثم يأمر الفلاحين بالعودة إلى قراهم. وكالمعتاد كان يترأس الطريقة مقدماً القرابين، وقافلاً بوابات قصره. بعدئذ يحذو الفلاحون وسكان المدينة حذوه فيرجعون إلى منازلهم.

معلوماتنا عن الشعائر الملكية مأخوذة من الكلاسيكيات الصينية القديمة. إننا لا نعرف كم كانت هذه الأوصاف تاريخية، فقد تكون خيالية جداً، لكن المثل العليا التي تعبر عنها كانت راسخة في المخيلة الصينية، وستكون حاسمة للعصر المحوري. فحتى في المدن الأخرى من المحتمل أن الأمراء، أبناء السماء المحليين كانوا يؤدون طقوساً مماثلة بصفتهم وكلاء من البلاط الملكي، ويأكلون إلى طاولة الملك: فمن خلال مشاركة الطعام الذي كان يقدمه الملك لهم، فإنهم كانوا يمتصون بعضاً من قدرته daode. وفي العاصمة كان الملك يبجل ملوك الزهو والشانغ المتوفين في شعائر درامية، بينما الأمراء في المدن الرئيسية كانوا يعظمون أسلافهم هم ـ أي الآباء المؤسسين للمدينة.

الزهو ـ على شاكلة الشانغ ـ كانوا يقيمون قرباناً جماعياً خاصاً كل خمس سنوات، ويدعون إليه آلهة الطبيعة والأسلاف إلى مأدبة عامرة. طوال عشرة أيام كان البلاط يقوم بتحضيرات ضخمة، والصيام، وتنظيف المعبد، وإحضار ألواح تذكارية للأجداد من حرفهم اليدوية، ونصبها في باحة القصر. وفي يوم المأدبة يخرج الملك والملكة ـ كل لوحده ـ إلى باحة القصر، ويتبعها أفراد الأسرة الملكية الأصغر سناً، كل منهم مشخصاً أحد الأسلاف، يدخلهم كاهن، ويلقون التحية ثم يوصلون إلى أماكنهم. كانت الحيوانات تذبح تكريماً لهم، وبينما كان يطبخ اللحم، كان الكهنة يجرون في الشوارع منادين على أية آلهة تائهة عن المأدبة صائحين: "هل أنت هنا؟ هل أنت هنا؟". بعدئذ تعزف موسيقى عذبة، ويعيدّون معاً جماعياً، وكل واحد يلعب دوراً بأقصى درجات الوقار. بعد المأدبة، مشاركة جماعية مقدسة مع الأسلاف الذين كانوا حاضرين بطريقة غامضة مع أحفادهم الشبان، وترانيم تحتفي بالأداء المثالي للشعيرة. ففي "كل عادة وشعيرة مطبقة" كل المشاركين ينشدون " كل ابتسامة، وكل كلمة، في محلها".[50] كل تعبير من تعابير الوجه، وكل حركة من أجسامهم، وكل كلمة نطقوها أثناء المأدبة "bin" كانت محددة. كان المشاركون يتركون فرديتهم خلفهم كي ينسجموا مع العالم المثالي للطقس: :لقد كافحنا جادين كي يكون الطقس دون أخطاء".

كل شيء كان مرتباً وسريعاً
كل شيء كان مستقيماً وأكيداً.[51]

كان المهرجان عيد تجلٍ لمجتمع مقدس يعيش في قرب حميم مع الألهة، كل واحد له دوره أو دورها الفريد الذي لا يمكن تعويضه، ومن خلال تركهم ذواتهم اليومية خلفهم، كانوا يشعرون أنهم كانوا على صلة بشيء ما أكبر وأكثر أهمية. فالطقس كان يخلق دراماتيكياً نسخة عن بلاط السماء، حيث الله العلي، الجد الأول (الذي يمثله الملك) جلس في حالة مع أسلاف الشانغ والزهو وآلهة الطبيعة. الأرواح كانت تمنح بركاتها، لكنها كانت خاضعة لطقوس

الدراما المقدسة. لقد استخدم ملوك الشانغ الشعائر كي يفوزوا بوساطات الأسلاف والآلهة. لكن مع حلول القرن التاسع كانت تأدية الطقوس بدقة وبشكل جميل كانت تصبح أكثر أهمية. فعندما كانت تنفذ الطقوس تماماً، شيء ما سحري كان يحدث داخل المشاركين، شيء كان يعطيهم لمحات من الانسجام الإلهي.[52]

كان الطقس يختتم بباليه مكونة من ستة فصول مدروسة التي كانت تعيد تمثيل حملة ملوك wen وwu ضد أخر ملوك الشانغ. 64 راقصاً يرتدون الحرير ويحملون فؤوساً Jade، تمثل الجيش، بينما الملك شخصياً كان يلعب دور سلفه ملك wen. كل فصل له موسيقاه الخاصة، ورقصاته الرمزية، وترانيم تحتفي بتأسيس التوكيل:

التوكيل ليس سهلاً الاحتفاظ به،

فقد لا ينتهي في أبنائك

أعرض ولّمع سمعتك الطيبة

وفكر بما تلقاه yin من السماء.

أفعال السماء العالية

ليس لها صوت، ولا رائحة

اتخذ من ملك wen أنموذجاً لك،

وجميع الولايات سوف تثق بك.[53]

كانت البالية تختتم برقصة سلام (da xia) مهداة إلى yu مؤسس سلالة xia. إنها كانت ترمز إلى الحكم الرشيد والسلم الكوني ـ وكان يعتقد ـ أنها ستجلب الهدوء والاستقرار إلى مملكة الزهو.

لقد فهم الصينيون أهمية الدهاء، فعن طريق تمثيل هذه المسرحيات المعقدة كانوا يشعرون أنهم أكثر إنسانية. ومع حلول القرن التاسع، كانوا قد بدأوا يقدرون أن التأثير التغييري للطقس كان أكثر أهمية بكثير من تلاعب الآلهة.

فمن خلال لعب دور، فإننا نصبح غير أنفسنا، عن طريق لعب دور شخصية أخرى مختلفة، إننا - مؤقتاً - نتفقد ذواتنا في ذات أخرى، الطقس أعطى المشاركين نظرة ذات انسجام، وجمال وقداسة كانت تبقى معهم بعد عودتهم إلى فوضى حياتهم العادية. أثناء الشعيرة شيء ما جديد كان يبعث حياً في الراقصين والممثلين، ورجال البلاط. عن طريق الاستسلام للتفاصيل الدقيقة للطقس الديني، فإنهم كانوا يسلمون أنفسهم إلى النموذج الأكبر، ويخلقون - على الأقل لفترة من الزمن - جماعة مقدسة، حيث الماضي والحاضر، السماء والأرض كانوا واحداً.

كان الصينيون عند بداية رحلتهم فقط. إنهم لم يكونوا قد بدأوا بعد في التفكير بتأثيرات هذه الاحتفالات. وبالتالي كان ينقصهم وعي للذات كي يحللوا ما كانوا يفعلونه.

لكن في فترة لاحقة خلال القرن الثالث قام xunzi زونزي - واحد من أكثر فلاسفة العصر المحوري الصيني عقلانية أعمل فكره في هذه الشعائر القديمة، وكان قادراً أن يفهم أهميتها الروحية. "السيد يستخدم أجراساً وطبولاً كي يوجه إرادته، ونايات والسنطرات (آلة وترية - تشبه آلة القانون) كي يدخل السرور إلى قلبه" كما شرح.

في رقصة الحرب لوّح بالأسلحة، وفي رقصة السلام لوّح بزخرفات من الريش، ماراً برمزية من الحرب إلى الانسجام. هذه الحركات الخارجية كان لها تأثير على ذاته الداخلية.

"من خلال عزف الموسيقى تغدو الإرادة نقية، ومن خلال ممارسة الشعائر يرفع السلوك إلى الكمال، تصبح العيون والآذان مرهفة، والطبع يصبح منسجماً وهادئاً، والتقاليد والأخلاق يتم إصلاحها بسهولة".

فوق كل شيء، هذه الطقوس الدقيقة ساعدت المشاركين أن يتجاوزوا أنفسهم. تابع زونزي "الشخص الناضج ينال السعادة في تنفيذ الطريقة the way، والرجل التافه ينال البهجة في إشباع رغباته". أثناء العصر المحوري سيدرك الناس

أن الخروج خارج حدود نزعة الأنانية كان يجلب رضاً أكثر عمقاً من مجرد الانشغال بملذات الذات. "من يتحكم برغباته بما يتوافق مع الطريقة the way سيكون سعيداً وخالياً من الاضطراب، لكن من ينسى الطريقة سعياً وراء رغبة سوف يسقط في الوهم والتعاسة".[54]

أثناء العصر المحوري الصيني، بعض الفلاسفة سيرفض تزلف الطقس، لكن آخرين سيبنون روحانية عميقة قائمة على هذه الاحتفالات القربانية. ترسيخ هذه الشعائر كان أحد الإنجازات العظيمة لملوك الزهو، وأقرت الأجيال التالية بذلك. سجل الشعائر نص أُكمل بعد العصر المحوري أشار إلى أن ملوك الشانغ قد وضعوا الشعائر في المقام الأول، والأرواح في المرتبة الثانية.[55] لقد أراد ملوك الشانغ أن يستخدموا طقوسهم للتحكم واستغلال الآلهة. لكن ملوك الزهو قد أدركوا حدسياً أن الشعائر بحد ذاتها كانت تحتوي على قدرة تحويلية أقوى بكثير.

مع حلول نهاية القرن التاسع، كان واضحاً أن سلالة الزهو كانت في مسالك خطرة ففي عام 842 عُزل الملك lih وأُبعد إلى المنفى. الفشل المزعج للملوك جعل بعض الناس شكاكين. إذا كان أبناء السماء غير كفوئين وقصيري النظر، فماذا يقولون عن الله العلي high God ذاته؟ بدأ الشعراء كتابة قصائد ساخرة:

إله السماء متناقض جداً لدرجة أن الناس على الأرض منهكون جداً". لم يعد الملوك وشعائرهم الملكية تجسد الطريقة the way " أنت تنطق حديثاً ليس صحيحاً ... وليس هناك مادة عند المذبح".[56] وعندما توفي الملك lih في المنفى عام 828 أعيد ابنه إلى السلطة. لكن الطريقة لم يُعد تأسيسها، نوه الشعراء أن في هذه الأيام كانت هناك كارثة طبيعية تتلوها أخرى. بالرغم من الأداء المتقن للشعائر، كان القحط يحرق البلاد، والأسلاف لم يفعلوا شيئاً إطلاقاً للعون:

التكليف العظيم على وشك أن ينتهي

لا شيء لننظر إلى الأمام أو الخلف إليه.

مجموعة الدوق وحكام الماضي

لا تساعدنا

أما بالنسبة للأم والأب والأسلاف

كيف يمكنهم أن يعاملوننا هكذا؟[57]

كانت الطقوس ما تزال تؤدى بشكل جميل، ومازال لها تأثير عميق على المشاركين، لكن قلة من نقاد صلبي العقول كانوا قد بدأوا يفقدون إيمانهم في تأثيرها السحري. مع ذلك سيكون الرد على هذه الكارثة المتنامية رداً أكثر طقسية، ولا أقل طقسية.

* * *

في نحو القرن التاسع خبراء الطقس في الهند كانوا قد انطلقوا في عملية إصلاح للطقوس التي افتتحت العصر المحوري الهندي. في مسار تحليل منهجي لطقوس القربان اكتشفوا النفس الداخلية. إننا نعرف القليل عن هؤلاء الطقوسيين كأفراد، لا نعرف أسماءهم، ولم يتركوا سجلاً شخصياً لرحلتهم نحو هذه النظرة الجديدة. نعرف فقط أنهم كانوا ينتمون إلى طبقة الكهنة البراهميين التي ارتقت إلى أهمية جديدة خلال أواخر الفترة الفيدية.[58] أعمالهم محفوظة في /Brahmans/ نصوص طقوسية تقنية جمعت في القرنين التاسع والسابع. ما يظهر من هذه المؤلفات عبارة عن رسائل جافة مفادها أن المصلحين كانوا مدفوعين بالرغبة لاستئصال العنف من شعائر القربان.

كانت الحياة الآرية تصبح أكثر استقراراً، فالاقتصاد بدأ يعتمد على الإنتاج الزراعي أكثر من اعتماده على الغزو. بالرغم من أنه ليس لدينا دليل وثائقي، يبدو أنه كان هناك إجماع متزايد على أن دورة الغزو المدمرة، والغزو المضاد يجب أن تتوقف. فالشعائر التقليدية لم تكن تشرعن هذا النموذج فقط، بل أعطته معنى مقدساً. والطقوس بحد ذاتها غالباً ما كانت تتحدر إلى قتال حقيقي، وتضحية عدوانية كانت تفضي إلى أخرى حتماً.[59] لقد قرر خبراء

الكهنوت أن يضعوا تقييما منهجياً للقربان مستبعدين أية ممارسة من المحتمل أن تؤدي إلى عنف. فهم لم يكونوا قادرين فقط على إقناع محاربي Kshatriya فقط أن بقبول هذه الشعائر المنقحة، بل إصلاحها أدى إلى نهضة روحية.[60]

للوهلة الأولى يبدو أنه لم يكن ممكناً حذف مزيد من النصوص من روح العصر المحوري عدا /Brahmans/ التي تبدو أن هاجسها هو التفاصيل الدقيقة القربانية - كيف استطاعت هذه النقاشات المسخفة لنوع من المعرفة التي يجب استخدامها لنذر محدد، أو كم عدد الخطوات التي يجب على الكاهن أن يخطوها عندما يحمل وعاء النار إلى المذبح قد ألهمت ثورة دينية. مع ذلك البراهميون كانوا يقومون بمحاولة شجاعة كي يجدوا مصدراً جديداً ذي معنى وقيمة في عالم متغير.[61] أراد الطقوسيون قرباناً لا يوقع أذى أو ضرراً على أي من المشاركين فيه. ذروة الأضاحي القديمة كانت القطع الدرامي لرأس الحيوان الضحية الذي كان يعيد تمثيل إندرا وهو يقتل Vritra. لكن إندرا لم يعد الشخصية العالمية المكانة كما كان عندما وصل الآريون إلى الهند، أهميته كانت تتراجع باستمرار. في الطقس المُصلح كانت الضحية تخنق دون ألم قدر الإمكان في كوخ خارج الحلبة القربانية "أنت لا تموت، ولن يلحق بك أذى" هذا ما أكده الطقوسيون إلى الحيوان: "إلى الآلهة أنت تمضي في ممرات جيدة".[62]

في هذه النصوص قتل الحيوان كثيراً ما وصف على أنه "وحشي"، " شر" ينبغي التكفير عنه. الأضحية - في بعض الأحيان - يجب إنقاذها، وتقدم كهدية إلى الكاهن المشرف. في هذا التاريخ المبكر، كان الطقوسيون يتحركون نحو المثل الأعلى ahimsa (أي عدم إيقاع الأذى) الذي سيغدو الفضيلة التي لا غنى عنها في العصر المحوري الهندي.[63]

منع الطقس الذي تم إصلاحه أية إشارة لعدوان تجاه البشر.لم يعد هناك مزيد من المنافسات، أو سباق عربات، أو معارك وهمية أو غارات. فهذه كلها تم حذفها بشكل منهجي من الشعائر، وحل محلها تراتيل مُسَكِّنة وحركات رمزية. للتأكد من استحالة حدوث نزاع، سيكون من الآن فصاعداً الراعي

والمضحي الذي كان يترأس الشعيرة، أي المحارب الوحيد حاضراً. وحلبة القرابين المحتشدة والصاخبة القديمة أصبحت خالية ما عدا الصوت الوحيد للمضحي وزوجته. لم يكن باستطاعة أعداء مقاطعة الشعيرة، ولم يكن هناك من يتحدى، ولم يعد باستطاعة راعي الشعيرة أن يدعوا ضيوفاً. فكان هذا شغل الكهنة الأربعة ومساعدوهم الذين كانوا يوجهون المشرف عبر الاحتفالات، وجل اهتمامهم كان التزاماً تاماً بكل فعل وما نترا بالإجراءات. وتم استبعاد النار، والغضب، والمرح القربانية. الخطر الوحيد الذي كان ممكن الحدوث في هذه الطقوس غير الضارة كان حدوث خطأ في الإجراءات، وكان بالإمكان تصحيح الخطأ من خلال شعيرة خاصة " تشفي " الضحية.

إننا نعرف ما حذفه الطقوسيون لأن الممارسات المؤلمة القديمة تركت آثاراً واضحة في الشعائر التي تم إصلاحها. هناك إشارات متضاربة إلى اقتتال في السياقات غير المحتملة. نصوص البراهمانا Brahmana شرحت أن عصير السوما كان يعيد تمثيل قتل إندرا الـ vritra، قارنت حالة أنشودة تغنى بالتبادل بصاعقة إندرا القاتلة، التي كان الكهنة يتمايلون إلى الخلف والأمام "مع أصوات قوية".[64] ترنيمة رزينة كانت تردد أثناء سباق العربات، كانت ما تزال تسمى عربة الآلهة. وذكر البراهميون مراراً العدو الذي ترك غيابه فجوة مربكة. إحدى النيران المقدسة الثلاث في الحلبة كانت تخص (العدو)، مانترات تشير إلى قتال لم يحدث أبداً " إندرا وأجني agni قد شتتا منافسيّ".[65] أية إشارة إلى الحرب كانت تُستبعد بقوة من agnicayana التي كانت تقدس أصلاً الهجرة شرقاً من قبل مجموعات المحاربين لفتح منطقة جديدة. فصاحب الأضحية كان يطلب منه أن يحمل قدر النار، ثم كان يخطو ثلاث خطوات إلى الشرق، ويضعها ثانية. لكن هذا بدا مألوفاً جداً، لذلك في مرحلة تالية كان يدفع بقدر النار عبر الأرض المقدسة في عربة.[66]

زعم الطقوسيون أن الشعائر التي أُصلحت قد أرساها براجاباتي، الإله الخالق المذكور في ترانيم الريغ فيدا التالية، ورووا قصة أصبحت الأسطورة

الميثاق لحركتهم.[67] ذات يوم أدى براجاباتي والموت قرباناً معاً، متنافسين في سباقات العربات المعهودة، وفي لعبة النرد، وفي منافسات موسيقية. لكن الموت هُزم هزيمة نكراء على يد براجاباتي الذي رفض أن يقاتل بأسلحة تقليدية. بدلاً منها استخدم التقنيات الطقوسية الجديدة، فهو لم يهزم الموت وحسب بل ابتلعه. لقد تم استئصال الموت من الحلبة المقدسة، ومثل راعي الشعائر التي تم إصلاحها، وجد براجاباتي نفسه وحيداً. "الآن ليس هناك منافسة طقوسية" هذا ما اختتم الطقوسيون به مزهوين بالنصر. لقد أصبح براجاباتي النمط البدئي لمقدم القربان. ومن تلك الفترة فصاعداً كان أي شخص يقلده في القربان الجديد لن يهزم الموت خصومه في سباق أو عن طريق القتال والقتل. أصبح باستطاعة صاحب القربان أن يهزم الموت من خلال استيعابه وأخذه إلى داخل نفس المضحي فقط، بحيث أن " الموت قد أصبح نفسه أتمان Atman".[68] لقد كانت صورة مذهلة. فمن خلال جعل براجاباتي يبتلع الموت، كان الطقوسيون يوجهون الاهتمام بعيداً عن العالم الخارجي إلى العالم الداخلي. من خلال جعل الموت جزءاً من نفسه، فإن براجاباتي قد أدخل الموت إلى نفسه، ولذلك تفوق عليه، ولم يكن هناك داعٍ لأن يخافه بعد ذلك ومقدمو القرابين يجب أن يفعلوا الشيء ذاته.

في الشعائر القديمة نقل المشرف على القربان عبء الموت إلى كاهل آخرين. فعن طريق قبول دعوته إلى مأدبة قربانية، كان على المدعوين أن يتحملوا مسؤولية موت الحيوان الضحية. بينما في الشعيرة الجديدة جعل المضحي نفسه مسؤولاً عن موت الحيوان. لقد أخذ الحيوان إلى داخل وجوده بدلاً من إسقاطه على أخرين، وبالتالي أصبح واحداً مع النذر القرباني. ميتاً ميته رمزية في الشعائر الجديدة، سيقدم نفسه إلى الآلهة - مثل الحيوان - إنه سيذوق الخلود "لأنه أصبح القربان"، وكما فسر أحد الطقوسيين "المضحي يحرر نفسه من الموت".[69]

دمج البراهمانيون شخصية براجاباتي - الإله الخالق - بـ purusha، بالشخص النمطي البدئي البشري في الترنيمة الفيدية المتأخرة، الذي سمح للآلهة أن تذبحه قرباناً. بحيث يمكن العالم من أن يظهر إلى الوجود. براجاباتي أو purusha كانا

كلاهما مقدمي قرباناً وضحيتين، وكل مرة يمر عبر الإجراءات القربانية، المشرف على القربان المتماهي مع طقس أزلي، أصبح واحداً مع براجاباتي "هناك قربان واحد فقط" ـ كما شرح أحد خبراء الطقوس ـ جميع القرابين كانت مطابقة للقربان الأصل عند بداية الزمن، و"براجاباتي هو القربان". أصبح براجاباتي الأنموذج الذي يجب اتباعه، بدلاً من الفوز بالخلود من خلال أن يصبح قاتلاً مثل إندرا، والمشرف على القربان أصبح الضحية ومات ميتة طقوسية، ـ على الأقل طوال المدة التي يستغرقها الطقس ـ دخل عالم الآلهة اللا زمني.

لكن البراهميين أكدوا أن على مقدم القربان أن يفهم ماذا كان يفعل. لم يكن هناك فائدة من المضي دون عقل عبر الحركات: كان عليه أن يعرف أن براجاباتي كان القربان، وكان عليه أن يكون عارفاً بالتراث الطقسي الجديد. في سباقه مع الموت، كانت أسلحة براجاباتي هي معرفته لأوجه التشابه بين الحقائق السماوية والأرضية. لقد رأى الدين الفيدي دائماً الأشياء المادية كنسخ طبق الأصل عن كائنات سماوية. لكن المصلحين صاغوا هذه البصيرة الحدسية المبكرة بطريقة متماسكة. لقد تعلم خبير الطقوس أن يكتشف أوجه الشبه والروابط التي كانت تربط كل عمل، أو تطبيق، أو مانترا في الطقس القرباني مع حقيقة كونية.[71] لقد كانت يوغا جمعية تربط مستويات مختلفة من الواقع سوياً.[72] التشابه والتماثل شكّل هوية. عندما كانت الشعائر تؤدى بكامل الوعي بهذه الشبكة الترابطية، بدا كل شيء في زي جديد: الآلهة ارتبطت بالبشر، والبشر بالحيوانات، والنباتات، والأواني والمتعالي بالمحايث والمرئي بالخفي الذي لا يرى.

فعلى سبيل المثال، براجاباتي كان النظير المقابل للسنة bandhu (دورة ا لفصول) لأن الزمن فاض من جثته في يوم الخلق: هو كان الأضحية الحيوانية، لأنه قدم نفسه للذبح، والآلهة التي انبثقت من جثته كانت أيضاً النظير لبراجاباتي. بينما كان يؤدي المشرف على القربان الشعائر، إنما كان هو النذر الذي قدمه إلى النار، لأنه في حقيقة الأمر كان يقدم نفسه، وهو كان الأضحية

الحيوانية للسبب ذاته. ولذلك كان هو براجاباتي، لأنه كان المضحي، الذي أشرف على الطقس بالإضافة إلى كونه الضحية.

ولأنه كان يكرر القربان البدئي فقد أصبح واحداً مع براجاباتي، لقد هجر العالم الدنيوي الفاني، ودخل العالم الإلهي. لذلك كان باستطاعته أن يعلن "لقد نلت السماء، الآلهة، أنا قد أصبحت خالداً". هذا التفكير النمطي البدئي كان أنموذج الفكر القديم. ما ميّز الإصلاح الطقسي الهندي هو أن هذه الروابط قد صيغت فعلياً في مسار الطقس من خلال جهد عقلي. حاول الطقوسيون جعل المشاركين مدركين لهذه التشابهات، وبالتالي يصبحون أكثر وعياً لذواتهم. حتى أصغر أداة مثل عود النار، كان عليه ينصهر في عقولهم مع عود النار الذي كان يستخدم في الشعيرة الأصلية. عندما كان الكاهن يرمي زبدة مصفاة في النار، كان يطلق نفس الصيحة تماماً مثل براجاباتي savah! عندما ينتهي من تقديم القربان. عن طريق النشاط الذهني لمقدم القربان والكهنة، هذه الأشياء الدنيوية كانت تبلغ درجة الكمال، تركت خلفها الخصوصية الواهنة لوجودها الدنيوي لتصبح واحداً مع الإلهي.

اعتقد الهنود الفيديون ـ على شاكلة جميع الشعوب القديمة ـ أن باستطاعة الطقس أن يرمم الطاقات المستنفذة باستمرار في العالم الطبيعي. لقد روى المصلحون قصة أخرى حول خلق براجاباتي. شرحوا أن في البداية قد استفاق على حقيقة أنه كان وحيداً في الكون، فتاق إلى ذرية، لذلك مارس الزهد ـ الصوم، وحبسُ نَفَسِهِ ومولداً الحرارة ـ وبالتدريج ـ كل الوجود فاض من شخصه (purusha): devas، asuras، vedas، والبشر، والعالم الطبيعي. لكن براجاباتي لم يكن مخططاً عالي الكفاءة، وخليقته كانت فوضى. المخلوقات لم تكن بعد منفصلة عن براجاباتي.[73] كانت ما تزال جزءاً منه، وعندما أنهكته أعماله، غط في غيبوبة، فكادت المخلوقات أن تموت.[74] سقطت بعيداً عنه، وتفككت، وبعضها هرب فعلاً، خائفة من أن يلتهمها براجاباتي. كان يتوجب تجميع براجاباتي من جديد، لذلك أعاد أجني agni تكوينه، بانياً إياه قطعة تلو قطعة.

المخلوقات التائهة والمبعثرة استعادت هويتها ثانية، وأصبح العالم قابلاً للحياة.[76] وبذلك ـ عن طريق قانون التشابه ـ عندما كان مقدم القربان يبني مذبح نار جديد أثناء طقس Agni cayana، إنما كان فعلياً يعيد تكوين براجاباتي، ومعطياً الحياة إلى كل الخليقة.كل طقس كان يجعل العالم أكثر قوة. لقد استبدل المصلحون الشعائر القديمة المدمرة ـ للذات بطقوس كانت ترمز إلى بناء نظام عالمي جديد. الآلهة والبشر كان عليهم أن يعملوا في مشروع مشترك ذي تجديد مستمر.

الأمر الأساسي للإصلاح الطقسي كان الاقتناع بأن الكائنات البشرية كانت مخلوقات ضعيفة، ومثلها مثل براجاباتي ـ يمكن أن تتداعى بكل سهولة. لقد ولد البشر ناقصين وغير مكتملين، وباستطاعتهم أن يبنوا أنفسهم ليبلغوا قوة تامة فقط من خلال الطقس. المشرف على الطقس عندما كان يشارك في قربان السوما، فإنه كان يشعر بولادة ثانية، وكان يمر في عملية إدخال كانت رمزياً تعيد تمثيل المراحل المتنوعة للحمل.[78] قبل بدء الشعيرة، كان يعتكف، مقرفصاً في كوخ (ممثلاً الرحم)، مرتدياً لباساً أبيض، وجلد حيوان الرنة ذي اللون الأسود (ممثلاً غشاء يغطي رأس المولود والمشيمة)، ويداه مطبقتان على شكل قبضة (مثل جنين). كان يتغذى على الحليب، وكان عليه أن يتلعثم عندما يتكلم، مثل طفل صغير.[79] وأخيراً كان يجلس بجانب النار، ويتعرق، مثلما فعل براجاباتي لكي ينتج خلقاً جديداً. بعد تناوله للسوما المسكرة، كان يشعر بحالة صعود إلى الآلهة، دون أن يكون عليه أن يموت ميتة عنيفة، كما في الطقس القديم.[80] لم يكن باستطاعته البقاء طويلاً في السماء، لكن بعد موته، إذا كان قد راكم رصيداً قربانياً كافياً، سيولد ثانية في عالم الآلهة.

في الطقس ـ لذلك ـ كان مقدم القربان يعيد بناء نفسه (أتمان)، مثلما فعل براجاباتي تماماً. في مشغل القربان لقد جمع (الذات الإلهية) التي سوف تستمر في العيش بعد وفاته. عن طريق تأدية الطقوس بشكل صحيح، ومعرفة النظائر bandhuad، بإحكام في ذهنه، استطاع المحارب أن يعيد بناء شخصه. الكهنة

البراهميون " يجعلون الشخص، مكوناً من القرابين، ومكوناً من الأعمال الطقسية" كما شرح أحد الطقوسيين.[81] شعائر العبور كانت أيضاً تكون الكائن البشري. كان على الصبي الآري أن يخضع لـ upanayana التي كانت تدخله في دراسة الفيدا والإجراءات القربانية، وإلا لن يكون قادراً أن يبنى أتماناً مكتمل الإنجاز. فقط الرجال المتزوجون باستطاعتهم الإشراف على طقس، ويبدؤون عملية بناء النفس، لذلك كان الزواج شعيرة عبور أخرى لكلا الرجال والنساء (اللواتي كان يسمح لهن حضور القربان فقط برفقة أزواجهن). بعد وفاة شخص، كان الجثمان يشبه براجاباتي المنهك، وكان يتوجب إعادة بناءه عن طريق إقامة الشعائر الجنائزية الصحيحة.[82]

لكن النظام لم يكن يعمل ذاتياً. ما لم يكن شخص كفوءاً في علم الطقس، فإنه سوف يكون تائهاً في العالم التالي. لن يكون قادراً أن يتعرف على "النفس الإلهية" التي قد خلقها خلال حياته، ولن يعرف عن أي العوالم السماوية التي عليه أن يذهب إليها. " مشوشاً بنار المحرقة، مختنقاً بالدخان، إنه لا يتعرف على عالمه الخاص به، لكن - هو من يعرف - هو فعلاً بعد أن غادر هذا العالم، يعرف " الأتمان" قائلاً، هذا أكون أنا" ويتعرف على عالمه الخاص به. والآن تحمله النار إلى العالم السماوي".[83]

عبارة " هو الذي يعرف" تتكرر بإلحاح عبر نصوص البراهمانا. لم يكن باستطاعة الكهنة القيام بالعمل كله. مقدم القربان Kshatriya وvaishya كان عليه أن يكون مضطلعاً على تراث القربان، لكن المعرفة وحدها كان باستطاعتها إطلاق قدرات الشعائر.

الطقس الذي أوجده المصلحون لا بد أنه كان مُرضياً روحياً، وإلا لما كان باستطاعة البراهميين إقناع المحاربين بالتخلي عن مبارياتهم الحربية. من الصعب علينا أن نقدر القدرة التحويلية الأخلاقية لهذه الشعائر، لأن لدينا فقط مقولات سطحية عن البراهميين. قبل الشعيرة، كان مقدم القربان يعتكف منعزلاً عن الهموم الضاغطة في حياته العادية. الصيام، والتأمل، والزهد، والسكر من

مشروب السوما، وجمال الإنشاد، هذه كلها كانت تعطيه الأثر العاطفي للتعليمات الجافة التي حددها الطقوسيون: أن نقرأ Brahmans دون تجربة الطقس هو مثل قراءة كلمات أوبرا دون سماع الموسيقى.

معرفة علم الطقس لم تكن قبولاً مفهومياً للتأملات الميتافيزيقية لدى البراهميين، بل كانت مثل البصائر المستمدة من الفن التي تتحقق من خلال الدراما الآسرة للعبادة.

لكن التأثير الأكثر أهمية لإصلاح الطقس كان اكتشاف العالم الداخلي. بوضع هذا التأكيد على الحالة العقلية للمضحي، كان الطقوسيون قد وجهوا اهتمامه إلى داخله. في القديم، كان الدين عادة يوجه إلى الواقع الخارجي. والشعائر القديمة قد ركزت اهتمامها على الآلهة، وهدفها كان إنجاز سلع مادية، القطيع، الثروة، والمكانة.

كان هناك القليل من استبطان للنفس، أو لم يكن موجود أبداً. الطقوسيون المصلحون كانوا رواداً. لقد أعادوا توجيه القربان عن توجهه الأصلي وركزوا ـ بدلاً من ذلك ـ على خلق الأتمان، أي النفس. لكن بالضبط ماذا كانت ماهية الأتمان؟ الكهنة الذين كانوا مستغرقين في معرفة الطقس لدى البراهميين بدأوا يفكرون في طبيعة النفس، وبشكل متدرج أصبحت كلمة " أتمان" تعني النواة الجوهرية والأزلية للشخص البشري، التي جعلته أو جعلتها فريدة.

لم يكن الأتمان ما أسميناه في الغرب الروح soul، لأنه لم يكن روحياً كلياً. في المراحل الأولى من هذا التفكير اعتقد بعض البراهميين أن النفس كانت مادية: جذع الجسد، كنقيض للأطراف. وبدأ آخرون ينظرون إلى ما هو أعمق. الصوت كان حقيقة مقدسة بكل قوة لدرجة أن ربما أتمان شخص كان يستقر في كلامه. واعتقد آخرون أن نَفَسَه ــ الذي بدونه ستكون الحياة مستحيلة ـ لا بد أن يكون النواة الجوهرية للكائن البشري، وبالإمكان طرح قضية قوية بالنسبة للحرارة التي كانت تتصاعد داخل مقدم القربان بينما كان يتعرق بجانب النار، والتي كانت تملؤه بطاقة إلهية. انطلاقاً من هذه النقطة،

كان منطقياً المضي إلى خطوة أبعد، ويقترحون أن الأتمان كان نار الكائن البشري الداخلية. فمنذ زمن طويل، كان ينظر إلى النار على أنها الأنا الأخرى لدى الآري. الآن بعض الطقوسيين زعموا أن في البداية الإله أجني Agni وحده كان يمتلك الخلود. لكن عن طريق " الإنشاد المستمر والإجهاد الطقسي" اكتشفت الآلهة الأخرى كيف تخلق أتمان أزلي لأنفسها.

لقد بنت مذبح نار، وشيدت ذاتاً جيدة في ورشة القربان. بالطريقة ذاتها، عن طريق التأمل في عبادة النار، وترتيل المانترات، والتجربة المنضبطة للحرارة، استطاعت الكائنات البشرية بلوغ خلود كأشباه آلهة أيضاً.[84]

أخيراً بعض من النصوص الطقسية اللاحقة قدمت إقتراحاً ثورياً. شخص كان خبيراً في التراث الطقسي لا داعي لأن يشارك في القربان الخارجي إطلاقاً. التأمل في عزلة بإمكانه أن يكون لديه نفس التأكيد مثل الشعائر الخارجية. فالذي كان يعرف علم الطقس كان باستطاعته أن يجد طريقه إلى السماء دون حضور طقس.[85] إذا كان مقدم القربان براجاباتي، يتوجب عليه أيضاً أن يمتلك قدرات براجاباتي الخلاقة. عند بداية الزمن، قبل وجود أي شيء، أو أي واحد آخر براجاباتي قد خلق شكله الخاص به، الآلهة، والكائنات البشرية، والعالم المادي عن طريق جهوده العقلية. بالتأكيد الزاهد المتوحد استطاع على الأقل خلق أتمانه الإلهي الخاص به.

قال الطقوسيون، بعد خلق النار الداخلية ـ الأتمان ـ داخل مقدم القربان، فإنها أصبحت ملكيته الدائمة التي لا يمكن سلبه إياها. لقد طوروا طقساً جديداً لجعل هذا واضحاً. عندما كان الكاهن يشعل ناراً جديدة أثناء شعيرة من خلال النفخ على الجمر، فإن الكاهن أو المشرف على الطقس يجب أن يستنشق ويسحب النار المقدسة إلى داخل كيانه.[86] هذا ما فعلته الآلهة، عندما اكتسبت أتمانها الأزلي وأنجزت الخلود. من تلك اللحظة، مقدم القربان كان مساوياً للآلهة ولا حاجة لأن يعبدها بعد ذلك. هو الذي يعرف هذا، ما عاد مقدم قربان إلى الآلهة بل المضحي بالنفس"[87] مضحياً بذاته. لم يعد عليه أن يخدم أتمانه عن

طريق مشاركة مستمرة في الاحتفالات الخارجية للقربان، لأن ناره الداخلية لم تكن بحاجة إلى وقود. لقد حقق أتمانه مرة وإلى الأبد. كل ما كان ضرورياً للمضحي بالنفس كان قول الصدق في كل الأوقات، الفضيلة الأساسية لدى الآلهة والمحاربين على السواء. عن طريق العمل والكلام بما يتفق مع الصدق والحقيقة، سيكون مشبعاً بقدرة وطاقة البراهمن.[88]

العصر المحوري الهندي قد بدأ. في عالمنا المعاصر، يعتقد غالباً أن الطقس يشجع انسجاماً عبودياً، لكن الطقوسيين البراهميين قد استخدموا معرفتهم لتحرير أنفسهم من الشعائر الخارجية والآلهة، وخلقوا معنى جديداً كلياً للنفس المستقلة الحاكمة ذاتها. عن طريق تأمل دينامية الطقس الداخلية، المصلحون الكهنة قد تعلموا النظر إلى الداخل. وسيبدؤون الآن استكشاف العالم الداخلي بكل مثابرة مثلما اندفع المحاربون الآريون إلى الأمام في الأدغال المجهولة في الهند. التشديد على توفير المعرفة سيكون أيضاً مهماً أثناء العصر المحوري. كان الطقوسيون يطالبون أن يفكر كل امرئ في الشعائر ويصبح مدركاً لمضامين ما كانوا يفعلون: لقد ولد وعي ذاتي جديد.

من الآن فصاعداً البحث الروحي الهندي لن يركز على إله خارجي بل على النفس الخالدة. إنه سيكون بحثاً صعباً لأن هذه النار الداخلية كان من الصعب عزلها، لكن علم الطقس لدى البراهميين قد علّم الآريين أنه كان من المحال بناء نفس خالدة. الإصلاح الذي قد بدأ باستئصال العنف من شعائر القربان قاد البراهميين ومشرفيهم العاديين في اتجاه غير متوقع كلياً. فما كان ما يزال ناقصاً في الهند كان التزاماً أخلاقياً قوياً سوف ينقذ هذا الاكتفاء الذاتي المتكبر من أن يصبح نزعة أنانية متغولة.

الفصل الثالث

إفراغ النفس من الأنانية

(800 ق.م إلى 700 ق.م)

القرن الثامن كان فترة انتقال ديني في مملكتي إسرائيل ويهوذا، وفي هذا الزمن نرى المحفزات الأولى للروحانية المحورية التي ستبلغ النضج هناك بعد مائتي سنة تالية. فحيث كان الهنود الفيديون قد توصلوا إلى نظرة جديدة عن طريق التأمل في الطقوس القربانية، كان سكان إسرائيل ويهوذا يحللون الأحداث الراهنة في الشرق الأوسط، فوجدوا أن التاريخ الظاهري للمنطقة كان يتحدى الكثير من مفاهيمهم للإلهي. بعضهم كانوا قد بدأوا ينتقدون الطقس، وأرادوا ديناً قائماً على الأخلاق أكثر. أثناء القرن الثامن انتشر فن التعليم في غرب العالم السامي وفي شرقي المتوسط. فحتى هذه الفترة استخدمت الكتابة لأغراض عملية وإدارية، لكن الأن بدأ الكتبة يؤسسون أرشيفاً ملكياً لحفظ القصص والتقاليد القديمة. وفي حوالي نهاية القرن الجزء الأقدم من أسفار موسى الخمسة، من المحتمل أنها دونت.

لكن ما هو أكثر أهمية هو أننا نجد بذور إنكار النفس الذي سيكون حاسماً لجميع التراثات الدينية في العصر المحوري. هنا أيضاً محفز التغيير كان اندلاع العنف في المنطقة.

خلال النصف الأول من القرن الثامن كانت مملكة إسرائيل الشمالية ناجحة. وآشور كانت تتعاظم من قوة إلى قوة، وهيمنت بسرعة على المنطقة

بأكملها، وبما أن إسرائيل كانت تابعاً مخلصاً لآشور، فقد نعمت بتوسع اقتصادي في عهد الملك جيروبوم الثاني Jeroboam (786 ـ 746). كانت المملكة مزدهرة تصدر زيت الزيتون إلى مصر وآشور، وكانت هناك زيادة ملحوظة في عدد السكان. فتح جيروبوم منطقة جديدة في عبر الأردن، وقام بأعمال بناء رئيسية في مجيد وMegiddo، وحاصور وGezer. فأصبح لدى المملكة بيروقراطية متقدمة وجيشاً محترفاً.[1] في السامرة، كان النبلاء يعيشون في منازل باذخة مغطاة بألواح من العاج المحفور بدقة. لكن كما في أية دولة زراعية، كانت الثروة مقتصرة على الطبقات العليا، وأصبحت الفجوة بين الأغنياء والفقراء واضحة بشكل مقلق. في المناطق الريفية الذين عملهم كان يمول المشاريع الثقافية والسياسية للملك، كانوا مثقلين بالضرائب، وعرضة للعمل القسري. وفي البلدات لم يكن الحرفيون في حال أفضل.[2] هذا الظلم المنهجي كان مشكلة دينية إضافة إلى كونه مشكلة اقتصادية. في الشرق الأوسط الملك الذي كان يسيء استخدام واجباته تجاه المعوزين كان ينتهك مراسيم الآلهة، ويعرض شرعيته للمساءلة. بالتالي لم يكن مستغرباً أن ينتفض الأنبياء باسم يهوه للتهجم على الحكومة. فعاموس وهوشع كانا أول نبيين متعلمين. ونقل تلاميذهما تعاليمهما شفوياً. وفي نهاية القرن الثامن دونوها وجمعوها في مجموعات نبوءات نبوية. والنصوص الأخيرة تضمنت كلمات الأنبياء اللاحقين، ولذلك يصعب التأكد من صحة النبوءات الفردية. لكن كان واضحاً أن عاموس وهوشع كانا متضايقين من الكارثة الاجتماعية في عصرهما.

في نحو عام 780 شعر راعٍ من Tekoa في مملكة يهوذا الجنوبية أن قدرة يهوه قد اجتاحته رغم أنه لم يكن مستعداً لذلك: "أنا لم أكن نبياً، لست أنانياً ولا أنا ابن نبي، بل أنا راعٍ وجاني جميزة. فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب إذهب وتنبأ لشعبي إسرائيل".[3] لم يسمح له أن يبقى في يهوذا، لكن يهوه وجهه إلى مملكة جيروبوم. شعر عاموس بالإلهي كقوة ممزقة اختطفته من كل شيء كان مألوفاً له، فشعر أنه لم يكن لديه خيار: "الأسد قد زمجر فمن لا

يخاف. السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ".[4] لم يكن الأنبياء العبرانيون نساكاً، ولم يشعروا بالاستنارة الداخلية في نهاية سعي طويل منضبط لدرجة أن يصبحوا مدخلين. أما تجربة عاموس فكانت مختلفة تماماً عن الاستنارة التي ستشكل سمة للعصر المحوري في الهند أو الصين، كما سوف سنرى. شعر أن قدرة تتملكه، بدت أنها آتية من خارجه، ونزعت النماذج العادية لحياته الواعية لدرجة أنه لم يعد مسيطراً على نَفَسِهِ، لقد حل يهوه مكان أناه الهادفة المسيطرة ورمت عاموس في عالم مختلف تماماً.[5] الأنبياء العبرانيون شعروا بالإلهي مثل انفجار، اقتلاع وصدمة محطمة، وغالباً ما رافق التوتر والضيق تجربتهم الدينية. في هذا الوقت كان دين إسرائيل بصرياً جداً. فمؤلفو المزامير كانت تتآكلهم الرغبة كي يروا يهوه " أن أنظر إليك في الهيكل، ولأرى قدرتك ومجدك".[6] عندما وصل عاموس إلى الشمال، رأى حلماً ليهوه في بيت إيل، أحد المقامات الملكية في إسرائيل. رأى يهوه واقفاً بجانب المذبح آمراً أفراد مجمعه الإلهي أن يدمروا الهيكل وشعب إسرائيل: "

رأيت السيد قائماً على المذبح فقال اضرب تاج العمود حتى
ترتجف الأعتاب وكسرها على رؤوس جميعهم فأقتل
آخرهم بالسيف. لا يهرب منهم هارب ولا يفلت منهم ناجٍ. عاموس 9: 1

لم يجلب عاموس رسالة عزاء: جيروبوم الذي أهمل واجباته تجاه الفقراء سيقتل، وإسرائيل تدمر هي وشعبها " وإسرائيل يسبى سبياً عن أرضه"[8] لم يكن عاموس يحتاج بالضرورة إلى وحي إلهي ليتوقع ذلك. كان باستطاعته أن يرى آشور تبني امبراطورية قوية، وتضعف الممالك الأصغر منها إلى مجرد دول تابعة لها. كان على الملك التابع أن يقسم يمين الولاء، وكان العصيان يعاقب عليه بترحيل النخبة. كان أنبياء إسرائيل مثل المعلقين السياسيين المعاصرين. استطاع عاموس أن يرى أن رمي جيروبوم لمصيره بين يدي هذه القوة العظيمة كان يلعب لعبة خطيرة، ومجرد خطأ واحد قد يجلب غضب آشور لتستولي على مملكة

إسرائيل. لقد جلب رسالة جديدة صادمة. لم يعد يهوه آلياً إلى جانب إسرائيل مثلما كان في وقت الخروج. إنه سيستخدم آشور كي يعاقب جيروبوم على إهماله للفقراء.

جرى إخبار الملك بما بشر به عاموس، فطرده كبير الكهنة من بيت إيل. لكن عاموس لم يرتدع فتابع نبوءته. بطبيعة الحال، لم يكن لديه خيار لأن يهوه قد أجبره أن يعلي الصوت. وما تنبأه كان صادماً لأنه كان يقلب يقينيات تراثية كثيرة كانت إسرائيل ترى يهوه إلهاً محارباً منذ الأيام الغابرة، تصوروا إلههم سائراً من الجبال الجنوبية، آتياً لمساعدتهم. الآن يهوه عاد إلى درب الحرب. إنه سيدمر ممالك دمشق وفيلستيا، وصور، ومؤاب، وأمون، لكنه هذه المرة لن يقاتل إلى جانب إسرائيل. إنه كان يقود حرباً مقدسة ضد إسرائيل ويهوذا، مستخدماً آشور كأداته المفضلة.[9]

قد تكون روحانية العصر المحوري محطمة للمعتقدات الدينية فالدين لم يكن حول التعلق بممارسات ومعتقدات معززة، بل كان في أغلب الأحيان يطالب الناس أن يسائلوا تراثاتهم، وينتقدوا سلوكهم. فإلى جانب انقلاب الولاء القديم للإله المحارب يهوه رأساً على عقب فقد صب عاموس سخرية على الطقوس المعززه في إسرائيل:

كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم. إني إذا قدمتم لي محارقكم وتقدماتكم لا أرتضي. وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها. أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع. وليجر الحق كالمياه، والبر كنهر دائم".[10]

في نهاية المطاف قوض عاموس اعتزاز الإسرائيليين بعلاقتهم الفريدة بيهوه. شعوب أخرى قد حررت على يد يهوه أيضاً. لقد جلب الفلستيين من caphter والآراميين من kir ووطنهم في أراضيه الموعودة.[11] أما الآن فإنه كان يعد العدة لمسح مملكة إسرائيل عن الخريطة.

لقد قدم عاموس ضربة مزلزلة لاعتزار إسرائيل بذاتها. لقد أراد أن يثقب الأنا القومية. فكانت هذه واحدة من أوائل التعبيرات في إسرائيل لروحانية استسلام الذات التي كانت في قلب المثل الأعلى للعصر المحوري.

فبدلاً من استخدام الدين لزيادة إحساسهم بقيمتهم الذاتية، كان على الإسرائيليين أن يتعلموا التعالي على مصلحتهم الذاتية ويحكموا بالعدل والمساواة. كان النبي مثالاً حياً على ما أسماه الإغريق kenosis أي إفراغ النفس من الأنانية. لقد شعر عاموس أن الله قد استحوذ على ذاته.[12] إنه لم يكن ينطق كلماته هو، بل كلمات يهوه، النبي قد ترك ذاته وراءه في حالة تعلق عاطفي بربه الذي شعر بالظلم الذي كانت تمارسه إسرائيل على أنه إذلال شخصي.[13] هذه كانت لحظة مهمة. دين عصر المحور سيكون مشروطاً بإحساس تعاطف يُمكّن الناس أن يشعروا بالآخرين. لم يشعر عاموس بغضب من جانبه، بل بغضب يهوه ذاته.

هوشع الذي كان نشطاً في المملكة الشمالية، في حوالي نفس الفترة عاموس تعلم التعاطف مع يهوه من خلال مأساة في حياته الخاصة عندما أصبحت زوجته جومر Gomer بغياً مقدسة في عبادة إله الخصوبة بعل.[14] أدرك هوشع أن هذا كان ما أحس به يهوه ـ الواحد المقدس لدى إسرائيل ـ عندما مضى شعبه يزني وراء آلهة أخرى.

لقد رأى توقه كي يستعيد جومر كإشارة بأن يهوه كان يحن إلى إسرائيل الجاحدة، وكان مستعداً أن يعطيها فرصة أخرى.[15] هنا من جديد، كان هوشع يهاجم تراثاً عزيزاً، أي عبادة بعل. كان عليه أن يقنع الناس أن يهوه لم يكن مجرد إله حرب بل كان باستطاعته أيضاً أن يجلب لهم حصاداً وفيراً. كان هوشع ـ مثل إيليا ـ يحاول إزاحة بعل ويقنع الإسرائيليين أن يعبدوا يهوه فقط. لكن حيث ركز إيليا على نقاء العبادة، كان اهتمام هوشع أخلاقياً. فعبادة بعل أدت إلى تدهور أخلاقي: "لعن، كذب، وقتل، وسرقة، وفسق يعتنقون، ودماء تلحق دماء"[16]، كان هناك تساهل جنسي، وكل واحد كان يتردد على البغايا

المقدسات، ويترنح مخموراً بعد مآدب القرابين. وبدلاً من أن يقدم الكهنة إرشاداً روحياً وأخلاقياً، كانوا يستشيرون الاصنام التي كانت مجرد قطع من الخشب.[17] "شعبي يسأل خشبة وعصاه تخبره لأن روح الزنى قد أضلهم".[18]

كل هذا كان بسبب الافتقار إلى السريرة الداخلية inwardness في الدين الإسرائيلي.[18] لقد اتبع الناس آلهة أخرى فقط، لأنهم لم يعرفوا يهوه حق المعرفة. فهمهم للدين كان سطحياً. كان هوشع ـ على شاكلة الطقوسيين الهنود ـ يطالب بفهم أكبر. فالممارسات الدينية يجب ألا تؤخذ بدهياً. وألا تؤدى روتينياً، بل يجب أن يصبح الناس أكثر إدراكاً لما كانوا يفعلونه. لم يكن هوشع يتحدث عن معرفة مفهومية صرفة. الفعل yada أي "أن تعرف" كان يتضمن ارتباطاً عاطفياً بيهوه وسيطرة الإله داخلياً. لم يكن كافياً حضور قربان أو مهرجان فقط " إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات". حاول هوشع باستمرار أن يجعل الإسرائيليين يدركون أن الله في داخلهم".[19] فالخروج على سبيل المثال لم يكن مجرد ممارسة قدرة من جانب يهوه. عندما عاش يهوه مع الإسرائيليين أربعين سنة في التية، شعر أنه مثل والد يعلم أولاده المشي، حاملاً إياهم بين ذراعيه، ويقودهم مثل دراج toddler وأنا درجت أفرايم ممسكاً إياهم بأذرعهم فلم يعرفوا أني شفيتهم. كنت أجذبهم بحبال البشر بربط المحبة. وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم، ومددت إليه مطعماً إياه".[20] هوشع كان يحاول أن يجعل الناس ينظرون إلى ما هو تحت سطح القصص القديمة وأن يقدروا شفقة الله.

هوشع وعاموس كلاهما قد أدخلا بعداً جديداً مهماً إلى الدين الإسرائيلي. فدون سلوك أخلاقي جيد ـ كما أكدا ـ كان الطقس وحده لا قيمة له. يجب ألا يستخدم الدين لتضخيم الاعتزاز الجماعي والاعتداد بالنفس، بل من أجل تشجيع التخلي عن نزعة الأنانية. هوشع ـ على وجه الخصوص ـ كان يحث الإسرائيليين أن يتفحصوا حياتهم الداخلية، وأن يحللوا مشاعرهم، وأن يطوروا نظرة أعمق قائمة على الاستبطان.

ظهر بعض هذه المزايا في الأجزاء الأولى من أسفار موسى التي كانت قيد الإنتاج في إسرائيل ويهوذا في نحو هذه الفترة.

لقد أقر العلماء منذ مدة طويلة أن هناك مستويات مختلفة في أسفار موسى. ففي أسفار التكوين، والخروج، والعدد، يبدو أنه تم جمع نصين مبكرين أولاً، وفي فترة تالية في حوالي القرن السادس حررها كاتب كاهن "P" الذي أضاف إليها تراثاته الخاصة. إحدى هذه المصادر المبكرة تسمى "J" لأن المؤلف أسمى ربه " يهوه "، والثاني "E" لأن هذا الكاتب فضل اللقب الإلهي الأكثر رسمية إيلوهيم Elohim. لكن J وE لم يكونا مؤلفين أصليين، ببساطة دونا وجمعا معاً في قالب سردي متماسك القصص القديمة التي كان يرويها الرجاز في احتفالات العهد في إسرائيل المبكرة، وتم نقلها شفوياً من جيل إلى آخر. على الرغم من أن مملكتي إسرائيل ويهوذا استغلتا الكتابة لأغراض إدارية، إلا أنهما لم تستخدما الكتابة لتدوين تاريخ وآيديولوجيا الدولة. فحتى القرن الثامن عشر، كانت الكتابة تعد مهارة غامضة مقدسة لدرجة أنها كانت خطرة على البشر.[21] حكمة الجماعة كانت تنتمي إلى كل واحد، ويجب ألا تصبح ملكاً لأقلية متعلمة. لكن مع حلول نهاية القرن الثامن كان معرفة القراءة تصبح أكثر انتشاراً في الشرق الأدنى، وظروف سياسية جديدة حفزت الملوك على تدوين التراثات التي كانت مواتية لحكمهم على إنشاء مكتبة نصوص مدونة.

مع أننا لا نستطيع أن نحدد تاريخاً دقيقاً لـ J، وE إذ ليس هناك إشارة إلى قراءة منتشرة في إسرائيل أو يهوذا حتى القرن الثامن. ويبدو أن من المحتمل بينما كانا يضمان مادة أقدم، إلا أنهما يمثلان نسيجين مختلفين من التراث ـ أحدهما جنوبي، والآخر شمالي ـ تم جمعهما وتدوينهما في أواخر القرن الثامن، ودمجهما بالإرشيف الملكي في أورشليم.[22] لقد كانت محاولة مبكرة في الكتابة التاريخية التي لن ترضي مؤرخاً حديثاً مهتماً أساساً أن يعرف ما حدث ومتى حدث. السرديات في J وE هي أكثر مجرد تاريخ، فقد تطورت على مدى فترة زمنية طويلة، وكانت مهتمه لا بوصف الماضي بدقة فقط بل باكتشاف ما كانت تعنيه، لذلك ضم كلاهما مادة أسطورية إلى جانب السرديات المبنية على

التاريخ. فمن منظور الكتاب التوراتيين الأوائل، لم تكن الحياة البشرية مقتصرة على الدنيوي، بل كان لها بعد متسام يسلط الضوء على المعنى الأكثر أهمية للأحداث، وأعطاها معنى يحتذى.

لكن لم يتخيل أحد أن مادة J وE كانت نصوصاً نهائية. كلما تهما لم تكن الكلمة الأخيرة. والأجيال التالية ستشعر بحرية أن تضيف إلى هذه النصوص، وتناقضها حتى.

J وE كانت تعكس الأفكار الدينية لدى الإسرائيليين وسكان يهوذا في نهاية القرن الثامن. وخلال القرن السابع، والسادس، والخامس أضاف مؤلفون آخرون إلى القصص الأصلية، وأدخلوا مادة جديدة، وأعادوا كتابة تاريخ إسرائيل بطريقة كانت تخاطب الظروف في عصرهم هم.

من المحتمل أن القصص المروية في J وE كانت تستخدم في العبادة المبكرة في إسرائيل. لكن مع حلول القرن الثامن جرى استبدال احتفالات العهد بالطقوس الملكية في أورشليم والسامرة. لقد حرر هذا السرديات من بيئتها العقيدية، وتمكن قصاصون آخرون من أن يطوروا سجلاً تاريخياً مستمراً لتاريخ إسرائيل المبكرة.[23] الخطوط العريضة متماثلة في كلا J وE. بدأت القصة بيهوه يدعو البطاركة: إبراهيم، واسحاق ويعقوب للدخول في علاقة حميمة. وعدهم أنهم سيكونون آباء أمة عظيمة، وأنهم سيمتلكون أرض كنعان ذات يوم. استمرت الحكاية بهجرة الإسرائيليين إلى مصر، وانتصارهم على المصريين في بحر القصب، وتكوين عصبة العهد على جبل سيناء / حوريب والمسيرة إلى أرض الميعاد. لكن ضمن هذا الإطار الأساسي نرى أن لدى J وE تأكيدات مختلفة تعكس تراثات محلية.

وهكذا فإن J قد تطور بشكل يكاد يكون مؤكداً في المملكة الجنوبية يهوذا، وفي قصة J الشخصية المحورية كانت إبراهيم بدلاً من موسى. E لم يضمّن التاريخ المبكر الوارد في سفر التكوين بأجزائه (خلق العالم، وهبوط آدم وحواء، ومقتل هابيل على يد أخيه قابيل، والطوفان، والعصيان عند برج بابل).

لكن هذا كان شديد الأهمية لـ J. أراد أن يبين أن قبل إبراهيم كان التاريخ تعاقب كوارث، وبدا أن البشرية عالقة في دوامة من التمرد، والخطيئة، والعقاب، لكن إبراهيم قد عكس هذا الاتجاه القاسي. العهد مع إبراهيم كان نقطة انعطاف التاريخ. كان إبراهيم مميزاً لدى J لأنه كان رجلاً من الجنوب، استوطن في الخليل أما ابنه إسحاق فعاش في بئر السبع. والملك Melchizedk ملك سالم / أورشليم بارك مشلام صديق إبراهيم. تطلعت حياة إبراهيم إلى الملك داؤود الذي ولد في بلدة بيت لحم الجنوبية، وتوج ملكاً لإسرائيل ويهوذا. فالعهد الذي قطعه الرب مع آل داؤود كان أكثر أهمية من العهد مع موسى على جبل سيناء.[24] J كان أكثر اهتماماً في وعد الله بأن إبراهيم سيكون أباً لأمة عظيمة، ومصدر بركة للبشرية جمعاء، أكثر من اهتمامه بالعهد على جبل سيناء.

قصة E عن البطاركة المؤسسين لم تورد أبداً العهد مع إبراهيم، وأعطت أهمية أكبر إلى ابنه البكر يعقوب، الذي أعاد الله تسميته "إسرائيل". لكن ما هو أكثر أهمية حتى لـ E كانت قصة الخروج التي فيها لا يعرف سوى القليل عن الإله يهوه الذي هزم مصر، القوة الأعظم في المنطقة. لقد دلت هذه القصص أنه كان ممكناً لشعب هامشي أن يهزم الاضطهاد وأن يخرج من الغموض، مثلما أن مملكة إسرائيل الصغيرة أصبحت قوة رئيسية في الشرق الأدنى أثناء القرن التاسع.[25] بالنسبة لـ E موسى كان النبي بامتياز. موسى وليس إبراهيم من عكس التاريخ. وJ كان شديد الانتقاد لموسى،[26] بينما كان E ممتلئاً حباً لبطله أثناء المسير الطويل في التيه إلى الأرض الموعودة.

وعندما اشتعل غضب يهوه على شبعه، وصف E بكل شجن حزين موسى:

فقال موسى للرب لماذا أسأت إلى عبدك، ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذه الشعب عليّ. لا أقدر أنا وحدي

أن أحمل جميع هذه الشعب لأنه ثقيل عليّ. فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً إن وجدت نعمة في عينيك فلا أرى بليتي.[27]

لا J ولا E لم يقدما موسى كمعطي شريعة عظيم. عندما وصفا العهد على جبل سيناء، فإنهما حتى لم يذكرا الوصايا العشر. ليس لدى J تشريع إطلاقاً في قصته، بينما ضمّن E مجموعة فقط من قوانين القرن التاسع، عادة ما تسمى مدونة العهد التي شددت على أهمية العدل تجاه الفقراء والضعفاء.[28] الشريعة لم تكن قد طبقت بعد في إسرائيل ويهوذا. سيناء كانت مهمة لـ J وE لأن موسى والشيوخ قد رأوا يهوه هناك. وصفوهما صاعدين إلى القمة كي يلاقوا ربهم:

ثم صعد موسى، وهارون، وناداب، وأبيهم، وسبعون من شيوخ إسرائيل.

ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده على أشرف بني إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا، وشربوا".[29]

هذا هو الوصف الأكثر قدماً للتجلي على قمة سيناء، وعكس إعادة تمثيل قرباني قديم للتجلي الذي اشتمل على مأدبة جماعية.[30]

لم يكن لدى J مشكلة حيال هذا، ووصف الله في كلمات بشرية قوية. في عرضه كان يهوه يتمشى في جنة عدن ـ مثل ملك يستمتع بنسيم المساء العليل ـ أغلق باب فلك نوح، وشم الرائحة اللذيذة من قربان نوح بعد الطوفان، ورأى إبراهيم يهوه في هيئة الغريب الذي استقبله في خيمته.[31] لكن في E الله يصبح متعالياً أكثر، ولم يظهر للبشر مباشرة، بل يرسل ملاكه كوسيط. اعتقد E أن رؤية موسى لله في العليقة المحترقة كانت نقطة علام لطور جديد في كشف إله إسرائيل عن ذاته. فقال موسى إلى الله:

ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم فإذا قالوا لي ما اسمه فما أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه الذي أرسلني إليكم، أي أنا أكون ما أكون"[32]

هذه العبارة الأحجياتية مصطلح عبري يعبر عن غموض متعمد، يعني لا يهم من أكون أنا، أو حتى "اهتم بعملك". ففي العالم القديم أن تعرف اسم امرئ كان يعني أن لك سلطة عليه، فالله لم يكن ممكناً التعامل معه بهذه الطريقة.

في كل من J وE نرى إشارات مبكرة لروحانية إنكار الذات، وكانت واضحة في قصة J عن رؤية إبراهيم ليهوه عند سنديانة المريا بالقرب من الخليل.[33]

" فرفع عينه ونظر وإذ ثلاثة رجال واقفين لديه. ركض في الحال إليهم وسجد إلى الأرض".[34] فالغرباء كانوا أناساً خطرين جداً، لأن قوانين الثأر لم تكن تقيدهم. كان باستطاعتهم أن يقتلوا أو يقتلوا دون عقاب. وبدلاً من أن يهاجمهم دفاعاً عن أسرته احتفى بهم وكأنهم كانوا آلهة. ثم قدم لهم وجبة كبيرة كي تنعشهم في رحلتهم. فعملية الاستسلام الشخصي مندمجة مع رحمة عملية تجاه ثلاثة غرباء تماماً أدت إلى مقابلة إلهية، في مسار الحديث الذي شَفَّ بشكل طبيعي أن واحداً من هؤلاء الغرباء لم يكون سوى يهوه.

ما هو أكثر إذهالاً هو قصة E لتكتيف إسحاق.[35] لقد وعد إبراهيم أنه سيصبح أباً لأمة قوية، لكن لم يكن لديه سوى ولد وحيد. بعدئذ يخبرنا E أنه حدث في وقت لاحق أن إيلوهيم كان يضع إبراهيم على المحك"

ناداه باسمه فصاح إبراهيم hinneni، أي "ها أنا ذا". البطاركة والأنبياء غالباً ما كانوا يجيبون الله بهذه الصرخة التي كانت تدل على استعدادهم وحضورهم التامين. لكن الله بعد ذلك أصدر الأمر المفاجئ " خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا. واصعد هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك"[36]

هذه القصة قدمت تصوراً جديداً للإله. لأن في العالم القديم كان الطفل البكر يعد ملكاً لأحد الآلهة، ويجب أن يعاد إليه في قربان بشري. فالدم الشاب كان يجدد طاقات الإله الواهنة، ويضمن دورة الطاقة في الكون. لكن لم يكن هناك مبرر كهذا هنا. إيلوهيم كان يطلب طلباً تعسفياً محضاً، ولم يكن باستطاعة إبراهيم إلا أن يمتثل له بكل إيمان.[37] هذا الإله كان مختلفاً كلياً عن الآلهة الأخرى، في المنطقة. إنه لم يشارك في المحنة البشرية، ولم يطاب بتزويده بالطاقة من الرجال والنساء، بل كان باستطاعته أن يطلب أية طلبات كان يختارها.

لم يتداعى إبراهيم. سرج حماره فوراً، وانطلق إلى أرض المريا مع إسحاق واثنين من غلمانه، حاملاً السكين بيده التي ستقتل ابنه والحطب للمحرقة.

ربط إسحاق، ووضعه على المذبح، وأمسك السكين. كان تصرفه طاعة كلية هدد بنزع المعنى من حياته. الله الذي خدمه لمدة طويلة قد بين له أنه كان حانث وعود وقاتل أطفال، لا قلب له. في اللحظة الأخيرة فقط أرسل إيلوهيم ملاكه لإيقاف الذبح آمراً إبراهيم بتقديم قربان، كبش بديلاً عن إسحاق. من المفترض أن تشكل القصة علامة على مرحلة انتقال مهمة في العبادة عندما يحل قربان حيواني محل قرباني بشري. لكن ألم القصة يمضي بعيداً في علاقته الطقسية القربانية. إله إسرائيل لم يكن مجرد حضور متسامح ودي بل كان أحياناً حضوراً مرعباً وقاسياً يقود أتباعه إلى حافة اللامعنى. تضع القصة إبراهيم وإلهه في ضوء ملتبس، فهي تبين القدرة المدمرة لتجربة الإلهي، وقبل أن يتم ترسيخها فإن أي عنف جسدي أو نفسي كان متعارضاً مع المقدس.

فجوة كانت تبدأ تتفتح بين العالم البشري والإلهي لم تكن موجودة من ذي قبل. في عام 740 رأى نبي جديد رؤيا ليهوه في هيكل أورشليم.[38] على شاكلة J، أشعيا كان فرداً من الأسرة الملكية في يهوذا، كان جنوبياً، ولم يكن لديه مشكلة بأن يرى الله في هيئة بشرية، لكن يهوه لم يعد إلهاً أنيساً بحيث يمكن أن تتشارك معه في تناول طعام كرفاق.

بينما كانت رائحة البخور تملأ قاعة العبادة، رأى أشعيا الحقيقة المرعبة التي تكمن وراء طقوس الهيكل. جلس يهوه على عرشه السماوي محاطاً. بمجمع المقدسين، على كل جانب ملكان غطيا وجهيهما:

"قدوس يهوه! إله الجيوش مجده يملأ الأرض كلها" أساسات الهيكل اهتزت " فاهتزت أساسات العتب في صوت الصارخ، وامتلأ البيت دخاناً. وغلف يهوه بسحابة لا يمكن الرؤية من خلالها. إنه لم يعد مجرد الواحد القدوس لإسرائيل، بل حاكم العالم، وفوق كل ذلك كان قدوساً "وآخر"

كلياً ومنفصلاً عن البشر. امتلأ أشعيا رعباً فقلت:

"ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيني قد رأت الملك رب الجنود. فطار إليَّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح وحس بها فمي، وقال إن هذه قد مست شفتيك فانتزع إثمك وكفر عن خطاياك، ثم سمعت صوت السيد قائلاً من أرسل من يذهب من أجلنا، فقلت ها أنا ذا أرسلني. [38]

كانت الرسالة الإلهية كئيبة. والناس لن يستمعوا ليهوه حتى يكون قد فات الأوان " فقلت إلى متى أيها السيد. فقال إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن، والبيوت بلا إنسان، وتخرب الأرض وتقفر. ويبعد الرب الإنسان ويكثر الخراب في وسط الأرض." [39]

عندما نقل أشعيا الرسالة، الوصف المخيف لأرض قفر بلا سكان كان يصبح حقيقة يومية في الشرق الأوسط. كان تغلث فلنصر الثالث قد أصبح ملك آشور في عام 745 حين بدأ بإيجاد نمط جديد تماماً من الإمبراطورية مفككاً النظام القديم بالتدريج من حيث الولاء، ودمج جميع الشعوب الخاضعة له مباشرة في الدولة الآشورية المترامية الأطراف. كان لديه جيش محترف كفء، ومجهز بأحدث العربات الحربية، وبفرسان ذوي مهارة عالية، مما جعل الرعب يدب في المناطق المجاورة. وكان الملك التابع يستبدل بحاكم آشوري لدى ظهور أول دليل على عصيان.

غزا الجيش البلاد، وكل الطبقة الحاكمة كانت ترحل وتستبدل بأناس من أصقاع أخرى من الإمبراطورية. أول إنجاز للملك كان إخضاع بابل، ثم حول اهتمامه إلى الغرب. لما رأى أن مملكة إسرائيل كانت في حالة فوضى بعد موت جيروبوم الثاني دخل الجيش الآشوري البلاد في عام 738 وفتح مناطقها الشمالية.

لم يكن الشرق الأوسط قد رأى قوة عسكرية على هذا المجال من ذي قبل، ولن تكون المنطقة كما كانت ثانية. سببت عمليات الترحيل شعوراً بالاقتلاع واسع الانتشار سواءً روحياً وجسدياً، لأن جميع السكان نقلوا عنوة في أرجاء الإمبراطورية. عندما كان الجيش الآشوري يهاجم بلداً كان يترك خطاً من

الدمار في مسيره، ويهجر الريف عندما كان السكان يهربون للاحتماء بالمدن. كانت آشور مصممة لا أن تسيطر على الشرق الأوسط عسكرياً فقط بل أن تخلق ثقافة موحدة. كان هناك امبراطورية واحدة، واقتصاد واحد، ولغة واحدة. تبنى الملك اللغة الآرامية والكتابة الآرامية التي هي أسهل للتصدير من الآشورية المسمارية لتسهيل إدارة الإمبراطورية النامية. تزايدت أهمية الكتابة في الفعاليات الإدارية والاقتصادية، وتعلم المزيد من الناس القراءة والكتابة، وهذا يسهل تطور النصوص المدونة أكثر من النصوص المقدسة المنقولة شفوياً.

خلق نهوض آشور مشكلة ثيولوجية. كل شعب من الشعوب التابعة كان له إله قومي، "واحد مقدس" على شاكلة يهوه الذي كان الوصي الحارس لمنطقته. كان النظام يعمل جيداً طالما أن كل مملكة احتفظت باستقلاليتها. لكن عندما كان إله بلد يتطاول على إله آخر، سيصبح هذا مشكلة مثلما اكتشف أحاب وإيليا. ما أن بدأت تبتلع أمة بعد أخرى حتى تغير أيضاً توازن السلطة بين الآلهة.

الملك الآشوري ـ مثل ملوك آخرين في المنطقة، كان هو الكاهن الأكبر للإله القومي آشور، الذي وعد سلالة الملك أنها ستحكم إلى الأبد " لقد أعطيته قدرة الإلهي من أجل السلطة، وقال أن ذريته يجب أن تبقى إلى الأبد".[40] فإذا كان الكاهن الأكبر لآشور قد فتح مملكة آشور، فهل يستتبع ذلك أن آشور كان أكثر قدرة من يهوه؟

عندما رأى أشعيا رؤياه عام 740 كانت مملكة يهوذا الصغيرة ليست بذات أهمية بحيث تجذب اهتمام آشور. لكن في عام 734 تغير ذلك بعد أن نظم ملوك إسرائيل ودمشق إئتلافاً لمواجهة التقدم الآشوري غرباً. وعندما رفض أحاز ملك يهوذا الانضمام إليهم أرسلوا جيشاً لحصار أورشليم والإطاحة به، وينصبوا ملكاً أسهل انقياداً على عرش يهوذا. لم يكن أمام أحاز خيار سوى الطلب من الملك الآشوري المساعدة، وأن يصبح تابعاً لآشور.[41] كانت قد انتهت الفترة الطويلة من تجاهل سلمي ليهوذا، فتم جرها إلى مأساة المنطقة التي لم تتكشف بعد، تقريباً

ضد إرادتها. لم يضيع الملك الآشوري وقتاً في معاقبة أتباعه المتمردين، فاكتسح دمشق وقتل الملك Rezin، وعصف بالساحل المتوسطي مدمراً أية مدينة بدت أنها على وشك أن تنشق عنه. وأخيراً حان دور إسرائيل. ففي عام 732 استولى الجيش الآشوري على الجليل ووادي جزريل، وغزا مناطق إسرائيل على الضفة الشرقية لنهر الأردن. ففي ليلة وضحاها إسرائيل التي كانت مملكة قوية أصبحت دولة صغيرة تابعة في التلال الشمالية، وعليها ملك دمية. نظر شعب يهوذا إلى الأمر مشدوهاً.

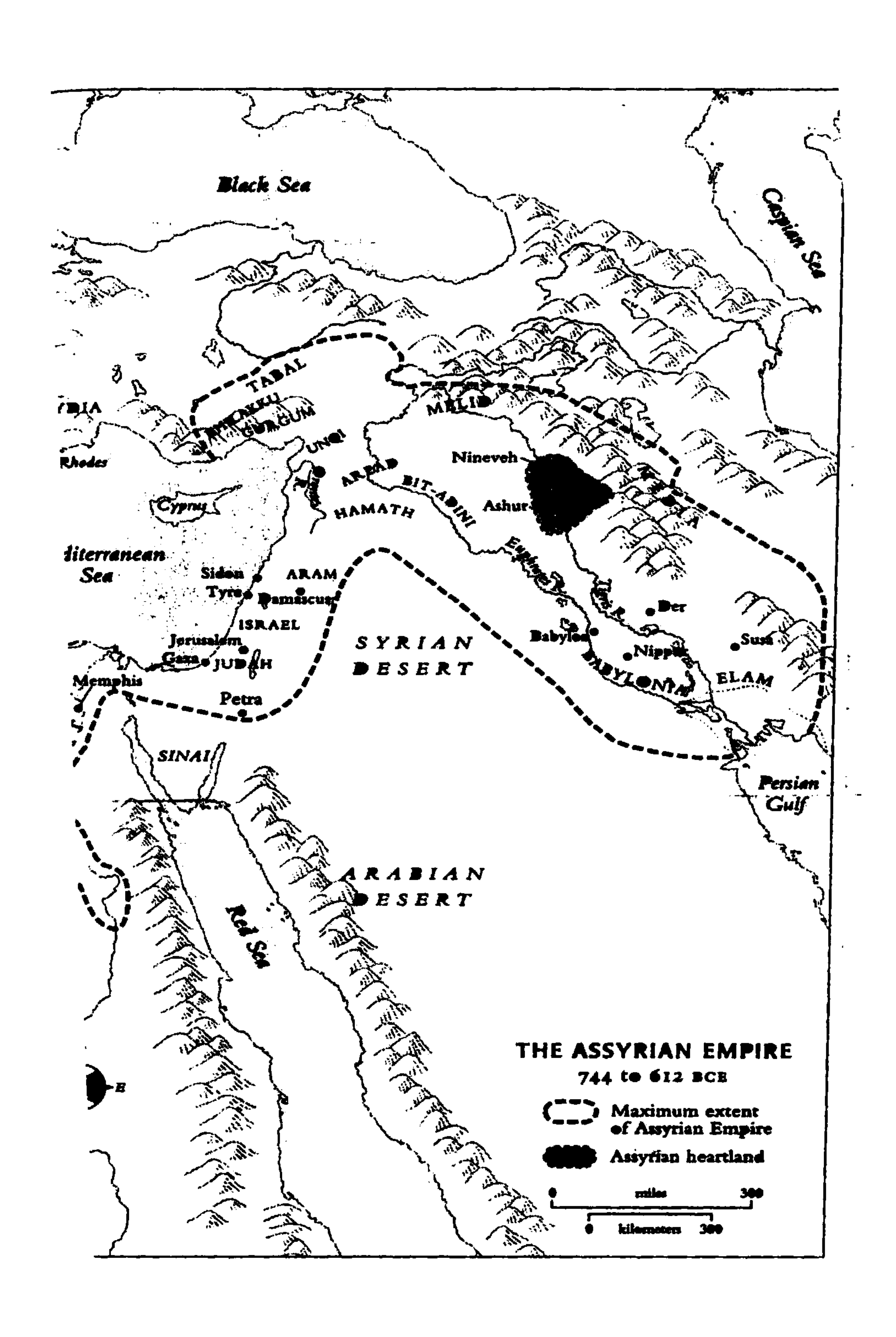
لكن أشعيا لم يكن قلقاً. لقد رأى يهوه متوجاً كملك للعالم كله. وعلم أن أورشليم كانت سالمة. إنه كان ينتمي إلى عالم ديني مختلف عن عالم عاموس وهوشيا اللذان عملا في المملكة الشمالية. إنه لم يشر إلى الخروج من مصر، أو إلى سنوات التيه الطويلة في البرية. بلاط يهوذا الملكي لن يسعى إلى العزاء في هذا التراثات الشمالية، بل في العهد الأبدي الذي قطعه يهوه إلى الملك داؤود، وفي تراثات هيكل أورشليم. يهوه كان ملكاً في أورشليم مع الملك الداؤودي كنظير أرضي له. كان يهوه يحكم في أروشليم - وأشعيا رأى بعينيه أنه كان يحكم - فإن المدينة لا يمكن أن تهزم:

الله في وسطها فلن تتزعزع يعينها الله عند إقبال الصبح

عجيب الأمم تزعزعت الممالك. أعطى صوته ذابت الأرض.[42]

ينبغي على شعب يهوذا أن يثق بيهوه فقط، فالمملكة الشمالية سقطت لأنها اعتزت بأسلحتها ودبلوماسيتها.[43] أورشليم كانت ملجأ للفقراء لذلك يجب على سكانها أن يتكلوا على يهوه بدلاً من أن يضعوا ثقتهم بالثروة والقوة العسكرية.[44]

أخبر أشعيا الناس أن الإله المحارب كان من جديد يترأس المسيرة محارباً من أجل شعبه. لا داعي لأن تخاف يهوذا من آشور التي كانت مجرد أداة بيد يهوه "عصا غضبي، الهراوة التي أهزها في غضبي".[49] استدعى أشعيا الصور القديمة ليهوه آتياً لمساعدة شعبة، في بهاء عظمته عندما ينهض ليجعل الأرض


Black Sea
Caspian Sea
TABAL
GURGUM
UNQI
MELID
Nineveh
Ashur
ARPAD
BIT-ADINI
HAMATH
Cyprus
Rhodes
Sea
Sidon
Tyre
ARAM
ISRAEL
Memphis
Petra
SYRIAN
DESERT
Der
Susa
ELAM
Persian
Gulf
SINAI
Red Sea
ARABIAN
DESERT
THE ASSYRIAN EMPIRE
744 to 612 BCE
Maximum extent
of Assyrian Empire
Assyrian heartland
0
miles
300
0
kilometers
300

ادخل إلى الصخرة، واختبئ في التراب من أمام هيبة الرب
ومن بهاء عظمته توضع عينا تشامخ الإنسان، وتخفض
رفعة الناس وسمو الرب وحده في ذلك اليوم. فإن
لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ، وعلى كل مرتفع
فيوضع.[46]

وبذلك فإن يهوه يصبح ليس فقط الإله القومي بل إله التاريخ. لكن هذا التعظيم ليهوه كان أيضاً عدوانياً. إنه يتصرف مثل قوة عظمى التي بالقوة تحل السلام في المنطقة عن طريق تدمير الأسلحة التدميرية عند أعدائه:

مسكن الحروب إلى أقصى الأرض. يكسر القوس
ويقطع الرمح. المركبات يحرقها. [47]

الأمم الأخرى ستكون مرغمة على قبول يهوه ملكاً، وأن تصنع من
سيوفها سكك للفلاحة، ورماحها إلى مناجل.[48]

لبلوغ النصر النهائي، يجب ألا ينخرط أحاز في سياسة العالم، بل أن يضع إيمانه في يهوه وحده. في عقيدة صهيون zion، أورشليم كانت مدينة الفقراء، لكن الفقر لم يكن يعني الحرمان المادي، ونقيض الفقر ليس الغنى بل الاعتزاز.

بينما كان الناس يصعدون إلى الهيكل كانوا ينشدون هذا المزمور:

يا رب لم يرتفع قلبي ولم تستعل عيناي
ولم أسالك في العظائم ولا في عجائب فوقي.
بل هدأت وسكت نفسي كفطيم نحو أمه
نفسي نحوي كفطيم.
ليرج إسرائيل الرب من الآن وإلى الدهر.[49]

بعدئذ أخبر أشعيا أحاز أن عليه ألا يعتمد على قوة بشرية أو حلفاء أجانب، أو على تفوق عسكري بل على يهوه فقط. لأن الاعتماد على الجيوش والتحصينات كان يعد شركاً.

هذا الاتكال على يهوه وحده كان نسخة يهودية لحركة العقيدة الشمالية لعبادة يهوه حصراً، وتأكيد أشعيا على التواضع والاستسلام - يبدو للوهلة الأولى - مماثلاً لروحانية المحور في إنكار النفس. فكرة أشعيا الثورية بأن يهوه لم يكن مجرد إلهي راعٍ لإسرائيل، بل باستطاعته التحكم بآلهة الأمم الأخرى، كانت مبنية على نزعة بطولية تتسم بالتحدي بأشكال عدة كان أشعيا ينتمي إلى عالم العبادة القديم. لقد بشر بنظرة صراعية عنفية استوعبت وأيدت السياسات العدوانية في ذلك الزمن. كما كانت أيضاً لا هوتاً سحرياً أساسياً، شجع الناس على الاعتقاد أن القدرة الإلهية جعلت أورشليم منيعة. وأن الاتكال على يهوه فقط سيثبت أنه منطلق خطير جداً بالنسبة للسياسة الخارجية. لم تكن المملكة الشمالية راغبة بترك كل شيء بيدي يهوه. فعندما مات الملك الآشوري تغلث فلنصر في عام 724 انضم الملك هوشع الإسرائيلي إلى أتباع آخرين في حركة مقاومة: رفض دفع الجزية، وتوجه إلى مصر طالباً العون. لكن سرعان ما ألقى الملك الآشوري الجديد شلمنصر الخامس بهوشع في السجن وحاصر السامرة.

استسلمت المدينة في عام 722، ورحلت الطبقة ا لحاكمة إلى آشور، وتم جلب مستوطنين جدد لإعادة بناء المنطقة وفقاً للنظرة العالمية الآشورية. فأصبح الآن هناك تراث رسمي واحد ليهوه بدلاً من وجود اثنين. كانت مملكة يهوذا الصغيرة واحدة من عشرات الأمم التي احتفظت بدرجة من الاستقلالية بعد الحملات الآشورية. والسجل الآثاري يوضح أن أورشليم توسعت بسرعة في نهاية القرن الثامن. بنيت ضواحي جديدة كي تؤوي اللاجئين الإسرائيليين من الشمال، وخلال سنوات قليلة تحولت أورشليم من بلدة متواضعة في التلال مساحتها من نحو عشرة أو أثنا عشر فداناً إلى مدينة مساحتها 150 فداناً كثيفة المنازل والأبنية العامة. كما تطور الريف المحيط بالمدينة كثيراً.

جلب اللاجئون تراثاتهم الشمالية إلى يهوذا، ومن بينها نبوءات عاموس وهوشع التي تنبأت بوقوع كارثة في عام 722. تدمير مملكة إسرائيل كان ما يزال ذكرى مؤلمة حديثة، وفي هذه الفترة كانت هناك رغبة - بالحفاظ على

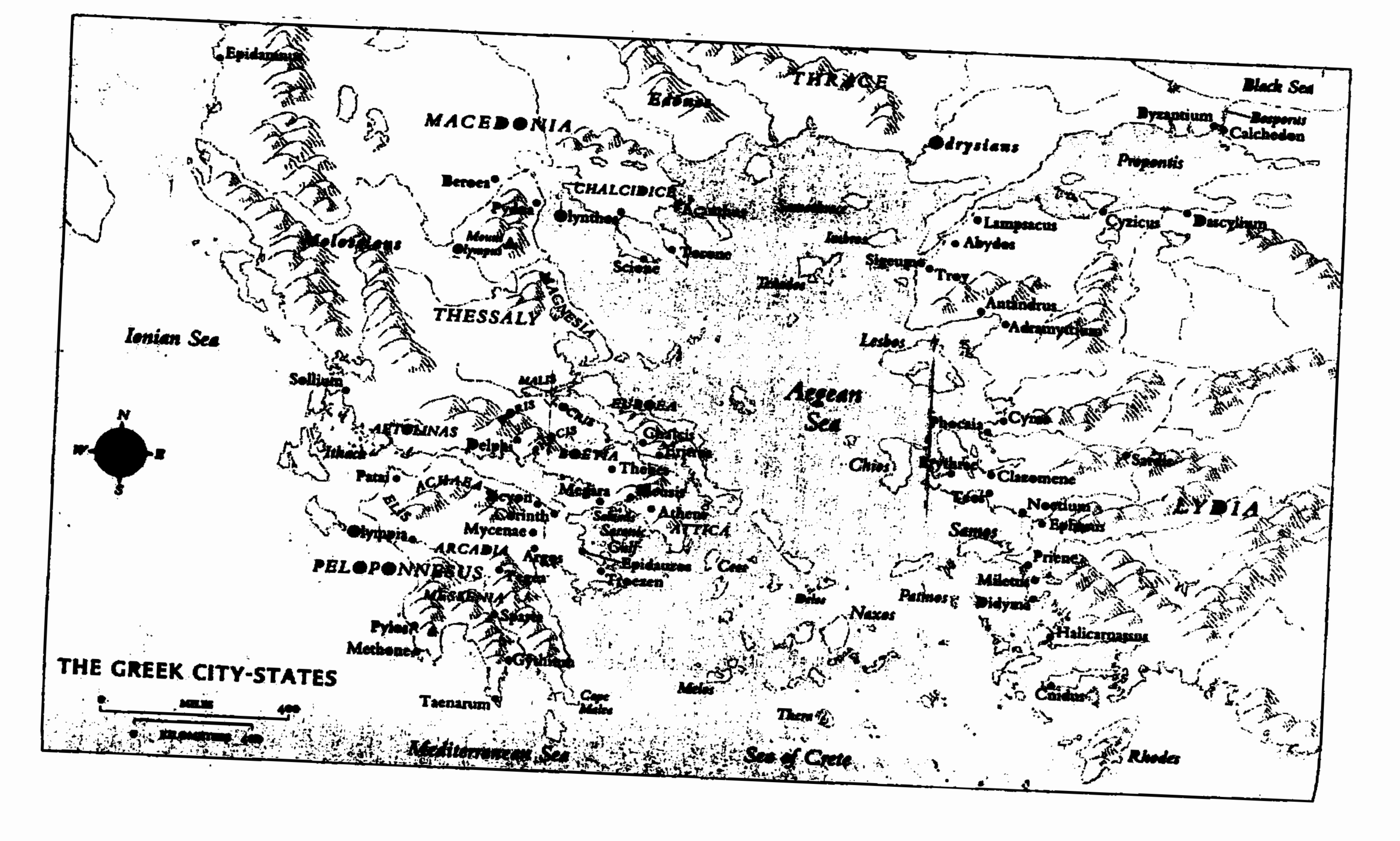
التراثات الشمالية. مثل ملوك آخرين في المنطقة، بدأ ملوك يهوذا يجمعون مكتبة ملكية ربما من بينها J وE، وربما دمجا في نص واحد في هذه الفترة. كان هناك توق لإعادة مملكة داؤود المتحدة، ومملكة سليمان لإظهار ما بقي من مملكة يهوذا المتجددة ومملكة إسرائيل.

انعكست هذه الرغبة في الإصلاح الذي قام به الملك حزقيال الذي خلف والده على العرش في عام 715. ليس لدينا عرض معاصر له، لكن التراث التوراتي يوحي بأن حزقيال أراد أن يجعل العبادة مركزية، سمح بالعبادة في هيكل أورشليم فقط، وألغى المقامات الريفية. لكن أمد الإصلاح كان قصيراً، ويوضح علماء الآثار أن السواد الأعظم من الناس استمروا في عبادة آلهة أخرى، والإصلاح الديني الذي قام به جعل مؤرخي التوراة يذكرونه كواحد من أعظم ملوك يهوذا لكن سياسته الخارجية كانت كارثية. ففي عام 705 توفي الملك الآشوري صرغون الثاني، تاركاً ابنه الغر سنحاريب على العرش. ففي الاضطرابات التالية التي حدثت عندما بدا أن آشور قد لا تكون قادرة أن تحكم المناطق المحيطة، دخل حزقيا - بكل حماقة - في تحالف معادٍ لآشور، وبدأ يعد أورشليم للحرب. في عام 701 وصل سنحاريب إلى يهوذا على رأس جيش عرمرم، وبدأ بتدمير ممنهج للريف وفي نهاية المطاف حاصر الجنود أورشليم، وبدا أن المدينة لن تستطيع النجاة. لكن في اللحظة الأخيرة كان هناك مهلة. والمؤلف التوراتي يخبرنا أن ملاك يهوه ذبح 185.000 رجلاً في المعسكر الآشوري، وأجبر الجيش على الانسحاب.[52] ليست لدينا فكرة عما حدث، فلربما تفشى وباء الطاعون بالجيش الآشوري، وبدا الخلاص الإعجازي برهاناً إيجابياً على أن أورشليم كانت فعلاً لا تنتهك حرمتها. لكن من المحال تجاهل الضرر الذي كشفه علماء الآثار في الريف في يهوذا.[53] Lachish المدينة الثانية في يهوذا سويت بالأرض، ودفن نحو 1500 رجل وامرأة وطفل في قبر جماعي. لقد ورث حزقيا مملكة مزدهرة لكن سياسته الخارجية غير المتروية تركته مع دولة المدينة الصغيرة في أورشليم. الصلف القومي والثيولوجي الشوفيني كادا أن يدمرا الشعب.

* * *

كان القرن الثامن فترة مذهلة في اليونان. ففي فترة زمنية قصيرة جداً خرج الإغريق من العصر المظلم، وأرسوا أسس حضارتهم الفريدة. كان نجمهم في حالة صعود، بينما بدا أن نجم يهوذا في حالة انحدار. لم يكن لدى آشور مصلحة في بحر إيجه لذلك استطاع الإغريق أن يطوروا مؤسساتهم دون تهديد بغزو عسكري. أقاموا صلات سلمية مع الشرق، وكانا تواقين للتعلم من الشعوب الأجنبية. أصبحت سياساتهم تجديدية وراديكالية، وبدأوا يجربون أشكال حكم مختلفة، لكن كل هذا لم يلامس دينهم. ففي الوقت الذي كان فيه الأنبياء العبرانيون يبشرون بالوحدانية أصبح الإغريق يؤمنون بتعدد الآلهة. وبدلاً من الابتعاد عن أشكال الدين الأكثر قدماً، كان الإغريق يصبحون أكثر تراثية وبطريقة منهجية.

التطور الأكثر أهمية في القرن الثامن كان إنشاء المدينة، دولة المدينة الصغيرة المستقلة حيث تعلم المواطنون فن حكم ذاتي. وبعد العصر المظلم كانت المؤسسات السياسية القديمة قد نسفت بالكامل، مما مكن الإغريق من البدء من جديد على لوح أبيض. شهد القرن الثامن ازدياداً سريعاً في تعداد السكان، وتحسن في أساليب الزراعة مما مكن المزارعين أن ينتجوا فائضاً من المحاصيل. كانوا بحاجة إلى الأمن، وإلى شكل من التنظيم الاجتماعي كي يحموا أرضهم ومحاصيلهم من المنافسين لهم. استطاع الإغريق أن يستخدموا هذا الفائض من الإنتاج في التجارة، واستطاعوا تمويل مشروعات المدينة، ومن البداية كان المجتمع كله قادراً أن يشارك في صنع القرار.[55] عند نهاية القرن، كانت المدن قد بنيت في أرجاء العالم الهيليني، وكلها تحمل تشابهاً أسرياً مميزاً. كل مدينة محاطة بسور، وفيها معبد، ومجلس وميناء.[56] لم يكن هناك تمييز بين الريف ـ الذي كان يعتمد على الاقتصاد ـ وبين المركز المدني نواة الهوية الاجتماعية. فالفلاحون وسكان المدينة كانوا يتمتعون بنفس الحقوق والمسؤوليات، ويجلسون في نفس المجالس الحكومية. وكان جميع المواطنين أحراراً في استخدام الأبنية العامة والساحة العامة ـ مكان مفتوح في قلب كل مدينة حيث يعقدون نقاشات ويزاولون التجارة. كان لكل مدينة إلهها الراعي الخاص بها، وطورت كل مدينة طقوس قرابين واحتفالات تميزها مما ساعد في ربط المواطنين مع بعضهم.


THE GREEK CITY-STATES
MACEDONIA
THRACE
Black Sea
Byzantium
Bosporus
Calchedon
Odrysians
Propontis
CHALCIDICE
Beroea
Pydna
Olynthos
Mount Olympus
Lampsacus
Abydos
Cyzicus
Dascylium
Scione
Troy
Antandrus
THESSALY
MAGNESIA
Ionian Sea
Lesbos
Aegean Sea
Sollium
EUBOEA
Chalcis
Eretria
Delphi
Ithaca
Patrai
ACHAEA
ELIS
Thebes
Megara
Corinth
Mycenae
Athens
ATTICA
Olympia
ARCADIA
Argos
PELOPONNESUS
Epidaurus
Troezen
Ceos
Chios
Phocaia
Cyme
Clazomene
Sardis
LYDIA
Samos
Priene
Miletus
Didyma
Patmos
Naxos
Delos
Halicarnassus
Cnidus
Melos
Thera
Rhodes
Sparta
Pylos
Methone
Taenarum
Cape Malea
Mediterranean Sea
Sea of Crete
N
W
E
S
MILES
400

كانت دولة المدينة polis مجتمع المساواة. فمن تاريخ مبكر جداً كان المزارعون ينتقدون طبقة النبلاء، ورفضوا قبول دور مهين. كان باستطاعة كل امرئ أن يصبح مواطناً عدا العبيد والنساء. كانت دولة المدينة دولة ذكورية بطريقة عدوانية. لقد حظيت النساء بمكانة أفضل في العصر المظلم، لكن في المدن الجديدة تم تهميشهن وعزلهن في بيوت الأسر، ونادراً ما كن يشاهدن في الشوارع. كان هناك ازدياد في عدد العبيد. معظم المواطنين كانوا يملكون أراضيهم، والعمل عند الآخرين كان يعد مهيناً، وكذلك كسب مأجور. في أجزاء أخرى من العالم القديم كان على الملك أن يضع حداً لاستقلالية رعاياه كي ينجز دولة ملكية. بيد أن الفلاحين الإغريق رفضوا التخلي عن حرياتهم التقليدية، وأوجد الأرستقراطيون دول المدينة ذات الحكم الذاتي كبديل عن ممالك كبيرة كانت تتطلب حكاماً محليين يقرون بولائهم إلى سيد أعلى منهم. هذا المثل الأعلى في الاستقلالية لم يكن ابتكاراً إغريقياً، إذ من المحتمل أن الإغريق أبقوا على المجالس والاجتماعات القبلية القديمة التي تخلت عنها شعوب أخرى عندما طوروا دولاً وامبراطوريات كبيرة.[57]

فكما نرى في ملحمتي هوميروس: بالنسبة لأرستقراطي إغريقي من القرن الثامن كان الكلام أمام الناس لا يقل أهمية عن البسالة العسكرية.[58] ففي الفترة المسينية كان الملك مجرد (المقدم بين أكفاء)، وكان عليه أن يستمع إلى نصائح لورداته. استمرت النقاشات للسياسة العامة في دول المدينة، وبما أن المزارعين كانوا يشاركون في الحكم، بالتالي كان عليهم أن يطوروا مهارات النقاش لديهم. كل امرئ كان ملزماً ـ مهما تكن الطريقة أولية ـ أن يفكر بمبادئ مجردة للعدالة والأخلاق عندما كانوا يناقشون مشكلات عملية. ولحد ما كان المزارعون يصبحون مثلهم مثل النبلاء. وهذه سمة مهمة للمدينة لأن كل المواطنين سوف يتبنون الروح العامة الأرستقراطية لكن بشكل تدريجي.[59]

اتخذ النقاش شكل صراع وتنافس بين مجموعة متنوعة من المتحدين، من كان يناقش أفضل من غيره كان هو الفائز. لقد حافظ الإغريق على الشغف

الهندو ـ أوربي القديم بالتنافس الذي كان بعض الهنود الفيديين قد بدأوا يتجاهلونه. فالصراع كان شريعة الحياة، ويا للمفارقة حققت طبقة النبلاء إحساساً بالتضامن من خلال تنافس كل منهم مع الآخر.[60] أصبحت المدينة كلها مجتمعاً أرستقراطياً محارباً، وبدأ المزارعون في اكتساب هذه الروح الصراعية أيضاً. ويوضح هوميروس أن لوردات الحرب الإغريق كانوا مدفوعين للتفوق، حتى ولو على حساب الآخرين.

لم تكن هناك روح التضامن الجماعي، لأن كل لورد كان يسعى جاهداً كي يحقق قدره الشخصي. كان من المتوقع أن يكون كل واحد مرموقاً، مما يعني أن كل واحد كان منافساً في المعركة من أجل التفرد الذي يلهم كل نشاط. فبدلاً من استسلام الذات سادت في المدينة نزعة أنانية شرسة، إضافة إلى وجود عدوانية متأصلة. إن إنشاء المدن كان غالباً عنيفاً. وتأسيس جماعة كان باستطاعتها أن تقاوم جيرانها ومنافسيها لم يكن سلمياً على الدوام. ففي أغلب الأحيان أجبرت المجتمعات القروية على الإنضمام إلى مدينة ضد إرادتها. Syneoeicism أي التوحيد كان يعني اقتلاعاً، ومقاومة، وكمية كبيرة من البؤس، وألم ولادة انعكس في كثير من الأساطير المؤسسة للمدن.[61] فالمدينة كانت تجمع الناس معاً، لكن ذلك غالباً ما كان يتحقق بعنف. كان على كل مدينة أن تتنافس باستمرار مع الدول الأخرى على السلطة والثروة.

كان الإغريق فخورين بوحدتهم الثقافية، واحتفلوا بذلك في مؤسسات واحتفالات هلينسيتية. أحد أشهر هذه الاحتفالات هي المنافسات الرياضية في أوليمبيا، والتي سجلت لأول مرة في عام 776، وكان الأرستقراطيون يحضرونها من جميع أنحاء اليونان.

كان التنافس في الألعاب عملاً سياسياً: كانت مدينتك على الخريطة، وكان الفائز الأولمبي ينال شهرة أسطورية إثر عودته إلى موطنه. كان للألعاب جانب أخروي غريب، مثلها مثل كل شيء إغريقي. فأقدم المنافسات الرياضية كانت تقام أثناء جنازة محارب عظيم.[62] فالإنجازات الجسدية غير العادية التي

كانت تقدم من قبل من يقيمون الحداد كانت تأكيد تحدٍ للحياة في حضرة الموت، وكانت تعبر عن الغضب والإحباط والأسى على الفقيد. في نهاية المطاف، أصبحت الألعاب طقساً دينياً يؤدى في معبد تكريماً لبطل محلي. وكانت الألعاب الأولمبية تقام على شرف pelops عشيقة بوسيدون الأسطورية، التي كانت أيضاً رياضية عظيمة.

في أولمبيا لم يكن الرياضيون يتنافسون على شهرة شخصية فقط، بل كانوا يؤدون شعيرة عبور رمزية من الموت إلى الحياة.[63] في الطرف الغربي من الاستاد ضريح بيلوبس: حفرة مظلمة تفضي إلى أعماق الأرض، وتقع مقابل مذبح زيوس في الشرق، كومة ضخمة من ا لتراب والرماد مكونة من بقايا لا تحصى من محرقة قرابين. فالإله والبطل هما مثل الليل والنهار، الموت والحياة. في الليلة قبل السباق كان الرياضيون يضحون بكبش في ساحة بيلوبس، ويسكبون دم الكبش في أعماق الأرض. وفي الصباح التالي، كانوا يركضون من ضريح بيلوبس إلى أعلى مذبح زيوس مع بزوغ الشمس هاربين من الموت، والقربان الدموي باتجاه النار المطهرة. البطل الأولمبي مثل بيلوبس سيموت في النهاية. لكن انتصاره في الصراع كان يعطي المنتصر مجداً يعيش في ذاكرة الأجيال التالية.

عبادة البطل كانت سمة فريدة في الدين الإغريقي.[64] البطل الفاني كان المقابل للآلهة الخالدة. ومع حلول نهاية القرن الثامن، سيحتل قبر محارب مرموق مكانة مشرفة في معظم المدن، أي مُذكّر دائم بالسباق الأعظم للفانين الذين عاشوا في العصر الملحمي، حين كان البطل يُعظّم كنصف إله. أما وقد مات، فيعيش حياة ظلية في أعماق الأرض، لكن روحه كانت ما تزال حضوراً فاعلاً في المجتمع، والمزايا التي جعلته استثنائياً ما تزال حية. غير أن موته ملأ البطل غضباً، وشذى مزعجاً لا يمكن التنبؤ به يفيض من قبره الذي يمر الناس بجواره في صمت تبجيلي. كان البطل الفاني في متناول اليد، وليس على شاكلة الآلهة التي عاشت على قمم جبل الأوليمب. فالشعائر عند ضريحه كانت مصممة كي تهدأ من سورة غضبه، وتحث على مساعدته. العابدون كانوا يزورون مقامه دون

أكاليل، وشعث الشعر، والشعر منفلتاً، وكل مدينة كانت فخورة ببطلها الذي جسد مزاياها الخاصة. وكان قبره ـ غالباً ـ بجانب معبد الإله الراعي للمدينة.

في منتصف القرن الثامن بني محرم في دلفي للاحتفاء بعبادة أبولو إله الموسيقى والشعر في الذكرى المأساوية لـ Pyrrhus ابن أخيل ـ أحد المحاربين الذين دخلوا طروادة في الحصان الخشبي. قيل أنه زار دلفي بعد الحرب كي يطالب بإنصافه من أبولو الذي لامه على موت والده، لكنه قُطّع إرباً بجانب الموقد المقدس على يد خدم المعبد الذين كانوا يتشاجرون على لحم القربان.[65] لقد دفن تحت عتبة باب المعبد. وطقس القربان في دلفي كان يعكس عنف موته. بينما كانت تذبح الضحية، كان الناس يقفون حولها، وسكاكينهم على أهبة الاستعداد. وعند موت الحيوان كانوا يهجمون عليه ويقطعون بهمجية قدر ما استطاعوا من لحم القربان. وفي أغلب الأحيان لم يتركوا شيئاً للكاهن. همجية هذا الطقس التي كانت انتهاكاً للقيم الحضارية للمدينة شكل وقعاً عكسياً مشؤوماً لعبادة أبولو المضيئة، إله الاستقرار والاعتدال.

أبولو حارب وقتل غولة في دلفي، انتصار كان يرمز إلى انتصار الأولمبيين على قوى العماء. أسمى الغولة بايثون لأن جثتها تفسخت في أعماق الأرض. وفي وقت لاحق أسس الألعاب بايثون إحياء لذكراها. كان الناس يأتون من أرجاء العالم الإغريقي كي يستشيروا عرافة ابولو the pythia.[66] كانت تجلس على حامل ثلاثي القوائم بجانب النار المقدسة في الحرم الداخلي. وعندما كان يتملكها أبولو كانت ترتجف ألماً، وتنشد، أو تصرخ الكلمات الموحاة. ففي أغلب الأحيان كانت نصيحتها عملية وذات معقولية.

لم تكن دلفي على شاكلة المقامات الأخرى، لم تكن مرتبطة بمدينة، ومعزولة على جبل منحدر بعيداً عن أي أرض زراعية. كانت دلفي مستقلة ولذلك كانت مركزاً دينياً قائماً على البصيرة insight أكثر من السلطة السياسية. لم يكن لدلفي جدول أعمال خاص بها لذلك أصبحت ساحة مكشوفة يلتقي فيها أصحاب المطالب والحجاج، ويناقشون المشكلات والمثل العليا التي كانت

مشتركة بين معظم المدن. لكن دلفي لعبت دوراً مهماً في موجة الاستعمار الجديدة التي بدأت في منتصف القرن الثامن[67]. كان المستعمرون يستشيرون دلفي قبل مغادرتهم الوطن، وغالباً ما ساعدتهم في التوصل إلى قرار مُعلّل.

مع حلول نهاية القرن كانت اليونان تعود إلى الحياة ثانية مع حماسة جديدة، وحسن اكتشاف، وفرص جديدة للتجارة، آفاق تتسع، وحافز ثقافة أجنبية. تنامي التجارة أدى إلى علاقات جديدة مع الشرق.[68] سافر التجار الإغريق إلى الشرق الأوسط، كما هاجر اللاجئون من الغزوات الآشورية إلى المدن الإغريقية، حاملين مهارات وحرف جديدة، وعدل الإغريق الكتابة الفينيقية بما يتلاءم مع استخدامهم، وبذلك كانوا قادرين أن يساهموا في الثقافة الأدبية الجديدة التي كانت آنذاك ممتدة من الفرات إلى إيطاليا.

استورد الإغريق أيضاً أفكاراً دينية شرقية. فخلال القرن الثامن بدأوا ببناء معابد ضخمة وفق نموذج الشرق الأدنى ليضعوا فيها تمثال إله. عبادة pythia ربما تأثرت بالنبوءة في الشرق الأوسط: الأوصاف التي قدمها الشعراء للعالم التحتي بدأت تشبه عالم الموتى في بلاد الرافدين القديمة. وبعض من أشهر آلهتهم ربما أتى من الشرق. فأبولو ـ على سبيل المثال ـ الذي سيصبح المحور لجميع الآلهة الإغريقية آتى أصلاً من آسيا الصغرى. ومن المحتمل أن الإغريق التقوا الإلهة الشرق أوسطية عشتار على جزيرة قبرص، فأدخلوها في مجمع آلهتهم باسم أفروديت إلهة الحب والخصوبة.

والشخصية المأساوية لأدونيس (عاشق أفروديت ـ كانت بالتأكيد شخصية إله الخضرة تموز) الذي كانت نساء الشرق الأوسط يقمن الحداد على موته، ولقبوه باسم آدو ado أي الرب.[69]

لكن ما من أحد كان له تأثير توليدي كهذا على الدين الإغريق مثل هوميروس التي قام بنقل التراثات الملحمية المنقولة شفوياً في قالب مدون في أواخر القرن الثامن، أي في نفس الفترة التي كانت تجمع فيها أسطورة E J في أورشليم. كان الرجاز يرددون هذه القصص القديمة في المباريات والمهرجانات، وعندما

جان عصر هوميروس ربما كان عمر بعض هذه القصص أكثر من ألف سنة.[70] قصيدتاه - الإلياذة والأوديسا - احتفظتا بجزء صغير فقط من حلقة ملحمية أكبر بكثير. فمن المحتمل أنه كان هناك نحو ثمان قصائد حول الحرب الطروادية.[71] كما كان هناك حكايات ملحمية أخرى، تتبعت إحداها تاريخ أوديب ملك طيبة وعائلته المبتلاة، وحكاية أخرى روت مغامرات هرقل، وثالثة روت بحث جاسون عن الجزة الذهبية.

هذه الملاحم الإغريقية القديمة قد حورت وطورت عبر القرون، لكن بعد أن دونت أصبحت الإلياذة والأوديسا لكل الزمن. مثلها مثل جميع الملاحم، ضمت بعضاً من مادة مغرقة في القدم، لكنها عكست أيضاً ظروف عصر هوميروس الذي عاش في زمن انتقالي، فالحضارة الجديدة التي كانت تشرق في اليونان بعد العصر المظلم كان عمرها نحو جيلين فقط. وضعت في زمن يعود إلى أواخر الفترة المسينية في زمن الحرب الطروادية 1200ق.م. وهكذا فقد طعمت القصائد السردية الطويلة لهوميروس الثقافة الجديدة بالقديمة. إننا لن نعرف أبداً ما إذا كان هوميروس شاعراً واحداً أم اثنين، أو حتى مدرستين شعريتين مختلفتين - لكن من المحال أن نبالغ في تأثيره. لقد أسميت الإلياذة والأوديسا الكتاب الإغريقي المقدس، لأن المثل العليا والقيم فيهما أحدثت تأثيراً لا يمحى على الثقافة الهلنستية الجديدة.

تصف الإلياذة حادثة واحدة صغيرة في الحرب الطروادية: نزاع، وصدام مرير بين أناتين بين أغمامنون ملك مسينا وقائد الجيش الإغريقي أخيل قائد إحدى فرق الفرسان. ما أن شعر أن شرفه قد أهين حتى هدد أخيل القضية الإغريقية برمتها بسحب جميع رجاله من المعركة. "في مسار الصراع الناجم يقتل هيكور - ابن بريام ملك طروادة صديقاً لأخيل واسمه باتروقلوس بطريقة مأساوية. كانت أحداث الأوديسا بعد الحرب، فوصفت رحلة أوديسيوس التي دامت عشر سنوات، كان عليه أن يرتحل في بلاد غريبة كثيرة حتى التأم شمله أخيراً مع زوجته إثاكا Ithaca. في هاتين القصيدتين احتفى هوميروس بحماسة المعركة، وسعادة

الرفقة، ومجد أريستيا عندما ضحى محارب بنفسه في تمرد ككل بالنصر، وأصبح القوة التي لا تقاوم كاسحاً الكل أمامه. بدا أن هوميروس يقول: في الحرب يعيش الناس في توتر أكبر. إذا ما كانت مآثر البطل المجيدة في أغنية ملحمية، فإنه يهزم نسيان الموت وينجز الخلود الوحيد الذي كان ممكناً للكائنات البشرية الفانية.

الشهرة كانت أكثر أهمية من الحياة ذاتها، والقصيدتان تصوران محاربين يتنافسون كي يفوزوا بالشهرة غير مبالين بالخطر. في هذا السعي إلى المجد، كان كل إنسان خارجاً من أجل نفسه. البطل كان أنانياً، مسكوناً بمسائل الشرف والمكانة الاجتماعية، ومتباهياً بإنجازاته بصوت عالٍ، ومستعداً لأن يضحي بمصلحة الجماعة كي يزيد من مكانته وامتيازاته. لم يكن هناك إنكار للذات، ولا استسلام ذاتي، والطريق الوحيد الذي كان باستطاعة المحارب أن "يخطو خارج حدود الذات كان في نشوة القتل. عندما استحوذ عليه آيرس Ayres إله الحرب كان يشعر بفيض الحياة، وأصبح إلهياً مضحياً بنفسه في أريستيا وقاتلاً أي شيء كان يقف في طريقه. كانت الحرب الفعالية الوحيدة التي باستطاعها أن تعطي الحياة معنى. كان يتوقع من كل محارب أن يتفوق، لكن أن تكون الأفضل، كان يعني أن تكون الأفضل في معركة.[72] لا مزية ولا موهبة أخرى كانت مهمة. في الحالة المتعاظمة (لأريستيا، كان يشعر بفيض زائد من الحياة كان ينطلق بكل عظمة في ازدراء للموت).

في الهند، الكهنة والمحاربون على السواء، كانوا يتحركون نحو المثل الأعلى ahimsa أي (اللا عنف)، وهذه ستكون سمة مميزة لروحانيات العصر المحوري الأخرى. لكن الإغريق لم يتخلوا كلياً عن الروح العامة البطولية: أي عصرهم المحوري سيكون سياسياً، وعلمياً، وفلسفياً، لكنه لم يكن دينياً. في تقديم محارب مثل أخيل على أنه نموذج الامتياز الذي يطمح إليه جميع الناس، يوضح هوميروس أنه لم يكن لديه شيء مشترك مع روح العصر المحوري. مع ذلك هوميروس واقفاً على عتبة عصر جديد كان قادراً أن ينظر بعين ناقدة إلى المثال

البطولي الأعلى. استطاع أن يرى أسى مخيفاً في مصير المحارب الذي كان عليه ان يموت كي يبلغ المجد الذي هو مبرر وجوده. كان متآلفاً مع الموت، كما في العقيدة. كان محصوراً في مناطق العالم السفلي المظلمة يعذبه فناؤه. فالموت كان كارثة بالنسبة لهوميروس أيضاً. الإلياذة كانت قصيدة عن الموت، شخوصها محكومون قسراً إما أن يقتلوا أو يقتلون. والقصة تسير دون تعاطف نحو الانقراض المحتوم: إلى موت باتروقلوس، وهيكتور وأخيل، والمدينة الجميلة طروادة. في الأوديسا أيضاً كان الموت تسامياً أسود، لا يمكن وصفه ولا يمكن فهمه.[73]

عندما زار أوديسيوس العالم السفلي أرعبه منظر حشود الموتى يهمهمون ويتدفقون وقد تداعت انسانيتهم بطريقة فاحشة. مع ذلك عندما التقى شبح أخيل، رجاه أوديسيوس ألا يحزن " ما من رجل كان مباركاً أكثر منك في أيام غابرة، أو سيكون في أيام قادمة. لأنك قبل موتك كرمناك نحن الآخيين كإله، والآن في هذا المكان فأنت تتسيده بين الموتى".

لكن أخيل لم يكن لديه أي إحساس كهذا " لا تزين لي الموت كي تعزيني". هذا ما أجاب به بكلمات كانت تسقط كلياً الروح العامة للمحارب الأرستقراطي " إني أفضل ان أكون فوق الأرض وأعمل عند فلاح فقير على أن أكون السيد على أموات لا حياة فيهم".[74] كان هناك خواء مخيف في قلب المثال الأعلى البطولي. في الإلياذة، عنف وموت المحارب يقدمان على أنهما ليس لهما غاية فقط بل تدمير ذاتي تماماً. الشخص الثالث الذي قتل في القصيدة هو simoeisios الطروادي، شاب وسيم لا بد أنه عرف رقة الحياة الأسرية، وبدلاً من ذلك قتله أجاكس البطل الإغريقي في إحدى المعارك:

سقط على إثرها على الأرض في الغبار مثل ورقة حور سوداء

التي كانت في الأرض المنخفضة على حافة مستنقع كبير

طرية مع أغصان نامية في أعلى الشجرة

شخص يسقط عليها - صانع عربات - بالحديد اللماع

ليحنيه إلى دولاب عجلة جيدة الصنع

والشجرة تستلقي قاسية قرب ضفتي النهر

على هذه الحال anthemion ابن simoeisies

الذي قلته أجاكس الشهير.[75]

ركز هوميروس على الإحساس بالشفقة من الحادثة كلها، لقد اختزلت حياة الشاب بشكل وحشي، وانتزعت من مسارها الطبيعي وحُوِّلت إلى أداة للقتل.

كان هناك تقسية وتشويه مماثل في شخصية أخيل الذي كان يبجل على أنه أعظم الآخيين.[76] لقد صُور كرجل لديه حب عظيم وطيبة كما نرى ذلك في سلوكه تجاه أمه، وتجاه باتروقلوس، وتجاه معلمه العجوز. لكن في مسار صراعه مع أغمامنون، هذا الحب أطفأه الغضب، غضب قاسٍ يزكي الذات عزله عن الناس الذين أحبهم. شرح زميله أجاكس ذلك: "الروح العالية الطيبة داخل جسده حولها إلى همجية".[77] لقد أصبح قاسياً ودون شفقة.[78] كان أخيل أسير روح عامة عنيفة مضرة التي ساءلها لكنه لم يستطع التخلي عنها. بعد موت باتروقلوس ـ الذي كان هو المسؤول عنه إلى حد كبير ـ مشاعره المحبة تحولت إلى حقد لا يرحم. وفي مبارزته مع هيكتور انتقاماً لصديقه أصبح شيطانياً. عندما طلب هيكتور أن يعاد جثمانه إلى أسرته كي تدفنه، أجابه أخيل أنه يفضل أن يأكل لحمه نيئاً.[79] وبكل حماقة قطع جثة هيكتور رابطاً إياه بخيوله وجاراً الجثمان حول قبر باتروقلوس. أخيل النبيل القديم ما كان ليتصرف أبداً بهذه الطريقة. ففي مسار الصراع لإثبات الأنا خسر نفسه. وكما شرح أبولو في مجلس الآلهة، لقد أصبح فاقداً ذاته، قدرة مدمرة دون شفقة ولا عدل. وتخلى عن العار الذي يمنع الناس من ارتكاب أسوأ المجازر. وماذا أنجز؟ قال أبولو: "إنه لم يكتسب شيئاً لصالحه ولشرفه".[80]

لكن في نهاية القصيدة استعاد أخيل قلبه المحب في مشهد غير مألوف عندما أتى الملك بريام ملك طرواده متوسلاً إليه أن يعيد إليه جثمان ابنه هيكتور. الملك

العجوز قد غادر طروادة، وسار دون أن يراه أحد إلى داخل معسكر العدو، ولدهشة رفاق أخيل ظهر بريام في خيمة أخيل بكل هدوء: "أمسك ركبتي أخيل بذراعيه وقبّل اليدين الخطرتين اللتين تقتلان الرجال، وقتلتا الكثير من أبنائه".[81]

كان الإغريق يعتقدون أن البكاء سوياً كان يخلق رابطة مهمة بين البشر.

إهانة النفس الشديدة للرجل العجوز حركت في أخيل " شعوراً بالحزن على والده"

فأخذ يد بريام:
وتذكر الإثنان، بينما جلس بريام منقبضاً
عند قدمي أخيل، وبكى بمرارة على هيكتور قاتل الرجال
وأخيل بكى عندها على والده
وعلى باتروقوس من جديد، وصوت نحيبهما تردد في البيت
ثم
بعد أن ارتوى أخيل من حزنه
وانقضى هذا الشعور من ذهنه وجسده
نهض من كرسيه وأخذ الرجل العجوز من يده
وأوقفه على قدميه إشفاقاً على الرأس الأشيب
واللحية الشيباء.[82]

في الإشفاق على والد الرجل الذي كان قد قتل صديقه المحبوب، استرد أخيل إنسانيته وعواطفه. وسلّم جثمان هيكتور بلباقة وطيبة كبيرتين، معتقداً أن الجثمان قد يكون ثقيلاً جداً لا يستطيع الرجل العجوز أن يحمله. وبعد أن تناولا الطعام سوياً، تأمل العدوان السابقان كل منهما الآخر في رهبة وصمت.

بريام - ابن دردانوس - تأمل أخيل متعجباً
من حجمه وجماله، لأنه بدا مثل شكل آلهة

وبدوره تأمل أخيل بريام

وتعجب، بينما رأى نظراته الشجاعة

واستمع إليه متحدثاً.[83]

تجربة تعاطف وإنكار للنفس مكنت كلاً منهما أن يرى الإلهي، وما يشبه الإله في الآخر.[84] في هذا المشهد إن لم يكن في بقية القصيدة عبر هوميروس تماماً عن روح العصر المحوري.

آلهة هوميروس ـ على أية حال ـ لم تكن تشعر بالرحمة بينما كان بعض الأنبياء العبريين يبدؤون باكتشاف مشاعر الرب، صور هوميروس آلهة الأوليمب وكأنها غير مبالية بمعاناة البشر. فلو أن زيوس شعر بحرقة عابرة على هيكتور، لكانت مجرد إحساس عابر، ولم تسبب ألماً دائماً. كانت الآلهة عبارة عن متفرجين تراقب حركات الرجال والنساء، مثلما يشاهد أرستقراطيون سباقاً في الألعاب.[85] بعد موت باتروقلوس بكت خيول أخيل المقدسة على البطل القتيل، وتدفقت دموعها الحارة كالسيل إلى الأرض. فشعر زيوس بشفقة لحظية فنفخ فيها حيوية جديدة، وفي الحال نفضت الغبار عن شعر رقابها وعادت إلى الميدان. ألمها العابر نقيض تام مع الحزن الممض لدى أخيل.

تبدو الآلهة أقل جدية من الشخصيات البشرية في القصيدة. فالآلهة لا تغامر بما هو جوهري، ولا تموت، ولا شيء يهمها كثيراً .عندما جُرح آريس Ares في معركة على يد أحد المحاربين الإغريق التأم جرحه بسرعة، وكان قادراً أن يأخذ مكانه إلى جانب زيوس بعد هذه الإهانة المؤقتة مزهواً في عظمة منتصر.[86] عندما كان زيوس وهيرا يتنازعان، كان يحدث ضرر قليل. وعندما كان ينشب قتال بين الآلهة الداعمة للإغريق والآلهة المساندة للطروراديين لم يكن ينجم عن ذلك عواقب خطيرة، فالمعركة كانت هزلية تقريباً إذا ما قورنت بالحرب الجارية على الأرض بين البشر.[87] حياة الآلهة السهلة رمت الطبيعة المأساوية المحدودة والمحكومة بالموت للحياة البشرية في خلاص محزن.

مع ذلك، اللوحة الحيوية التي قدمها هوميروس لآلهة الأوليمب ثبتت شخصياتها طوال الوقت. لقد أعطاها الوضوح، وتماسك مجمع الآلهة الذي لم يكن كذلك من ذي قبل.

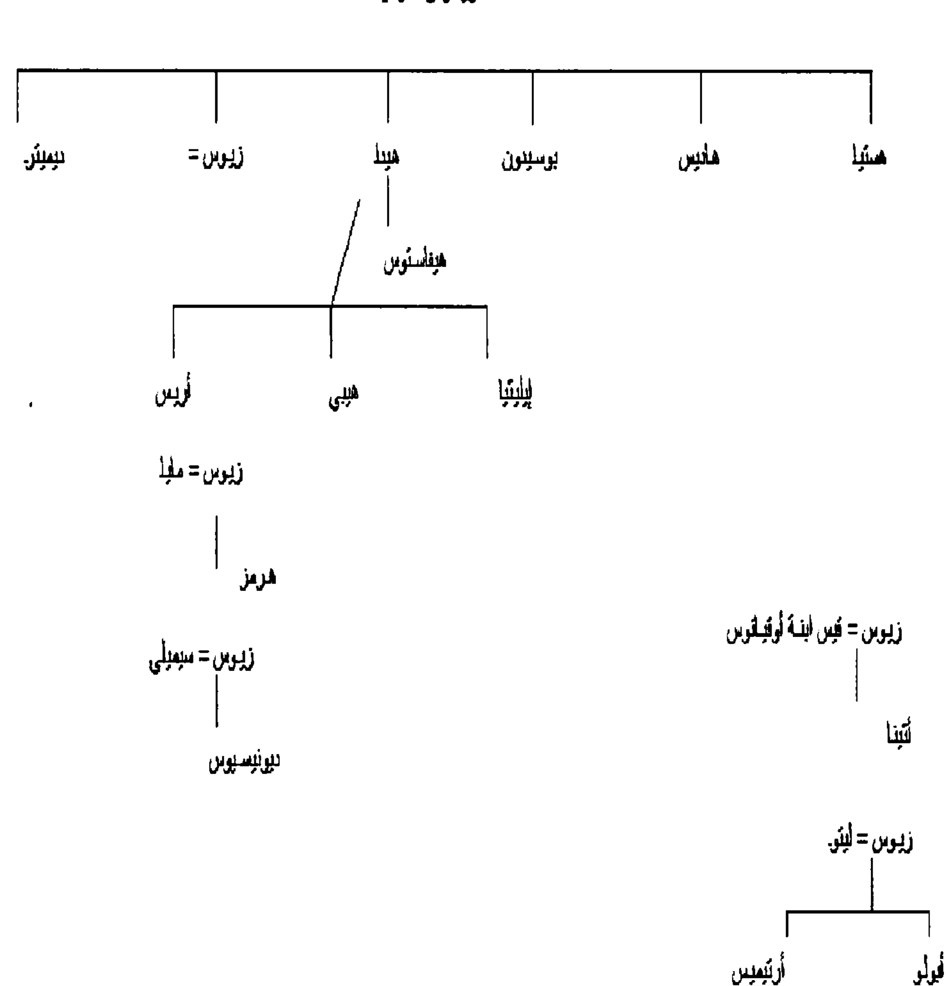
ففي الوقت الذي كانت فيه شعوب أخرى في العصر المحوري إما بدأت تجد أن الآلهة القديمة لم تعد مرضية، أو كانوا يغيرون فهمهم للألوهة، كان الإغريق أكثر تشبثاً بالنماذج القديمة في دينهم. وبدلاً من رؤية الإله كمتعالٍ، أرادوا تأكيد المحايثة التراثية لآلهتهم. مواجهة مع الإله لم تكن صدمة مدمرة، وكانوا يشعرون أن إلهاً إغريقياً كان ملائماً تماماً للبشر. فوجود إله أو إلهة كان جلياً في أي نوع من النجاح البارز أو إنجاز استثنائي.[88] وعندما كان محارب تحمله نشوة معركة بعيداً، كان يعرف أن إله الحرب كان حاضراً. وعندما كان عالمه يتجلى بالقدرة الكاسحة لحب جنسي كان يسميها أفروديت. فالفنان الإلهي هيفا ستوس قد تجلى في إلهام فنان، وأثينا كانت في كل إنجاز ثقافي.

كان مجمع آلهة يجسد تعقيد الألوهة. وفي مجمع الآلهة الكنعانية، لا أحد من "أبناء الله" بإمكانه أن يوجد بمفرده، وكان ذو معنى من خلال علاقته مع زملائه الآلهة فقط. أسرة الآلهة الأولمبية كانت تعبيراً عن وحدة الآلهة التي كانت تعبر عن العلاقة والاعتماد المتبادل بين القوى المقدسة التي خبرها الإغريق في العالم من حولهم. الشيء الوحيد الذي كان يميز مجمع الآلهة الإغريقية كان درجة التماسك العالية والتنظيم. إغريق الفترة الكلاسيكية لم ينقطعوا أبداً عن الوثنية القديمة. لقد استخدموا مواهبهم غير العادية في التحليل لتعميق النظرة القديمة، فأعطوها نظاماً ومبرراً عقلياً. الأسرة الأولمبية كان فيها اتساق مريح وتوازن، كانت مكونة من الوالدين زيوس وهيرا، والخال والعمة بوسيدون وديميتر، وثلاثة أبناء أبولو، آريس، وهيفا ستوس، وثلاث بنات: أثينا، وأرتيميس، وأفروديت. كان هناك أجانب أيضاً: هرمس رسول الآلهة، وهيكات Hecate إلهة السحر، وديونيسيوس الذي كان دوره هو أن يتحدى التراتب الأولمبي. لم يكن بالإمكان رؤية الآلهة بشكل مستقل، كشخوص أفراد معزولين. كل

إله مكون لا غنى عنه من قبل جميع الآلهة، وبالإمكان فهمه في وضعه وجهاً لوجه مع أفراد الأسرة الآخرين. لقد تم تشبيه مجمع الآلهة بلغة من اللغات حيث معنى كل كلمة مشروط بمدى تشابهه واختلافه عن الكلمات الأخرى في المعجم.[89] في حقيقة الأمر عبادة إله واحد فقط وإهمال عبادة الآلهة الأخرى كانت تمثل خطراً كبيراً. لأن في العالم الإغريقي أحادية العبادة كانت محرمة، وقد تؤدي إلى عقاب رهيب.[90] لم يحظّر إله عبادة أي إله آخر، وانتقاء واختيار آلهتك المفضلة، بالتالي عبادة إله واحد من مجمع الآلهة كان أمراً محظوراً. فقد تتقاتل الآلهة وتتنازع، لكن كل إله كان يمثل جانباً من الواقع، ولولا الآلهة لكان الكون يضطرب باستمرار. فمن خلال تبجيل جميع أطياف الآلهة، كان ممكناً أن نلحظ وحدة تشد المتناقضات معاً. نادراً ما كان يُقدَّمُ القربان إلى إله واحد في مهرجان، والمحرم كان عموماً يكرس إلى أكثر من إله بعينه. فعلى سبيل المثال - في أثينا كان يكرم بوسيدون على الأكروبوليس إلى جانب الإلهة أثينا، الإلهة الراعية للمدينة.

في أغلب الأحيان كانت الآلهة تشكل ثنائياً بطريقة كانت تولد توترات الحياة ومفارقاتها. لقد عكست نزاعات زيوس وهيرا - النمط الأصلي للزوجين - الصعوبة المتأصلة للنظام البطريركي الذي أثبت نفسه من خلال صراع الأضداد.[91]

آريس وأثينا كانا إلهين محاربين، لكن آريس كان يمثل الجانب القاسي المقيت من الحرب، بينما جسدت أثنيا جمال الانتصار.[92] بوسيدون وأثينا غالباً ما عبدا كثنائي: بوسيدون إله البحر ممثلاً القوى الأولية البدئية التي كانت أثينا ـ إلهة المدينة ـ قادرة أن تروضها، وتسيطر عليها، وتجعلها في متناول البشر. بوسيدون دجّن الحصان، بينما أثنيا اخترعت اللجام والبردعة. بوسيدون كان يحرك الأمواج، بينما أثينا بنت سفينة. مع ذلك، لأنها كانت إلهة حرب، فإن أثينا عكست العنف في قلب أية حضارة، وكفاح أية مدينة كي تبقى.



كان بوسيدون يشكل ثنائياً مع أبولو، مثلا الشيخوخة والصبا، اللذين كانا ضدين قطبيين يكملان بعضهما. هيرا وديونسيوس كانا خصمين لبعضهما حتى الأعماق، لكنهما كان مرتبطين بالجنون الذي قد يكون بلية إلهية أو نشوة محررة. أبولو وديونيسيوس كانا أخوين يوازنان، ويقلبان توازن كل منهما الآخر. أبولو رمز للشكل، والوضوح، والتحديد والنقاء، بينما جسد

ديونيسيوس قوى الانحلال، وفي دلفي كان يعبد على أنه المقابل الغامض للعالم التحتي لأبولو. لكل إله إغريقي جانب خطر ومظلم وما من إله كان خيراً كلياً، وما من إله مهتم بالأخلاقية. لقد عبرت الآلهة عن غنى التنوع وتعقيد الحياة دون تجنب مفارقة أو إنكار أي جزء من العالم. لم يشعر الإغريق بحاجة إلى تطوير أشكال جديدة للدين، بل بقوا مقتنعين بالعبادة القديمة التي دامت طوال 700 سنة بعد نهاية العصر المحوري.

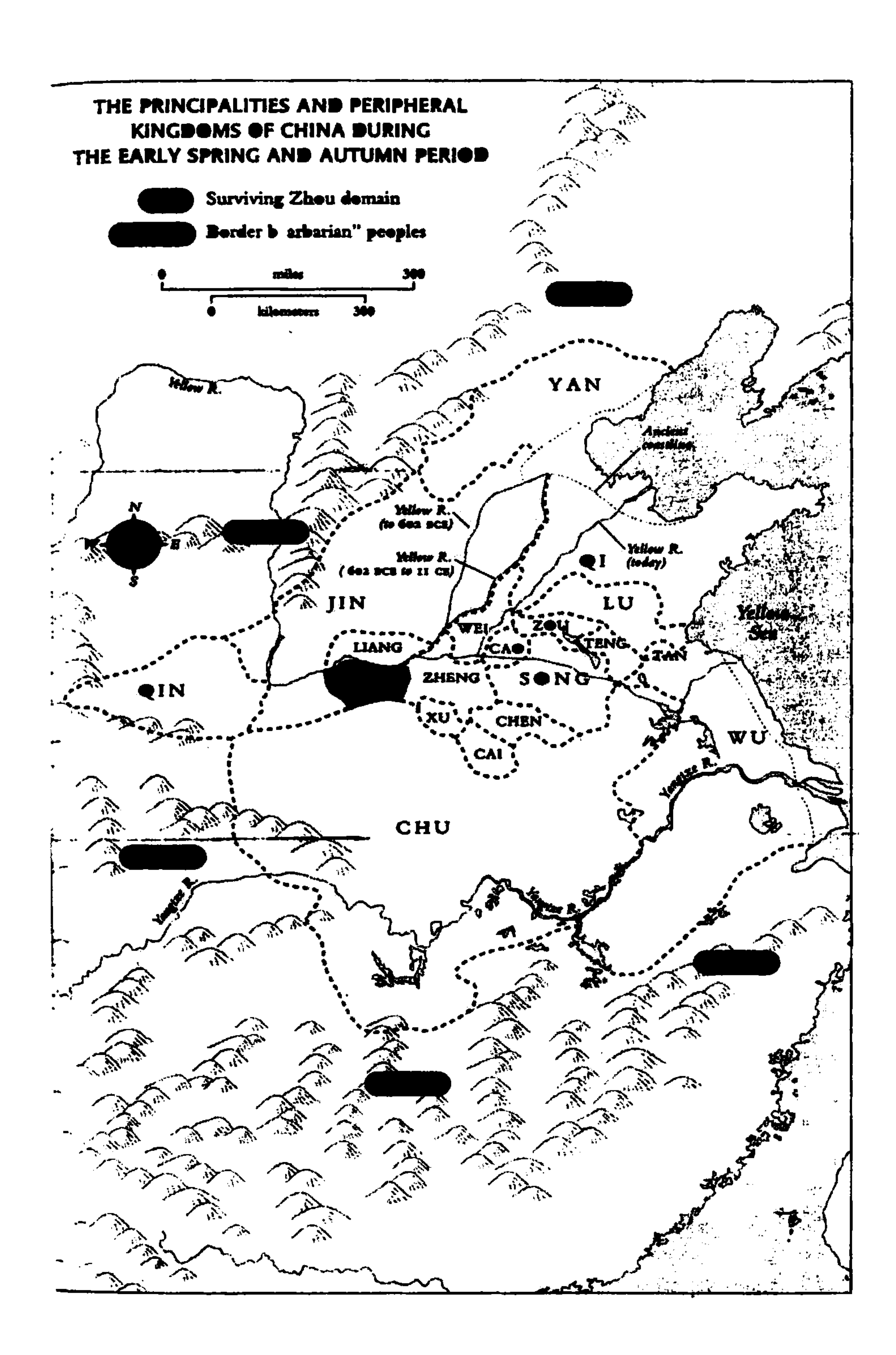
* * *

كان القرن الثامن أيضاً زمن انتقال في الصين. في عام 771 البرابرة Qong Rang الذين كانوا يقلقون بلاط Zhou لأكثر من خمسين سنة اجتاحوا عاصمتهم Zhou Zhuang وقتلوا الملك yon. لم تكن هذه الحادثة نهاية السلالة الحاكمة على أية حال. الملك ping (770 ـ 720) خلف والده، وعهد إليه تفويض السماء في العاصمة الشرقية chang zhou. لكن ملوك الزهو كانوا مجرد ظلال لذواتهم السابقة. احتفظ الملك بأرضه المفقرة الصغيرة حول العاصمة الشرقية، وأدى مهماته الطقوسية، لكن لم يكن لديه سلطة سياسية حقيقية. بقيت السلالة في هذا الشكل الواهن طوال أكثر من 500 سنة، بقي الملوك حكاماً اسميين، واحتفظوا بهالة رمزية، بينما كان لأمراء المدن سلطة فعلية. كانت إماراتهم تصبح أكبر باستمرار. كان طقس Li ـ بدلاً من الولاء إلى الملك ـ يحكم العلاقات بين الإمارات التي كانت رسمياً حلفاء، لكن عملياً منافسون وخصوم. العرف القديم حل محل السلطة الملكية، ليلعب دور قانون دولي للتحكم بالحروب والثأر، والمعاهدات، كما كانت تشرف على تبادل السلع والخدمات. كانت هذه هي البداية لعصر يسميه المؤرخون chunqiu (أي الربيع والخريف)، الاسم المعطى للحوليات الموجزة لإمارة Lu التي غطت الفترة من 722 حتى 781. بدت في حينها فترة صراع وتجزئة فوضوية. لكن بقليل من التروي يمكننا أن نرى أن الصين كانت تقوم بانتقال معقد من ملكية قديمة إلى

امبراطورية متحدة. إننا نعرف القليل عن القرن الثامن في الصين، لكن هذه السنوات شهدت ـ كما يبدو ـ ظهور عقلانية جديدة

كان انحسار الملكية مجرد واحد من التغيرات غير الحاسمة في هذه الفترة. في حكم الزهو كان الصينيون قد أحرزوا تقدماً عظيماً في تحضير الأرض، قطع الغابات، والأشجار وطوروا مزيداً من الأرض للزراعة. غير أن هذا التطور الإيجابي كان له نتائج مقلقة.[93]

قلت المناطق المخصصة للصيد وتربية الأغنام والأبقار، لقد دمر الموطن الطبيعي لأنواع عديدة، وقطع الغابات قلل أيضاً الحياة البرية الغنية في المنطقة. في القرن الثامن، أصبح الصينيون يرجعون من رحلات الصيد بحيوانات أقل بكثير عما كانوا عليه في الأيام الماضية التي اتسمت بالصيد الوفير. كما تراجعت تربية الأغنام والأبقار كثيراً. الشانغ shang والزهو الأوائل قد ذبحوا مئات من الحيوانات في أضاحيهم السخية دون أن يعيدوا النظر في المسألة، لأنهم كانوا مقتنعين أن مواردهم لا تنضب. قدموا هبات سخية، واستهلكوا كميات وفيرة من اللحم في مآدبهم دون أي قلق. لكن الندرة الجديدة جعلت الناس ينظرون متسائلين إلى هذا التبذير ــ لم يعد هناك وفرة في أضاحي القرابين، فعدد الحيوانات كان محكوماً بدقة بالقانون الطقسي. لذلك حاول الطقوسيون تنظيم الصيد، فحاولوا جعله مقتصراً على موسم محدد بدقة. وفي عام 771 كان يتم التحكم به بشكل دقيق، وكان ينظر إلى المباهاة القديمة بازدراء. فروح اعتدال جديدة كانت تغير تدريجياً حياة الأسر النبيلة في المدن. أصبحت ثروتهم تعتمد على الزراعة بدلاً من الصيد والإغارة. أما الأرستقراطيون فبقوا محاربين في قلوبهم، لكن ـ كما سنرى في الفصل التالي ـ أصبحت حروبهم أكثر طقسية وأقل عنفاً مما كانت. وبما أنه كانت هناك حملات عسكرية وصيد أقل للسيد Junzi، لذلك كان يقضي معظم وقته في البلاط منشغلاً جداً بالبروتوكول، والإتكيت وصغائر أمور الطقس.[94]



THE PRINCIPALITIES AND PERIPHERAL KINGDOMS OF CHINA DURING THE EARLY SPRING AND AUTUMN PERIOD
Surviving Zhou domain
Border barbarian" peoples
0 miles 300
0 kilometers 300
YAN
Yellow R.
Ancient coastline
Yellow R. (to 602 BCE)
Yellow R. (602 BCE to 11 CE)
Yellow R. (today)
QI
LU
JIN
WEI
ZOU
TENG
CAO
TAN
LIANG
ZHENG
SONG
QIN
XU
CHEN
CAI
WU
Yellow Sea
Yangtze R.
CHU
N
E
S

المنع، والتحكم، والاعتدال أصبحت كلمات السر، لأنه كان ينبغي تنظيم الحياة بدقة أكثر. فبدلاً من الإسراف القديم في تقديم الهبات، كان ينبغي أن يكون هناك نظام تبادل دقيق مدعوماً بدليل موثق بناء على سابقة.[95] مع الزمن، مفهوم النبل في مدن الزهو قد طور عادات مصممة لتشجيع الانسجام الاجتماعي والصالح العام للجماعة. وكما تسير الأمور في جميع المجتمعات، تطورت هذه التقاليد من خلال التجربة والخطأ أكثر مما كانت من خلال التفكير الواعي. ربما أخذت نماذج السلوك هذه قروناً كي تنشأ، وتنتقل من جيل إلى جيل آخر.[96] كان السيد يعيش وفقاً لمدونة سلوكية محكمة. هناك أشياء كان يفعلها وأمور لا يفعلها. أثناء فترة الربيع والخريف قانون العادة هذا بدأ يصبح مكتوباً ، وصيغ في نظام متماسك. ففي هذا الزمن الانتقالي من عدم اليقينية، أراد الناس إرشادات واضحة، وكان عليهم أن يعيدوا التفكير في دينهم. الملك كان أساسياً في الطقس القديم، فكيف كان باستطاعة رعاياه أن يُجلّوا سلطته عندما أصبح دمية لا حول ولا طول. إذ كيف كان ممكناً الحفاظ على طقس القرابين القديمة في زمن القلة؟

يبدو أن علم الطقوس الجديد قد طُور في إمارات السهل العظيم على أيدي مجموعات صغيرة من الكتبة، والعرافين، والفلكيين، وواضعي الأرشيف. فطوال مدة من الزمن كانت أقلية من طبقة النبلاء لها دور أكثر أهمية في المدن. الأبناء الأصغر سناً، أو زوجات من الدرجة الثانية كانوا بعد مراتب البارونات وكبار الضباط. كانوا يزاولون الأعمال ذات المكانة الأقل، يخدمون كرجال تحت السلاح، وحراس التراثات المدونة، وأخصائيون في فروع المعرفة المتنوعة. بينما جمع الكتبة دواوين أصبحت الكلاسيكيات الصينية: الوثائق الكلاسيكية، والأشعار العذبة، وروائع التحولات yijing، وروائع الموسيقى التي لم تبقى، وحوليات الربيع والخريف. كما بدأ بعض من متعلمي النبلاء يجمع ويصنف الطقوس الاحتفالية، وتقليد العائلات النبيلة. لقد جعل الطقوسيون (ru) مبادئ الحياة النبيلة في متناول كل امرئ، وواضحة. يجب على السيد أن يعرف

تماماً أين عليه أن يضع نفسه في اجتماع للإقطاعيين، كيف عليه أن يقف، وكيف يحيي الناس، وكيف يوائم نفسه. عليه أن يعرف بكل دقة متى يتكلم ومتى يبقى صامتاً. يجب أن يرتدي الملابس المناسبة، وأن يستخدم الحركات المناسبة، وأن تكون ملامح الوجه التعبيرية مناسبة لكل مناسبة. كل شيء له قيمة دينية. في أيام الزهو الأولى، كانت الحفلات الملكية مصممة للحفاظ على النظام الطبيعي. لكن بعد أن أصبحت الملكية في تراجع فإن الطقوسيين حولوا الحياة إلى عرض طقوسي محكم لجلب السلام والاستقرار إلى السهل العظيم.[97]

وجد كل أمير أنه بحاجة إلى فريق من مستشارين بارعين في الطقوس بوسعهم التأكد من أن القرابين الرسمية "مآدب الضيافة" لأجل الأسلاف، والباليهات الطقوسية كانت تنفذ بشكل صحيح. ساعد الطقوسيون الأمراء والوزراء على استخدام الشعائر سياسياً بحيث لا يخطئون في المجالس الإقطاعية، وأن يعرفوا كيف يجب على السيد أن يطرح قضيته، ويبدي معارضته. تبين سجلات الأحداث أن معرفة Li كانت أمراً مهماً في الدبلوماسية. ففي إحدى المناسبات زار أمير مدينة صغيرة أحد الأمراء الأكثر أهمية، والذي توفي أثناء زيارته له. حاول الوزراء إجبار الضيف أن يُلبِسَ جثمان المتوفي ـ حركة محسوبة لأن هذا كان عمل يقوم به خادم. فإذا امتثل للطلب، فإن الضيف سيخسر استقلاله السياسي بدولة أكثر، فكيف كان بوسعه أن يرفض بكل كياسة؟ حل مستشاروه المشكلة. الإقطاعي الأدنى منه مرتبة مضى اختير كي يلبس الجثمان، لكنه أخذ معه مشعوذاً. وفقاً لـ Li هذا ما كان يفعله أمير في مملكته عندما يقدم العزاء بأحد أتباعه. هذا التلاعب الذكي لـ Li قد عكس الحالة، وأحبط مسعى الوزراء المتآمرين. توضح هذه القصة أنه بالرغم من التواضع الظاهري بأنهم بدوا يعبرون عنه، كان هناك فعلاً عدم إنكار للنفس في تأدية هذه الشعائر: نمط الحياة وفقاً للطقس الذي صيغ بما يتوافق مع طقوس النبلاء قد علّم الأرستقراطيين كيف يتصرفون باحترام وتواضع ظاهريين أحدهم تجاه الآخر. لكن Li كانت عادة مضطلعة على المصلحة الذاتية. كل شيء كان

مسألة البرستيج. كان الأرستقراطيون غيورين من امتيازاتهم ومن تعظيمهم، واستغلوا Li لإعلاء هذه المكانة.[98]

مدرسة الطقوس الأكثر سلطوية وقدرة كانت تتركز في إمارة Lu التي عدت نفسها دائماً وصية على التراث المقدس. طور الكتبة والطقوسيون الـ Lijing المدونة الطقوسية التي ستصبح الكلاسيكية الصينية السادسة.[99] صاغ طقوسيو Lu مبدأين مهمين:

فاعلية احتفال كانت تعتمد على الأداء التام لحركة كل امرئ من المشاركين فيه، والثاني هذا الكمال كان ممكناً عندما يدرك كل واحد من المشاركين قيمة وأهمية الشعيرة ككل. وفي آخر القرن السادس، يدخل أحد طقوسيي Lu العصر المحوري إلى الصين، متخذاً هذين المبدأين منطلقاً له، وأوضح ا لقدرة الروحية الكامنة في هذا النظام الذي ـ كما يبدو ـ هو خدمة النفس ويقلل من شأن جوهر هذا الانضباط.

عند هذه المرحلة المبكرة، فهم بعض طقوسيي Li أهمية استسلام النفس.[100] الملكين الحكيمين yao وshun اللذان كان يحظيان باحترام كبير في الزمن الغابر ـ ربما كانا المسؤولين عن شريعة yao وshun التي هي أحد أقدم تاريخ للأحداث في كلاسيكية الوثائق. لم يقم yao وshun بمآثر سحرية، ولم يقاتلا غولاً مثلما فعل الإمبراطور الأصفر، أو تحكما بالفيضانات مثلما فعل yu مؤسس سلالة xia.

لقد حكما شعبيهما من خلال الكاريزما فقط. وهذا كان مختلفاً تماماً عن الترقية التي كان ينالها محارب يحكم من خلال هيمنة عسكرية. فالشريعة تخبرنا أن yao كان سيداً لطيفاً حقاً: "كان موقراً، ذكياً، ومصقولاً، ومخلصاً ووديعاً. كان محترماً حقاً وقادراً على التواضع"[101] فالطاقة الموجودة في هذه المزايا شعت إلى زوايا الأرض الأربع، وبلغت السماء العليا، وإلى أعماق الأرض. امتدت إلى جميع العائلات والقبائل الصينية، فمكنتهم أن يعيشوا بانسجام معاً، ورسخت السلم العظيم Great peace، فبدأت السلطة الملكية تتغير، بدلاً من

سلطة سحرية صرفة لتغدو سلطة أخلاقية جلبت الفائدة الروحية إلى الناس.

أصول shun كانت متواضعة جداً. قال البعض أنه ولد في إحدى القبائل البربرية الشرقية، وزعم آخرون أنه كان فلاحاً، أو صانع فخار، أو صياد سمك. حاول والده وأخوه الأكبر أن يقتلاه، لكن shun تمكن من الهروب، ولم يحمل في نفسه سوءاً تجاههما، بل كان أنموذجاً لتقوى بنوية، واستمر بمعاملتهما بلطف واحترام.

على الرغم من مكانته المتواضعة إلا أن ضبط النفس والاعتدال زكياه إلى الإمبراطور yao الذي كان يفكر في مسألة الخلافة. ابن yao كان غشاشاً ومشاكساً، فكيف كان بإمكانه أن ينال تكليف السماء؟ في حيرته استشار yao الآلهة وروح الجبال الأربعة فأخبرته عن shun: "إنه ابن رجل أعمى، والده غبي، ووالدته غشاشة، وشقيقه xiang متعجرفاً. مع ذلك كان قادراً أن يعيش معهم بانسجام، وأن يكون ابناً ممتازاً. لقد تحكم بنفسه، ولم يرتكب شراً".[102]

بعد امتحانه لـ shun للتأكد من أنه كان رجلاً صالحاً حقاً، أورثه yao الإمبراطورية متجاوزاً ابنه. شعر شون أنه لا يستحقها، وبعد وفاة yao انسحب إلى المناطق الجنوبية من الصين تاركاً ابن ياو يعتلي العرش. لكن الأمراء الإقطاعيين أتوا إلى شون كي يستشيروه، فأخذ الطقوسيون يكيلون له المديح، فقبل أخيراً تفويض السماء. وحتى بعد أن أصبح امبراطوراً تابع معاملته لأبية باحترام، وعندما تقاعد حذا حذو yao متجاوزا ابنه لصالح yu وزير الأشغال لديه الذي أسس سلالة زيا xia.

وهكذا أصبح ياو وشون قديسين، رجلين ذوي طيبة وإنسانية أسسا عصر سلام ذهبي. وكانت أسطورتيهما في كلاسيكية الوثائق انتقاداً لاذعاً للحكم القائم على القوة والإكراه والموروث من خلال الخلافة ضمن السلالة. بدلاً من أن يتشبثا بمكانتهما وامتيازاتهما وضعا مصلحة الناس فوق تفضيل الطبيعة. إنهما كانا أنموذجين أصليين جسدا الاعتدال، والتواضع وضبط النفس والاحترام التي يفترض أن تراعي Li. كانت اسطورة ياو وشون مصدر إلهام عندما كانت الحياة

السياسية في الصين تصبح حفاظاً على الذات ودون رحمة. وحكماء المحور سوف يدافعون بأن كل كائن بشري لديه المقدرة لأن يصبح مثل هذين الرجلين.

الاعتدال الجديد وفق الطقوس ضرب جذوره تدريجياً في إمارات السهل الأوسط. وعلى الرغم من توترات الفترة، فقد ساعد في الحفاظ على السلم في هذه المدن القديمة التي بقيت مخلصة للمثال الأعلى الصيني كما يعبر عنه في Li. لكن خصومهم كثر ولهم أعداء جدد. خلال القرن الثامن ثلاث من الممالك التي على محيط السهل كانت تضم باستمرار مناطق غنية شاسعة بالتسلل إلى أرض يسكنها البرابرة: Jin في الشمال الجبلي، Qi منطقة ساحلية غنية في الشمال الغربي من shantung، shu دولة شاسعة في الوسط Yangtze. هذه الدول الثلاث كانت ما تزال محتفظة بالتراثات الصينية، لكن الآن كان فيها سكان بدائيون لم يكونوا متآلفين مع Li . chu كانت الأولى في التخلي عن التراثات القديمة للزهو. الصين كانت متجهة نحو صدام حضارات.

* * *

كانت الحياة تصبح أكثر استقراراً في منطقة الغانج في القسم الشمالي من الهند، وأصبح رب الأسرة الركيزة الأساسية في المجتمع. فبعد زواجه كان يسمح له ـ بصفته رب أسرة ـ أن يمتلك ناراً مقدسة في بيته، وباستطاعته تأدية الشعائر اليومية التي كانت نسخة طبق الأصل عن طقوس القرابين العامة بعد الإصلاح. وبذلك أصبح بيته حلبة قرابين خاصة حيث باستطاعته أن يبني النفس التي تنتصر على الموت، وتدخل عالم الآلهة. لكن بعض الرجال قاموا بخطوة غير مألوفة، تركوا أسرهم، وأداروا ظهورهم إلى المجتمع، وانسحبوا إلى الغابة، فلم يمتلكوا أملاكاً، وتسولوا طعامهم. بعضهم ترك شعره طويلاً دون تسريح، وارتدى بعضهم رداءً أصفر، وآخرون مضوا عراة. هؤلاء النساك وضعوا أنفسهم خارج الحدود، لكنهم لعبوا دوراً مركزياً في البحث الروحي في الهند. ومن هذه الفترة فصاعداً، سيصبح هؤلاء النساك ـ وليس أرباب الأسر ـ القوة المحركة للتحول الديني.[103] الناسك ـ وليس الكاهن البراهمي ـ هو من شكل المرحلة التالية من العصر المحوري الهندي.

يصعب وضع تاريخ دقيق لهذا التطور، لكنه ـ كما يبدو ـ بدأ في القرن الثامن.[104] ربما كان النسك متجذراً في تدريبات أقدم بكثير، إذ يعتقد بعض العلماء أن السكان الأصليين في الهند كانوا يمارسونها قبل وصول الآريين.[105] بينما يقول آخرون أنها إما كانت تطوراً طبيعياً للنزعة الطقوسية الفيدية،[106] أو أنها كانت أيديولوجيا جديدة كلياً.[107] تذكر الريغ فيدا الهائمين بضفائر شعرهم الطويلة المنفلتة، وملابسهم الملطخة بالطين الأصفر"، الذين كانوا قادرين أن يطيروا في الهواء " والذهاب حيث ذهبت الآلهة من قبل."، وأن يروا أشياء من مسافة بعيدة جداً. كانوا مكرسين للإله رودرا Rudra : إله مخيف، شعره طويل مجدول عاش في الجبال والغابات يفترس الأطفال والأبقار.[108] في الريغ فيدا إشارات قليلة إلى الإله رودرا، الذي ربما كان أحد آلهة السكان الأصليين. كان النساك أيضاً يشبهون محاربي vratya الذين كانوا يتجولون دون توقف في أطراف المجتمع الفيدي.[109] كانوا يتحدثون لهجة هندو ـ أوربية، وربما كانوا مهاجرين آريين أوائل لم يتقبلوا أبداً الدين الفيدي. عندما كان محاربو vratya يحتاجون إلى طعام، كانوا يسرقونه من الجماعات المستقرة. كانت أروابهم سوداء (لون الإله رودرا)، ويرتدون جلود الأكباش على أكتافهم، وملتزمين بطقوسهم الخاصة بهم، ومارسوا "الأنفاس الثلاثة three Breathes، استنشاق وزفير بطريقة منتظمة كي يحفزوا تغير الوعي. هذا الشكل المبكر من اليوغا سيغدو مركزياً في روحانية النساك، مما يدل على أن من المحتمل وجود رابطة آيديولوجية بين المحاربين والنساك الجدد.

لقد أخرج الطقوسيون العنف من القربان، وبدأوا يطورون روحانية داخلية أكثر. وغدت مجموعات من المحاربين القدماء نماذج غير مقبولة من قبل جماعات عدم العنف، والرهبان المتسولين. كان النساك يعودون إلى نمط الحياة الجوال للذين كانوا يغيرون على الأبقار. وحيث فتح أسلافهم منطقة جديدة، فإنهم سوف يكتشفون العالم الداخلي، ويحولون المعارك القديمة إلى صراع داخلي من أجل بلوغ الإستنارة.[110] فخلال العصر المحوري الهندي ستتحول أساليب الحرب إلى

ممارسة روحانية سلمية. كان هذا واضحاً في brahmacarin الشاب الذي ترك أسرته ومضى ليعيش في منزل معلمه كي يدرس الفيدا.[111] كانت حياته مماثلة لحياة محاربي vratya. فإلى جانب حفظ النصوص المقدسة كان عليه أن يهتم بنار معلمه، وأن يجمع الحطب من الغابة، وأن يتسول طعامه، وأن يرتدي جلد حيوان، وأن يحمل عكازاً.

في أجزاء أخرى من العالم، كان على شبان هندو ـ أوربيين أن يمضوا بعض الوقت في البرية كجزء من إدخالهم في الروح العامة لدى المحاربين ـ طقس يعلمهم الصيد، والاكتفاء الذاتي، ومهارات بقاء أخرى. كان على brahmacarin أيضاً أن يقضي زمناً لوحده في الغابة، كمرحلة من إدخال في حياة البالغين، لكنه ـ بكل وضوح ـ كان محظراً عليه الصيد، وإيذاء الحيوانات، أو أن يركب في عربة حربية.[112]

Brahmacarin (أي الحياة المقدسة) كانت إدخالاً في الحياة الفيدية. كان على المريد أن يكون طاهراً، ولا يرتكب أي عمل عنفي. ليس باستطاعته أن يأكل لحماً، أو أن يمارس قواعد الجلوس بجانب النار، أو التعرق، وضبط النفس. كان يحفظ الريغ فيدا، ويتعلم الإجراءات القربانية الصحيحة، والمعرفة التي كان يكتسبها ـ التي لا يمكن التعبير عنها في كلمات ـ كانت أكثر أهمية بكثير. التربية ـ في الهند لم تكن فقط مسألة اكتساب معلومات حقيقية، أو ممارسة التمارين النسكية التي كانت لا تقل أهمية عن دراسة النصوص ومع مرور الزمن، هذا كان يحوله، أي أن يرى العالم بشكل مختلف. العيش بين العالمين: العالم المقدس، والعالم الدنيوي كان يجعل brahmacarin مبجلاً على أنه شخص مقدس، ومعلمه كان لا يستغني عنه. بحلول القرن الثامن كان الكاهن البراهمي يُعَدُّ "إلهاً مرئياً"[113]، لأنه كان شخصاً يعرف علم الفيدا، وكان ممتلئاً بقدرة البراهمن التي أصبحت ظاهرة أثناء الطقوس. متحكماً بأحاسيسه باستمرار، وبقول الصدق في جميع الأوقات، ويطبق اللا عنف، ويتصرف بكل اتزان جلي تجاه الجميع، المعلم البراهمي كان تجسيداً

"للحياة المقدسة". فمن خلال محاكاة معلمه في أصغر التفاصيل اليومية، كان الطالب يصبح واحداً مع معلمه، ويتعلم المعنى الداخلي لمعرفة الفيدا. وهكذا كان المعلم قابلة يعمل يوماً تلو يوم كي يولّد الذات الجديدة في تلميذه، أي أتمان atman، التي باستطاعتها أن تزحزح الجبال.[114] وبعد أن يكتمل إدخاله، يستطيع البراهمي المكتمل أن يعود إلى العالم، يتخذ لنفسه زوجة ويشعل ناره المقدسة، ويؤدي واجبات طبقته، وأن يبدأ بتأسيس أسرة.

لكن في فترة ما في القرن الثامن، البراهميون البالغون الذين كان تدريبهم ورائهم لأمد طويل شعروا أنهم مجبرون على القيام بعزلة دون معلم ـ لكن هذا كما اعتقدوا ـ سيجعل تدريبهم الطقسي أكثر فاعلية.[115] مرة أخرى، كانوا يعتكفون في الغابة كي يعيشوا الحياة المقدسة. فبعضهم كان يفعل ذلك لمدة محدودة، لكن آخرين مارسوا الحياة المقدسة طوال حياتهم. فأثناء شعائر الفيدا، كان صاحب القربان والكهنة يقومون بصعود صوفي إلى السماء، وبوسعهم البقاء هناك لزمن قصير. العالمان الإلهي والدنيوي كانا متناقضين. فإذا نزل المضحي مباشرة إلى الأرض بعد البقاء في السماء ـ كما كان يُعتقد ـ فإنه سوف يموت حالاً. كانت هناك شعائر خاصة مصممة لنزع القداسة عنه بحيث يستطيع العودة بسلام إلى الزمن الدنيوي.

لكن الناسك لم يكن يريد القيام بهذا الإدخال ثانية، كان يريد أن يبقى في عالم البراهمن طوال الوقت، مما يعني أنه لم يعد باستطاعته أن يعيش في العالم بعد ذلك. المضحي كان يدير ظهره إلى المجتمع طوال مدة الطقس، لكن الناسك رفضه، وإلى الأبد.[116]

لقد فسر النساك الأوائل الحياة المقدسة تفسيراً مختلفاً. عاش بعضهم في المجتمع، واحتفظوا بنار مقدسة في معتكفاتهم في الغابة، مؤدين الطقوس هناك. وعاش آخرون في عزلة، ورجعوا إلى القرية ليشاركوا في القرابين من وقت لآخر. بدأ بعض النساك يشعرون أنهم معادين إيجابياً للعبادة الخارجية.[117]

ففي الليلة السابقة لمغادرته بيته كي يتخذ سكناً دائماً في الغابة، كان أحد هؤلاء النساك الراديكاليين يجمع كل أواني القربان الخاصة به، ويضرم ناراً جديدة. وفي اليوم التالي، كان يستحم، ويحلق شعر رأسه ولحيته، ويرمي آخر قربان من الزبدة أو الحليب في الموقد، ثم يطفئ النار. قيل إن هذه الشعيرة كي يستبطن الناسك النار المقدسة التي يحملها من الآن فصاعداً داخل نفسه. لقد كانت هذه الشعيرة لإنهاء جميع الشعائر، هذا هو التصرف الأخير قبل مغادرته القرية إلى الأبد. بعدئذ يرتدي مئزره الأصفر، يحمل وعاء التسول وعكازه، وينطلق كي يجد غورو ـ معلماً ـ يعلمه مبادئ حياته الجديدة.[118] كان الناس يعتبرون حياته المقدسة شكلاً قربانياً أعلى. ناره المقدسة تحترق داخله، وكان ذلك جلياً في كل نَفَس كان يستنشقه فكل وجبة كان يأكلها، كانت تقدمة إلى هذه النار الداخلية غير المرئية. لم يكن هناك حاجة لرمي حطب في النيران الجسدية. قال مصلحو الطقوس إن أتمان شخص هو نفسه الداخلية، إنه براجاباتي، وهو الأضحية، ولذلك لماذا نمضي عبر حركات خارجية؟ فالناسك لم يكن يتخلى عن القربان، بل يجعله فعلاً داخلياً.

كان يسأل: ما هو القربان الحقيقي؟ من هو البراهمن الحقيقي؟ الكاهن الذي يؤدي شعيرة خارجية، أم الناسك الذي يحمل ناره المقدسة داخله حيثما يذهب؟"[119]

وهذا أحدث الإنتقال الذي كان يفهم خارجياً إلى دين أصبح يمارس داخل النفس.

كان النساك من أوائل الذين أنجزوا هذا الاستبطان الداخلي للدين، وهذا هو إحدى سمات العصر المحوري. لقد قال الطقوسيون ومنذ أمد بعيد إن شعائر القرابين قد أوجدت الذات الإلهية الأزلية، وأن القربان كان "أتمان"، وأن الطقوس احتوت قدرة البراهمن. لكن النساك نقلوا ذلك خطوة أبعد من ذلك. فأتمان المرء قد يمده بإمكانية الوصول إلى القدرة التي كانت تبقي الكون متماسكاً. والنسك، والزهد، وطرائق الحياة المقدسة ستوحد الناسك مع البراهمن الذي هو محتوىً بطريقة غامضة داخل أتمانه، أي نواة وجوده.

كانت الحياة في الغاية قاسية ومؤلمة: تضحية لا تنتهي. لكن، وبشكل تدريجي، ظهر نوعان من النساك - جنباً إلى جنب، يتنافسان لكسب أفراد جدد. فالناسك المتوحد عزل نفسه جسدياً عن القرية وعن المجتمع البشري، وسكن في الغابة يقتات على الجذور والثمار، ومارس شظف العيش. وعاش البعض مع زوجاتهم وأطفالهم، وبنوا منازل في الدغل، وفي الوسط الموقد المقدس. لم يكن باستطاعة المتوحد أكل الطعام المزروع في مستوطنة، لكن كان بإمكانه أكل لحم حيوان قتلته الضواري. كل سلوكه كان مشاركة البرية، فكان رجل الغابة، المقابل لرب الأسرة، المستوطن. أبقى على شعره طويلاً أشعث، وملابسه من لحاء الشجر، ولم يكن يسمح له السير في الحقول المفلوحة، رمز الحضارة البشرية.

أما الناسك فكان أكثر راديكالية، وانسحابه كان آيديولوجياً أكثر مما كان جسدياً. كان يسمح له أن يتسول طعامه في القرى، لكن لا يسمح له أن يكون له بيت ولا صومعة حتى في الغابة، لا فراش، لا جنس، لا نار، لا طقس، ولا ممتلكات.

كان مسموحاً له البقاء في مكان واحد أثناء الأمطار الموسمية، وكان عليه أن يبقى في حالة ترحال، لا يقضي أكثر من ليلتين في أي موقع. كان عليه أن يمارس انضباطاً ذاتياً حديدياً، وأن يتحكم بكلامه وأحاسيسه. لم يكن على شاكلة المتوحد بشعره المنكوش الملتف، كان الناسك يحلق رأسه ويمارس اللاعنف، وامتنع عن إضرار البذور، ويعامل جميع الحيوانات المعاملة ذاتها، سواءً كانت تسبب له أذى أو تعامله بلطف.[120] على شاكلة براهمن الذي قلل خصومه إلى الصمت في مسابقة brahmodye، يجب أن يكون الناسك "حكيماً صامتاً، يسعى جاهداً إلى بلوغ حقيقة تقع خلف الكلمات.

السند العقلي لهذا الزهد الصارم تم تقديمه في " نصوص الغابة" التي طورت تفسيراً باطنياً عويصاً للشعائر القديمة. الصوم، التبتل، وشظف العيش، لم تعد مجرد تحضير للطقس مثلما كانت في الدين الفيدي القديم، بل كانت الطقس

ذاته. فالزهد "يُسخّن الفرد في نيران النفس، مثل أضحية قربانية، وأعماق نفس الناسك كانت هي القربان، الذي يتضمن الحقيقة العليا للبراهمن. وبما أن الآلهة كانت موجودة داخل البراهمن، فهي أيضاً كانت تستقر في قلب كيان الفرد. فمن خلال توجيه تقدمته التي رفعت إلى مستوى روحي داخله، كان الحكيم الصامت يضحي إلى الآلهة الداخلية والخارجية التي كانت فعلاً واحداً، ونفسها.

لقد نمت الروحانية الجديدة عضوياً ومنطقياً من القديم. أولاً أصلح الطقوسيون المسابقات القربانية الصاخبة القديمة، حيث كانت الحلبة القربانية تغص بالمشاركين. في شعائرهم الجديدة أصبح المضحي شخصاً واحداً، بعد ما كان منقطعاً عن المجتمع الدنيوي أثناء الطقس. أما الناسك فقد أخذ هذه العزلة إلى مرحلة أبعد. لكن على الرغم من أن التراث اللاحق سيقدم الناسك على أنه براهمن المثالي، وحاول أن يدمجه في العقيدة الفيدية، إلا أنه في حقيقة الأمر تحدى النظام كله.[122] أعجب الناس بالنساك، ورؤهم أبطالاً روحيين، يشقون بكل شجاعة درباً روحياً بصفتهم رواداً. لقد أعلن الناسك استقلاليته عن القرية، وعاش في عالم من صنعه هو، ولم يخضع لأية طقوس، ولم يؤد أياً من الواجبات الاجتماعية العادية، وتبنى حرية راديكالية. في وقت أعلنت فيه الآيديولوجيا الاجتماعية العادية أن طريقة حياة الإنسان كانت تحددها الطبقة التي ولد فيها، لكن الناسك صنع قراراته الخاصة. كان الناسك فرداً يعيش لوحده ولذاته. كان رب المنزل جزءاً من شبكة اجتماعية مع معيليه وأطفاله. بطل العصر المحوري الجديد لم يكن بطلاً محارباً، متباهياً بكل فخر ببسالته العسكرية، بل راهباً مكرساً نفسه إلى اللاعنف. مصمماً على اكتشاف المطلق من خلال أن يصير مدركاً لنواة وجوده. كان النساك يسعون لبلوغ الاستنارة التي كانت ايضاً يقظة لذواتهم الحقة.

الفصل الرابع

معرفة

(من 700 حتى 600 ق.م)

بلغ الدين الفيدي النضج في الكتب المقدسة التي تعرف باسم الأبانيشاد، والتي تسمى أيضاً فادانتا "أي نهاية الفيدا". استمد الدين الفيدي القديم إلهامه من هجرة لا تتوقف، والاستيلاء على منطقة جديدة. لقد انبثق من عالم نزاع عنيف. ففي الأبانيشاد، انطلقت مجموعة من النساك في موضوع الفتح السلمي للفضاء الداخلي. فكانت هذه نقطة علام لخطوة رئيسية إلى الأمام في تاريخ الدين. لقد استبدل الطقس الخارجي باستبطان قوي، مع ذلك لم يعتبر هذا أنه تجديد بل إنجازاً لتراث قديم. الأبانيشاد الكلاسيكي الثالث عشر الذي أنتج بين القرن السابع والثامن منح نفسه المكانة التي منحت للريغ فيدا، كلاهما كانا موحيين، ويعتبران كتاباً مقدساً بامتياز. ليس من السهل تفسيرهما، لكنهما كانا مؤثرين أكثر في تشكيل الروحانية الهندوسية مما كان أي جزء آخر من الكتب الفيدية.

ظهر جزءا الأبانيشاد الأقدم بالتتالي في عالم البراهميين، مثل Aranyaks أو نصوص الغابة كانت نصوصاً خاصة مضافة إلى شروحات براهمانا لمختلف مدارس الكهنوت. الأول من الأبانيشاد أسمى نفسه Aranyaka وBrhadaranyaka أبانيشاد هو "نص الغابة العظيم" لمدرسة white yajur veda استهلت بمناقشة لقربان الحصان الفيدي، واحد من أهم الاحتفالات الملكية وخصوصية white yajur veda. مؤلف الأبانيشاد أوضح الروابط بطريقة تقليدية، مماهياً أقساماً

متنوعة من جسم الحصان مع العالم الطبيعي. فرأس الحصان كان الفجر، وعيناه الشمس، ونفسه كان الريح. لكن في الأبانيشاد كان بالإمكان تأدية الطقس ذهنياً. ما عاد مرتبطاً بقربان خارجي مادي، بل كان يحدث كلياً في ذهن الحكيم (rishi).

الشاندوغيا أبانيشاد كان النص الفيدانتي vedantic لدى كهنة udgatr الذين كانوا مسؤولين عن الإنشاد، وكانت تبدأ بشكل ملائم بالتأمل، المقطع المقدس "أوم Om"، الذي كان يستهل الكاهن به كل ترنيمة، فالصوت كان دائماً إلهياً في الهند، الحقيقة البدئية، لأنه - كما قيل - كل شيء آخر مستمد منه. جعلت الشاندوغيا هذا المقطع الوحيد يمثل كل صوت، يمثل الكون كله. Om كان جوهر كل شيء كان موجوداً:

الشمس، والقمر، والنجوم. فالبراهمن كان في شكل صوت، القدرة الحية التي تبقي على كل شيء متماسكاً "مثلما أن جميع الأوراق يحملها ساق، كذلك كل كلام يحمله om. حقاً العالم كله هو لا شيء إلا om"[1] لكن الترنيمة لم تكن فقط حقيقة متعالية خارجية بالنسبة للكاهن الذي يرتلها، بل كان واحداً مع الجسم البشري، مع الأتمان، مع النفس والكلام، والأذن، والعين، والعقل. لقد وجهت الشاندوغيا ابانيشاد اهتمام المستمع إلى النفس الداخلية. عندما كان كاهن يرتل هذا المقطع المقدس مع وجود هذه الروابط بإحكام في عقله، فإنه كان يبلغ الغاية من السعي الروحي، لأن om كان البراهمن، لقد كان "الخالد الذي لا يخاف".[2] وأي شخص ردد هذا الصوت - الخالد الذي لا يخاف - وهو يفكر بهذه الروابط سيغدو خالداً وخالياً من الخوف.

هذا يجعلنا في قلب النظرة الأبانيشادية إذ لم يعد التركيز على الأداء الخارجي للشعيرة، بل على معناها الداخلي. فلم يعد كافياً تأسيس الروابط بين الطقسي والكون فقط، بل كان عليك أن تعرف ماذا كنت تفعل، وهذه المعرفة ستأخذك إلى البراهمن، أرض الوجود. لم يعد المتعبد يوجه اهتمامه إلى آلهة خارج ذاته، بل تحول إلى الداخل "لأن في حقيقة الأمر، كل من هذه الآلهة هو خلقه

الخاص، لأنه هو نفسه جميع هذه الآلهة."[3] تركيز الأبانيشاد كان على أتمان ـ أي النفس التي كانت متماهية مع البراهمن. فإذا استطاع الحكيم أن يكتشف النواة الداخلية لوجوده، فإنه ـ آلياً ـ سوف يلج في الحقيقة المطلقة، ويحرر نفسه من رعب الموت.

بالنسبة لإنسان من خارج الدين، سيبدو هذا غير معقول ومجرد سلسلة أقوال مجردة، من المحال تأكيد صحتها. وفي الحقيقة، من الصعب جداً إتباع تعاليم الأبانيشاد.[4] لم يعطنا الحكماء شرحاً عقلانياً لأفكارهم. فالنصوص ليس لها نظام، ومنطق يبدو غالباً غريباً. فبدلاًمن نقاشات عقلية، لدينا أوصاف لتجارب وآراء، وحكم وأحاجي من الصعب اختراقها. عبارات محددة تتكرر، تحمل وزناً من معنى لا يستطيع الغربي أن يشاركهم بها بسهولة. "هذه النفس هي البراهمن"[5] كما يخبرنا الحكيم. ذلك هو المبدأ، الشاندوغيا هي أكثر اختصاراً في التعبير: "ذلك أنت تكون"[6] كما يقول الحكيم لابنه، "هذه هي الأقوال العظيمة" لكن من الصعب أن نرى لماذا علينا أن نقبلها. فبدلاً من تطوير نقاش منهجي، قدم الحكماء ـ غالباً ـ لمستمعيهم مساراً لرؤىً لا علاقة لها بالموضوع كما يبدو. وأحياناً فضلوا أن يقدموا معلومات سلبية، بإخبارنا ماذا لم تكن القضية. وهذا مانجده عند الحكيم الأهم yajnavalkya في أبانيشاد brhadaranya ka الذي رفض أن يحدد ما عناه بكلمة أتمان.

عن هذه النفس [أتمان] يستطيع المرء أن يقول فقط " ليس ـ ـ ـ ليس "

إنه عصي على الفهم، لأنه لا يمكن فهمه. إنه لا يتحلل لأنه ليس مادة خاضعة للإنحلال. إنه لا يملك شيئاً ملتصقاً به، لأنه لا يلتصق بشيء. إنه ليس مقيداً، مع أنه لا يرتجف من خوف ولا يخشى الأذى"[7]

غالباً ما ينتهي النقاش بأن يخيم الصمت على أحد المتناقشين، غير قادر أن يكمل، وهذا يعطينا دليلاً. الحكماء يسيرون المنافسة التي حاول فيها المتنافسون أن يصوغوا سر البراهمن. كانت المنافسة تنتهي دائماً بالصمت، للدلالة على أن الحقيقة تقع خارج إمكانية الكلام والمفاهيم: "الأقوال العظيمة"

ليست في متناول أساليب التفكير العادي الدنيوية. إنها لا تبدأ من المنطقي أو الإدراك الحسي، بل بالإمكان فهمها بعد فترة طويلة من التدريب والتفكير، وتنمية عادة الاستبطان الداخلي فقط، الذي يغير أسلوبنا في النظر إلى أنفسنا والعالم. فقارئ لا يتبنى الطريقة الأبانيشادية لن يكون قادراً أن يفهم استنتاجاتها.

كلمة أبانيشاد تعني " الجلوس بالقرب من". كانت هذه معرفة غريبة اكتسبها حكماء لديهم ميول صوفية إلى مريدين موهوبين روحياً كانوا يجلسون عند أقدام الحكماء. إنها لم تكن من أجل كل شخص. معظم الآريين استمروا في عبادتهم وقرابينهم وفق الطريقة التراثية، لأنهم كانوا يفتقرون إما إلى الموهبة أو الرغبة بالقيام بهذا السعي المضني الطويل. كان الحكماء يستكشفون طريقاً جديدة ليكونوا متدينين. من خلال النفاذ إلى العالم غير المكتشف من النفس، كانوا رواداً، وقلة من الموهوبين فقط استطاعت أن ترافقهم. لكن الحياة كانت تتغير، مما كان يعني أن بعض الناس كانوا بحاجة لأن يجدوا روحانية تلبي ظروفهم المتغيرة. الأبانيشاد الأولى كانت موضوعة في مجتمع كان في بداية التحول إلى المدينية.[8] هناك القليل من الصور الزراعية في هذه النصوص، وفيها إشارات كثيرة إلى الحياكة، وصنع الفخار، واستخراج المعادن. كان الناس يسافرون مسافات بعيدة كي يستشيروا هؤلاء الحكماء، مما يعني أن الانتقال كان يتطور.

فالعديد من النقاشات كانت تحدث في بلاط الراجا raja ـ الزعيم القبلي. وأن الحياة كانت تصبح أكثر استقراراً، وكان لدى البعض وقت أكبر للراحة من أجل التفكير.

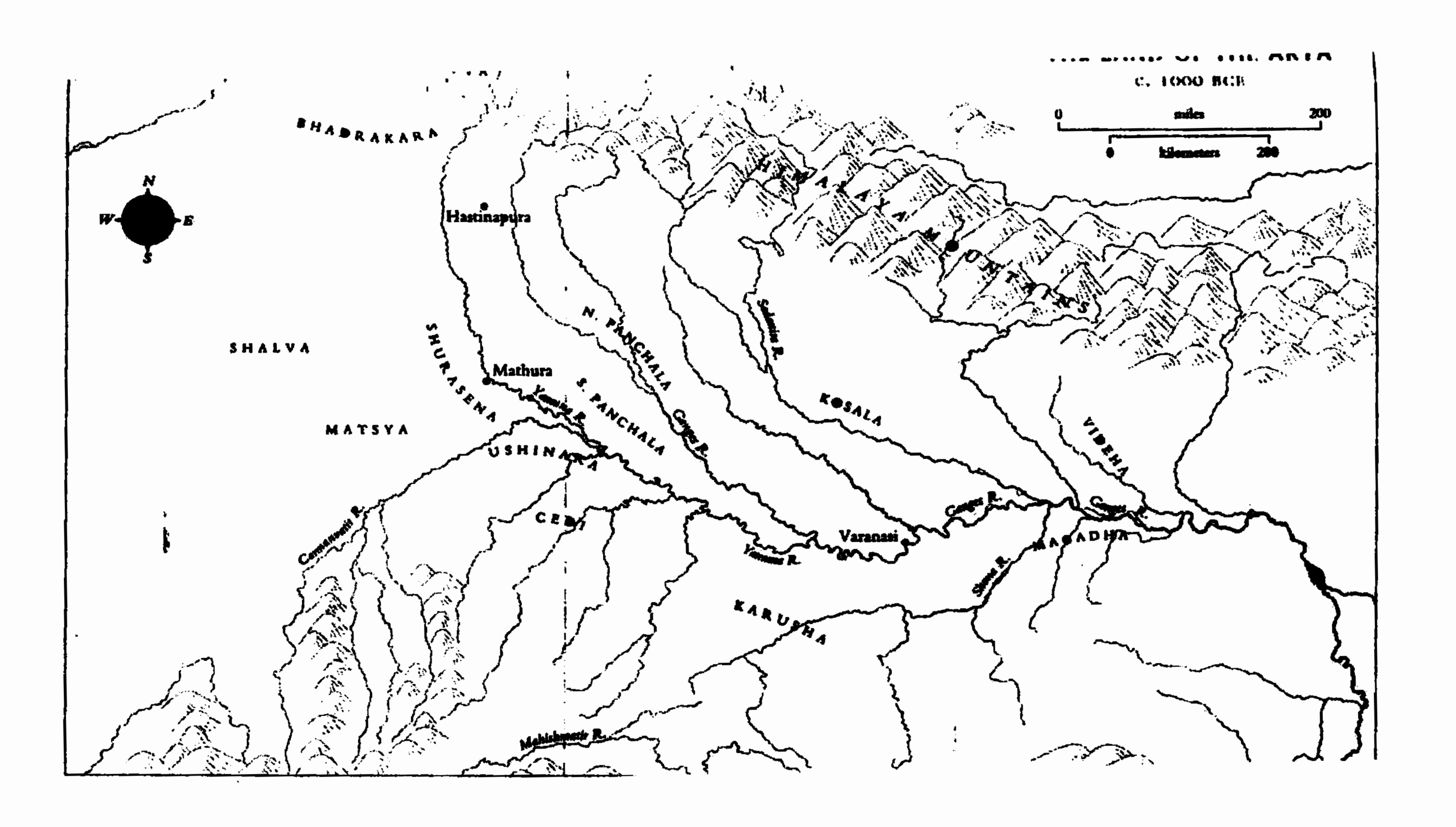
قد يكون من المؤكد أن brahadaranyaka كتبت في مملكة videha ـ ولاية حدودية في أبعد نقطة شرقية للتوسع الآري في القرن السابع.[9] تعرضت هذه المملكة للسخرية لأنها لم تكن معقدة، مستحدثة المكانة من قبل البراهميين في المناطق الشرقية، من ضمنهم المستوطنين الهندو ـ أوربيين من موجات هجرة أكثر

قدماً، ومن قبائل من إيران (عرفت لاحقاً باسم Malla وwajji، وsakya) بالإضافة إلى شعوب كانت مجاورة للهند. هذه المسابقات كانت محفزة فكرياً حيث كان منكرو النفس يولّدون أفكاراً جديدة وهم يجريون أسلوب حياتهم الزهدية.

يعكس أقدم جزئين من الأبانيشاد هذه الحماسة الروحية والفكرية المركزة. لم يكتب مؤلف واحد brahadranyka ولا الشندوغيا، لأنهما كانتا مجموعتين لنصوص منفصلة جمعها مُدوّن لاحقاً. لقد اعتمد المؤلفون والمحررون على مخزون مشترك من النوادر التي كانت متداولة في البلاط والقرى. لم يفكر الناس بالسفر من gandahara إلى videha التي كانت تبعد ألف ميل ـ كي يستشيروا أحد المعلمين المرموقين في عصرهم. Sandiliya الذي فكر بطبيعة الأتمان، وjanaka ملك videha، وpravahna ملك panchala kurau، وajatasharta ملك kasha، وsanatkumara الذي كان مشهوراً بعزوبيته طوال حياته.[10]

ربما أن هذه الأفكار الجديدة طورها أصلاً كهنة Brahmin، لكن kshartyas وملوك آخرون ساهموا في المناظرات والنقاشات، والنساء كذلك خاصة gargi vacaknavi زوجة maittreyi yajanaly. يبدو أن كلتا المرأتين كانتا تحظيان بقبول المتنافسين في brahmodya، وقد ضمن مساهمتيهما محررون آخرون. لكن الحكيمين الأكثر أهمية في الأبانيشاد هما yajnavalkya من videha وuddalaka aruni المعلم المشهور لمنطقة كورو ـ بانشالا، وكلاهما كان مؤثرين في النصف الثاني من القرن السابع.[11]

كان ياجنا فاليكا الفيلسوف الشخصي للملك جاناكا ملك فيدها الذي كان مؤيداً للروحانية الجديدة. على شاكلة جميع حكماء الأبانيشاد، كان مقتنعاً وكأنما هناك جمرة أزلية في قلب الشخص البشري، التي ساهمت ـ لكونها في نفس الطبيعة ـ في براهمن الأزلي، والتي تمد وتعطي الحياة إلى الكون كله. كان هذا اكتشافاً ذا أهمية هائلة، وسيصبح رؤية مركزية في



c. 1000 BCE
0 miles 200
0 kilometers 200
N
W
E
S
BHADRAKARA
Hastinapura
SHALVA
SHURASENA
Mathura
MATSYA
Yamuna R.
N. PANCHALA
S. PANCHALA
Ganges R.
USHINARA
CEDI
Sadanira R.
KOSALA
VIDEHA
HIMALAYA MOUNTAINS
Varanasi
Yamuna R.
MAGADHA
Sona R.
KARUSHA
Mahishmati R.

كل تراث ديني رئيسي. فالحقيقة المطلقة كانت حضوراً محايثاً في كل كائن بشري، وبالتالي بالإمكان اكتشافها في أعماق النفس، أتمان. كان البراهميون قد توصلوا مسبقاً إلى أن نواة الكائن البشري ـ يعرف بشكل متنوع مثل النَفَس، الماء، أو النار، كانت مطابقة للقربان، وتلك الطاقة في قلب القربان كانت Brahman، جوهر كل شيء موجود.

طور ياجنافالكيا وحكماء الأبانيشاد الآخرون هذا المفهوم، وحرروه من الطقس الخارجي. ما عاد الأتمان مجرى النَفَس الذي أمد الكائن البشري بالحياة، بل ذلك الذي يستنشق ويزفر، إنه كان القوة خلف جميع الحواس، ولذلك كان خارج إمكانية الوصف. "انت لا تستطيع أن تسمع السامع الذي يقوم بالسماع. أنت لا تستطيع أن تفكر مع المفكر الذي يقوم بالتفكير، ولا تستطيع أن تدرك المدرّك perceiver الذي يقوم بالإدراك. النفس الداخلية في الكل [براهمن] هي أتمانك"[12] فلأول مرة كانت الكائنات البشرية منهجياً تجعل نفسها مدركة للطبقات الأعمق من الوعي البشري. من خلال استبطان منظم كان حكماء عصر المحور يوقظون على المجالات الشاسعة للنفس لـ self hood التي تقع تحت سطح عقولهم. إنهم كانوا يصبحون "مدركين للنفس" تماماً.

لأن النفس كانت مطابقة للبراهمن الأزلي الذي لا يتغير، كانت أيضاً "خارج الجوع والعطش والحزن والضلال، والشيخوخة والموت"[13] شرح ياجنافالكا لزوجته:

"انها غير قابلة للفناء .... ولا سبيل لتدميرها". لكن مثل البراهمن ذاته، كانت متعالية "لا سبيل إلى فهمها. فقط كان ممكناً تعريف أو فهم شيء ما عندما كان هناك ثنائية. فالشخص يستطيع أن يرى، يتذوق، أو يشم شيئاً منفصلاً ومعزولاً عنه أو عنها. لكن عندما "الكل (براهمن] قد أصبح النفس ذاتها [أتمان]، عندئذ من يوجد هناك ـ بالنسبة له ـ كي يراه، وبأية وسيلة؟ من يوجد هناك ـ بالنسبة لي ـ لأفكر فيه، وبأية وسيلة؟".[14] كان من المحال ان تدرك الشخص المدرك ضمن ذات المرئ. لذلك يمكنك أن تقول "ليس هذا ". لقد

أكد الحكيم وجود الأتمان، بينما في الوقت ذاته، أنكر أنه يحمل أي شبه بأي شيء معروف عن طريق الحواس.

الغاية من الروحانية الجديدة كانت معرفة مالا سبيل إلى معرفته [أتمان]. كيف بالإمكان تحقيق ذلك؟ لم ينقل ياجنافالكيا معلومات حقيقية، بل استخدم الشكل التقليدي للمناظرة كي يوضح لمحاوره أنه عندما كان يتكلم عن براهمن أو أتمان، إنما كان قد وصل إلى نهاية ما تستطيع وسائل الفكر العادي إنجازه. كان هذا الأسلوب مماثلاً للطريقة الديالكتيكية التي طورها سقراط لاحقاً. فعن طريق استبعاد تعريفات خصمه غير الكافية لأتمان، مفككاً إياها واحدة تلو أخرى، كان ياجنافالكيا يوصل محاوره من التفكير بالظواهر الخارجية إلى حقائق العالم الداخلي الأكثر صعوبة على الفهم. فعلى سبيل المثال عندما عدد الملك جاناكا ما قاله براهميون آخرون عن الأتمان ـ أنه كان: الكلام، أو النَفَس، أو العين، أو الريح، أو القلب ـ أصرّ ياجنافالكيا على أن هذه الإجابات كانت نصف صحيحة فقط.[15] إنهم كانوا يبحثون عن مرتكز عند أساس هذه الظواهر كي تدعمها، مثلما تدعم الأساسات منزلاً. إنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا، بل فقط شاركوا في هذه الحقيقة الأكثر جوهرية، عاشوا فيها كما تعيش في منزل. فمن خلال الإزالة المنهجية لطبقة بعد طبقة لمعرفة سطحية، كان ياجنافالكيا يقود تلاميذه كي يدركوا حقائق يومية كتبديات للمطلق، وأن يروا أن نواة النفس لم تكن الفرد. "فالأنا I" التي حكمت حياتنا اليومية ملتحمة في، وكأنها مع احتياجاتنا الجسدية، والرغبات والمخاوف، لكن حقيقة مطلقة بطرقها الخاصة.

يجب عليهم القيام ببحث طويل وبطيء من أجل اكتشاف النفس. فكان هذا واحداً من أكثر التعابير وضوحاً عن المبدأ الأساسي للعصر المحوري. فالأشخاص المستنيرون يكتشفون داخل أنفسهم الوسيلة للارتقاء فوق العالم، إنهم سوف يجربون التسامي من خلال سبر خفايا طبيعتهم، وليس فقط من خلال المشاركة في طقوس سحرية.

بدلاً من مناقشة الطقوس الخارجية للعبادة كما فعل مصلحو الطقوس، بدأ ياجنافالكيا باستكشاف البنية النفسية للكائن البشري لتحديد مكان النفس الحقة.

الشخص الداخلي inner person الذي يحيي " الأنا I" في حياتنا الدنيوية. كان علينا المضي إلى ما وراء هذه "الأنا I" لكي نكتشف أشكال وجود مختلفة عن وعينا العادي، الذي يتحكم به إدراك حسي، والإدراك السليم، والتفكير العقلاني.

لقد علّم ياجنافالكيا تلاميذه أن يتأملوا حالات أحلامهم، أي عندما لا يكونون مقيدين بمكان أو زمان. ففي أحلامنا نفكك العالم الخارجي قطعاً، ونخلق مباهجنا الخاصة، ومسراتنا ومتعنا. إننا نصبح خالقين مثل براجاباتي، جالبين إلى الوجود بُركاً، وعربات، وطرقاً، ومجموعات ثيران، ونبني عالماً جديداً كلياً من خلال "النور الداخلي الموجود في قلوبنا".[16] في الأحلام نصبح مدركين لنفس أعلى، أكثر حرية لأننا نكون قد انعتقنا من قيود الجسد، لوقت قصير. إننا نرى أيضاً كوابيس عندما نصبح مدركين لألمنا، وخوفنا، ورغباتنا. لكن في النوم العميق ـ أي دون حلم ـ تنعتق النفس حتى من مظاهر النشاط العقلي هذه. في نوم عميق يكون الشخص "خارج الخوف ـ كما اعتقد ياجنافالكيا ـ ليس نسياناً، بل حالة من وعي مُوَحَّد. شبهه بتجربة الاتصال الجنسي عندما "تحتضن امرأة رجلاً يحبها، أي حالة نسيان لكل شيء سواء في داخلها أو خارجها". إنه يفقد كل إحساس بالثنائية: "لا يوجد هناك حقيقة ثانية لدرجة أنه يستطيع أن يراها كشيء مميز ومنفصل عنه".[17] شعور بالوحدة oneness، الذات تشعر بـ ananda أي "نعمة البراهمن".

لكن الإنعتاق المؤقت الذي نشعره في النوم أو في لذة الجماع هو فقط طعم مسبق للإنعتاق الدائم الذي هو غاية المسعى الروحي، تجربة انعتاق وهدوء تامين. حالة الاستنارة هذه تتأتى عندما يشعر الحكيم بالأتمان. في حالة وحدة مع النواة الداخلية لوجوده، إنه " يصير هادئاً، ومتماسكاً، وبارداً، وصبوراً، لأنه يكون

في عالم البراهمن، مغموراً بالبراهمن الأزلي الذي لا يخاف. إنه "خالٍ من الشر، خال من الدنس، خال من الشك"، لأنه يعرف "النفس غير المولودة والهائلة، لا تشيخ ولا تموت، خالدة، وخالية من الخوف". إنه يعرف البراهمن، وهو نفسه قد تحرر من الرعب والقلق"[18]

معرفة النفس كانت تجربة نعمة نقية، غبطة ekastasis. هذه المعرفة تقع خارج المفاهيم، ولا تعتمد على الاستنتاج المنطقي، بالأحرى كانت وعياً "لنور داخلي في القلب"، حدس مباشر وفوري، خارج أية سعادة عادية. هذه المعرفة قد حولت الفرد. بالإمكان اكتسابها فقط بعد تدريب مديد في الانكفاء على الداخل، استطاع الطامحون بلوغها من خلال ممارسة الطريقة الديالكتيكية لـ ياجنافالكيا:

بأسلوب منهجي لتفكيك عادات التفكير التقليدية، وتنمية إدراك لعالمهم الداخلي، ولأحلامهم وحالاتهم ما دون الشعورية، ومن خلال تذكير أنفسهم باستمرار أن المعرفة التي سعوا إليها كانت خارج الكلمات، ونظام مختلف كلياً عن أفكارهم وتجاربهم الدنيوية. استطاع بذلك أن يعلّم الطريقة التي مكنت تلاميذه من الوصول إلى هذه الحالة.

اعتقد ياجنافالكيا أن شخصاً يعرف ذلك، الذي حقق تماهيه أو تماهيها مع براهمن، سوف يذهب إلى عند براهمن عند الموت، آخذاً معرفته معه. في الطقس الفيدي التقليدي شخص بنى النفس التي ستعيش في عالم الآلهة من خلال طقس القربان karma، لكنه بالنسبة لـ ياجنافالكيا ـ خلق نفس خالدة لا يتم من خلال الشعائر الخارجية، بل عن طريق هذه المعرفة المكتسبة. بينما اعتقد الطقوسيون أن النفس كانت تبنى من خلال تراكم مخزون قرابين تم تنفيذها بشكل تام، لكن ياجنافالكيا كان مقتنعاً أن النفس الأزلية كانت مشروطة بجميع أعمالنا وتجاربنا. "ما يصير عليه المرء يعتمد على كيف يسلك، وعلى كيف يتصرف فإذا كانت أفعاله جيدة، فإنه سوف يتحول إلى شيء جيد، وإذا كانت سيئة، فإنه يتحول إلى شيء سيء". لم يكن ياجنافالكيا يتحدث فقط عن أفعالنا الخارجية

فقط، لأن انشطتنا العقلية، ودوافع الرغبة لدينا، ومشاعر الارتباط، كانت أساسية أيضاً. فبعد وفاة امرئ كانت رغباته تتعلق بأشياء هذا العالم، فإنه يعود إلى الأرض بعد إقامة قصيرة الأمد في السماء. عقله وشخصيته ما يزالان معلقان بالدنيوي، ولذلك سوف يولد ثانية كي يحتمل حياة جديدة، هنا على الأرض. "يعود إلى هذا العالم، يعود إلى العمل". لكن امرئاً سعى إلى نفسه الخالدة فقط ولم يكن مرتبطاً بهذا العالم، فإنه كان ينتمي إلى البراهمن: "إنسان لا يرغب ـ إنسان دون رغبات ـ الذي تحرر من الرغبات، الذي رغباته ملباة، الذي رغبته هي نفسه ـ وأفعاله حية لا تغادر: إنه براهمن، وإلى براهمن يذهب"[19]، إنه لن يعود إلى حياة الألم والموت هذه.

هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها بالاعتقاد "بالعمل" كارما، الذي أوشك أن يصبح الروحانية الهندوسية الحاسمة. وهذه كانت فكرة جدلية وجديدة في زمن ياجنافالكيا. وعندما سأله صديقه البراهمي artabhage : ماذا يحدث للمرء بعد الموت؟ أجابه "لا نستطيع أن نتحدث عن هذا أمام الناس. فدعنا نذهب ونناقش هذا على انفراد".[20]

بدا الاعتقاد بالكارما أنه مدمر. كان يعتقد أن القربان من أجل ضمان إقامة أبدية في السماء، لكن بعض الناس كانوا يفقدون إيمانهم بجدوى الطقس، ياجنافالكيا وحكماء أبانيشاد آخرون كانوا قد بدأوا يعتقدون ذلك أيضاً. فمهما كان عدد القرابين المقدمة بشكل تام، قد يكون على الإنسان أن يعود إلى عالم الموت والألم هذا مرة تلو مرة. لن يكون عليه أن يتعرض لألم الموت، بل سيكون عليه احتمال المرض والشيخوخة والفناء بشكل متكرر، دون أمل بانعتاق نهائي. إنه سيكون منعتقاً من هذه الدورة التي لا تتوقف (سامسارا samsara) من ولادة جديدة، وموت جديد، فقط من خلال معرفة النفس التي ستحرره من الرغبة بالأشياء الزائلة هنا على الأرض.

لكن من الصعوبة بمكان أن يصبح خالياً من الرغبة والارتباط. لأننا نتعلق غريزياً بهذه الحياة، وببقائنا الشخصي. إننا نعتقد أن فرديتنا تستحق أن نحافظ عليها، لكن الحكماء أصروا على أن هذا وهم. ما أن يصبح امرؤ مدركاً

لنفسه أنها كانت متماهية مع البراهمن، الذي احتوى العالم كله، فإن النفس تصبح شفافة كالبلور، إذ ليس هناك شيء يكسب من خلال التعلق بالحاضر، الذي هو وجود محدود. كان بعض الحكماء مقتنعين أن الطريقة الأفضل لبلوغ هذه المعرفة المحررة هو أن يصبح المرء ناكراً لنفسه، متخلياً عن المكاسب الدنيوية، والقضاء على الرغبة من خلال حياة التقشف والزهد. لم يكن هذا قد عُدّ إلزامياً بعد، لكن ياجنافالكيا تبنى حياة المكافح لبلوغها. ترك زوجته، وغادر بلاطه، ومضى في "حياة التشرد" في الغابة.[21]

بينما أودالاكا uddalaka ـ واحد من أكثر الحكماء أهمية في الشاندوغيا أبانيشاد ـ بقي رب أسرة براهمي في منطقة كورو بانشالا طوال حياته. هذه الأبانيشاد اختتمت بإثبات جدوى العيش الورع في العالم. ما أن أصبح رب أسرة حتى كان قد أكمل فترة دراسته لـ brahmacarin، وكان عليه أن يعود إلى البيت، كي يضع كل شيء تعلمه من معلمه قيد الممارسة. كان عليه أن يردد نصوص الفيدا المقدسة، وأن يربي أطفاله، ويتفكر، ويمارس اللاعنف، ويتصرف بطيبة تجاه الآخرين. "شخص يعيش طوال حياته وفق هذه الطريقة، يدخل عالم البراهمن، ولا يعود إلى هذا العالم ثانية.[22] اتفق أودالاكا الرجل الطيب المهذب في الأساسيات مع ياجنافالكيا. لقد رأى براهمن الحقيقة المطلقة أنها مطابقة مع أتمان الكائن البشري، وعلّم عقيدة الكارما الجديدة، وتأمل في تجرية النوم كمرحلة تسبق الاستنارة. كلاهما كانا مقتنعين أن الانعتاق من الدورة المؤلمة للموت والولادة ثانية كانت هي الغاية من الحياة الروحية، ولا يمكن بلوغ ذلك بممارسة طقوسية خارجية، بل فقط من خلال البحث عن معرفة داخلية.

في الفصل السادس من الشاندوغيا نرى أودالاكا مُدْخِلاً ابنه شيفتاكو في التراث الباطني للروحانية الجديدة، لمحة ثمينة للطريقة التي يتم بها نقل هذه العقيدة. ابنه سيصبح في النهاية حكيماً مهماً وبجدارة لكن في هذا الفصل كان قد أنهى فقط مهمته المحددة لـ 12 سنة براهماكارين، وعاد إلى البيت "كبير الرأس، فخوراً، معتقداً أنه قد عرف كل ما يتوجب معرفته عن حياة

الفيدا.[23] لكن والده نسف كل هذه الثقة التي ليست في محلها، معلماً ابنه طريقة مختلفة في فهم العالم: نفسه والمطلق. بدأ بشرح أن ماهية أي شيء كانت لا تنفصم عن المادة التي يتكون منها هذا الشيء: الطين، النحاس أو الحديد. والشيء ذاته ينطبق على الكون، الذي هو بالأصل مكون من نفسه ـ بساطة غير مجزأة ومطلقة: "واحد فقط دون ثانٍ"[24]. مثل براجاباتي الواحد oneأكثر نفسه عن طريق الحرارة، التي نتجت في ذاته في النهاية مجالات المخلوقات كلها. بهذه الطريقة أصبح الواحد هو المصدر، الجوهر، وبذلك النفس الحقة لكل مخلوق: "الجوهر الأجمل هنا هو الذي يكون نفس هذا العالم كله"، كما أكد له أودالاكا مراراً. "تلك هي الحقيقة، تلك هي النفس [أتمان]، وأنت تكون ذاك ياشيفتاكو"[25].

تتكرر هذه الجمل مثل لازمة عبر الفصل كله معززة العقيدة المركزية. ابنه كان براهمن، الجوهر غير الشخصي للكون الذي يشير إليه أودالاكا وحكماء آخرون على أنه "ذاك" المختصرة الحيادية.

بيد أن التعليم الميتافيزيقي وحده لن يكون كافياً، إذ كان على شيفتاكو أن يوائم هذه المعرفة داخلياً، أي يجعلها خاصته، ويدمج هذه التعاليم الخارجية بالمشهد العقلي الشخصي لديه. وكما صاغ مفكرون لاحقون الأمر، كان عليه أن يحققها أي يجعلها واقعاً في حياته الشخصية. كما كان على أودالاكا القيام بدور القابلة ببطء وعناية في جلب هذه النظرة الجديدة حتى الولادة داخل ابنه. هذا لم يكن تعليماً أكاديمياً مجرداً تماماً، كان على الإبن آلا يستمع إلى شروحات والده الميتافيزيقية فقط، بل كان عليه القيام بمهمات تجعله ينظر إلى العالم بطريقة مختلفة. استمد أودالاكا من أمثلة الحياة اليومية، وجعل ابنه يقوم بدور فعال في سلسلة من التجارب. إحداها:

طلب من إبنه أن يترك مقداراً من الملح في كوب من الماء طوال الليل. في اليوم التالي كان الملح قد ذاب تماماً. لكن عندما طلب منه والده أن يتناول رشفة من أجزاء متنوعة من الكأس كان يسأله عن الطعم، وكان على الإبن أن يجيب

بأنه "مالح". الملح ما يزال في الكأس، "أنت لم ترَ الملح هناك يا بني، مع ذلك إنه لا يزال هناك" كذلك أيضاً كان البراهمن غير المرئي، جوهر وذات العالم كله. "وأنت تكون ذاك" يا شيفتاكو.[26]

البراهمن لا يمكن رؤيته، مثل الملح، لكن يمكننا أن نحس به. كان بادياً في كل شيء حي. كان الجوهر الرقيق في كل بذرة البانيان banian، التي تنمو منها شجرة ضخمة، وعندما شرّح شيفتاكو البذرة لم يستطع أن يرى أي شيء. شرح أودالاكا أن البراهمن كان النسغ الموجود في كل جزء من الشجرة يمدها بالحياة.[27] كذلك كان أتمان الشجرة، مثلما كان أتمان كل كائن بشري، جميع الأشياء تشترك في الجوهر ذاته. لكن معظم الناس لم يفهموا هذا. لقد تخيلوا انهم متفردين، وخاصين مختلفين عن كل كائن آخر على وجه الأرض. وبدلاً من تقدير الحقيقة الأعمق لوجودهم، تعلقوا بتلك الخصائص التي ـ ظنوا ـ أنها جعلتهم مهمين وذوي قيمة نفيسة. لكن في حقيقة الأمر، هذه السمات المميزة لم تكن أكثر أهمية وديمومة من الأنهار التي كانت تصب في نفس البحر وبعد اندماجها أصبحت المحيط، وما عادت تؤكد تفردها "أنا ذلك البحر"، "أنا هذا النهر". وبالطريقة ذاتها يا بني، عندما تصل جميع هذه المخلوقات إلى الموجود، فإنها تكون غير مدركة ان "نحن نبلغ الموجود"، فلا يعودون يتعلقون بتفردهم. سواءً كانت المخلوقات نموراً، ذئاباً، أسوداً أو بعوضاً "فإنها جميعاً تندمج في ذاك that، لأن ذاك هو ما هي عليه دائماً، ويمكنها أن تكون ذاك فقط. التعلق بالذات الدنيوية كان ـ لذلك ـ ضلالاً سوف يؤدي حتماً إلى الألم والفوضى. باستطاعة الناس الهروب من هذا من خلال اكتساب المعرفة المحررة العميقة بأن براهمن كان أتمانهم، الشيء الأكثر صحة فيما يتعلق بهم."[28]

لكن اكتساب هذه المعرفة لم يكن أمراً سهلاً. كيف تستطيع أن تجد الأتمان الذي لا سبيل إلى معرفته؟ الأتمان لم يكن ما يسميه الغربيون "الروح" أو "النفس".[29] الأبانيشاد لم تفصل الجسد عن الروح، بل رأت الكائنات البشرية ككل مركب. جعل أودلاكا ابنه يصوم 15 يوماً، سامحاً له أن يشرب قدر ما

يشاء، في نهاية الصيام كان ابنه ضعيفاً جداً، ويعاني من نقص التغذية لدرجة أنه لم يعد قادراً على تلاوة النصوص الفيدية التي كان قد أتقنها تماماً مع معلمه. كان قد تعلم أن العقل لم يكن فكراً محضاً، بل كان أيضاً "مكوناً من طعام، ونَفَس، وماء، وكلام، وحرارة."[30] الأتمان كان جسدياً وروحياً، كان ملازماً في القلب والجسم، اللب الداخلي الثابت مطلق جميع الأشياء، مادياً وسريع الزوال. لا يمكن مماثلته مع أية ظاهرة أو مقارنته بها. إنه " لا شيء"، ومع ذلك كان الحقيقة الأعمق لكل شيء"[31]

بالإمكان اكتشافها داخل الكائن البشري بعد جهد منضبط، ولفترة مديدة. كشف أعماق النفس استغرق سنوات طويلة عبر الصمت والانضباط الروحي الذي قاد الطامحين إلى إدراك عدم جدوى الرغبة بالأشياء العابرة فقط، وكان غباءً أن نثمن السمات الفردية التي كانت ليست أكثر أهمية من ذرات الطلع التي كانت تشكل أخيراً وعاءً من العسل.[32] يجب على المريد أن يعمل صابراً مع غورو (معلم) يساعده أن يرى ما كان موجوداً هناك حقاً، وعلى رؤية ما كان مهماً.

لم تتمرد الأبانيشاد الأولى على النزعة الطقوسية الفيدية القديمة، بقدر ما كانت انتقالاً إلى ما وراء الطقوس. ما لم يكن حكيم قد تعلم النظر من خلال الشعائر الخارجية إلى معناها الداخلي، فإنه لن يصبح مدركاً للحقيقة المطلقة للبراهمن في نواتها. قالت الشاندوغيا إن الكهنة الذين كانوا يرددون المقطع om دون تفكير، وآلياً، كانوا مثل كلاب تنبح من أجل الطعام.[33] الآلهة قد توارت في الخلفية. في هذه الأبانشياد المبكرة، براجاباتي، التعبير الشخصي للبراهمن، لم يعد الإله الخالق البارع، بل أصبح غورو عادي علّم تلاميذه أنه عليهم ألا يعيروا اهتماماً لبراجاباتي على أنه الحقيقة الأعلى - بل أن يبحثوا عن أتمانهم هم ((النفس الخالية من الشرور، الخالية من الشيخوخة والموت، المنعتقة من الحزن، والمنعتقة من الجوع والعطش، تلك هي النفس التي يجب أن تحاولوا اكتشافها))[34] كما يقول الغورو. كان على Devas وasuras أن تعلم هذه الحقيقة المهمة، وأن

تخضع لنفس التدريب المضني في الإستبطان الداخلي مثل كائنات بشرية. تروي الشاندوغيا قصة حول اللحظة التي سمعت Devas وasuras عن الأتمان لأول مرة. ((قالت إحداها للأخرى، تعالي نكتشف تلك النفس من خلال اكتشاف أية واحدة تحوز جميع العوالم، وجميع رغبات المرء تتحقق)) [35]. لذلك إندرا ممثلاً آلهته، وفيرو كانا أحد asuras البارزين وصل إلى عتبة باب براجاباتي في هيئة طالبين فيديين متواضعين حاملين الحطب لنار معلمهم. درسا على براجاباتي 32 سنة، لكنهما لم يقتربا من اكتشاف أتمان. طلب منهما براجاباتي أن يرتديا أفضل ملابسهما، وينظرا إلى صورتيهما المنعكسة في قدر ماء. ماذا شاهدا؟ نسخة عن نفسيهما، أجابا " ذلك هو الأتمان، ذلك هو الخالد". أخبرهم براجاباتي ذلك هو الواحد الخالي من الخوف، ذلك هو البراهمان.[36] غادرا مسرورين من نفسيهما، وأعاد فيروكانا هذه المعلومة إلى asuras. اخبرهم أن الجسد كان الأتمان. باستطاعة شخص أن يفوز برغبات قلبه في هذه الحياة، والحياة التالية من خلال العناية باحتياجاته الجسدية: لم يكن هناك حاجة إلى قربان أو طقس.

لكن قبل عودة إندرا إلى السماء، توقف عن السير فحتى جسد أنيق الملابس - كما أدرك - سيصبح كهلاً، مريضاً وأخيراً سيموت. لذلك رجع إلى براجاباتي حاملاً نار الحطب ودرس لمدة 69 سنة أخرى، غائصاً في داخل نفسه أعمق فأعمق. أخبره براجاباتي أن الأتمان كان يوجد في حالة الحلم، عندما تكون النفس متحررة من القيود الجسدية. في البداية، كان إندرا سعيداً بهذا التفسير. لكنه عندما فكر أن الشخص في النوم قد يشعر بالخوف، يخاف الموت، وقد يبكي، رجع إلى براجاباتي ثانية. أخبره براجاباتي أنه سيجد الأتمان في النوم العميق دون أحلام، عندما كان متماسكاً تماماً، وهادئاً. تلك هي النفس، تلك هذه الخالدة، هي الخالية من الخوف، تلك هي براهمن.[37] من جديد، جذبت الفكرة إندرا لكنه وجدها محبطة بعد فترة وجيزة. ففي حالة لا شعورية عميقة كهذه قد يكون المرء ميتاً. لذلك بقي مع براجاباتي خمس سنوات أخرى حتى كان مستعداً لسماع الحقيقة.

أخبر براجاباتي إندرا أن الشخص المستتير عليه أن ينظر إلى ما وراء عقله وجسده قبل أن يتمكن من أن يجد النفس الداخلية التي كانت مستقلة عن جميع وظائفه العقلية والجسدية. كان الأتمان هو الذي مكن إنساناً أن يشم، ويرى، ويفكر:

الواحد الواعي: "دعني أقول هذا" أن هذا هو النفس، المقدرة على الكلام تمكنه من أن يتكلم. الواحد الواعي "دعني أستمع لهذا" ذلك هو النفس، مقدرة السمع تمكنه من أن يسمع. الشخص الواعي "دعني أفكر في هذا" ذاك هو النفس، العقل هو قدرته الإلهية للنظر. هذه النفس ذاتها تغتبط وهي تدرك بعقله، بذلك النظر الإلهي أشياء الرغبة هذه موجودة في عالم براهمن.[38]

هذه القصة توضح السيرورة الطويلة لاكتشاف النفس. لم يكن باستطاعة المعلم أن يعطي تلميذه الأجوبة، بل باستطاعته أن يقوده فقط عبر مراحل الإستبطان الداخلي. فعندما كان يبدو أنهما وصلا إلى جذر المسألة، كان التلميذ يكتشف لوحده أن هذه لم تكن نهاية بحثه، وأن عليه أن يغوص أعمق. فحتى إندرا القدير قضى 101 سنة كي يكتشف الأتمان الذي أعطى الخلود للآلهة.[39]

كان حكماء الابانيشاد يبحثون عن جوهر الشخصية، وفي مسار تلك العملية كان يشعر البعض بسعادة وسلام لا يوصفان. أسمى المعلم براجاباتي الشخص الذي قام بهذه الرحلة الداخلية "الشخص الهادئ حتى الأعماق الذي يظهر في مظهر الحقيقي".[40] بطريقة ما قد وصل إلى نفسه، وليس من خلال اكتساب معلومات ممتازة، بل من خلال العيش بطريقة مختلفة. هذه العملية كانت مهمة مثل أهمية إنجاز الغاية النهائية. فامرؤ كان يقرأ فقط نص الشاندوغيا لا يستطيع بلوغ هذه التجربة.. لن يكون هناك استنارة مالم يقم الطالب حقاً بالتفكير، والقيام بالرحلة الطويلة الصعبة للاستبطان الداخلي. فما هو أكثر أهمية ـ التأمل الميتافيزيقي ـ كان فقط جزءاً صغيراً من الإدخال. كان على طالب الأبانيشاد أن يعيش حالة اكتفاء ذاتي متواضعة، وهذا كان

أساسياً مثل المضمون الفكري للسعي. إندرا ـ إله لم يتوقف عن التباهي بإنجازاته، كان عليه أن يجمع الحطب لمعلمه، وان يعتني بالنار، وينظف منزل براجاباتي، وان يكون طاهراً، يتخلى عن الحرب، ويمارس اللاعنف. كان حكماء البشر والآلهة يكتشفون تقانة روحية سوف تفعل فعلها إذا ما تخلى الناس عن الأنا المؤكدة للذات بعدوانية.

* * *

في هذه الفترة، كان الإغريق يتخذون طريقاً مختلفاً كلياً. فحين كان حكماء الهنود في العصر المحوري يتخلون عن عرف البطولة، ويقلصون من مكانة إندرا ـ المحارب الآري النمطي إلى مستوى تلميذ فيدي مبتدئ، كان الإغريق يعسكرون دولة المدينة كلها. كانت آلهة الهند تبدأ بالاندماج في سيرورات الناسك العقلية، كان الإغريق يعطون آلهتهم ما هية أكبر مما كانت عليه سابقاً. بمعنى ما، ازدهر العالم الهيليني خلال القرن السابع. لكن دولة أثينا تأخرت عن المدن الأخرى، بينما مدن أخرى كانت تزدهر خاصة في البلبونيز.[41] كان هذا عصر كورنيث cornith المؤهلة تماماً للتجارة في المتوسط، وفيها صناعة حرف مزدهرة، وتحت تأثير مصر كانت تجرب في هندسة الصروح المعمارية. الحالة الأكثر جذرية كانت اسبارطة التي أخضع نظامها السياسي الفريد مصالح الفرد كلياً إلى مصالح المدينة.[42] وكان مواطنوها يعرفون باسم nomoioi "أي المتساوين" أو "الأفراد المنسجمين". هذا النظام ـ في بعض جوانبه ـ كان صورة للمثل الأعلى المحوري: استسلام النفس لأن نكران النفس الإسبارطي لم يكن ملائماً للاعنف بل ملائم جداً للقدرة الحربية. زد على ذلك مساواة المواطنين الاسبارطيين كانت تعتمد على إخضاع الآخرين دون رحمة. ففي نهاية القرن الثامن، فتحت اسبارطة مسينا إلى الجنوب الغربي، وتملكت أراضيها، وقسمتها على المواطنين الأسبارطيين، وأصبح سكان مسينا الأصليين عبيداً لهم. نظام كهذا كان يولد التوتر حتماً. في عام 670 انفصلت مسينا عن اسبارطة، لكنها هزمت ثانية بعد حرب ضروس.

لم تكن إسبارطة منطقة الاضطراب الوحيدة، فبالرغم من الازدهار الاقتصادي الجديد كان العالم الإغريقي في أزمة.[43] في البداية كان بناء المستعمرات حلاً للمشكلات الداخلية في المدن: فمثيرو الشغب كانوا يُرسلون بعيداً لتأسيس مستوطنة أخرى. لكن مع حلول القرن السابع، أدى التواصل مع المجتمعات الأكثر تطوراً في الشرق إلى سخط واسع الانتشار على الظروف السائدة في الوطن. أراد الناس أن يستمتعوا بالرفاهيات المادية التي رأوها في الخارج، فازداد الطلب على الموارد، فأصبحت بعض العائلات غنية بينما عاشت عائلات أخرى في مستوى أعلى من دخلها فوقعت في الديون. مع حلول عام 650 حدثت منافسات قبلية شديدة، ومعارك دامية، وصراع جماعات في الكثير من دول المدينة. إن تفاصيل الكارثة ما تزال غامضة، ولكي يحلو مشكلاتهم المالية حاول بعض الأرستقراطيين استغلال المزارعين الأفقر منهم، واحتفظوا بالأراضي المشاع ملكاً لهم. كان بعض المستأجرين مجبرين أن يعطوا سدس محصولهم إلى النبلاء المحليين. وبما أن الأستقراطيين كانوا يسيطرون على المحاكم، لم يكن لدى المزارعين سوى أمل قليل في الإصلاح. هوة خطيرة كانت تكبر بين النبلاء والمزارعين الذين كانوا العماد الرئيسي للاقتصاد.

كان المزارعون يعانون من مشاكلهم الخاصة. كما كان الإغريق قد تعلموا من الشرق أساليب جديدة للإنتاج الزراعي، وبدأوا يستثمرون في المستقبل، فزرعوا أشجار الكرمة والزيتون التي كانت تستغرق عشر سنوات كي تثمر، وكانوا أيضاً يطورون مخزونهم لإنتاجية طويلة الأمد. لكن في الوقت الراهن، كان الكثيرون يجدون كسب العيش أمراً صعباً، فإما كانوا ينفقون من رأس مالهم أو يبيعون الأرض كي يمولوا مشروعاتهم. كانت هناك قضايا ديون سيئة، غالباً ما كانت تنتهي باستعبادة المدين الذي فشل في تسديد ديونه لدائنية. عدم الاستقرار هذا أدى إلى مشكلات اجتماعية أكبر. لقد بدت القيم القديمة أنها تأكل المجتمع. ففي مطلع القرن السابع، كتب الشاعر هيسود أن في بعض المدن لم يعد الأبناء يطيعون آباءهم، وأجيال كانت مغرّبة عن بعضها، ولم يعد

باستطاعة كبار السن توجيه الشبان. فكان شعر هيسود محاولة لملئ هذا الفراغ الأخلاقي.

كان هيسود نوعاً مختلفاً عن هوميروس، ومنصرفاً كلياً كي يقوّم هذه الكارثة.[44] إنه لم يكن فرداً من الأرستقراطية المحاربة، بل مزارعاً من بواتيا boetia، يستمد إلهامه من الأفكار الجديدة الكثيرة الآتية من الشرق. كان والده قد هاجر من آسيا الصغرى إلى بلاد الإغريق، وشكل ما، كان هيسود أقرب إلى أساطير الشرق الأدنى، وإلى الحوريين، أو الحثيين مما كان إلى التراث الملحمي الإغريقي. لقد رأى نفسه كرجاز إغريقي، وعندما فاز شعره بجائزة ـ ذات يوم ـ استخدم الصيغ البطولية بشكل مرتبك، وربما كتب قصائده بدلاً من أن يلقيها شفوياً.[45]

لقد كان أول شاعر إغريقي يكتب بصوته هو، ويذيل اسمه على مؤلفاته. في بعض النواحي، كان هيسود أكثر شبهاً بنبي عبري مما كان كرجاز هوميري. على شاكلة عاموس، شعر بالمحفزات الأولى لإلهامه الإلهي "بينما يرعى أغنامه". الميوزز muses بنات زيوس أمرنه أن يقول الحقيقة، ثم:

قطفن غصناً وقدمنه لي

غصين غار مزهر، رائع المنظر

ونفخن صوتاً مقدساً في فمي

الذي به نحتفي بالأشياء القادمة

وبالأشياء التي كانت سابقاً.[46]

شعر أن شعره كان إيحاءً، وأن باستطاعته أن يهدهد قلوب الناس ويبني جسراً إلى الآلهة.

كذلك فعلت ممارسة العدالة الاجتماعية. هذا الهاجس دفع هيسود أقرب حتى إلى عاموس. في /أعمال وأيام/ ترنيمة طويلة إلى المهمة المقدسة للعمل الزراعي، ولتسيير الأمور بحكمة، شرح هيسود أنه كان منخرطاً في نزاع مع

أخيه بيرسيس perses على ميراث قُسّم بينهما. لكن برسيس حاول أن يحصل على أكثر من نصيبه، فرفع قضية أمام المحكمة المحلية. كانت ثقة هيسود بالنظام القضائي قليلة، وحذر برسيس من أن الناس الوحيدين الذين يستفيدون من هذا التشريع كانوا الأرستقراطيين أنفسهم، الذين سوف يفرضون أجراً باهظاً. تجربة هيسود الشخصية أمدته برؤية خاصة للكارثة الزراعية التي كانت تتصاعد إلى نزاع سياسي رئيسي في جميع أنحاء اليونان: حذر هيسود المحكمة، مثلما يفعل بني:

أنتم أيها السادة فكروا بهذه العقوبة.
الآلهة التي لا تموت ليست بعيدة جداً.
عين زيوس ترانا جميعاً، وتفهم
وعندما - يرغب - يمهل ولا يهمل
حالة العدل في المدينة.[47]

قرارات قانونية إفرادية أتت من الإلهة Dike (أي العدل) التي جرحت عندما أفسد حكم، مباشرة أخبرت أباها زيوس عندما كان قاضٍ يأخذ رشوة، أو عندما كانت تحلف يمين كاذبة كي يغطي غشاً. فعاقب زيوس - حامي المجتمع - المدينة المذنبة بوباء، ومجاعة، وبكارثة سياسية.[48] كان هذا حلاً ساذجاً يتطلب تدخلاً إلهياً مباشراً. يعتقد - في أغلب الأحيان - أنه لن يأتي. لكنه كان نقطة علام على تغير يحدث. العرف الأرستقراطي القديم للشرف كان أساساً مراعاة للمثل الأعلى البطولي في حالة نزاع مع حاجة الناس العاديين إلى فرصة عادلة ومتساوية. اعتقد هيسود أن جيله كان يواجه خياراً صعباً. هل كان العدل، أم المبالغة الأنانية الصلفة لدى المحارب البطولي سمة للمجتمع الإغريقي؟

كي يجلب غايته إلى موطنه، صاغ هيسود نسخة جديدة من الأسطورة الهندو - أوربية التي تدعى /أربعة عصور من البشر four ages of Men/.[49] كان هناك أربعة فترات متعاقبة، كل فترة أكثر انحلالاً من الفترة التي تليها، وسميت كل فترة باسم معدن: الذهب، الفضة، البرونز، والحديد. لكن هيسود عدّل في

القصة بإضافة العصر البطولي، الذي أدخله بين العصر البرونزي، وعصر الحديد الراهن، أسوأ العصور جميعاً. في العصر الذهبي، أي في بداية التاريخ البشري لم يكن هناك برزخ بين البشر والآلهة، وعاش الناس حياة سعيدة، ولم يعرفوا مرضاً ولا شيخوخة. كان الموت يأتيهم بسلام وبشكل طبيعي كالنوم. لم يكن عليهم أن يكسبوا العيش لأن "الأرض الخصبة أعطتهم ثمارها دون أن يطلبوا ذلك". هذه السلالة قد انقضت. لذلك قولبت آلهة الأوليمب سلالة الفضة، كائنات بشرية استغرقت فترة طويلة كي تبلغ النضج، وعندما وصلوا أخيراً إلى عنفوانهم عاشوا "حياة قصيرة مؤلمة"، سيطر عليهم الاعتداد بالنفس، "لم يستطيعوا ضبط أنفسهم"، فاستغل، وآذى كل منهم الآخر بكل طيش، ودون اكتراث، وأهملوا عبادة الآلهة. استبدلهم زيوس غاضباً ببشر من البرونز، فهؤلاء كانوا أكثر سوءاً. كانوا "غرباء ومقتدرين"، مدمنين على ويلات الحرب وعنفها، "أناس مرعبون، قلوبهم كالصوان". أطرافهم ضخمة ولا تقهر. كان المجتمع مستغرقاً بملذاته، وعدوانياً لدرجة أن بشر عصر البرونز كان كل واحد منهم يدمر الآخر في نهاية المطاف. لذلك خلق زيوس سلالة الأبطال، هؤلاء البشر كانوا أنصاف آلهة: "عادلون وخيرون"، أداروا ظهورهم إلى صلف أسلافهم، ومع ذلك خاضوا حرب طروادة المرعبة التي دمرتهم في نهاية المطاف. بعد ذلك عاش الأبطال على الجزر المباركة على طرف العالم.

عصر الحديد تلا العصر البطولي، كان عالماً مقلوباً عاليه سافله، مترنحاً، نحو دمار محتوم. كانت الحياة قاسية ودون أمن. "في النهار يعمل الناس ويتألمون، دون توقف" كما قال هيسود، "وفي الليل كانوا يتلاشون ويموتون".[50] لكن الآلهة مازالت تمنح البشر بعضاً من البركات. في العصر الحديدي: الخير والشر، الألم والمسرة كانت لا تنفصل: كان باستطاعة الناس أن يأكلوا ويتقدموا إذا ما انهمكوا في عمل يقصم الظهر، ودون توقف. لقد كانت فترة ملتبسة ومتناقضة كل شيء كان مختلطاً معاً. لكن لم يكن لدى أناس عصر الحديد خيار آخر، عليهم إما أن يستسلموا لمطالب العدالة، أو أن يتركوا أنفسهم إلى الخطيئة الأرستقراطية: الصلف hubris.

فإذا ما أهملوا العدل سيشهدون انتصار الشر حيث القوة هي الحق، حينها لن يشعر الآباء بشيء تجاه أبنائهم، والأطفال يكرهون آبائهم، وسيتلاشى الحب الأخوي الذي كان في العصور الغابرة: "لن يعود شيء كما كان في الأيام الماضية."[51]

المغزى من القصة كان جلياً. هذه الأعراق التي طبقت العدالة الاجتماعية كانت محبوبة ومكرمة عند الآلهة. أما المحاربون العنيفون من عصر البرونز فقد قتلوا، والأبطال نقلوا إلى حياة سعيدة لا هموم فيها. لقد قربت العدالة البشر إلى الآلهة، لذلك يجب أن يتصرفوا باحترام تجاه بعضهم، وأن يمجدوا آلهة الأوليمب في القربان، ويجب أن يعرفوا مكانهم. عصر الأبطال قد انتهى. بالتالي كما أراد هيسود أن يقول ـ بالرغم من أنه لم يقل ذلك صراحة ـ حان الوقت للتخلي عن الروح العامة للمحارب الذي يدمر نفسه. رجال عصر الحديد لم يستطيعوا أن يتصرفوا مثل أخيل أو أوديسيوس. كانوا مجرد مزارعين، حارثي التربة، منخرطين في صراع أكثر ضعة، الصراع مع الأرض. بدلاً من محاكاة البسالة الحربية لدى منافسيهم، يجب أن يحفّزوا في تنافس صحي مع أحد جيرانهم الذي أنتج محصولاً وفيراً. هذا الصراع هو الذي جعل المزارع عزيزاً على الألهة. هذه الفترة من التاريخ كانت مختلفة عن العصر الذهبي عندما لم تكن هناك حاجة لفلاحة حقل. في العصر الحديدي قرر زيوس أن باستطاعة البشر أن يتقدموا إذا ما قاموا بالعمل الشاق بتربية الحيوانات التي كانت شكلاً من القربان، أي عمل عبادة يومية للآلهة.[52]

كشف هيسود هذه الأفكار باستفاضة أكثر في كتابة / أصل الآلهة theogony/ الذي وصف انتصار آلهة الأوليمب على منافسيها، [53] فأصبح كتاباً مقرراً للدين الإغريقي. لقد شعر الكثيرون بالإرباك حيال بعض تفاصيل المثيولوجيا التي ظهرت من عصر الظلام. ما مدى دقة قدرات ما بعد الموت المتنوعة المرتبطة كل منها بالأخرى؟ لماذا ثار التيتانز على زيوس؟ ما الذي سبب انفصال البشر والآلهة؟ ربط هيسود هذه النهايات المنفلتة باستخدام مثيولوجيا بلاد الرافدين، ومثيولوجيا أخرى من الشرق الأدنى.

لقد روى القصة التراثية بأسلوب جعل الصراع المرعب لأصل الآلهة ـ ظهور الآلهة من اللا شكلية البدئية ـ يمثل تقدماً إلى وضوح أكبر، واستقرار، وتعريف. وكان هذا قد بدأ عندما تم استبدال لجة العماء التي لا قرار لها بحقائق الأرض الأكثر صلابة. هذا الصراع انتهى بانتصار آلهة الأوليمب على التيتانز الذين عارضوا حكم القانون.

أراد هيسود من هذه القصص المرعبة من آباء وأبناء آلهة يقتلون، وينافس كل منهم الآخر كي يحذر الإغريق من مخاطر الصراع المميت الراهن في المدن. النظام العادل، والمنظم الذي بناه زيوس كان في حالة تناقض صريح مع الفوضى غير الطبيعية التي انقضت من قبل. كتاب أصل الآلهة أثار أيضاً أسئلة ستشغل بال الفلاسفة الإغريق لاحقاً: ما هو أصل الكون؟ كيف توصل الاستقرار إلى أن يسيطر على العماء؟ كيف استطاعت الكثرة أن تُشتَق من الواحد؟ كيف تمكن اللا شكلي أن يرتبط بما كان محدداً؟ كما أن هيسود قد ثبت أيضاً مكانة البشر في المخطط الإلهي، من خلال سرد قصة التيتاني بروميثيوس.[54] فخلال العصر الذهبي عاشت الآلهة والبشر على قدم المساواة، وبانتظام كانت تُعيّد سوياً. لكن عند نهاية العصر الذهبي، بدأت الآلهة تنسحب من عالم البشر، وأصبحت الوسيلة الوحيدة للبقاء على صلة البشر بآلهة الأوليمب هو طقس القربان الحيواني، عندما تأخذ الآلهة والبشر حصصها المحددة من الضحية. لكن بروميثيوس اعتقد أن ذلك ليس عادلاً، فأراد أن يساعد البشر على تحسين نصيبهم. بعد تقديم إحدى هذه القرابين، حاول أن يخدع زيوس بقبول عظام الأضحية كي يستطيع الناس الاستمتاع بلحمها. لكن زيوس رأى من خلال ruse: الآلهة ليست بحاجة إلى طعام لأنها تعيش على الدخان الذي كان يتصاعد عندما تحرق عظام الأضحية على المذبح. وبذلك كشف القربان تفوق الآلهة على البشر الذين يستطيعون البقاء بأكل لحم الحيوانات الميتة.

زيوس الغاضب من خطة بروميثيوس الذكية قرر أن يعاقب البشر بحرمانهم من النار التي كانوا يحتاجونها لطهو طعامهم. ومن جديد تحدى بروميثيوس

زيوس، فسرق النار وأعادها إلى البشر. فحان انتقام زيوس بربط بروميثيوس بسلاسل إلى عمود، وهذه المرة ـ عاقب البشر بإرساله امرأة لهم تم جمعها من قبل الفنان الإلهي هيفا ستوس. في العصر الذهبي لم يكن هناك فصل بين الجنسين، والبشر لم يكونوا معرفين من خلال جنسهم. فكانت باندوار ـ المرأة الأولى ـ "شراً جميلاً" حملت جرة فتحتها بعد ذلك "ونشرت الآلام والمعاناة بين الرجال". فالرجال كانوا مرتبطين مصيرياً بالنوع الأنثوي، الذي جلب المرض والشيخوخة والعذاب إلى عالمهم.

هذه واحدة من اللحظات القليلة للكراهية المكشوفة للنساء في العصر المحوري. لقد قصد هيسود أن يوضح الطبيعة الملتبسة للحياة في عصر الحديد، ممثلة سقوط البشرية من النعمة.[55] فمن تلك الفترة فصاعداً أصبح الخير والشر مندمجان لا ينفصمان. فالقربان كان يجمع البشر والآلهة معاً، لكنه أيضاً كشف الفارق الذي لا سبيل إلى تجاوزه بينهما وغدت المعاناة حقيقة من حقائق الحياة لا مفر منها، وهذا موضوع رئيسي في العصر المحوري.

ففي الهند، كان الحكماء مصممين على خلق تقانة روحانية تمكن البشر من تجاوز الألم والموت، لكن لم يكن لدى هيسود مثل هذا الطموح. في حقيقة الأمر، كان مقتنعاً أن البشر يجب ألا يسعوا إلى الصعود إلى العالم الإلهي، وقصة بروميثيوس تضع البشر في مكانهم بكل حزم، أي في منتصف الطريق بين الآلهة والحيوانات، ومن جميع الجوانب تحيط بهم الشرور التي أطلقتها باندورا. لم يستطع أناس العصر الحديدي الهروب من معاناتهم. فقد يريدون أن يتمردوا مثلما فعل بروميثيوس، لكن الصلف كان تدميراً للذات، لكل ما حققه تمرد بروميثيوس كان الألم لنفسه، وكدحٌ لا يتوقف للبشرية.

شعر إغريق آخرون أن الاستسلام لم يكن الجواب. بينما كانت الأزمة السياسية تصبح أكثر حدة، أخذ المزارعون والفلاحون يطالبون بمعونة اقتصادية وإرجاع الأرض المصادرة، والأمن أمام القانون، وقدموا دعمهم لأرستقراطيين طموحين كانوا يتبنون قضيتهم، مستخدمين هذه المطالب العامة بغية الوصول

إلى سلطة سياسية.[56] فسرعان ما تلا ذلك أوائل الطغاة الذين تولوا السيطرة على كورنيث في عام 655 والمدن الأخرى كذلك. لم يكن هؤلاء الحكام الجدد طغاة بالمعنى الحديث للكلمة، بل مجرد قادة استولوا على السلطة بطريقة غير دستورية، وحكموا من خارج القوانين المعهودة لمصلحة الناس.[57] بصفته بطلاً للعدل، كان الطاغية في البداية يلقى الاحترام، لكن الاستبداد لم يكن نظاماً سياسياً قابلاً للإستمرار. فأصبحت الجماهير حتمياً أكثر ثقة، لأن الطاغية كان يمدهم بالقوة. فما أن يموت الطاغية حتى يبدأ حكمه غير الدستوري يبدو وحشياً وتعسفياً، ولذلك غالباً ما ثار الناس ضد خلفائه، وتذكروا الاستبداد مترافقاً مع الكراهية. بيد أن التجربة قد بينت ان إذا كان الناس منظمين كما يجب، كان باستطاعتهم أن يضعوا حداً لاستغلال الطبقة الحاكمة، ويأخذوا مصيرهم بأيديهم.

ما هو أكثر أهمية كان ابتكاراً عسكرياً تزامن مع ظهور الاستبداد. فمع نهاية القرن الثامن كان تصنيع الأسلحة قد تطور كثيراً، وتوفرت التقانة العسكرية للمدن كي تسلح جيوشاً جرارة بدلاً من الاعتماد على فرقة أرستقراطية من محاربي العربات.[58] بين عام 700 و650 بدأت دول المدن تعتمد على المشاة المدججين بالسلاح، والمحاربون وفق الطريقة الهوميرية القديمة الذين كانوا يقاتلون في نزال فردي كانوا قد تواروا. تعداد الجنود كان أمراً حاسماً، ولم يعد خوض الحرب امتيازاً يقتصر على النبلاء. من تلك الفترة فصاعداً، كل من كان قادراً أن يجهز نفسه بالأسلحة المطلوبة ـ سواء كان ارستقراطياً أم مزارعاً ـ كان باستطاعته أن ينضم إلى هذا الجيش المرموق المكانة بغض النظر عن المرتبة الاجتماعية أو المولد. مساواة جديدة قد ولدت مع جيش المشاة المدجج بالسلاح.

قتال المشاة تميز بجماعات ألوية تقف كتفاً إلى كتف، عمقها ثمانية رجال. كل جندي كان يحمل ترساً دائري الشكل لحماية جانبه الأيسر، وممسكاً بالكتف الأيمن للرجل الذي بجانبه. تنطلق المجموعة إلى الأمام، وما أن يصبح

أمام العدو حتى يطعن المحارب من فوق وأسفل الترس. وفي النهاية، أحد الجانبين سوف يهزم ويهرب. أثبتت هذه الطريقة فعاليتها بشكل غير اعتيادي، لكنها كانت تحدث جراحاً مرعبة بالعدو. جيش المشاة كان جيش الشعب مستنداً على جزء أكبر من السكان الذكور أكثر مما كان الحال من ذي قبل. وبالمقابل كان ذلك يعني أن الشعب قد أصبح جيشاً. أما في الهند أصبح القتال حقاً حصرياً لطبقة الكشتريا فأصبحت الحرب نشاطاً تخصصياً بينما كانت محظورة على الطبقات الثلاث الأخرى.

وهكذا قد تمت الإحاطة بالحرب واحتوائها، بينما سيطر المثل الأعلى اللاعنف، كانت الحرب تعد دنسة، مأساوية، وشراً. لكنها لم تكن كذلك في بلاد الإغريق التي كانت تسير في الاتجاه المعاكس. وفي القرن السابع، كانت المدينة كلها أصبحت معسكرة، والمواطنون أصبحوا جيشاً بالإمكان تعبئته في مدة قصيرة جداً.

كان هذا قطيعة جذرية عن الماضي. قال هيسود أن الوقت قد حان للتخلي عن المثال الأعلى الملحمي التقليدي، وجيش المشاة قد أدى إلى هذه القطيعة. فالمحارب الفرد التواق إلى مجد شخصي قد غدا مفارقة تاريخية: المثال الأعلى الجديد أصبح جمعياً. فجندي المشاة كان واحداً من جماعة. والمشاة إما أن يفشلوا أو ينجحوا معاً ـ أي جماعياً. لم يكن هناك مجد شخصي. صلف أخيل عرض الجيش ككل إلى الخطر، كان الآن حشواً زائداً. لقد أعيد تعريف التميز: أصبح الآن يتكون من نزعة البطولة والولاء للصالح العام. لقد وصف الشاعر الأسبارطي ترتايوس tyrtaios البطل الجديد عندما كتب في أواخر القرن السابع:

هذا هو التميز، هو أفضل ما يمتلكه الرجال

الجائزة الأنبل التي يستطع شاب أن يفوز بها

هذا هو الصالح العام لكل المدينة ولكل الناس

عندما يقف رجل ثابتاً، ويبقى راسخاً في النسق الأول

وينسى كل خاطرة بهروب مخزٍ

مصلباً روحه وقلبه كالفولاذ ليتحمل

وبالكلمات يشجع الرجل الواقف بجانبه.[59]

كان جندي المشاة يضحي باحتياجاته الخاصة في سبيل الجماعة كلها بدلاً من السعي بعدوانية إلى شهرته ومجده. المثل الأعلى ـ إنكار الذات ـ شجع عدم الأنانية والولاء إلى الآخرين، فكان الفارق أن هذا الاستسلام الذاتي في ميدان المعركة ضمن آلة قتل وبطريقة همجية.

إن الإصلاح الذي طال روح جندي المشاة قد حول اليونان، وأرسى أسس الديمقراطية فالمزارع الذي كان يحارب إلى جانب النبيل ضمن جماعة، لم يكن يرى الأرستقراطية كما كان يراها سابقاً. لم يكن بالإمكان الحفاظ على عادات الاحترام القديمة. فلم يمض وقت طويل حتى بدأت الطبقات الدنيا المطالبة بأن يلعب تنظيمها ـ مجلس الشعب ـ دوراً مركزياً في حكومة المدينة. وهكذا فقد غير إصلاح المشاة صورة الذات في المدينة. وبالتالي كانت ثورة سلمية، فبدلاً من القضاء على الطبقات العليا، تبنى المزارعون والفلاحون الروح العامة الأرستقراطية، بحيث أصبحت المدينة كلها طبقة قوامها محاربين سادة.

كانت حرية التعبير أصلاً امتيازاً للبطل النبيل. فكما نرى عند هوميروس كانت لأرستقراطية الجيش اليوناني كل الحرية في التعبير عما في أذهانهم بكل قوة إلى الملك أغاممنون. لقد اتسع هذا الحق ليشمل جميع أفراد الجماعة، أي أن الجيش الجديد أخذ يتكلم لغة مختلفة. اللوغوس (كلام الحوار) كان مختلفاً تماماً عن الشعر التلميحي عند هوميروس وفي العصر الملحمي.[60] لقد حاول الخطاب الأسطوري أن يعبر عن الحقائق الصعبة، ولم يكن من المتوقع منه أن يتماثل كثيراً مع حقائق العالم الخارجي الموضوعية. كان على اللوغوس أن يكون عملياً، فعالاً ودقيقاً. ففي ميدان المعركة، وفي مجالس الحرب واجه الجنود مسألتي الحياة والموت. وبدلاً من التساؤل "ما هو المعنى النهائي لهذا" الحدث؟ كان أصحاب اللوغوس يسألون: "ماذا حدث، وماذا سنفعل؟". محرك

اللوغوس كان الحاجة العملية والفورية، وكان من المهم أن يشعر الجندي أنه قادر على تحدي خطة المعركة التي ستؤثر على الجميع على السواء، لأن الجماعة كانت بحاجة إلى كل المهارات المتوفرة. لوغوس المقاتلين المشاة لم يحل أبداً محل أساطير الشعراء، بل تعايش الاثنان كل منهما في مجال كفاءته الخاصة به. لكن بينما كان يصبح المزيد من الجنود المشاة مقاتلين، أصبح اللوغوس اللغة المميزة، وأسلوب التفكير في الحكم.

في القرن السابع، كانت إسبارطة الدولة الأكثر تقديساً للروح العامة لدى المقاتلين المشاة.[61] ومع حلول عام 650 كان جميع المواطنين الذكور مقاتلين مشاة، والشعب كان صاحب السلطة العليا، ووضعت الطقوس القديمة من أجل استخدام براغماتي وحشي جديد. في طقس الخصوبة القديم لـ orthia حاول صبية صغار سرقة قطع الجبنة من مذبح أرتيميس فتم إبعادهم ضرباً على ايدي شبان آخرين. في إسبارطة، استخدمت الشعيره لتعليم المحاربين مهارات القتال، لم تعد معركة صورية، بل كانت أقرب إلى حرب حقيقية، وكان الدم يسيل بحرية. بدلاً من إرسال شبانهم إلى البرية كي يتعلموا الشجاعة والاعتماد على الذات خلال إدخالهم في الحياة المدنية، اختار الإسبارطيون مقاتلين حديثي العهد من أجل تجمعات خاصة. في النهار كانوا يبقونهم متوارين، لكن في الليل كانوا يرسلونهم إلى الريف لقتل أكبر عدد من العبيد تطاله أيديهم. في الهند، أخرجت القيم الأخلاقية الصاعدة في العصر المحوري العنف من الشعائر القديمة. بينما في اليونان كانت الشعائر القديمة قيد التحول بناء على طلبات العسكر.

* * *

كان الصينيون يحاولون تخفيف الحرب بجعل المنفعة العملية ثانوية بعد جمالية الطقس. كان القرن السابع فترة مضطربة في منطقة النهر الأصفر. لكن على الرغم من الحروب المستمرة بين الإمارات، كان العنف يبقى ضمن حدود بكل نجاح، وهذا مرده إلى إصلاح الطقس إلى درجة ليست بقليلة، الذي قام به متعلمو Lu. مع حلول القرن السابع كانت الحياة في الإمارات منظمة بدقة على

يـد Li، بحيـث ان الحيـاة الاجتماعيـة والـسياسية والعـسكرية بـدأت تـشبه الاحتفالات الطقوسية المعقدة لدى بلاط الزهو. مع أن ـ للوهلة الأولى ـ يبدو هـذا الاتساق المنظم بعيداً عن روح العصر المحوري، بقيت بعض هـذه الشعائر تحتفظ بأهمية روحية كبيرة. لم يكن الصينيون مدركين لهذا، ولم يبدأوا عصرهم المحوري إلا بعد مائتي سنة أخرى. كان أخصائيو Lu يرسون أساساً قوياً للمستقبل، على الرغم من أن هدفهم الرئيسي في القرن السابع كان خلق مجتمع من السادة الذين كانوا يعيشون حياة اعتدال، وضبط للنفس.

ملك الزهو تراجع أخيراً إلى المجال الملكي، ولم يعد في مقدمة الحياة السياسية بعد أن حل محله الأمراء الذين حكموا المدن القديمة التي كانت تعرف باسم Jung kuo " أي مدن المركز". لقد استولى الأمير على كثير من مزايا الملك الطقوسية.[62]

أصبح الأمير شخصاً مقدساً، وكان على أتباعه أن يصوموا ويطهروا أنفسهم قبل حضورهم إلى محضره، لأنه كان نظير السماء على الأرض. فكان يتوجب أن يكون محمياً من التلوث وعدم النقاء. كما أنه أصبح يمتلك الطاقة التي كانت تشع من الملك. لكن هذه الطاقة كانت تعتمد وتتغذى على الأداء المخلص لشعائر البلاط من قبل أتباعه. الإصلاح الطقوسي الذي أجراه Lu كان مبنياً على مبدأ ذي مغزى عميق جداً.

الـ Li لم تحول الشخص الذي مارس هذه الشعائر فقط، بل زادت أيضاً قداسة الشخص الذي كان يتلقى هذا الاهتمام الطقسي. كان هذا ـ بالأساس ـ مفهوماً سحرياً، لكنه كان مبنياً على بصيرة نفسية عميقة. عندما يعامل الناس دائماً بأقصى درجات الاحترام، فإنهم يتعلمون أن يشعروا أنهم جديرون بالتعظيم، وأن لديهم قيمة مطلقة. لذلك تم تقديس العلاقات، وأسبغت القداسة على أناس آخرين. عندما كان الأتباع يقفون أمام أميرهم بالوضع الموصوف: أجسامهم محنية ووشاحاتهم متدلية إلى الأرض، وذقونهم ممتدة مثل مزاريب على أسطحة منزل، وأيديهم متشابكة، ومنخفضة قدر الإمكان، فإن هيئتهم المليئة بالاحترام كانت تحافظ وتزيد من فضيلة الأمير.[63]

حياة الأمير الخاصة كانت منظمة بدقة. سلطة مركزه لم تكن تعطيه بطاقة إعفاء أن يفعل ما يشاء. كما أن هناك مبدءاً آخر سوف يلهم لاحقاً فلاسفة العصر المحوري: سلوكه يجب ان يتصف بـ wu wei " أي لا يفعل شيئاً". إنه لم يكن مثل رأس دولة معاصرة، يصوغ السياسات والأهداف التي تعبر عن نظرته للبلاد. كان على الأمير أن يكون سلبياً تماماً، لم يكن يوجه الإدارة، ولا يصدر أية أوامر. مهمته الوحيدة كانت أن يركز السلطة في ذاته، ويفوضها إلى الضباط الذين كانوا يعملون نيابة عنه. كي ينجز هذا كان عليه أن يطيع القواعد الصارمة. فإذا ما ارتكب خطأ، كان من واجب أتباعه أن يطلبوا منه أن يلتزم. وكاتب حوليات كان يدون كل كلمة وكل حركة يقوم بها. لم يكن يسمح له أن يلعب ألعاباً، أو ان يمازح، أو أن يستمع إلى موسيقى مختارة بدقة. كان عليه أن يأكل وجبات محددة تم إعدادها وفقاً لمدونة الطقس.[64] كان على موظفيه ان يتحركوا بنشاط في حضرته، مبدين أنهم قد نشطتهم الطاقة التي صدرت منه. يجب أن يمشوا بسرعة "أكواعهم ممدودة مثل جناحي طائر"، بينما على الأمير أن يسير بخطوات محسوبة بدقة كي يبقى "جامداً، وخاملاً، وأخرس تقريباً"[65]. في المجلس، لا يلقي الأمير خطباً بليغة، وإذا طلب وزراؤه إذناً للبدء بعمل ما، باستطاعته أن يجيب بكلمة "نعم". لكن ما أن يعطي ذلك الأمر، فإن السياسة الجديدة قد وضعت قيد التنفيذ: كما عبرت أغنية قديمة عن ذلك: " عندما يفكر بالخيول، فإنها تنطلق جرياً". زعم طقوسيو Lu أن شون shun الملك الحكيم القديم قد ركز السلطة داخل نفسه بشكل كامل، لدرجة أنه لم يكن يفعل شيئاً على الإطلاق، عدا أن يبقى في الوضعية الصحيحة. طاقته كانت عظيمة جداً لدرجة أنها كانت لوحدها كافية كي توجه، وتغير رعاياه.

إنه " قد حكم من خلال عدم الفعالية "لا تفعل شيئاً" wu wei في أي عمل قام به. كان فقط يجلس نفسه بوقار، ومهابة ووجهه نحو الجنوب، ذلك كان كل شيء."[66]

كانت الشعائر مصممة لإعلاء المكانة والبرستيج لـ Junzi " السيد". فإذا ما طبقت في شكلها الصحيح، فإنها كانت تسحب نزعة الأنانية من الحكومة. هنا نجد مفارقة كانت واضحة أيضاً في Li ميدان المعركة. أثناء القرن السابع، بدأت الإمارات تثير شكلاً من حرب البلاط التي نظمتها بدقة روح الاعتدال الجديدة.[67] لقد حددت بصرامة الطقوس، والعنف المسموح به في المعركة، ومنعت المحاربين من انتهاز فرصة ضعف العدو. فأصبحت الحرب مشهداً احتفالياً محكماً تحكمه اللباقة والردع. كان الثأر خطراً دائماً في مجتمع أرستقراطي حيث العائلات النبيلة هاجسها الشرف والمكانة. حاولت Li تقييد هذا الميل، وضمان أن المحاربين كانوا يقاتلون كسادة gentlemen. الحروب كانت قصيرة الأمد عادة، فلم يكن بالإمكان شنها بدافع مكسب شخصي، بل لصد غزو بربري، أو لإعادة مدينة متمردة إلى الهدوء، وبذلك فهي تعيد طريقة السماء way of heaven كانت الحرب تعد بمثابة إجراء عقابي، وكان المدانون ينالون الصفح شرط أن يقسموا أن فعلهم كان ضرورياً ـ وأن يضحوا بأنفسهم في ساح المعركة ـ النصر كان يوضح صوابية الجانب المنتصر، لكن إذا ما أديرت الحرب وفقاً لـ Li. وزير الحرب كان يتخذ جميع القرارات.

فلتحديد عدد المقاتلين والسلاح كان يبدأ الوزير بإجراء تعداد، وهذا كان عملاً يتسم بالصعوبة، كما كان عليه أن يتوازن مع كل فعل ينم عن كرم. وبعد القيام بالتعداد ـ كما شرح مؤلف تعليق على "حوليات الربيع والخريف" كان يطلق سراح المدينين، وتقدم الصدقات إلى الفقراء والأرامل، ويغفر للمذنبين."[68] بعدئذ، يجتمع الجيش في معبد الأسلاف وتوزع الأسلحة، وكأنما ذلك كان يبعد أي تأثير شرير. كانت الأسلحة تحفظ في مخارزن خاصة، وكان على المحاربين أن يصوموا قبل أن يستلموا السلاح."[69] في نهاية المطاف، كان الرجال يجتمعون حول مذبح الأرض بينما كان الأمير يقدم قرباناً.

كان الجيش ينطلق سيراً، ووجوه الجنود باتجاه الجنوب قدر الإمكان. قوام المشاة كان فلاحين مجندين تم سحبهم من حقولهم دون أمل لهم بالعودة، جنود

يولولون بصوت عالٍ ويتلكأون أثناء المسير. دروهم كان ثانوياً، لم يكونوا يشاركون في القتال، بل كانوا مجرد حمالين أو خدماً يمشون بشكل منفصل عن الجيش المقاتل، ويعسكرون على أطراف الغابة.[70] بالمقابل كان النبلاء سعداء وهادئين، راكبين في عرباتهم ترافقهم موسيقى الناي. كل مجموعة عربة تتألف من رامي قوس، ورامي رمح وسائق العربة، وأسلحتهم مطلية بلون زاهٍ. كانت ظهور الخيل مغطاة بالفراء، والجلود، والأجراس في رقابها من المفترض أن ترن مع الموسيقى.[71]

عندما كانوا يقيمون معسكراً مواجه العدو، كان الموقع نسخة عن موقع المدينة. الحرب كانت شعيرة دينية تبدأ باعتكاف روحي، والصلوات والقرابين كانت تقدم إلى الأسلاف. في هذا الوقت كان على وزير الحرب أن يقدّر نوايا العدو: "هل كان العدو ينوي فعلاً أن يقاتل؟"[72] إذا كان العدو قبيلة بربرية أو أميراً ضَلَّ طريقة السماء ستكون معركة حتى الموت: في هذه الظروف الاستثنائية جداً، وزير الحرب كان يسير باتجاه خطوط العدو على رأس مجموعة من المجرمين الذين نالوا الغفران، مجموعة انتحارية الذين تقطع رقابهم في الوقت المناسب في المبارزة الأولى، ثم تجري المعركة كان المحاربون مطالبين أن يقاتلوا بتهذيب، فأصبحت المعركة. سابقة على اللباقة. والمقاتل من كلا الجانبين كان يتباهى في قيامه بأفعال تنم عن الكرم وما تفرضه قيم النبل.

الـ Li طالبت بموقف خارجي "استسلام للعدو"، لكن ذلك كان يؤدى بشجاعة وبروح اعتزاز. في مباراة الفروسية هذه، كانت الرياضة لإرهاب العدو بأفعال من هذا النوع. وقبل التحام المقاتلين كانوا يتباهون بصوت عالٍ ببسالتهم، ويرسلون أوعية من الخمر إلى عدوهم، ويرفعون خوذاتهم كلما لمحوا أميرهم. وإذا ما دفع سائق عربة فدية فوراً، فإن المحارب junzi حقاً كان يترك العربة تهرب دائماً. أثناء معركة بين chu وJing، رامي قوس من شو استخدم آخر سهم لديه ليسدد على أيل كان يسد الطريق أمام عربته، ورامي الرمح في العربة قدم الأيل إلى المجموعة في عربة Jin التي أعلنت هزيمتها فوراً، فصاح أحدهم "هنا رامي قوس بارع، ومحارب مشهور: "هؤلاء هم سادة gentlemen."[73]

وإذا ما قتل نبيل أناساً كثيرين كان يفقد مكانته. وذات مرة سخر أمير من محارب كان يتباهى أنه قد قتل ستة جنود أعداء: " إنك ستجلب عاراً كبيراً على بلدك غداً ستموت ضحية مهارتك."[74] عدم النشوة بالنصر كان أمراً أساسياً. فالمحارب النبيل حقاً ليس من المفترض أن يقتل أكثر من ثلاثة هاربين، وبطريقة مثالية، من المفترض أن يطلق السهام مغمض العينين. فالكياسة لها الأولوية على الكفاءة. في إحدى المناسبات حوصرت عربتان في القتال، تنحت إحداهما جانباً، وبدا أنها تنسحب. رامي السهام في العربة الفائزة أطلق سهمه فأخطأ الهدف، وكان على وشك أن يسدد ثانية عندما صاح الرامي المعادي "يجب عليك أن تدعني أبادل سهمي بسهمك، وإلا سيكون ذلك عملاً شريراً." لذلك، وبكل هدوء، نزع الرامي الأول السهم من قوسه، وانتظر الموت بكل هدوء.[72] كانت الحرب صدام شرف بين متنافسين، وصدام السلاح كان ثانوياً.

في عام 638 كان دوق إمارة song منتظراً وصول جيش chu الذي كان عديده يفوق كثيراً تعداد جيشه. عندما سمع أن جيش chu كان يجتاز نهراً قريباً، حثت حاشيته الدوق أن يهاجم فوراً، لكنه رفض ذلك. كما رفض أن يشن هجوماً على جيش chu بينما كانوا يرسمون خطط معركتهم. هزم جيش song، والدوق جرح جراحاً خطيرة، لكنه لم يكن نادماً. "لأن محارب Junzi الجدير بهذا الإسم لا يسعى إلى هزيمة عدو في حالة ضيق، إنه لا يقرع طبوله قبل أن يقف الجنود في تشكيلاتهم."[76] بعد بضع سنوات ولاية Jin الكبيرة كانت تستعد لحرب مع إمارة Qin ـ إحدى الولايات المحيطية في وادي wei. أرسل أمير Qin رسولاً إلى أمير Jin يخبره أن يكونوا مستعدين للقتال عند الفجر. لكن قائد Jin لاحظ أن الرسول كان عصبياً. فرح بعض ضباطه لأن جنود Qin كانوا خائفين. يجب أن يقودهم باتجاه النهر حالاً، لكن القائد أورد من عرف المعركة " من غير الإنساني ألا يتم جمع الموتى أو الجرحى. ومن الجبن ألا ننتظر الموعد المحدد، أو أن نحشر العدو في ممر خطر."[77]

يجب ألا يكون هناك تشفي غير ملائم في النصر. أميرنا المظفر رفض أن يقيم نصباً يخلد ذكرى انتصاره: "أنا كنت السبب في تعريض عظام المحاربين إلى الشمس: وصاح قائلاً "إن هذا عمل وحشي"، هذا لم يكن مثل المعارك التي خاضها ملوك الزهو ضد مرتكبي الشر. اختتم الأمير قائلاً "لا يوجد مذنبين هنا، فقط حاشية مخلصة حتى النهاية."[78] كان الجونزي سريعاً في المسامحة وإظهار الرحمة، لأن ذلك يضيف إلى مكانته المرموقة. معظم الوزراء رفضوا فرض شروط قاسية خوفاً من انتقامات مستقبلية.

الكثيرون كانوا يحبون نصراً مقيداً بدلاً من نصر كاسح، وفضل بعضهم هزيمة مؤقته وبإصابات الحد الأدنى. النصر قد يكون خطراً. يتوجب على الأمير أن يقدم منطقة مهزومة إلى أحد الحاشية، الذي بهذه الموارد الزائدة قد تغريه على التمرد ضد حكمه. لقد اعتمد النظام الإقطاعي على إبقاء كل واحد في مكانه، لأن إذا ما أصبح تابع متنفذاً جداً، فإن باستطاعته أن يهدد توازن الولاية الدقيق.

في حياة البلاط أيضاً، يجب أن يتقيد كل جونزي بالدور المحدد له، وبذلك يساهم في جمال وأناقة الولاية.[79] يجب على الجونزي أن يكون مرتدياً أفضل الملابس، ويجب أن تكون هيئته وقورة، وتعبر عن الأبهة، والتميز، والعظمة"[80]. ويجب أن يكون كلامه "عذباً، وهادئاً، والأشكال والتصرفات يجب أن تكون ملتزمة وفق القواعد الدقيقة".[81] فرد الحاشية كان يسلّم كل كيانه إلى النمط الفروسي الأصلي، بدلاً عن أن يعبر عن فرديته، وهذا التسليم يجب أن يكون نابعاً من كل قلبه. أول واجب الجونزي هو الولاء، إذ لم يكن باستطاعته الالتزام بـ Li بطريقة سطحية، حاقدة أو نفاقاً. غايته هي أن يقدم كل نفسه بما يتوافق مع قواعد الإتكيت بحيث يصبح جزءاً مكملاً لشخصيته. فمن خلال التماهي كلياً مع الجونزي المثالي سوف يصبح شخصاً إنسانياً بالكامل. ستكتمل شخصيته من خلال هذا السلوك مثلما يحول فنان قطعة من حجر اليشم الكريم إلى آنية طقسية جميلة، كانت حياة البلاط تربية في الإنسانية

الحقة. فكما قال طقوسيو Lu أن Li تعلمنا "أن إذا ما أطلق المرء العنان لمشاعره، واتبع ميوله فهذا أسلوب البرابرة. طريقة Li مختلفة تماماً.

فالطقس يضع درجات وحدوداً".[82] إذا ما أصبحت الشعائر جزءاً حقيقياً من كيانه فإن الجونزي يكون قد تعلم الاعتدال، وضبط النفس، والكرم، لأن Liمصممة لإبقاء العنف والصلف تحت السيطرة، الشعائر تبعد الاضطرابات كما تبعد السدود الفيضانات."[83]

مسابقة رمي السهام كانت توضح مزية الجونزي، لأنها لم تكن مجرد امتحان لمهارة وكفاءة عسكرية، بل احتفال موسيقي مصمم لزيادة السلم والانسجام. باستطاعة أي بربري أن يصيب الهدف، لكن الجونزي كان يهدف إلى النبل، إنه لم يكن يريد فعلاً أن يفوز وهذا بحد ذاته كان عملاً ينم عن التواضع، ومن المشرف له أن يخسر، لأن الطموح المجرد كان يعّد سوقياً، ودليلاً على شخص وضيع. تقديم كأس الفوز إلى المتسابق الخاسر كان فعلياً هو عمل ينم عن الولاء، فقبل أن يرفع كل متسابق قوسه يجب عليه أن يتخذ موقفاً عقلياً صادقاً، بالإضافة إلى وضعية الجسم بشكل مستقيم، وإلا فإنه سوف يلطخ سلطة أميره."[84] يجب على كلا المتسابقين أن يطلقا سهميهما مع الموسيقى وفي اللحظة ذاتها. وبينما كان السهم يحلق منطلقاً من القوس يجب أن يغني السهم اللحن الصحيح. وبدلاً من إصابة الهدف كان من المفترض أن يلتقي السهمان في الهواء: وبذلك قد تحول العنف والمواجهة إلى حالة توافق وانسجام. في نهاية المنافسة كانا كلاهما يبكيان: الفائز يبكي على المهزوم، والمهزوم إشفاقاً على الفائز الذي كان الخاسر الحقيقي. بعد ذلك كانا كلاهما يركعان ويعدان أن يعيشا ـ من الآن فصاعداً ـ مثل أب وابنه.

كانت Li مصممة للجم نزعة التعصب العدوانية التي قد تلهم بسهولة الثأر. كان من المفترض أن تكون روح الاستسلام تشكل سمة للحياة السياسية.[85] فبدلاً من أن يعبر المستشارون بكل حدة عن آرائهم، ويراوغون من أجل منصب، كانوا يذعنون للأمير طقوسياً، لأنهم جميعاً كانوا يستمدون نظرتهم من سلطة

الأمير، وأي نزاع جدي كان مجرد تناقض في الكلمات. حتى إذا لم تكن آراؤهم تتفق مع سياسته، فكلمة نعم منه تلزمهم أن ينفذوا ما أراده الأمير بكل طاقتهم. رفض القرار كان يؤدي إلى عزل من يرفض عن المجموعة، لأن ذلك سيعد إنكاراً للقدرة التي كانت تحيي البلاط بأكمله. فإذا ما كان المستشار مقتنعاً أن الأمير كان يبتعد عن طريق السماء، كان على المستشار واجب تصحيح الأمير، ويجب ألا يفعل ذلك غاضباً. فبعد أن يسجل اعتراضه يتوجب عليه أن يستقيل من مكتبه ويغادر البلاد، وهذا عمل يتضمن فقدان ذاته نفسها لأنه انفصل عن طاقة البلاط. يجب أن يبقى في المنفى مدة ثلاثة أشهر، واضعاً ضغطاً على الأمير بتصرفه هذا، على أمل أن يعود الأمير إلى طريق السماء.

لقد نظمت الحياة الأسرية بالروح ذاتها. علاقة الأب والابن لم تكن قائمة على حب طبيعي بل على الرابطة بين الأمير وحاشيته.[86] لقد حاول الطقس الصيني دائماً أن يشذب ويطور ما هو بيولوجي، و Li أوجدت الرابطة البنوية بين الأب ولإبن، التي لم توجد عند ولادة الابن. طوال السنوات الثلاثين الأولى من حياته، نادراً ما كان الإبن يرى أباه. كطفل صغير كان يعيش في قسم النساء، ثم يذهب لدراسة Li في منزل خاله. وبعد أن يكمل تعليمه كان باستطاعة الابن أن يقوم بأعمال خدمة تلحقه بأبيه وخلق الرابطة المقدسة بينهما. فالاحترام والتقدير كانا أكثر أهمية من المحبة أو المودة. الأب، مثل أمير، كان الممثل للسماء، والرابطة بين الاثنين كان يفترض أن تكون بعيدة ومتينة. إذ من غير الملائم له أن يكون على علاقة ودية وأليفة مع أبنائه، مثلما كان يسلك أمير تجاه حاشيته.

كان الابن يحترم أباه كسلفٍ. أداؤه مهتم بشعائر تقوى بنوية متشكلة داخل والده، أي القدسية التي ستجعله كائناً سماوياً بعد الموت. أنعشت هذه الشعائر الميزة الإلهية الخشوعية التي جعلت كل كائن بشري فريداً. إذا كانت هذه القدسية قوية، فإن هذه الفردانية المقدسة سوف تنجو من موت الجسد. كان يعامل أباه باحترام مطلق، والإبن الأكبر كان يمده بالقدرة كي ينجز انسانيته. كل صباح كان ينهض عند الفجر مرتدياً كامل ملابسه الطقوسية، ويخدم والديه، الابن وزوجته.

لم يكن باستطاعته أن يتجشأ، أو يعطس، أو يسعل، أو يتثاءب في حضرة والده. إنه لم يكن يدوس على نفس الدرج كأبيه، ولا يستخدم صحن أبيه، أو عكازه، أو فنجانه. كان يصلح ويغسل ملابس والديه، ويحضر الصحون المحددة طقوسياً، ويخدم والديه وهما يأكلان، حاضاً إياهما بكل احترام أن يستمتعا بوجباتهما. دائماً يجب عليه أن يخاطب والده بصوت خفيض متواضع. وإذا ظن أنه كان يتوه عن طريقة السماء، يتوجب عليه أن يلومه، لكن بلطف ويسر، وبلغة مؤدبة. وإذا ما استمر الوالد في ارتكاب الخطأ، يجب على الابن أن يكون أكثر لباقة ولا يعبر أبداً عن غضبه أو استيائه. في سن السبعين كان الأب يتقاعد من الحياة العامة. واجب الابن في هذا الطور الأخير أن يؤكد في كل سلوكه عن سعادته عندما كان والده بصحة جيدة، وعن حزنه إذا مرض، وأن يأكل إذا كانت شهية والده جيدة، وأن يصوم إذا كان الرجل العجوز مريضاً.[87] بهذا السلوك فإنه يكون قد تعلم الفضيلة التأكيدية لـ shu (أي المماثلة بالنفس) التي ستغدو مركزية في العصر المحوري الصيني.

عند موت أبيه، كان الابن يشارك قدر استطاعته في تجربة الموت. كان ينسحب من بيت العائلة ويعيش في كوخ، وينام على الأرض متوسداً التراب مخدة له، ويبقى صامتاً ويصوم، ويضعف نفسه كثيراً لدرجة أن يتمكن من الوقوف بمساعدة عكاز. طوال ثلاث سنوات، كان الابن البكر يتولى شعائر الحداد التي حولت شبح الوالد إلى shen، بينما كان المتوفى يشق طريقه تدريجياً باتجاه أسلافه الذين هم أيضاً نالوا البقاء شخصياً. وبعد انتهاء فترة الحداد كان الابن يترأس مكانه على عقيدته، وطوال عشرة أيام كان يعد نفسه لاستقبال طقسي، فيقوم باعتكاف روحي، يصوم، ويفكر بالطريقة التي كان يسلك والده بها، وكيف كان يبتسم، ويتحدث. في هذا الطقس كان الابن يلعب دور المتوفى حديثاً، إذ كان يشعر ـ أثناء الطقس ـ أن روح جده كانت حية فيه. عندما كان الابن المفجوع يرى أخيراً وصول والده إلى المأدبة، كان ينحني له، ويرافقه إلى مكانه إلى الطاولة، عارفاً أن مهمته كانت قد أنجزت. فكما نوه /سجل الشعائر/ فقد شارك بـ shen جده المتألق ونال استنارة تامة".[88]

لم يكن الابن يمتلك حياته الخاصة به بعد وفاة والده، بل كان يكرس جميع مواهبه للعناية بشرف والده، كما كان يزيد من سلطة أميره على أرض المعركة. كان لديه واجب العناية بصحته لأن جسمه كان ملكية للأسرة. يجب ألا يقوم بمخاطر غير ضرورية، ويجب عليه أن يصون طبيعته ويبقيها سليمة، وبالتالي إبقاء نفسه حياً ومعافى لأطول مدة ممكنة ـ وهذا موقف سوف يبرز في شكل جديد خلال العصر المحوري الصيني. إن عقيدة التقوى البنوية مقيته للعقل الحديث، لأنها تقلل الابن إلى درجة الصفر. لكن في حقيقة الأمر، كانت الأسرة الصينية قد نظمت لمنع الاستبداد الأبوي. سلطة الأب كانت محددة بشخصيات أخرى. حقوق أكبر الأخوال سناً كانت مساوية لحقوق الأب، وحتى قد تتجاوزها. الابن سيصبح والداً، وينال الخضوع من أبنائه مثلما كان يخدم أباه. ففي طقس المأدبة، عندما كان يحيي الإبن والده، فإنه في حقيقة الأمر كان ينحني أمام ابنه هو، وبالتالي كان هناك تعظيم متبادل. الواجب الرئيسي للابن الأصغر لم يكن أن يخدم أباه، بل أن يحترم ويساند أخاه الأكبر منه سناً. كان النظام مصمماً على هذه الشاكلة بحيث أن كل فرد في الأسرة كان ينال درجة احترام مطلق. بينما طالبت Li الإبن أن يخضع لوالده، كان الوالد مجبراً أيضاً أن يتصرف بعدل، ولطف وكياسة مع أطفاله. ليست لدينا فكرة عن مدى اتباع الصينيين لهذه Li عملياً فلربما / سجل الشعائر/ طوباوي أكثر مما كان حقيقة تاريخية. بالرغم من كل ذلك ومع حلول القرن السابع، يبدو أن المثال الأعلى قد حول صين الزهو من مجتمع مدمن على بذخ فظ إلى مجتمع يثمن الاعتدال وضبط النفس.[89] فالمثال الأعلى سوف يضع العصر المحوري الصيني في حالة حركة، ويعطيه اتجاهاً فريداً.

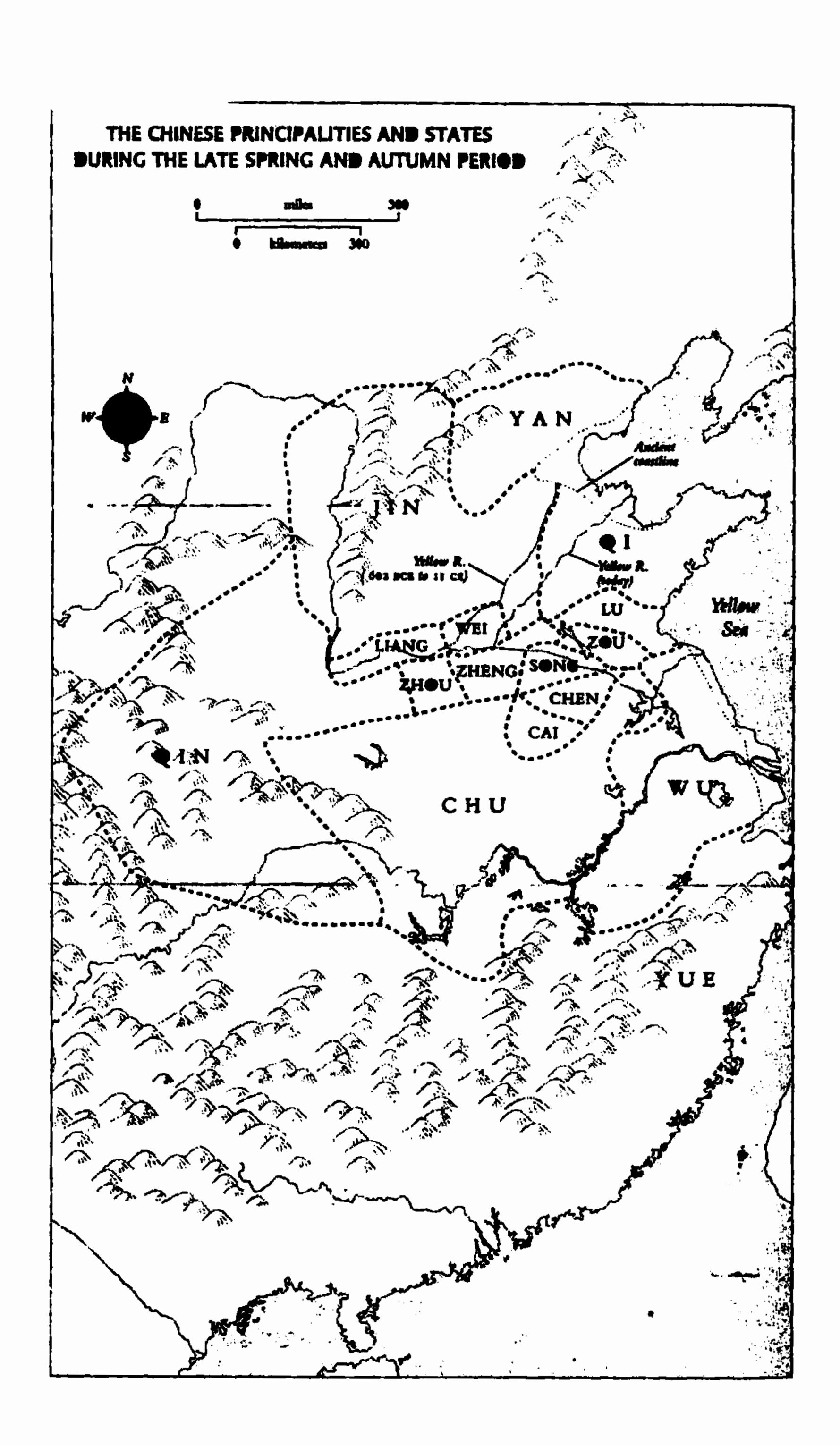
حتى هذه المرحلة، الولايات الأقل تقليدية في محيط السهل العظيم ـ ch, Jin, Qi، وQing قد قبلت الأوامر الطقوسية، لكن الأزمنة كانت تتغير. فخلال النصف الثاني من القرن السابع، بدأت القبائل البربرية في الشمال تغزو الولايات الصينية باستمرار أكثر من ذي قبل. دولة chu الجنوبية الجديدة أصبحت

مشكلة خطيرة، لأنها كانت متلهفة لأن تتوسع، فتجاهلت قواعد الحرب اللبقة وهددت الإمارات المجاورة. ملك الزهو كان ضعيفاً جداً لم يستطيع تقديم قيادة فعالة ضد إمارة chu. في عام 679 أمير huan of Qi أسمى نفسه "النبيل الأول" في الصين وأقام تحالفاً دفاعياً.[90]

في هذه المرحلة كانت إمارة Qi الدولة الصينية الأكثر قوة، والأمير هوان كان حاكماً مستنيراً له علاقات مع إمارة zhou. نظم مؤتمرات لمناقشة مبادئ التعاون بين الولايات، الولايات التي انضمت إلى تحالفه قيدت نفسها بيمين مما أعطى هذا التحالف صبغة دينية. ذبح ثور كقربان، ورطب المندوبون شفاههم بدم الثور، وأعاد كل من حضر كلمات المعاهدة مخاطبين الآلهة المحلية، والجبال، والأنهار، والأسلاف:

نحن جميعاً نقسم سوياً على هذه المعاهدة، لن نجمع المحاصيل، ولن نحتكر الأرياح، لن نحمي المذنب، ولن نتستر على مثيري المشاكل. سوف نساعد من هم ضحايا البلاء أو الكارثة. سيكون لدينا رحمة على عاثري الحظ أو من يعانون من متاعب. سيكون لنا الأصدقاء والأعداء أنفسهم. سوف نساعد البيت الملكي.[91]

كان الهدف هو خلق تضامن، فشعائر التحالف أوجدت روابط أسرية بين أمراء الولايات المختلفة، الذين وعدوا بالالتزام بشعائر الجنازة تجاه قريبهم الجديد. ومن يخالف هذا التحالف كان يغامر بعقوبات مخيفة فرضتها الآلهة والأسلاف: "سوف يخسر شعبه، وسيفشل تعيينه، وتهلك أسرته، ودولته وقبيلته سوف تقوض كلياً."[92] جمع النبيل الأول جزية من الدول الأعضاء، وأشرف على الدفاع المشترك على الرغم من أنه كان ما يزال مقراً بسيادة ملوك الزهو، في حقيقة الأمر لقد حل محل الملك. لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً، فبعد وفاة الملك هوان عام 643 تقاتل أبناؤه على الخلافة، ولم تتعافى Qi تماماً من هذه الحرب الأهلية. استأنفت chu عدوانها، ونظم أمير Ji تحالفاً جديداً. وفي عام 597 هزمت chu هذا التحالف.


THE CHINESE PRINCIPALITIES AND STATES
DURING THE LATE SPRING AND AUTUMN PERIOD
0 miles 300
0 kilometers 300
N
W
E
S
YAN
Ancient coastline
JIN
QI
Yellow R. (today)
LU
Yellow Sea
WEI
ZOU
LIANG
ZHENG
SONG
ZHOU
CHEN
CAI
QIN
CHU
WU
YUE

لقد بدا وكأنما القوة الغاشمة انتصرت على الاعتدال. ففي مواجهة الخطر المتزايد لإمارة chu تعلقت الإمارات القديمة بقوة أكثر بطقوسها وتقاليدها. لم تستطع مجاراة القوة العسكرية للولايات الجديدة، فعادت إلى الدبلوماسية والإقناع. بيد أن الدول المحيطية الأكبر كانت قد بدأت تتحول بعيداً عن مثل التوافق والاستسلام. لقد لاحظ الناس أنه على الرغم من أن الولايات قد ربطت نفسها بالتحالف بأغلظ الأيمان، لكن الأرواح فشلت في معاقبة المنشقين. فالدولة التي بقت وفية للمعاهدة عانت أكثر من سواها.[93] وهي نزعة شك قد بدأت تقوض الافتراضات القديمة.

* * *

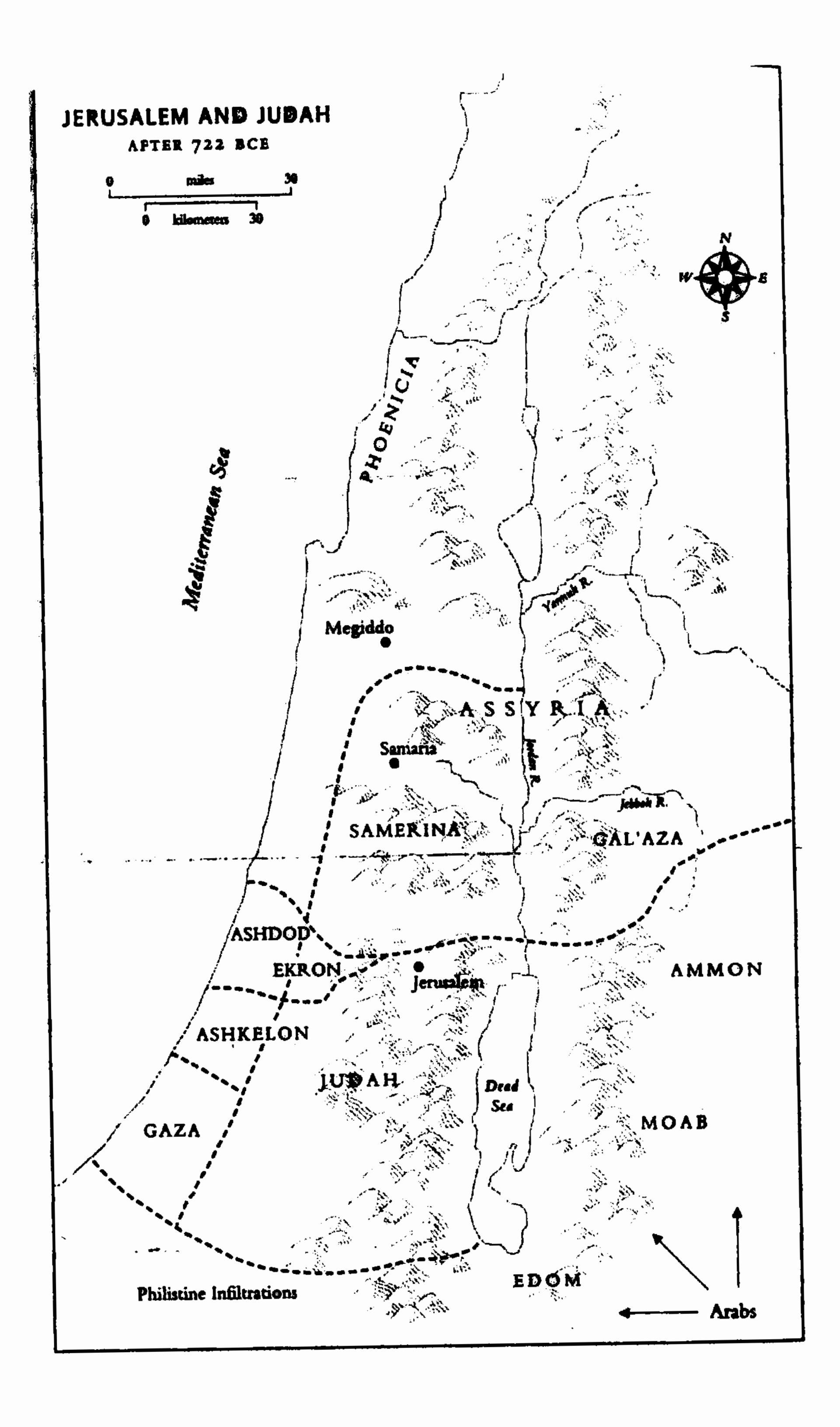
القرن السابع كان حداً فاصلاً شهد بدايات دين اليهودية. حزقيا قد غادر ميراثه المتشدد. وابنه منسى صمم ألا يكرر أخطاء أبيه (687 ـ 642)، فبقي مخلصاً لآشور، وازدهرت يهودا خلال عهده الطويل.[94] لم يتوقع الآشوريون أن يعبد حلفائهم آشور إلههم القومي، وهكذا أصبحت بعض رموزهم الدينية مرئية عالية المقام. لم يكن منسى مهتماً بعبادة يهوه وحده، فأعاد بناء المقامات ا لتي دمرها حزقيا، فشيد مذابح لبعل، وجلب تمثالاً لعشيرة إلى هيكل أورشليم، وأقام تماثيل للخيول الإلهية للشمس عند مدخل الهيكل، ورسّم تقديم طفل كقربان خارج القدس.[95] لقد روعت هذه التطورات المؤرخ التوراتي، بينما وجدتها قلة من رعايا منسى مدهشة جداً. فكما اكتشف الآثاريون أنه كان لدى الكثيرين أيقونات مماثلة في بيوتهم.[96] مع ذلك كان هناك عدم استقرار في المناطق الريفية التي دمرت أثناء الغزوات الآشورية.[97] فمع أن سياسات حزقيا القومية كانت كارثية جداً، ربما ساورت البعض أحلام بعصر ذهبي عندما عاش أجدادهم بسلام في أرضهم، دون تهديد مستمر بغزو أو بهيمنة قوى أجنبية عليهم. هذا السخط الدفين ثار بعد موت منسى.

حكم ابنه آمون Amon سنتين فقط قبل أن يغتال في انتفاضة في القصر قادتها الارستقراطية الريفية التي تسميها التوراة أمها آريتس amha-aretz أي "أصحاب الأرض"[98]

نصب قادة الانقلاب ابن آمون على العرش عندما كان في الثامنة من عمره، لأن والدته كانت من بزاقة Bozkath ـ قرية صغيرة في تلال يهوذا، بينما ابنها كان واحداً منهم.[99] وبذلك انتقلت السلطة من النخبة المدينية إلى قادة الريف، وفي البداية بدا أن كل شيء كان يسير في ركابهم. في هذه الأثناء كانت آشور في حالة تراجع، ومصر كانت في حالة صعود. ففي عام 656 أجبر الفرعون psame tichus الأول ـ مؤسس السلالة السادسة والعشرين الجيوش الآشورية على الإنسحاب من الشرق الأدنى. لقد شاهد سكان يهوذا ـ بدهشة وسعادة ـ الآشوريين يجلون عن مناطق مملكة إسرائيل الشمالية القديمة. صحيح أن هوشع قد أصبح الآن تابعاً لمصر، لكن الفرعون كان منشغلاً جداً بالسيطرة على طرق التجارة المربحة في أرض كنعان المنخفضة بحيث لم يكن يهتم بيهوذا التي تركت في تلك الفترة إلى وسائلها الخاصة.

عندما أصبح هوشع في سن تقارب السادسة عشرة، كان لديه نوع من هداية دينية، التي ربما كانت تعني أنه كان يريد أن يعبد يهوه فقط.[100] فلربما كان الولاء المبدئي للإله القومي كان أيضاً إعلاناً لاستقلال سياسي. في عام 622 أي بعد عشر سنوات تالية، بدأ هوشع بأعمال بناء مكثفة على هيكل سليمان، المذكر الكبير بعصر يهوذا الذهبي. وأثناء البناء، قام كبير الأحبار باكتشاف مهم جداً، وأسرع إلى شافان shaphan الكاتب لدى الملك حاملاً أنباءً مثيرة : " لقد عثرت على سفر التوراة في هيكل يهوه".[101] وقال إن ذلك كان السفر الحقيقي الذي أعطاه يهوه إلى موسى على جبل سيناء، وعلى الفور أخذ شافان اللفافة إلى الملك، وقرأها بصوت عالٍ في حضرته.

يعتقد معظم الدارسين أن اللفافة كانت تحتوي على نسخة قديمة من سفر تثنية الإشتراع الذي يصف موسى جامعاً الناس سوياً على جبل نبو nebo في عبر الأردن قبل موته بوقت قصير، ومقدماً شريعة ثانية" باليونانية deateranomion. لكن بدلاً من أن يكون سفراً قديماً ـ كما زعم شافان وحلقيا ـ من المؤكد أنه كان سفراً مقدساً جديداً تماماً. فحتى القرن الثامن قلة من الناس كانت


JERUSALEM AND JUDAH
AFTER 722 BCE
0 miles 30
0 kilometers 30
N
W
E
S
Mediterranean Sea
PHOENICIA
Megiddo
ASSYRIA
Samaria
Jordan R.
Yarmuk R.
Jabbok R.
SAMERINA
GAL'AZA
ASHDOD
EKRON
Jerusalem
AMMON
ASHKELON
JUDAH
Dead Sea
MOAB
GAZA
EDOM
Philistine Infiltrations
Arabs

تستطيع قراءة أو كتابة النصوص الدينية سواءً في إسرائيل أو في يهوذا. لم يكن هناك تراث مبكر يقول بأن تعاليم يهوه قد تمت كتابتها. ففي J وE نقل موسى وصايا يهوه من خلال الكلمة المنطوقة، والناس استجابوا كلياً: "كل ما قاله يهوه سوف نفعله".[102] لم يذكر J وE الوصايا العشر، فالألواح الحجرية أصلاً "نطقها مكتوب بإصبع الله".[103] من المحتمل أنها احتوت على المخططات الموحاة إلهياً من أجل الخيمة النقالة حينما أقام يهوه مع شعبه خلال سنوات التيه في البرية.[104] بعد فترة تالية، أضاف كتبة سفر الاشتراع إلى السرد في J E، شارحين أن موسى " كتب جميع كلمات يهوه" و" أخذ لفافة العهد (سفر التوراة) وقرأها على مسامع الناس".[105]

زعم شافان أنها هذه هي اللفافة التي اكتشفها حلقيا في الهيكل. فطوال قرون كانت هذه الوثيقة النفيسة مفقودة، ولم تكن تعاليمها مطبقة ابداً. أما وقد تم اكتشاف سفر التوراة، أصبح باستطاعة شعب يهوه القيام ببداية جديدة. وهذا لم يكن تزويراً فاضحاً على أية حال. في هذه الفترة كان من المألوف إذا ما رغب الناس بنقل تعاليم دينية جديدة أن ينسبوا كلماتها إلى شخصية عظيمة من الماضي. اعتقد مؤيدو سفر تثنية الاشتراع أنهم كانوا يتكلمون نيابة عن موسى في زمن محنة قومية شديدة. كان العالم قد تغير كثيراً منذ زمن الخروج، ودين يهوه كان في خطر. ففي عام 722 دُمرت مملكة إسرائيل الشمالية، واختفى الآلاف من مواطنيها دون أثر. وبالكاد نجت مملكة يهوذا من الإبادة في عهد الملك حزقيا. يهوه فقط من كان باستطاعته أن ينقذ شعبه، وليست الآلهة التي أحيا منسى عبادتها. أنبياء عديدون حثوا الناس أن يعبدوا يهوه وحده، أما الأن فكان ليهوذا ملك استطاع إحياء أمجاد الماضي. هذا ما كان سيقوله موسى إلى هوشع وشعبه، إذا كان ينقل "شريعة ثانية".

ما أن سمع يوشيا الكلمات التي على اللفافة حتى مزق ملابسه في كمد وصاح:

"عظيم هو غضب الرب الذي اشتعل علينا، من أجل أن آباءنا لم يسمعوا

كلام هذا السفر، ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا."[106] هذه النقلة من نقل شفوي للدين إلى نص مكتوب كان صدمة كبيرة. فهنا ـ كما في مكان آخر في التوراة ـ أثار إحساساً باليأس والذنب وعدم الكفاءة.[107] بدت الحقيقة الدينية مختلفة كلياً عندما قدمت بهذه الطريقة. كل شيء كان واضحاً، مفصلاً، ومجففاً، ومختلفاً جداً عن "المعرفة" المنقولة شفوياً، أي أكثر مراوغة. في الهند لم يكن الناس يعتقدون أن بالإمكان التعبير عن عقيدة دينية عبر الكتابة: فعلى سبيل المثال لم يكن في وسعك أن تفهم المعنى التام للأبانيشاد من خلال قراءة النصوص فقط. لكن مؤيدو سفر تثنية الاشتراع جعلوا اليهودية (أي عبادة يهوه فقط) دين الكتاب. ولهذا السبب نجد أن مقياس العقيدة الدينية في الغرب سيكون كتاباً مقدساً مكتوباً.

اليشع استشار فوراً النبية خلدة التي كان سفر التوراة يعني لها شيئاً واحداً، وواحداً فقط. لقد تلقت وحياً من يهوه:

هكذا قال الرب ها أنذا جالب شراً على هذا الموضع، وعلى سكانه.

كلام السفر الذي قرأه ملك يهوذا. من أجل أنهم تركوني، وأوقدوا لآلهة أخرى".[108]

• طلب اليشع من كل الناس أن يستمعوا إلى الأوامر الواضحة في اللفافة:

على أسماعهم، قرأ كل شيء قيل في سفر العهد وجد في هيكل يهوه.

وقف الملك قرب العمود، وقطع عهداً أمام يهوه أن يتبع يهوه

محافظاً على وصاياه، وأوامره، وتماثيله، بكل قلبه وروحه، أن

ينفذ كلمات العهد كما هو مكتوب في ذلك السفر. وقدم جميع الناس

ولاءهم للعهد.[109]

كان الإصلاح جوهرياً بكل جلاء. فعلى الفور بدأ يوشيا برنامجاً حسب توراة يهوه في السفر. أولاً استأصل تراثات العبادة التي أدخلها جده منسى، حرق تماثيل بعل وعشيرة، وأزال المقامات الريفية. وهدم المنزل المخصص للبغايا المقدسات في الهيكل، والفرن حيث كان الإسرائيليون يقدمون أطفالهم أضاحي لـ moloch، ودمر تماثيل أحصنة الشمس الآشورية. يبدو الأمر وكأنه حملة تدمير. وعندما رجع يوشيا إلى المناطق القديمة في مملكة إسرائيل، كان دون رحمة حتى، فهناك لم يدمر فقط معابد يهوه القديمة في بيت إيل والسامرة، بل قتل جميع كهنة المقامات الريفية ودنس مذابحها.[110]

لقد كشف سفر التوراة أن ملوك إسرائيل ويهوذا قد تغاضوا طوال قرون عن ممارسات قد منعها يهوه بكل وضوح منذ البداية. كما أوضح أن يهوه قد طلب الولاء الحصري له.

اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك.[111]

حب يهوه كان يعني أنه يجب على الإسرائيليين ألا يقيموا تعاملات مع سكان كنعان الأصليين. يجب ألا يعقدوا معاهدات معهم، ولا يروهم شفقة، وأن يمسحوا دينهم:

لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم.

تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم

وتحرقون تماثيلهم بالنار"[113]

في هذا الإصلاح أطاع اليشع أوامر واضحة من يهوه حرفياً.

طالب أنصار سفرتثنية الاشتراع أن يكونوا محافظين، وأن يعودوا إلى دين إسرائيل الأصلي، لكنهم كانوا مجددين جذرياً في حقيقة الأمر. ألغوا رموزاً من السارية المقدسة (عشيرة) والحجارة المنصوبة التي كانت مقبولة تماماً.[114] وفي

مدونة شريعتهم أدخلوا بعض تشريع جديد مذهل: أولاً عبادة إسرائيل كانت ممركزة بقوة، القربان يقدم في مكان واحد فقط هو المكان الذي قد حدد يهوه اسمه.[116] وأورشليم لم تذكر بوضوح، لكنها مع حلول القرن السابع كانت المعبد الوحيد القادر على القيام بهذا الدور. هذا كان يعني أن المعابد الأخرى والمقامات الريفية حيث تعبد الناس يهوه طوال قرون يجب أن تدمر. ثانياً تغاضى أنصار تثنية الأشتراع عن الذبح الدنيوي للحيوانات.[117] في العالم القديم كان يسمح عموماً أكل اللحم المقدم كقربان طقوسي في منطقة مقدسة. أما وقد ألغيت المعابد المحلية، فقد سمح للذين كانوا يعيشون بعيداً عن أورشليم أن يذبحوا أحياناً في بلداتهم شرط ألا يأكلوا دم الأضحية الذي كان يحتوي على قدرة الحياة، بل كانوا يسكبونه باحترام على الأرض.

لقد أوجد أنصار تثنية الاشتراع عالماً دنيوياً بقواعده الخاصة يؤدي وظيفته إلى جانب العبادة.[118] طبق المبدأ نفسه على الإصلاح القضائي الوارد في سفر التثنية. تقليدياً كانت العدالة تدار من قبل شيوخ قبليين في المقامات المحلية. لكن الآن عين أنصار التثنية قضاة حكوميين في كل مدينة، ومحكمة عليا في أورشليم للنظر في القضايا الإشكالية.[119] في نهاية المطاف، جرد أنصار التثنية الملك من سلطاته التقليدية،[120] فلم يعد شخصية مقدسة. وفي حالة افتراق مدهش عن العادة في الشرق الأدنى حددوا كثيراً من صلاحيات الملك.

كان واجبه الوحيد هو فقط أن يقرأ التوراة المكتوبة، وأن يلتزم دائماً بجميع كلمات هذه الشريعة، وهذه التماثيل الصغيرة، ولا يعظم نفسه على أفراد المجتمع الآخرين، ولا يزيح عن الوصايا العشر لا يسرة ولا يمنة، بحيث هو وأحفاده يمكنهم أن يحكموا طويلاً على مملكته في إسرائيل.[121] لم يعد الملك ابناً للرب، الخادم الخاص عند يهوه، أو عضواً من المجمع الإلهي. لم يكن لديه امتيازات خاصة، بل خاضعاً للشريعة مثل شعبه.

كيف استطاع أنصار التثنية أن يبرروا هذه التحولات التي قلبت قروناً من تراث مقدس؟ إننا لا نعلم بدقة من كان هؤلاء الأنصار لسفر الإشتراع. يوحي

اكتشاف اللفافة أن من بينهم كهنة، وأنبياء وكتبة. ربما نشأت حركتهم في المملكة الشمالية، وأتت إلى يهوذا بعد تدمير مملكة إسرائيل في عام 722. إنهم يعكسون أيضاً آراء المحرومين من حقوق الرعاية للذين نصبوا أليشع على العرش.

كان اليشع مهماً لأنصار سفر الاشتراع. فعظموه على أنه موسى جديد، واعتقدوا أنه كان ملكاً أعظم من داؤود.[122] فإلى جانب إصلاح الشريعة أعادوا كتابة تاريخ إسرائيل، الذي بلغ الذروة في عهد اليشع ـ كما اعتقدوا. أولاً حرروا J الأبكر، وسرديات E معدلين إياها بما يتوافق مع ظروف القرن السابع.[123] لكنهم لم يدخلوا إضافات على القصص التي تدور حول البطاركة إبراهيم، واسحاق، ويعقوب الذين لم يكونوا محط اهتمامهم، بل ركزوا على موسى الذي حرر شعبه من العبودية في مصر ـ في وقت كان اليشع يأمل أن يصبح مستقلاً عن الفرعون.

بعد ذلك وسعوا أحداث الخروج لتشمل سفر يوشع، وقصة فتحه للتلال الشمالية. لقد رأى مؤرخو سفر الاشتراع في عصر يوشع عصراً ذهبياً، عندما كان الشعب مكرساً نفسه ليهوه.[124] وكانوا مقتنعين أن إسرائيل كانت على وشك الإقلاع في عصر مجيد آخر.

اليشع ـ مثل موسى ـ يرمي عنه نير الفرعون، ومثل هوشع سوف يهزم المناطق التي أخلتها آشور ويعيد الدين الحقيقي ليهوه. وأخيراً كتب أنصار الاشتراع تاريخاً لمملكتي إسرائيل ويهوذا في سفري صموئيل والملوك، هذا التاريخ الذي أدان بشدة المملكة الشمالية، وقال أن ملوك داؤود في يهوذا كانوا حكاماً صالحين مستقيمين لكل إسرائيل، جماعة أنصار الاشتراع منحوا مصادقتهم القوية على البرامج الدينية والسياسية التي قام بها اليشع. لكن هذا لم يكن دعاية رخيصة. كان أنصار الاشتراع رجالاً متعلمين، وإنجازهم كان مرموقاً. لقد اعتمدوا على مواد أكثر قدماً ـ الأرشيفات الملكية القديمة، ومدونات قانونية، والأساطير، والنصوص المقدسة لإيجاد نسخة جديدة كلياً، وبجعل التراثات القديمة تخاطب الظروف الجديدة لإسرائيل في عهد اليشع. في بعض النواحي،

يبدو سفر الإشتراع مثل وثيقة عصرية. نظرته التي لها مسحة علمانية، قضاء مستقل، ملكية دستورية، ودولة مركزية تتطلع إلى زمننا نحن. لقد طور أنصار سفر الاشتراع لاهوتاً عقلانياً أكثر وأسقطوا الكثير من الأساطير القديمة.[125] فالله لم ينزل من السماء كي يكلم موسى على جبل سيناء، لأن ليس باستطاعتك أن ترى الله فعلياً ـ كما اعتقد بعض الإسرائيليين، ولا تستطيع أن تحتال عليه بتقديم قربان. فالله بكل تأكيد لم يعش في الهيكل: وضع المؤلفون صلاة مطولة على شفتي سليمان بعد تكريسه المعبد. مما أوضح أن المقام كان ـ بكل بساطة ـ مكاناً للصلاة وليس حلقة ربط بين السماء والأرض.

"هل يستطيع الله أن يعيش فعلياً مع الإنسان على الأرض؟" هذا ما سأله سليمان بكل تعقل. "لماذا السماوات، وسماؤهم الخاصة بهم لا تستطيع أن تحتويك، مهما كانت مكانة هذا المنزل الذي قد بنيته أقل مكانة!"[126] إسرائيل لم تكن تملك أرضها لأن يهوه قد اختار أن يستقر على جبل صهيون، كما زعمت الأساطير القديمة، لكن لأن الشعب التزم بمكانة يهوه وعبده وحده.

الأمر الأساسي الآخر: كان أن يسلك الإسرائيليون بعدل وطيبة تجاه بعضهم بعضاً. وأنهم سيملكون الأرض وسينجحون في مشاريعهم شرط أن يعطوا قسماً من دخلهم إلى اليتامى والأرامل، أو يضعوا قسماً للفقراء من عنبهم وزيتونهم أو قمحهم في الحقول بعد جني المحصول. يجب أن يتذكروا أنهم كانوا مضطهدين في مصر وأن يحاكوا كرم يهوه.[127]

"إن كان فيك فقير واحد من أخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك فلا تقس قلبك، ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير. بل افتح يدك له وأقرضه ما يحتاج إليه"[122]

يجب على الإسرائيليين أن يقدموا ميراث الزوجات اللواتي هجرهن أزواجهن، وأن يكفلوا حقوق المقيم الأجنبي، وأن يعتقوا عبيدهم بعد ست سنوات على الخدمة.[129]

تأكيد أنصار الاشتراع المتحمس على أهمية العدل، والمساواة والتراحم، ذهب إلى أبعد مما طالب به عاموس وهوشع. فلو أن إصلاحهم طبق تماماً، لغير أنصار الاشتراع حياة إسرائيل سواء من الناحية السياسية، والاجتماعية، والدينية والقضائية.

هذه نقطة مهمة. لقد أدخل المدافعون عن أنصار الاشتراع مركزية جديدة تماماً إلى النص المكتوب. ففي يومنا هذا غالباً ما يستخدم الناس الكتاب المقدس كي يعارضوا التغيير وللحفاظ على الماضي. لكن أنصار الاشتراع الذين كانوا رواد فكرة عقيدة الكتاب المقدس، قد استخدموا النصوص التي ورثوها كي يدخلوا تغييرات جوهرية. لقد أعادوا كتابة الشرائع القديمة لمدونة العهد في القرن التاسع بإدخال عبارات، وتبديل كلمات لجعلها تؤيد تشريعهم الجديد حول الذبح الدنيوي، ومحرم مركزي، والتقويم الديني.[130] بدلاً من السماح للشرائع القديمة، والأساطير الشفوية، أو عادات العبادة تعوق أو تمنع الإصلاح الذي أرادوه، فقد استخدموا هذه التراثات بإبداعية. لم يكن الماضي المقدس مسكوباً في صخر، بل رآه الاشتراعيون كمصدر بإمكانه أن يسلط ضوءاً على حالتهم الراهنة.

جعل الاشتراعيون اليهودية دين الكتاب، لكن ـ كما يبدو ـ كان هناك معارضة لا بأس بها لهذا التطور. لقد غير التعليم علاقة الناس مع موروثهم، ولم تكن نحو الأفضل على الدوام. ففي الهند ـ مثلاً ـ كان النقل الشفوي يتطلب مدة تلمذة مديدة، وتفاعلاً داخلياً ديناميكياً مع معلم كارزمي، وأسلوب حياة منضبط، ومواجهة للنفس. لكن قراءة منعزلة شجعت أفراداً أكثر على تعليم أكثر فردية واستقلالية. لم يعد التلميذ معتمداً على معلمه guru، بل أصبح باستطاعته أن يتابع النصوص بمفرده وأن يستنبط استنتاجاته الخاصة به، ومعرفته قد تكون أكثر ضحالة، لأنه قد يرى أنه لا حاجة لأن ينظر إلى ما وراء الكلمات على الصفحة، أو أن يجرب الصمت المنير الذي أخذه إلى ما خلف كلماته ومفاهيمه.

بدأ النبي أرميا كهنوته تقريباً في نفس الوقت الذي اكتشف فيه حلقيا اللفافة. ربط دعوته بالعثور على سفر التوراة، ومع أنه شخصياً لم يكن من الكتبة إلا أن تلميذه baruch باروخ دوّن نبوءاته مكتوبة. أعجب إرميا كثيراً بيشوع ومن المحتمل أنه كان له علاقات بحلقيا وشافان. يشترك سفر إرميا في أسلوب ونظرة سفر الاشتراع في عدة نقاط.[131] مع ذلك كانت لديه تحفظات على التوراة المكتوبة:

كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا. حقاً إنه الكذب حولها قلم
الكتبة الكاذب. خزي الحكماء ارتاعوا وأخذوا. ها قد رفضوا كلمة الرب فأية حكمة لكم.[132]

في العبرية التوراتية كلمة davar كانت النبؤة المنطوقة للرب، نطقها الأنبياء والحكماء، وتشير إلى التراث الشفوي للجماعة. عند هذه المرحلة المبكرة، كان هناك قلق حول القيمة الروحية لكتاب مقدس مكتوب.

في دراسة للحركات اليهودية الحديثة العلامة البارز حاييم سولوفيتشك يجادل أن الانتقال من تراث شفوي إلى نصوص مكتوبة قد يؤدي إلى صخب stridency ديني، بإعطاء الطالب وضوحاً ليس في محله، ويقينية حول مسائل هي بالأساس مبهمة ويعجز القول فيها عبر كلمات.[133] كان الاشتراعيون مفكرين مبدعين وجسورين، لكن لاهوتهم كان حاداً. لقد علم موسى الناس:

تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها.
آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء
وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أصنامهم، وتحرقون سواريهم بالنار
وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم مع ذلك المكان."[134]

فلربما طلب يهوه من الإسرائيليين أن يكونوا لطفاء مع بعضهم، لكن يجب ألا يكون لديهم شفقة على الأجانب. وصف مؤرخ الاشتراع بقبول ظاهري على مذبحة يشوع لسكان Ai عاي:

وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل، في البرية حيث لحقوهم وسقطوا بالسيف حتى فنوا. إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء أثني عشر ألفاً جميع أهل عاي.[135]

يقينية ووضوح زائدين قد يؤديان إلى عدم تسامح وحشي.

مؤلف تثنية الاشتراع من المحتمل أنه أنهى تاريخه بوصف لأول عيد فصح أقيم في أورشليم. بعد أن دمر يوشع معابد السامرة وقتل كهنتها، طلب من جميع الناس أن يحتفلوا بعيد الفصح "كما هو موصوف في لفافة العهد هذه". كان هذا تجديداً آخر من بين تجديدات مؤلف التثنية. فحتى تلك الفترة كان عيد الفصح احتفالاً عائلياً خاصاً يقام في البيت. أما الآن فقد أصبح عادة قومية.[136] أخيراً، يقترح المؤرخ أن الناس كانوا يحتفلون بعيد الفصح بنفس الطريقة التي أرادها يهوه:

إنه لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين حكموا على إسرائيل ولا في كل أيام ملوك إسرائيل وملوك يهوذا. ولكن في السنة الثامنة عشرة للملك يشوع عمل هذا الفصح للرب في أورشليم.[137] لقد كان البداية لفترة دينية وسياسية جديدة. مملكة يهود الجديدة كانت على وشك الانتقال إلى عصر ذهبي جديد.

لكن تجربة يشوع العظيمة انتهت بالدموع. كانت خريطة الشرق الأوسط تتغير. فالإمبراطورية الآشورية كانت في مراحلها الأخيرة، وكانت بابل في مرحلة صعود. في عام 610 توفي الفرعون pasmmetichus وخلفه على العرش necho الثاني الذي سار في السنة الثالثة عبر فلسطين لمساعدة حليفه الملك الآشوري. اعترض يشوع الجيش المصري عند مجيدو، وقتل في المواجهة الأولى.[138] ولم يبق أي من الإصلاحات بعد مقتله. وبذلك تحطم حلم الاستقلال السياسي، وكانت يهوذا مجرد لاعب صغير في الصراع بين مصر والإمبراطورية البابلية الجديدة مما هدد وجودها ذاته.

الفصل الخامس

معاناة

(من 600 إلى 530 ق.م)

خلال القرن السادس، أبحرت إسرائيل تماماً في عصرها المحوري، ومن جديد كان محفز التحول تجربة عنف صادم جامح. بعد فترة قصيرة من وفاة يشوع المبكرة، أصبح نبوخذ نصر ـ ملك بابل ـ سيد المنطقة دون منازع. وطوال السنوات العشر التالية، تنافست الإمبراطورية الناشئة مع مصر للسيطرة على بلاد كنعان. أما ملوك يهوذا فقد غيروا ولاءاتهم بين هاتين القوتين بطريقة لم تكن سهلة، فتارة اختاروا إحداهما، وتارة أخرى اعتمدوا على حماية الأخرى. لكن ثبت أن معارضة بابل كان أمراً خطيراً. ففي كل مرة تمردت فيها يهوذا على الحكم البابلي كان نبوخذنصر يهبط على المملكة الصغيرة بجيشه القوي، ويخضع المنطقة في حملات عسكرية وحشية ثلاث. وفي عام 597 استسلم الملك الشاب Jehoichin ـ ملك يهوذا إلى بابل، ورحّل مع 8000 منفي معه، من ضمنهم أفراد من الأسرة الملكية، والأرستقراطية والعسكر، وحرفيون مهرة: "تم اقتياد جميع القادرين على حمل السلاح إلى المنفى في بابل."[1]

هذه المجموعة الأولى من المنفيين هي التي خلقت النظرة الجديدة لعصر المحور. لقد مزق نبوخذ نصر قلب الدولة اليهودية، مع ذلك قاومت عشر سنوات تالية مع الحاكم صدقيا الذي عينه البابليون على العرش، وعندما تمرد في عام 587 لم يبد نبوخذ نصر رحمة، فهبط بجيشه على أورشليم، ودمر هيكلها، وسوى المدينة بالأرض. كان صدقيا مجبراً أن يرى مقتل أبنائه أمام عينيه قبل

سملهما، ومن ثم رحل إلى بابل مع 5000 آخرين تاركاً وراءه فقط من هم أكثر فقراً، والذين خضعوا لبابل في البلاد المدمرة. وهكذا ألحقت يهوذا بالبنية الإدارية للإمبراطورية، وفي عام 581 رحلت مجموعة ثالثة إلى المنفى.[2]

هذه الفترة كانت فترة معاناة قاسية. لقد قال بعض العلماء اللاحقين إن النفي البابلي لم يكن فعلياً شرخاً نفسياً كبيراً: نحو 75٪ من السكان بقوا في بلادهم، واستمرت الحياة كما كانت مسبقاً. وأن المرحلين نالوا عناية جيدة في بابل، لقد استوطنوا وكانوا يعملون كجامعي إيجارات، وكلاء تجارة، ومديري قنوات الترع. كما أن بعضهم تملك قطعاً من الأرض.[3] بيد أن الاكتشافات الأثرية الحديثة كشفت عن السخط على الهجوم الآشوري. دخلت البلاد في عصر مظلم، واحدة من أكثر فترات المنطقة بؤساً في تاريخها.[4] أورشليم وهيكلها بقيا أنقاضاً مهجورة. يصف شعر المراثي ساحاتها الخالية، وأسوارها المهدمة، وبواباتها المحطمة، فغدت المدينة المزدهرة موطناً لابن آوى. كان الناس ـ يبحثون في مكبات النفايات عن الطعام، والأمهات قتلن، وطبخن أطفالهن، وكان الشبان الوسيمون يطوفون الشوارع الخربة كالحي الوجوه، وأجسامهم هزيلة.[5] بعد أن كان سكان إسرائيل قد فقدوا كل شيء، كانوا يتأملون في فراغ مرعب. لكن كان بعضهم قادراً أن يخلق نظرة جديدة من تجربة الحزن، والضياع، والإذلال.

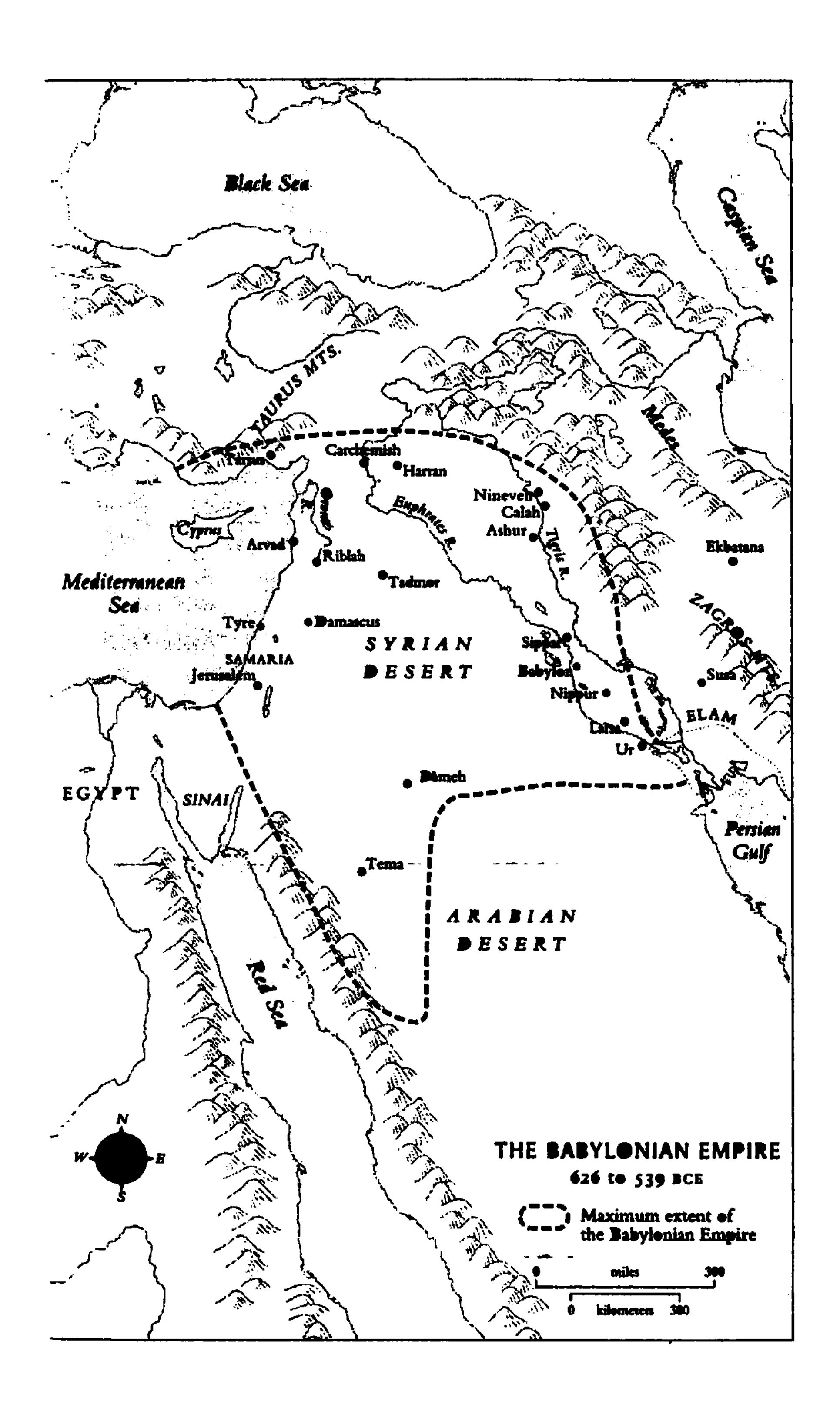
لم يُرحّل النبي إرميا، لأنه كان دائماً مسانداً للبابليين، لأنه أدرك أن العصيان كان حماقة تامة. بينما اعتقد بعض الأنبياء أن تدمير أورشليم غير ممكن لأن يهوه كان مستقراً في هيكله. بيد أن إرميا قال لهم إن هذا هراء خطير. لم يكن هناك فائدة من إنشاد "هذا هو هيكل يهوه" كتعويذة سحرية، وإذا لم يصلح الناس من وسائلهم فإن يهوه سيدمر المدينة.[6] موقفه هذا كان خيانة، وكاد أن يُقتل، وبعد إطلاق سراحه استمر في التجوال في الشوارع مردداً نبوءاته القاسية، بالتالي أصبح اسمه كلمة مرور تعبيراً عن التشاؤم المفرط. لكن إرميا لم يكن سلبياً، بل كان محقاً. وموقفه الشجاع ودون تردد قد عبر

عن واحد من المبادئ الجوهرية للعصر المحوري: يجب على الناس أن يروا الأشياء كما هي فعلاً. وإذا دفنوا رؤوسهم في الرمل، فلن يكون باستطاعتهم أن يؤدوا روحياً أو عملياً دورهم، أو إذا ما رفضوا أن يواجهوا الحقيقة مهما تكن مؤلمة ومرعبة.

كره إرميا كونه نبياً، فبدا مجبراً أن يصرخ ضد إرادته "العنف والدمار" طيلة اليوم، وعندما حاول أن يتوقف كان يشعر كأنما قلبه وعظامه على نار، وكان مجبراً أن يتنبأ من جديد. لقد أصبح مادة للسخرية، وتمنى لو أنه لم يولد.[7] إرميا على شاكلة عاموس وهوشع ـ شعر أن ذاتيته قد سيطر الرب عليها، وأن الألم الذي كان في جوارحه كان ألم يهوه. الرب كان يشعر أنه كان مهاناً، منبوذاً، ومهملاً.[8] بدلاً من إنكار معاناته، قدم إرميا نفسه إلى الناس كرجل أحزان، فاتحاً قلبه على الرعب والسخط والبؤس في عصره، وسمح لهذه المشاعر أن تغزو كل تجويف من كيانه. لم يكن الإنكار خياراً، لأنه كان فقط يعرقل التنوير. بعد الترحيل الأول بفترة قصيرة في عام 597، سمع إرميا أن هناك ما يسمون أنبياء مزعومين يعملون في بابل، أي كانوا يعطون أملاً زائفاً للمنفيين. فكتب رسالة مفتوحة إلى المنفيين مفادها أنهم لن يعودوا إلى وطنهم في المستقبل القريب، لأن يهوه سيدمر اورشليم. بالتالي يتوجب عليهم أن يعدوا أنفسهم إلى مالا يقل عن سبعين سنة في الأسر، ولذلك عليهم أن يستوطنوا، ويبنوا منازل، ويتزوجوا، وينجبوا أطفالاً. لكن قبل كل شيء على المنفيين أن يفسحوا مجالاً للاستياء. هذه كانت رسالة يهوه:

"ابنوا بيوتاً واسكنوا، واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. اطلبوا سلام المدينة لأنه بسلامها يكون لكم سلام، وتصلون لأجلي فاسمعكم."[8]

فإذا ما استطاعوا أن يواجهوا الحقائق، ويديروا ظهورهم إلى العزاء الزائف، ورفضوا أن يسمحوا لقلوبهم أن يسممها الحقد، فإنهم سوف ينعمون بمستقبل



Black Sea
Caspian Sea
TAURUS MTS.
Medes
Carchemish
Harran
Nineveh
Calah
Ashur
Tigris R.
Euphrates R.
Cyprus
Arvad
Riblah
Tadmor
Ekbatana
Mediterranean Sea
Tyre
Damascus
SYRIAN DESERT
SAMARIA
Jerusalem
Nippur
Susa
ELAM
Ur
Persian Gulf
EGYPT
SINAI
Tema
ARABIAN DESERT
Red Sea
N
W
E
S
THE BABYLONIAN EMPIRE
626 to 539 BCE
Maximum extent of the Babylonian Empire
0 miles 300
0 kilometers 300

واعد بالأمل.[9] كان إرميا مقتنعاً أن منفيي عام 597، وليس من تركوا في أرض كنعان، هم الذين سينقذون إسرائيل. إذا استطاعوا اجتياز زمن هذه المحنة، فإنهم سيطورون روحانية داخلية أكثر. ويهوه سيعقد معهم عهداً جديداً. هذه المرة لن يكون العهد منقوشاً على ألواح حجرية مثلما كان العهد القديم مع موسى:

"أجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً. ولا يعملون بعد كل واحد صاحبه، وكل واحد أخاه،

قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب. لأني أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيتهم بعد."[10]

أما وقد خسروا كل شيء، كان بعض سكان إسرائيل يتحولون إلى الداخل، وإذ يجب أن يتحمل كل فرد مسؤولية نفسه، أي بدأوا يكتشفون المزيد من المعرفة الداخلية والمباشرة للعصر المحوري.

بعيداً عن السعي إلى صالح البابليين، أراد المنفيون تهشيم رؤوس أطفالهم بالصخر.[11] فالنفي ليس مجرد تغير في عنوان، بل أيضاً إقتلاع روحي. وبما أنهم كانوا منقطعين عن جذور هويتهم وثقافتهم، بدأوا يشعرون وكأنهم قد رموا عائمين وفقدوا توجههم، وأنهم يذوون ويصبحون ضعفاء.[12] لقد لاقى منفيو اليهود معاملة حسنة معقولة في بابل، إذ لم يكونوا أسرى في معسكر أو سجن. فالملك Jehoiachin ـ الذي استسلم طوعاً لنبوخذ نصر في عام 957 ـ كان تحت إقامة جبرية في مسكنه، وخصص له مرتب، وعاش مع حاشيته بشكل مريح في القلعة الجنوبية من بابل.[13] بينما عاش بعض المرحلين في العاصمة، أوى آخرون إلى مناطق غير متطورة، قرب القنوات التي شقت حديثاً،[14] فاستطاعوا أن يدبروا أمورهم.[15] لكنهم كانوا لا يزالون أناساً مقتلعين. ففي أورشليم، كان الكثيرون رجال سلطة ونفوذ، بينما في بابل لم تكن لهم حقوق سياسية، وكانوا على هامش المجتمع، ومكانتهم كانت أدنى من مكانة أفقر الناس

المحليين. بعضهم كان مجبراً على عمل السخرة.[16] بالتالي عانوا من فقدان المكانة الذي ولد لديهم صدمة. وعندما وصفوا النفي أكثروا من استخدام كلمات مثل "روابط" و"قيود".[17] ربما لم يكونوا عبيداً، لكنهم كان يشعرون كأنهم عبيد.

لم يعد باستطاعة بعض اللاجئين أن يعبدوا يهوه، الذي همشه مردوخ إله بابل.[18] وسفر أيوب مبني على حكاية شعبية قديمة ربما دونت خلال النفي. ذات يوم قام يهوه برهان مع الشيطان في المجلس الإلهي - لم يكن الشيطان حتى حينها شخصية شر مستطير بل مجرد واحد من أبناء الرب، أي "الخصم" الشرعي للمجلس.[19] أوضح الشيطان أن أيوب الإنسان المفضل لده يهوه لم يكن قد امتحن فعلياً، كان صالحاً لأن يهوه قد حماه وسمح لأحواله أن تزدهر. فإذا ما خسر كل ممتلكاته، فإنه سيلعن يهوه وجهاً لوجه. أجاب يهوه حسن جداً "كل ما يملكه هو تحت سلطتك".[20] وفي الحال دمر الشيطان كل ثيران، وجمال وغنم، وخدم وأطفال أيوب، وحلت بأيوب أمراض لا شفاء منها. وبالفعل، انقلب أيوب على الرب، وربح الشيطان الرهان.

عند هذا الحد، حاول المؤلف في سلسلة قصائد وخطابات مطولة أن يضع كل معاناة البشرية في فكرة إله قدير، متسامح وعادل. حاول أربعة من أصدقاء أيوب مواساته، مستخدمين جميع النقاشات التراثية: بأن يهوه كان يعاقب الأشرار. وأن ليس باستطاعتهم سبر خططه، إنه كان محقاً دائماً، وبالتالي لا بد أن أيوب كان مذنباً بذنب ما.

كانت هذه المبررات السخيفة تغضب أيوب الذي اتهم كل من يواسيه بأنه كان يسلك مثل الرب، وأنه يدينه بقسوة. أما بالنسبة ليهوه، فقد كان من المحال إقامة حوار عقلاني مع إله كان خفياً، قديراً، متعسفاً وظالماً، وفي الوقت نفسه هو نفسه القاضي، والحاكم والجلاد.

أخيراً، عندما تنازل يهوه ليرد على أيوب، فإنه لم يظهر رحمة على الإنسان الذي عامله بقسوة كبيرة، بل بكل بساطة نطق كلمة مطولة حول إنجازاته

الممتازة. أين كان أيوب عندما أرسى يهوه أساسات الأرض، وحبس البحر خلف أبواب مغلقة هل كان باستطاعة أيوب أن يصطاد لويثان بصنارة صيد، وأن يجعل حصاناً يقفز كالجراد، أو أن يوجه مجموعة من النجوم في مساراتها؟ كل الشعر فخماً، لكنه لم يكن بذي علاقة. هذا الاستعراض الطويل من التباهي لم يلامس القضية الحقيقية حتى: لماذا كان الأبرياء يعانون على يد إله ـ يفترض أنه إله محب؟ فالقارئ ليس على شاكلة أيوب، يعرف أن ألم أيوب لم يكن له علاقة بحكمة يهوه المتعالي، بل كان مجرد نتيجة لرهان سخيف. في نهاية القصيدة، عندما كان أيوب قد هزم تماماً على يد يهوه وبعد استعراض القدرة المتباهي، سحب أيوب كل شكاواه، وتاب في الغبار والرماد. بعد ذلك أعاد الرب ثروة وصحة أيوب، لكنه لم يحيي الأطفال والخدم الذين قتلوا في الفصل الأول، ولم يكن هناك عدل، أو تعويض عنهم.

إذا كانت قصة أيوب قد كتبها أحد المنفيين فعلاً، فإنها توضح أن بعض الجماعة قد فقدت كل إيمانها بيهوه. لكن آخرين استجابوا بإبداعية للكارثة، وبدأوا يطورون نظرة دينية جديدة تماماً. لقد استمر كتبة الملك في تحرير نصوص قديمة. أضاف كتبة سفر التثنية فقرات إلى تاريخهم لشرح الكارثة، بينما كهنة آخرون بدأوا يكيفون تراثهم مع الحياة في بابل، حيث لم يكن لليهوذيين عبادة ولا معبد، بل محرومين من كل شيء يعطي معنى لحياتهم ـ معبدهم، وملكهم، وأرضهم ـ كان عليهم أن يتعلموا أن يعيشوا كأقلية مشردة. ومرة ثانية، لم يكونوا خائفين من إعادة كتابة تاريخهم، وأن يراجعوا تقاليدهم، وأن يجدوا تفسيراً مبتكراً جذرياً لرموزهم المقدسة.

يمكننا أن نرى تطور نظرة العصر المحوري في الحياة التنبؤية للكاهن الشاب حزقيال، الذي كان قد رحل إلى بابل في عام 597، واستقر في تل أبيب spring time hill قرب ترعة خيبر chebar. رأى سلسلة أحلام كانت نقطة علام لانتقاله المؤلم من رعب مبرح إلى روحانية داخلية أكثر سلاماً. ففي عام 593 ـ أي تماماً بعد خمس سنوات بعد نقله إلى المنفى، بينما كانت أورشليم وهيكلها ما

يزالان واقفين، رأى حزقيال حلماً مربكاً على ضفتي خيبر.[21] كانت هناك ريح عاتية، رأى ومضات برق، والرعد والدخان، وفي وسط هذا الغموض العاصف استطاع حزقيال أن يميز أربعة مخلوقات غريبة، كل منها له أربعة رؤوس، ويجر عربة حربية. إنها تضرب أجنحتها محدثة صوتاً يسبب الصمم مثل " ماء متدفق، مثل صوت شداي shaddai، مثل عاصفة، مثل ضجة العسكر". على العربة شيء يشبه عرشاً، كائن يجلس عليه، بدا مثل رجل". والنار تنطلق من أطرافه، مع ذلك بدا الأمر وكأنه مجد يهوه. مُدّت يد ممسكة لفافة "نقش عليها منادب، ولولة، وتأوهات. وقبل أن يتمكن من جلب الرسالة الإلهية إلى شعبة، كان حزقيال مجبراً أن يأكلها، مستوعباً عنف وحزن عصره بكل ألم.

وهكذا أصبح الرب عصياً على الفهم وغريباً، مثلما شعر حزقيال في تل أبيب. الرض النفسي للمنفي قد هشّم الرب العقلاني الأنيق كما في سفر تثنية الاشتراع. لم يعد ممكناً رؤية يهوه كصديق شارك إبراهيم طعاماً، أو كملك مترئساً بكل اقتدار مجلسه الإلهي. رؤيا حزقيال لم تكن ذات معنى، لقد كانت متعالية تماماً، وخارج المجالات البشرية. لم تكن اللفافة التي سلمت إليه تتضمن توجيهات واضحة، مثل سفر التوراة بالنسبة لمؤلفي تثنية الاشتراع، إنها لم تقدم يقينية ما، لكنها عبرت عن صيحات أسى وألم أولية. لقد كان حلماً عسكرياً مليئاً بفوضى ورعب الحرب. فبدلاً من أن يظهر يهوه على عرش سماوي، ظهر على عربة حربية ـ يقابلها اليوم دبابة أو طائرة نفاثة مقاتلة. الرسالة التي كان على حزقيال أن ينقلها كانت أكبر بقليل من مجرد تهديد. بكل بساطة، كان عليه أن يحذر المنفيين " المُتَحدْين والعنيدين بأن هناك نبي بينهم ـ سواء استمعوا إليه أم لا. لم يكن هناك طيبة أو عزاء. يهوه كان سيجعل حزقيال "متحدياً وعنيداً مثل بقية الشعب، قراره كان قاسياً كالألماس الذي هو أقسى من الصوان". وأخيراً رُفع حزقيال وسط صياح صاخب، شعر بيد يهوه ملقاة "ثقيلة" عليه، وفاض قلبه " مرارة وغضباً". فاستلقى في تل أبيب لمدة أسبوع " رجلاً مذهولاً".[22]

عندما أكل حزقيال اللفافة وتقبل حزنها ورعبها الكاسحين وجد أن "طعمها حلو كالعسل"[23] فكان ذلك عزاء له. مع أن يهوه لم يجلب الراحة إلى شعبه، بقيت حقيقة أنه قد أتى إلى شعبه في المنفى، غادر يهوه هيكله في أورشليم ورمى بمصيره مع المنفيين. وفي أحلام أخرى رأى حزقيال يهوه مطروداً من مدينته من قبل الوثنيين، وبسبب عدم أخلاقية سكان يهوذا الذين بقوا في ديارهم.[24] يجب على المنفيين أن يدركوا أنهم يتحملون جزءاً من المسؤولية عن الكارثة. كانت رسالة حزقيال هي أن يجلب الهيكل إلى مرحلي عام 597. لم تكن هناك أوهام بالعودة، وظيفتهم هي أن يتوبوا، وأن يؤسسوا حياة مستقيمة في بابل. لكن لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك مالم يسمحوا لأنفسهم أن يشعروا بكامل عبء أساهم. ربما تكشف الإقتلاع الشخصي لحزقيال في أفعاله الغريبة المشوهه، أي الحركات الإيمائية الغريبة التي شعر أنه كان مجبراً أن يقوم بها كي يجلب محنة الوطن إليهم.

عندما توفيت زوجته، طلب يهوه منه أن يقيم الحداد مرة ثانية، أمره أن يستلقي على جانبه مدة 390 يوماً، وعلى جنبه الآخر 40 يوماً. قيده يهوه، حبسه في بيته، وألصق لسانه بسقف فمه بحيث لم يستطع أن يتكلم. ومرة أخرى أجبره يهوه أن يحزم أمتعته ويطوف حول تل أبيب مثلما يفعل لاجئ. كان مصاباً بقلق حاد لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يتوقف عن الارتجاف، أو أن يجلس ساكناً، وكان عليه أن يبقى متنقلاً دون أن يستريح. فكما بدا، كان يقول لأخوته المنفيين أن هذا ما حدث لشعب مقتلع: لم يعد لديهم استجابات سوية لأن عالمهم قد قلب رأساً على عقب. لم يكن باستطاعتهم أن يسترخوا، أو يشعروا بالارتياح في أي مكان على الإطلاق. ما لم يذق المنفيون هذا حتى الثمالة، وما لم يروا الأشياء كما كانت، لن يكونوا قادرين أن يتعافوا. لم يكن من المفيد أن ينظروا إلى الجانب المشرق، أو أن يقولوا لأنفسهم أنهم سيعودون قريباً إلى الوطن، لأن هذا ـ بكل بساطة ـ لم يكن صحيحاً. يجب عليهم أن يجردوا أنفسهم من هذه الأوهام.

حزقيال كان كاهناً، وفسر الكارثة من خلال طقوس الهيكل، لكنه استخدم الوسائل القربانية التقليدية كي يشخص العيوب الأخلاقية عند شعبه. قبل تدمير أورشليم في عام 586 رأى حزقيال رؤيا بينت له لماذا كان يهوه مبعداً خارج أورشليم. كان يقوم بجولة حول الهيكل، فرأى ـ ويالرعبه ـ أنهم كانوا واقفين وكأنهم على شفا كارثة. سكان يهوذا كانوا يعبدون آلهة أخرى غير يهوه. أصبح الهيكل مكاناً كابوسياً، رسم على جدرانه أفاعي تتلوى، وحيوانات منفرة. والكهنة المؤدون لهذه الشعائر " الدنسة" قدموا في موقف دنيء، وكأنهم منخرطون في جنس مسيء للسمعة:

يا ابن الإنسان هل رأيت ما يفعله كبار العرش في إسرائيل في الظلام،

كل في غرفته المرسومة."[25]

في غرفة أخرى جلست نسوة باكيات على تموز إله الخضرة الأناضولي. ويهوذيون آخرون عبدوا الشمس وأداروا ظهورهم على قدس الأقداس، حيث استقر يهوه.

فمن الناحية الأخلاقية، كان الناس ينكرون يهوه، وكذلك طقوسياً "الدليل الإلهي لحزقيال أخبره أن ذنب إسرائيل يهوذا :

" هائل لا حدود له، البلاد مليئة بسفك الدماء، والمدينة تفيض بالشر، لأنهم يقولون يهوه قد تخلى عن البلاد، يهوه لا يستطع أن يرى. المدينة مليئة بجثث رجال مقتولين.[26]

في هذا العالم من العدوان الشامل، كان حزقيال منشغلاً بالعنف الذي كان يمارسه اليهوذيون أحدهم على الآخر. يجب أن يبدأ الإصلاح بتقصٍ واضح الرؤية وموضوعي لعيوبهم الذاتية، بدلاً من توجيه اللوم إلى وحشية البابليين ـ أي إسقاط ألمهم على العدو. وهكذا فقد أجبر حزقيال زملاءه المنفيين أن ينظروا إلى ما هو أقرب فيما بينهم. كان للدم أهمية حاسمة في عقيدة الهيكل. ومعظم النقاشات الكهنوتية ـ حتى هذه الفترة ـ تركزت على الطقسي. لكن حزقيال جعل الدم

رمزاً للقتل، ولفقدان الشريعة، وغياب العدالة الاجتماعية.[27] قد تم تفسير الطقس من خلال الإلزام الأخلاقي الجديد للعصر المحوري.

هذه الجرائم الاجتماعية كانت خطرة مثل الوثنية، وكان على إسرائيل أن تلوم نفسها فقط على الكارثة الوشيكة. في نهاية رؤياه رأى حزقيال عربة يهوه الحربية تحلق بعيداً فوق جبل الزيتون، آخذة المجد بعيداً عن المدينة المقدسة.

لم يكن هناك أمل لدى اليهوذيين الذين بقوا في ديارهم، الذين تدليسهم السياسي، والغرق في الذنب سؤديان إلى دمار أورشليم. لم يكن لدى حزقيال وقت لهؤلاء الناس، مثلما كان إرميا. لكن بما أن يهوه قد قرر أن يسكن وسط المرحلين في المنفى، كان هناك أمل في المستقبل. على الرغم من ضيقه وإرباكه البادين، رأى حزقيال رؤيا جديدة. رأى حقلاً مليئاً بعظام بشرية ترمز إلى الجماعة المنفية ـ كانت تقول: "عظامنا قد يبست، وأملنا قد مضى، إننا مثل موتى". لكن تنبأ على العظام " دخلها النَفَس، فعادت إلى الحياة من جديد، ووقفت على أقدامها، جيش كبير هائل".[28] بعد توبتهم سيعيد يهوه المنفيين إلى موطنهم ذات يوم. لكنها لن تكون عودة بسيطة. كان حزقيال يعرف ـ مثلما عرف إرميا ـ أن معاناة المنفيين يجب أن تفضي إلى نظرة أكثر عمقاً. وعد يهوه:

"سوف أعطيهم قلباً آخر، وسأضع فيهم روحاً جديدة. سوف ازيل القلب
الحجري من أجسامهم، وأعطيهم قلباً من لحم بدلاً منه، كي يحافظوا على شرائعي"[29]

كان يهوه قد أخبر حزقيال في رؤياه الأولى أنه سيجعل قلبه قاسياً كالصوان، لأن حزقيال والمنفيين ـ كما هو مفترض ـ قد استوعبوا ألمهم، وأقروا بمسؤوليتهم، وسمحوا لقلوبهم أن تنفطر، لقد أصبحوا إنسانيين.

في نحو نهاية حياته، رأى حزقيال مدينة تدعى يهوه شام " أي يهوه هو هناك" تقع على قمة جبل عالٍ جداً. من المحتمل أن هذه الفصول قد دونها ووسعها بعض مريدي حزقيال، لكن، ربما أتت الفكرة الأساسية من النبي نفسه.[30] على

الرغم من أن أورشليم وهيكلها كانا مدمرين، إلا أنهما كانا حيين في ذهن النبي، وفهم معناهما الغامض.

هيكل سليمان كان مصمما كنسخة عن جنة عدن، فوجد حزقيال نفسه ينظر إلى جنة أرضية. كان هناك هيكل في وسط المدينة، ونهر ينبجس من تحت الحرم منساباً إلى أسفل الجبل المقدس جالباً الحياة والشفاء إلى الريف المجاور له. على ضفتي النهر تنمو أشجار "أوراقها لا تذبل أبداً، وثمارها لا تسقط أبداً... صالحة للأكل، والأوراق شافية".[31] كان الهيكل هو مركز الكون كله. طاقة مقدسة تشع منه إلى ارض وشعب إسرائيل في سلسلة دوائر مركزية. وكلما ابتعدت عن مصدرها كانت هذه القداسة تقل. كانت الدائرة الأولى المحيطة بالمدينة مسكن الملك والكهنة، أي الجماعة المقدسة. والدائرة الثانية كانت لقبائل إسرائيل، أي كانت أقل قداسة. لكن خارج نطاق القداسة كان عالم الأغيار "غوييم"، أي الأمم الأجنبية. في عقيدة الهيكل كان يهوه قدوساً أي منفصلاً وآخر". أما وقد دمر الهيكل كان باستطاعة إسرائيل أن تشارك في قداسته من خلال العيش منفصلة عن بقية العالم. لم تكن هذه الرؤيا للجماعة المستعادة علامة فارقة تفصيلية للمستقبل أو خطة معمارية. لقد كانت كما أسماها الهنود ماندالا، أيقونة للتامل.[32] صورة للحياة كما يجب، تركز على الإلهي. كان يهوه مع شعبه حتى في المنفى، لذلك يجب عليهم أن يعيشوا وكأنهم كانوا لا يزالون يعيشون بجانب الهيكل منفصلين عن الأغيار. يجب ألا يصادقوا أو يستوعبوا الأغيار، بل أن يجتمعوا روحياً حول يهوه على الرغم من أنهم كانوا شعباً هامشياً في بابل، إلا أنهم كانوا أقرب إلى المركز من جيرانهم الوثنيين، الذين لا يكادون موجودين على الخريطة. أما وقد أعطوا التأكيد على الحياة الداخلية في هذه الفترة، فلربما مكّن الوصف أيضاً تلاميذ حزقيال أن يستبطنوا داخلهم الهيكل، ويجعلوه حقيقة داخلية. فبتأمل دوائر القداسة، استطاعوا أن يكتشفوا "مركزهم" هم. هذا التوجه الذي مكنهم من أن يعملوا بشكل تام. لم يحلل المنفيون النفس بقوة كما فعل حكماء الأبانيشاد، لكن أثناء التأمل في هذه الماندالا، من المحتمل أنهم كانوا يكتشفون حضوراً إلهياً في نواة وجودهم.

في تفكير حزقيال بيهوه شام، فقد أمضى زمناً كثيراً على نقاش مفصل للقربان، والملابس الكهنوتية، والقياسات، وأقسام الهيكل. في أوقات عدم يقينية اجتماعية، يكتسب الطقس أهمية جديدة، كما يخبرنا علماء الأنثروبولوجيا.[32] فعلى وجه الخصوص، وسط أناس مقتلعين هناك ضغط من أجل الحفاظ على الحدود التي تفصل الجماعة عن الآخرين، واهتمام جديد بالطهارة، والدنس، والزواج المختلط، هذه كلها تساعد الجماعة على مقاومة ثقافة الأغلبية. بالتأكيد أوضحت رؤيا حزقيال ذهنية تحصينية، إذ لا يسمح للغرباء أن يوجدوا في مدينته الخيالية، لأنه كان هناك أسوار وبوابات في كل مكان كي تحيط بقدسية إسرائيل من العالم الخارجي المهدد لها.

حزقيال كان واحداً من آخر الأنبياء العظام. النبوءة كانت دائماً مرتبطة بالملكية في إسرائيل ويهوذا، وأصبحت أقل تأثيراً بينما كانت تتراجع الملكية. غير أن الكهنة المترأسين في الهيكل تبؤوا أهمية جديدة، كالحلقة الأخيرة لعالم بدا مفقوداً لا سبيل إلى استعادته. كان من المحتمل أن يسقطوا في اليأس بعد تدمير هيكلهم، لكن بدلاً من ذلك، بدأت حلقة صغيرة من كهنة منفيين يبنون روحانية جديدة على أنقاض الروحانية القديمة. إننا لا نعرف سوى القليل عنهم، يسمي العلماء هذه الحلقة الكهنوتية للكتاب المقدس "P"، لكننا لا نعرف ما إذا كان P محرراً واحداً فقط أم مدرسة كهنوتية تضم كتبة ومحررين. أياً كان (P)، كان بين يديه تراثات قديمة، بعضها مدون، وبعضها منقول شفوياً.[34] ربما كانوا يعملون في الأرشيف الملكي في بلاط الملك المنفي Jehoiachin. الوثائق المتوفرة لـ "P" كانت تتضمن J E السردية، وأنساب البطاركة، والنصوص الطقوسية القديمة التي عددت الأماكن التي يعتقد أن الإسرائيليين قد خيموا فيها خلال السنوات الأربعين في التيه. لكن المصادر الأكثر أهمية لـ "P" كانت مدونة الشريعة المقدسة Holiness code،[35] (قوانين مختارة جمعت خلال القرن السابع). ووثيقة خيمة العهد هي القطعة المركزية من قصص "P" التي وصفت الخيمة التي نصبها الإسرائيليون في البرية كي تأوي الحضرة المقدسة.[36] لقد أسميت خيمة الاجتماع لأن موسى استشار يهوه هناك، وتلقى تعليماته. قسم من

مادة "P" كان قديماً جداً، وكانت لغتها قديمة عن عمد، لكن هدفه لم يكن تحقيقاً أثرياً، بل أراد أن يبني مستقبلاً جديداً لشعبه.

أدخل P إضافات مهمة إلى أسطورة J E، وكان أيضاً مسؤولاً عن أسفار اللاويين والعدد. يجد معظم القراء هذا الكنز الكهنوتي صعباً جداً، ويكاد يكون فهمه أمراً محالاً. يتصفحون ـ عادة ـ الأوصاف الصعبة التي لا تتقطع للقرابين الدموية، وشرائع الطعام المفصلة التي من المتعذر فهمها. لماذا الاهتمام بوصف طقوس كانت متروكة، وقد أصبح الهيكل مدمراً؟ ولماذا هذا التركيز على الطهارة عندما كان المنفيون يعيشون على أرض غير طاهرة؟ للوهلة الأولى، يبدو أن الهاجس الظاهري لدى P بالقواعد الخارجية والطقوس بعيداً جداً عن العصر المحوري. مع ذلك كان مستغرقاً بكثير من القضايا ذاتها، مثله في ذلك مثل المصلحين الذين عدلوا قرابين الفيدا. أراد P أن يعيش المرحلون بطريقة مختلفة، وعلى قناعة أنه إذا ما روعيت هذه القواعد والطقوس من منطلق إيماني، فإن هذه الشرائع لن تسجنهم في انسجام لا روح له، بل ستحولهم على مستوى عميق.

الفصل الأول من سفر التكوين الذي يصف كيف خلق رب إسرائيل السماء والأرض في ستة أيام، ربما هو العمل الأكثر شهرة قام به P، وهو مكان جيد كي يبدأ به.

عندما كان مستمعو P الأوائل يستمعون إلى قصة خلق، كانوا يتوقعون أن يستمعوا إلى حكايات صراع عنيف. لكن المنفيين كانوا يعيشون في بابل حيث كان انتصار مردوخ على تيامات (البحر البدئي) يعاد تمثيله في طقس رائع عند بداية السنة الجديدة. كما كانت هناك قصص كثيرة عن يهوه ذابحاً التنين البحري عندما خلق العالم. لذلك لم يكن يفاجئ المستمع لدى سماعه البحر مذكوراً في كلمات P الافتتاحية:

في البداية خلق الله السماء والأرض. الأرض كانت برية خربة. كان هناك ظلام على وجه البحر، وروح الله يرف على وجه الماء". لكن P فاجأهم بعد ذلك. لم يكن هناك اقتتال أو قتل. الله نطق كلمة أمر: "فليكن هناك نور"، ودون أي

صراع إطلاقاً سطع النور مباشرة. فالله رتب العالم بإصدار سلسلة أكبر من المراسيم:

"فلتجتمع المياه تحت السماء في مكان واحد"، "فلتنبت الأرض نباتاً نامياً". فلتكن هناك أنوار في قبة السماء لتفصل النهار عن الليل. وأخيراً لنخلق البشر على صورتنا.

وفي كل مرة، ودون معركة كان الأمر كذلك.[37] وبالطريقة ذاتها قد حذف الطقوسيون الهنود منهجياً العنف من الطقس التقليدي، كذلك أبعد P العدوان بشكل منهجي من الخلق التراثي للكون. كان هذا إنجازاً عظيماً. فالمرحلون كانوا ضحايا هجوم مرعب شنه البابليون ودمروا بلادهم وحَوَّل مدينتهم إلى أنقاض، وسَوَّى سور الهيكل بالأرض، وبالقوة ساقوهم إلى المنفى. إننا نعلم أن بعضهم أراد أن يرد الصاع للبابليين:

يا بنت بابل المخرية، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي
جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة.[38]

بدا أن P يخبرهم أن هذه لم تكن الطريق التي عليهم أن يسلكوها. بالإمكان رؤية قصة الخلق لدى P كجدل لاهوتي ضد دين البابليين الذين هزموهم. كان يهوه أكثر قدرة من مردوخ. لم يكن عليه أن يخوض معركة ضد زملائه الآلهة عندما رتب الكون، البحر لم يكن إلهة مرعبة، بل فقط المادة الخام للكون، وكانت الشمس والقمر مجرد مخلوقات مسخرة. كان يجب تجديد خلق مردوخ سنوياً، لكن يهوه أنجز عمله في ستة أيام فقط، وكان قادراً أن يستريح في اليوم السابع. لم يكن لديه منافس إلهي، بل كان لا مثيل له، القدرة الوحيدة في الكون دون معارضة.[39]

ربما كان الإسرائيليون يؤذون كثيراً إيمان أناس آخرين، لكن P لم يسلك ذلك الطريق، ولم يكن هناك توافقات رخيصة ضد الدين البابلي. سرده كان رصيناً وهادئاً. مع أن المنفيين قد تعرضوا لاقتلاع بالقوة، بينما عالم P كان عالماً فيه كل شيء له مكانه. في اليوم الأخير من الخلق رأى الله كل شيء خلقه،

وكان كل شيء حسن.[40] وبارك أيضاً كل ما خلق، ومن المفترض أن تشمل هذه المباركة البابليين أيضا. كل امرئ يجب أن يتصرف مثل يهوه، يستريح يوم السبت ويخدم عالم الرب، ويبارك جميع مخلوقاته.

ربط P عن عمد بناء خيمة العهد مع خلق العالم.[41] في تعليماته إلى موسى حول بناء هذا المَحْرَمْ، أمر يهوه أن العمل يجب أن يستغرق ستة أيام. "لكن اليوم السابع يجب أن يكون يوماً مقدساً لك، يوم راحة تامة، مكرساً ليهوه".[42] وبعد الانتهاء من خيمة العهد، تفحص موسى العمل كله، واستطاع أن يرى أنهم قد عملوها كما أمرهم يهوه. فباركهم موسى.[43] الخروج من مصر كان حاسماً لرؤية P، لكنه شرح القصة بشكل مختلف جداً عن كتبة تثنية الاشتراع. لم يصف P العهد المقطوع على جبل سيناء الذي أصبح ذكرى إشكالية مؤلمة بعد أن نفيت إسرائيل عن الأرض التي وعدهم بها هناك.[44] بالنسبة لـ P لم تكن ذروة القصة إعطاء سفر التوراة، بل نعمة الحضور الإلهي الذي يهب الحياة في خيمة اللقاء.

يهوه أخبر موسى أنه قد أخرج الشعب خارج مصر "كي أعيش أنا في وسطهم"[45] في هذا المقام المتنقل، أي الحضور الإلهي رافق شعب إسرائيل حيثما ذهبوا. الكلمة الجذر هي shakan التي تترجم عادة " لأعيش"، لكنها أصلاً كانت تعني "أن أعيش حياة ساكن خيمة بدوية". لقد فضل P هذه الكلمة على كلمة yob " أي لأسكن" التي كانت تعني (سكناً دائماً)، الله قد وعد أن يسكن مع شعبه الهائم على وجهه، لم يكن لديه مستقر ثابت، ولم يكن مرتبطاً بمقام وحيد، بل وعد أن يعيش مع الإسرائيليين حيثما ذهبوا.[46]

عندما كتب J E السرد اختتم P سفر الخروج بإتمام لقاء الخيمة، عندما أنجز الله وعده، عندما ملأ مجد يهوه الخيمة mish kan، وغيمة حضوره غطتها:

كلما تصعد الغيمة من الخيمة

أطفال إسرائيل يسيرون على جميع مسيراتهم

لأن غيمة يهوه هي فوق الخيمة نهاراً

ونار ليلاً فيها أمام جميع أنظار بيت إسرائيل
على جميع مسيراتهم.[47]

كان التوتر الحاصل ذو أهمية كبيرة. يهوه كان لا يزال مع شعبه في مسيراته الأخيرة إلى بابل. إسرائيل كانت شعباً متنقلاً، مثل ربهم. لم يكن P على شاكلة مؤلفي التثنية لأنه لم ينه الأسطورة بفتوحات يشوع، بل ترك الإسرائيليين على حدود أرض الميعاد.[48]

إسرائيل لم تكن شعباً لأنها سكنت في بلد محدد، بل لأنها عاشت في حضرة ربها الذي تنقل مع الشعب إلى أي مكان في العالم وجدوا فيه.

أوضح وصف P لتخييم إسرائيل في البرية شوق المنفيين إلى الاستقرار.[49] عندما أقاموا معسكراً ليلاً أو أثناء سيرهم نهاراً، كان لكل من القبائل مكان محدد إلهياً حول الخيمة. في سفر العدد ـ تاريخ إسرائيل الذي تمزق بوحشية، تم تقديمه كموكب ظرفي من مكان إلى مكان. بإضافة P كنزه الكهنوتي إلى قصة J E، فقد أعاد صياغة تاريخ شعبه مبيناً أن النفي إلى بابل كان فقط الأحدث في سلسلة طويلة من هجرات مأساوية: فآدم وحواء كانا مجبرين على مغادرة عدن، وقابيل أصبح دائم التجوال بعد أن قتل أخاه، والبشر كانوا مشتتين على سطح الأرض بعد التمرد عند برج بابل. وإبراهيم قد غادر أور، وهاجرت القبائل إلى مصر، ويهوه قد حررهم من الأسر. لكنه سكن مع شعبه في صحراء سيناء في خيمة طوال أربعين عاماً، فكان المغزى: أنه ما يزال يعيش وسط شعبه في هذه الرحلة الأخيرة إلى بابل.

ربما دخل مجتمع المنفيين في حالة سخط كبير وشكوى. طور "P" في سرده القصص حول "تمتمة" إسرائيل ضد الرب في البرية.[50] كان المنفيون أيضاً " جيلاً قوي الرقاب" لكن P بيّن لهم طريقة المضي إلى الأمام. فحتى في المنفى استطاعوا خلق مجتمع بالإمكان عودة حضور الرب إليه شرط أن يعيش الجميع وفقاً للشريعة الكهنوتية القديمة.

كان هذا ابتكاراً مذهلاً. لم يكن P يحيي تشريعاً قديماً أصبح عديم الفائدة. فشرائع الطقوس، وإجراءات الطهارة، وقواعد الطعام التي حكمت حياة الكهنة الذين خدموا في الهيكل لم تكن موضوعة من أجل الناس العاديين.[51] قدم P الآن مطلباً مدهشاً.

إسرائيل التي قد دمر هيكلها القومي كانت أمة من الكهنة. جميع الناس يجب أن يعيشوا وكأنهم كانوا يخدمون الحضرة الإلهية في الهيكل، لأن الرب كان ما يزال يعيش في وسطهم. تشريع P قد طقسن الحياة كلها، لكنه استخدم شرائع الهيكل القديم كي يدخل ثورة أخلاقية جديدة مبنية على تجربة الاقتلاع.

على الرغم من أن المنفيين كانوا يعيشون في أرض غير طاهرة، أصر P على وجود رابطة عميقة بين النفي والقداسة. في مدونة الشريعة المقدسة أمر الرب الإسرائيليين أنه يجب أن تكونوا مقدسين، "لأنني أنا يهوه ربكم أنا مقدس"،[52] وكان ذلك يعني أن يكونوا "منعزلين". ويهوه كان "آخر" مختلفاً جذرياً عن الواقع الدنيوي العادي. الشريعة التي اقترحها P قد صاغت أسلوب حياة مقدسة قائم على مبدأ العزلة والفصل. يجب أن يعيشوا منفصلين عن جيرانهم البابليين، وأن يبقوا العالم الطبيعي على بعد مسافة. فعن طريق محاكاة آخرية الرب في كل جزئية من حياتهم سيكونون مقدسين مثلما يهوه مقدس، وسيكونون في المكان الذي فيه يوجد الرب. وبما أن النفي كان حياة استلاب وتغريب، لذلك كانت بابل المكان المثالي لوضع هذا البرنامج قيد التطبيق. في سفر اللاويين أصدر يهوه إجراءات مفصلة حول القربان، والطعام، والحياة الاجتماعية، والحياة الجنسية، والعبادات. وإذا التزمت إسرائيل بهذه الشرائع، فإن يهوه سيعيش دائماً وسطهم، كما وعدهم. الرب وإسرائيل سارا معاً. فإذا اختاروا إهمال وصاياه، فإن يهوه سوف يسير معهم بوصفه قوة تأديبية.[53] إنه سيدمر أرضهم، ومقاماتهم، ومعابدهم، ويفرقهم عن الأمم. هذا ما أراد P أن ينقله. لم يعش شعب إسرائيل حياة قداسة، ولذلك كانوا في المنفى لكنهم إذا تابوا فإن يهوه سيتذكرهم حتى في بلاد أعدائهم "سأضع خيمتي في وسطكم، وأنا بذاتي لن أكرهكم. سوف

أسير بينكم.[54] وقد تكون بابل جنة عدن جديدة حيث مشى الرب مع آدم في نسيم المساء.

بالنسبة لـ P ـ رجل من العصر المحوري ـ كان للقداسة مكون أخلاقي قومي، ولم تعد مجرد مسألة معتقدية. إنها كانت تعني احتراماً مطلقاً "للآخرية" المقدسة لكل مخلوق. في شريعة الحرية، [55] أكد يهوه أن ما من شيء يمكن استعباده أو امتلاكه، ولا حتى الأرض. في السنة اليوبيل Jubilee التي يجب أن يحتفل فيها كل 50 سنة يجب تحرير جميع العبيد، وأن تلغي جميع الديون. مع أنهم كانوا يعيشون حياة قداسة منعزلة، يجب على الإسرائيليين ألا يزدروا الغريب:

> ***إن يعش غريب معكم في أرضكم فلا تسيئوا إليه. يجب أن تعاملوه كواحد من شعبكم وتحبونه كأنفسكم لأنكم أنتم كنتم غرباء في مصر.[56]***

هذه شريعة قائمة على التراحم. فتجربة المعاناة يجب أن تؤدي إلى الإحساس بألم الآخرين. حزنكم يجب أن يلمكم، أن تشعروا بالآخرين. لقد كان P واقعياً على أية حال.

فوصية المحبة لم تكن تطالب الناس أن يكونوا مليئين باستمرار بمحبة حارة. إن P لم يكن يكتب عن المشاعر. فهذه كانت شريعة، ولغة P كان تقنية ودقيقة مثل أي قانون مطبق حيث العاطفة ستكون خارج مكانها. في الكتيبات الشرق أوسطية عبارة " أنت تحب" كانت تعني أن تكون معيناً، مخلصاً وأن تقدم مساعدة عملية. وصية أن تحب لم تكن طوباوية مفرطة، بل كانت في متناول كل واحد.

من البداية حتى النهاية، نظرة P كانت شمولية. مع ذلك إن قراءة شرائع الطعام تبدو قاسية وانتقائية بشكل تعسفي. كيف استطاع رب قد بارك جميع الحيوانات في يوم الخلق أن يطرد بعض مخلوقاته. بدعوى أنها "غير نظيفة أو حتى "رجس"؟ إننا نعطي كلمات مثل "دنس أو رجس" معنى أخلاقياً وعاطفياً، لكن

الكلمة العبرية tamei "أي دنس" لم تكن تعني "مذنب" أو "قذر" بل كانت كلمة تقنية في العقيدة، ولم يكن لها معاني أخلاقية أو انفعالية. فكما في اللغة اليونانية هناك أفعال أو ظروف محددة كانت تثيرmiasma غير شخصية كانت تدنس المعبد وتطرد الرب خارجه.[57] بالنسبة لـ P الموت كان هو الدنس النمطي والأساسي: الرب الحي كان لا يتآلف مع جثث الموتى. كانت إهانة أن يأتي المرء إلى حضوره بعد الاحتكاك بجثة أي من مخلوقاته. جميع الملوثات الرئيسية: سفك الدم غير المبرر، والجذام، كانت دنسة لأنها كانت مرتبطة بالموت، وقد أدخلت في حلبة لم تكن تنتمي إليها،[58] وفي الهيكل حيث الكهنة الذين يخدمون الحضرة الإلهية كان يتوجب عليهم أن يتحاشوا أي احتكاك بجثث الموتى وبرموز التحلل. أما الآن، كان على الإسرائيليين فعل الشيء ذاته، لأنهم أيضاً كانوا يعيشون مع ربهم. لم يبشر P أن كائنات بشرية أخرى كانت غير نظيفة أو مدنسة،[59] لأن شرائع القداسة لم تكن مصممة لإبقاء الغرباء خارج الاهتمام. في P يجب عدم ازدراء الأجنبي بل أن يُحّب، فالتلويث لم يكن يأتي من أعدائك بل يأتي من نفسك. لم تكن الشريعة تأمر الإسرائيليين أن يتجنبوا الغرباء غير النظيفين، بل أن يكرموا كل حياة. في شرائع الطعام التي تحرم أكل حيوانات غير نظيفة اقترب P كثيراً من المثال الأعلى الهندي اللاعنف. الإسرائيليون كانوا على شاكلة الشعوب القديمة ـ لم يكونوا يعدون القربان الطقسي للحيوانات أنه قتل، بل يحول الأضحية إلى جوهر روحاني أثيري،[60] وأكل حيوان لم يكن مقدساً بهذه الطريقة كان ممنوعاً.

لقد حرم P الذبح العلماني الذي أجازه مؤلفو تثنية الإشتراع، وأفتوا أن بوسع الاسرائيليين أن يضحوا ويأكلوا فقط الحيوانات المدجنة من قطعان أغنامهم وأبقارهم. فهذه الحيوانات هي التي كانت الحيوانات النظيفة أو "الطاهرة" التي كانت جزءاً من الجماعة، ولذلك كان يشملها وعد الرب إلى إسرائيل. لقد كانت ممتلكات الرب، ولم يكن باستطاعة امرئ أن يؤذيها. بالتالي يجب أن يسمح للحيوانات النظيفة أن تستريح يوم السبت، بالإمكان أكلها فقط إذا ما أعطيت نوعاً من حياة مولّدة.[61]

لكن الحيوانات غير النظيفة مثل الكلاب، والغزلان، ومخلوقات أخرى تعيش في البرية يجب ألا تقتل على الإطلاق، وكان محظراً صيدها في مصائد، أو قتلها، أو استغلالها، أو أكلها تحت أي ظرف من الظروف. إنها لم تكن قذرة أو مقززة، لذلك لم يكن الإسرائيليون ممنوعين من لمسها حية. بل أصبحت غير نظيفة بعد موتها فقط.[62] الشريعة التي تمنع أي احتكاك بجثة حيوان غير نظيف كانت حماية له، لكن لم يكن ممكناً سلخ جلد الحيوان أو تقطيع الجثة. وبالتالي لم يكن هناك فائدة من صيدها أو إيقاعها في مصائد. وبالمثل، الحيوانات المصنفة على أنها رجس لم تكن بغيضة أثناء حياتها، بل كان على الإسرائيليين أن يتجنبوها عندما تكون ميته للسبب ذاته. هذه المخلوقات السربية" البحرية وفي الهواء كانت ضعيفة ويجب أن تثير الشفقة. فطائر السُمَّن مثلاً كان صغيراً ويطير بسرعة عن الطريق، ولأن هذه الحيوانات كانت ولودة، وبالإمكان تدجينها فقد باركها الرب وهي تخصه.[63] جميع حيوانات الرب كانت خلقاً جميلاً.[64]

لقد أوضح P أن الرب قد بارك الحيوانات النظيفة وغيرا لنظيفة في اليوم الذي خلقها فيه، وأنقذ الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة على السواء في وقت الطوفان، وإيذاء أي حيوان منها كان إهانة لقدسيته.

على أية حال، كان هناك تيار قلق تحتي كامن في P. التشريع المتعلق بالجذام والحيض النابع من خوف من أن تنتهك أسوار الجسد أوضح اهتمام المجتمع المقتلع بأن يرسي حدوداً واضحة. دافع P لعالم فيه كل شيء كان له مكانه كان مصدره الرض النفسي الذي أحدثه الاقتلاع. كرامة المنفيين القومية قد انتهكت من قبل سلطة إمبريالية دون رحمة. الإنجاز الكبير لكهنة المنفى والأنبياء كان تجنبهم ديناً قائماً على السخط والانتقام، وخلق روحانية تؤكد قداسة كل حياة.

* * *

عند بداية القرن السادس كانت الأزمة الاجتماعية قد مزقت العديد من دول ـ المدينة في العالم الإغريقي، وأخيراً حلت بأثينا. المزارعون في المناطق الريفية في

أتيكا اشتكوا من الاستغلال، فاتحدوا معاً ضد الارستقراطيين، وبالتالي بدت الحرب الأهلية حتمية. أما النبلاء فكانوا هشين: لم يكونوا متحدين، وليس لديهم جيش أو قوة شرطة تحت طلبهم، بينما العديد من المزارعين كانوا مشاة مدربين، بالتالي مسلحين ويمثلون خطراً. والسبيل الوحيد للخروج من هذه الأزمة كان إيجاد وسيط حيادي يستطيع أن يحكم بالعدل بين الفريقين المتنازعين. لقد اختارت أثينا سولون solon، وفي عام 594 عينه حاكم المدينة، وفوضه كي يصلح الدستور.

كان سولون ينتمي إلى حلقة مثقفين مستقلين كانت تقدم النصائح إلى مدن عديدة أثناء الأزمات. في البداية كانوا يُستشارون في مسائل عملية محضة: الاقتصاد، البطالة أو المحاصيل السيئة. لكن ـ بشكل متزايد ـ بدأ "الرجال الحكماء" ينظرون في قضايا سياسية مجردة. كان سولون يرتحل كثيراً في اليونان، وناقش مع أعضاء آخرين في الحلقة المشكلات التي تهدد المدينة. أخبر الأثينيين أنهم كانوا يعيشون في فوضى، ويسيرون نحو كارثة. أملهم الوحيد كان خلق نظام سليم من خلال العودة إلى المعايير التي حكمت أصلاً المجتمع الإغريقي. كان المزارعون مهمين لدولة المدينة ـ كمحاربين ومنتجين للثروة. وبمحاولة قمعهم قد يخلق الارستقراطيون عدم توازن غير صحي في المجتمع، وهذا كان يعني تدميراً ذاتياً.

لم يكن سولون مقتنعاً بإصدار بضعة قوانين فقط، بل كان يريد أن يجعل المزارعين والأرستقراطيين على السواء مدركين لمشاكل الحكم، وللمبادئ التي تقع في قلب أي مجتمع متراتب بشكل جيد. يجب أن يتقبل جميع المواطنين درجة من المسؤولية عن حالة الفوضى. إنها لم تكن عقاباً إلهياً بل نتيجة للأنانية البشرية، وجهد سياسي ملموس فقط باستطاعته إعادة السلم والأمن. لم تكن الآلهة تتدخل في الشؤون البشرية، بالتالي لن توحي قانوناً إلهياً لإصلاح الحالة: فكان هذا اختراقاً محورياً. وفي ضربة واحدة قام سولون بعلمنة السياسة. في النظرة التقديسية القديمة كانت العدالة جزءاً من نظام كوني سارٍ حتى الآلهة،

وحكومة سيئة تنتهك هذه المبادئ قد تعرقل مسار الطبيعة. بيد أن سولون لم يكن لديه وقت لهذه النظرة، الطبيعة كانت محكومة بقوانينها التي لا يمكن أن تتأثر بأفعال الرجال والنساء.

كان الإغريق قد بدأوا يفكرون بطريقة تحليلية جديدة، عازلين المكونات المختلفة للمشكلة، ويعطون كل مكون دوره تماماً، ومن ثم يبدؤون بإيجاد حل منطقي لها. بدأت الحكماء بدراسة السبب والنتيجة التي ستمكنهم من توقع نتائج الأزمة. كانوا يتعلمون النظر إلى ما وراء المشكلات المحددة في المدينة، وأن يجدوا مبادئ عامة مجردة بالإمكان تطبيقها كلها.[65]

مبدأ سولون "الاستقرار السليم Eunomia" كان حاسماً ليس فقط في الفكر السياسي الإغريقي بل، سيساعد في تشكيل العلم والفلسفة الإغريقية المبكرين. هذا المبدأ كان قائماً على فكرة التوازن: أي عدم هيمنة قطاع من المجتمع على القطاعات الأخرى. ودولة المدينة يجب أن تعمل مثلما تعمل ألوية المشاة التي يعمل جميع المحاربين فيها بكل انسجام. يجب تحرير المزارعين من الأعباء المفروضة عليهم بحيث يستطيعون أن يواجهوا سلطات الأرستقراطيين الذين اضطهدوهم. لذلك ألغى سولون ديون المزارعين: المجلس الشعبي لجميع المواطنين الذي ارتد خلفاً إلى الأيام القبلية القديمة يجب أن يتوازن مع مجلس الشيوخ الأرستقراطي. كما أنشأ مجلس الـ 400 للإشراف على المجالس الرسمية في المدينة. ولكي يضعف من سلطة الأرستقراطية أكثر. عَرّف سولون المكانة بناء على الثروة بدلاً من المولد: وأي امرئ كان ينتج أكثر من 200 بشلاً من القمح أو الخمر، أو الزيت كل سنة أصبح مؤهلاً لأن يشغل منصباً عاماً. أخيراً، أصلح سولون القضاء، وسمح لأي مواطن أن يتابع قضاة المدينة.[66] القوانين الجديدة كانت منقوشة على لوحين من الخشب، وبالتالي أصبح باستطاعة أي متعلم أثيني الرجوع إليها.

ربما ظن سولون أن بعد إصلاح عدم التوازن في المجتمع، فإن الأرستقراطيين سيحكمون بعدل أكثر آلياً. لكنهم استاؤوا من فقدانهم الامتيازات، وعندما

لم تطبق القوانين الجديدة تماماً، عم شعور من عدم الارتياح والإحباط بين الطبقات الأكثر فقراً. حض كثيرون سولون على إقامة استبدادية في أثينا كي يتمكن من أن يفرض إصلاحاته، لكنه رفض ذلك لأن الاستبداد كان سياسة غير متوازنة. لقد فشل سولون لأن الناس لم يكونوا جاهزين بعد لتقبل أفكاره. بيد أن الاهتمام الواسع بإصلاحاته قد وضع أثينا التي كانت قد تخلفت عن المدن الأخرى ـ في طليعة التقدم. فمن خلال رفض الاستبداد، فإن سولون قد أرسى أيضاً معياراً جديداً للمواطن المثالي، الذي كان يخدم دون أمل بمكافأة شخصية، ولم يسعى لأن يصبح أعلى مكانة من الناس العاديين.[67]

في عام 547 استولى طاغية على السلطة في أثينا اسمه بيسيتراتوس من مدينة مجاورة لـ brauron، كانت أسرته تحكم السهول الشمالية بالقرب مقدونيا، وأصبح البطل لدى الساخطين في أثينا، فحكم هو وأبناؤه أثينا حتى عام 510. كان هذا المستبد كريماً، جذاباً وشعبياً، وكان جيداً للمدينة. أعطى المزارعين المفقرين قروضاً سخية. وأدخل مشاريع مهمة، ورمم نظام تزويد الماء والطرق حول المدينة. توسعت التجارة، وتردد الشعراء إلى بلاطه، ونعم الناس بتجدد روحي.

أراد بيسيتراتوس أن ينشأ مركزاً دينياً مميزاً في أثينا. فهو وأبناؤه من بعده حولوا الأكروبوليس إلى موقع عبادة رائع يضم معبداً حجرياً، وطريقاً مناسباً على طول سفح التلة الصخري. دفع الرعاة الأثرياء تكاليف تماثيل الآلهة التي نصبت حول الحرم مثل غابة صخرية مسحورة.[68] بيسيستراتوس أعطى أيضاً حياة جديدة للاحتفال العظيم panathenaea الذي احتفل بولادة المدينة، وكان يقام كل أربع سنوات، وله ألعابه الأولمبية الخاصة به.[69] لقد كان ذروة احتفالات السنة الجديدة، يلي ذلك بعض الشعائر المحيرة المظلمة التي كانت تعيد تقديم تاريخ أثينا المبكر. في إحدى هذه الشعائر، كانوا يقدمون قرباناً ـ ثور عادة ـ على الأكروبوليس بطريقة توحي بذنب عميق. والكاهن الذي كان يقوم بالضربة القاتلة كان عليه أن يهرب. ثم تتعقد محكمة، وتحضر السكين، ويُدانُ القاتل، ثم يرمى في البحر. خلف هذه السخرية من "قتل الثور" كان يكمن

رعب من العنف الكامن في كل قربان مدني، ومن الحضارة ذاتها، رعب كان يثلمه - غالباً - الروتين الذي يجب أن يدفع ثمنه شخص ما أو شيء ما.

انتصار panathenaea بدد الهالة الغريبة لهذه الطقوس غير الحاسمة.[70] الجزء المركزي في الاحتفال كان الموكب عبر المدينة الذي كان ينتهي على الأكروبوليس في الطرف الشرقي من معبد أثينا الجديد. هناك كانت المدينة تقدم للإلهة روباً جديداً، بلون الزعفران إلى تمثال عبادتها، مطرز بمشاهد من معركتها ضد سايكلوبس التي كانت ترمز إلى انتصار الحضارة على الفوضى. جميع المواطنين كانوا ممثلين في الموكب: شبان أثينا، المحاربون، فتيات في لباس أصفر اللون، شيوخ، حرفيون، غرباء مقيمون، مندوبون من مدن أخرى، وقرابين أضاحي. أثينا كانت في حالة استعراض إلى نفسها وإلى بقية العالم الإغريقي، في تأكيد اعتزاز بالهوية مبهر.

لكن الإغريق كانوا قد بدأوا يتوقون إلى تجربة دينية شخصية أكثر. أحد الأبنية الجديدة التي شيدها بيسيستراتوس كانت قاعة عبادة في مدينة إليوسيز على بعد نحو عشرين ميلاً غرب أثينا حيث - كما قيل - إن الإلهة ديميتر أقامت بينما كانت تبحث عن بيرسيفون. وهكذا أصبحت العبادة السرية الإليوسينية جزءاً أساسياً من الحياة الدينية لدى الأثينيين.[71] كانت العبادة إدخالاً، يخضع المشاركون فيه لحالة تحول ذهني.

بما أن الشعائر كانت مغلفة بالسرية، لذلك لدينا فكرة غير مكتملة عما كان يحدث، لكن يبدو أن المدخلين (mystia) كانوا يسيرون على خطا ديميتر، شاركوا في معاناتها، وحزنها ويأسها، وخوفها وغضبها لفقدان ابنتها. فمن خلال المشاركة في ألمها، وفي الغبطة بعد التآم الشمل مع بيرسيفون في النهاية، وجد بعضهم أنهم وقد نظروا في قلب الظلام - لم يعودوا يخافون الموت ثانية، بالطريقة ذاتها.

كانت التحضيرات تبدأ في أثينا. كان المدخلون يصومون يومين، ويقفون في البحر، ويقدمون قرباناً - خنزيراً صغيراً - تكريماً لبيرسيفون، ثم ينطلقون في

جمع غفير سيراً على الأقدام قاصدين إليوسيز، في هذا الوقت بعد أن أضعفهم صيامهم وتخوفهم، لأنه لم يكن لديهم فكرة عما سيحدث لهم. الـ epoptai (أي الذين تم إدخالهم السنة السابقة) كانوا يقومون بالرحلة معهم، سلوكهم كان مُهدداً وعدوانياً. كانت الحشود تنادي بإيقاعية، وكأنهم منومون مغناطيسياً ـ على ديونيسيوس ـ إله التحول ـ دافعين أنفسهم في هياج الإثارة وعندما كان يصل المدخلون إلى إليوسيز كانوا منهكين وخائفين ومزهوين. في هذه الأثناء كانت الشمس تغرب، فتضاء المشاعل، وفي الضوء السماوي المتراقص كانوا يسيرون قطعاناً في الشوارع حتى يفقدون رشدهم واتجاههم كلياً.

بعدئذ كانوا يغرقون في حفرة الظلام في قاعة الإدخال. بعد هذه المرحلة تصبح الصورة مشوشة جداً. حيوانات كانت تقدم قرباناً، كان هناك حدث مرعب " لا يمكن البوح به" ربما كان يتعلق بتقديم طفل قرباناً عند الساعة الحادية عشرة ليلاً. كان هناك "وحي"، شيء ما كان يرفع من سلة مقدسة. ثم يعاد تمثيل التآم شمل كور kore وديميتر. كان السر يختتم بمشاهد غرامية ولوحات كانت تملأ المدخلين بالغبطة والإرتياح. في إليوسيز كانوا يبلغون نشوة " الخروج خارج" ذواتهم في يوم عمل يومي عادي، ويشعرون بنظرة جديدة. لم يكن ينقل عقيدة سرية، فكما شرح أرسطو لاحقاً، لم يكن المدخلون يذهبون إلى اليوسيز كي يتعلموا أي شيء، بل كي يمروا بتجربة كانوا يشعرون أنها تحولهم.[72] استذكر أحد المدخلين قائلاً "خرجت من القاعة السرية، وانا أشعر أنني كنت غريباً عن نفسي".[73] أما المؤرخ الإغريقي بلوتارك Plutarch (46 ـ 120م) اعتقد أن الموت مثل التجربة الإليوسينية:

متجولين هائمين في البداية، مشي متعب في دوائر، ممرات مخيفة في الظلام لا تفضي إلى مكان، ثم مباشرة قبل النهاية، جميع الأشياء الرهيبة: الذعر، والارتعاش، التعرق الدهشة. وبعدئذ ضوء رائع يأتي ليلاقيك. مناطق ومروج نقية موجودة هناك كي تحييك، مع أصوات ورقصات وكلمات مقدسة رزينة ومناظر قدسية.[74] الغبطة الأخيرة المنسجمة مع الدراما النفسية المتوترة أعطت الناس إلماحات بالنعمة السعيدة التي كانت تنعم بها الآلهة.

كان الإغريق يتعلمون أن يفكروا بدقة تحليلية منطقية، مع ذلك كانوا يشعرون بالحاجة لأن يسلموا أنفسهم إلى اللاعقلاني. الفيلسوف الأثيني بروقلوس Proclus (412 ـ 485) اعتقد أن الإدخال الإليوسيني كان يخلق حالة تماهٍ عميق مع الطقس sympathia، لدرجة أنهم كانوا يفقدون أنفسهم ويستغرقون في الطقس "بطريقة غير مفهومة لنا، وإلهية".

لم يكن جميع المدخلين يبلغون هذه الحالة، بعضهم كانوا " مصعوقين ذعراً" وبقوا سجناء خوفهم، لكن آخرين تمكنوا من أن يسلموا أنفسهم إلى الرموز المقدسة، وأن يغادروا هويتهم الخاصة، وأن يصبحوا واحداً مع الآلهة، ويشعروا باستحواذ إلهي داخلهم."[75] في الهند كان الناس يبدؤون إنجاز نعمة مماثلة في أساليب الإستبطان الداخلي. بينما في اليوسيز لم يكن هناك رحلة داخلية، وهذه كانت مختلفة تماماً عن نشوة العزلة التي كان يبلغها بعض نساك العصر المحوري. استثارة إليوسيز لم تكن تحدث في صومعة في غابة نائية، بل في حضور آلاف الناس. إليوسيز كانت تنتمي إلى عالم قديم ما قبل العصر المحوري. من خلال محاكاة ديميتر وبيرسيفون، وإعادة تمثيل عبورهما من الموت إلى الحياة، فإن المدخلين كانوا يغادرون ذواتهم الفردية خلفهم، ويصبحون واحداً مع نماذجهم المقدسة.

الشيء ذاته كان صحيحاً عن أسرار ديونيسيوس.[76] فهنا أيضاً، كان المشاركون يوحدون أنفسهم مع إله يتعذب، متبعين التجوال الهائج لديونيسيوس عندما جننته هيرا hera زوجة أبيه، أقام في غابات اليونان، وعبر البلاد الشرقية في مصر وسوريا وفريجياphrygia بحثاً عن الشفاء. تحدثت القصص الأسطورية عن ديونيسيوس، وعن جنون مدمر، وتطرف مرعب، لكن عبادته في المدينة كانت منظمة على الرغم من وجود جو كرنفالي، بالرغم من وجود تجاوزات بسيطة.[77] كان الرجال يرتدون ملابس نسائية ـ مثلما فعل ديونيسيوس الشاب بينما كان مختبئاً عن هيرا. كل واحد كان يشرب الخمر، وكان هناك موسيقى ورقص. الـ maenads النسوة المكرسات لدنيونيسيوس كن يركضن في الشوارع واضعات تيجاناً من أوراق اللبلاب وحاملات أغصان الصفصاف. لكن

أحياناً كانت المجموعة كلها تسقط في غيبوبة ـ حالة شعورية عالية كانت تنتقل من محتفل إلى آخر. عندما كان يحدث هذا كان العابدون يعرفون أن ديونيسيوس كان حاضراً بينهم. أسموا هذه التجربة الاستحواذ الإلهي entheos أي "في الداخل يوجد إله".

دائماً كان هناك عنصر تنكري في عبادة ديونيسيوس. في مواكبه المدينية جميع سكان المدينة كانوا يختلطون معاً، عبيد يسيرون مع أرستقراطيين جنباً إلى جنب. وهذا كان النقيض التام لـ panathenaea حيث لكل قطاع من الجماهير مكان محدد بكل وضوح في الموكب.[78] الدين الديونيسي كان يحتوي على تمرد بسيط، وهو ما كان يحبه الحرفيون والمهنيون والفلاحون الذين يستمد المستبدون الدعم منهم، ولذلك غالباً ما شجعوا عبادة ديونيسيوس.

في عام 534 شيد بيسيستراتوس مدينة ديونيسيا في أثينا، وبنى معبداً صغيراً لديونسيوس على السفح الجنوبي من الأكروبوليس وبجانبه مسرح مقتطع من سفح التلة الصخرية. في صباح الاحتفال تمثال الإله كان يحمل طقوسياً في المدينة، ثم يوضع على خشبة المسرح. طوال الأيام الثلاثة التالية كان المواطنون يتجمعون في المسرح، ويستمعون إلى الإلقاء الكورالي للأساطير القديمة التي كانت تتطور ببطء إلى دراما مكتملة. في الطقوس الدرامية لمدينة ديونيسيا، اقترب الإغريق من التجربة الدينية للعصر المحوري.

إغريق قلائل في حركتين هامشيتين في القرن السادس تحركوا أيضاً باتجاه نظرة العصر المحوري التي كانت تنبثق في أجزاء أخرى من العالم. الحركة الأولى كانت الطائفة الأورفية التي رفضت الروح العامة العدائية في المدينة، وتبنت المثل الأعلى: اللاعنف.[79] الأورفيون رفضوا أن يضحوا بحيوان قرباناً بشكل طقوسي، وتبنوا طعاماً خضرياً صارماً، ولأن القربان كان أساسياً في الحياة السياسية في المدينة، لذلك انسحبوا من التيار الرئيسي. مثلهم الأعلى هو أورفيوس ـ بطل أسطوري من تراقيا التي كانت منطقة هامشية غير متحضرة وموحشة في اليونان. كان أورفيوس رجل أحزان، أقام الحداد على

فقدان زوجته Eurydice طوال حياته، ومات ميتة عنيفة مرعبة. لقد أغضب كثيراً نساء تراقيا لأنه رفض أن يتزوج ثانية، فمزقنه إرباً بأيديهن العارية.

كان أورفيوس رجل سلام دجن شعره الملهم وحوش البرية، وهدأ الأمواج، وجعل البشر ينسون نزاعاتهم.[80] أما الحركة الثانية فأدخلها فيثاغورث، عالم رياضيات من ساموس، هاجر إلى إيطاليا في عام 530، وسافر في المشرق، وعلّم نسخة من عقيدة الكارما الهندية. نعرف القليل جداً عنه شخصياً، كما نعرف أنه أسس طائفة باطنية كان أفرادها يطهرون الجسد بالامتناع عن أكل اللحم، ورفضوا المشاركة في طقوس القربان، وسعوا إلى الإستنارة عبر دراسة العلم والرياضيات. فمن خلال التركيز على تجريدات صرفة، كان الفيثاغورثيون يأملون أن يفطموا أنفسهم بعيداً عن مدنسات العالم المادي وأن يلمحوا لمحة من النظام الإلهي.

استمر معظم الإغريق في عبادة الآلهة بالطريقة التقليدية، طريقة مجدها الزمن. مع أن في القرن السادس كان هناك محفزات لنزعة عقلانية جديدة كلياً. بدأ فلاسفة قلائل بدراسة العلم ـ لم يكونوا على شاكلة الفيثاغورثيين، ليس كسبيل من أجل الحصول على استنارة روحية، لكن من أجل الاستنارة ذاتها.[81] عاش هؤلاء العلماء الأوائل في ميلتوس miletus ـ مدينة أيونية ionian على ساحل آسيا الصغرى، مرفأ مزدهر بعلاقات واسعة مع البحر الأسود والشرق الأدنى. أول من نال الشهرة كان طاليس thales الذي أصبح مشهوراً من خلال التنبؤ بكسوف شمسي في عام 593. كان توقعاً محظوظاً، لكن إنجازه الحقيقي كان أن يرى الكسوف كحدث طبيعي بدلاً من حدث إلهي. لم يكن طاليس ضد الدين. الجملة الوحيدة التي قالها ولا تزال حية هي "كل شيء هو ماء، والعالم مليء بالألهة". فالبحر البدئي كان منذ أمد بعيد يعتبر المادة الخام الإلهية للكون. لكن مقاربة طاليس لهذا الحدس الأسطوري كانت منطقية تماماً. في شذرات من كتابه التي بقيت في كتابات فلاسفة آخرين، يبدو أنه جادل أن جميع المخلوقات الأخرى كانت مستمدة من عنصر الماء، وأن الحياة محالاً دونه. فالماء يمكنه أن يغير شكله ويصبح جليداً أو بخاراً، بالتالي كان

قادراً على التطور في شيء مختلف. أنكسمينوس anaximenos (560 ـ 496) فيلسوف آخر من ميلسيا اعتقد أن الهواء كان المادة البدئية: الهواء مادة أساسية للحياة، ويستطيع أن يتحول ليصبح رياحاً، سحابة وماء.

في غياب البرهان الإمبريقي (التجريبي)، كانت هذه الافتراضات أكثر من مجرد خيالات، لقد كانت مهمة لأنها أوضحت أن بعض الإغريق كانوا قد بدأوا يشعرون أن من الضروري إتباع محفزات اللوغوس حتى النهاية المرة، حتى وإن كان ذلك يطيح بالحكمة التقليدية. في محاولة تحليل العالم المادي لاكتشاف سبب بسيط واحد. كان طاليس وأنكسمينوس يبدءان بالتفكير كعالمين. أنكسمندر Anaximander (610 ـ 546) هو الأكثر تجديداً من بين هؤلاء الثلاثة. لقد ذهب خطوة أبعد كي يجد المادة البدئية، كان على الفيلسوف أن يمضي إلى خلف ما يمكن إدراكه بالحواس بحثاً عن مادة أكثر أساسية ولا يمكن لمسها. قال إن المادة الأساسية للكون كانت "غير محددة" كلياً أبيرون Appeiron. ولأنها تقع خارج خبرتنا، لم يكن لها خصائص يمكننا أن ندركها، مع ذلك كل شيء قد وجد داخلها في حالة عطالة.

المادة البدئية كانت إلهية، لكنه مضى إلى ما وراء الآلهة، إنها كانت لا تقاس ومصدر حياة لا ينضب. عن طريق سيرورة لم يشرحها أنكسمندر أبداً، الظواهر الفردية قد انفصلت خارجاً عن المادة البدئية، وجميع عناصر الكون كانت ـ الآن ـ في حالة حرب يعتدي ويفترس بعضها بعضاً باستمرار. لقد فرض الزمن شكلاً من Eunomia على الكون، آمراً أن كل عنصر كان محصوراً في مكانه المناسب، وأن ما من مكون واحد للكون باستطاعته الهيمنة على المكونات الأخرى. لكن في نهاية المطاف جميع الأشياء سوف يعاد امتصاصها في المادة البدئية.

المادة البدئية كان لها القدرة لأن تصبح ما أسماه اللاهوتيون "إله خلف الآلهة" عدا أنه ليس له علاقة بالحياة اليومية للكائنات البشرية. في الماضي، لم يحاول علم نشأة الكون أن يصف أصول الحياة بطريقة حرفية، فأساطير الخلق قد صممت لكشف الرؤى العميقة حول الأشياء المحيرة في الحياة على الأرض.

فقصص آلهة تحارب عمالقة كي تجلب الاستقرار من العماء قد عرت الصراع المؤلم في قلب الحياة، بشكل أساسي، وأوضحت أن الإبداعية الحقة تقتضي أن تهب نفسك. في العرض الذي قدمهp لقصة الخلق أكد أن كل شيء في العالم كان حسناً، في زمن كان من الممكن أن يفسح المنفيون الطريق لليأس. لكن سيكون محالاً استخدام أي من نشأة الكون عند Milesian، بشكل علاجي. فذلك لم يكن ما كانوا يبغونه، لأن ذلك لم يكن له علاقة بالبصيرة الروحية. لقد طور المليسيون تاملاتهم من أجلهم هم، وبذور النزعة العقلانية الغربية قد تم زرعها. وفي حوالي الوقت ذاته، كان فلاسفة في الهند قد طوروا أسطورة خلق دفعت العصر المحوري الديني خطوة أخرى إلى الأمام.

* * *

أما في الهند، فقط ظهرت فلسفة جديدة كانت مختلفة تماماً عن الأبانيشاد، وأعارت اهتماماً قليلاً بكتب الفيدا المقدسة. لقد أسميت Samkhya "أي التمييز" مع أن الكلمة أصلاً كانت تعني "التأمل" أو " النقاش". السامكهيا ستغدو مؤثرة جداً في الهند، فكل مدرسة فلسفية وروحانية سوف تتبنى مالا يقل عن واحدة من أفكارها ـ حتى الذين لم يوافقوا على السامكهيا. وعلى الرغم من أهميتها، فإننا لا نعرف سوى القليل عن أصول هذه الحركة الرئيسية. حكيم يدعى كابيلا kapila من القرن السادس يُنسبُ إليه الفضل في ابتكارها، لكننا لا نعرف عنه شيئاً، ولا يمكننا التأكد من أنه كان موجوداً فعلاً.

سامكهيا ـ على شاكلة الميليسيين ـ حللت الكون إلى أجزاء مكونة منفصلة، نظرت خلفاً إلى البداية تماماً، ووصفت عملية نشوء جلبت عالمنا إلى الوجود. لكن أوجه الشبه انتهت هناك. لقد توجه فلاسفة الإغريق إلى العالم الخارجي، بينما توجهت السمكهيا إلى الداخل، وبينما يقول الميليسيون أن العالم مليء بالآلهة، كانت السامكهيا فلسفة إلحادية. ليس هناك براهمن، ولا مادة بدئية أبيرون apeiron، ولا عالم روح الذي فيه يندمج كل شيء. الحقيقة العليا في

السامكهيا كانت (الشخص أو النفس)، لكن النفس فيها لم تكن مشابهة للبوروشا في الريغ ـ فيدا، وكانت مختلفة تماماً عن الذات (أتمان) التي سعى إليها حكماء الأنيشاد. عالم السامكهيا لا يشبه أياً من المجالات الأربعة والعشرين الأخرى في عالم السامكهيا. البوروشا كانت مطلقة، وليست خاضعة للتغيير، لكن البوروشا لم تكن حقيقة وحيدة فريدة. في الحقيقة البوروشا كانت متعددة بشكل محيّر. كل كائن بشري له بوروشا فردية وأزلية، وليست حبيسة في سامسارا ـ أي الحلقة التي لا تتوقف للموت والولادة من جديد والتي وجدت خارج المكان والزمان. البوروشا ـ مثل الأتمان ـ من المحال تعريفها لأن ليس لها خصائص يمكننا أن نميزها. لقد كانت هي جوهر الكائن البشري، لكنها لم تكن الروح لأن ليس لها علاقة بحالاتنا العقلية أو النفسية. لم يكن للبوروشا ذكاء كما نعرفه، ولا رغبات. لقد كانت بعيدة جداً عن تجربتنا العادية، لأن ذواتنا العادية اليقظة لا تدرك حتى أنه لدينا بوروشا أزلية.

عند البداية تماماً أصبحت البوروشا متشابكة ـ بطريقة ما مع براكرتي prakrti أي "الطبيعة"، ومن العسير جداً ترجمة هذه الكلمة، لأنها لم تكن ـ ببساطة ـ ترجع إلى العالم المرئي المادي، لأن براكرتي كانت تشمل العقل، والفكر، والتجربة العقلية ـ النفسية التي يعتبرها البشر غير المستنيرين أنها هي الجزء الأكثر روحانية في ذواتهم. فطالما أننا محتجزين ضمن عالم البراكرتي، فإننا بقينا في جهل للبعد الآزلي من بشريتنا. لكن البوروشا وبراكرتي ليستا على عداوة. فالطبيعة المصورة كأنثى كانت في حالة حب مع البوروشا. وكانت وظيفتها هي أن تخلص بوروشا كل شخص من عناقها، حتى وإن تطلب هذا من البشر أن يتحولوا ضد ما اعتبروه ذواتهم الحقة، في جهل منهم.[82] الطبيعة تاقت لأن تحررنا، أن تحرر البوروشا من أفعال الوهم والمعانة اللتين تسمان الحياة البشرية.

حقاً كل الطبيعة وجدت من أجل أن تخدم النفس الأزلية ـ البوروشا ـ في كل منا لكن هل عرفنا ذلك. "من براهمن نزولاً حتى ورقة العشب، الخليقة كلها هي من أجل صالح البوروشا، حتى يتم الحصول على المعرفة الفائقة."[83]

كيف هبطت البوروشا في أفعال الطبيعة؟ هل كان هناك نوع من خطيئة أصلية؟ السامكهيا لا تجيب على هذين السؤالين، لأن خطتها الميتافيزيقية، لم يكن المراد منها تقديم وصف حرفي، أو عملي، أو تاريخي للحقيقة. في الهند، لم تكن الحقيقة تقاس من خلال غايتها، بل بقيمتها العلاجية. كان من المفترض أن يفكر أتباع السامكهيا بهذا الوصف لعلاقة الطبيعة بالبوروشا كي يكتشفوا ما كان يتوجب على الكائن البشري أن يفعل كي يجد طريق عودته إلى نفسه الحقة. نشأت أفكار السامكهيا في حلقات من أنكروا ذواتهم، الذين لم يكونوا راضين عن روحانية الأبانيشاد. بدلاً من أن يفقدوا ذواتهم في البراهمن غير الشخصي، أرادوا أن يحتفظوا بفرديتهم. كان واضحاً تماماً لهم أن الحياة لم تكن مرضية. شيء ما قد حدث خطأ، لكن لم يكن من المجدي التفكير في كيف ستنقضي هذه الحالة غير السعيدة للأمور. في تأملاتهم لمحوا نوعاً من نور داخلي، مما عنى لهم أنهم كانت لديهم ذاتاً أخرى مطلقة أكثر، فقط إذا ما استطاعوا أن يفصلوها عن فوضى الوهم والرغبة اللتان تعيقان نموهم الروحي. ربما أن كلمة سامكهيا كانت ذات يوم تشير إلى انفصال النفس عن العالم الطبيعي لكل من العقل والمادة. كان الناسك قد انسحب ـ مسبقاً من المجتمع، والآن كان عليه أن يتخذ الخطوة التالية، وأن يجد المركز الحقيقي لكيانه: الروح الحقة، ذاته الحقيقية، وبوروشاه الخالدة.

حاولت السامكهيا تحليل الواقع الذي كان ـ ببساطة ـ مصمماً لمساعدة الناسك أن يبلغ هذا الانعتاق. في معتكفه في الغابة، كان باستطاعته أن يتأمل فيها لكي يفهم المكونات المختلفة لطبيعته البشرية، فقط أن يصبح عارفاً بتعقيدات المأزق البشري، كان يأمل بأن يتسامى عليه. سامكهيا بشرت أن الطبيعة لها ثلاثة مسارات بالإمكان إدراكها في الكون ككل، وفي داخل كل فرد

- Satta (ساتا) العقل، هو الأقرب إلى البوروشا.
- Rajas (راجا) شغف، طاقة جسدية أو عقلية.
- Tamas (عطالة أو قصور ذاتي) هي الأدنى من بين هذه المسارات.

عند بداية الزمن قبل مجيء المخلوقات الأفراد إلى الوجود تعايشت المسارات الثلاثة بانسجام في المادة البدئية، لكن حضور البوروشا غير هذا التوازن، وأطلق عملية فيض. أول المجالات الجديدة الذي انبثق من الوحدة غير المتمايزة كان العقل المعروف "الواحد العظيم". كان هذا الجزء الأعلى من ذواتنا الطبيعية، ولو أن في وسعنا عزله وتطويره فإن باستطاعته أن يضعنا على حافة الاستنارة. العقل كان قريباً جداً إلى البوروشا، وباستطاعته أن يعكس الذات مثلما تعكس مرآة صورة زهرة، لكن في الكائن البشري غير المستنير كان ملبداً بعناصر العالم المادية.

المجال الثاني الذي انبثق كان مبدأ الأنا ahamkara. جميع المخلوقات الأخرى فاضت من أهماكارا: الآلهة، والبشر، والحيوانات، والنباتات وعالم الجوامد. مبدأ الأنا كان المصدر لمشكلتنا لأنه بث الطبيعة إلى جميع الكائنات المختلفة، مع المسارات الثلاثة في نسب مختلفة. الساتا (العقل) كان مسيطراً في الآلهة والبشر المقدسين، والراجا (الشغف) كان سمة مميزة للناس العاديين، الذين طاقتهم العاطفية كانت غالباً ما يساء توجيهها، وحياة الحيوانات كانت غامضة بالظلمة العقلية للتاما tama. لكن مهما كانت مكانتنا فإن جذر تعاستنا كان مصدره إحساسنا بالأنا، الذي سجننا في ذات زائفة لا علاقة لها ببروشانا الأزلية. لقد خبرنا أفكاراً، ومشاعر، ورغبات. قلنا " أنا أفكر"، "أنا أريد" أو "أنا أخاف" متخيلين أن "أنا I" كانت تمثل كياننا كله، لذلك هدرنا طاقة كبيرة جداً في الحفاظ على هذه الأنا وإسنادها، وأملنا ببقائها الخالد في السماء. لكن هذا كان وهماً. الأنا التي بددنا عليها جُل اهتمامنا كانت زائلة لأنها كانت خاضعة للزمن. إنها ستغدو مريضة، ضعيفة، وآفلة في الشيخوخة، وأخيراً تنطفئ وتموت فقط كي تبدأ السيرورة البائسة من جديد في جسد آخر. وفي ذاتنا الحقة، بروشانا، التي كانت خالدة، مستقلة ذاتياً، وحرة، كانت تواقة لأن تنعتق. الطبيعة ذاتها كانت تواقة لإنجاز هذا. فإذا أردنا أن نمضي خلف الألم والإحباط في حياتنا، يجب علينا أن نتعلم أن نقر أن الأنا لم تكن ذاتنا الحقة. فبعد أن

نكون قد أحرزنا هذه المعرفة المنقذة، في عمل معرفي مكثف، فإننا سوف ننجز الانعتاق (moksha) موكشا.

الجهل منعنا. إننا كنا سجناء في أوهام الطبيعة لدرجة أننا خلطنا البوروشا بحياتنا العقلية النفسية العادية، متخيلين أن أفكارنا ورغباتنا وعواطفنا كانت الجزء الأعلى والأكثر جوهرية من بشريتنا. هذا كان يعني أن حياتنا كانت قائمة على خطأ. لقد اعتقدنا أن النفس كانت مجرد نسخة أعلى من الأنا التي حكمت وجودنا اليومي. على الناسك أن يصحح هذا الجهل في تدريب على التأمل والدراية. على الطامح أن يصبح مدركاً لأشكال الطبيعة، وللقوانين التي تحكم نشوءها. وبذلك سوف يكتسب معرفة لم تكن مجرد اتقان معرفة فكرية فقط لنظام السامكهيا، بل يقظة لظرفه الصحيح. في مسار تأمله، فقد تعلم أن يركز على البودهي buddhi، واستبعاد كل شيء آخر على أمل أن يلتقط لمحة للبوروشا. فبعد أن يكون قد رأى البوروشا منعكسة في عقله، يكون قد أنجز إدراكاً عميقاً بأن هذا كان ذاته الحقة. صاح "أنا I معترف بي"، [84] وفي الحال الطبيعة التي كانت تواقة لهذه اللحظة، انسحبت " مثل راقص يغادر بعد أن يكون قد أرضى رغبة معلمه". [85]

بعد تلك اللحظة، لم يعد هناك سبيل للعودة إلى الوراء. بعد استيقاظه على طبيعته الحقة، الناسك المستنير لم يعد ضحية لعذابات الحياة. كان يستمر بالعيش في العالم الطبيعي، وسيمرض، ويشيخ، ويموت، لكن بعد أن أصبح واحداً مع البوروشا، فليس باستطاعة الألم أن يلمسه. في الحقيقة سيجد نفسه قائلاً "إنها تعاني" بدلاً من أن يقول "أنا أعاني" لأن الأسى قد أصبح تجربة بعيدة، بعيدة عما فهمه الآن أنه هويته الحقة. وعندما مات أخيراً، توقفت الطبيعة أن تكون فعالة، والبوروشا بلغت حرية تامة، وليس باستطاعتها أن تدخل جسداً آخر فانياً مقيداً بالزمن.

في معنى واحد، بدت السامكهيا أنها فصلت نفسها كلياً عن الدين الفيدي. فمن منظور السامكهيا القربان كان دون فائدة وأن الآلهة كانت أيضاً حبيسة الطبيعة، لذلك لم يكن هناك فائدة من طلب مساعدتها. كما كان من غير

المجدي المحاولة - من خلال الطقوس - بناء أتمان تعيش في السماء، لأن النفس - الأنا كان عليها أن تموت. فالانعتاق الدائم تجلبه فقط المعرفة الخاصة بأن يقظة لحقيقتنا هو أكثر صحة. لكن على الرغم من تناقض السامكهيا مع العقيدة الفيدية المتشددة، إلا أنها كانت تطويراً للنظرة النمطية الأصلية التقليدية للفلسفة الدائمة. كان الناس تواقين لأن يسلموا أنفسهم في أنموذج سماوي، والسامكهيا أخبرتهم أن هذه لم تكن حقيقة خارجية بل كانت موجودة في داخلهم. إنهم لن يجدوا المطلق بمحاكاة إله، بل من خلال إيقاظ لذواتهم الأكثر مصداقية. وبالتالي النمط البدئي لم يوجد في عالم أسطوري بعيد، بل كان فطرياً في الفرد. فبدلاً من الاندماج بشخص بارادوغمائي خارجي، عليهم أن يتماهوا مع البوروشا الداخلية.

لقد كانت السامكهيا نقطة علام لمرحلة جديدة في وعي النفس. الناس في الهند كانوا يصبحون مدركين لنفس كانت في حالة غامضة بفوضويات الحياة اليومية، كامنة في أجسادنا، مقيدة بغرائزنا، وفقط مدركة لنفسها بشكل معتم. الدراما الميتافيزيقية للسامكهيا قد كشفت ما كان بالتحديد توقاً بشرياً إلى الانعتاق. استطاع الناس بلوغ ما هو خلف أنفسهم من خلال تنمية إدراك للنفس أكبر. لكن هذا لم يكن يعني استغراقاً ذاتياً، لأن الأنا هي التي تبقي النفس في حالة عبودية. الهنود كانوا يصبحون مدركين لفهم التوجه الأناني في وجودنا الدنيوي. لقد جعلتنا الأنا غير قادرين أن ننظر إلى أي شيء دون أن نتساءل: "هل أنا أريد هذا؟"، و"كيف أستطيع أن أستفيد منه؟، وهل هذا يهددني؟"، و"لماذا نلت هذا؟" نتيجة لذلك إننا لم نكن نرى أبداً أي شيء كما كان فعلاً. لأننا كنا سجناء أفعال الأنانية. لقد استطاعت السامكهيا أن تصور الانعتاق من هذا التعلق المخيف بالنزعة الأنانية إلى إدخاله حالة وجودنا العادي، والذي هاجسه الآنا - وبذلك لم نستطع أن نتصوره نحن. حالة كهذه لم تكن إلهية، وغير خارقة للطبيعة، بل كانت إنجازاً لطبيعتنا البشرية، وأي امرئ كان مستعداً لأن يعمل من أجل هذا الانعتاق باستطاعته بلوغه.

قدمت السامكهيا مساهمتين للروحانية الهندية: الأولى كانت فهم أن الحياة كانت دوكها dukkha التي تترجم "معاناة"، لكن كلمة دوكها تحمل معنى أوسع "غير مرضٍ، وملتوٍ". لأسباب لن يستطيع أحد أن يعرفها أبداً، كانت ولادتنا في هذا العالم دون قداسة، خطرة ومؤلمة. وتجربتنا كانت مشروطة بالجهل والأسى. كل شيء في الكون كان فانياً، متحللاً، وزائلاً. وحتى عندما شعرت "الأنا" الزائفة بالسعادة أو الرضا، كان هناك شيء مفقود. فإذا ما حققت "أنا" نجاحاً، فإن منافسيّ كانوا كئيبين. وغالباً "I" كانت تحن إلى هدف أو إلى شيء مادي، وفي النهاية، أجد أنه محبط وغير مرضٍ. لحظات السعادة ـ غالباً ـ ما تليها فترات من الأسى. وما من شيء دام طويلاً. عالمنا الداخلي الفوضوي استطاع أن يتغير من حالة إلى أخرى في ثوان. توفي أصدقاؤنا، والناس مرضوا، وفقدوا جمالهم وحيويتهم. إن إنكار المعاناة الكونية ـ مثلما فضل كثيرون أن يفعلوا ـ كان خداعاً لأنها كانت قانوناً حياتيا كما قالت السامكهيا. هذه الطبيعة الناقصة كانت أيضاً صديقنا، لأن (أنا) (I) تاقت إلى المطلق، أي الحقيقة غير المشروطة للبوروشا. وباستمرار بينما ننظر فيما حولنا وفي ذواتنا الداخلية المضطربة، نجد أنفسنا تواقين إلى شيء ما آخر: مثل حكماء الأبانيشاد كان علينا أن نصرخ "ليس هذا". قد تبدو السامكهيا تشاؤمية، لكنها فعلياً تفاؤلية وطموحة. لقد أكدت أن الطبيعة لم تكن الحقيقة النهائية، وأن باستطاعة الناس أن يشعروا بالانعتاق إذا ما وجدوا فعلاً بروشاهم، أي ذواتهم الحقة. لقد عانت جميع الخلوقات: الآلهة، والبشر، والحيوانات، والحشرات، لكن البشر فقط كانوا قادرين على الموكشا moksha، الانعتاق من الألم.

لكن نساكاً كثيرين وجدوا أن في الممارسة كان الانعتاق صعباً جداً. لقد أنجز بعض الناس الانعتاق من خلال الدراسة والتأمل، بينما شعر آخرون أنهم كانوا بحاجة إلى شيء ما أكثر. فالطبيعة أبقت الكائنات البشرية في قبضة أكثر قوة، لدرجة أن إجراءات أكثر قوة كانت ضرورية، مما دفع بعض النساك إلى تطوير التدريب الممارس الآن في قاعات ورياضات التأمل. فاليوغا واحدة من أعظم إنجازات الهند، وفي شكلها الأكثر تطوراً، التي من المؤكد

تقريباً أنها كانت عندما صممت في حلقات السامكهيا من أجل تحرير البوروشا من أسر الطبيعة. هذا اليوغا الكلاسيكية كانت مختلفة جداً عن نسخة اليوغا التي تُعلّم في الغرب في يومنا هذا.[86] إنها لم تكن تدريباً أيروبيكياً، ولم تساعد الناس أن يسترخوا، أو لإخماد القلق الشديد، أو لأن يشعر المرء أفضل في حياته، بل على العكس من ذلك تماماً. اليوغا كانت هجوماً ممنهجاً على الأنا، أسلوب محدد عبر فترة زمنية طويلة يعلم الطامح أن يلغي وعيه العادي، بأخطائه وأوهامه، ويستبدل الأنا بغبطة اكتشاف بروشاه.

لا نعرف أسماء النساك الذين طوروا اليوغا. كانت مرتبطة بباتنجالي patanjali الذي دوّن yoga sutras في القرون الأولى من تقويمنا، لكنه لم يبتكر هذه الممارسات التي كانت قديمة جداً. يعتقد بعض العلماء أن أحد الأشكال اليوغا ربما أوجده بعض سكان الهند الأصليين قبيل وصول القبائل الآرية. لقد ذكرت بعض تقنيات اليوغا تمارين التنفس على وجه الخصوص ـ في الابانيشاد الأولى، وكانت تمارس أثناء الطقوس الفيدية. لكن مهما كانت بدايتها فقد أصبحت جزءاً ثابتاً من المشهد الروحي في الهند عند بداية القرن السادس. لقد مارسها البراهميون، والنساك الفيديون المتشردون، وما يسمى الطوائف الهرطوقية. مجموعات مختلفة طورت نسخاً مختلفة من اليوغا، لكن التدريبات الأساسية ـ كما هي موصوفة في يوغا سوتراس ـ بقيت أساسية.

كلمة يوغا بحد ذاتها مهمة، إنها تعني yoking أي وضع النير، وقد استخدم الآريون الفيديون هذه الكلمة للتعبير عن سرج الحيوانات لجر عرباتهم الحربية قبل الإغارة. كان المحاربون رجال يوغا إنهم كانوا ـ مثل devas آلهة ـ في حالة ترحال دائم، وباستمرار منخرطين في نشاط عسكري، بينما قليلو الهمة كانوا يبقون في بيوتهم. ومع حلول القرن السادس كان رجال اليوغا الجدد منشغلين في فتح الفضاء الداخلي بدلاً من شن حرب ـ منصرفين إلى اللاعنف. تصاعدت اليوغا لتشكل غارة على العقل الباطن، الذي كان السبب الجذري لكثير من ألمنا. لقد عدد الباتنجالي خمسة دوافع تبقينا في حالة عبودية: الجهل، إحساسنا بالأنا،

والشغف، والقرف، وإغواء هذه الحياة العابرة. هذه الغرائز طغت على السطح واحدة بعد أخرى بطاقة لا تستنفذ ولا يمكن السيطرة عليها. إنها كانت جوهرية لبشريتنا. كما اعتقد اليوغيون أنها كانت متخندقة بعمق، ويصعب استئصالها عن طريق فعل المعرفة التي تصورها معلمو السامكهيا.

إننا كنا تحت شروط ما دون شعورية أنتجت كل شيء محدد لشخصية الفرد. إنها كانت النتيجة للوراثة، ولكارما الحيوات الماضية والحاضرة. قبل فترة طويلة من تطوير فرويد ويونغ البحث العلمي الحديث عن الروح soul (أو النفس)، كان يوغيو الهند قد بدأوا مسبقاً باكتشاف وتحليل عالم اللاشعور بقوة غير مسبوقة. هذه viritties وvasanas يجب إفناؤها "وحرقها". عندئذ فقط تستطيع الذات أن تفصل نفسها عن فوضى حياتها النفسية، وأن تلقي عنها أفعال الطبيعة، وأن تشعر بنعمة الانعتاق. وهذه المأثرة الهرقلية يمكن إنجازها عن طريق قدرة عقلية فقط.

على أية حال، أولاً كان على اليوغي أن يخضع إلى فترة إعداد طويلة. لم يكن يسمح له أن يؤدي تمريناً يوغياً واحداً حتى يكون قد أكمل تدريباً أخلاقياً مكثفاً. ثم يبدأ الطامح بالالتزام بتطبيق المحظورات التي على قمتها اللاعنف "وعدم إيقاع الأذي". كان على اليوغي ألا يؤذي أو يقتل المخلوقات الأخرى، حتى ولا بعوضة، أو أن يتكلم مع آخرين بطريقة غير لطيفة. محظر عليه أن يسرق، فلا يستطيع أن يمسك أي شيء كان يريده. كان يجب عليه أن يقبل الطعام واللباس الذي كان يقدم إليه دون اعتراض، ومنمياً داخله عدم اكتراث بالممتلكات المادية. ثالثاً يجب ألا يكذب، وأن يقول الصدق في كل الأوقات، وعدم تشويه الحقيقة بجعل مادته ممتعة أكثر أو متملقة أكثر لنفسه. يجب أن يمتنع عن الجنس والمواد المخدرة التي قد تبلد عقله أو توهن القدرات العقلية والجسدية التي سيحتاجها في هذه الرحلة الروحية. البرنامج التحضيري كان يطالب بإتقان تدريبات نفسية وجسدية. الطامح يجب أن يبقي نفسه نظيفاً، وأن يدرس تعاليم معلمه، كما يجب عليه أن ينمي هدوءاً اعتيادياً، وأن يسلك بلطف وكياسة تجاه أي شخص، بغض النظر عما كان يشعر به في داخله.

لقد أوضح هذا البرنامج التحضيري طموح اليوغيين الروحي. إنهم لم يكونوا مهتمين بامتلاك تجربة ملهمة وعابرة. كانت اليوغا إدخالاً ـ بأسلوب مختلف ـ كي يكونوا أناساً، وهذا كان يعني تحولاً أخلاقياً جذرياً. الممنوعات والتدريبات كانت نسخة جديدة للعصر المحوري للمحاكاة التقليدية للأنموذج النمطي الأصلي.

كان يجب على اليوغيين أن يتركوا ذواتهم غير المستنيرة خلفهم، وأن يتخلوا عن مبدأ الأنا، وأن يسلكوا وكأنما البوروشا كانت قد انعتقت مسبقاً. عندما كان الناس ـ في الماضي ـ يقلدون طقوسياً إلهاً فإنهم كانوا يشعرون أنهم يخرجون خارج حياتهم العادية، وإعلاءً لكيانهم. الشيء ذاته كان صحيحاً بالنسبة لـ yama و niyama. فمن خلال المثابرة على الممارسة، ستصبح هذه التدريبات الأخلاقية طبيعة ثانية، وكما شرح باتنجالي عندما يكون هذا قد حدث، "سيشعر الطامح بغبطة لا توصف".[87] بما أنه قد ترك "مبدأ الأنا" خلفه يكون قد تولدت لديه بوادر الانعتاق النهائي.

بعد أن يصبح المعلم راضياً أن الطامح قد أتقن niyama, yama، يصبح جاهزاً كي يتعلم التدريبات اليوغية المناسبة: asana أي " الجلوس": كان عليه أن يجلس متصالب الساقين، ظهره مستقيم، وفي وضع دون حركة أبداً طوال ساعات دفعة واحدة. في بداية الأمر، كان هذا غير مريح، ومؤلماً بشكل لا يحتمل أحياناً. الحركة هي سمة المخلوقات الحية، إذ كل شيء يتحرك فإنه حي. حتى عندما نتخيل أننا جالسين ساكنين، فإننا نكون في حالة حركة مستمرة: إننا نرمش، نحك، ونعدل من جلوسنا من إلية إلى الألية الأخرى، ونحرك رؤوسنا استجابة لمحفز. حتى في نومنا، نتقلب ونرفس. لكن في الجلوس كان اليوغي يتعلم تقوية الرابطة بين عقلة وأحاسيسه. كان ساكناً تماماً لدرجة أنه كان يبدو كتمثال أو نبات أكثر من كونه كائناً بشرياً. في الأزمنة القديمة، كان الآريون يمقتون asuras الذين كانوا يجلسون في البيت طوال اليوم. أما الآن، يجلس رجال اليوغا الجدد طوال ساعات في مكان واحد، ودون أن تبدو عليهم إمارات تدل على الحياة.

بعد ذلك، كان اليوغي يتعلم التحكم بتنفسه، وحتى هجوم أكبر على حياته الغريزية. التعرق هو الأكثر أساسية وآلية لوظائفنا الجسدية، وهو أساسي جداً للحياة. في pranayama يتعلم اليوغي أن يتنفس ببطء تدريجي، هدفه هو أن يتوقف بين الزفير والاستنشاق لأطول فترة ممكنة، بحيث يبدو وكأنما التنفس قد توقف تماماً. دقات قلبه تبطئ، وقد يبدو أنه ميت، مع ذلك فقد أصبح ماهراً في paranayama، كان يشعر بنوع جديد من الحياة. هذا التنفس المنضبط ـ المختلف كلياً عن التنفس غير المنتظم في الحياة العادية ـ قد اتضح أن له تأثرات عصبية وجسدية. إنه يولّد إحساساً بالهدوء، والانسجام والسكينة، ويقال أنه مماثل لتأثير الموسيقى. كان هناك شعور بالانبساط، والنبل، وإحساس بالحضور.

بعد إتقان المتدرب اليوغي لهذه التدريبات الجسدية، يصبح مستعداً للتدريبات العقلية ekagrata "أي التركيز على نقطة واحدة". هنا كان يرفض أن يفكر متعلماً التركيز دون انقطاع على شيء وحيد أو فكرة واحدة. فقد يكون الشيء زهرة، أو أرنبة أنفه، أو أحد تعاليم معلمه. فالشيء المهم هو أن يستبعد بقوة أي انفعال أو ارتباط، وأن يبعد أياً من المشتتات التي كانت تتدافع في ذهنه. كانت هناك أشكال متنوعة من التحكم بالتنفس، تعلم الطامح سحب الأحاسيس متأملاً الشيء بالذهن وحده. في التركيز كان يُعلّم أن يتصور بصرياً البوروشا في أعماق كيانه، ويتخيلها تدريجياً تندمج مثل زهرة لوتس منبثقة من بركة: كل تمرين كان يفترض أن يدوم مدة 12 يوماً، وعن طريق هذه التدريبات الجسدية والعقلية، كان اليوغي الماهر يغوص عميقاً في عالمه الداخلي بعيداً عن شعوره الدنيوي العادي لدرجة أنه كان يدخل في غيبوبة.

كان المتدرب يجد أنه قد أنجز صلابة مدهشة. وبينما كان يصبح أكثر خبرة، كان يجد أنه لم يعد مدركاً لحرارة الصيف القائظة، أو للبرد القارس في أمطار الشتاء. أما وقد أصبح متحكماً بحياته النفسية، فقد أصبح متحكماً ببيئته. وجد أيضاً أنه رأى الشيء الذي يتأمله بطريقة جديدة. لأنه قد كبت فيض الذكريات والتداعيات الشخصية التي أثارها الشيء، فلم يعد تشتته مشاغله هو.

إنه لم يجعل الشيء ذاتياً أو خاصاً به، بدلاً من النظر إليه عبر العدسة المشتتة لاحتياجاته ورغباته هو، استطاع أن يرى الشيء كما كان فعلاً. الـ (I أنا) كانت تبدأ بالتواري من تفكيره، وكنتيجة حتى الأشياء المملة الرتيبة كانت تشكف عن سمات غير متوقعة كلياً. عندما كان اليوغي يتأمل بهذه الطريقة في أفكار مدرسته الخاصة، كأسطورة الخلق لدى السامكهيا، كان يشعر بها بالغة الحيوية لدرجة أن صياغة عقلانية لهذه الحقائق كانت باهتة بالمقارنة. ما عادت معرفته مفهومية فقط، بل كان يعرف هذه الحقائق بشكل مباشر. لقد أصبحت جزءاً من عالمه الداخلي.

لم يكن اليوغيون يعتقدون أن إلهاً كان يلامسهم، إذ لم يكن هناك شيء خارق للطبيعة في هذه التجارب. في نهاية المطاف، كانت السامكهيا عقيدة إلحادية، وليست مهتمة بالآلهة. كان اليوغيون مقتنعين أنهم كانوا يطورون القدرات الطبيعية لدى الشخص البشري. أي امرئ تدرب بجدية كافية، استطاع إنجاز هذه المآثر العقلية. لقد اكتشفوا بعداً جديداً من بشريتهم. هذا التسامي لم يكن مواجهة مع إله خارجي " موجود هناك"، بل كان نزولاً في أعماق كيانهم. اليوغي ـ عن طريق الفصل المنهجي لنفسه عن وجوده العادي المقيد بالأنا، كان يحاول أن يعزل ذاته الحقيقية عن أفعال الطبيعة من جديد. رجال العصر المحوري هؤلاء كانوا يبلغون نشوة " الخروج خارج المألوف بأن يصبحوا مدركين تماماً أكثر لطبيعتهم هم. بعد أن يكون اليوغي قد دخل حاله الغيبوبة، كان يتقدم عبر سلسلة حالات عقلية عميقة بشكل متزايد، والتي لم تكن تحمل أية علاقة بتجربتهم المعتادة. كان هناك Samadhi حالة وعي صرف ـ حيث الإحساس بالأنا (I) و"لي mine" قد اختفى تماماً.

كان اليوغي يشعر أنه متحد كلياً بأشياء تأمله، ولم يكن مدركاً لشيء آخر. كان بالتأكيد غير واع لنفسه وهو يتأملها. كانت هناك حالات أكثر تطرفاً لا يبلغها إلا قلة قليلة من اليوغيين الموهوبين الممارسين الذين استطاعوا أن يصفوا هذه الحالات بتعابير متناقضة: كان هناك إحساس بالغياب الذي كان أيضاً حضوراً، فراغ كان أيضاً وفرة، حضور دائم، حياة في موت. أسمى

اليوغيون هذه التجارب " اللاشيئية nothingness لأنه لم يكن هناك كلمات لوصف الحالة، لقد قارنوها بإحساس المشي في غرفة، والعثور على فراغ فقط، وحيز وحرية.

فسر اليوغيون اكتشافاتهم التأملية بشكل مختلف. أولئك المنتسبون إلى تعاليم الأبانيشاد اعتقدوا أنهم قد أصبحوا تماماً مع براهمن، وأولئك المتبعين لفلسفة السامكهيا زعموا أنهم قد حرروا البوروشا. لكن التجربة الأساسية بقيت نفسها. أياً كان ما اعتقدوا أنهم قد فعلوه، فإن اليوغيين قد فتحوا ممكنات جديدة. تقدير ذكي للمعاني التي كانت محنة الشرط البشري قد قاد هؤلاء الرجال غير العاديين الطموحين كي يجدوا طريقة جذرية للخروج منها. لقد طوروا تقانة روحية ستحررهم من المعاناة. اليوغا لم تكن مطروحة لكل واحد على أية حال. لقد كانت عملاً يستغرق الوقت كله لا يمكن دمجه بمطالب الحياة اليومية. لكن حكماء آخرين سيجدون لاحقاً سبيلاً لتطوير يوغا سوف تقدم للعامة إلماحات الاستنارة.

* * *

في هذه الأثناء، كانت الصين في أزمة. عندما هزم chu جيوش تحالف الولايات الصينية وفي عام 597 أصبحت المنطقة مهددة بنوع جديد تماماً من العدوان. لقد تم رمي القفازات. لم يكن لدىchu وقت للحرب وفق الطقوس القديمة، وولايات أخرى أكبر أيضاً بدأت تنحي جانباً قيود التراث، فقررت أن تتوسع وتفتح مزيداً من المناطق، حتى وإن كان هذا يعني تدمير العدو. أصبحت الحرب مختلفة جداً عن الحملات التي كانت تشنها الولاية في الماضي ففي عام 593 ـ على سبيل المثال ـ كان سكان song مجبرين على أكل أطفالهم أثناء فترة حصار طويل. كما واجهت الإمارات القديمة الإبادة السياسية، مع أنها كانت تعلم أن ليس باستطاعتها أن تنافس الولايات الأكبر منها، لكن تم جرها إلى المعركة ضد إرادتها، بينما أصبحت مناطقها ساحة معركة لجيوش متنافسة.

Qi على سبيل المثال هاجمت عدة مرات إمارة Lu الصغيرة لدرجة أنها كانت مجبرة أن تتوسل إلى chu كي يساعدها، لكن دون جدوى. مع حلول نهاية القرن السادس، كانتchu قد هُزمت، وأصبحت ولاية Qi مهيمنة جداً لدرجة أن دوق Lu تمكن أن يحتفظ فقط بشيء من الاستقلالية بمساعدة ولاية´Qin الغربية.

كانت الدول منهكة أيضاً بمشكلات داخلية. فخلال القرن السادس كانت ولاية Qi وJing وchu قد أنهكتها حروب أهلية مزمنة. في Lu كانت هناك ثلاث أسر بارونات متنافسة قد أضعفت الدوق الشرعي بحيث أصبح مجرد دمية. هذا بحد ذاته كان دليل الأزمنة. أمير من سلالة دوق الزهو العظيمة قد جُرّد من جميع سلطاته عدا واجباته الطقوسية، وكان معتمداً ـ مالياً ـ على المرابين. كانت البنى الاجتماعية والسياسية القديمة تتداعى. وبدت الصين أنها تتجه مباشرة إلى الفوضى. مع ذلك أشرت هذه الصراعات إلى تغير أكثر عماقاً. فالنبلاء الذين تمردوا على أمرائهم كانت دوافعهم الجشع والطموح، لكنهم كانوا أيضاً يحررون أنفسهم من هيمنة العائلات الأكثر عراقة. كان الصينيون ينتقلون بشكل مؤلم إلى سياسة مساواة أكثر سوف تقوض الحكم الذي لم يتعرض للتحدي، أي للأمراء الوارثيين.[88] في cheng وLu كانت هناك إصلاحات مالية وزراعية حسنت من مصير الفلاحين. ففي النصف الثاني من القرن السادس سن zicham ـ رئيس وزراء إمارة cheng ـ قوانين عقوبات على مراجل البرونز. وكانت هناك مدونة قانونية محددة، باستطاعة أي امرئ الرجوع إليها لمواجهة الحكم التعسفي.

فكما اكتشف علماء الآثار، كان هناك سخط متزايد على الإلتزام الطقسي، أخذ الناس يضعون أشياء مادية في قبور أقاربهم بدلاً عن الأواني المحددة طقوسياً: وروح الاعتدال القديمة كانت في حالة تراجع. طور صينيون كثيرون تقديراً جديداً تجاه الرفاهية مما وضع عبئاً لا يحتمل على الاقتصاد عندما كان الطلب يؤدي على نضوب الموارد. بعض السادة العاديين shi عند أسفل التراتبية الإقطاعية بدأوا يعتادون على نمط حياة الأسر الكبيرة. نتيجة لذلك

أصبح هناك أرستقراطيون كثيرون، لدرجة أن بعض أفراد طبقة النبلاء لم يكن باستطاعتهم الحصول على أرض مقتطعة لهم، لعدم وجود أرض كافية كي تقتطع لهم. سادة كثيرون، بعضهم كانوا أقرباء مقربين من الأمراء، فقدوا أراضيهم وألقابهم، وتم تخفيض مرتبتهم إلى مستوى عامة الناس. بعض من السادة المتدني المرتبة كانوا إما كتبة، أو طقوسيين، أو ضباطاً في الجيش أصبحوا مجبرين على مغادرة المدينة آخذين مهاراتهم معهم إلى الريف حيث يعيشون مع عامة الناس. لم تكن هذه مجرد أزمة سياسية واجتماعية. السماء والأرض كانتا منفصلتين جداً لدرجة أن أناساً كثيرين شعروا بالخوف من أن الاستهزاء الراهن بطريقة السماء way of heaven كان يهدد الكون كله. رأى طقوسيو lu الجشع الجديد، والعدوان، والنزعة المادية بمثابة هجوم تجديفي على الشعائر المقدسة. بينما كان آخرون أكثر ريبية. في عام 534 كان العديد من الولايات الصينية مدمراً بإعصار تلاه حرائق غابات قاتلة. السيد الإلهي في إمارة chengاقترب من رئيس وزرائه وطلب منه أن يقدم قرباناً خاصاً كي يهدئ السماء، فهز رئيس الوزراء رأسه وقال ((طريقة السماء قد أزيحت بعيداً، إنها طريق الإنسان التي هي قربنا، لا نستطيع أن نصل إلى الأولى، ما الوسائل التي لدينا لمعرفتها؟))[88]. طالما أن السماء كانت خارج معرفتنا، كان من الأفضل أن نركز على ما هو موجود ضمن فهمنا.

في حوالي هذه الفترة، شاب يدعى kung Qiu (479 ـ 551)كان قد أتم دراساته وكان على وشك أن يشغل وظيفة في إدارة ولاية lu. كانت أسرته وافدة حديثاً إلى الإمارة، وأسلافه كانوا أفراداً من سلالة دوق song. لكن العائلة أجبرت على الهجرة مثلما حدث للعديد من الأرستقراطيين. ترعرع في فقر مدقع، وكان عليه أن يكسب عيشه. كان منجذباً إلى الطقوسيين، وكان موالياً مخلصاً لسلالة الزهو، خاصة دوق الزهو العظيم الذي كان أحياناً يزوره في أحلامه. كان كونغ كوي طالباً مجداً. وعندما بلغ الثلاثين كان قد أتقن دراسة Li، وكما يقول، في الأربعين كان قد أصبح علّامة. العديد من طبقة shi

الذين تم تخفيضهم إلى فقر مدقع كانوا يشعرون بالمرارة والسخط. لكن كونغ فهم المعنى الأعمق للطقوس، وكان مقتنعاً أن إذا ما فسرت الطقوس كما ينبغي فإن باستطاعتها أن تعيد الشعب الصيني إلى طريقة السماء. وفي مرحلة لاحقة سوف يسميه تلامذته بـ "معلمنا كونغ" وفي الغرب نسميه كونفوشيوس. أي كان عصر الصين المحوري على وشك أن يبدأ.

الفصل السادس

الإحساس بما يحس به الآخرون

(530 حتى 450 ق.م)

في نحو نهاية القرن السادس كانت إمارة Lu على حافة فوضى شاملة بعد أن اغتصبت أسر البارونات الثلاث السلطة من الدوق الشرعي، وأخذت تتحارب مع بعضها على السيادة. وهذا كان مصدر قلق كبير لدى الطقوسيين على وجه الخصوص. أتى الناس من جميع أنحاء الصين إلى Lu كي يحضروا القربان الاحتفالي، ويستمعوا إلى الموسيقى التي كانت تعود إلى ملوك الزهو الأوائل. قال أحد الزوار من ولاية Jin متعجباً: «احتفال الزهو بمجمله موجود هنا، الآن فقط أفهم نفوذ دوق الزهو ولماذا حكمت سلالة الزهو»(1) لكن مع حلول عام 518 كن الحاكم الشرعي لـ Lu ـ من أحفاد الزهو ـ فقيراً جداً لدرجة أنه لم يكن باستطاعته أن يدفع للراقصين والموسيقيين كي يؤدوا هذه الشعائر في معبد الأسلاف، بينما أحضر أحد الذين اغتصبوا السلطة ثمان فرق من الراقصين كي تؤدي شعائر المنزل الملكي، في مقام أسلافه ـ وبشكل غير شرعي. كان هناك رعب يزحف، وما عادت Li تلجم تباهي وجشع العائلات النبيلة، والسماء بدورها بدت غير مبالية.

عندما سمع كونفوشيوس بهذا الأداء غير الشرعي للشعائر الملكية أصبح ساخطاً. وقال نادباً: «الطريقة The way لا تحرز تقدماً» فإذا لم يكن باستطاعة الحكام تطبيق القيم المقدسة التي تبقي المجتمع على المسار الصحيح، فإن عليه

شخصياً أن يفعل ذلك. وكواحد من عامة الشعب، لم يكن باستطاعته ترسيخ الـ dao، لأن الملك فقط يستطيع ذلك، بيد أنه استطاع تربية مجموعة من رجال علماء مقدسين، الذين سيعلمون حكام الصين في الطريقة The way، وأن يعيدهم إلى واجبهم. كان كونفوشيوس يأمل بوظيفة سياسية، لكنه كان ينال الإحباط باستمرار. كان صريحاً ونزيهاً جداً لدرجة يتعذر عليه أن ينجح في ميدان السياسة، ولم يتمكن من أن يشغل وظيفة أعلى من عمل في أقسام المالية والمحاسبة، مع ذلك كانت أفضل الممكن بالنسبة له. فشله السياسي أعطاه وقتاً كي يفكر، فأصبح معلماً ملهماً، ومصمماً أنه إذا لم يكن باستطاعته أن ينجح شخصياً، فإنه سيدرب آخرين كي يشغلوا مناصب عليا. في هذه الفترة أصبح عَلاّمة جوالاً، مرتحلاً دون كلل من ولاية إلى أخرى برفقة مجموعة قليلة من تلاميذه المخلصين، وبداخله أمل أن يأخذه على الأقل أحد الأمراء بجدية في نهاية المطاف.

لم يكن كونفوشيوس ناسكاً معتكفاً، بل رجلاً من العالم الذي كان يستمتع بطعام جيد، وخمرة جيدة، وأغنية، ومزحة، ومحادثة محفزة. إنه لم يحبس نفسه في برج عاجي، ولم يمارس الاستبطان أو التأمل، بل دائماً كان يطور رؤاه من محادثة الناس الآخرين. في /Analects/ مصدرنا الرئيسي ـ نراه منخرطاً دائماً في نقاش مع أصدقاء.وتلاميذ. فطيبته وذكاؤه ـ دمج غير عادي ـ جذبا الطلاب إليه، ولم يبعد أحداً أبداً. كان بعض طلابه ارستقراطيين، وآخرون من مولد متواضع. من المحتمل أنه كان يفضل الفقراء، لكن الموهوب yuan Hui بشكل استثنائي كان المفضل لديه، كما أنه أحب جميع أفراد رفقته القليلة: الهادئ القوي Mingzi، والنشيط Zilu، والنزيه الشجاع Zigong. وعندما كان طالب مهتم يقدم نفسه، كان كونفوشيوس يبحث عن مزية واحدة قبل كل المزايا الأخرى «فقط امرؤ يغلي حماسة هو من أعلمه»(3) كان يعنف تلاميذه ويقودهم دون رحمة، لكنه لم يكن يميز نفسه عنهم. فبعد الإنجازات الكبيرة لدى اليوغيين، كان من المريح التحول إلى كونفوشيوس الذي إذا ما

فهمت طريقته كما يجب، كانت تصبح في متناول كل امرئ. كان كونفوشيوس دمثاً، هادئاً، ودوداً، ولم يكن يتحدث ككاهن كبير، لم يكن هناك محاضرات أو مواعظ مطولة، وإذا ما اختلف في الرأي مع تلاميذه، كان مستعداً أن يتنازل عن رأيه لرأيهم. ولما لا يفعل ذلك؟ إنه لم يكن حكيماً ملهماً إلهياً مثل yao وShun. إنه لم يتلق إيحاءات ورؤى، ميزته الوحيدة كانت جهداً دؤوباً كي يتعلم، وصبراً لا ينضب في تعليم الآخرين(4).

لقد جمع تلاميذه Analects حكمه بعد فترة طويلة من وفاته، لذلك لسنا متأكدين مما إذا كانت جميع الحكم المنسوبة إليه هي حقيقية، لكن يعتقد بعض الدارسين أن بالإمكان اعتبار النص مصدراً موثوقاً بدرجة معقولة(5). إنه يتكون من مئات ملاحظات موجزة غير مترابطة، ودون محاولة تقديم نظرة محددة بوضوح. الأسلوب إيحائي مثل مشهد طبيعي صيني: يفترض أن يبحث القراء عما لم يقله النص، وأن ينظروا بين السطور بحثاً عن المعنى الكامل، وأن يربطوا فكرة مع أخرى. وبالرغم من الانطباعات الأولية، هناك تماسك في الكتاب. إن نظرة كونفوشيوس مترابطة داخلياً بشكل مكثف بحيث يصعب في أغلب الأحيان فصل موضوعاته المتنوعة عن بعضها.

كونفوشيوس ـ مثل فلاسفة آخرين من العصر المحوري ـ كان يشعر أنه مغرباً عن زمنه، وكان مقتنعاً أن السبب الجذري للفوضى الراهنة في الصين كان إهمال الشعائر التراثية، وهذا الإهمال كان يحكم سلوك الإمارات منذ مدة طويلة. في أيام yao وشون لاحقاً ـ أي في فترة عهد الزهو الأوائل ـ كما أعتقد ـ كانت طريقة السماء way of Heauen تطبق بشكل تام، فعاش البشر معاً بكل انسجام. Li شجعت روح الاعتدال والكرم، لكن في هذه الأيام، لم يُعِرْ معظم الأمراء الـ dao نظرة ثانية، لأنهم كانوا منشغلين جداً بالسعي وراء الرفاهية ومتابعة طموحاتهم الأنانية. العالم القديم كان يتهاوى دون أي شيء لقيمة مساوية كي تأخذ مكانه. فالحل الأفضل ـ حسب رأيه ـ كان العودة إلى التراثات التي قد عملت بشكل جيد جداً في الماضي.

كان كونفوشيوس يشعر بالرعب من الحرب المستمرة التي كانت تهدد بزوال الإمارات الصغيرة. مع ذلك، إنها لم تكن يبدو أنها متأهبة لمواجهة ذلك الخطر. لم يكن باستطاعة إمارة Lu أن تنافس عسكرياً ولاية كبيرة مثل Qi. وبدلاً من أن تنظم جميع مواردها لمواجهة هذا التهديد الخارجي، كان محرك الأسر البارونية هو الطمع، والعظمة الفارغة، وكانوا يخوضون حرباً أهلية مدمرة للذات. فلو أن الأسر الثلاث طبقت Li بشكل صحيح لما وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من السوء. ففي الماضي، ساعدت الشعائر في كبح خطر العنف والانتقام، وخففت رعب المعركة. ينبغي على الناس أن يفعلوا ذلك من جديد. كرجل طقوسي، كان كونفوشيوس قد أمضى وقتاً طويلاً في دراسة الطقوس والكلاسيكيات أكثر من الوقت الذي خصصه لفنون الأمراء في رمي السهام، وقيادة العربات الحربية(6). لقد أعاد تعريف دور الجندي النبيل Junzi «السيد حقاً، يجب أن يكون عَلاّمة، وليس محارباً، وبدلاً من القتال من أجل السلطة يجب عليه أن يدرس قواعد السلوك الصحيح مثلما تصفه Li التراثية في الأسرة وفي السياسة، والجيش، وفي الحياة الاجتماعية. لم يزعم كونفوشيوس أبداً أنه كان مفكراً أصيلاً: «لقد نقلت ما تعلمته دن أن أؤلف أي شيء من عندي، إنني مخلص وأحب القدماء»(7). فالحكيم الذي باركته بصيرة إلهية هو فقط من كان باستطاعته أن يخرق التراث. «أنا مجرد امرئ يحب الماضي، ومجتهد في تحريه»(8). بالرغم من هذه التنازلات فقد كان مجدداً. كان منكباً على إحياء الماضي لاكتساب معرفة الجديد(9). فالعالم قد تغير، لكن ذلك لم يكن يعني أنه ليس هناك تطور مثمر، ما لم يكن هناك درجة من الاستمرارية.

بعض الأساليب التي شرح فيها كونفوشيوس التراث كان مختلفاً جذرياً بل تأكيد. فالدين القديم قد ركز على السماء: الناس كانوا يؤدون القرابين من أجل الحصول على رضا الآلهة والأرواح فقط، بينما ركز كونفوشيوس على هذا العالم. لقد اعتقد ـ مثلما اعتقد معاصره Zichan رئيس وزراء Cheng ـ أن من الأفضل التركيز على ما عرفنا. وكان يفضل ألا يتكلم على السماء إطلاقاً. لقد أشار تلميذه Zigong إلى «أنه كان يسمح لنا أن نسمع آراء معلمنا في الثقافة،

وعلامات الخير الخارجية، لكنه لم يخبرنا عن طريقة السماء أي شيء إطلاقاً»(10). لم يكن كونفوشيوس مهتماً بالميتافيزيقا، وكان ينهي عن اللغو اللاهوتي. وعندما سأله Zilu «كيف يخدم المحارب السيد الآلهة، أجابه: بعد أن تكون قد تعلمت أن تخدم البشر، فإنك تكون قد تعلمت كيف يمكنك أن تخدم الأرواح». وعندما ألح زيلو وسأله «كيف كانت حياة الأسلاف حقاً؟ أجابه عندما تعرف عن حياة الأحياء، عندها تعرف عن الأموات»(11). لم يكن كونفوشيوس ريبياً، بل كان يمارس شعائر الأسلاف التراثية بدقة، وكان يمتلأ رهبة وخشوعاً عندما كان يفكر بأمر السماء. لقد فهم قيمة الصمت، مثلما فهما الحكماء الهنود «إنني أفضل ألا يكون عليَّ أن أتحدث». كان زيغونغ يشعر بالضيق «إذا لم يكن يتكلم معلمنا، فكيف لنا نحن الصغار أن نعلم الآخرين عنه؟». أجابه كونفوشيوس: «السماء لا تتكلم، مع ذلك الفصول الأربعة تجري في مساراتها وفق أمر السماء، تولد مئات المخلوقات، كل تبع نوعه، والسماء لا تقوم بفعل الكلام»(12). السماء قد لا تتكلم، لكنها كانت فعالة جداً. وبدلاً من هدر الوقت على ظن لاهوتي لا هدف له، كذلك يجب على الناس أن يحاكوا قلة كلام السماء، وأن يحافظوا على صمت وقور. عندئذ ربما سيكونون قوة فعالة في العالم. لقد جلب كونفوشيوس الدين الصيني إلى الأرض. فبدلاً من أن يشغل الناس أنفسهم بما بعد الحياة، عليهم أن يكونوا صالحين هنا على الأرض. لم يدرس تلامذته على يديه من أجل اكتساب معلومات باطنية عن الآلهة والأرواح، وهمهم النهائي لم يكن السماء بل الطريقة the way مهمة المحارب السيد أن يسير في الطريق حذراً، ومدركاً أن هذا بحد ذاته كان له قيمة مطلقة، وسوف يفضي بهم إلى حالة خير متسامية. كانت الطقوس خارطة الطريق التي تضعهم على المسار الصحيح.

كل واحد كانت لديه القدرة لأن يكون جونزي ـ محارباً سيداً، الذي هو وفقاً لكونفوشيوس ـ كائن بشري مكتمل التطور. ففي الأيام الغابرة الجونزي لم يكن فقط حكراً على الأرستقراطي، وأكد كونفوشيوس أن أي امرئ درس الطريقة بحماسة كان باستطاعته أن يصبح سيداً، شخصاً ناضجاً أو عميقاً.

«فقراء دون تسول، وأغنياء دون خيلاء»، «ذلك ليس سيئاً»، «من الأفضل أن تكون فقيراً وسعيداً مع الطريقة The way، وغنياً مع ذلك طالباً الطقس».

وتلميذه زيغونغ صاغ هذا باقتباس شعري من Classic Of odes:

مثل شيء مقطوع، مثل شيء مصنف

مثل شي منحوت بإزميل، مثلما يصقل شيء(13)

سُرَّ كونفوشيوس: أخيراً كان زيغونغ قد بدأ يفهم Odes! هذه الأبيات وصفت تماماً الطريقة: أن الجونزي استخدم الشعائر كي يغذي ويشذب بشريته. الجونزي لم يمكن مولوداً بالفطرة بل كان مصنوعاً. كان عليه أن يشتغل على نفسه مثلما يشكل نحات صخرة ويحولها إلى شيء جميل. الجونزي حقاً كان يحاول دائماً أن يذهب إلى خلف مما كان، وأن يصبح ما هو من المفترض أن يكون مسألة تلميذه يان هوي «كيف أستطيع أن أنجز هذا؟» فأجابه كونفوشيوس «اكبح أناك واستسلم لـ Li»(14). على الجونزي أن يخضع كل جزئية من حياته إلى طقوس اعتبار واحترام الآخرين. كان الهدف «ألا تنظر إلى أي شيء في تحدٍ للطقس، ولا تستمتع إلى أي شيء في تحدٍ للطقس، وألا تتكلم عن أي شي متحدياً للطقس، وألا تحرك يداً أو قدماً في تحدٍ للطقس». فلو أن أمراء الصين فعلوا هذا، لكانوا أنقذوا العالم. «إن يستطع حاكم أن يكبت أناه، وأن يستسلم لـ Li ليوم واحد، فكل امرئ تحت السماء سوف يستجيب لخيريته»(15).

رأى كونفوشيوس مثلما رأى الحكماء الهنود - «مبدأ الأنا» أنه أصل تفاهة وقسوة البشر. وإذا ما استطاع البشر أن يفقدوا أنانيتهم، ويخضعوا لمطالب الإيثار في Li في كل لحظة من حياتهم، فإنهم سوف يتحولون بجمال القداسة. إنهم سيلتزمون بالمثال الأعلى النمطي للجونزي، الكائن البشري الخارق. كانت الشعائر ترفع الأفعال البيولوجية العادية إلى مستوى مختلف، إنها تضمن ألا نعامل الآخرين بلا مبالاة، أو أن نؤديها من غير رغبة، إننا لسنا مدفوعين بالمنفعة والفائدة الشخصية فقط. قواعد الصلاح سلوك الأبناء تجاه آبائهم تعلم الأبناء أن

يقدموا الطعام إلى والديهم بامتنان، لكن هذه الأيام أبناء كثيرون يضعون الطعام على الطاولة «حتى الكلاب والخيول تتم رعايتها إلى هذا الحد». فإذا أكلت الوجبة في جو من الاحترام والتقدير، فإنها تصبح إنسانية(16). كإنسان من العصر المحوري، أراد كونفوشيوس من الناس أن يصبحوا واعين لما كانوا يفعلونه. تأدية الـ Li لم تكن مجرد مسألة انخراط في الحركات، بل كانت تتطلب ذكاءاً نفسياً، وحساسية وتقديراً ذكياً لكل طرف(17). لا يقتصر تقدير الأبناء على أن يفهم الشباب فقط العمل الشاق عندما يتوجب القيام بشيء أو خدمة شيوخهم أولاً بالخمرة والطعام «إنه شيء أكثر بكثير من ذلك»(18). ماذا كان هذا الشيء المراوغ؟ «إنه كان التصرف الشائن»(19). الروح التي تؤدي فيها شعيرة ما سوف تتضح في كل تعبير من تعابيرك وحركاتك: الشعيرة قد تصبح إهانة إذا ما أديت بازدراء وعدم صبر. في الماضي Li كان لها طرفاً عدوانياً. لقد استخدمت من أجل منفعة سياسية، بكل ببساطة من أجل زيادة الامتياز الشخصي للطبقة النبيلة. لقد أخرج كونفوشيوس هذه النزعة الأنانية خارج Li. ودراسته المديدة للشعائر قد علمته أن الشعائر كان لها معنى فقط إذا ما أُديت بإخلاص وبروح استسلام. كان على الأبناء أن يستسلموا للآباء، والمحاربين لأعدائهم، والملوك لأتباعهم. لقد علمتهم الشعائر التخلي عن أهوائهم الشخصية، وإزاحة أنفسهم عن مركز عالمهم ووضع شخص آخر هناك. جعلت الشعائر رعاية سياسة المصلحة الشخصية أمراً صعباً في الحياة السياسية، من خلال المطالبة بالإحساس بالآخر. فإذا ما أديت الشعائر بالروحية الصحيحة فإنها تفضي إلى تربية روحية تساعد الناس على الخروج خارج نزعاتهم الأنانية. الطقوس التي تم إصلاحها قضت على الهاجس القديم بالمكانة والتفوق على الهاجس القديم بالمكانة والتفوق، وباستطاعتها أن تجعل الصين كلها مكاناً إنسانياً من خلال إعادة الكرامة والألق للتعامل البشري.

Li قد علمت الناس التعامل مع الآخرين كأنداد لهم، وبالتالي أصبحوا شركاء في الطقس ذاته: ففي عروض البالية الطقوسية الدينية، فإن أي شخص كان يؤدي دوراً ثانوياً بشكل تام كان لا يستغنى عنه، ويساهم في جمالية

الطقس كله، لقد جعلت الشعائر الناس يدركون قداسة الحياة، كما أنها تهب القداسة. فتراثياً Li قد غذت القدرة الإلهية لدى الأمير، وأوجد الاحترام البنيوي Shen الإلهي الذي مكّن إنساناً فانياً من أن يصبح سلفاً. فمن خلال معاملة الآخرين باحترام تام، أدخلت الطقوس الشخص الذي يؤدي الشعيرة، والشخص الذي ينال الاهتمام إلى البعد المقدس من الوجود.

في الهند، انطلق اليوغيون في بحث متوحد عن المطلق، ولقد فهم كونفوشيوس هذا. ففي رأيه إنك بحاجة إلى الآخرين كي تستخرج إنسانيتك التامة، وبالتالي كانت تربية النفس عملية متكاملة. فبدلاً من رؤية الأسرة كمعوق للاستنارة ـ مثلما عدها نساك الهند ـ رآها كونفوشيوس على أنها المسرح للسعي الديني لأنها تعلم كل فرد في الأسرة أن يعيش من أجل الآخرين(20). هذا الإيثار كان أساسياً في تربية السيد ـ الجونزي: فلكي يبني المرء نفسه، عليه أن يبني الآخرين. كما شرح كونفوشيوس. فلكي يعظم المرء نفسه، عليه أن يعظم الآخرين(21). وفي مرحلة تالية سيوجه انتقاد كلونفوشيوس على تركيزه على الأسرة إلى حد بعيد، لأنه يتوجب على الناس أن يهتموا بأي شخص. لكن كونغوشيوس رأى كل شخص على أنه المركز لسلسلة متزايدة باستمرار لدوائر تشترك بالمركز ذاته(22). لقد بدأ كل واحد منا حياته في الأسرة، وتعاليم Li المتعلقة بالأسرة بدأت تربيتنا بتسامي النفس، لكن لم يكن بوسعها الانتهاك هناك.

آفاق السيد ـ الجونزي ـ ستتسع باستمرار لأن الدروس التي تعلمها من الاهتمام بوالديه وزوجه، وأبنائه قد جعلت قلبه أكبر، وأصبح أكثر تعاطفاً مع المزيد من الناس: أولاً مع جماعته المباشرة، ثم مع الدولة التي عاش فها، وأخيراً مع العالم كله. كان كونفوشيوس أحد أوائل الذين أوضحوا تماماً أن القداسة كانت متلازمة مع الإيثار. كان يقول «طريقتي لها مسار واحد يسير عبرها تماماً». لم تكن هناك غيبيات صعبة الفهم، أو فرضيات طقوسية معقدة، وكل شيء كان يرجع إلى أهمية التعامل مع الناس باحترام وقداسة مطلقتين. فكما

قال أحد تلاميذه: «طريقة معلمنا ليست سوى هذا، أن تبذل كل ما تستطيع للآخرين ولاحترامهم»(23).

كانت الطريقة ليست سوى جهد مكرس دؤوب لتنمية قداسة الآخرين الذين ـ بدورهم ـ سوف يخرجون القداسة الفطرية في داخلك: سأله زيغونغ ذات يوم: «هل هناك أي قول واحد يستطيع المرء أن يعمل عليه طوال اليوم، وكل يوم؟» فأجابه: «لا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوه لك»(24). كلمة Shu يجب أن تترجم «المماثلة مع النفس»، وقد أسماها آخرون «القاعدة الذهبية»، وبالتالي كانت الممارسة الدينية الأساسية، وكانت أكثر صعوبة مما بدت. فذات مرة ظن زيغونغ أنه قد امتلك هذه الفضيلة، فأعلن متفاخراً: «مالا أريد أن يفعله الآخرون لي، ليس لدي رغبة أن أفعله بهم». باستطاعة المرء أن يرى ابتسامة كونفوشيوس وهو يهز رأسه عندما سمع تلميذه يقول ذلك، فأجابه «آه، إنك لم تبلغ تلك الدرجة بعد»(25).

طالبت Shu أن ننظر إلى داخل قلوبنا «طوال النهار وكل يوم» لنكتشف ما الذي يسبب لنا الألم، ومن ثم نمتنع ـ وفي كل الظروف ـ عن إيقاع ذلك الألم على الآخرين. لقد طالبت ألا يضع الناس أنفسهم في مجال خاص منفصل، بل أن يربطوا باستمرار معاناتهم بمعاناة الآخرين. لقد كان كونفوشيوس أول من سن القاعدة الذهبية، التي كانت بالنسبة إليه قيمة سامية. وإتقان تام لـ Li كان يساعد الناس على نيل ما أسماه ren التي كانت أصلاً تعني «النبيل» أو «الجدير»، لكنها في زمن كونفوشيوس كانت تعني فقط كائناً إنسانياً. لقد أعطى كونفوشيوس معنى جديداً كلياً لهذه الكلمة، لكنه يرفض أن يُعَرِّفَها. وفي مرحلة لاحقة ساوى بعض الفلاسفة بين ren وبين حب الخير، لكن هذا المعنى كان ضيقاً جداً بالنسبة له(26) في المخطوطات الصينية ren لها مكونان: الأول رسم بسيط لكائن بشري ـالذات، والثاني مجدافان أفقيان يدلان على علاقات إنسانية. لذلك بالإمكان ترجمة كلمة ren «الإنسانية المشتركة». يقول بعض العلماء أن معنى جذر الكلمة كان يعني «اللين» أو «سلاسة الانقياد».

ولذلك كانت ren غير منفصلة عن «الاستسلام للطقس. لكنها عند كونفوشيوس لا يمكن التعبير عنها لأنها لا يمكن احتواؤها ضمن أي من المجالات المألوفة في زمنه(28). فالشخص الذي مارس ren تماماً هو فقط الذي يستطيع أن يفهمها. كانت ren تشبه ما أسماه سقراط وأفلاطون الخير. فالشخص الذي لديه ren قد أصبح كائناً إنسانياً ناضجاً تماماً، على نفس المستوى مثل yao وshu أو دوق الزهو. اعتقد كونفوشيوس أن ren كانت «سلطة الطريقة» أي daode التي مكنت الملوك الحكماء أن يحكموا دون قوة. ينبغي ألا تعد سحرية بل خاصية أخلاقية تغير العالم بفعالية أكبر بكثير من العنف والحرب.

سأله أحد تلاميذه: ما هي ren، وكيف يمكن تطبيقها في الحياة السياسية؟ فأجابه المعلم: تصرف خارج البيت وكأنك في حضرة ضيف مهم. تعامل مع عامة الناس، وكأنك تقدم تضحية مهمة. لا تفعل لآخرين ما لا تحبه لنفسك. عندئذ لن تكون هناك مشاعر معارضة لك، سواء كانت شؤون الدولة أو شؤون الأسرة التي تعالجها(29). فإذا ما تصرف امرؤ تجاه حكام آخرين، ودول أخرى بهذه الطريقة، لن تحدث حروب وحشية. فالقاعدة الذهبية ستجعل الأمر محالاً أن تغزو أو تدمر منطقة شخص آخر، لأنه ما من أمير يحب أن يحدث هذا لدولته. لن يكون باستطاعة الحكام استغلال عامة الناس، لأنهم سوف يرونهم ممارسين مشاركين في احتفال جميل «مثل أنفسهم». فالخصومة والكراهية سوف تختفي بعيداً. لم يستطع كونفوشيوس أن يشرح ماهية ren، لكنه تمكن من أن يخبر الناس كيف يكتسبوها. shu تعلمك كيف تستخدم مشاعرك كدليل موجه لتعاملك مع الآخرين. لقد كانت بسيطة تماماً، كما شرح لتلميذه زينغونغ.

أما بالنسبة لـ ren، فأنت ترغب بالمرتبة الاجتماعية والمركز، إذن عليك أن تساعد الآخرين في الحصول على المرتبة الاجتماعية والمركز. تريد أن تحول مزاياك إلى حساب، إذن ساعد الآخرين أن يحولوا مزاياهم إلى حساب. في حقيقة

الأمر، المقدرة على أن يأخذ المرء مشاعره كموجه له ـ ذلك النوع من الأشياء هو الذي يقع في اتجاه ren(30). فأي حاكم يتصرف باستمرار بهذه الطريقة، وينعم بالفوائد على الناس العاديين، ويسعى إلى خير الدولة كلها بدلاً من سعيه إلى مصلحته الشخصية سيكون حكيماً على نفس المستوى مع yao و shun(31).

لم يكن كونفوشيوس محافظاً خجولاً، بل متعلقاً بضوابط التراث، ومنشغلاً بتفاصيل الطقوس، نظرته كانت ثورية، وأعطى تفسيراً جديداً لـ Li المألوفة. لم تكن Li مصممة لإعلاء امتيازات النبلاء، بل لتغييرهم من خلال ممارسة نسيان الذات كأمر اعتيادي. من خلال إخراج نزعة الأنانية من الطقس فقد أوضحت الطاقة الكامنة الأخلاقية والروحية العميقتين. إنه لم يكن مشجعاً للالتزام المهين، الـ Li طالبت المخيلة والعقل النظر إلى كل ظرف على أنه فريد ويجب الحكم عليه بشكل مستقل. لقد أدخل كونفوشيوس نوعاً من نزعة المساواة، وفي مرحلة سابقة كانت الأرستقراطية فقط تؤدي Li، لكن كونفوشيوس شدد على أن باستطاعة أي امرئ أن يمارس هذه الشعائر، حتى ولو كان من أصول متواضعة، فحتى يان هوي كان باستطاعته أن يصبح سيداً، جونزي.

فلاسفة صينيون آخرون من عصر المحور اقترحوا حلاً أكثر واقعية لمشكلات الصين، لكنهم لم يكونوا دائماً طموحين مثلما كان كونفوشيوس الذي كان يسعى إلى ما هو أكثر من القانون والاستقرار. كان يريد الكرامة الإنسانية، والنبل، والقدسية، وكان يعلم أن بالإمكان تحقيق ذلك من خلال الكفاح اليومي لإنجاز فضيلة Shu، وبالتالي كانت خطة جريئة. كان كونفوشيوس يطالب الناس أن يثقوا في القدرة البشرية المتزايدة بدلاً من الإكراه. قلة من الناس كانت تريد فعلاً التخلي عن أنانيتها، ومن تخلوا كانوا يحاولون وضع طريقة كونفوشيوس قيد الممارسة، فوجدوا أنها قد حولت حياتهم كانت ren صعبة لأنها كانت تتطلب استئصال الغرور، والسخط والرغبة في الهيمنة على الآخرين(32). مع ذلك كانت ren سهلة. سأل كونفوشيوس: «هل ren

بعيدة جداً لهذا الحد؟(33)، إنها أتت «بعد أن يتم إنجاز ما هو صعب». أي بعد إتقان الشخص للتعاليم التي كانت تقدمها Li(34). إنها تتطلب ثبات العزم بدلاً من قسوة إنسانية خارقة، وربما مثلها مثل ركوب الدراجة ما أن تكتسب المهارة، فلن تتطلب جهداً. فإما أن تتصرف باستمرار تجاه الآخرين أياً كانوا وكأن لهم نفس الأهمية كنفسك، أو لا تفعل. لكن إذا فعلت ذلك فإنك تكون قد نلت قدرة أخلاقية تكاد تكون ملموسة».

السعي إلى ren كان كفاحاً طوال الحياة، ينتهي فقط عند الموت(35). لم يشجع كونفوشيوس طلابه أن يخمنوا ماذا يوجد عن نهاية الطريقة. والسير في هذه الطريقة كان بحد ذاته تجربة دينامية ومتسامية، فقد عبر يان هوي تلميذ كونفوشيوس المفضل عن ذلك بشكل جميل عندما قال عن ren «مع تنهيدة عميقة»:

كلما أشد نظرتي تجاهها فإنها تحلق إلى أعلى. وكلما غصت فيها أكثر فإنها تصبح أكثر صعوبة. إنني أراها أمامي، وفجأة تكون خلفي، خطوة خطوة يغري المعلم بكل مهارة المرء أكثر فأكثر. لقد وسعت آفاقي بالثقافة وضبطتني في الطقس، حتى إذا ما أردت أن أتوقف، فلم أكن أستطيع ذلك. فقط عندما أشعر أنني قد استنفذت كل مواردي، شيء ما يبدو أنه يظهر واقفاً فوقي تماماً وواضحاً. مع أنني أتوق كي أتابعها، لا أستطيع أن أحب سبيلاً للوصول إليها إطلاقاً(36).

لم تكن ren شيئاً تحصل عليه، بل شيئاً تعطيه أنت، ren كانت طريقة حياة منضبطة لكن مفرحة. إنها كانت بحد ذاتها التسامي الذي تسعى إليه. عيش حياة متراحمة متعاطفة تأخذك خارج ذاتك وتدخلك في بعد آخر. الالتزام المستمر بطقس ren أعطى يان هوي لمحات آنية لحقيقة مقدسة كانت محايثة ومتسامية معاً، منبثقة من الداخل، ومع ذلك حضور مرافق لصحبة «لا واقفاً فوقي تماماً وشديد الوضوح».

عندما توفي يان هوي في عام 483 بكاه كونفوشيوس بمرارة، أي دون انضباطه المعتاد: «واحسرتاه، لقد فجعتني السماء. السماء قد فجعتني»(37). قال كونفوشيوس إذا كان موت أي إنسان باستطاعته تبرير حزن عميق كهذا، فإنه موت يان هوي. قال عنه أنه قد قطع شوطاً بعيداً في الطريقة The way أكثر مما قطع كونفوشيوس(38).

مات ابن كونفوشيوس في السنة ذاتها، وبعد ثلاث سنوات توفي أكبر تلاميذه زيلو Zilu. كان كونفوشيوس مكتئباً. «أبو الهول Phoenix لا يأتي، النهر لا يقدم رسماً. كل شيء انتهى بالنسبة لي»(39). حتى بطله دوق الزهو لم يعد يأتيه في نومه(40). وفي عام 479 توفي عن عمر 74عاماً. في طريقته - إنكار النفس، اعتقد أنه كان فاشلاً، مع ذلك فقد أحدث تأثيراً لا يمحى على الروحانية الصينية، حتى الفلاسفة المحوريون الذين رفضوا تعاليمه بشدة، سيجدون من الحال أن يهربوا من تأثيره.

* * *

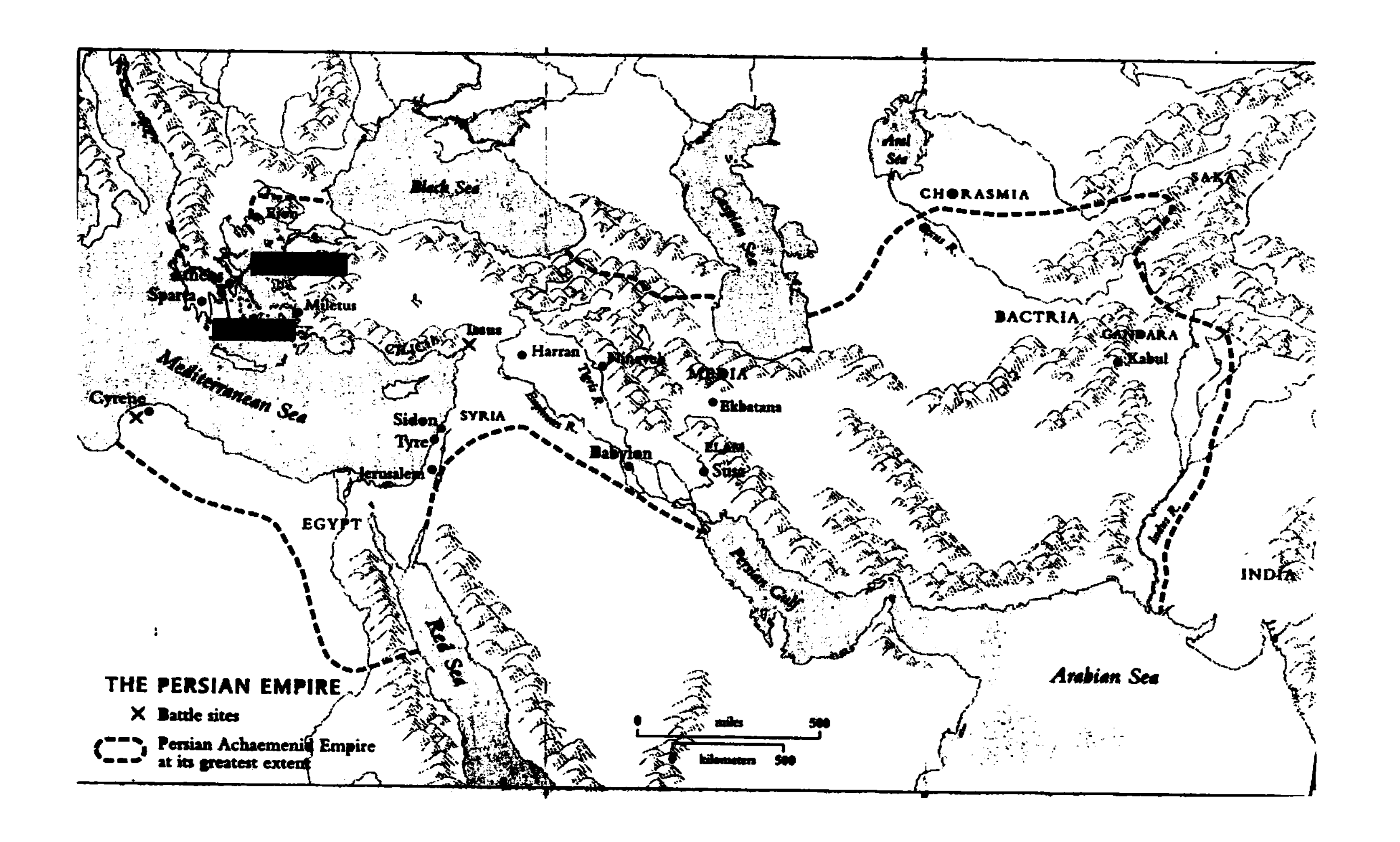
قوة جديدة قد ظهرت في الشرق الأوسط. ففي عام 559 تسلم قورش عرش فارس. وبعد عشر سنوات فتح ميديا. وفي عام 547 هزم ليديا ودول المدينة الإغريقية على الساحل الإيوني في آسيا الصغرى. وأخيراً، في عام 539 غزا امبراطورية بابل، واستقبلته الشعوب المهزومة كبطل محرر. لقد أصبح قورش الحاكم لأكبر إمبراطورية عرفها العالم، من المحتمل أنه كان زرادشتياً ممارساً، لكنه لم يفرض دينه على رعاياه. ففي مصر سُمي خادم آمون - رع، وفي بابل كان ابن مردوخ، وأسماه نبي من يهوذا /المسيا/ أي الملك الممسوح بالزيت لدى يهوه، إننا لا نعرف اسم هذا النبي الذي كان ناشطاً في الإمبراطورية البابلية خلال النصف الثاني من القرن السادس.

وبما أن نبوءاته قد حفظت في نفس اللفافة مثل نبوءات أشعيا، فإنه يسمى عادة أشعيا الثاني، لقد شاهد تقدم قورش بحماسة متزايدة، فاقتنع أن معاناة المنفيين كانت تقترب من نهايتها. يهوه قد طلب من قورش أن يكون خادمه،

ومهمته الإمبريالية ستغير تاريخ العالم(42). لقد وعد أن يعيد جميع المرحَّلين، ولذلك سيعاد بناء أورشليم، وتعاد الأرض إليهم. سيكون هناك خروج جديد مرة ثانية. المنفيون اليهود سيرحلون عبر البرية إلى أرضهم الموعودة.

بدلاً من الرؤى المعذبة المبرحة لحزقيال، استطاع أشعيا الثاني أن يرى مستقبلاً زاهراً وصفه في شعر غنائي على شاكلة المزامير. تحدث عن أحداث سحرية وخلق متغير. وليس على غرار كُتَّاب سفر التثنية الذين سخروا من الميثولوجيا القديمة، اتكأ أشعيا الثاني على التراث الأسطوري الذي علاقته قليلة بأسفار موسى الخمسة. فبدلاً من قصة الخلق المرتبة لـ P أحيا الحكايات القديمة عن يهوه الإله المحارب الذي قتل التنين البحري كي يجلب الاستقرار من العماء البدئي(43). وأعاد العنف الذي استبعده P بكل عناية من قصة خلق الكون. يهوه قد أعلن سعيداً أنه كان على وشك أن يكرر نصره الكوني على البحر من خلال إلحاق الهزيمة بأعداء إسرائيل التاريخيين.

لكن هذه النبوءات الحماسية تخللتها أربع قصائد غير عادية حول إنسان الأحزان الذي أسمى نفسه خادم يهوه(44). ليست لدينا فكرة عن هذا الخادم. فهل يا ترى كان ملك يهوذا المنفي؟ أم أنه كان ـ يرمز إلى كل جماعة المرحلين؟ يعتقد علماء كثيرون أن هذه القصائد لم تكن من عمل أشعيا الثاني، واقترح بعضهم أن ذلك الخادم كان النبي نفسه الذي ربما كانت نبوءاته النارية تضايق السلطات البابلية. بينما يعتبر آخرون الخادم أنه البطل المنفي النمطي الأصلي الذي كان يعبر عن مثل أعلى ديني كان منسجماً بعمق مع الروح العامة لعصر المحور. فبالنسبة لبعض المنفيين الخادم المعذب كان نموذجهم، وليس الإله المحارب.


THE PERSIAN EMPIRE
Battle sites
Persian Achaemenid Empire at its greatest extent
Black Sea
Caspian Sea
Aral Sea
CHORASMIA
SAKA
BACTRIA
GANDARA
Kabul
INDIA
Indus R.
Arabian Sea
Persian Gulf
Red Sea
Mediterranean Sea
Cyrene
Athens
Sparta
Miletus
Issus
Harran
Nineveh
Tigris R.
Euphrates R.
MEDIA
Ekbatana
ELAM
Susa
Babylon
SYRIA
Sidon
Tyre
Jerusalem
EGYPT
0 miles 500
kilometers 500

في القصيدة الأولى أعلن الخادم أنه قد اختاره يهوه لمهمة خاصة، وكان مكلفاً ـ كونه ممتلئاً بروح الله ـ بالمهمة الضخمة بإرساء العدل في أرجاء العالم، لكنه لن ينجزها عن طريق قوة السلاح. ولن يكون هناك معارك ولا تأكيد عدواني للذات، الخادم سوف يشن حملة رحيمة سمتها اللاعنف:

لا يصيح، ولا يرفع، ولا سمع في الشارع صوته

قصبته مرضوضة لا تقصف

وفتيله خامد لا يطفئ(45).

الخادم كان يشعر أحياناً باليأس، لكن الرب يهوه كان يأتي إلى مساعدته، بحيث استطاع أن يقف راسخاً، ويجعل وجهه كالصوان، ودون أن تمسه إهانة أو مذلة. إنه لم ينتقم بعنف، بل أدار خده الآخر بكل شجاعة:

إلى الوراء لم أرتد. بذلت ظهري للضاربين وخدي للناتفين

وجهي لم أستر عن العار والبصق. (46)

الرب سوف يقاضي ويعاقب أعداء الخادم الذين سوف يبلون كالثوب يبلون يأكلهم العث.

أما النشيد الرابع فتطلع قدماً إلى هذا النصر النهائي. في الوقت الحالي أثار الخادم الاشمئزاز فقط، كان مكروهاً ومهملاً من قبل الناس، مشوهاً جداً لدرجة أنه بالكاد كان بشرياً. أشاح الناس وجوههم عنه في رعب وقرف، لكن يهوه وعد أنه أخيراً سوف يرفعه إلى أعلى، ويمجد إلى ذرى عالية. والناس الذين كانوا يشاهدون هذه المهانة سيكونون مذهولين، لكنهم سوف يدركون في النهاية أنه قد تعذب بالنيابة عنهم. لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها، وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا(47).

لقد كانت رؤيا بارزة للمعاناة. في ساعة انتصارهم ذكر الخادم إسرائيل أن الألم كان حقيقة حاضرة دائماً، لكن إنكاره لذاته قاد إلى مجد وغبطة،

تسامحه كان شاملاً، من دائرته المباشرة لتشمل العالم كله، حتى الجزر البعيدة والشعوب النائية. لم يكن كافياً أن «يعيد أسباط يعقوب» كما أخبره يهوه، بل كان عليه أن يكون «جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض»(48).

كانت نبوءات أشعيا الثاني تحمل رسالة قاسية إلى الأمم التي عارضت إسرائيل بأي شكل من الأشكال. إنها سوف تدمر، وتدفع لتصبح لا شيء، مثل قش في الريح «يكون كلاشيء مخاصموك ويبيدون. تفتش على منازعيك ولا تجدهم، يكون محاربوك كلا شيء وكالعدم.

تدوس الجبال وتسحقها وتجعل الآكام كالعصافة

تذريها، فالريح تحملها والعاصف تبددها»(49)

في هذه الفقرات دور إسرائيل ليس أن تكون خادماً متواضعاً للبشرية بل أن توضح قدرة يهوه الهائلة، الإله المحارب. فكما يبدو في هذا النص نظرتان متناقضتان، وربما كان هناك مدرستان فكريتان في المجتمع المنفي في هذه المرحلة. العبد انتصر باللاعنف وعبر مواجهة الذات، ورأى عذابات إسرائيل أنها خلاصية. بينما استشرف منفيون آخرون ترتيباً جديداً قائماً على إخضاع الآخرين. روح عامة منسجمة مع العصر المحوري، والروح الأخرى كانت تكافح للتحرر منها. هذا التوتر سوف يستمر ضمن إسرائيل.

اعتقد أشعيا الثاني أن التقلبات التاريخية في زمنه سوف تمكن إسرائيل والأمم الأجنبية «أن تعرف أنني أنا يهوه»(50). وهذه الكلمات تتكرر مراراً. هذه الممارسة الجديدة للقدرة الإلهية توضح لكل إنسان من كان يهوه وما بوسعه أن يفعل.

يهوه محفزاً كلياً بالرغبة لمساعدة شعبه فقد كان مصدر إلهام لحياة قورش، وسبب ثورة سياسية في أرجاء العالم، وأطاح بإمبراطورية بابل الجبارة. وعندما عادت إسرائيل إلى بلادها، سيحول يهوه البرية إلى بحيرة، ويزرعون الأرز والأكاسيا وشجر الآس، وأشجار الزيتون كي يفرح شعبه في رحلة العودة إلى

بلادهم. فهل كان باستطاعة أي إله آخر أن يجاريه في هذا؟ أعلن يهوه ساخراً من آلهة الغوييم «أنتم لا شيء، أفعالكم عدم». ما من ذي عقل سليم سيعبدها(51). يهوه قد قضى على الآلهة الأخرى وأصبح الإله الوحيد في نهاية المطاف. فاعليته هي في تناقض حاد مع التماثيل الجامدة الفاقدة للحياة للآلهة البابلية(52). أعلن متفاخراً «أنا يهوه لا شريك لي» «ليس هناك إله بجانبي»(53).

هذا هو التأكيد الوحيد التوراتي للوحدانية ـ هذا الاعتقاد يعتبر غالباً النصر الكبير للعصر المحوري اليهودي، لكن بالطريقة التي صيغ فيها، يبدو أنه تراجع عن بعض المبادئ الأساسية المحورية. فبدلاً من التطلع إلى الأمام إلى فترة سلم كوني وتراحم، الإله العدواني عند أشعيا الثاني ينظر خلفاً إلى الإله المحارب قبل عصر المحور:

الرب كالجبار يخرج، كرجل حروب ينهض غيرته.

يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه.(54)

هذا الإله ليس على شاكلة العبد الذي أنكر ذاته لا يستطيع أن يتوقف عن تأكيد ذاته: «أنا هو يهوه!» بينما رفض العبد «أن يكسر القصبة المهشمة»(55). لم يستطع هذا الإله العدواني أن ينتظر ليرى الغوييم يسيرون خلف الإسرائيليين مكبلين بالأصفاد. بدلاً من الإحجام عن العنف مثل كثيرين من حكماء عصر المحور، منحه أشعيا الثاني موافقة مقدسة.

تركيز النبي على مدينة أورشيلم الدنيوية، بدا أيضاً أنه يعيد عقارب الساعة إلى الوراء إلى رؤية لاهوتية قديمة وأقل تطوراً. ففي الهند والصين كانت العبادة تتحول إلى استبطان داخلي مستمر، وفي إسرائيل أيضاً ماندالا حزقيال للمدينة المقدسة قد مثلت صعوداً داخلياً إلى الإلهي. لكن محور آمال أشعيا الثاني كان صهيون الأرضية. يهوه سيقوم بمعجزة هناك محولاً آثارها الخربة إلى فردوس أرضي «مجد» يهوه الذي رآه حزقيال مغادراً المدينة ـ سيعاد إلى جبل صهيون. وما هو أكثر أهمية هو أن «جميع البشر سوف يرونها»(56). كان أشعيا الثاني يتوقع شيئاً دراماتيكياً قبل النفي. التمجيد كان يُسْتَحْضَر ويعاد تقديمه في طقوس

الهيكل، لكن في أورشليم المستعادة (التي أسوارها وشرفاتها سوف ترصع بالجواهر الثمينة) سيكون الحضور الإلهي ملموساً أكثر. وسيشعر المنفيون العائدون بالمجد مباشرة، وسيكونون آمنين إلى الأبد لأن يهوه سيكون مع شعبه بطريقة علنية لا جدال فيها. وما من أمة ستجرؤ أن تهاجمهم ثانية:

بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين

وعن الارتعاب فلا يدنو منك

كل آلة صورت ضدك لا تنجح(57)

كانت وعود أشعيا الثاني قريبة بشكل مربك من آمال «الأنبياء الزائفين» الذين تنبؤوا أن من غير الممكن أن تسقط أورشليم أمام البابليين، فماذا سيحدث إذا لم تتحقق هذه النبوءات الدقيقة؟

في البداية سار كل شيء بأعجوبة وفقاً لخطة، لكن بعد وقت قصير من هزيمة قورش لبابل في خريف عام 539 أصدر مرسوماً يأمر أن آلهة الشعوب الخاضعة لحكمه يجب أن تعاد إلى مواطنها، ويجب إعادة بناء معابدها، وأن يعاد الأثاث والأواني المتعلقة بعباداتها. وطالما أن الآلهة كانت بحاجة إلى متعبدين، استطاع المرحلون أيضاً العودة إلى بلادهم. كانت سياسة قورش متسامحة لكنها كانت براغماتية أيضاً، لأنها كانت أقل كلفة وأكثر مردوداً من برامج إعادة بناء المستوطنات الضخمة التي وسمت الإمبريالية الآشورية والبابلية. وبذلك كسب قورش ليس امتنان رعاياه فقط، بل نال أيضاً رضا آلهتهم.

لم تمض سوى أشهر قليلة على تنصيب قورش حتى انطلق فريق من إسرائيليين منفيين قاصداً أورشليم، حاملين معهم الأواني الذهبية والفضية التي كان نبوخذ نصر قد صادرها من الهيكل. والكتاب المقدس يخبرنا أن نحو 42.360 يهوذياً شقوا طريقهم عائدين، ومعهم عبيدهم و200 منشداً للهيكل(58).

من المحتمل أن تعداد المجموعة الأولى من العائدين كان قليلاً جداً لأن معظم المنفيين اختاروا البقاء في بابل(59). قائد المجموعة العائدة كان شيش بازار (الملك التابع) ليهودا. إننا لا نعرف عنه شيئاً، فلربما كان أحد أفراد أسرة داؤود

الملكية، وإذا كان كذلك، فلا بد أنه قد قَبِّل يدي قورش كتعبير عن الامتنان، وبالتالي كان الممثل الرسمي للحكم الفارسي. وهكذا أصبحت يهوذا (جزءاً من الإقليم الخامس التابع للإمبراطورية الفارسية، التي كانت تشمل جميع المناطق الواقعة غرب الفرات).

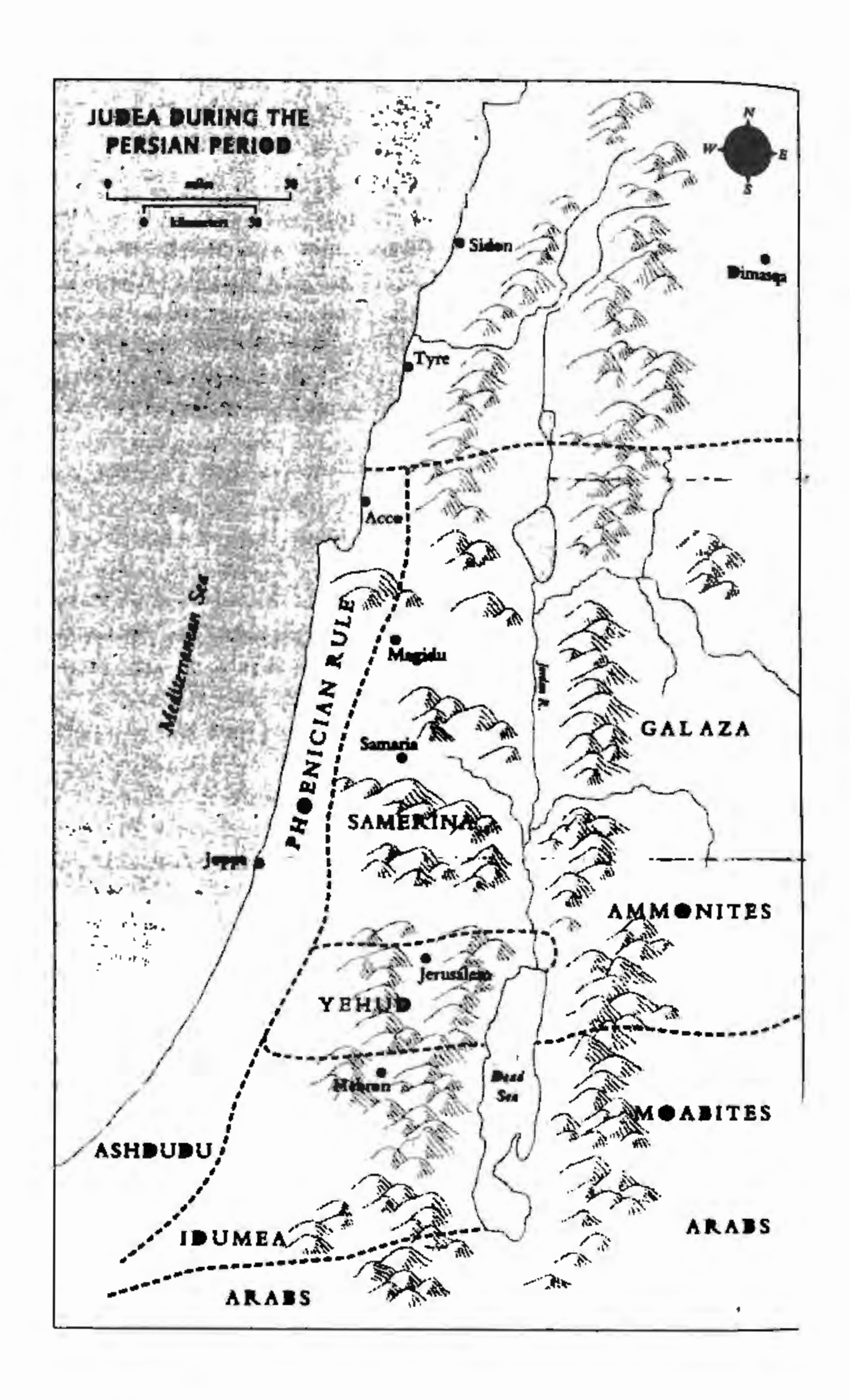
نكاد لا نعرفِ شيئاً عن هذه السنوات المبكرة في يهودا، لأن العرض التوراتي مشوش وغير مكتمل. اختفى شيش بازار من السجلات، وليست لدينا فكرة عما حصل له. ولا نسمع شيئاً أكثر عن Golah (أي مجموعة المنفيين العائدين حتى عام 520، أي حتى السنة الثانية من حكم داريوس 521 ـ 484) الإمبراطور الفارسي الثالث. قائد الجماعة اليهودية في أورشليم زيربابيل Zerubbabel الحفيد البكر للملك Jehoia chin الذي تشارك السلطة مع يشوع الحبر الأكبر. والذي اختفى بطريقة غامضة بعد انقضاء فترته. وليس لدينا معلومات عن الأحداث في يهودا طوال خمسين عاماً.

إذا كان غولاه قد وصلوا إلى يهودا مع نبوءات أشعيا الثاني التي كان ترن في أذهانهم، فلا بد أنهم سجدوا سريعاً إلى الأرض عندما رأوا موطنهم الجديد. معظمهم كان مولوداً في المنفى، ولا بد أن يهودا بدت لهم قاحلة، غريبة ومهجورة بعد نشوء إمبراطورية بابل. ولا بد أنهم شعروا أنهم أجانب بعد أن كانوا قد تعودوا على نمط الحياة البابلية. كانت البلاد تعج بالغرباء الذين فقدوا مكانتهم القومية بعد الحروب البابلية. كما أنهم كانوا على بعد من الفلستيين، والمؤابيين، والعمونيين، والآدوميين، والعرب، والفينيقيين الذين قد استوطنوا في السهل الساحلي ـ وادي جزريل ومنطقة التلال. أسماهم العائدون «سكان البلاد». وهكذا أعيد توحيد القادمين الجدد مع زملائهم الإسرائيليين بعد غياب دام 70 سنة. كانت يهودا تدار من قبل Samerina بصفتها عاصمة المملكة الشمالية القديمة التي كانت معروفة في ذلك الحين، كما كان على المنفيين العائدين تقديم ثبوتياتهم إلى الحكام الإسرائيليين عند وصولهم(60). في المنفى كان المرحلون قد غيروا دينهم بشكل جذري تماماً، فكيف سيرتبطون مع أنصار يهوه

الذين لم يغادروا أبداً يهودا، الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى إلى جانب يهوه، وتبنوا ممارسات بدت بربرية وغريبة؟

أما مشروع البناء فقد تعثر، وبعد مضي 20 سنة على عودة المنفيين كان يهوه ما يزال دون معبد. بدت العودة أنها لم تكن سهلة كما تنبأ أشعيا الثاني. فالمنفيون السابقون لم تكن لديهم خبرة في البناء، ولم يكن لديهم مكان ليعيشوا فيه، ولذلك اتفق معظمهم أن على الهيكل أن ينتظر حتى تتوفر منازل جديدة لهم. في عام 520 ـ أي بعد بضعة أشهر على وصول زيريابيل، أخبر نبي جديد اسمه حاجي العائدين أن أولويتهم كانت خاطئة. فسبب سوء المحاصيل، وركود الاقتصاد هو أنهم بنو منازل لأنفسهم، وتركوا مستقر يهوه مكاناً خرباً(61). بالتالي عادوا إلى العمل.

اكتملت الأساسات بحلول خريف عام 520، وفي موعد الاحتفال الخريفي التراثي اجتمع الغولاه للاحتفال لتجديد ولاءهم. سار الكهنة في موكب إلى داخل المنطقة المقدسة وهم ينشدون المزامير. ويدقون الصنوج، لكن قلة منهم كانوا كهولاً بما يكفي كي يتذكروا أبهة هيكل سلمان. (ص218 خريطة) وكان لدى آخرين توقعات غير واقعية، عندما رأوا الموقع المتواضع لهذا الهيكل الثاني انفجروا بالبكاء(62). فحاول حاجي أن يرفع من معنوياتهم، ووعد الغولاه أن الهيكل الثاني سيكون أكبر من الهيكل الأول. وهكذا يهوه ـ فوراً ـ سيحكم العالم كله من قمة جبل صهيون. ووافق زخريا ـ على ذلك، تنبأ بأن مجد يهوه سوف يعود عندما يكون جميع المنفيين قد عادوا إلى بلادهم. والأجانب سوف يتقاطرون إلى أورشليم. رجال من كل أمة سوف «يأخذون يهودياً من كمه ويقولون نريد أن نذهب معك، لأننا قد علمنا أن الله معكم»(63) كان زخريا وحاجي يعتقدان أنهما عند نقطة انعطاف تاريخية، لكنهما لم يتبنيا نظرة أشعيا الثاني الاستبعادية. رأى زخريا اليهود يقودون الغوييم (أي الأغيار) إلى داخل الهيكل، أراد أن تكون أورشليم مدينة مفتوحة. يجب أن تكون دون أسوار بسبب أعداد البشر والمخزون المعيشي الضخم الذي سيأتي للعيش فيها(64). لم يظهر حاجي ولا زخريا أية عداوة تجاه Samerina والمملكة الشمالية.



JUDEA DURING THE PERSIAN PERIOD
N
W
E
S
Sidon
Dimasqa
Tyre
Acco
Mediterranean Sea
PHOENICIAN RULE
Magidu
Samaria
SAMERINA
GALAZA
AMMONITES
Jerusalem
YEHUD
Hebron
Dead Sea
MOABITES
ASHDUDU
IDUMEA
ARABS
ARABS

كانت الروح الشمولية واضحة أيضاً في سفري التاريخ، اللذين ربما دونا أثناء بناء الهيكل الثاني(66). لقد نقح المؤلفون الأحبار تاريخ سفر التثنية كي يخاطب المشكلات في بداية فترة العودة. أولاً، أكدوا على مركزية الهيكل، إذ اعتبروا أسرة داؤود بكل بساطة الأداة المستخدمة من قبل الله لتشييد الهيكل وعبادته.

ثانياً: أكدوا أن الهيكل كان دائماً لجميع أسباط إسرائيل، وليس حكراً لليهوذيين. كما حذف مؤلفو التاريخ الجدل اللاهوتي في سفر تثنية الاشتراع ضد الشمال، وترقبوا إعادة تأسيس مملكة داؤود الموحدة. لقد أعطوا أهمية كبيرة لإصلاحات حزقيال، وتخيلوه داعياً جميع الأسباط من Dan إلى بئر السبع كي يحتفلوا بعيد الفصح في أورشليم(67). لم يكن هناك خطاب يدين المملكة الشمالية بعد كارثة عام 722، ولا عرض للآشوريين وهم يوردون الأجانب إلى المنطقة. لم يكن المؤرخ يريد أن يُغَرِّبَ القبائل الشمالية، أو الذين لم يذهبوا إلى المنفى. هدفه كان توحيد شعب يهوه حول محرمهم. ربما أن النسخة الأولى من التاريخين اختتمت بتكريس أساس الهيكل الثاني في عام 520. صحيح أن المؤرخ اعترف أن بعض الأحبار الشيوخ انتحبوا وهم يتذكرون أمجاد الهيكل الغابر، لكن آخرين رفعوا أصواتهم مسرورين «لا أحد استطاع أن يميز صيحات الفرح عن أصوات الباكين، لأن الناس كانوا يصيحون بصوت عالٍ جداً حتى كان بالإمكان سماع الضجة من مسافة بعيدة»(68). كان الألم والسعادة مندمجين لا ينفصمان في هذه اللحظة المعقدة. نعم كان هناك حزن على مآسي الماضي، لكن كان هناك أيضاً سعادة وترقب. وهكذا بداية جديدة قد صنعت، وسكان إسرائيل متحدين في أورشليم، بدوا مثل العبد ينادون العالم كله.

* * *

انطلقت أثينا في تحول سياسي مهم آخر بعد فترة قصيرة من إكمال اليهود بناء هيكلهم. فاستبداد بسيتراتوس سار في مساره المعتاد، بينما كان الأثينيون متلهفين للحصول على حصة أكبر في الحكم. وفي عام 510 غزت إسبارطة أثينا

على أمل أن تستبدل استبداد بسيتراتيوس بدمية موالية لإسبارطة، لكن الأثينيين تمردوا بمساعدة Cleisthenes ابن طاغية Sicycon وطردوا الإسبارطيين، وألغوا الإستبداد ونصبوه حاكماً للمدينة.

خلال السنة التي أمضاها في منصبه (508 ــ 507) أدخل إصلاحات مذهلة(69). أعاد تنظيم النظام القبلي القديم بطريقة أضعفت سلطة الزعماء الأرستقراطيين، كما أعاد تصميم وتوسيع مجلس سولون / الأربع مائة/، فأصبح عدد أعضائه خمس مائة، يتم اختيارهم من جميع القبائل الجديدة. كان الأعضاء ينتخبون من الطبقات الوسطى كل سنة، ويشغلون المنصب لدورتين فقط، مما كان يعني أن معظم المزارعين والحرفيين والتجار سيخدمون في المجلس في مرحلة ما، وبالتالي أصبحوا مواطنين بطريقة ذات مغزى وجديدة تماماً. كانت أثينا لا تزال يحكمها القضاة التسعة المنتخبين من الطبقات العليا، وهم مسؤولون عن الاحتفالات، والجيش، وتطبيق العدالة، وكانوا مسؤولين أمام مجلس الشيوخ الذي كان يجتمع على السفح الصخري أيروباغوس بالقرب من السوق. مع أن طبقة النبلاء كانت ما تزال تحكم المدينة إلا أن مجلس الأربعمائة، ومجلس الشعب كان باستطاعتهما تحدي أي سوء استخدام للسلطة.

هذه السلطة كانت الأكثر مساواة صيغت حتى هذه الفترة، وكان لها تأثيراً مكهرباً على العالم الإغريقي. حاولت دول مدن أخرى القيام بتجارب مماثلة، كما كان هناك فورة طاقة جديدة في المنطقة. لكن Cleisthenes كان يطلب الكثير من مواطنيه. طالما أن مجلس الأربعمائة كان ينعقد ثلاث مرات شهرياً، كان من المتوقع أن يخصص المزارعون العاديون والتجار عشر وقتهم للسياسات خلال سنتهم في المنصب. إنهم لم يفقدوا حماستهم وتعلموا الكثير من التجربة. مع حلول القرن الخامس، كانت الطبقات الوسطى قادرة أن تشارك في مناقشات المجلس، وتتبع تفكير أكثر الناس ذكاء في أثينا. دلت التجربة أن إذا كان المواطنون متعلمين كما يجب ومحفزين كما يجب، لم يكن لزاماً على الحكومة أن تتكل على القوة المفرطة، وذلك كان ممكناً لإصلاح المؤسسات

القديمة بطريقة عقلانية. أسمى الأثينيون نظامهم الجديد Isonomic أي «نظام المساواة»(70). كانت دول المدينة متوازنة بطريقة متساوية، وكان المزارعون والتجار على قدم المساواة مع الارستقراطيين.

الحقيقة ما عادت سراً أو إلهاماً باطنياً مقتصراً على قلة مختارة، بل أصبحت في (مركز المجال السياسي)(71). لكن الإغريق كانوا لا يزالون يعتبرون حياتهم السياسية مقدسة، والمدن مثل اتساع الألوهة في داخل الشؤون البشرية. لقد بقيت أثينا مدينة متدينة ورعة مع أنها كانت مدينة اللوغوس بشكل متزايد، بينما كان المزيد من الناس يشاركون في الحكم، بدأوا يستخدمون مهارات الجدل التي اكتسبوها في قاعة المجلس في أجواء معرفية أخرى. وهكذا كانت الخطب السياسية والقوانين عرضة لانتقاد لاذع، واللوغوس ـ كلام المحاربين ـ استمر في كونه عدوانياً. كان النقاش يتسم بالنزاع، والتناقض والرغبة باستبعاد وجهة نظر معارضة أخرى.

عكست فلسفة الفترة السمة اللاأدرية agnostic في الحياة السياسية، بالإضافة إلى توق الإغريق للرصانة والانسجام. كان هذا جلياً ـ بشكل خاص ـ في مؤلفات هيراقليط (540 ـ 840) فرد من الأسرة الملكية في إفسوس، والذي يعرف بلقب «صاحب الأحاجي» لأنه كان يقدم أفكاره في مقولات محيرة غامضة. ذات مرة قال: «الطبيعة تحب أن تختبئ، الأشياء كانت النقيض لما كانت تبدو»(72). أول القائلين بالنسبية، وقال إن كل شيء كان يعتمد على السياق، ماء البحر جيد للأسماك، لكنه قاتل للبشر. الضربة نافعة إذا كانت عقاباً، لكنها سيئة إذا ما قام بها قاتل(73). هيراقليط كإنسان لا يستقر، ولا يستريح اعتقد أن على الرغم من أن الكون يبدو ثابتاً لكنه في حقيقة الأمر كان في حالة حركة مستمرة، وساحة معركة لعناصر متحاربة. «الأشياء الباردة تسخن، والساخنة تبرد، الرطب يجف، والمعرض للنار يرطب»(74). كان مفتوناً بالنار، على وجه الخصوص «اللهب لم يكن ساكناً أبداً. النار حولت الحطب إلى رماد، والماء إلى بخار». النار كانت أيضاً قدرة إلهية حافظت على الاستقرار بمنع

أي من العناصر المتنافسة من السيطرة على بقية العناصر. وبالطريقة ذاتها تصادم الآراء في المجلس يحافظ على التوازن في المدينة. مع ذلك فأسفل هذا الاضطراب الكوني هناك وحدة. التدفق والاستقرار اللذان يظهران متضادين كانا واحداً والشيء نفسه، الليل والنهار جانبان لعملة واحدة. الطريق الصاعدة كانت هي أيضاً الطريق النازلة إلى أسفل، ومكان الخروج هو أيضاً مكان الدخول(75). لا يمكنك الاعتماد على دليل أحاسيسك، بل يجب أن تنظر أعمق لتجد اللوغوس، المبدأ الحاكم للطبيعة. وذلك ينطبق على الإنسان أيضاً. اكتشف هيراقليط الاستبطان، نشاط جديد لدى الإغريق «لقد ذهبت بحثاً عن ذاتي» كما قال. يمكنك أن تتعلم قليلاً عن الطبيعة البشرية من خلال دراسة الأحلام والعواطف، وخصائص الناس الفردية، لكنها ستبقى دائماً أحجية. «سوف لن تعرف حدود الروح من خلال السفر، حتى لو تسافر فوق كل قطب»(77).

في الإصلاح السياسي وجد الإغريق أن بالإمكان التخلي عن المؤسسات القديمة دون التسبب بغضب الآلهة. وبدأ البعض بمساءلة فرضيات كانت مبجلة دائماً. إكسينوفن (560 ـ 480) فيلسوف آخر من الساحل الأيوني رفض فكرة أن آلهة الأوليمب شبيهة بالإنسان بشكل يدعو لليأس. اعتقد الناس أن الآلهة تولد، ولها ملابس، وكلام وشكل مثلنا تماماً». وكانت مذنبة بالسرقة والزنا، والخداع. كان واضحاً أن الناس أسقطوا شكلهم البشري على الإلهي. الخيول والأبقار قد تفعل الشيء ذاته(78). بينما اعتقد اكسينوفون أن هناك «إله واحد فقط، الأعظم بين الآلهة والبشر»، تعالى عن جميع الصفات البشرية(79). إنه خارج الزمان والتغير، كان يدير كل شيء بعقله nous، ما أن يفكر بشيء حتى يكون قد أُنجز(80).

هاجر اكسينوفنز من آسيا الصغرى إلى Elea في جنوب إيطاليا التي كانت في تلك الفترة مركزاً مهماً للفلسفة الجديدة. برامنديز Parmenides مواطن من إليا كان أصغر سناً بقليل من هيراقليط شعر أن فلسفته الكئيبة كإلهام إلهي. فكما قال «سافر إلى السماء في عربة نارية، وراء نهر المجرة حيث قابل إلهة

أخذته من يده وأعطته هذا اليقين:«ما من مصير سيئ أرسلك لتقطع هذه الطريق البعيدة، إنها تقع بعيداً عن خطايا البشر، عدا الحق والعدل. يليق بك أن تتعلم جميع الأشياء»(81).

اعتقد بارمنديز أن عن طريق تحرير البشر من الوهم، فإنه كان يؤدي خدمة روحية قيمة. لأن ما من شيء كان كما كان يبدو، يجب أن يرتفع العقل البشري فوق الإدراك السليم وفوق الأهواء، والرأي الذي لا يتغير، فقط عندئذ يستطيع العقل أن يفهم الحقيقة الحقة. True reality(82). لكن شعر العديد من معاصريه أنه جعل من المحال أن نفكر بطريقة بناءة حيال أي شيء على الإطلاق(83).

قال بارمنديز أنه لا يمكن أن يكون العالم قد تطور بالطريقة التي وصفها Milesians، لأن كل تغير كان وهماً، الواقع كان يتألف من وجود Being أزلي، كامل بسيط واحد. وأصر على أنه لا يمكننا أن نقول شيئاً معقولاً عن ظواهر لم تكن موجودة. وبما أن الوجود Being كان أزلياً وليس خاضعاً للتغير، فلا وجود لشيء مثل التغير. وبذلك لم يكن في استطاعتنا أن نقول أبداً أن شيئاً قد ولد، لأن ذلك يعني أنه لم يكن موجوداً من قبل، وللسبب ذاته لا نستطيع القول أنه مات أو توقف أن يوجد. بدا أن المخلوقات أتت إلى الوجود ومرت، لكن هذا كان وهماً، لأن الحقيقة كانت خارج الزمن والتغير. من جديد لا شيء كان باستطاعته أن يتحرك، بمعنى أن في لحظة ما انحرف جسم من مكان إلى آخر لا نستطيع القول إن شيئاً قد تطور أي أنه كان في شكل ذات يوم لكنه أصبح شيئاً مختلفاً. لذلك لم يكن الكون في حالة تدفق كما زعم هيراقليط، ولأنه نشأ مثلما قال Milesiems. فالكون بقي على حاله في جميع الأزمنة وفي جميع الأماكن. الكون كان غير متغير، وغير مخلوق، وأزلي.

لقد بنى Milesians فلسفتهم على ملاحظة مثل هذه الظواهر كالماء والهواء. لكن بارمنديز لم يثق بدليل الحواس، واعتمد على النقاش المعلل عقلياً ـ باتساق لا يرحم. لقد تبنى عادة «التفكير Second - order» أي التفكير في عمليات سيرورات التفكير ذاتها. مثله مثل العديد من حكماء العصر المحوري، توصل إلى

وعي نقدي لحدود المعرفة البشرية، وبازمنديز انطلق في البحث الفلسفي عن وجود نقي. بدلاً من تأمل المخلوقات الفردية، كان يحاول أن يضع إصبعه على وجود جوهري. لكن في سيرورة بحثه خلق عالماً كان من المحال العيش فيه. لماذا سيقوم أي امرئ بأي مسار للعمل، إذا كان التغير والحركة مضللين؟ كان تلميذه ميليسيوس Mélissus قائداً في الأسطول البحري. كيف كان من المفترض أن يوجه سفينته المتحركة؟ كيف ينبغي أن نُقَوِّم التغيرات الجسدية التي نلاحظها داخل أنفسنا؟ هل الكائنات البشرية حقاً أشباح؟ عن طريق تجريد الكون من السمات qualities فإن بارمنديز قد حرمه من قلب. الكائنات البشرية لا تستجيب إلى العالم باللوغوس فقط، فنحن أيضاً مخلوقات عاطفية لها حياة ما دون شعورية معقدة. بتجاهل هذا، وتنمية قدراته العقلانية فقط اكتشف بارمنديز فراغاً void: لم يكن هناك شيء للتفكير فيه، مثلما مارس فلاسفة العصر المحوري تفكيراً منطقياً مستمراً، أصبح العالم غير مألوف، وبدت الكائنات البشرية غريبة عن أنفسها.

مع ذلك اللوغوس المحض الذي لا يحجم استطاع أن يعمل بشكل رائع في عالم المسائل. في بداية القرن الخامس ألهم اللوغوس نصراً بحرياً لخص الروح الإغريقية الجديدة. ففي عام 499أرسلت أثينا وEritrea مساعدة إلى مليتوس التي تمردت على الحكم الفارسي. بسحق داريوس التمرد ونهب مليتوس، تم حول اهتمامه إلى حلفائها على البر. الأثينيون كان لديهم تصوراً بسيطاً عن مدى قوة الإمبراطورية الفارسية، ومن المحتمل أنهم لم يدركوا معنى ما قاموا به، فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى الاستعداد للحرب. وفي عام 493 جرى انتخاب القائد تيمستوكليس ـ واحد من أقل العائلات الأثينية الأدنى مركزاً ـ حاكماً، وأقنع مجلس إيرياغوس أن يبني أسطولاً. كان هذا قراراً مفاجئاً، لأن لم يكن للاثينيين خبراء في الحرب البحرية.

كانت قوتهم في المشاة مصدر فخرهم وفرحتهم. لم يكن لديهم خبرة في بناء السفن، مع ذلك وافق المجلس، وتم جلب خبراء الملاحة البحرية، وبدأوا ببناء مائتي سفينة، وتدريب بحري لأربعين ألف رجل(84). ترافق هذا مع قطيعة جذرية

عن التراث. ففي الماضي كان الذين لديهم قدرة مالية يتولون تجهيز أنفسهم بالسلاح، وهؤلاء من كان يسمح لهم بالمشاركة بجيش المشاة. لكن الآن جميع الذكور الأثينيين ــ من بينهم غير المواطنين ــ قد جندوا في الأسطول. أرستقراطيون، ومزارعون، ورجال من الطبقات الأدنى جلسوا على المقعد ذاته كي يجدفوا، وكان عليهم أن يبحروا معاً. في ألوية المشاة كان الأثينييون يحاربون وجهاً لوجه، فوجدوا أن من المعيب الجلوس في السفينة مديرين ظهورهم إلى الأعداء. شعر كثيرون بالسخط على خطة تيمستوقليس، خاصة أن أول نصر كبير على الجيش الفارسي أحرزوه على اليابسة. في عام 490 أبحر الأسطول الفارسي عبر بحر إيجة، فهزم ناكسوس Naxos، وسلب Eritrea ورسا على سهل الماراثون على بعد نحو 25 ميلاً إلى الشمال من أثينا. جيش المشاة الأثيني بقيادة Militiades انطلق لملاقاتهم، وعكساً لجميع التوقعات أوقعوا هزيمة منكرة بفارس(85). لقد أصبح الماراثون طروادة الجديدة، ونال الجنود تكريماً كسلالة حديثة من الأبطال. فلماذا القطيعة عن التراث في الوقت الذي كانت فيه الأساليب القديمة ناجحة بشكل مبهر؟

في عام 480 أبحر الملك الفارسي الجديد كسرى باتجاه أثينا ومعه 120 سفينة ونحو مائة ألف رجل. فعلى الرغم من مساعدة إسبارطة ومدن البلبونيز الأخرى كان الأسطول الأثيني يعاني من قلة عدد السفن. أراد بعض الحكام التخلي عن الأسطول، لكن سيمون Cimon ـ ابن Militiades بطل الماراثون ـ ترك صواريه على الأكروبوليس، وانطلق إلى مرفأ Piraeus. أخلى تيمستوقليس كل أثينا من السكان، أرسل النساء والأطفال والعبيد إلى جزيرة سالاميس عبر خليج سارونيك(87). وعندما وصل الفرس وجدوا المدينة خالية، فاندفعوا عبر الشوارع ينهبون ويسلبون، وحرقوا المعابد الجديدة الفخمة على الأكروبوليس، بينما جلس الأثينيون بائسين على جزيرة سالاميس لا يكادون يحتملون هذا الإذلال. لكن القائد كان قد نصب مصيدة قاتلة. وبعد أن انتهى الفرس من هياجهم أبحر الأسطول الفارسي إلى سالاميس، لكنهم لم يتمكنوا من إدخال جميع سفنهم في الخليج الضيق. فأصبحت السفن مزدحمة دون أمل وغدت غير قادرة على

الحركة. استطاع الأثينيون أن يصطادوها سفينة تلو أخرى. وما أن حل المساء حتى كانت السفن الفارسية قد هربت وغادر قائد الحملة كي يخمد انتفاضة في بلاده.

لقد غيرت سالاميس مسار التاريخ الإغريقي، وكانت نقطة علام على ولادة شيء جديد تماماً. لقد هزم الإغريق إمبراطورية هائلة بممارسة العقل المنظم. لما كان باستطاعة تيمستوقليس أن يقنع المواطنين أن يتبنوا خطته لو لم يكونوا قد تعلموا عبر السنين أن يفكروا بطريقة منطقية، وأن يجردوا عواطفهم عن قدراتهم العقلية. لقد أوضحت خطته الكثير من قيم عصر المحور. كان على الإغريق أن يديروا ظهورهم إلى الماضي، وأن ينطلقوا في مسار تجريبي. كانت الخطة تتطلب التضحية بالنفس. وكان لواء المشاة حاسماً للهوية الإغريقية. لكن في سالاميس كان عليهم أن يتركوا هذه الذات خلفهم ـ وفي تحدٍ لتراثهم الملحمي ـ أن يسمحوا للفرس أن يدمروا مدينتهم وأماكنها المقدسة. لقد كانت سالاميس لحظة محورية، مع ذلك كانت نصراً عسكرياً أدى إلى مزيد من الحروب.

في عام 478 شكلت أكثر من مائة مدينة اتحاداً عسكرياً بقيادة أثينا. هدفه كان مواجهة أي غزو فارسي في المستقبل، ولتحرير المدن الأيونية من الحكم الفارسي، ولنشر الصداقة بين الإغريق. بنى أعضاء التحالف السفن والمعدات، واتفقوا أن يلتقوا كل سنة على جزيرة ديلوس ـ مكان ولادة أبولو راعي التحالف. وفي عام 477 ذهبت أثينا لترد الهجوم وفتحت مدينة إيون Eion المعقل الفارسي الأهم على الساحل الشمالي لبحر إيجة، وبالرغم من النصر الذي حققته كان هناك خوف وقلق دفينين. وفي عام 476 في مدينة ديونيسيا العظيمة قدم الكاتب المسرحي فيرنيخوس Phrynichus ثلاثية عن الحروب الفارسية/ سقوط مليتوس/ لكنها لم تصل إلينا، بيد أن المؤرخ هيرودوت (484 ـ 425) ذكر التأثير الذي أحدثته على المتفرجين: «المسرح بأكمله شرع بالبكاء، وغرموا الكاتب ألف دراخما لأنه ذكرهم بالنكبات القومية، ومنعت وإلى الأبد»(88). لم تكن المسرحيات المأساوية المقدمة في ديونيسيا العظيمة تصور عادة أحداثاً راهنة. فالمؤلف فرينخوس لم ينجز المسافة الضرورية للتطهير الذي توقعه الأثينيون من المأساة.

لقد أصبحت المسرحية المأساوية مختزنة في أثينا. ففي كل سنة في مدينة ديونيسيا كانت تضع نفسها على خشبة المسرح، وغالباً ما اختار الكتاب المسرحيون موضوعات كانت تعكس أحداثاً راهنة، وكانوا يقدمونها في جو أسطوري يبعدهم عن المشهد المعاصر. يمكن المتفرجين أن يحللوا، ويفكروا في المسائل المطروحة. كان الاحتفال تأملاً جماعياً يجد المتفرجون من خلاله حلولاً لمشاكلهم ومآزقهم. فجميع المواطنين الذكور كانوا مجبرين على الحضور، وحتى السجناء كان يطلق سراحهم طوال مدة الاحتفال. فكما في احتفال Panathenaea كانت أثينا تعرض نفسها. كما كانت المدن الأعضاء في التحالف ترسل مندوبين ومديحاً، وكانت الأكاليل تقدم إلى المواطنين البارزين، وأطفال الجنود الذين قتلوا في خدمة أثينا كانوا يسيرون في موكب مسلحين من أجل الحرب(89). لكن لم يكن هناك شوفينية ظاهرة. كان المواطنون يجتمعون في المسرح كي يبكوا. وعندما كان الإغريق يمسرحون الأساطير التي ساعدتهم دائماً في تحديد هويتهم المميزة كانوا يسائلون يقينيات الماضي، ويخضعون المطلقات التراثية إلى نقد لاذع. كانت المآسي تعلم الاستبطان الداخلي وتعميق الطقس الذي شكل سمة لروحانية العصر المحوري.

هذا الجنس الأدبي الجديد ربما نشأ في الشعائر السرية الباطنية للإله ديونيسيوس، عندما كان الكورس يتلو قصة عذابات ديونيسيوس في لغة شعرية رسمية، وبينما كان القائد يتقدم إلى الأمام كي يشرح المعنى الخفي بأسلوب لغة يومية، إلى وافدين جدد لم يكن قد تم إدخالهم بعد(90). لكن في مدينة ديونيسيا، الشعائر التي كانت خاصة فيما مضى كانت تمثل أمام الناس، أي تمت دمقراطتها.

عبر السنين، كانت تقدم شخصيات جديدة، تحاور قائد الكورس مما يعطي مباشرة دراماتيكية أكثر للأحداث. بحلول القرن الخامس، كانت المسرحة المقدمة في مدينة ديونيسيا تعكس استبطان العصر المحوري. لقد عرضت شخصيات الأساطير المشهورة: أغمامنون، أوديب، أجاكس، أو هرقل

وهم يقومون برحلة داخلية، مصارعين خيارات معقدة، ومواجهين العواقب، كانوا يظهرون وعي الذات الجديد لعصر المحور. وبينما يشاهد المتفرجون ذهنية البطل وهو ينكفئ على نفسه مفكراً بخيارات، وهو يتوصل بشكل مبرّح إلى نتيجة. التراجيديون ـ مثل الفلاسفة ـ كانوا يسائلون كل شيء: طبيعة الآلهة، قيمة الحضارة الإغريقية، وعن معنى الحياة. ما من أحد في الأيام الماضية أخضع هذه القصص إلى تمحيص جذري كهذا. أما في هذه الفترة أضاف الكتاب المسرحيون إلى الحكايات الأصلية، وزوقوها وعدلوها كي يستكشفوا الأمور المحيرة التي كانت تظهر في العالم الهيلنستي.

في المأساة لم يكن هناك إجابة بسيطة، ولا وجهة نظرة وحيدة(91). فالأبطال الرئيسيون كانوا الأبطال الأسطوريين في الماضي. بينما كان الكورس يمثل عادة أناساً هامشيين: نساء، شيوخ، وأجانب الذين ـ في أغلب الأحيان ـ كانوا ينظرون مندهشين إلى الشخصيات الرئيسية، ويجدون عالمهم غريباً، وغير قابل للفهم، بل وخطيراً. لم يكن الكورس يتكلم لصالح دولة المدينة. فعلى الرغم من أنهم كانوا أناساً هامشيين وقليلي التعليم، فإنهم كانوا يتكلمون بلهجة أتيكية Attica غنائية وأسلوبية، بينما كان الأبطال الأرستقراطيون يستخدمون اللغة اليومية للمدينة. وبالتالي كان هناك تصادم واضح المعالم بالمنطلقات، فلا البطل ولا الكورس عبر عن الرأي «الصحيح». كان على المتفرج أن يزن رأياً مقابل رأي آخر، تماماً مثلما كانوا يفعلون في المجلس. كان باستطاعتهم فقط أن يفهموا المسرح من خلال تحليل نقاشات الكورس، أي الناس الذين لم يكن لهم ـ عادة ـ صوت في المدينة ـ أو أبطال الماضي الأسطوري الذين عاشوا في زمن مغرق في القدم وفي أماكن بعيدة. المأساة علمت الأثينيين أن يسقطوا أنفسهم باتجاه الآخر، وأن يضمنوا داخل مشاعر التعاطف لديهم أولئك الذين افتراضاتهم كانت مختلفة بشكل واضح عن وجهات نظرهم هم.

قبل كل شي، لقد وضعت المأساة المعاناة على خشبة المسرح. إنها لم تكن تسمح للمتفرج أن ينسى أن الحياة كانت معاناة مؤلمة، وغير مرضية وملتوية. فمن

خلال وضع فرد معذب أمام المدينة، وتحليل ألم ذلك الشخص، ومساعدة المتفرج أن يتعاطف معه أو معها فإن الكتاب المسرحيين في القرن الخامس أسخيلوس (525 ـ 456)، وسوفوكليس (496 ـ 405)، ويوريبيديس (484 ـ 406) قد وصلوا إلى قلب روحانية العصر المحوري.. لقد اعتقد الإغريق اعتقاداً راسخاً أن المشاركة في الحزن والدموع كانت تخلق رابطة قيمة بين الناس(92). فالأعداء اكتشفوا إنسانيتهم المشتركة، ومثلما فعل أخيل وبريام في نهاية الإلياذة: دموعهم كانت تطهيراً لحزنهم من الحقد السام. ففي مدينة ديونيسيا كان الأثينيون يبكون بصوت عالٍ ودون خجل، وهذا البكاء لم يكن يقوي رابطة المواطنية فقط، بل ذَكّرَ الأفراد أنهم لم يكونوا لوحدهم في أحزانهم الشخصية. لقد أدركوا ـ وبطريقة جديدة تماماً ـ أن جميع الكائنات الفانية كانت تعاني، فالتطهير كان ينجز عبر تجربة التعاطف والرحمة، لأن المقدرة أن تشعر بالآخرين كانت حاسمة للتجربة المأساوية. وكان هذا جلياً في مسرحية أسخيلوس/الفرس/ التي قدمت في مدينة ديونيسيا في عام 472.

بعد أربع سنوات على فشل فرينخوس وميلتوس، كان أسخيلوس يقوم بمجازفة عندما اختار موضوعاً معاصراً. لكن مسرحيته أنجزت المسافة الضرورية من خلال جعل الأثينيين يرون معركة سالاميس من وجهة نظر الفرس، فلم يحدث شغب عند عرضها، بل نالت ثناءً ليس إلى أسخيلوس بل إلى المشاهد الأثيني. فقبل سنوات قليلة دمر الفرس مدينتهم، وانتهكوا حرمة أماكنهم المقدسة، مع ذلك كانوا قادرين أن يبكوا على الموتى الفرس. فكسرى، وزوجته أتوسا Atossa، وشبح داريوس قد تكلموا كلاماً مؤثراً عن أسى الفجيعة الممض الذي مزق غلالة الأمن،وكشف عن رعب الحياة. لم يكن هناك منتصر، ولا من هو على حق، ولا تشفي. فأسخيلوس لم يصور الفرس كأعداء، بل كأناس في حداد. كما كان هناك مديح للشجاعة الفارسية. لقد صورت اليونان وفارس «أخوات من عرق واحد... ودون عيب في الجمال والبهاء»(93). انتهت المسرحية بطقس مندبة عندما اقتيد كسرى المهزوم بكل لطف واحترام إلى داخل قصره.

وهكذا كانت مسرحية /الفرس/ مثالاً بارزاً على التعاطف الذي وصل حتى إلى ألد الأعداء في وقت كانت فيه ذكريات صراع يائس ما تزال في حالتها الخام.

ناقشت المسرحية دروس الحرب. فكسرى كان مذنباً بالصلف، فتجاوز الحدود، ورفض قبول الحدود المحددة إلهياً لإمبراطوريته. شبح داريوس أصدر تحذيراً جدياً:

لا تدع إنساناً

هازئاً من القدر المكتوب له، في جشع من أجل المزيد

يسكب ثروته في تبديد مطلق، زيوس تريع عالياً فوق

معاقباً بكل قسوة البشر الصلفين المزهوين.(94)

لكن الفرس لم يكونوا الشعب الوحيد المذنب بهذا الاعتزاز الصلف. وفي هذه الفترة كان بعض الأثينيين قد بدأوا يقلقون من صلفهم هم من غزو مدن أخرى، ومن استخدام غنائم الحرب لتمويل مشاريع البناء، والتحذير الموجه لكسرى ربما قد حل بالوطن(95).

وفي عام 470 عندما حاولت جزيرة ناكسوس الغنية الانسحاب من تحالف ديليان Delian، هاجمها الأثينيون فوراً، وهدموا أسوارها، وأجبروها على العودة إلى التحالف. كان الاتحاد مصمماً لتشجيع الصداقة بين دول المدينة، لكنه كان يتضح تدريجياً أن هدفه الحقيقي هو خدمة المصالح الأثينية. في السنة التالية هزمت دول الاتحاد الأسطول الفارسي في بامفيليا في معركة كانت نقطة عَلاَّم على نهاية الحرب الفارسية. فتساءل كثيرون ما إذا كان التحالف يخدم أي هدف آخر بعد أن تم احتواء التهديد الفارسي. كان هناك توتر في الوطن. فمنذ معركة سالاميس أصبحت الطبقات الدنيا التي شكلت العمود الفقري للبحرية أكثر أهمية في المدينة. إنهم لم يكونوا مقيدين كثيراً بالأفكار القديمة، وربما كانوا يساندون أية سياسة راديالية كانت تعطيهم مكانة أعلى في المجلس، مما أدى إلى احتكاك جديد بين الطبقات، وبالتالي غدت أثينا مدينة منقسمة.

ظهرت هذه المخاوف كلها في مسرحية أسخيلوس /سبعة ضد طيبة/ التي قدمت عام 467، وحكت قصة الحرب العبثية ظاهرياً بين ولدي أوديب Polynices وإيتوقليس. هذه القصة المحزنة للتنافس بين الأبناء ربما استحضرت مأساة ناكسوس الحديثة، عندما هاجم الإغريق إغريقاً آخرين مثلهم. بولينكس الذي غزا مدينته الأصلية كان مذنباً بالصلف، بينما بدا إيتوقليس مجسداً لضبط النفس ولجمها ـ هذه السمة التي يجب أن تسم المواطن الحقيقي: إنه يكره الدين غير العقلاني القديم لدى الكورس، من نساء مذعورات يندفعن من فترة لأخرى على خشبة المسرح طارحات أسئلة غير مترابطة، ويطلقن صيحات طقوسية غير مفهومة، ولا تنم عن فطنة. مع ذلك، إيتوقليس نفسه رجل اللوغوس يقع ضحية الدنس الذي دشنه والده أوديب ما أدى إلى تدنيس العائلة كلها(96). في نهاية المسرحية هذه الدنس miasme دفعت الأخوين أن يقتل كل منهما الآخر خارج أسوار طيبة.

صوّر أسخيلوس مجتمعاً ممزقاً عالقاً بشكل مؤلم بين عالمين لا يمكن أن يتصالحا. فبعض المواطنين ـ على شاكلة إتوقليس والفلاسفة، ازدروا الدين القدي لكنهم لم يستطيعوا إسقاطه كلياً، لأنه كان لا يزال يتمتع بقوة في المجالات الأعمق الأقل عقلانية في أذهانهم. في نهاية المسرخية انتصرت الـ إلاهات العالم السفلي على قوى اللوغوس الحديثة. فربما كان الأثينيون يعدون أنفسهم سكان مدينة عقلانيين، مسؤولين عن مصيرهم، لكنهم كانوا مازالوا يشعرون أن دنساً مصدره إلهي قد يستولي عليهم، دنس له حياة خاصة به. فهل كان الأثينيون الصلفون في ناكسوس سينتجون دنساً Miasma جديداً ويجلبوا الدمار إلى مدينتهم؟ العقل الإغريقي كان يكافح في اتجاهين، ولم يقترح أسخيلوس حلاً سهلاً. في مندبتهم الأخيرة كان الكورس منقسماً، نصفه إلى جانب بولينكس، والنصف الآخر يحضر جنازة إتوقليس.

في عام 461، شنت مجموعة الشبان الأثينيين بقيادة Ephiates وصديقه برقليس هجوماً مركزاً على الشيوخ في المجلس الذي جرد مجلس إيرياغوس من

جميع سلطاته، شعارهم كان «حكومة من قبل الشعب»، هذا الانقلاب قد أطاح بالاستقرار السياسي. فتم استبدال مجلس إيروباغوس بمجلس الخمسمائة، ومن هذه الفترة فصاعداً كانت القرارات تتخذ من قبل جميع المواطنين في المجلس الشعبي. لكن الديمقراطية الجديدة لم تكن سليمة تماماً، والنقاشات كانت في أغلب الأحيان فظة وعدوانية. والمحاكم كانت تشكل من قبل المواطنين الذين كانوا قضاة ومحلفين معاً. أي لم يكن هناك حكم للقانون، والمحاكمة كانت أساساً معركة بين المتهم ومتهميه.

كتب أسخيلوس ثلاثية أورستيا Oresteia بعد هذه الفترة بمدة قصيرة، وتصور كيف أن هذه الثورة قد هزت أثينا حتى الأعماق. من جديد، صور أسخيلوس صداماً بين القديم والجديد ـ بين Erinyes، والأكثر حداثة آلهة الأوليمبا السياسية. تتبعت الثلاثية ظهور دولة المدينة بدءاً من الفوضى القبلية والثأر إلى الاستقرار النسبي لأثينا، حين استطاع المواطنون التحكم بحياتهم. إنها تعالج الانتقال المؤلم من روح عامة ذات قوة عمياء إلى نقاش ليس عنفياً. مع ذلك، أوضح أسخيلوس أن المثل الأعلى كان يختلف عن الواقع، لم تكن هناك إجابات سهلة، وأن النظرة الأخيرة للقانون والاستقرار قد تكون مجرد طموح بدلاً من أن تكون حقيقة ناجزة.

واجهت أوريستا مشكلة العنف، هاجس مركزي في عصر المحور، روت قصة منزل أتريوس Atreus، أسرة مدنسة بجريمة قتل غير طبيعية، وعالقة في حلقة لا تتوقف من قتل ثأري. بدأت بمقتل أغمامنون على يدي زوجته كليمنسترا، واستمرت بمقتلها على يد ابنها أوريستس الذي كان ينتقم لمقتل أبيه، وانتهت بهروب أوريستس من Erinyes الذي سبب ظهورها المرعب على خشبة المسرح إجهاض بعض النساء المتفرجات. لم يستطع الأبطال إيقاف العنف، لأن كل قتل كان يطلق ذنباً جديداً، والأوليمبيون الذين بوصفهم رعاة للمدن ـ كان يفترض أن يكونوا إلى جانب القانون والاستقرار، بدوا أنهم يستمتعون كثيراً في إصدار أوامر مستحيلة إلى الفانين وتورطهم في ظروف لا رابح فيها. بالتالي كانت الحياة

البشرية مليئة بحزن لا مهرب منه. «فالشخص الذي يعمل، يجب أن يعاني» كما نوه الكورس «ذلك هو القانون»(97). لكن في «صلاته إلى زيوس» قدم أسخيلوس خيط أمل رفيع، طالما أن زيوس «أياً يكن زيوس»، له الحكم على السماء والأرض، سوف تبقى المعاناة جزءاً من الشرط البشري. مع ذلك، فقد علم زيوس «الإنسان أن يفكر»، ووضع البشر على طريق الحكمة:

هو أصدر القانون؛ تعَلموا عبر المعاناة

الحزن يدخل حتى إلى النوم، متسللاً إلى داخل القلب

الحزن الذي لا يستطيع أن ينسى المعاناة

وحتى غير الراغبين أن يتعلموا أن يكونوا حكماء.

الحياة كلها كانت معاناة، لكن الألم ربى الكائنات البشرية، بحيث أنهم تعلموا أن يتساموا على بلائهم الذي لا أمل منه كما يبدو.

في إيومنديز Eumenides، المسرحية الأخيرة من الثلاثية، أوريستس، ما يزال ملاحقاً من قبل Erinyes، حط الرحال في أثينا، ورمى نفسه عند قدمي أثينا التي دعت مجلس أريوباغوس للنظر في هذه القضية. عدالة الثأر الوحشية يجب أن تستسلم لمجرى القانون السلمي. دافعت إيرينس أن قتل أوريستس لأمه فإنه قد انتهك قانون الدم المقدِس، ويجب أن يذوق العقاب المناسب. انقسم المحلفون، لكن أثينا التي كان لها الصوت المرجح أعلنت براءة أوريستس، وطيبت خاطر إيرنيس بتقديم مقام لها على الأكروبوليس. ومن هذه الفترة فصاعداً سوف يسمون إيومنديز «The Well - dis posed ones». فضائل دولة المدينة ـ الاعتدال، وتوازن القوى المتعارضة ـ قد ساد، لكن الأفعال السوداء في الماضي كانت ما تزال حية. فالرجال والنساء، والآلهة، وFuries (آلهة الانتقام) يجب أن يتعلموا من المعاناة، وأن يستوعبوا، ويفهموا ذكرى أفعال الماضي السوداء. في نهاية المسرحية الإيومندز وبرفقتهم موكب مهيب تم إيصالهم إلى مقامهم الجديد(98). هذه الأبهة الطقسية كانت ترمز إلى إدماج المأساة في داخل المدينة. لا يمكن إنكار سفك الدماء، والكراهية، وكابوس العنف المدنس الذي جسدته إيرنيس. يجب أن

تدمج المدينة عبء هذا الحزن، وتأخذه داخل نفسها، تقبله، تكرمه في قلب المدينة المقدس، وتجعله قوة من أجل الخير.

لكن أثينا لم تكن تتعلم دروس التاريخ. لأن كلامها الجميل عن الحرية، كانت دولة المدينة مكروهة في جميع أرجاء العالم الإغريقي، كسلطة جائرة. فتحالف ديلان لدول المدن الحرة، قد أصبح في حقيقة الأمر الإمبراطورية الأثينية، وأية مدينة حاولت الإنفصال عنه كانت تخضع بوحشية، وتجبر على دفع الجزية. في عام 438، البارثينون ـ معبد أثينا الفخم على الأكروبوليس ـ كان قد اكتمل بناؤه، لكن ذلك تم من خلال إذلال واستغلال إخوتهم الإغريق. المقام الجديد الذي هيمن على مشهد المدينة كان تأكيداً على اعتزاز وسيادة جماعية، بالرغم من أن بيرقليس قد حذر المواطنين من أنهم قد أقلعوا في مسار خطر. سيكون من المحال لأثينا أن تقمع ثورة واسعة الانتشار، لأن إمبراطوريتها قد أصبحت مصيدة، ومن المحتمل أن إنشاءها كان أمراً خاطئاً، وسيكون خطراً أيضاً تركها تمضي، لأن أثينا أصبحت مكروهة من قبل الذين كانت تتحكم بحياتهم.

أثينا كانت تبدأ تدرك أن لها حدود. ومسرحية أنتيجون Antigone لسوفوكليس التي قدمت في منتصف عام 440 صورت صداماً لا مفر منه بين الولاء للعائلة وبين قانون المدينة، لم يكن أي من الأبطال الرئيسيين قادراً على حسمه: سواء كريون ملك طيبة، وأنتيجون ابنة أوديب ـ في الحقيقة لم يكن هناك حل ممكن. لقد أوضحت المسرحية أن المعتقدات الراسخة، والمبادئ الواضحة لن تؤدي حتماً إلى نتيجة جيدة. نوايا هذه الشخصيات كانت خيرة، ولا تريد أيٌّ منها حدوث مأساة، لكن على الرغم من أنهم قدموا أفضل جهودهم، وكل إخلاصهم إلا أن النتيجة كانت كارثية، وخسارة مدمرة(99). فعلى الرغم من زعم المدينة أنها تمجد الحرية والاستقلال، لم تستطع أن تساير أنتيجون التي تمردت على قوانينها من أجل أكثر الدوافع تقىً. وقفت مدافعة عن قناعاتها، وكانت قادرة أن تناقش دفاعاً عنها بلوغوس مقنع، وحماسي. في ترنيمة الكورس إلى الازدهار، الكورس المكون من عجائز، زعم أن ليس هناك شيء

خارج قدرة الإنسان. لقد أوجد الإنسان التقانة كي يتغلب على كل عائق، وطور قدراته على المحاكمة كي يؤسس مجتمعاً مستقراً. لقد كان سيد كل ما تصفحه وبدا منيعاً تماماً ـ ما عدا حقيقة الموت القاسية، الذي أوضح عجزه الحقيقي. إذا نسي الإنسان هذا فإنه سوف يقع ضحية الصلف، ويمشي «في كبرياء وحيداً إلى نهاية حياته»(100).

شعوب المحور كلها كانت تصبح مدركة تماماً لحدود الشرط البشري، لكن في بقاع أخرى من العالم، لم يمنعهم هذا من بلوغ أسمى الأهداف، أو من تطوير تقانة روحية تمكنهم من تجاوز معاناة الحياة. في حقيقة الأمر، التجربة المبرحة لضعفهم المتأصل هو الذي أجبر الكثيرين منهم أن يجدوا المطلق داخل ذواتهم السريعة العطب. لكن بدا أن الإغريق استطاعوا أن يروا فقط الهوة abyss. ما أن أدركت أنتيجون أنه ليس هناك شيء أكثر كي تفعله، تقبلت مصيرها كابنة لأوديب، مقرة أنها هي أيضاً كانت عاجزة أمام الدنس الذي أصيبت به الأسرة كلها. وبدلاً من أن تترنح مثل أختها Isemene، فإنها تمالكت زمام معاناتها وفعلياً «مشت في كبرياء وحيدة» إلى داخل ضريحها.

حلم الإستنارة ـ كما بدا، فإن ما كان سوفوكليس يخبر دولة مدينته به، كان وهماً. فعلى الرغم من الإنجازات الفكرية والثقافية غير العادية مازال البشر يواجهون ألماً كاسحاً. ومهاراتهم، ومبادئهم، وورعهم، وقدراتهم على المحاكمة لم تستطع أن تخلصهم من ذنب الصلف الذي خبروه ليس كنتيجة لكارما خاصة بهم، بل من مصدر إلهي خارج أنفسهم. الرجال والناس الفانون لم يكونوا مسؤولين عن قدرهم، لذلك يجب أن يفعلوا كل ما في وسعهم كي يتجنبوا المأساة مثلما فعلت أنتيجون. لكن عندما يكونون قد بلغوا نهاية مسعاهم، فإن بوسعهم أن يتقبلوا قدرهم بكل ثبات وشجاعة. اقترح سوفوكليس أن هذا هو ما كان يشكل عظمة البشر. لكن حلم الاستنارة في الهند لم يكن ميتاً، بل كان يصبح واقعاً ملموساً لدى مزيد من الناس أكثر من ذي قبل.

* * *

لقد فُتحَ خواء روحي أيضاً في الهند، وحكماء جدد عملوا بكل نشاط، بل حتى بيأس كي يجدوا حلاً جديداً. عقيدة الكارما ـ بحلول أواخر القرن الخامس ـالتي كانت مثار جدل في زمن ياجنفالكيا غدت مقبولة على نطاق واسع(101). اعتقد الرجال والنساء أنهم كانوا جميعاً عالقين في دورة لا نهاية لها من الموت والولادة ثانية، ورغباتهم كانت تجبرهم أن يفعلوا، ونوعية أفعالهم سوف تحدد حالتهم في الحياة التالية. كارما سيئة تعني أن يولدوا ثانية عبيداً، أو حيوانات أو نباتات. بينما كارما خيّرة ستضمن ولادتهم من جديد كملوك أو آلهة. لكن هذه لم تكن نهاية سعيدة: فحتى الآلهة سوف تستهلك هذه الكارما المفيدة، ستموت وتولد ثانية في حالة مجيدة على الأرض. بينما كان هذا التصور يغدو مسيطراً تغير المزاج في الهند وأصبح كثيرون محبطين. شعروا أنهم محكومين بحياة عابرة تلو أخرى. وحتى كارما خيّرة ليس باستطاعتها أن تخلصهم. وعندما كانوا ينظرون فيما حولهم في مجتمعهم، كانوا يرون الألم والمعاناة فقط. فحتى الثروة والمتعة المادية كانت مظللة بالحقيقة القاسية: الشيخوخة والموت المحتومين. لقد اعتقدوا أن الأشياء الدنيوية «تضعف طاقة جميع الحواس» وتسرع من تراجعها(102). بينما كانت هذه الكآبة تتصاعد، كافح الناس كي يجدوا مخرجاً.

أصبح المزيد المزيد من الناس أقل انجذاباً تجاه طقوس الفيدا القديمة التي لم تستطع أن تقدم حلاً لهذه المشكلة. أفضل ما استطاعت تقديمه كان ولادة جديدة في عالم الآلهة، لكن في ضوء هذه الفلسفة الجديدة قد يكون هذا انعتاقاً مؤقتاً من التكرار الذي لا يرحم للمعاناة والموت. الأكثر من ذلك كان بغض الناس قد بدأ يلاحظ أن الشعائر لم تكن تنتج الفوائد المادية التي وعدت بها. فرفض بعض الناس علم الطقوس البراهمية. كانت الأبانيشاد قد وعدت بانعتاق نهائي، لكن هذه الروحانية لم تكن من أجل كل شخص، كانت مبنية على إطلاع دقيق على تمحيص فكر الفيدا الذي لم يكن يمتلكه معظم الناس، الذين كان معظمهم تساورهم شكوك حول ماهية البراهمن وأتمان، اللتان تعتمد عليهما كل المنظومة. اليوغا قدمت الموكشا، لكن كيف فسر

اليوغي حالات الغبطة التي كان يشعر بها؟ هل كان ممكناً مصالحتها مع عقيدة الفيدا؟ الأبانيشاد التي جمعت في هذه الفترة تقريباً أكدت أن بالإمكان مصالحتها. قالت كاثا ـ أبانيشاد أن أتمان «النفس الحقة» كانت تسير الجسد مثلما يتمكن خيال من تسيير عربته. فاليوغي قد تعلم أن يبقي عقله وأحاسيسه تحت السيطرة مثل خيول جيدة لسائق عربة. بهذه الطريقة الشخص الذي يمتلك فهماً هو مكتمل العقل ونقي دائماً»، وسوف ينجز الانعتاق من دورة الولادة الجديدة التي لا تنتهي»(103)، لكن آخرين كانوا مقتنعين أن اليوغا لم تكن كافية، وكانوا بحاجة إلى شيء ما أكثر.

اليوغا كانت وظيفة بدوام كامل، كانت تتطلب ساعات من الجهد كل يوم، وبالتالي كانت تتضارب بكل وضوح مع واجبات رب الأسرة. مع حلول القرن السادس، اعتقد معظم الناس أن رب الأسرة لم يكن لديه فرصة إنجاز الموكشكا، لأنه كان عبداً للكارما، التي تفرضها واجبات طبقته على أن يؤدي عملاً تلو آخر، ودافع كل عمل هو الرغبة التي كانت هي جذر المشكلة. لم يكن باستطاعة رب الأسرة أن ينجب أطفالاً من دون رغبة، ولم يكن باستطاعته أن يشن حرباً، أو يزرع أرضه، أو ينخرط في التجارة دون أن يريد أن ينجح. كل عمل كان يؤدي إلى جولة جديدة من واجبات تقيده بحلقة السامسارا التي لا ترحم. السبيل الوحيد كي يجد الانعتاق كان المضي قدماً في أعماق الغابة وأن يصبح ناسكاً أو متسولاً، أي ليس عليه أياً من هذه الواجبات. الناس في الهند لم يكونوا يعدون النساك سقط متاع ضعفاء، بل كانوا يجلونهم كرواد جسورين الذين كانوا يحاولون ـ بالرغم من الكلفة الباهظة عليهم ـ أن يجدوا حلاً روحياً للبشرية. فبسبب اليأس المخيم في المنطقة كان كثيرون تواقين إلى Jina ـ منتصر روحي أو إلى بوذا ـ الشخص المستنير الذي قد «استفاق» على بعد وجودي مختلف.

أزمة اجتماعية كانت تفاقم هذا القلق الروحي. شعوب شمال الهند ـ مثل الإغريق ـ كانوا يمرون بتغير سياسي مهم وتحول اقتصادي، فالنظام الفيدي كان روحانية مجتمع دائم التنقل، منخرط في هجرة مستمرة. لكن ما أن حلت

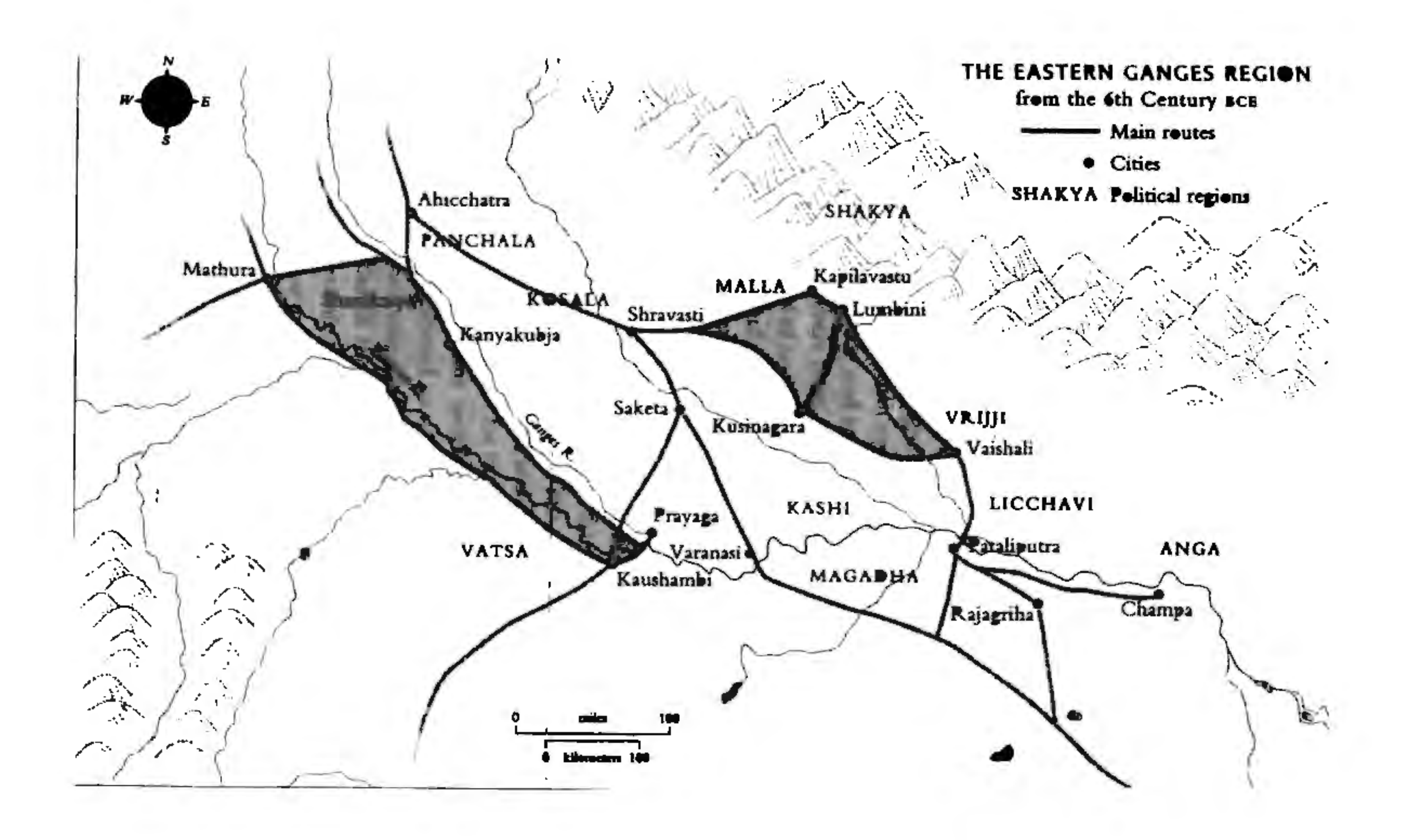
نهاية القرن السادس والخامس حتى أصبح الناس مستقرين في مجتمعات دائمة وأكثر انخراطاً في الزراعة. فإدخال تقانة الحديد من ضمنها المحراث الثقيل جعل من الممكن استصلاح المزيد من الحقول كي يزرعوها وساعدهم في قطع أشجار الغابات الكثيفة. أصبحت الأراضي محاطة بمناطق زراعية كانت تحظى بإشراف دقيق، وبالتالي أنتجت محاصيل جيدة: الفاكهة، والأرز، والحبوب، والجاورس Millet، والقمح والشعير، وبالتالي أصبح المزارعون أكثر غنىً(104). وما أن حل القرن السادس حتى حدث تطور سياسي أيضاً، إذ تم استيعاب الزعامات الصغيرة داخل وحدات أكبر. أقوى هذه الممالك الجديدة كانت Magadha في الجنوب الشرقي، وكوسالا Kosala في الجنوب الغربي، اللتان حكمهما ملوك فرضوا حكمهم تدريجياً بالقوة، وحولوا ببطء نماذج الولاء القديمة من الولاء للقبيلة إلى نزعة وطنية أولية ركزت على المنطقة بدلاً عن القرابة. وطبقة المحاربين Kshatriya التي كانت مسؤولة عن الدفاع والإدارة أصبحت أكثر أهمية. لم يعد الملوك الجدد مبالين بالبراهميين كما كان أجدادهم بالرغم من أنهم استمروا في تأدية خدمات بسيطة للمثل العليا الأكثر قدماً.

لم تكن الملكية الشكل الوحيد للحكم. فإلى الشرق من الممالك الجديدة ظهر عدد من الولايات التي كانت تدار بطريقة مختلفة، يحكمها مجلس من شيوخ العشائر العريقة. فالحكم كان من خلال النقاش ـ مثل دولة المدينة الإغريقية. إننا لا نعرف سوى القليل عن هذه المجالس الهندية. لم يكن واضحاً عدد الأشخاص الذين يتم قبولهم في المجلس القبلي، وما هي الطبقات المعنية، أو ما إذا كان أعضاء المجلس ينتخبون. من المحتمل وجود أنظمة كثيرة بعدد هذه الولايات. لكن كيفما كان نظامها، كانت هذه الجمهوريات: مالا Malla، وكوليا Koliya، وفيدها Videha، ونايا Naya، وفاجي Vajji، وشاكيا Shakya، وكالاما Kalama، وليشا في Licchavi كانت تصبح أكثر قوة بالرغم من أنها كانت تشعر أنها مهددة من قبل مملكتي كوسالا وماجادها اللتين

كانتا تريدان توسيع مناطق نفوذهما. لكن لم تلبث أن لاحت إمكانية المواجهة، وأدرك الناس أن الحروب بين هذه الدول الأكبر ستكون مدمرة أكثر مما كانت الغارات القديمة، خاصة لأن صناعة السلاح قد أصبحت قاتلة أكثر منذ تصنيع الحديد.

الدول المجاورة حفزت التجارة في حوض الغانج، فشقت الطرق، وأمنت طرق التجارة، وحلت العملة المعدنية محل المواشي كرمز للثروة، كما تطورت طبقة تجارية تاجرت بالمعادن والمنسوجات، والملح، والخيول، والفخار في أرجاء المنطقة. وبدأ بعض المغامرين بناء امبراطوريات تجارية. نقرأ عن صانع فخار كان يملك خمسمائة ورشة لصنع الفخار، وأسطول قوارب يحمل إنتاجه إلى جميع أرجاء وادي الغانج(105). ولدت التجارة مزيداً من الثروة التي مكنت الملوك والمجالس من إنفاقها على سلع الرفاهية وعلى الجيوش، وعلى المدن الجديدة التي غدت مراكز تجارية وصناعية.

لقد تباهت النصوص الفيدية بمدن كبيرة مثل Hastina pura هاستينابورا، لكن هذه المدن كانت أكبر بقليل من القرى. توضح التنقيبات الأثرية أن التمدن حصل فقط في القرن السادس، وأن البلدات الجديدة فاراناسي، وراجاغريها، وشرافاستي، وكاوشامبي، وكابيلافاستو، نشأت في الطرف الشرقي لنهر الغانج، بينما بقيت الأراضي الفيدية القديمة في الغرب ريفية عموماً. كانت القوة تنتقل شرقاً، الذي عده البراهميون دائماً هامشياً وغير نقي. هذا التطور كان ضربة أخرى للعقيدة الفيدية التي لم تكن مناسبة للبيئة المدنية، ولم تضرب جذوراً قوية في المناطق الشرقية. كان الملوك قد بدأوا ينفضون عنهم سيطرة رجال الدين، بينما مالت الجمهوريات إلى تجاهل البراهميين تماماً، وقتروا في عدد القرابين التقليدية. بدلاً من إقامة مأدبة باذخة للتخلص من فوائضهم، فضلوا أن ينفقوها في الإدارة، أو أن يستخدموها في تمويل بناء المدن، أو في التجارة والصناعة. لقد نشأت رأسمالية بدائية، فكانت أولوياتها مختلفة. كانت القرابين الباذخة من أجل التأثير على الآلهة، ولإعلاء مكانة الراعي. مع حلول القرن الخامس، أدركت هذه الشعوب الشرقية أن تجارتهم وزراعتهم المتطورتين قد جلبتا لهم الثروة ومكانة أكبر بكثير من الشعائر الفيدية.



THE EASTERN GANGES REGION
from the 6th Century BCE
Main routes
Cities
SHAKYA Political regions
N
W
E
S
Ahicchatra
PANCHALA
Mathura
KOSALA
Kanyakubja
Shravasti
MALLA
Kapilavastu
Lumbini
SHAKYA
Saketa
Kusinagara
Ganges R.
VRIJJI
Vaishali
LICCHAVI
KASHI
Prayaga
Varanasi
VATSA
Kaushambi
MAGADHA
Pataliputra
ANGA
Rajagriha
Champa
0
miles
100
0
kilometers
100

فبدلاً من الامتثال للتراث، شجعت المدن الجديدة المبادرة الشخصية والابتكار. أصحاب دكاكين ناجحون، ومصنعون مغامرون، وممولون بارعون كانوا يصبحون ذوي مكانة مرموقة، وما عادوا يشعرون بالانسجام مع النظام القبلي القديم. نزعة فردية قد بدأت تحل محل الهوية الجماعية القبلية. زد على ذلك كان الناجحون جداً يتحدرون من الطبقات الدنيا من النظام الفيدي: تجار، ومزارعون، وصيرفيون كانوا عادة Vaishya أي من نسب أقل امتيازاً. أما الآن فقد أصبحوا يمتلكون الأراضي، ويتبوءون القيادة في الثورة الزراعية: وآخرون كانوا يشاركون في التجارة والصناعة ويصبحون أغنى من المحاربين. أما الحرفيون فكانوا يتحدرون من طبقة الشودر الأصلية التي لم يكن يسمح لأفرادها أن يشاركوا في الطقوس الفيدية، ولم ينتموا إلى المجتمع الآري. ففي الماضي، كانت وظيفتهم هي أن يقدموا العمل. لكن في البلدات الجديدة بعض الشودرا - مثل صانع الفخار الذي كان يملك إمبراطورية صناعة فخار ضخمة، كانوا يجمعون الثروة والمكانة الاجتماعية اللتان كانتا في الماضي أمراً لا يمكن تصوره.

كانت هذه التطورات إيجابية لكنها لم تكن حاسمة. لقد انطوى التمدين على تحول اجتماعي هائل ترك أناساً كثيرين يشعرون بفقدان التوجه وضائعين. فبعض العائلات أصبحت غنية ومتنفذة، بينما بدأت عائلات أخرى تتراجع. فالمدن والتجارة شجعتا على الحركية الشخصية أكثر، وكانت تحفز على إقامة علاقات جديدة مع أناس في مناطق أخرى، مما قوض المجتمعات الأصغر والأكثر ضيقاً في نظرتها الحياتية. حدثت انقسامات طبقية جديدة. ومال البراهميون والمحاربون لأن يتحدوا معاً في وجه الشودرا. وVaishyas. شعرت النخب الريفية أنها مُغَرَّبة عن الطبقات الصاعدة في المدينة التي كانت تضم عناصر من Vaishya وشودرا قوية. قبيلة Vaishyas القوية التي أصبحت تجاراً ومصرفيين أضحت غريبة عن Vaishya الزراعية في الريف. بدت القواعد التي حكمت الطبقات الأربع غير ملائمة، وكان على الناس أن يتعلموا طرق العيش معاً. ففقدان الهوية القبلية ترك شعوراً بالاستلاب ورمياً لهم في الفراغ.

هذه التوترات الاجتماعية كانت حادة جداً في الشرق على وجه الخصوص حيث كان التمدين أكثر تطوراً، لقد تركز في هذه المنطقة لدرجة أن الطور التالي من العصر المحوري الهندي قد بدأ. فهنا كان المستوطنون الآريون أقلية، والتراثات الأصلية كانت ما تزال حية جداً. شعر الناس أنهم أحراراً بأن يستكشفوا حلولاً جديدة. فالتطورات المادية السريعة في البلدات جعلت سكان المدن أكثر إدراكاً لسرعة التغير عما كان في الأرياف حيث فعل الناس الشيء ذاته وفي الوقت ذاته سنة بعد سنة. ربما بدت الحياة زائلة وعابرة مما أكد الاعتقاد الراسخ آنذاك بأن الحياة كانت معاناة، مثلما فعل انتشار المرض وAnomie في المدن المزعجة المزدحمة. فالقيم التراثية تداعت، وبدت الأساليب الجديدة مخيفة وغريبة. كانت المدن مثيرة، وشوارعها مزدحمة بالعربات البراقة، فيلة ضخمة كانت تنقل البضائع إلى المناطق البعيدة ومنها، والتجار من جميع أنحاء الهند كانوا يختلطون في السوق. الطبقة المدينية كانت متنفذة، طاحنة وطموحة. وبدت المقامرة، والمسرح، والرقص، والعهر، وحياة الخمارات الفاجرة في المدن صادمة للناس الذين مالوا نحو القيم القديمة.

بدت الحياة تصبح عدوانية أكثر من ذي قبل. في الجمهوريات كان هناك اقتتال داخلي ونزاع مدني، كانت الممالك مكتفية ومركزية لأنها استطاعت أن تقسر رعاياها. الجيوش كانت تعلن ولاءها للملك فقط، بدلاً من الولاء للقبيلة ككل، لذلك استطاع الملك أن يفرض الاستقرار بآلته الحربية الشخصية، وأن يستخدمها لهزيمة منطقة مجاورة. هذه السلطة الملكية الجديدة قدمت استقراراً أكثر للمنطقة، لكن تضايق كثيرون من قدرة الملوك على فرض إرادتهم على الناس بهذه الطريقة. محرك الاقتصاد كان الجشع والمصرفيون والتجار كانوا عالقين في تنافس لا يتوقف، يفترس أحدهم الآخر. كيف يرتقي هذا المجتمع الذي لا يرحم إلى المثل الأعلى اللاعنف الذي قد أصبح حاسماً جداً في شمال الهند؟ بدت الحياة أكثر عنفاً ومخيفة أكثر مما كانت، سرقة المواشي العمود الفقري للاقتصاد. بدا دين الفيدا ـ وبشكل متزايد ـ أنه لا علاقة له بالواقع

المعاصر. فالتجار كانوا باستمرار على الطريق، ولم يكن باستطاعتهم إبقاء النيران المقدسة مشتعلة، أو الالتزام بشعائر رب الأسرة التقليدية، القربان الحيواني ربما كان له معنى عندما يُوَلِّد المخزون الوظيفة الرئيسية. أما وقد حلت محلها التجارة والزراعة فقد أصبحت الأبقار نادرة، وبدت الأضحية تبذيراً وقاسية - بقية من عنف الحياة العامة. كان الناس بحاجة إلى حل ديني مغاير.

كان من الطبيعي أن يتطلعوا إلى النساك الذين كانوا رجال الساعة، مثل التجار. فالنساك أيضاً قد خرجوا خارج حدود النظام الفيدي، وانطلقوا بمفردهم. في تلك الأيام كان النساك في كل مكان. بعضهم بقوا في الغابات ملتزمين بالطقوس الفيدية، لكن آخرون كانوا يشاهدون كثيراً في المجتمع الشرقي. وما أن حل القرن السادس حتى ظهرت مدارس لا تحصى. جماعات من التلاميذ تحلقت حول معلم يتبنى طريقة خاصة في الحياة، واعداً إياهم أن تعليمه سوف يؤدي إلى الانعتاق من الموت وإعادة الولادة. من المحتمل أن تلاميذه أسموه بوذا أو Jina لأنهم اعتقدوا أنه قد اكتشف سر الاستنارة، لا نعرف سوى القليل جداً عن هذه المدارس، لأن الهند كانت ما تزال مجتمعاً شفوياً، ومعظم هؤلاء المعلمين لم يترك وراءه كتباً مقدسة مكتوبة، وفي أغلب الأحيان نعتمد على الجدل اللاهوتي لمنافسيه الذين ربما كانوا يشوهون تعليمه. لقد استوعب هؤلاء المعلمون روح العصر التنافسية، وتباروا بشراسة مع بعضهم على التلاميذ، وانطلقوا إلى الطريق كي يبشروا بـ dharma هم. جماعات من النساك بأروابهم الصفراء كانت تسير على الطرق التجارية بجانب قوافل التجار، وكان الناس يستشرفون وصولهم بلهفة مثل حراس التجار. عندما كان يصل معلم جديد إلى بلدة، كان الناي يهرعون جماعات كي يستمعوا إليه. وكانت تحدث نقاشات حامية تشمل جميع طبقات المجتمع في السوق، وفي قاعة المدينة، وفي المتنزهات الاستوائية الفارهة في الضواحي. أما أرباب الأسر الذين ليس لديهم نية بمغادرة البيت، كانوا يشعرون بالحاجة إلى أجوبة روحية جديدة، وغالباً ما كانوا يربطون أنفسهم بمدرسة كأنصار عاديين لها. النساك «الحكماء الصامتون» كانوا

يمشون بهدوء عبر المدن، متسولين طعامهم بمد أوعية الطعام، وكان أرباب الأسر وزوجاتهم سعداء بأن يملؤها بما تبقى لديهم من طعام. فهذا كان فعل خير قد يضمن لهم أنهم في حياتهم التالية قد يصبحون رهباناً، مع فرصة أن يبلغوا الاستنارة.

تحتوي التعاليم الأحدث على عدد من العوامل المشتركة: الحياة كانت معاناة، كي تصبح حراً عليك أن تخلص نفسك من الرغبة التي تؤدي إلى فاعلية، من خلال الزهد والتأمل. لم يكن هناك نصوص وشروحات تفصيلية، وهذه dharma كانت عملية تجديدية. المعلم لقّن طريقة كانت في متناول أي امرئ أراد أن يتعلمها، إذ ليس عليك أن تكون علاّمة أو خبيراً بالطقوس. أما البرنامج فكان عادة مبنياً على التجربة الشخصية للمعلم، فإذا فعلت فعلها، وجلبت لتلامذته إلماحات الانعتاق والاستنارة فإن dharma كانت فعالة، وإذا لم تفعل له شيئاً، فلم يكن المريد يشعر بتأنيب ضمير إذا ما تخلى عن معلمه كي يجد معلماً آخر. جرت العادة أن يحيي الرهبان أحدهم الآخر على الطريق: «من هو معلمك؟ وأية dharma تتبع هذه الأيام؟» هذه كانت الأسئلة المعهودة.

كان بعض هذه المدارس يعلم أساليب متطرفة كشفت عن الإحباط المتزايد(106).

Hansas كانوا مشردين تماماً، باستطاعتهم البقاء ليلة واحدة فقط في قرية، وكانوا يعيشون على روث البقر. بينما عاش أتباع Adumbara على الفاكهة، والنباتات البرية، والجذور، بينما أتباع مدرسة Parama hansa كانوا ينامون تحت الأشجار وفي المقابر، وفي المنازل المهجورة. لقد اتبع البعض تعاليم السامكهيا ومارس اليوغا، ويصرون على اكتساب المعرفة المحررة. بينما كان آخرون أكثر ريبية، معلم يدعى سنجايا Sanjaya أنكر إمكانية وجود أية إجابة نهائية. كل ما كان باستطاعة المرء فعله هو أن ينمي الصداقة، وراحة البال، لأن الحقيقة كانت نسبية، والنقاش كان حتماً يفضي إلى الضغينة، لذلك يجب تجنبه. معلم آخر يدعى أجيتا Ajita كان مادي الفكر فأنكر عقيدة الولادة

ثانية: طالما أن البشر كانوا مخلوقات مادية كلياً، فإنهم سوف يعودون إلى العناصر المكونة لهم بعد موتهم. بالتالي الطريقة التي تصرفت بها ليس لها أهمية، لأن كل امرئ له المصير ذاته، لكن من المحتمل أن يكون من الأفضل تقوية إرادة الخير والسعادة من خلال افعل كما تشاء، وتمارس Karma فقط التي تقوي هذه النهايات(107).

أظهرت هذه التعاليم جميعاً تصميماً على إيجاد سبيل للخروج من المأزق السامساري: أي الولادة من جديد، والموت ثانية: اعتقد البعض أن باستطاعتهم بلوغ ذلك من خلال القيام بتقشف لا يطاق، وآخرون عن طريق تجنب العداوات والسماجة، وعدم الارتياح. لم تكن الغاية العثور على حقيقة ميتافيزيقية بل الحصول على راحة البال. هؤلاء الحكماء - ليسوا على شاكلة سوفوكليس - لم يعتقدوا أنه كان عليهم تقبل ألمهم دون كرامة. بل كانوا على قناعة بأن بالإمكان إيجاد طريق للخروج من المأزق. أحد أكثر هؤلاء المعلمين أهمية هو ماكهالي Makkhali غوسالا (ـــ ، 385)، رجل صموت، وزاهد صارم بشر بالقدرية الدينية: «الجهد البشري ليس فعالاً». والناس غير مسؤولين عن سلوكهم. «جميع الحيوانات، والمخلوقات، والكائنات والأرواح، تفتقر إلى القدرة والطاقة. إنها محنية بهذا الشكل أو ذاك من قبل القدر، بالشرط الضروري لطبقتهم، وبطبيعتهم الفردية»(108). أسس مدرسة تدعى (طريق الحياة). اعتقد غوسالا أن جميع البشر دون استثناء مقدر عليهم أن يعيشوا عدداً محدداً من الحيوات قبل بلوغهم الموكشا Moksha، لذلك فإن أعمالهم ليس باستطاعتها أن تؤثر على أقدارهم بطريقة أو بأخرى.لكن يا للمفارقة فقد تبنى أنصاره نظاماً قاسياً، لم يرتدوا ملابس، وشحذوا الطعام، وطبقوا قواعد طعام صارمة لدرجة أن بعضهم جاع حتى الموت. كما أنهم كانوا يوقعون ألماً شديداً على أجسادهم. وعندما يتم إدخال الفرد الجديد في الطائفة - على سبيل المثال - كان يطمر حتى رقبته، ويُسْحَبُ شعر رأسه شعرة شعرة. إنهم لم يمارسوا هذه الكفارات لأنهم كانوا يعتقدون أنها ستساعدهم، بل ببساطة لأنهم قد وصلوا إلى تلك المرحلة في حلقتهم

الشخصية، أي عندما كانت أقدارهم أن يمارسوا قسوة القلب. وهذه دلالة على القلق الشديد في تلك الفترة، لدرجة أن هذه الدهارما العارية كانت شعبية جداً. منافسو غوسالا هاجموه هجوماً عنيفاً أكثر مما هاجموا أي معلم آخر، لأنهم كانوا يخشون نجاحه. فالنقوش تبين أن الملوك قد أرسلوا له الهدايا، وتبرعوا بعقارات لأنصار طريقته، وهذه الطائفة استمرت في الهند حتى القرن العاشر الميلادي. إننا لا نملك الصورة الكاملة عنها. من المحتمل أن غوسالا علم شكلاً فعالاً خاصاً من التأمل الذي بقي سراً عن الغرباء. ربما كان التطرف بغية صدم المدخلين في حالة خارج الألم والسرور، وربما كانت قدريته طريقة لبلوغ السكينة والهدوء: إذا كان كل شيء مقدر سلفاً، فليس هناك جدوى من القلق تجاه المستقبل.

قيل إن غوسالا كان تلميذاً عند Vardhamanae Jnatrputra (497 ـ 425) الذي أصبح واحداً من أهم معلمي هذه الفترة، ولقبه طلابه «البطل العظيم». كان الإبن الثاني لزعيم من قبيلة Magadha، كان جسمه رائعاً وذا قوة وجمال، لكنه عندما بلغ الثلاثين من العمر قرر أن يهجر العالم ليصبح ناسكاً بعد أن صمم على بلوغ الاستنارة دون الاستعانة بمعلم، فرفض الانضمام إلى إحدى المدارس الموجودة. وقد وصلنا أن الآلهة أدت طقسه الإدخالي في حياة التشرد. وطوال اثنتا عشرة سنة ونصف عاشها ناسكاً، هائماً في وادي الغانج، وممارساً تدريبات التقشف: لم يرتدي ملابس، ومعرضاً جسده إلى الحرارة اللاهبة صيفاً وإلى برد الشتاء، وصام، وحرم نفسه من النوم والمأوى. خلال هذه الفترة الأولية قبل غوسالا تلميذاً لديه، وارتحل معه طوال ست سنوات حتى أعلن غوسالا أنه قد بلغ الموكشا، وأن باستطاعته أن يسمي نفسه Jina (أي منتصر روحاني). هذا الوصف دُسَّ لاحقاً في نص أكثر قدماً(109). إنه معادٍ لغوسالا، موحياً أنه كان غيوراً من التفوق الروحي لـ ماهافيرا Mahavira، فانشق عنه قبل الأوان. لكن في نهاية الأمر تصالح الرجلان: مات غوسالا معترفاً أن ماهافيرا كان معلماً حقاً، أما ماهافيرا فتوقع أن غوسالا سيبلغ الاستنارة ذات يوم. من المرجح وجود علاقة

تاريخية ما بين المدرستين، وأن ماهافيرا كان متأثراً بأجيفاكا Ajivaka في مرحلة مبكرة، لكنه تابع تطوير تعاليم مستقلة.

أسلوب الحياة القاسية لماهافيرا كان له هدف خاص. إنه على شاكلة جميع الزهاد، أراد أن يحرر ذاته الحقيقية من قيود الجسد، وبذلك يحقق التحكم الداخلي وراحة البال. لكنه لم يبلغ الموكشا حتى طور طريقة جديدة كلياً في النظر إلى العالم، كانت تدرس عبر الـ Ahimsa أي «عدم إيقاع الأذى»(110). كل كائن بشري لديه روح (Jiva)، وماهية حية داخله، التي كانت مشعة وسعيدة جداً وذكية. أما الحيوانات، والنباتات، والماء، والنار، والهواء وحتى الصخور والحجارة كل منها له روح أيضاً، وقد جلبت إلى وجودها الراهن بواسطة كارما حيواتها السابقة. جميع الكائنات تشاركت نفس الطبيعة، ولذلك يجب التعامل معها بنفس الكياسة والاحترام اللذين نرغب أن نلقاهما نحن(111). فحتى النباتات كان لها شكل من الإدراك، فقد تصبح أشجاراً مقدسة ـ في حيوات مستقبلية، ومن ثم تتقدم لتصبح شكلاً بشرياً، وأخيراً تبلغ الاستنارة. فإذا تخلت الحيوانات عن كل عنف فإن باستطاعتها أن تولد ثانية في السماء. والقاعدة ذاتها تنطبق على الكائنات البشرية التي تستطيع أن تبلغ الموكشا إذا لم تؤذي زملائها المخلوقات. وما لم يكتسب الزاهد هذه النظرة المتعاطفة مع العالم، فليس باستطاعته بلوغ الموكشا.

بالنسبة لماهافيرا الانعتاق كان اللاعنف. عندما توصل إلى هذه النظرة في سن الثانية والأربعين، بلغ الاستنارة مباشرة. فوفقاً لأقدم النصوص كان يعيش في ذلك الوقت في حقل بجنب نهر(112). صام يومين ونصف، لم يشرب ماءً، وعرض نفسه لوهج الشمس، وبلغ كيفالا Kevala، أي معرفة فريدة أعطته منظوراً مختلفاً تماماً. فكان باستطاعته أن يفهم من خلالها جميع مستويات الحقيقة بشكل متزامن في كل بعد زمني ومكاني، وكأنما كان إلهاً. أما بالنسبة لماهافيرا فإن إلهاً ما كان مجرد مخلوق قد بلغ كيفالا من خلال فهم واحترام الروح الإلهية التي كانت موجودة في كل مخلوق.

من الطبيعي أن تكون هذه الحالة العقلية لا يمكن وصفها، لأنها كانت تتعالى عن الوعي العادي. كانت حالة مودة مطلقة مع جميع الكائنات، مهما كانت دونية. في هذه الحالة المستنيرة من الوجود «الكلمات تعود بلا جدوى، ولا يمكن صياغة أقوال من منطق دنيوي، والعقل لا يستطيع سبر عمقها». عليك أن تتكلم عنها بالقول فقط «لا هذا... ولا هذا». عندما يكون شخص مستنير قد بلغ هذه النظرة، فإنه سيجد أن «لا شيء يمكن مقارنته بها، وجودها دون شكل... إنها ليست صوتاً، ولا شكلاً، ولا روحاً، ولا سماء، ولا لمساً، ولا شيء مثيل ذلك»(113). لكن ماهافيرا كان مقتنعاً أن من اتبع طريقته فإنه نال آلياً هذه الحالة التي لا سبيل إلى فهمها، ويصبح Jina، ومن هنا عرف أنصاره باسم Jains ودهارماه كانت «طريقة المنتصرين».

كان ماهافيرا Kshatriya. اعتقد أنه كان الأخير في سلسلة طويلة من النساك الذين عبروا نهر dakkha لنيل الانعتاق. وبعد وفاته، طور أتباعه تاريخاً قبلياً مفصلاً زاعمين أنه كان هناك أربع وعشرون من هؤلاء الذين اكتشفوا الجسر إلى موكشا. كل واحد كان Kshatriya، كانوا جسدياً أقوياء وجميلين وشجعاناً كالأسود. ماهافيرا ـ البطل العظيم كان يقدم روحاً عامة بديلة إلى طبقة المحاربين. فالنزعة البطولية الجديدة رفضت القتال كلياً، لكنها كانت تتطلب الشجاعة الخاصة بها. وفي مرحلة لاحقة سيرعى الملوك والمحاربون هذه الطائفة ـ هؤلاء الملوك والمحاربون الذين لم يكونوا قادرين أن يتخلوا عن واجباتهم العسكرية، لكنهم كانوا يأملون أن يفعلوا ذلك في المستقبل. بالرغم من تكريس الدهارما لعدم العنف، لكنها استخدمت رموزاً عسكرية كثيراً. فالناسك Jains كان محارباً يقاوم غرائزه المقاتلة، وينحي جانباً التأثيرات السيئة للعدوان الذي كان سمة جميع الناس غير المستنيرين. الناسك سوف ينتصر، مجد لنفسه ولأسرته ولجماعته بحياته ahimsa مثل جندي في ساحة المعركة. أتباع Jain كانوا يسمون «جيشاً». فلكي يصبح المرء Jina كان يتطلب البسالة، والتصميم، وألا يرحم المرء نفسه، وهذه كانت علامات البطل حقاً.

قلة من الناس اتبعت المثل الأعلى اللاعنف باستمرارية لا تلين مثلما فعل ماهافيرا. Jains اللاحقون سيطورون لاهوت أخرويات، ونشأة كون، وميتافيزيقاً رأت الكارما كشكل من مادة ناعمة ـ مثل الغبار، تنتجها جميع الخصائص المختلفة للأعمال المتنوعة، التي استقرت على الروح Soul، مثقلة إياها إلى أسفل، ومانعة إياها من التحليق إلى قمة الكون. ما نستطيع قوله هو أن ماهافيرا وأتباعه الأوائل لم يكونوا مهتمين بهذه المسائل، فاللاعنف كان واجبهم الديني الوحيد. جميع الممارسات الأخلاقية الأخرى كانت دون فائدة من دون اللاعنف Ahimsa التي لم يكن بالإمكان بلوغها حتى يكون Jain قد اكتسب التعاطف مع كل مخلوق: «جميع المخلوقات التي تتنفس، والموجودة، والحية التي تشعر يجب ألا تُذْبَحَ، ولا تعامل بعنف، ولا يساء إليها، ولا تعذب، ولا تطرد. هذا هو القانون الخالد الذي لا يتغير، والنقي الذي نادى به المستثيرون».

لم يكن هذا الفهم ـ طبعاً ـ موافقة مفهومية، إذ كان على Jains أن يصبحوا مدركين وعلى مستوى عميق أن هذه الكينونات الداخلية مثل الحجارة ظاهرياً، ولها روح Jiva، وكانت تتألم، وما من مخلوق يرغب أن يعاني، مثل أتباع هذه الطريقة.

أنجز هؤلاء الأتباع هذه الرؤية من خلال برنامج للزهد يجعلهم مدركين لهذه الحقيقة غير العادية. من خلال تعلمهم أن يسلكوا بطريقة مختلفة وجدوا أن نظرتهم قد تغيرت، وبدأوا يرون العالم جديداً. وكان عليهم أن يتنقلوا بحذر لئلا يسحقوا حشرة دون قصد، أو أن يدوسوا على ورقة عشب، وكانوا مطالبين أن يستلقوا على الأشياء بحذر، ومحظر عليهم التجوال في الظلام خشية أن يؤذوا مخلوقاً آخر ذي قيمة. لم يكن باستطاعتهم قطف ثمرة من شجرة، بل كان عليهم أن ينتظروا حتى تسقط إلى الأرض بملء إرادتها. كان Jains بحاجة لأن يأكلوا، وفي الأيام الأولى سمح لهم أن يقبلوا وجود اللحم في أوعية التسول شرط ألا يكونوا هم من ذبح الحيوان. المثل الأعلى كان الامتناع عن أي نشاط على الإطلاق، لأن أقل حركة، أو دافع جسدي قد يسبب ضرراً.

لكن لا عنف الـ Jains لم يكن سلبية كلها، لأنها مهتمة بعدم إيقاع الأذى. كان عليهم أن ينمو موقفاً متسامحاً إيجابياً تجاه جميع الكائنات. يجب أن تساعد جميع المخلوقات بعضها بعضاً. يجب أن يتعاملوا مع كل كائن بشري، وحيوان، ونبات، وحشرة أو حجر بمودة وإرادة خيرة، وبصبر ولطف. كان هؤلاء مثل اليوغيين اتبعوا خمسة محظورات (yama)، أقسموا أن يبتعدوا عن العنف، والكذب، والجنس، وعن السرقة، وعن امتلاك أرض. لكن تفسير الماهافيرا لهذه المحظورات كان مستمداً من نظرته إلى قوة الحياة في جميع الأشياء. من الطبيعي أن Jains الأوائل ركزوا على القسم الأول «أي عدم إيقاع الأذى» الذي طبقوه في أصغر تفاصيل حياتهم، لكن الأيمان الأخرى كانت مستمدة من روحية عدم العنف. على Jains الامتناع عن الكذب، وأن يكون كلامهم مقصوداً وتحت تحكمهم، من أجل استبعاد أية إشارة إلى عدم اللطف أو عدم الصبر. فالكلمات قد تؤدي إلى لكمات، لذلك يجب أن يتكلموا أقل قدر ممكن من الكلمات، ومن الأفضل ألا يقولوا الحقيقة إذا كان ذلك سيؤذي مخلوقاً آخر. أيمان Jain كانت مصممة لخلق موقف ترقب وحذر. لم يكن كافياً أن يمتنع Jains عن السرقة لأنه لم يكن باستطاعتهم تملك أي شيء على الإطلاق، لأن كل كائن لديه jivas الخاصة به والتي كانت سيدة وحرة(115).

في جميع الأوقات يجب أن يجعلوا أنفسهم مدركين لقوة الحياة في كل شيء حولهم. وإذا لم يرَ الناس هذا، فلن يكون باستطاعتهم التعامل مع أخوتهم المخلوقات، لكن هذا وضع Jains في قيد بطولي حقاً بدا أنه يقصر حياتهم عند كل منعطف. لم يكن مسموحاً لهم إشعال نيران، أو أن يحفروا، أو يحرثوا الأرض. بوسعهم أن يشربوا الماء المصفى فقط، وأن ينظروا فيما حولهم في كل مرة يخطون فيها خطوة، وأن يتجنبوا أية حركة غير محسوبة. فإذا ما عيشت الأيمان بهذه الطريقة، فإن Jains سيجد أنه قد بلغ درجة عالية من ضبط النفس، وتراحماً سيجلب له الاستنارة. كان الإحساس بالآخر أمراً حاسماً. فكما بشر ماهافيرا أن على Jain أن يكتسب «معرفة العلم» بحيث يكون قد فهم أن لكل

شيء قوة حياة مقدسة. فما أن يدرك هذه المعرفة، عليه أن ينمي «التراحم من أجل العالم»(116).

لقد وصل ماهافيرا إلى نسخته الخاصة من القاعدة الذهبية، كان على Jains أن يعامل الآخرين مثلما يحب أن يعاملوه. المعاناة dukkha التي تعم العالم كله سببها أفعال الناس الجهلة الذين لم يكونوا يدركون ما كانوا يفعلون عندما آذوا الآخرين. أن تتكر Jiva أخوتك المخلوقات كان ذلك مساوياً لإنكار نفسك الداخلية(117). لقد أرادوا الصداقة مع جميع الأشياء، ومع جميع الناس دون استثناءات مهما كانت. وعندما يبلغون هذا الموقف فإنهم سينالون الإستنارة حالاً. الموكشا لم تكن مكافأة تمنح إلى المستحقين من قبل إله يراقب. Jains لم يكونوا مهتمين بهذا النوع من اللاهوت، لكنهم وجدوا أن هذه الممارسة إذا ما طبقت بفاعلية، فإنها كانت تجلب لهم سلاماً متسامياً.

بعد أن بلغ ماهافيرا الاستنارة، ألقى أول تعاليمه عند قبر روح شجرة في ضواحي مدينة تشامبا Champa(118). الوصف التفصيلي الأول لهذه الحادثة موجود في نص متأخر نسبياً يعود إلى القرن الأول، لكنه أصبح مركزاً للتراث Jain. حضر ملك وملكة تشامبا ومعهما حشد هائل من الآلهة، والزهاد، والناس العاديين والحيوانات الذين استمعوا إلى «انجيل اللاعنف لدى ماهافيرا»، لقد كانت لحظة رمزية. في القربان الفيدي كانت الآلهة تجتمع كي تشاهد البشر يقتلون الحيوانات، لكن في تشامبا اجتمعت الآلهة والبشر والبهائم كي تستمع إلى الدعوة إلى اللاعنف ahimsa وتكوين مجتمع محب واحد. نظرة الوحدة هذه والتعاطف الكوني كان من المفترض أن يعلّم كل عمل في الحياة.

لم يكن Jains مهتمين باليوغا، لكنهم مارسوا التأمل الخاص بهم. كانوا يقفون دون حركة، أذرعتهم مرفوعة لكنها لا تلامس الجسم، والرهبان كانوا يكبتون بقوة كل فكرة عدائية أو دافع، بينما في الوقت ذاته كانوا يقومون بجهد واعٍ لملء عقولهم بالحب واللطف تجاه جميع الخلق(119). الخبير منهم سوف ينجز حالة تأملية تدعى Samayika «أي الاتزان» التي بها يعرف في نسيج من

شخصه أن جميع المخلوقات على سطح الأرض كانت متساوية، وفي هذا الوقت كان يشعر تماماً نفس الإرادة الخيرة تجاه جميع الأشياء، ليس عنده مفضلين، ولا مكروهين، ولا يميز كائناً واحداً مهما كان وضيعاً، أو غير جميل، أو تافهاً، عن نفسه. كانوا يقفون أمام معلمهم مرتين يومياً، وكفروا عن أي ضيق، عما تسببوا به دون قصد «بالمشي على بذور، أو نباتات خضراء، أو على الندى، أو على الخنافس، أو على أرض رطبة، أو على نسيج العنكبوت». وكانوا يختتمون بهذه الكلمات «إنني أطلب المغفرة من جميع المخلوقات الحية. فلتسامحني جميع المخلوقات كي أنال صداقة جميع المخلوقات، ولا أنال عداوة أي أحد»(120). المثل الأعلى الجديد لم يعد فقط الامتناع عن العنف بل تنمية طيبة وتعاطف ليس لهما حدود.

الفصل السابع

اهتمام بكل شخص

(من 450 إلى 398)

في إسرائيل، كان العصر المحوري يقترب من نهايته. ومع حلول النصف الثاني من القرن الخامس كانت أورشليم مدينة صغيرة مدمرة في زاوية مهملة من الإمبراطورية الفارسية. فالتحول الكبير كان يحدث عادة في مناطق كانت في طليعة التغير والتطور. لقد عانت إسرائيل ويهودا الكثير من القوى الإمبريالية، لكن هاتين الإمبراطوريتين قد جلبتا معهما ملامح آفاق أوسع وعالماً أكثر اتساعاً. كان عصر إسرائيل المحوري قد بلغ ذروته في بابل، العاصمة الإقليمية. وفي أورشليم لم يعد المنفيون العائدون في مقدمة الأحداث العالمية، بل عاشوا في حالة غموض لأن الكفاح من أجل البقاء كان له الأولوية على البحث عن نظرة دينية جديدة. فصول قليلة في سفر أشعيا قد تعبر عن هواجس الجماعة بعد إكمال بناء الهيكل الثاني(1). الحلم القديم لأشعيا الثاني لم يكن قد مات، لأن الناس كانوا ما يزالون يأملون أن يهوه سوف يخلق «سماء جديدة وأرضاً جديدة» في أورشليم حيث لن يكون فيها بكاء، وألم الماضي سيكون منسياً(2). بينما تطلع آخرون إلى الزمن الذي ستفتح فيه مدينة الرب بواباتها إلى كل شخص.. إلى المنبوذين، والأجانب وenuchs ـ لأن يهوه قد أعلن «منزلي سيكون منزل صلاة لجميع الشعوب». ذات يوم سيجلب هؤلاء الغرباء إلى داخل المدينة، وسيسمح لهم أن يقدموا له القرابين على جبل صهيون(3). لكن في حقيقة الأمر، موقفاً استبعادياً أكثر قسوة أعلن نهاية العصر المحوري.

في نحو عام 445 عين حاكم جديد على أنه المندوب الفارسي في أورشليم. إنه نحميا ـ فرد من الجماعة اليهودية في سوسة Susa العاصمة الفارسية شغل منصب حامل الكأس للملك أرتحشتا الأول. لقد صدم نحميا أن يسمع أن أسوار أورشليم كانت ما تزال أنقاضاً، فتوسل إلى الملك أن يسمح له بالذهاب إلى يهودا وأن يعيد بناء مدينة أسلافه. وصل متنكراً، وذات ليلة خرج خلسة ليقوم بجولة حول التحصينات الخربة القديمة. بثغراتها وبواباتها المحروقة، وعند نقطة لم يستطع أن يجد مسلكاً لحصانه. وعندما عرف عن نفسه إلى الشيوخ في اليوم التالي بذلوا جهداً تعاونياً هائلاً لبناء الأسوار الجديدة في مدة 52 يوماً فقط. لكن العلاقات بين غولاه ـ أي جماعة المنفيين العائدين ـ وجيرانهم كانت قد تدهورت كثيراً لدرجة أنها كانت مهمة خطرة. كان على نحميا أن يتناقش مع معارضة قوية من بعض الأمراء المحليين: سنبلط sambullat حاكم Samerina في مناطق المملكة الشمالية القديمة، وTobiah أحد موظفيه، وغريشون حاكم أدوم Edom. بنيت الأسوار الجديدة وسط خوف وتوتر «كل واحد كان يقوم بعمله بيد، بينما كان يقبض على سلاحه باليد الأخرى. وبينما كان يعمل كل بنّاء كان يحمل سيفه على جنبه.»(4).

من الصعب جداً تحديد هذه الفترة، ومصادرنا الرئيسية هي سفرا عزرا ونحميا اللذان يتكونان من عدد من وثائق غير مترابطة لدرجة أن محرراً لاحقاً حاول ربطها. لقد افترض أن عزرا ونحميا كانا معاصرين لبعضهما، وجعل عزرا يصل إلى القدس أولاً. لكن هناك أسباب وجيهة تدعو لجعل مهمة عزرا في فترة لاحقة، خلال حكم أرتحششتا الثاني(5). لقد فعل نحميا الكثير لإنعاش أقدار المدينة، تمكن أن يزيد عدد السكان إلى نحو عشرة آلاف مواطن، وحاول أن يمنع اضطهاد النبلاء للفقراء. لكن أول عمل قام به في أورشليم كان بناء السور، وهذا كان ذا مغزى. في فترته الثانية في منصبه التي بدأت في نحو عام 432 سن نحميا تشريعاً جديداً لمنع أفراد المنفيين العائدين من الزواج من أسر السكان المحليين، حتى مع أولئك الإسرائيليين الذين رحلوا إلى المنفى. طرد

الكاهن الأكبر إلياشيب لأنه كان متزوجاً من ابنة سنبلط Sanballat. في المنفى كان بعض الكهنة قد حذروا من الذوبان في الأجانب. أما الآن فقد منع المنفيون العائدون من الزواج من أفراد كانوا فيما مضى أفراداً من أسرة إسرائيلية، لكنهم كانوا يعتبرون الآن غرباء وأعداء.

أثناء النفي، تم تشجيع عامة الناس على تبني قوانين الكهنة في النقاء، وهذا كان يعني أن اليهود العاديين كان يجب تلقينهم تفاصيل الشريعة الطقسية على يد خبراء. أحد هؤلاء الخبراء كان عزرا الذي «كرس نفسه لدراسة شريعة يهوه، ولممارستها، ولتعليم إسرائيل شرائعها وعاداتها»(6). من المحتمل أنه كان وزير الشؤون اليهودية في البلاط الفارسي. في هذه الفترة، كان الفرس يراجعون شرائع الشعوب الخاضعة لهم، للتأكد من أنها كانت ملائمة لأمن الإمبراطورية. كخبير قانوني في بابل، تمكن عزرا من صياغة تسوية مؤقتة مرضية بين التوراة والنظام القانوني الفارسي. كانت مهمته أن ينشر التوراة في أورشليم وأن يجعلها القانون الرسمي للبلاد(7). رأى الكاتب التوراتي مهمة عزرا كنقطة انعطاف في تاريخ شعبه: وصف رحلته إلى يهودا وكأنها خروج جديد، وقدم عزرا على أنه موسى جديد. عندما دخل عزرا أورشليم راعه ما رآه. كان الكهنة متواطئين مع جماعة إسرائيل بيتنا، واستمر الناس بالزواج من أجنبيات. فطوال يوم كامل، كان على سكان أورشليم أن يشاهدوا يائسين رسول الملك وهو يشد شعره ويجلس في الشوارع في وضعية حزن عميق. بعد ذلك طلب جميع أفراد الجماعة المنفية Golah إلى اجتماع، ومن يرفض الحضور سيطرد من الجماعة وتصادر أملاكه.

في عيد السنة الجديدة جلب عزرا التوراة إلى الساحة، ووقف على منصة خشبية، والمواطنون البارزون كانوا يحيطون به، وأخذ يقرأ التوراة ومعلقاً عليه أثناء قراءته(8). ليس لدينا فكرة عن النص الذي قرأه لهم، لكنه كان بالتأكيد صدمة للناس، فالحقيقة الدينية كانت تبدو دائماً مختلفة عندما تدوَّن وتقرأ بصوت عالٍ. انفجر الناس باكين، وصدموا بمطالب دين يهوه. كان على

عـزرا أن يـذكـرهـم أن هـذا كـان احتفـالاً، مناسـبة للبهجـة، ثـم تـلا الـنص الـذي كان يأمر الإسـرائيليين أن يعيشوا في سقائف booths خاصة خلال شهر Sukkoth إحياء لذكرى السنوات الأربعين في التيه. اندفع الناس عبر التلال كي يكسروا أغـصان الزيتـون والآس والـصنوبر والنخيـل ليبنـوا الـسقائف، كـان هنـاك جـو كرنفالي: كانوا يجتمعون كل مساء كي يستمعوا إلى عزرا وهو يقرأ الشريعة.

الاجتماع التالي كان مناسبة أكثر كآبة(9). عقد الاجتماع في الساحة أمام الهيكل، ووقف النـاس يرتجفـون مـن أمطـار الـشتاء الغزيـرة الـتي أغرقـت المدينـة. أمـرهـم أن يطـردوا زوجـاتهم الأجنبيـات، وتم إبعـاد النـسـاء والأطفـال مـن جماعـة Golah كـي ينـضموا إلى إسـرائيل بيتنـا. وهكـذا أصبحت العضوية في إسـرائيل مقتصرة علـى أحفـاد الملك داؤود، والـذين تم نفيهم إلى بابـل، وعلـى مـن كـانوا مستعدين للخضوع إلى التـوراة، الـشريعة الرسميـة لأورشـليم. ومندبـة المبعـدين قـد حفظت في سفر أشعيا

فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم

وإن لم يدرنا إسرائيل

أنت يا رب ولينا منذ الأبد اسمك.

قـد كـنـا منـذ زمـان كالـذين لم تحكـم علـيهم ولم يـدع علـيهم باسمك.(10)

المعاناة والهيمنة قد أدتا إلى استبعاد دفاعي كان غريباً عن الروح المنفتحة للعصر المحوري في المناطق الأخرى.

لكن ذلك المشهد البارد والماطر لم يكن نهاية القصة. فسفرا عـزرا ونحميـا يشكلان جزءاً صغيراً فقط من الكتاب العبري المقدس. أنـاس كثيرون كـانوا يـشاركونهم نظـرتهم، لكنهـا لم تكـن وجهـة النظـر الوحيـدة. خـلال القـرنين الخـامس والرابـع جمـع محـررون الكتـاب العبري، وضـموا إليـه التراثـات الأكثـر شمولاً لكل من إسرائيل ويهودا.

تراثات P التي أكدت على أن ما من كائنات بشرية كانت غير نظيفة، هيمنت على الأسفار الثلاثة الأولى من أسفار موسى الخمسة، وعدلت النظرة الاستبعادية لدى مؤلفي سفر تثنية الإشتراع. بينما ذكرت أسفار أخرى اليهود بأن الملك داؤود كانت أمه روث Ruth امرأة من مؤاب. وسفر يونان أظهر نبياً عبرياً أجبره يهوه أن ينقذ مدينة نينوى عاصمة الإمبراطورية الآشورية التي دمرت مملكة إسرائيل في عام 722. عندما اعترض يونان على الرب أجاب يهوه بكلمات كانت تتفق مع الكثيرين من حكماء العصر المحوري، وبخاصة نساك Jains: «أفلا أشعر بالحزن على نينوى المدينة الكبيرة التي فيها ما يزيد على مائة وعشرون ألف شخص لا يعرفون أيديهم اليمنى من اليسرى، ولا يمكنهم قول شيء عن جميع الحيوانات؟»(11).

الطور الأول من العصر المحوري لإسرائيل كان قد انتهى، لكن كما سنرى في الفصل الأخير إنها ستتعم بازدهارثان: يهودية الأحبار، والمسيحية والإسلام سوف تبني جميعها على الرؤى المحورية لإسرائيل، وتخلق ديناً قائماً على القاعدة الذهبية، وعلى روحانية التسليم، والتعاطف مع الآخرين، والاهتمام بكل امرئ.

* * *

بينما كان الأثينيون يدخلون النصف الثاني من القرن الخامس، على الرغم من النجاح الظاهري لمدينتهم كانوا يشعرون بعدم اليقين حيال المستقبل. برقليس قد أوصل دولة المدينة إلى أوج قوتها. والأبنية الجديدة للأكروبوليس كانت نصراً، النحاتون كانوا يبدعون أعمالاً مذهلة، واستمر الممثلون التراجيديون في تقديم روائعهم في مدينة ديونيسيا. وفي عام 446 توصلت أثينا وإسبارطة إلى هدنة لمدة ثلاثين عاماً، تقسم العالم الهيليني فيما بينهما. أثينا ستحكم القسم الإيجي بينما إسبارطة لها السلطة على اليابسة، واحتفظت بالبلبونيز. استطاعت أثينا أن تتطلع إلى فترة سلم ورخاء، مع ذلك بنى برقليس أسواراً دفاعية طويلة تحيط بالمدينة وبمرفأ برايوس Piraeus. أثينيون كثيرون كان مايزالون يشعرون أنهم ضعفاء، ومدركين تماماً أن شعوب دول المدن كانت تشعر بالاستياء من

حكمهم الإمبريالي. في عام 446 تكبدوا خسائر فادحة في بواتيا Boetia ، حاولت مدن أن تنشق عن معاهدة ديلان، وكان هناك حرب على ساموس Samos هدد الفرس بالتدخل فيها. لم تكن أثينا قوة عالمية رئيسية بل مجرد دولة مدينة واسعة قليلاً. كيف استطاع 40.000 رجلاً متحاربين أن يحكموا اليونان كلها؟ فالجيل الأصغر سناً لم يكن يستحسن هذا، وبما أنهم مولودون بعد معركة الماراثون، فقد عرفوا نجاحاً سهلاً فقط. كانوا يضيقون ذرعاً على برقليس الذي كان آنذاك في الستين من عمره، وكانوا مستعدين لأن يستمعوا إلى الأفكار الجديدة التي كانت تعج بها المدينة خلال ثلاثينات 430.

خلال هذه السنوات كان هناك تحول فكري رئيسي. بدأ الناس يشعرون بالإحباط والحيرة، خاصة أن مؤلفات الفلاسفة كانت تغدو مبهمة بشكل متزايد. زينون (ـ ، 490) تلميذ بارمنديز حاول أن يوضح صحة أفكار معلمه الجدلية من خلال صياغة سلسلة من المفارقات اللعوبة. قال بارمنديز: «أنه على الرغم من الدليل الذي تقدمه لنا حواسنا، إلا أن كل شيء كان ساكناً. وأوضح زينون هذا بالقول إن سهماً في طيرانه كان فعلاً ساكناً. في كل ثانية كان يشغل حيزاً مساوياً تماماً لنفسه، ولذلك كان دائماً في حالة استقرار، حيثما كان. فالذي يتحرك، يتحرك لا في المكان الموجود فيه ولا في المكان الذي لا يوجد فيه»(12). وقال زينون: «أنه كان محالاً ـ بالنسبة لأخيل ـ الذي كان يعدو أسرع من أي إنسان آخر، حتى أن يبدأ السباق في باناثينيا قبل أن يتمكن من إكمال المسار، كان عليه أن يقطع نصف المسافة قبل وصوله إلى تلك النقطة، كان عليه الوصول إلى ربع المسافة هناك. لكن هذا المسار من المحاكمة العقلية باستطاعته أن يستمر إلى ما لا نهاية. قبل أن يقطع أخيل أية مسافة، كان عليه أن يقطع نصفها(13). وبذلك، كان محالاً التحدث بعقلانية عن الحركة، لذلك كان من الأفضل ـ كما نصح بارمنديز ـ ألا نقول شيئاً عنها على الإطلاق».

أراد زينون أن يوضح العبث المنطقي للإدراك السليم، واكتشف أن الحركة كانت فعلاً تعاقب Immobi lities سكونيات بطريقة سوف تسحر فلاسفة

لاحقين. مناطقة Logicians صينيون سوف يطورون أحجيات مماثلة. لكن الكثيرين من معاصري زينون شعروا أن العقل كان يقوض نفسه، فإذا كان من المحال أن نصوغ أية حقيقة، فما هو الهدف من هذه المناقشات؟ الفيلسوف الصقلي إمبيدوقليس (495 ـ 435) حاول إعادة توظيف العالم العادي، وفي الوقت ذاته متبنياً بعضاً من رؤى بارمنديز. قال إن العناصر الأربعة كانت لا تتغير فعلاً، لكنها كانت تطوف وتندمج لتشكل الظواهر التي نراها. أناكساغوراس السمرني Smyrana (508 ـ 428) اعتقد أن كل مادة كانت تحتوي أجزاء من كل مادة أخرى، وعلى الرغم من وجود هذه الأجزاء لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. نجم عن ذلك، بما أنها كانت تحتوي على بذور كل شيء موجود، فإن باستطاعة أي شيء أن يتطور إلى أي شيء آخر تماماً. إنه /مثل Milesians/ حاول أن يجد المصدر الذي تطور منه كل شيء. لقد أسمى المصدر nous (أي العقل). هذا العقل الكوني كان إلهياً، لكنه لم يكن خارقاً للطبيعة، كان مجرد شكل آخر للمادة. بعد أن وضع العقل كل شيء في حالة حركة، لم يكن هناك شيء أكثر يمكنه أن يفعله. قوى الطبيعة غير الشخصية سيطرت واستمرت العملية دون توجيه. ديموقريطس (466 ـ 370) تخيل عدداً لا يحصى من أجزاء صغيرة جداً تدور في فضاء فارغ، أسمى هذه الأجزاء «ذرات»، وهذه الكلمة مشتقة من كلمة atamos «أي الغير قابل للتجزيء». الذرات كانت صلبة، لا يمكن تقسيمها ولا تدميرها، لكن عندما تصادمت إحداها مع الأخرى تلتصقان معاً وخلقت الأشياء المألوفة التي نراها حولنا. عندما تفترق الذرات، فإن الأشياء تنفصل وتفنى ظاهرياً، لكن الذرات استمرت لتخلق أشكال وجود جديدة(14).

لم يكن هؤلاء الفلاسفة مفكرين منعزلين، معزولين عن العالم في أبراج عاجية. كانوا مشاهير، فأمبيدوقليس ـ على سبيل المثال ـ زعم أنه كان إلهاً، وارتدى مئزراً أرجوانياً، وحزاماً من الذهب، وحذاء من البرونز، وكانت الحشود تتقاطر إليه كي تسمعه وهو يتكلم. بإلقاء نظرة على أقوالهم، يمكننا أن نرى

أن بعض هذه الحدوس كانت ممتازة. فعلماء فيزياء معاصرون سوف يطورون مفهوم ذرات ديموقريط، وامبيدوقيلس تخيل صراعاً كونياً بين الحب والكفاح Strife الذي كان يشبه الكهرطيسية ونظرية الانفجار الكبير(15). لكن لم يكن لديهم طريقة لبرهنة نظرياتهم، ولذلك مهما كانت بصيرتهم ذات معنى، فإنها بقيت خيالات. كانت الفلسفة تصبح بعيدة جداً عن الناس العاديين. هذه النظريات الخيالية للكون لم تجب على الحاجة البشرية، وسارت عكس الخبرة الأساسية. فإذا لم يكن باستطاعتك أن تثق بالدليل الذي تقدمه حواسك، فكيف يمكنك الوصول إلى أية استنتاجات؟ لماذا كان ينبغي على أي امرئ أن يصدق أفكار بارمنديز غير العادية أو ديمقريطوس، عندما لم يكن باستطاعتهم تقديم دليل سليم يدعمها؟ بينما كان الإدراك السليم قد تم تفكيكه بكل دأب على يد هؤلاء المناطقة (علماء المنطق) كان كثيرون يشعرون أنهم فاقدي الاتجاه. استمر العالم في إرباك العامة بهذه الطريقة. فرضيات كوبرنيكوس، وغاليلو، وتشارلزداروون جميعها سببت قلقاً عند طرحها للمرة الأولى. بشكل متزايد بدأ علماء الطبيعة هؤلاء يمارسون تأثيراً مماثلاً على معاصريهم الإغريق.

في نحو عام 460 حط أناكساغوراس رحاله في أثينا، وفي الحال أصبح شخصية مثار جدل. كانت هذه هي المرة الأولى التي أصبحت فيها أثينا - المدينة المتدينة - معرضة بشكل مباشر إلى هذه الأفكار الجديدة. الكثيرون كانوا قد وقعوا في المكيدة، بينما كان آخرون محبطين. أصبح أناكساغوراس مهتماً بالفلك، وقيل أنه تنبأ بسقوط نيزك في Thrace في عام 467. لكنه لم يستطع أن ينجز هذه المأثرة، لكن ربما أنه كان ما تزال تثيره قصص صخور متوهجة كبيرة ساقطة من السماء. في جميع الأحداث استنتج أن الشمس كانت صخرة، والقمر كتلة من الأرض. الأجرام السماوية لم تكن آلهة بل صخوراً حارة حمراء، وبدلاً من عبادتها يجب على الناس أن يبتعدوا عن طريقها(16). هذا النوع من الملاحظة ربما كان مألوفاً في إيونيا Ionia، لكنه لم يكن مقبولاً في أثينا.

حاولت حلقة جديدة من المثقفين إنزال الفلسفة إلى الأرض، وجعلها ذات مرجعية أكبر. كان لهم تأثيراً عميقاً على المفكرين الأثينيين، لكن الكثيرين وجدوهم مصدر قلق مثلهم مثل العلماء(17). لقد سموا Sophist (أي رجال حكماء). وفي مرحلة لاحقة سينقدهم كل من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو بقسوة، وكنتيجة لذلك تستخدم كلمة «حكيماً» في يومنا هذا لتصف شخصاً يستخدم جدالات مغلوطة خادعة. لكن هذا ليس منصفاً للحكماء الأصلاء الذين كانوا يبحثون جادين عن الحقيقة بطريقتهم الخاصة بهم، واعتقدوا أنهم كانت لديهم مهمة بالغة الأهمية. لقد قالوا إن الفلسفة قد اتخذت منعطفاً خاطئاً. غورغياس Gorgias حكيم من ليونتيوم Lontinum في صقلية سخر من المنطق الملتف لدى Milesian ومن الماديين الأيليين.

- *لا شيء مهما كان موجود.*
- *إن يكن موجوداً، سيكون من المحال تفسير ماهيته.*
- *إذا كان هذا ممكناً، سيكون من المحال إيصال التفسير إلى أي امرئ آخر(18).*

ما الهدف من إنكار الإدراك السليم وما نفع اللغة؟ بدلاً من خلق أوهام لا تصدق، حان الوقت لتطوير فلسفة تساعد الناس فعلاً.

نصب الحكماء أنفسهم مربين. لقد جعلت الديمقراطية بإمكان أي شخص موهوب أن يترك بصمته في المجلس إذا ما كان باستطاعته أن يتكلم ببلاغة وبأسلوب مقنع. لكن المنهاج العادي لم يكن يساعد الشبان على اكتساب هذه المهارات. كان الصبيان الإغريق يتعلمون القراءة، والكتابة والرياضة والكثير عن هوميروس، لكن تعليمهم كان ينتهي عند بلوغهم الرابعة عشرة. فدخل الحكماء لملء هذه الفجوة يقدمون تعليماً أعلى لمن كان باستطاعته دفع الأجر المطلوب. أحد أشهر الحكماء كان هيبياس الأيلي الذي كان متقناً لعدة فنون كان يعطي دورات في الحساب، وفي أساليب تقوية الذاكرة، والإحصاء، والتاريخ، والموسيقى، والشعر، والرياضيات. مثله مثل أمبيدوقليس كان

مشهوراً، ويلقي قصائده في الألعاب الأولمبية، وألقى محاضرات في حشود ضخمة. وكان أيضاً حرفياً يصنع ملابسه وأحذيته. هذا الاكتفاء الذاتي كان محور فلسفته. ينبغي أن يعتمد الناس على وجهات نظرهم الخاصة بهم، فبدلاً من تقويض الإدراك السليم حاول هيبياس وزملاؤه أن يعطوا تلاميذهم الثقة في إعمال عقولهم. لم يكن باستطاعتهم أبداً معرفة الحقيقة المطلقة، لكن بعد أن يدركوا أن كل الفكر كان ذاتياً، فإنهم على الأقل سيكونون متحررين من الوهم. أفكارهم كانت جيدة مثل أفكار أي شخص آخر، لذلك يجب عليهم أن يعتبروا أفكارهم لها السلطة العليا ومستقلة بذاتها.

لقد عالج الحكماء موضوعات كثيرة من موضوعات عصر المحور: الرغبة من أجل التحرر، والاستقلال الذاتي، والنزعة الفردية، والمقدرة على الوصول إلى الناس العاديين، بدلاً من اقتصار المعرفة على نخبة قليلة. لكن كان هناك فارق أساسي. فحتى هذه الفترة لم يبد الإغريق رغبة بتحول جذري، مماثلاً للتحول الذي سعى إليه اليوغيون. كان لديهم إحساس قوي بقدرتهم ككائنات بشرية، لكن كان اهتمامهم قليلاً بالوجهة التي قد يأخذهم هذا إليها. لقد ركزوا على ما كانوا هم عليه بدلاً من أن يركزوا على ما قد يصبحون(19). ركزوا على الحاضر وبشكل رئيسي كانوا مهتمين بـ Techne ـ تقانة ستجعلهم أكثر تأثيراً هنا والآن. لم يكن الحكماء يريدون تقانة ستأخذهم خارج هذا العالم، ولم يكن لديهم طموح لخلق نوع من شخص مختلف، بل ببساطة أرادوا تحسين المهارة الدنيوية في تلاميذهم. فبدلاً من إنكار الممتلكات، كانوا حريصين على كسب المال. فلاسفة آخرون كرهوا هذا، غير أن الحكماء لم يكونوا مرتزقة دنيئين. لقد اعتقدوا مخلصين أنهم كانوا يؤدون خدمة قيمة في مساعدة مواطنين عاديين على اغتنام فرصهم الجديدة، بغض النظر عن المولد والمكانة الاجتماعية.

أعطى بعضهم دروساً في البلاغة وفن الإقناع. فعلى سبيل المثال ألف غورجياس عدة كتيبات حول التكلم أمام الناس، وعلّم تلاميذه أنه كان ممكناً أن يجادلوا في أية قضية. وذات مرة كتب دفاعاً شهيراً عن هيلانة طروادة

التي لا يمكن الدفاع عنها، وهو شخصياً كان محاضراً ساحراً. عندما وصل إلى أثينا كسفير لونتيوم في عام 427 أصبح غورجياس مشهوراً بين ليلة وضحاها، واحتشد الشبان الأثينيون لحضور دروسه. أحد هؤلاء التلاميذ كان السيبيادس ابن أخت برقليس الذي ألحق هزيمة مدوية بخاله في جدال حول الديمقراطية باستخدام أساليب الحكماء. فأصبح خطيباً لامعاً في المجلس، كما سنرى، وكان لهذا عواقب مرعبة على أثينا. لقد أساء بعض تلاميذ الحكماء استخدام المهارات التي تعلموها، لكن هذا لم يكن ذنب الحكماء. اعتقد غورجياس أن البلاغة المؤثرة أبقت الحرية حية. فشخص كان يفهم فعلاً كيف يدير نقاشاً كان باستطاعته الدفاع عن البريء، وأن يطور مدينته. في ديمقراطية الخطيب أنتيفون Antiphon الأتيكي نوه مرة: «الفوز يمضي إلى من يتكلم بأسلوب أفضل»(20). وهذه لم تكن ملاحظة ساخرة، بل قول حقيقي حول كيف كانت الديمقراطية تعمل. فإذا لم يكن النصر حليف الشخص الذي جادل بالأسلوب الأكثر إقناعاً في المجلس، فإن باستطاعة مهارة الحكماء إثبات أن الحق كان سائداً.

لم يركز جميع الحكماء على الخطابة. الحكيم الأعلى مكانة كان بروتاغوراس من أبدرا Abdera الذي كان قليل الاهتمام بالبلاغة. اختصاصه كان القانون والحكم، لكنه كتب أيضاً في اللغة والقواعد، وأنتج كتيباً فلسفياً في طبيعة الحقيقة. وصل إلى أثينا في ثلاثينات 430 وأصبح صديقاً لبرقليس الذي كلفه بكتابة دستور المستوطنة الجديدة في Thurrii في إيطاليا. لقد عَلَّم طلابه أن يسائلوا كل شيء، ويجب ألا يقبلوا شيئاً منقولاً سماعياً، أو متداولاً، بل أن يختبروا جميع الحقائق وفقاً لتقديرهم وخبرتهم. ينبغي ألا يكون لديهم تأملات استغراق ذاتي حول الكون إذا لم تكن مدعومة بدليل قوي. الاتكال الساذج على الأساطير التراثية كان أمراً غير مقبول، إذا ما تناقضت مع قوانين الإدراك السليم.

عَلَّم الحكماء الشك المنهجي في وقت قلق يزداد عمقاً. لقد سافروا كثيراً، وعرفوا أن حضارات أخرى كان لديها عادات مغايرة كانت تفعل بشكل

مثالي، واستنتجوا أنه ليس هناك حقائق مطلقة. فحيث انتقد بارمنديز وديمقريط الاقتناع الذاتي بقسوة، تبناه بروتاغوراس. فما يعتبره شخص حقيقة ستكون مختلفة عن حقيقة جاره. لكن ذلك لم يكن يعني أنها يتوجب استبعادها على أنها زائفة، وإدراك كل شخص كان صحيحاً بالنسبة له. وبدلاً من رؤية الحقيقة على أنها حقيقة لا يستطيع عامة الناس الوصول إليها، قال بروتاغوراس أن كل امرئ له نصيب منها، الشخص بحاجة لأن ينظر بعقله هو: «مقياس جميع الأشياء هو الإنسان» «بالنسبة للأشياء التي تكون، فإنها تكون، والأشياء التي لا تكون، فإنها لا تكون»(21)، هذا ما كتبه في كتابه المعرفي. يجب على الفرد أن يعتمد على محاكمته الشخصية، لم يكن هناك مرجعية متعالية، ولا إله متعالٍ يفرض رأيه على البشر.

وجد بعض الأثنيين هذا مُحرِّراً، واكتشفوا أن عادة مساءلة افتراضات أساسية فتحت أمامهم أبواباً جديدة، وأعطتهم رؤى جديدة حول الدين. أحد هؤلاء هو المؤلف المسرحي يوريبيديس (480 ـ 406) الذي في بيته قرأ بروتاغوراس كتيبه الشهير عن الآلهة. بدأ بالقول: «بما يتعلق بالآلهة، ليس لدي وسيلة لمعرفة ما إذا كانت موجودة أم لا، ولا أعرف شكلها، لأن هناك عوائق كثيرة لبلوغ هذه المعرفة، من ضمنها غموض الموضوع، وقصر مدة الحياة البشرية» (22). فدون معلومات كافية، لم يكن باستطاعته أن يقول شيئاً عن الإلهي، بكل بساطة طبق قاعدة بارمنديز على اللاهوت. فحقيقة الآلهة كانت غير قابلة للإيضاح، وبالتالي لا يمكن أن تكون موضوعاً ملائماً سواءً للمعرفة أو للحديث.

سَبَّبَ الكتيب ضجة. ففي عام 432 أصدرت المدينة قانوناً جعل تدريس مثل هذا الكتيب يعد زندقة، وعلى إثرها تم طرد بروتاغوراس وأناكسوغوراس من أثينا. لكن بقيت نزعة الشك الجديدة، وعُبِّرَ عنها بكل بلاغة في مآسي يوريبيديس الذي كان يطرح دائماً أسئلة صعبة عن الآلهة: هل كانت الآلهة موجودة؟ وهل كانت خيرة؟ وإذا لم تكن كذلك كيف يكون للحياة معنى؟ لقد كان يوريبيديس شديد التأثر بالحكماء. في حوالي هذه الفترة كتب قائلاً:

«هل تعتقد أن هناك آلهة في السماء؟ كلا لا يوجد شيء كهذا، ما لم يكن المرء مصمماً أن يتعلق بغباء بحكايات الجن القديمة... فكر بنفسك: لا تأخذ كلمتي فقط في هذا الموضوع» (23). تجربته الشخصية كانت صرخة مدوية ضد الأساطير القديمة. فالطغاة قتلوا ونهبوا، مع ذلك كانت أحوالهم أفضل من الناس الذين عاشوا حياة محترمة. لقد دُفع بطله هرقل - ابن زيوس - إلى الجنون على يد الإلهة هيرا، وفي هذا الجنون المستمد إلهياً قتل زوجته وأطفاله. فكيف يستطيع امرؤ أن يقبل إلهاً كهذا؟ «من سيصلي لإله كهذا؟ هذا ما سأله هرقل ملك أثينا Theseus في خاتمة المسرحية. «هذه الحكايات هي مجرد أساطير شعراء بائسة»(24). بيد أن يوريبيديس لم يرفض كلياً الإلهي. فمن خلال مساءلة لا ترحم للقصص القديمة، كان يبدأ بتطوير مثيولوجيا جديدة. لقد أكد أن «العقل في كل واحد منا هو إله»(25). في مسرحيته /نساء طرواديات/ جعل المفجوعة والمهزومة هيكوبا Hecuba - زوجة بريام - تصلي إلى إله مجهول: «يا من تعطي الأرض دعماً، ومن خلالها تنال دعماً، كائناً من تكون، القدرة خارج معرفتنا - زيوس - كن أنت قانون طبيعة قاسٍ أو قانون ذكاء في الإنسان، إليك أرفع صلاتي، لك مباشرة في سبيل العدالة جميع الأمور الفانية متحركة بإيقاع لا ضجة له»(26).

في عام 431 قدمت مسرحية /ميديا/ في مدينة ديونيسيا. إنها تحكي قصة امرأة من Colcehis تزوجت من جاسون، وساعدته في العثور على الخبرة الذهبية، لكن بعدئذ أهملها زوجها بكل قسوة. انتقاماً لذاتها قتلت زوجة جاسون الجديدة، وأباه، وأخيراً قتلت الأبناء الذين أنجبتهم له. لكنها لم تكن مثل أبطال سابقين، فميديا لم تكن تعمل بناء على أوامر إله، بل كانت مدفوعة بلوغسها الملزم. مجادلة ضد غرائزها الأمومية القوية، ورافعة اعتراضات على خطتها الرهيبة من أجل أن تقضي عليهم. أدركت أن ليس باستطاعتها أن تعاقب جاسون فعلاً ما لم تقتل أبناءهما. العقل كان يصبح أداة مخيفة، قد يقود الناس إلى خواء روحي وأخلاقي، وإذا ما استخدم ببراعة قد يجد أسباباً قوية الحجة لارتكاب أعمال وحشية ومدمرة. كانت ميديا ذكية جداً أكثر مما يجب لتجد

الانتقـام الأكثـر فاعليـة، وقويـة أكثـر ممـا ينبغـي كـي تحجـم عـن تنفيـذ انتقامها(28). إنها كانت تصلح لأن تكون تلميذة غورغياس.

ممارسة المنطق كانت جزءاً أساسياً من التطهير المأساوي. وأرسطو سيقول لاحقاً «المقدرة أن نحاكم جيداً» كانت شرطاً أساسياً لبلوغ الإحساس المطهر بالشفقة (28). دون قدرة تحليلية لن تستطيع رؤية وجهة نظر الآخر. بالنسبة للإغريق، لم يكن المنطق تحليلاً بارداً، بل كان مشحوناً بالإحساس. كانت النقاشات في المحاكم والمجالس انفعالية ودرامية مثل الانفعالات على خشبة المسرح، وهنا أيضاً تعلم المواطنون نشوة «الخطو خارج» أنفسهم والانتقال نحو منظور مختلف(29). العقل قد يُجبر مستمعاً أن يشعر بالرحمة على أناس قد يبدون أنهم لا يطالبون بتعاطفهم. تابع يوريبيديس التراث المأساوي بالوصول إلى الآخر من خلال الشعور بأحاسيسه، حتى نحو ميديا وهرقل اللذان ارتكبا هذه الأفعال الشائنة. في نهاية المسرحية /هرقل/ أبدى ثيسيوس تعاطفه مع الرجل المحطم المدنس. عندما اقتاد هرقل خارج خشبة المسرح لف البطلان ذراعيهما كل منهما حول الآخر في «نير الصداقة»، وندب الكورس «بحزن ودموع كثيرة... لأننا اليوم فقدنا أنبل صديق لنا»(30). فهذه الكلمات علمت المتفرجين أن يبكوا أيضاً. وهذا كان تعاطفاً ديونيسياً «الخروج من» أهوائنا الكامنة وتصوراتنا المسبقة إلى فعل رحمة الذي ربما كان مستحيلاً قبل المسرحية.

عندما قدم يوريبيديس /ميديا/ حكى قصة امرأة جادلت نفسها في جريمة مروعة. متفرجوه ربما رأوا إشارة إلى المناظرة المطولة في المجلس الأثيني، التي بعد مناورة سياسية ملتبسة جداً رمى العالم الإغريقي في حرب البلبونيز. في عام 431، بينما كان المتفرجون يشاهدون المسرحية، كان الاستعدادات لهذا الهجوم جارية على قدم وساق. كانت خطة بيرقليس ترمي إلى إنقاذ الإمبراطورية على حساب أتيكا Attica. أمر جميع سكان الريف بالانتقال إلى المدينة، فاحتشد نحو مائة ألف مواطن من المقاطعات الريفية داخل أسوار أثينا، وفي الوقت نفسه كان الإسبارطيون يحرقون وينهبون ريف أتيكا، والأسطول الأثيني يدمر البلبونيز. وفي

عـام 430 جعل تفشي الطـاعون المدينـة الـشديدة الازدحـام جحيمـاً حيـاً. مـات نحـو عشرون ألـف شـخص أي 20٪ مـن الـسكان. وسـط خـوفهم وحـزنهم بينمـا كـانوا يشاهدون المؤمنين يعانون إلى جانب غير المؤمنين فقد أثينيون كثيرون كل إيمـان بالآلهة. كما فقدوا ثقتهم أيضاً ببيرقليس الـذي أزيح عـن منصبه. مـع ذلـك أعيد تعيينـه بعـد بـضعة أشـهر، قبـل أن يتـوفى في خريـف 429. في هـذه الأثنـاء، كـان الطـاعون قـد تفـشى في أثينـا، ووصـلت الحـرب إلى نهايتهـا. نهـب الإسـبارطيون والأثينيون مناطق بعضهم، ونـادراً مـا التقـوا في ميـدان معركـة، ولهـذا الـسبب لم يكـن أي من الطرفين يدعي نصراً حاسماً.

بعد شهور قليلة على موت بيرقليس قدم سـوفوكليس /أوديـب الطاغيـة/ في مدينة ديونيسيا. افتتحت المسرحية في طيبـة الـتي قـد ضـربها الطـاعون لمقتل الملك لايوس والـد أوديـب، دون أن ينـتقم أحـد لـه. أطلق أوديـب تحقيقـاً، فاكتشف أنـه كـان قاتـل أبـاه دون أن يـدرك ذلـك، وتـزوج أمـه دون أن يعـرف ذلـك أيـضاً. قـال الحكماء: إن الإنسان حر ومستقل، وباستطاعته التحكم بحياته الخاصة. لكـن هل كـان الفرد مسؤولاً تماماً عن أفعاله مثلما طالب القانون الأثيني؟ حتـى عنـدما كـان شخص يفكر بدقة في خطة، ألم يكـن المعنـى التام وأصل أفعاله تراوغـه؟ ألم تكـن تبقى غير جليـة؟ طـوال حياتـه حـاول أوديـب أن يتـصرف بـشكل سـليم، وأخذ باستمرار النصيحة الأفضل المتوفرة لديه. فمـن خـلال عـدم ارتكابـه خطـأ، فقـد أصبح شخـصية كـالغول، مـدنس مدينتـه، مـشوه بأعمـال قـد فـشل في فهـم معناها في حينها. لقد كـان مذنباً وبريئاً، فاعلاً وضحية في الوقت ذاته.

أوديـب كـان مـشهوراً بالحكمـة. لقـد أنقـذ طيبـة عنـدما حـل لغـز الغـول سفينكس. لقد اقتُرِحَ أن اسمه ربما اشتُقَ من كلمة Oida أي «أنـا أعـرف». لكـن اتضح أنه كـان نقيض ما اعتقد نفسه أنه كـان، لقد كـان جـاهلاً بشكل قاتـل. الحقيقـة كـانـت لا تلقـى دعمـاً، وفي حركـة مرعبـة أضـافها سـوفوكليس إلى القصة الأصلية ـ عندما علم أوديب ما فعله فقأ عينيه(31). وبالرغم من أنـه اشـتهر بالمعرفة، لكنه في حقيقة الأمر كـان أعمى عـن الحقيقـة. تمثيله بنفسه قد أخذ أوديـب إلى حـدود المعرفـة، خـارج الكـلام والتـصور ـ تقريبـاً في سـخرية مـن رؤيـة

صوفية. بدأ المسرحية ملكاً مبجلاً من قبل رعاياه كإله، وانتهى مجرماً دنساً، جلب لعنة الموت والمرض إلى مدينته.

لكن رحلته لم تنته. عمى أوديب جلب له هشاشة عاطفية تامة(32). كلامه الآن داخله عبارات تعجب (آي آي ai ai، آي آي ai ai... أيون... ion)، أوديب تعلم الأسى. عندما خرج إلى ابنتيه البائستين اسمينة Ismene وأنتيجون، نسي نفسه في إشفاقه على محنتهما. الكورس أيضاً كان ممتلئاً رعباً، خوفهم كان كبيراً لدرجة أنهم في البداية لم يستطيعوا أن ينظروا إلى وجه الرجل الذي مَثَّلَ بنفسه. لكن هذا المنظر لمعاناة لا يمكن التعبير عنه علمهم الرحمة، وبدأ خوفهم يتلاشى بينما كافحوا كي يفهموا عمق ألم أوديب. بدأوا يتحدثون إليه بلطف، وينادوه «صديقي» و«الشخص العزيز»(33). كما هي العادة في المأساة، تعاطفهم أصدر أمراً إلى المتفرجين طالباً منهم أن يشعروا بالرحمة على رجل كان مذنباً بجرائم كانت - عادة - تملؤهم بالاشمئزاز. المتفرجون سيشعرون بالتسامي وهم يغادرون افتراضاتهم السابقة خلفهم في حالة تطهير وتعاطف. عندما انسحب أوديب أخيراً من على المسرح، وتوارى في قصره، كان قد تعلم درس المعاناة الذي أرد كتاب المآسي أن يلقنوه. لكن تعريف هذه المعرفة الجديدة أمر صعب. فما تعلمته الشخصيات والمتفرجون كان تعاطفاً جلب تطهيراً منقياً. كان على أوديب أن يتخلى عن يقينيته، وعن وضوحه، وبصيرته المفترضة كي يصبح مدركاً للالتباس القاتم للشرط البشري. الحصافة التي جلبت له مثل هذه المكانة المرموقة، كان يجب أن تفككّ بشجاعة كبيرة تقبل عقابه، على الرغم أنه لم يكن يستحقه. كان الآن منقطعاً تماماً عن الكائنات البشرية الأخرى. في المنطق القديم للدين الإغريقي لقد أصبح محرماً (تابو taboo) شخصاً منفصلاً، معزولاً، ولذلك مقدساً. في مسرحية أوديب في كولونس Colonus التي كتبها سوفوكليس في أواخر حياته، سيتم تمجيد أوديب - ويؤله تقريباً - عند موته، وقبره سيصبح مصدر بركة لأثينا التي منحته ملجأ(44).

أثناء عقد عشرينات 420، بينما استمرت حرب البلبونيز، ومجزرة تتلو مجزرة، أصبح فيلسوف جديد شخصية مشهورة في أثينا، كانت شخصيته رثة، ولم تكن على شاكلة الحكماء الأذكياء. لم يكن مهتماً بكسب المال، وكانت ترعبه فكرة فرض قسط مالي على طلابه. رجل قبيح الشكل، شفتان متدليتان، أنف مسطح معقوف إلى أعلى، وكرش كبير، هذا هو سقراط ابن قاطع أحجار. استطاع أن يدفع ثمن السلاح مما سمح له أن يتم قبول مشاركته في جيش المشاة، فشارك في حرب البلبونيز. بالرغم من أصوله المتواضعة جذب سقراط مجموعة صغيرة من التلاميذ من أفضل الأسر في أثينا، هؤلاء كانوا مفتونين به وكانوا يجلونه كبطل فلسفة. كان سقراط يتحدث إلى أي امرئ. في الحقيقة كان بحاجة إلى محادثة، مع ذلك كان أيضاً قادراً على القيام بتجريدات عميقة. فأثناء حملة عسكرية أدهش زملاءه المشاة بالوقوف دون حركة طوال الليل مصارعاً مشكلة فكرية. وفي مناسبة أخرى، كان في طريقه إلى مأدبة غداء، فسقط في دراسة عميقة، وتأخر عن رفاقه، وأخيراً قضى المساء مستغرقاً في التفكير عند باب جاره، قال أحد أصدقائه «إنها عادة من عاداته، كما تعلم»، «يذهب بعيداً، وهناك يقف، لا يهم أين يكون»(35). لكن فكره كان عملياً بكل عمق. كان سقراط مقتنعاً أن لديه مهمة أن يجلب أخوته الأثينيين إلى فهم أنفسهم بشكل أفضل.

المحادثة مع سقراط كانت تجربة مزعجة. وأي امرئ شعر أنه على علاقة فكرية معه «كان ملزماً أن ينجر إلى نقاش معه، وأياً كان الموضوع الذي يبدأ به، سوف يقلبه مراراً، حتى يجد في النهاية أن عليه أن يقدم عرضاً لحياته الماضية والحالية، وعندما كان يريد أن يعلق فلن يتركه سقراط يمضي حتى يكون قد نخله تماماً»(36). كما قال عنه صديقه نيسياس Niceas. لم تكن غاية سقراط أن يوصل معلومات، بل أن يفكك تصورات الناس المسبقة، ويجعلهم يدركون أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً على الإطلاق. التجربة كانت صورة ملطفة من التراحم الذي تحمله أوديب. أنت لم تنل معرفة حقة متداولة، لقد كان شيئاً ما وجدته أنت بعد صراع مؤلم فقط كان يشمل حياتك كلها. لقد كانت

إنجازاً بطولياً. نهجاً لم يكن مسألة الموافقة على حقائق أو أفكار قليلة، بل كان يطالب الطالب أن يتحرى حياته الماضية والحاضرة كي يجد الحقيقة فيها.

وصف سقراط نفسه على أنه مثل قابلة: كان يجلب الحقيقة إلى الولادة داخل محاوريه، عادة ما كان يبدأ الحديث بأفكار محددة واضحة قيد النقاش حول الموضوع. لاخيس Laches ـ قائد عسكري ـ على سبيل المثال ـ كان مقتنعاً أن الشجاعة كانت سمة نبيلة. لكن سقراط أوضح له بعد أن جمع أدلة وقدم مثالاً تلو آخر وتوصل إلى أن العمل الشجاع كان في أغلب الأحيان تهوراً وغباءً، سمتان كانا يعرفان أنها وضيعة وضارة لنا. دخل نيسياس ـ قائد آخر ـ الحوار واقترح أن الشجاعة تتطلب الذكاء لتقدير الرعب لأن الحيوانات والأطفال الذين تنقصهم التجربة لا يستطيعون أن يفهموا خطورة ظرف ما، وبالتالي لم يكونوا شجعاناً فعلاً. أجابه سقراط أن جميع الأشياء المخيفة التي نخافها تقع في المستقبل، وبالتالي غير معروفة لنا، لذلك من المحال فصل معرفة المستقبل سواءً خيراً أم شراً عن خبرتنا بالخير والشر في الحاضر والماضي. إننا نقول إن الشجاعة واحدة من الفضائل، لكن من كان شجاعاً حقاً لا بد أن يمتلك مزايا الاعتدال، والعدل، والحكمة والصلاح لكونها أساسية للشجاعة. فإذا أردت أن تنمي إحدى الفضائل فإنك أيضاً بحاجة لأن تتقن الفضائل الأخرى. وبالتالي فضيلة واحدة مثل الشجاعة يجب أن تكون متطابقة مع جميع الفضائل الباقية. في نهاية الحوار كان عليهم أن يعترفوا ـ على الرغم من أنهم جميعاً قد عانوا من المرض النفسي لميدان المعركة، ويجب أن يكونوا خبراء في الموضوع. إلا أنهم كانوا غير قادرين أبداً أن يعرّفوا الشجاعة. إنهم لم يكتشفوا ماهيتها، بالتالي لم يستطيعوا أن يقرروا ما الذي يميزها عن الفضائل الأخرى، فشعروا بحيرة عميقة. كانوا جهلاء وكانوا بحاجة لأن يعودوا إلى المدرسة، مثلما يفعل الأطفال(37).

ابتكر سقراط الجدل (الديالكتيك)، حوار دقيق مصمم لكشف المعتقدات الزائفة واستنباط الحقيقة من خلال طرح أسئلة وتحليل مضامين الإجابات، اكتشف سقراط وزملاؤه العيوب المتأصلة وعدم الاتساق في كل وجهة نظر. سيتم رفض تعريف تلو آخر، وغالباً ما كان ينتهي الحوار

بالمشاركين وهم يشعرون بالدوار والدهشة مثلما شعر كل من لاخيس Laches ونيسياس. لم يكن هدف سقراط التوصل إلى حل ذكي فكري ومُرْضٍ. كان الصراع عادة يفضي إلى الاعتراف أنه لم تكن هناك إجابة، واكتشاف هذه الفوضى كان أكثر أهمية من التوصل إلى نتيجة واضحة، لأنك ما أن تدرك أنك كنت لا تعرف شيئاً حتى تبدأ بحثك الفلسفي.

كان جدل سقراط نسخة عقلية إغريقية عن brahmodya الهندية، المنافسة التي حاولت صياغة حقيقة مطلقة، لكنها كانت دائماً تنتهي بالصمت. بالنسبة للهنود لحظة البصيرة Insight كانت تأتي عندما كانوا يدركون عدم كفاية كلماتهم، وبذلك يحدسون ما لا يمكن وصفه. في لحظة الصمت الأخيرة كانوا يشعرون بالبراهمن، مع أنهم لم يتمكنوا من تعريفه بشكل متماسك. وسقراط أيضاً كان يحاول أن يستخرج لحظة حقيقية عندما يرى محاوروه العمق المتأصل للجهل في البشر.

المعرفة المكتسبة بهذه الطريقة كانت غير منفصلة عن الفضيلة، وسقراط لم يكن يعتقد أن الشجاعة والعدل والتقوى والصداقة خيالات فارغة، على العكس من الحكماء، على الرغم من أنه لم يستطع أن يقدم تعريفاً لها. كان مقتنعاً أنها كانت تشير إلى شيء ما حقيقي وواقعي يقع خارج متناولنا. فكما توضح محاوراته لا تستطيع أن تحدد الحقيقة، لكن إن تعمل بجدية كافية فإنك باستطاعتك أن تجعلها واقعاً في حياتك. في نقاشه مع Laches لاخيس ونيسياس كان مهتماً بالشجاعة كفضيلة وليس كمفهوم. المعرفة كانت أخلاقاً. فإذا فهمت جوهر الخير فإنك تجد نفسك مضطراً لأن تتصرف بطريقة لائقة. وإذا كنت مربكاً أو كان فهمك للخير خدمة للذات أو سطحياً فإن أفعالك سوف تفشل في تلبية المعايير الأسمى. هدف الفلسفة ـ بالنسبة لسقراط ـ لم يكن تقديم نظريات عويصة عن الكون، بل الفلسفة كانت حول التعلم كيف نعيش. لماذا كان هناك شر كثير في العالم؟ لأن أفكار الناس كانت غير كافية عن الحياة والأخلاق. وإذا ما تعرفوا على عمق جهلهم فإنهم سيكونون في مكان أفضل ليعرفوا كيف يتصرفون.

من الصعوبة بمكان معرفة ما قاله أو فكر به سقراط تماماً، لأنه لم يدوِّن شيئاً. في حقيقة الأمر كان معترضاً على الكتابة التي - كما ظن - أنها تشجع التصور المفهومي المبتذل للحقيقة. مصادرنا الرئيسية هي حواريات مكتوبة كتبها تلميذه أفلاطون بعد سنوات على وفاته. كما أن أفلاطون نسب العديد من آرائه ومواقفه الخاصة إلى سقراط، خاصة في منتصف مؤلفاته، وفي المؤلفات اللاحقة. لكن الحوارات المبكرة مثل الحوار مع لاخيس Laches حول الشجاعة من المحتمل أن يعطينا فكرة دقيقة عن الطريقة التي اتبعها سقراط. إننا نرى أن هاجسه الرئيسي كان الخير الذي اعتقد أنه لا يتجزأ. بالتالي مفهوم سقراط للخير لم يكن مختلفاً عن مفهوم ren عند كونفوشيوس، وبدا أنه كان يصل إلى مفهوم متسامٍ للفضيلة المطلقة التي لا يمكن تصورها أو التعبير عنها بشكل كافٍ. وكما سنرى في الفصل التالي، سيجعل أفلاطون الخير هو المثل الأعلى الذي لا يمكن وصفه.

ربما كان سقراط يهدف إلى تقديم ما هو أكثر من الحيرة والإرباك اللذان يختتمان كل نقاشاته المدونة، فكان - كما بدا - هذا هو المدى الذي بلغه. فمن خلال الاستخدام القوي للوغوس اكتشف تسامياً عَدَّه جوهرياً للحياة البشرية. ومهما كانت الدقة التي قدر بها هو ورفاقه، فإن شيئاً ما كان يتملص منها دائماً. كان سقراط يتفاخر بالجهل الذي قد اكتشفه في قلب كل رأي مُتَبَنى بشكل راسخ، بصرف النظر عن إلى أية درجة كان مدعماً دوغمائياً. لقد فهم قلة ما كان يعرف، ولم يكن خجلاً من مواجهة حدود فكره مرة بعد مرة. وإذا ما شعر أنه كان لديه مستوى أعلى من آخرين، فذلك مرده فقط لأنه أدرك أنه لن يجد أبداً إجابات على الأسئلة التي طرحها. فحيث احتمى الحكماء من هذا الجهل في الفعل عملياً، فقد شعر به سقراط في نشوة كانت تكشف سر الحياة العميق. يجب على الناس أن يسائلوا افتراضاتهم الأكثر عمقاً. عند ذلك فقط يستطيعون أن يفكروا ويتصرفوا بطريقة صحيحة، وأن يروا الأشياء كما هي حقاً، وأن يصلوا إلى إلماحات تلك المعرفة الحدسية الكاملة التي ستجعلهم

يتصرفون بشكل حسن في جميع الأوقات، ومن لا يفعلون ذلك يمكنهم أن يعيشوا حياة نفعية وسطحية. فكما شرح في واحدة من أقواله التي لا تنسى «الحياة التي لم تُجَرَّبْ لا تستحق أن تعاش»(38).

أن تفشل أن تفكر بعمق عن معنى كان خيانة للنفس. اكتشاف النفس كان واحداً من أهم إنجازات سقراط وأفلاطون. النفس ـ ليست مثل أتمان منفصلة عن الجسد، وقد وجدت قبل ولادة الفرد وستبقى بعد موته. لقد مكنت الكائنات البشرية أن تعقل، وألهمتهم أن يسعوا إلى الخير. تنمية النفس كانت المهمة الأكثر أهمية، أكثر بما لا يقاس من تحقيق النجاح الدنيوي. النفس قد لحقها الأذى من الفعل الخاطئ، لكنها استفادت من الأفعال العادلة والحقة Right. «ينبغي ألا ننتقم أو نقابل الشر بالشر تجاه أي أحد، مهما كان الشر الذي لاقيناه منه»(39) كما قال سقراط في أواخر حياته: كان مغرياً أن نرد بالنوع ذاته، لكن الانتقام كان دائماً غير عادل، ولذلك كان أمراً أساسياً أن ندير الخد الآخر. كان هذا فراقاً دراميًا عن العادة الإغريقية التي كانت ترى الانتقام أمراً مقدساً، لكن سقراط أكد أن هذا كان السبيل الوحيد إلى السعادة، لأن السلوك المتسامح تجاه كل شخص كان مفيداً للنفس، سواء تجاه صديق أو عدو(40).

لم تُقَدَّمْ هذه الأفكار كعقائد. فعندما توصل أفلاطون إلى تدوين تعاليم معلمه كان عليه أن يبتكر الشكل الأدبي للحوار. فسقراط عَلَّمَ عن طريق النقاش ـ مثل كونفوشيوس ـ ولم يقترح أطروحة محددة. على كل شخص أن يجترح ما كان عادلاً وجيداً لنفسه في حديثه مع شخص آخر. في مسار هذا الصراع، سوف يشعرون باستنارة يتوصلون إليها بأنفسهم. الناس الذين أتوا إلى سقراط عادة، كانوا يعتقدون أنهم كانوا يعرفون ما يتحدثون عنه، لكن بجعلهم منهجياً مدركين لجهلهم قادهم سقراط إلى اكتشاف معرفة حقيقية داخلهم، والتي كانت هناك معهم. وعندما كان هذا يظهر إلى النور، بدا الأمر مثل تذكر رؤية Insight قد تم نسيانها. هذه الاستنارة ـ تقريباً اكتشاف رؤيوي Visionary ـ اعتقد سقراط أنه سوف يلهم الفعل الصحيح.

على شاكلة أي نوع من نقل شفوي، لم يكن الجدل السقراطي تدريباً دماغياً صرفاً، بل كان إدخالاً. عرض أفلاطون لهذه الحوارات السقراطية كان عابقاً بعاطفة عميقة قدمت الأفكار في كل مرحلة من الجدل. أصبح المشاركون مدركين لإلهام جلبهم إلى قلب وجودهم. كان هناك إحساس بالسعي المستمر دون تعصب أو يقينية دوغمائية. كان هناك انفتاح متلهف ومُستقبل للمطلق. في الحوار الأفلاطوني نشعر بالتأثير الذي أوجده سقراط على الآخرين. ألسيبيديس - ابن أخ بيرقليس - بدا وكأنه وقع في حب سقراط، الذي رآه كشخصية غامضة تظهر عندما كان لا يتوقع أن يجدها. كان مثل التماثيل الصغيرة للإله سيلينوس Silenus التي إذا ما فتحت تجد تمثالاً صغيراً لإله داخلها. لقد كان مثل الإله مارسياس Marsyas الذي كانت موسيقاه تغمر المتفرجين في غيبوبة وجعلتهم يتوقون إلى الاتحاد مع الآلهة. لكن سقراط لم يكن بحاجة إلى آلة موسيقية، فكلماته وحدها كانت تحرك الناس حتى الأعماق. اعترف ألسيبيدس «كلما استمع إليه، تتسارع دقات قلبي وكأنني أكون في هياج ديني، وتسيل الدموع على وجهي». بينما لم يتعرض لهذه التجربة عندما كان يستمع إلى خاله بيرقليس. عندما كان سقراط يتكلم كان يجعله يدرك «أنني مازلت كتلة من النواقص. لقد كان الشخص الوحيد الذي كان باستطاعته أن يملأني بالخجل. بدا سقراط أنه مهرجاً، متغابياً، ممازحاً، واقعاً في حب الشباب، وشارباً طوال الليل، لكن ألسيبيدس قال: «إنني أشك ما إذا رأى أي شخص هذه الكنوز التي تتكشف عندما يصبح جاداً، ويكشف عما يحتفظ به في داخله. على أية حال، لقد رأيت هذه الكنوز ذات مرة، ووجدتها إلهية جداً وجميلة ورائعة، ولأوجز الأمر - لم يكن لدي خيار سوى أن أفعل ما طلبه سقراط مني.»

logoi كلمات سقراط كانت تملأ مستمعيه بنفس نوع الهياج الديني كالإدخال الديونيسي، كان المستمع يشعر أنه مخلوعاً وكأنه كان على شفاء استنارة(41).

لم يكن كل امرئ مفتوناً بسقراط. ففي هذه الفترة من القلق والحرب لم يكن الناس يريدون أن يكونوا مربكين، وأن يتم تحريضهم حتى الأعماق، ويقوموا بإصلاح لعيوبهم، أرادوا اليقين. في عام 423 قدم أرسطو فانس لوحة ساخرة لسقراط في مسرحيته الكوميدية /الغيوم/. أظهرت المسرحية قلقاً عميقاً بالنزعة النسبية لدى الحكماء الذين كان باستطاعتهم أن يجعلوا قضية مقنعة من أكثر المقترحات استحالة. سقراط لم يكن حكيماً، لكن الأثينيين الذين لم يجربوا طريقته، من المحتمل أنهم كانوا غير قادرين أن يميزوا بين نقضه الدؤوب للرأي المتداول عن إنكار الحكماء للحقيقة المطلقة. قدم أرسطو فانس سقراط في «دكان منطقه» حيث الجدل بأن الخطأ كان صحيحاً، وعلم الناس أن يعبدوا الغيوم بديلاً عن زيوس. في النهاية، البطل ـ مواطن أثيني مخلص ـ كان غاضباً جداً لدرجة أنه حرق المدرسة كلياً. اتضح أن الملهاة كانت تنبؤية بشكل لم يكن باستطاعة أرسطو فانس أن يتخيلها.

في هذه الفترة واجهت أثينا الهزيمة في حرب البلبونيز. رأى كثيرون هذه الكارثة الحتمية كعقاب إلهي على تجديف الفلاسفة، وعدوا تعليم سقراط تجديفاً، مع أنه كان تقليدياً ورعاً، وكان يحضر الطقوس الجماعية بكل حرص مثلما أدى خدمته العسكرية. لكن القلق كان على وشك أن يتحول إلى هستريا. في عام 416 ألقى ألسيبيديس خطاباً حماسياً في المجلس داعياً إلى أنه يجب على أثينا أن تهب لمساعدة حليفتها سقسطة Segesta في صقلية التي كانت تتعرض لهجوم تشنه مدينة سيلنوس Selinus المجاورة. كان القائد نبيسياس شريك سقراط ضد الحملة. لكن السيبيديس والجيل الأصغر فازوا، فكان قراراً كارثياً لأن معظم المواطنين الذين صوتوا لصالح الحرب لم يكن لديهم فكرة عن حجم وقدرة صقلية. قبل انطلاق الأسطول تماماً ـ شخص ما هشم الإله هرمز Herms وتماثيل القضيب للإله هرمز التي كانت منصوبة في أرجاء المدينة لتحمي الشوارع والمنازل. لم يعرف أحد من كان المسؤول عن ذلك، لكن الحادثة هزت أثينا حتى العظم. كان الناس مقتنعين أن هذا الانتهاك الصريح

للمقدسات سوف يستدعي انتقاماً إلهياً. جرت مطاردات للساحرات، وتم إعدام مشبوهين، وفي نهاية المطاف استدعي ألسيبيديس شخصاً من صقلية كي يجيب على اتهامات التجديف.

حدثت سلسلة متعاقبة من الكوارث. ثم فرض حصار على الأسطول الأثيني في ميناء سيراقوس Syracuse، وكان الجيش حبيساً في مقلع أحجار مجاور. وفي ضربة واحدة فقدت أثينا نحو أربعين ألف رجل، ونصف أسطولها، في عام 411 أطاح المتآمرون الموالون لإسبارطة بالحكومة الديمقراطية في أثينا. كان الانقلاب قصير الأمد، ففي السنة التالية أعيدت الديمقراطية، لكنها كانت علامة على هشاشة أثينا. استمرت الحرب ضد إسبارطة حتى عام 405، عندما أجبر القائد الإسبارطي ليساندر Lysander أثينا على الاستسلام. ومرة ثانية تأسست أوليغارشية تحت حكومة من ثلاثين شخصاً موالين للأرستقراطيين الإسبارطيين الذين قتلوا مواطنين كثيرين في عهد الرعب الناجم، وأطيح به، وأعيدت الديمقراطية بعد سنة فقط، استعادت أثينا استقلالها، وديمقراطيتها، وأسطولها، لكن قدرتها كانت محطمة، تفككت الإمبراطورية، ودمر السور الدفاعي الذي بناه برقليس.

على هذه الخلفية السوداء المرعبة قدمت مأساتان عظيمتان. تماماً قبل قبول أثينا الهزيمة في عام 406، توفي يوربيديس، ومسرحياته المرة القاتمة الأخيرة المتوهجة بإحساس كارثة تلوح بعد وفاته. المسرحية الأخيرة كانت /الباخوسيات التي قدمت في عام 402. لدى افتتاح المسرحية وصل الإله ديونيسيووس إلى طيبة متنكراً، المدينة التي تنكرت لأمه سميل Semele عندما كانت حاملاً، والتي قد منعت باستمرار عبادته. لكن الآن معظم سكان طيبة كانوا مفتونين بالغريب الفاتن الذي ظهر فجأة بين ظهرانيهم. نساء المدينة اللواتي لم يتم إدخالهن في السر الديونيسي تركن أنفسهن لهياج مطلق العنان، متجولات عبر الغابات، مرتديات جلود حيوانات. حاول الملك الشاب بنثيوس Pentheus أن يعيد النظام لكن دون جدوى. وفي نهاية المطاف سمح لأحد حاشيته أن يلبسه ملابس نسائية

كي يتمكن من أن يتجسس على هؤلاء المتلذذات دون أن يلحظه أحد. لكن النساء مزقنه إرباً بأيديهن العارية في حالة هستيرية، لأنهن اعتقدن أنهن قد قتلن أسداً. والدة بنثيوس Agaue حملت رأس ابنها مزهوة متقدمة موكباً مجنوناً.

المسرحيات المأساوية كانت تصور ـ في أغلب الأحيان ـ قتل الأقارب. لكن بجعل ديونيسيوس ـ راعي المأساة ـ مسؤولاً عن هذه الجريمة غير الطبيعية، فإن يوربيديس ـ كما يبدو ـ يستدعي كل هذا الجنس الأدبي إلى المساءلة. لم يكن هناك بصيص من الأمل في نهاية المسرحية. المنزل الملكي قد تهشم، وخفضت النساء إلى مرتبة حيوانات، وهُزم العقل المستنير على يد Mania همجية، وسكان طيبة مثل أثينا عند هذا المفصل، بدوا هالكين. ماذا كانت الجدوى من إطلاق سنوي للانفعال تكريماً لإله قتل وعُذِّبَ وأُذّل البشر دون أن يقدم أي تفسير مقبول؟

كانت أثينا بدأت تنمو على خلفية مأساة، وبفعلها ذاك، كانت تغادر صحبة العصر المحوري. المسرحية حذرت المدينة من أن رفض قبول اللامنتمي (الغريب) يعد أمراً خطيراً. ففي مسرحية /أوديب في كولنس/ 406 أظهر سوفوكليس أثينا تستقبل مكرمة الشخص المدنس ـ شخصية مقدسة لأوديب المتوفى ـ كفعل رحمة الذي سيكون بركة للمدينة. لكن في /الباخوسيات/ رفض بنثيوس الغريب، فتم تدميره. لم يكن ذلك كارثياً سياسياً، بل كان على الأفراد أيضاً أن يتعرفوا على الغريب ويقبلوه، الغريب الذي كانوا يواجهونه داخل أنفسهم خلال الاحتفالات السرية. فمن خلال تقديم المهرجان السنوي المتوجب لديونيسيوس، فإن أثينا قد أعطت الآخرية التي كان يمثلها مكاناً مكرماً في قلب المدينة. لكن عبر السنين فشلت أثينا في احترام حق المدن الأخرى في الانفصال الذي لا تنتهك حرمته. لقد استغلتها أثينا وهاجمتها، وفي هذه السيرورة وقعت ضحية الصلف.

في هذه المسرحية الأخيرة، تناول يوريبيدس قلب النظرة المحورية. كورس Maenads ـ العابدون المواظبون لديوينسيوس ـ قد تم إدخالهم بشكل صحيح في عبادته، فشعروا بنظرة سلام، ونشوة وتكامل. لكن نساء طيبة اللواتي كن غير متعلمات في ضوابط التحول كن فقط خارج السيطرة، مدفوعات إلى الجنون من

المناطق الأكثر ظلمة في نفسياتهن التي كانت غير معروفة لهن. بينما كانت آغو Ague تدخل المدينة رافعة رأس ابنها ـ الغنيمة الشاحبة ـ فإنها لم تخطو خارج ذاتها ekstasis بل كانت مفتونة بإنجازاتها هي فقط:

عظيمة في عيون العالم،

عظيمة هي الأفعال التي فعلتها،

والصيد الذي قد اصطدته هناك(43).

تأليه هذه الأنانية العاقر كان فعل عنف مشين غير طبيعي.

في هذه المسرحية، قدم يوريسبيديس أيضاً واحدة من أكثر التجارب الإغريقية تأثيراً وتسامياً للألوهة. قد يبدو ديونيسيوس غير أخلاقي، وقاسياً، وغريباً، مع ذلك كان حاضراً على المسرح دائماً، ولم يكن مرغوباً به، ولا إبعاده. في تنكره بزي بشري على أنه الغريب فقد بدا غامضاً وموحشاً. ديونيسيوس كان دوماً الإله المُقنَّع، والقناع هو المذكر الدائم بأنه كان غير ما كان يظهر. ظهوره الخارق لم يكن ظهوراً شبيهاً بالإنسان، بل اختفاءاً مفاجئاً عندما يخفي نفسه عن الجميع ـ هؤلاء الذين آمنوا فقط بما كانوا يستطيعون أن يروا ـ كان يختفي فجأة عن خشبة المسرح. صمت عظيم كان يخيم على الأرض، الذي فيه حضوره كان يُحَسُ به بقوة أكثر من ذي قبل(44). النظرة الأولمبية الأقدم كانت تبلغ خارج ذاتها إلى الحقيقة التي لا توصف خلف الرموز.

المأساة العظيمة الثانية كانت موت سقراط في عام 399. أثناء محاكمته اتهم بأنه لم يكن يقر بآلهة الدولة، وبإدخال آلهة جديدة، وبإفساد الشبان. كان أفلاطون الشاب حاضراً المحاكمة التي تركت تأثيراً عميقاً عليه. فمن وجهة نظر قانونية، كان دفاع سقراط غير مناسب. قال إنه لم يكن باستطاعته إفساد الشباب. وأنه لم يكن يعرف ما يكفي كي يعلم أي شيء إلى أي شخص. وأنه قد عمل لصالح أثينا، لكن المدينة فشلت في تقدير هذا. مع ذلك لم يكن باستطاعته التخلي عن مهمته. أفضل ما كان باستطاعة المرء «أن يفعله هو ألا يترك يوماً يمر دون نقاش للخير ولجميع الموضوعات الأخرى التي تسمعونني أتحدث عنها»(45). لقد فشل في إقناع القضاة، وحكم عليه بالموت.

كان سقراط موضوع شك وخلاف منذ أمد طويل. بعض من شركائه مثل ألسيبيدس كان منشغلاً في كارثة أثينا العسكرية، وبالتالي أصبح سقراط كبش فداء. لقد قال الأشياء الصحيحة في التوقيت الخاطئ. مكرساً نفسه لأثينا، وأطاع قوانينها حتى النهاية، ورفض أن يهرب من السجن بالرغم من أن الحكم لم يكن عادلاً، ورفض خيار النفي. كان تقريباً في السبعين من عمره، قالها ببساطة أنه لم يكن يتمنى أن يعيش في أي مكان آخر. كان بطل الحقيقة، وسيموت شاهداً على الباطل الذي كان آنذاك في حالة صعود. مع ذلك مات دون غضب أو لوم. أخبر تلاميذه أن ليس هناك شيئاً مأساوياً في أمر الموت. فلا أحد يعرف ماذا كان، فقد يكون الموت خيراً عظيماً حتى. فطوال حياته اعتقد انه كان يرافقه ملاك، أي حضور إلهي، الذي كان يكلمه في لحظات حاسمة. إنه لم يخبره أبداً ماذا يفعل، لكن قد حذره فقط من عمل محدد. لقد وجده مشجعاً لكن صوته الداخلي لم يتكلم إليه أثناء المحاكمة. لا بد أنه كان على المسار الصحيح وماضياً إلى الخير.

تجمع أصدقاؤه حول فراشه بينما شرب السم الموصوف له، ويقول أفلاطون عن هذه اللحظة أنه قبل أن يتناول الشوكران hemlock غسل جسمه كي يوفر على النساء عناء غسله بعد موته.. شكر سجانه بلباقة على لطفه، وقال مزحات لطيفة حول مأزقه. كان قادراً أن ينظر إلى الموت وجهاً لوجه بكل هدوء، ومنع أصدقاءه أن يحدوا عليه، وتقبل رفقتهم بكل محبة وهدوء. بدلاً من الحزن المسيطر المدمر كانت هناك سكينة وسلام منفتح. خلال العصر المحوري كان الحكماء منشغلين بالموت. أما سقراط فقد بَيَّنَ أنه كان من الممكن لكائن بشري أن ينعم بهدوء يتسامى على ظروفه في خضم الألم والمعاناة.

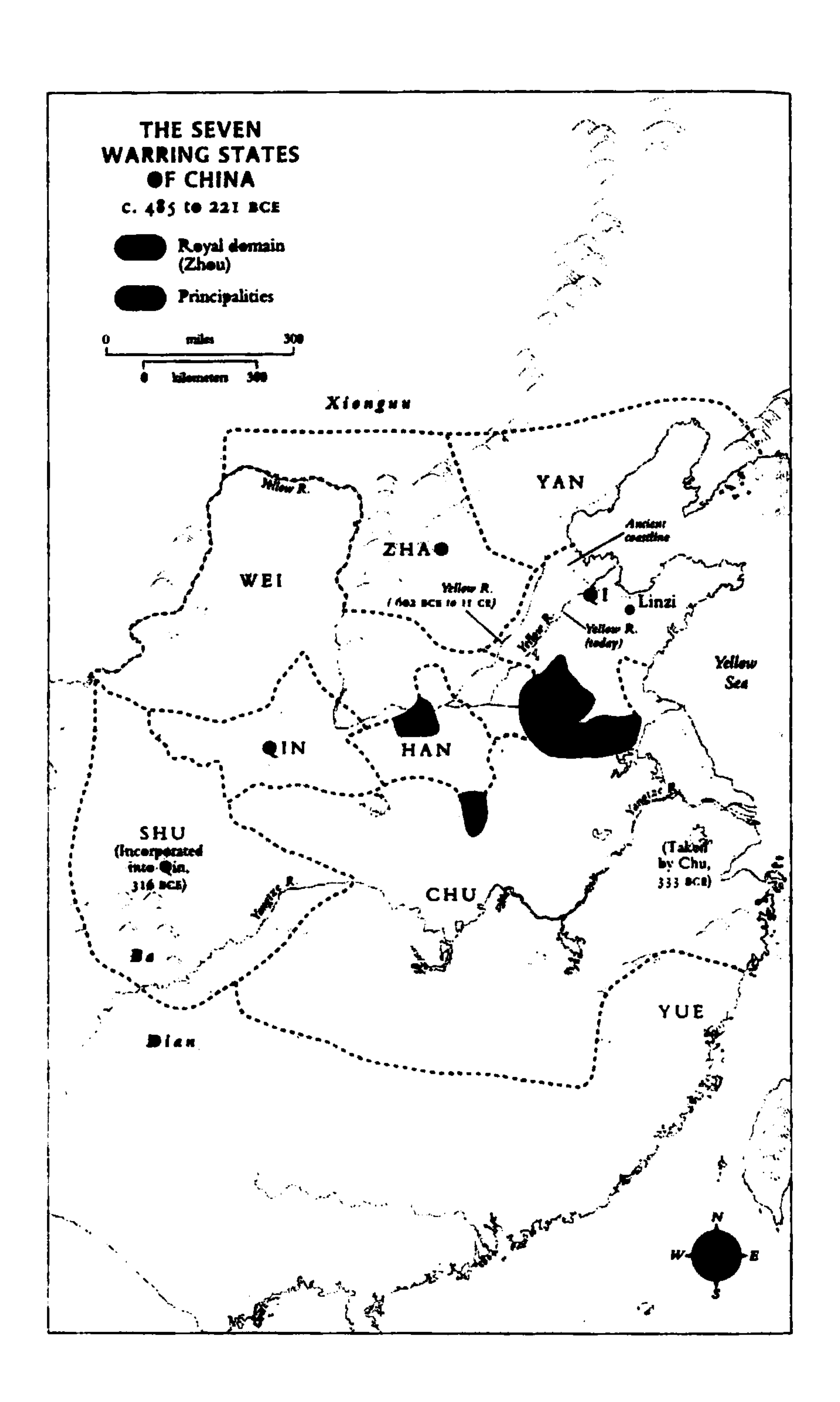
* * *

بعد فترة قصيرة على وفاة كونفوشيوس دخلت الصين حقبة مضطربة ومخيفة يسميها المؤرخون الولايات المتحاربة. إنها كانت نقطة علام لمرحلة انتقال حاسم في تاريخ الصين. في عام 453 تمردت ثلاث عائلات ضد أمير Jin، وشكلت ثلاث دول منفصلة في منطقة Jin هي: هان Han، ووي Wei، وزهاو Zhao. كانت

هذه هي النهاية الحقيقية لسلالة الزهو المتراجعة من أمد بعيد. فحتى هذه الفترة كان جميع حكام الصين يتم تعيينهم من قبل ملوك الزهو. لكن هذه الدول الجديدة قد تأسست بالقوة العسكرية، ولم يستطع ملك الزهو أن يفعل شيئاً. من هذه اللحظة كانت الدول الأقوى والأكبر منخرطة في صراع يائس من أجل السيطرة على الصين. المتنافسون الرئيسيون هم دولة تشو Chu في الجنوب، والتي كانت نصف صينية، ودولة كين Qin دولة محاربة خشنة في غربي شينزي Shensi، والمملكة البحرية الغنية كي Qi، والدول الثلاث (Jin أي الدول الجديدة هان، وي، زها، وYan قرب السهول الشمالية. في البداية حاولت الإمارات الصغيرة في السهل الأوسط الحفاظ على نفسها عن طريق الدبلوماسية، لكن أثناء السنوات (ص266 خريطة) المائتين التاليتين فقد تم القضاء عليها واحدة تلو أخرى، وتم ابتلاعها في ممالك أكبر وأكثر منافسة.

حقبة الدول المتحاربة كانت واحدة من الفترات النادرة في التاريخ عندما تعاقبت تغيرات، كل تغير يقوي الآخر ويسرع عملية التطور، وتؤدي إلى تغير اجتماعي أساسي(46). وعندما وصلت هذه الصراعات إلى نهايتها في عام 221 كانت الحياة السياسية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية الصينية مختلفة كلياً. لكن في السنوات الأولى من الدول المتحاربة، كان معظم الناس يدركون أن الحياة في السهل الأوسط قد أصبحت فجأة أكثر عنفاً من ذي قبل. رعب هذه التجربة قد كشف البحث عن نظرة دينية جديدة.

الحرب بحد ذاتها كانت قد تغيرت (47). لم يعد هناك مزيد من مواجهات طقوسية بين راكبي العربات تتسم بالكياسة، فكل منهم كان ينافس كي يبذ الآخر في الكرم والكياسة. الدول المعسكرة حاربت كي تكسب منطقة جديدة، ولتخضع السكان وتقضي على العدو.


THE SEVEN WARRING STATES OF CHINA
c. 485 to 221 BCE
Royal domain (Zhou)
Principalities
0 miles 300
0 kilometers 300
Xiongnu
Yellow R.
YAN
Ancient coastline
ZHAO
WEI
Yellow R. (602 BCE to 11 CE)
QI
Linzi
Yellow R.
Yellow R. (today)
Yellow Sea
QIN
HAN
Yangtze R.
SHU (Incorporated into Qin, 316 BCE)
(Taken by Chu, 333 BCE)
Yangtze R.
CHU
Ba
YUE
Dian
N
W
E
S

كانت الحملات تدوم فترة أطول، وكانت تمضي إلى ميدان أبعد. اتسم القتال بالكفاءة القاتلة التي كانت تتطلب وحدة القيادة، واستراتيجية، وجيوشاً مدربة، وموارد وفيرة. خبراء عسكريون أصبحوا يخططون للحرب، والنظام والانضباط والفاعلية كانت أكثر أهمية من الشرف والبرستيج.. في الأيام الغابرة لم يكن أحد يحلم بقتل النساء أو الأطفال، أو الجرحى، أو العجز. لكن الآن «كل من يمتلك قوة، أو يحتفظ بقوة، هم أعداؤنا حتى ولو كانوا كهولاً» كما قال أحد القادة المعاصرين لتلك الفترة «فلماذا يتوجب ألا نجرح ثانية أولئك الذين جراحهم ليست قاتلة؟»(48).

في أواخر القرن السادس، بدأت الدول تطور تقانة عسكرية جديدة. بنى أخصائيون أبراجاً متحركة، وسلالم على عجلات كي يهاجموا أسوار المدن، وحفروا مناجم وممرات تحت الأرض، وصمموا منافيخ لدفع الدخان في أنفاق العدو. المشهد بحد ذاته كان معبأ من أجل الحرب: بنت Chu وكي Qi أول أسوار دفاعية في هونان Honan وشانتونغ Shantong. وحصنت كي Qin سدود النهر الأصفر. وبنت قلاعاً على طول الجبهة وجهزت بكتائب محترفة. جففت المزيد من الأراضي، وشقت القنوات الأولى لزيادة الإنتاج الزراعي لتمويل هذه الحملات المكلفة.

تمت تعبئة المزيد المزيد من السكان، بينما في الماضي كان دور الفلاحين في الحرب الإقطاعية اللبقة دوراً هامشياً، ولم يلعبوا دوراً حقيقياً في القتال، أما الآن فقد تم تجنيد المئات من الفلاحين كمشاة الذين أصبحوا القسم الأهم في الجيش. دولة Jin البائدة كانت أول من استخدم جنود المشاة في أواخر القرن السادس، عند القتال في المناطق الجبلية التي كانت غير ملائمة لحرب العربات. ودولتا Yue وWo اللتان كانت فيهما مستنقعات وبحيرات وممرات مائية كثيرة يتعذر استخدام العربات فيها فقد استخدمت القوارب. بشكل تدريجي أصبح الفلاح المحارب عاملاً رئيسياً في الحياة الاجتماعية والسياسية. فرق العربات الأرستقراطية غابت، وأصبح القتال فاعلية تمارسها الطبقة الأدنى. والأخصائيون

العسكريون تعلموا من البدو في السهوب. وفي القرن الرابع سيدخلون فرق الفرسان التي كانت سريعة الحركة أكثر من فرق العربات الثقيلة، وباستطاعتها القضاء على مجموعة في هجوم مباغت وتوقع تأثيرات مدمرة. استخدم المحاربون الجدد أيضاً أسلحة البدو، السيف وقوس السهام التي كانت أكثر دقة، وتقتل من مسافة نصف ميل.

ملوك الدول الكبرى التوسعية العدوانية رموا جانباً المثل العليا للاعتدال وضبط النفس، أصبحت الجنازات من جديد عروضاً تبذيرية قاسية. فأحد الملوك طمر ثروات طائلة مع ابنته، وضحى بحشود من الراقصين والصبيان والبنات من المخزون العام(49). أصبح الحكام الجدد يملكون منازل باذخة زاهية الألوان مليئة بالنساء والموسيقيين والراقصين والمهرجين، والمشعوذين والمصارعين. المتصوفون الذين نصحوا الأمراء والحاشية حول ثرثرة البلاط المطقسنة تطورت الآن إلى مهارات مناظرات ذكية، وقدموا النصائح في العلاقات العامة والدبلوماسية. الـ Shi المفقرين تحلقوا حول البلاطات مظهرين مواهبهم على أمل الحصول على عمل. كان بعض هؤلاء علماء. الدوق ون Wen (446 ـ 395) لدولة Wei الجديدة أصبح راعياً للتعلم، وداعماً لمجموعة من المتعلمين كي ينصحوه في أمور البروتوكول والأخلاق. لم يعد هؤلاء الملوك يثقون بالأرستقراطيين الذين أصبحوا منافسين لهم، وتحولوا في طلب النصيحة إلى هؤلاء الرجال المقدرين. أحد هؤلاء كان تحت حماية دون Wen كان تلميذ كونفوشيوس، واسمه Zixia.

لكن في هذه الأزمنة البراغماتية كان الحكام ميالين إلى اعتبار الكونفوشيوسيين مثاليين أكثر مما يجب. فتحولوا إلى Xie مجموعة من الخبراء العسكريين المشائين الذين على شاكلة أفراد آخرين من طبقة Shi ـ قد فقدوا مواطئ قدم لهم في المدن، فأخذوا يتجولون في الريف بحثاً عن عمل. مع حلول فترة الدول المتحاربة الكثيرون من هؤلاء الخبراء العسكريين كانوا ينحدرون من الطبقات الدنيا، كانوا مرتزقة على استعداد لأن يحاربوا في أي جيش طالما أنهم كانوا يكافؤون بشكل كافٍ. لم يكونوا على شاكلة الأرستقراطيين

الأكثر ميلاً للكونفوشيوسية، بل رجال فعل عدوانيين. فوفقاً لمؤرخ من فترة لاحقة «كلماتهم كانت دائماً مخلصة، وأهلاً للثقة، وأفعالهم سريعة وحاسمة. كانوا دائماً أوفياء لما يعدون، ودون اعتبار لشخوصهم يندفعون في الخطر مهددين الآخرين»(50).

لكن في نحو نهاية القرن الخامس أحد الخبراء أدار ظهره لهذه النزعة القتالية وبشر برسالة عدم العنف، كان يدعى موزي Mozi «المعلم مو Mo» (480 ـ 390) لا نعرف سوى القليل عنه لأن الحوارات المدونة في الكتاب الذي يحمل اسمه هي أكثر بكثير من «شخصية من Analects، وموزي الإنسان يتخفى وراء أفكاره(51). لقد ترأس أخوية صارمة الانضباط مكونة من مائة وثمانين رجلاً(52)، هذه الأخوة لم تكن تشبه المجموعة الكونفوشيوسية ذات التنظيم المتراخي من التلاميذ. مدرسة موزي كانت تشبه طائفة لها قواعد صارمة، واتبعت أخلاقية مساواة صلبة، وأعضاؤها كانوا يرتدون لباس فلاحين أو حرفيين. بدلاً من القتال كمرتزقة كان أتباعها يتدخلون لوقف الحروب وللدفاع عن المدن في الدول الأصغر والأكثر هشاشة(53). تتناول تسعة فصول من كتاب موزي أساليب وشؤون الحرب الدفاعية، وبناء المعدات لحماية أسوار المدينة. لكن موزي كان فيلسوفاً أيضاً. إذ لم يكن يقف عند عمل منضبط، بل ارتحل من بلاط إلى آخر مبشراً بأفكاره الأصيلة جداً إلى الحكام.

يبدو أن المعلم مو، ربما كان أصلاً مهنياً أو حرفياً. لقد استخدم رمزية رجل يعمل مقارناً تنظيم السماء للعالم بالبوصلات والكوس عند صانع العجلات والنجار الذي كان يستخدم هذه الأدوات «كي يقيس الشكل الدائري والمربع في العالم»(54) نثر موزي لم يكن على شاكلة الأسلوب البهي لـ Analects، بل كان نوعاً خالياً من الدعاية وثقيلاً مما يوحي بأنه كان رجلاً علم نفسه بنفسه، واستخدم القلم بصعوبة(55). بالرغم من فهمه المعبر للتراث، إلا أن ركاكة الأسلوب تدل أن موزي لم يكن يشعر بالارتياح تجاه الثقافة العالية لدى طبقة النبلاء. مو وأتباعه كانوا حديثي نعمة، وغير راضين عن انشغال الأرستقراطية

بالبرستيج والمكانة. كان يريد التحكم بالإنفاق، وتقليل البذخ، ومجتمعاً كان يعكس الروح العامة المقتصدة أكثر كما هي في طبقته هو.

كان موزي ـ على سبيل المثال ـ منتقداً لسلالة الزهو، وكان لديه وقت قليل لبطل كونفوشيوس دوق الزهو. أعار اهتماماً بسيطاً للطقس والأدب والموسيقى عند الزهو. التي كانت ملهمة جداً عند كونفوشيوس. الناس الأفقر لم يشاركوا أبداً في هذه الاحتفالات الملكية. وLi مضيعة للوقت والمال لدى أنصار موزي. كان موزي متديناً بعمق، واعتقد أن من المهم كان تقديم القربان إلى السماء، ولأرواح الطبيعة. لكنه كان يشعر بالقرف من التبذير في الشعائر الاحتفالية في معابد الأسلاف. كان يشعر بالسخط على الجنازات الباهظة، وعلى مدة الحداد التي تدوم ثلاثة أشهر. كل هذا كان جيداً جداً بالنسبة للأغنياء الخاملين. لكن ماذا سيحدث إذا ما التزم كل امرئ بهذه الشعائر؟ سيدمر العامل، والاقتصاد ويضعف الدولة(56). تبنى موزي نظرة صارمة براغماتية تجاه الطقس. كان الحكام ينفقون مبالغ مالية ضخمة على هذه الاحتفالات، بينما عامة الناس لم يكونوا يملكون ما يكفي للطعام والملبس. الـ Li لم ترفع المعنويات، وانسحب الطقوسيون من معالجة مشكلات عصرهم، يجتمعون لمناقشة احتفالات سرية، وتخلوا عن كل أمل في خلاص العالم.

كانت الحالة قد تغيرت بشكل دراماتيكي خلال الزمن القصير الذي انقضى بعد وفاة كونفوشيوس. في القرنين الرابع والثالث ـ كما سنرى ـ أتباع كونفوشيوس سوف تعذبهم بلوى الفقراء، ويعملون دون كلل لإصلاح المجتمع. لكن في زمن موزي ربما صُدم بعض الطقوسيين بالتحولات السريعة في السهل العظيم لدرجة أنهم انسحبوا من الحياة العامة بالطريقة التي وصفها موزي. كان موزي متضايقاً جداً من مأزق الفلاحين الذين كانوا يُجَرْون إلى الحروب، ويجندون في أعمال السخرة، وأفقرتهم الضرائب الباهظة. كان تقديم احتياجاتهم الأساسية في المأوى، والملبس والأمان أمراً أساسياً. لكن موزي لم يكن ثورياً، ولم يرد الإطاحة بالطبقة الحاكمة لأنه كان مقتنعاً أن القيم الصينية كانت بحاجة إلى مراجعة جذرية. واعتقد أن الملوك الحكماء كانوا

مقتنعين بالاحتياجات الضرورية للحياة. ولا بد من العودة إلى المثل العليا التي بشَّربها ياو Yao، وشون Shun، ويو Yu، الذين لم يعيشوا حياة معقدة، ومترفة، وعروض مباهاة على حساب عامة الناس. هؤلاء الحكماء بنوا منازلهم بما يكفي لمنع الرطوبة، وجدرانها السميكة كانت كافية لمنع الجليد والمطر، والأقسام الداخلية كانت عالية بما يكفي لفصل الجنسين(57). الحكيم المفضل لدى موزي هو Yu ـ على الرغم من مكانته العالية وثروته الطائلة ـ قضى حياته مطوراً تقانة للتحكم بتوزيع المياه لمنع الفيضانات، أي عمل بشكل عملي لصالح الناس.

رسالة موزي كانت نفعية وبراغماتية، مع ذلك تبنى أحلاماً طوباوية. اعتقد أن بالإمكان إقناع البشر أن يحبوا بدلاً من أن يكرهوا، والخيط الوحيد الذي أبقى على تماسك هذه الفلسفة كان ren، لكنه اعتقد أن كونفوشيوس قد شوه هذا المبدأ بالتراحم لأنه جعله مقتصراً على الأسرة.. فحسب رأيه، روح العشيرة عند الأرستقراطية كانت جذر العديد من المشكلات الراهنة: الأسرة، نزعة الشوفينية، والتنافس على الامتيازات، وعمليات الثأر، والإنفاق الباذخ، أراد أن يستبدل نزعة الأنانية بالإيثار المعمم(58). يجب على كل امرئ أن يشعر تجاه الآخرين كما يشعر تماماً تجاه عائلته. «يجب اعتبار الناس مثل النفس» كما قال: «وهذا الحب يجب أن يشمل الجميع ولا يستبعد أحداً»(59). الإصلاح يجب أن يأتي من الحكام: والسبيل الوحيد لمنع الصينيين أن يقتل أحدهم الآخر في هذه الحروب المرعبة كان بإقناعهم أن يمارسو طريقة Jianai التي تعني ـ غالباً ـ «الحب الشامل، لكن هذا المعنى عاطفي جداً بالنسبة للروح العامة النفعية عند موزي(60). لم يكن موزي يتوقع أن يطور الصينيون محبة دافئة وطيبة تجاه كل واحد، لأنه كان أكثر اهتماماً بالعدالة من اهتمامه بالمشاعر. كان موقف تسامح تتم تنميته عن عمد بحيث تتمنى الخير لكل إنسان حتى لمن لا ينتمون إلى جماعتك مباشرة. كانت Jian ai مبنية على إحساس قوي بالمساواة والإنصاف، واهتمام غير منحاز تجاه جميع البشر دون استثناء. كان ماو مقتنعاً أن هذا كان أمراً لا غنى عنه من أجل السلم والأمن. أما الحكام ـ حينذاك ـ فقد أحبوا دولتم ولم يشعروا بتأنيب ضمير عندما يهاجمون منافسيهم، وهذا سيكون أمراً محالاً

إذا ما تعمل الحكام أن يهتموا بالآخرين كاهتمامهم بأنفسهم. «انظر إلى حالة الآخر كما تنظر إلى حالتك، وإلى أسرة الآخر مثلما تنظر إلى أسرتك، وإلى شخص آخر كما تنظر إلى نفسك». فإذا لم يكن لدى اللوردات Jian ai فإنهم سوف يستدعون جيوشهم، السبب وراء جميع بلايا العالم، ونزع الملكية، والسخط، والأحقاد، هو الافتقار إلى Jian ai»(61).

ربما قد تم التعبير عن نسخة موزي للقاعدة الذهبية بشكل أقل أناقة مما عبر عنها كونفوشيوس، لكنها اعتبرت مباشرة أنها أكثر جذرية. فبدلاً من رؤية الأسرة على أنها المكان الذي تتعلم فيه أن تحب الناس، قال موزي «الاهتمام بكل امرئ» جعل من الممكن أن تحب أسرتك أو الدولة كما يجب. وأن لا ينمي الناس التسامح تجاه الجنس البشري، فإن حب الأسرة والنزعة الوطنية سوف تنحط إلى نزعة أنانية جمعية. فحسب رأي موزي، كانت العائلة الكونفوشيوسية مجرد جماعة تهتم بمصالحها الخاصة. فإذا لم يتجاوز الناس إلى ما هو خارج عائلاتهم أو أمتهم، فإنهم سوف يصبحون مذنبين بالأنانية القاتلة التي كانت السبب وراء شرور العالم.

Jian ai كانت تؤدي مباشرة إلى اللاعنف. في إحدى فصول كتابه/ رفض العدوان/ وازن موزي بدقة بين كلفة الحرب وفوائدها. فالحرب دمرت المحاصيل، وقتلت مدنيين كثيرين، وبددت الأسلحة والخيول، وتركت الأسلاف بلا أحفاد كي يضحوا نيابة عنهم. بينما جادل الحكام أن الفتوحات كانت تفيد الدولة، لكن الاستيلاء على مدينة صغيرة قد ينجم عنه آلاف الإصابات في وقت كان الناس بحاجة ماسة إلى من يزرع الأرض. فكيف يمكن أن يكون هذا في مصلحة المملكة؟ لقد ظنت الدول الأكبر أنها سوف تجني مكاسب بإلحاق الهزيمة بمنطقة جيرانهم الأصغر، لكن حروبهم أفادت نحو خمسة أشخاص فقط من عشرة آلاف. بعض فصول كتابه ربما كتبتها أجيال لاحقة من أتباعه، أجازت الحرب في حالة الدفاع عن النفس، وتضمنت تعليمات للدفاع عن مدينة أثناء الحصار. لكن من المحتمل أن موزي شخصياً كان مسالماً صارماً عارض كل عنف، وارتحل من دولة إلى أخرى كي يقنع الحكام بكسر دورة الحرب التي كانت قد بدأت تهدد كل دول السهل العظيم(62).

الكثير من الصينيين الذين ينظرون إلى القيم العائلية نظرة قداسة كبيرة، صدمتهم أفكار موزي، لذلك طور عقلانياً طريقة في النقاش لدعم معتقداته. لهذا السبب يضمن موزي في كتابه المقالات الصينية الأولى في المنطق والجدل، وبعض الفصول التالية تعود إلى القرن الثالث، وتبين فهماً معقداً لمبادئ النقاش المنهجي، وللتعاريف، وللقواعد الدقيقة. كانت الطريقة مختلفة تماماً عن الأسلوب الانطباعي في Analects اعتقد كونفوشيون أن الجونزي سيكتسب آراءه أو فهمه بشكل حدسي بعد مدة طويلة من الدراسة والتفكير. لكن «الرجال المقدرين» عند موزي كانوا رجال فعل، وجادلوا بطريقتهم لبلوغ الحقيقة بشكل منطقي(63). لقد تفوقوا في سلوكهم الفاضل، وفي براعتهم في النقاش»(64). يجب أن تكون ملاحظاتهم دقيقة كي تقنع خصومهم بأهمية Jian ai في هذه اللحظة اليائسة من التاريخ. أنصار موزي كانوا مهتمين أكثر في فعل الخير من أن يكون المرء صالحاً، بالنسبة لكونفوشيوس كانت ren أساساً هي فضيلة داخلية. لكن الرجال المقدرين كانوا بكل جلاء يتجهون إلى العالم الخارجي. لم يكن أنصار موزي مهتمين بالسيرورة البطيئة لتشذيب النفس، لكنهم أرادوا أن يضعوا مهاراتهم العملية ومنطقهم، وقوة الإرادة في خدمة المجتمع.

لخص موزي رؤيته في عشر أطروحات، قدم كل منها كاقتراح. هل ينبغي أن يكون لدى الناس اهتماماً بكل واحد؟ وهل يتوجب عليهم أن يرفضوا العدوان؟ ما هو رأي أتباعه في الجنائز الباذخة، والموسيقى الطقوسية، وإرادة السماء؟ هل يحدد القدر أفعال الناس؟ كيف على أتباعه أن يتعاملوا مع المتنفذين؟. كل مقترح كان موزوناً على ثلاثة مبادئ: هل يتطابق الاقتراح مع ممارسة الملوك الحكماء؟ هل يدعم الإدراك السليم الاقتراح. وما هو أكثر أهمية، هل سيفيد الجنس البشري؟. فإذا ما فشل المقترح في أي من هذه المبادئ ينبغي رفضه. فالجنائز الباذخة لم تكن تفيد المجتمع لذلك يجب أن تنقرض. ما من شخص رأى القدر، بالتالي الجبرية التي جعلت كونفوشيوس يعتقد أن ليس باستطاعة الناس تغيير العالم، هذا لم يكن موقفاً مناسباً للرجال المقدرين.

كانت رؤية موزي الأخلاقية نفعية تماماً. فعل ما هو خير إذا أغنى الفقراء، ومنع الموت غير الضروري، وزاد السكان، وساهم في الاستقرار العام. كان يجب مناقشة الناس للخروج من أنانيتهم، لأن البشر أنانيون بشكل طبيعي، لذلك كان ينبغي إقناعهم من خلال نقاشات لا تدحض بأن صالحهم العام كان معتمداً كلياً على الصالح العام للبشرية كلها، وأن اهتماماً منصفاً وعادلاً تجاه كل واحد، كان أساسياً للازدهار والسلم والأمن(65). يجب إقناع الحكام أن العدوان لم يكن يحظى بأفضل اهتماماتهم، فالحرب تجعل رعاياهم يعانون، وتدمر الاقتصاد، والنصر يحرك الحقد والغيرة. إنهم يحصلون على الثروة والسعادة والنجاح الذي يرغبونه إذ ما تصرف كل منهم تجاه الآخر بندية واهتمام شخصي متسامٍ. على الحكام أن «يتعلموا ألا يكونوا مهتمين بأنفسهم فقط»(66).

إذا كانوا أنانيين وعنيفين، فإنهم يثيرون غضب السماء. موزي ـ لم يكن مثل كونفوشيوس الذي فضل ألا يتكلم عن السماء ـ قد ساند كل امرئ في نقاشاته بالرجوع إلى الله العلي High God. السماء أحبت جميع البشر دون تمييز، وكانت الأنموذج الذي يحتذى لـ Jian ai «السماء حاضنة الجميع وليست أنانية، كما أكد موزي: السماء كريمة وليست بخيلة. فهم السماء أزلي ولا يتراجع أبداً.. السماء تعرض حبها لجميع البشر بإعطائهم كل حياة وتضمن استمراريتهم. وإذا عصى امرؤ السماء، فإن السماء توقع البلاء لأن الحكماء جعلوا السماء معيارهم، لذلك جميع أفعالهم كانت فعالة»(67).

الأرستقراطية كانت تتحرك منذ زمن بعيد نحو تصور جديد للإلهي، لكن موزي عبَّر عن معتقدات الناس العاديين الذين ما يزالون يرون السماء كإله مشخصن. بالرغم من معتقداته العقلية الحرفية القوية بالله والأرواح، كان لدى موزي حس ديني قليل جداً. لم يكن موزي مثل كونفوشيوس، إنه لم يكن يشعر برهبة أو عجب في حضور السماء. لاهوته كان عملياً بقوة مثل أخلاقياته. السماء كانت مفيدة، وباستطاعتها أن تجبر الناس على الاعتقاد أن عليهم أن ينموا اهتماماً بكل امرئ، أو أن يعانوا من العواقب.

إذا ما أمكن إقناع كل امرئ أن يحترم الآخرين كما يحترم المرء نفسه، سيحل السلام والانسجام في أرجاء العالم. ولن يكون باستطاعة أحد أن يدمر مدينة أو يقتل السكان في قرية إذا ما مارس Jian ai. كان موزي في ذروة بلاغته عندما وصف هذه اليوتوبيا:

الآن: إن نسعى إلى فائدة العالم بتبني Jian ai كمعيار لنا، فالذين آذانهم مرهفة، وعيونهم صافية سوف يرون ويسمعون نيابة عن الآخرين. ومن أطرافهم قوية سيعملون لصالح الآخرين، ومن لديهم معرفة الطريقة سوف يحاولون أن يعلموا آخرين. أما العجائز، أو دون أزواج أو أطفال سيجدون سبل دعم، ويكونون قادرين أن يمشيوا أيامهم، والشبان واليتامى سيجدون شخصاً يعتني بهم ويهتم باحتياجاتهم(68).

لم يكن موزي يعتقد أن هذا كان حلماً محالاً. وفي هذا الفصل قال متعجباً: «عندما يتم تأمين جميع هذه الفوائد بأخذ Jian ai كمعيار لنا، لا أستطيع أن أفهم كيف يستطيع رجال العالم أن يسمعوا بهذا المعتقد ويستمرون في انتقاده»(69) لقد أسس الملوك الحكماء إمبراطورية قائمة على نزعة الإيثار الكونية، فالمثل الأعلى قد نجح في الماضي، وبوسعه أن يفعل ذلك ثانية. تغير العالم أمر ممكن، ويجب على الرجال المقدرين أن يواجهوا التحدي.

خلال فترة الدول المتحاربة كان موزي يلقى تقديراً أكثر من كونفوشيوس، لأنه خاطب مباشرة رعب وعنف عصره. فبينما كان يشاهد الصين كلها وهي تعبئ للحرب، بدا أن البشر كانوا على وشك الزوال عن وجه الأرض. وإذا لم يكن باستطاعة البشر كبح أنانيتهم وجشعهم فإن كلاً منهم سيدمر الآخر. السبيل الوحيد الذي يبقيهم أحياء كان بتنمية تعاطف لا محدود، ليس معتمداً على تماهٍ عاطفي ـ بل على الفهم العملي المُعَلَّل بأن أعداءهم حتى لديهم الاحتياجات، والرغبات، والمخاوف ذاتها مثلما هي لديهم هم.

* * *

في نحو نهاية القرن الخامس أحد أفراد Kshatrjya من جمهورية Sakka على سفح تلال الهملايا، حلق شعر رأسه ولحيته، وارتدى مئزراً أصفر برتقالي ـ يرتديه النساك عادة ـ وانطلق في طريقه إلى Magadha. اسمه سيدهاتا غوتاما الذي كان في التاسعة والعشرين من العمر. ولاحقاً تذكر أن والديه قد بكيا بمرارة عندما غادر البيت. وأخبرنا أنه قبل مغادرته تسلل إلى داخل غرفة نوم زوجته بينما كانت نائمة كي يلقي عليها وعلى ابنه الحديث الولادة النظرة الأخيرة، وكأنه لم يكن واثقاً من قراره إذا ما توسلت زوجته إليه أن يبقى(70). لقد بدأ يشعر أن المنزل الأنيق لوالده كان يعصره: amiasma واجبات تافهة قد أثقلت كاهله. عندما كان ينظر إلى حياة البشر، استطاع أن يرى دورة المعاناة القاسية فقط، التي كانت تبدأ برضى الولادة، وتستمر دون هوادة إلى «الشيخوخة، والمرض والموت، والحزن والفساد». ومن ثم لتبدأ من جديد بدورة الحياة التالية. غوتاما ـ على شاكلة النساك الآخرين، كان مقتنعاً أن هذه الحالات المؤلمة لا بد أن لها نظيراتها الإيجابية. قال «أفترض أن أبدأ بالبحث عن غير المولود، والذي لا يشيخ، والذي لا يموت، والذي دون حزن، وغير الفاسد، وعن الانعتاق التام من كل هذه العبودية»(71). أسمى هذا الانعتاق المبارك nibbana (أي الانطفاء blowing out)، لأن الانفعالات والعواطف التي كانت تشده إلى أسفل، ستكون مطفأة مثل لهب. كان أمامه سعي مضنٍ طويل، لكنه لم يفقد الأمل أبداً في شكل وجود ـ ممكن بلوغه في هذه الحياة ـ الذي كان محتملاً وناقصاً، وعابراً. «هناك شيء ما لم يأتي إلى الولادة بالطريقة المعتادة، والذي لم يُخلَق والذي يبقى دون أذى، وإذا لم يكن موجوداً، سيكون من المحال العثور على مخرج»(72). كما أكد.

لقد اعتقد أنه قد وجده فعلاً، مثلما وجده الرهبان الذين اتبعوا تعاليمه ونقلوها شفوياً، حتى وصلوا إلى شكلهم الحالي بعد مائة سنة على وفاة غوتاما. لقد أسموه بوذا «أي المستنير» أو «الشخص الذي استيقظ». الكتب المقدسة البوذية جمعت بلغة بالي pali ـ واحدة من اللهجات السنسكريتية في شمال شرق الهند، وهي مصدرنا الرئيسي للمعلومات عن حياة بوذا. فكما في معظم المدارس

الجديدة التي كانت تظهر في شرق سهل الغانج، فإن التعاليم والممارسات البوذية كانت قائمة على تجربة المؤسس الحياتية، وتؤكد النصوص البالية pali تلك الجوانب من سيرته الذاتية التي ستساعد الآخرين على بلوغ الاستنارة. فإذا أراد الناس أن يصحبوا مستنيرين، عليهم أيضاً أن يغادروا البيت والأسرة، وجميع مشاغلهم خلفهم، تماماً مثلما فعل بوذا.

حكى بوذيون لاحقون قصة أسطورية أوضحت المعنى الأكثر عمقاً لمغادرة غوتاما. فعند ولادته، دعا والده بعض البراهميين لفحص الصبي، وليقولوا له مصيره. تنبأ أحدهم أن غوتاما سيرى المشاهد المزعجة التي سوف تقنعه أن يصبح ناسكاً ويكتشف حقيقة روحية جديدة. كان والده لديه طموحات دنيوية أكبر لابنه، ولذلك حصنه من هذه المشاهد المؤلمة، فعين حراساً حول القصر كي يبقى كل وجود مزعج تحت السيطرة. ومع أن الصبي عاش في ترف، ودون هموم، إلا أنه كان وكأنه سجين. فطالما نبقي قلوبنا مغلقة عن الحزن الذي يحيط بنا من جميع الجوانب، فإننا نبقى غير قادرين على النمو والتبصر في الأمور. لكن عندما كان غوتاما في التاسعة والعشرين، كانت الآلهة بحاجة إلى dhamma البوذية بقدر ما كان يحتاجها البشر، فقررت أن تتدخل. أرسلت الآلهة أربعة منها بالقرب من الحراس، متنكرين في هيئة رجل عجوز، ورجل مريض، وجثمان، وناسك. صدم غوتاما كثيراً بصور الألم هذه، لدرجة أنه ارتدى رداءه الأصفر وغادر البيت في الليلة ذاتها. طالما أن المعاناة هي جزء لا مفر منه للشرط الإنساني قد انكسر من خلال المتاريس التخديرية التي قد نصبناها ضد الألم، فإننا لن نستطيع أن نرى العالم بالطريقة ذاتها ثانية. لقد سمح غوتاما لمعرفة الدوكها dukkha المعاناة أن تغزو حياته، وكان بالإمكان أن يبدأ مسعاه.

بينما كان يسير في الطريق إلى Magadha، من المحتمل أن غوتاما كان يلقي التحية على نساك آخرين بالطريقة المعتادة، كان يسألهم عن معلميهم، وأية dhamma كانوا يتبعون، لأنه كان يبحث عن معلم يلقنه أوليات للتشرد. في البداية درس في vaishali على اثنين من أعظم اليوغيين في عصرهما ألارا كالاما

وأودالاكا رامبوتا. كان تلميذاً ممتازاً، وبلغ أعلى حالات الغيبوبة بسرعة، فكان ذلك مصدر سرور لمعلميه، لكنه لم يستطع أن يقبل تفسيراتهما لهذه التجارب، فهما كانا يتبعان تعاليم السامكهيا، واعتقدا أنهما بعد أن بلغا هذه المستويات العالية للنفس فقد حررا البوروشا من قيود الطبيعة. لكن غوتاما ـ كان طوال حياته ـ شكاكاً بالمعتقدات الميتافيزيقية: كيف يمكن أن تكون هذه الغيبوبة غير مشروطة، والبوروشاغير مخلوقة عندما عرف تماماً أنه قد صنفها لنفسه من خلال خبيره اليوغي؟ زد على ذلك، عندما عاد إلى وعيه، وجد أنه ليس هناك تحول حقيقي. إنه كان مازال يحتفظ بنفسه التواقة، الجشعة وغير المولودة من جديد. غيبوبته لم تكن استنارة، لأن الاستنارة لا يمكن أن تكون مؤقتة. لم يكن لدى غوتاما مشكلة مع اليوغا، لكنه لم يكن ليقبل تفسيرات لا تنسجم مع تجربته الشخصية(73).

ترك غوتاما معلميه، وانضم إلى جماعة من الزهاد. ومارس معهم حالات التقشف الشديدة القاسية التي ألحقت ضرراً بالغاً بصحته. كان يستلقي على حصيرة من المسامير، وأكل من بوله وبرازه، وصام صوماً قاسياً جداً لدرجة أن عظامه برزت مثل نسق من المغازل (جمع مغزل)، أو مثل عضادات سقيفة قديمة، وفي مرحلة أصبح هزيل الجسم كثيراً لدرجة أنه تُرك كي يموت بجانب الطريق. لكن كل هذا لم يكن مجدياً. فمهما كانت كفاراته قاسية، ربما بسببها ـ كان جسمه مازال يضج طالباً الرعاية، لكنه استمر كي يبتلى من قبل الشهوة والصبوات التي كانت تقيده بالحلقة القاسية لولادة ثانية.

لم يكن هناك أثر للسلام والإنعتاق الذي سعى إليه.

مع ذلك، فإن غوتاما لم يستسلم. فمن هذه الفترة فصاعداً سيعتمد على بصائره insights، وهذا سيصبح واحداً من المبادئ المركزية لطريقته الروحانية. كان يقول دائماً لتلاميذه أن عليهم ألا يقبلوا تعاليم أي شخص ـ بصرف النظر عن مكانته الجليلة ـ إذا لم تكن تلك التجارب تتطابق مع تجاربهم الخاصة. يجب ألا يأخذوا أي معتقد إيمانياً، أو إذا كان متداولاً. فحتى تعاليمه يجب تحريها إذا ما فشلت في جلب الاستنارة إلى أتباعه. فإذا ما اتكل الناس على

شخصية مرجعية، فإنهم سيبقون محبوسين في نسخة غير حقيقية عن أنفسهم ولن ينالوا أبداً إنعتاق الاستنارة. ففي لحظة خليط من اليأس والتحدي انهارت صحته من التكفير القاسي، وشارف على شفا موت روحي، فقرر غوتاما أن يبدأ معتمداً على نفسه فقط، صاح قائلاً: «بكل تأكيد لا بد من أن يكون هناك سبيل آخر لبلوغ الاستنارة!»، وكأنما كي يثبت أن إعلانه الاستقلال كان فعلاً الطريق إلى الأمام، البداية لحل جديد قد أعلن عن نفسه له(75).

استحضر فجأة حادثة من طفولته المبكرة. كانت ممرضته قد تركته تحت ظل شجرة تفاح مزهرة بينما كان يشاهد الفلاحة الاحتفالية للحقول قبل زراعة موسم الربيع. جلس الصبي ورأى أن أوراق العشب الغضة كان يمزقها المحراث، والحشرات تقتل. شعر غوتاما بغصة حزن غريبة، وكأنما أقاربه قد ماتوا(76)، وهو يشاهد هذه المقتلة.

تدفق تعاطف غير ذاتي selfless - empathy تجلت عن لحظة تحرر روحي. لقد كان يوماً جميلاً، وشعر الطفل بسعادة نقية تتعاظم داخله. وبشكل غريزي اتخذ الوضعية اليوغية ودخل في حالة غيبوبة، علماً أنه لم يكن أبداً قد تلقى درساً في اليوغا في حياته.

بعد أن نظر إلى الوراء إلى هذه الحادثة في طفولته، أدرك أن الغبطة التي شعر بها ذلك اليوم كانت خالية من الشهوة والجشع. فسأل نفسه «هل من الممكن أن تكون هذه هي السبيل إلى الاستنارة؟». فإذا استطاع طفل غير مدرب أن يبلغ حالة نشوة يوغية، وأن ينال لمحات استنارة، فربما أن انعتاق الموكشا moksha كان متوضعاً في بنية بشريتنا. فبدلاً من تجويع جسده في الاستسلام، وجعل اليوغا هجوماً على نفسه، فلربما كان عليه أن ينمي هذه الميول الفطرية التي أفضت إلى Cetovimutti «أي انعتاق العقل» ذلك كان استنارة. عليه أن يعزز حالات مساعدة للعقل مثل غريزة التراحم الخالي من أي غرض الذي طفا على السطح بشكل طبيعي. وفي الوقت ذاته، أن يتجنب أية حالات عقلية أو جسدية تعيق هذا الانعتاق(77).

على شاكلة Jians، أدرك غوتاما أن «المحرمات» الخمس التقليدية: حالات العنف غير المجدي، والسرقة، والكذب، والسكر، والجنس يجب أن تكون متوازنة من خلال مقابلاتها الموجبة. بدلاً من تجنب العدوان، عليه أن يسلك بلطف وطيبة مع كل شخص وتجاه كل شيء، وأن ينمي مثل الطيبة المحبة. كان من المهم ألا يكذب، ومن المهم جداً أن يتأكد أن أي شيء كان يقوله كان «معللاً، ودقيقاً، وواضحاً، ومفيداً»(78). إضافة إلى الامتناع عن السرقة يتوجب عليه أن يفرح في امتلاك الحد الأدنى فقط. من الآن فصاعداً، سيعمل على طبيعته البشرية وألا يحارب ضدها. فللمرة الأولى طوال شهور، تناول طعاماً صلباً، وبدأ يعتني بنفسه كي يسترد صحته. وبدأ يطور نوعاً خاصاً من اليوغا. أولاً أتت ممارسة التركيز الذهني sati كمقدمة للتأمل، دقق في سلوكه في كل لحظة من اليوم، وملاحظاً كل انحسار وتدفق للمشاعر والأحاسيس، المترافقة مع تذبذبات وعيه. وجعل نفسه مدركاً لتدفق الجدول المستمر للرغبات، والمغيظات، والأفكار التي كانت تعبر عقله في مدة ساعة واحدة. لم يكن هذا الاستبطان مصمماً لاستجرار ذنب اعتبار ذاتي عصابي. ببساطة كان غوتاما يصبح ملماً بوظائف عقله وجسده لكي يستغل قدراتهما ويستعملها للحصول على أفضل فائدة، مثلما يسعى فارس إلى معرفة الحصان الذي يدربه معرفة دقيقة.

غوتاما - مثل نساك آخرين كثيرين - كان مقتنعاً أن الحياة كانت معاناة دوكها، وأن الرغبة كانت المسؤولة عن معاناتنا. ممارسة التركيز العقلي جعلته مدركاً بدقة أكبر لعدم ديمومة، والطبيعة المؤقتة للوجود البشري، ولإحباطاته وخيباته التي لا تحصى. لم تكن المسألة مجرد الرضوض النفسية للشيخوخة والمرض والموت التي جعلت الحياة غير مرضية جداً. «الألم، الحزن واليأس، هي معاناة «دوكها» كما شرح لاحقاً. «كوننا مجبرين على أن نكون في حالة قرب مع ما نكره هو معاناة، وكوننا منفصلين عما نحب هو معاناة، وألا نحصل على ما نريد هو معاناة»(79). وأشار أيضاً إلى أن الطريق التي يشقها المرء طريقاً بعد آخر تستحوذ على عقله وقلبه، ومنوهاً إلى أنه كان باستمرار تواقاً لأن يصبح شيئاً آخر، أو يمضي إلى مكان آخر، أو يحصل على شيء آخر لم يكن

يمتلكه. في تدفق الرغبة الذي لا نهاية له بدا وكأن الكائنات البشرية كانت تسعى إلى نوع جديد من الوجود ـ حياة جديدة، أو ولادة من جديد، استطاع أن يرى ذلك في عدم ارتياح جسدياً، بالطريقة التي كان باستمرار يغير من موقعه، أو أن ينطلق إلى جزء آخر من الغابة: «العالم الذي طبيعته بحد ذاتها هي تغيّر، محكوم باستمرار لأن يصبح شيئاً ما آخر» كما استنتج: «إنه تحت رحمة التغير، إنه يكون سعيداً فقط عندما يكون عالقاً في سيرورة التغير، لكن حب التغير هذا يحتوي على درجة من الخوف، وهذا الخوف بحد ذاته هو معاناة، دوكها»(80).

فهذه لم تكن مجرد أفكار منطقية. كان غوتاما يوغياً بارعاً جداً، ومارس تركيزه الذهني بتركيز منضبط مكنه من رؤية هذه الحقائق بطريقة مباشرة دون تصفية نزعة الأنانية من أجل الحفاظ على النفس الذي يشوهها، لكنه لم يتوقف عند التفكير بهذه الحقائق السلبية، بل عزز حالات Kusala الأكثر براعة بينما كان يؤدي تمارينه اليوغية، جالساً متصالب الساقين، وممارساً طقوس ضبط النَفَس Pranayama. إنه لم يكن يستأصل الكراهية من ذهنه فقط بل متأكداً أنه كان أيضاً «مليئاً بالرحمة، وراغباً بالخير العام لجميع البشر». إنه لم يكن يحرر نفسه فقط من الكسل والعطالة، بل منمياً «عقلاً نيراً، واعياً لذاته، ومتأهباً تماماً». فمن خلال الإبعاد المنهجي لفكرة مقلقة بعد أخرى، وجد أن عقله قد أصبح «هادئاً وساكناً... واجتث شكاً يولّد العنف»، لم يعد معذباً بالحالات العقلية غير المريحة»(81)، إذا ما مورست بعمق كافٍ بالطريقة اليوغية. كان باستطاعة هذه الجهود العقلية ـ كما اعتقد ـ أن تحول الميول القلقة والمدمرة في العقل الباطن وفي العقل الواعي.

في السنوات التالية قال غوتاما إن هذا التركيز الذهني اليوغي قد جلب إلى الولادة نوعاً مختلفاً من الكائن البشري، كائن لا تهيمن عليه الرغبة الملحة، ولا الجشع، ولا الأنانية. كاد أن يقتل نفسه من جراء خضوعه لعملية إفناء النفس مفرطة، وكان مقتنعاً أن الرحمة المكتسبة منهجياً ومنضبطة باستطاعتها أن تأخذ مكان نزعة التقشف العقابية، وتعطي الطامح إمكانية الوصول إلى أبعاد

غير معروفة حتى الآن من إنسانيته. كان يمارس اليوغا يومياً، ويدخل في حالة وعي بديلة، دامجاً كل غيبوبة مع شعور متسامح إيجابي تجاه العالم كله.

سمى هذا التفكير التأملي «الذي لا يمكن قياسه appamana»، عند كل مرحلة من رحلته اليوغية في أعماق ذهنه كان يستحضر شعور الحب عمداً «ذلك الشعور الذي لا يمكن قياسه، والشاسع، والهائل، الذي لا يعرف كراهية»، ويوجهه إلى زوايا العالم الأربع دون أن يلغي نباتاً واحداً، أو حيواناً، أو صديقاً، أو عدواً من إشعاع هذا الحب. لقد كانت رحلته برنامجاً من أربع مراحل: أولاً نمّا ميلاً لصداقة كل شيء وكل امرئ. بعد ذلك تعلم أن يعاني مع الآخرين ومع الأشياء الأخرى، شاعراً بألمهم، مثلما شعر بالإشفاق على أوراق العشب والحشرات تحت شجرة التفاح المزهرة. في الطور الثالث من تأمله كان يستحضر «غبطة تعاطفية» تسرها سعادة الآخرين دون غيرة أو إحساس شخصي بالضعف. وأخيراً عندما كان يدخل الغيبوبة الأكثر عمقاً مستغرقاً جداً في موضوع تأمله لدرجة أنه كان خارج الألم أو السرور، كان يطمح إلى موقف توازن كلي تجاه الآخرين، ليشعر لا انجذاباً ولا كراهية. وهذا التوازن كان في غاية الصعوبة، لأنه كان عليه أن يجرد نفسه تماماً من الأنانية التي تتطلع باستمرار لرؤية كيف يستفيد أو ينتقص الناس الآخرين والأشياء من النفس. فحيث ترسخت اليوغا التقليدية في yogin حالة استقلالية ذاتية منيعة، كان غوتاما يتعلم منهجياً أن ينفتح بكل كيانه على الآخرين، وبذلك كان متسامياً على الأنا من خلال رحمة، وطيبة محبة لجميع المخلوقات الأخرى(89). عندما تُكذَّب هذه الحالات البارعة الإيجابية بالتركيز اليوغي، يمكنها وبكل سهولة أن تضرب جذورها في اللاشعور وأن تصبح اعتيادية.

«مالا سبيل إلى قياسه، كان مصمماً لتحطيم العوائق التي نقيمها بين أنفسنا والآخرين كي نحمي أنانا الهشة. بعد أن يتحرر العقل من القيد العادي الموجه ذاتياً فإنه كان يشعر بالانبساط دون حدود، وتسام دون كراهية أو ضغينة وضيعة»(83). وإذا ما أخذت إلى المستوى الأعلى، هذه اليوغا الرحمة كانت تجلب للطامح «انعتاق العقل» أو الاستنارة nibbana(84).

ليست لدينا فكرة عن طول المدة التي استغرقها غوتاماكي يسترد صحته وينال الاستنارة الأعلى بعد أن ابتكر حميته. النصوص البالية pali تعطي الانطباع أنها كانت عملية سريعة، لكن غوتاما شخصياً قال إنها قد تستغرق سبع سنوات كي نبلغ هذا التحول التام. الطامح سيتعلم تدريجياً العيش دون مشاعر أنانية التي تسمم حياتنا وعلاقاتنا، وسيصبح أقل تأثراً بهذه الصبوات الجامحة، وبينما يصبح مدركاً للطبيعة المؤقتة لهذه الأفكار الغازية، يصبح من الصعب التماهي معها، ويصبح أكثر ملائمة لمراقبة المشتتات التي تحرمنا من السلام(85). فالنصوص تصور غوتاما حائزاً على الاستنارة في ليلة واحدة، لأنها أرادت أن تبين الحدود العامة للعملية، ولم تكن مهتمة بالتفاصيل التاريخية للرحلة، لكن استنارة غوتاما كانت ـ بالتأكيد تقريباً ـ لم تكن وليدة تجربة لحظية. وفي فترة لاحقة حذر تلاميذه من أن «في هذه الطريقة، التدرب، الانضباط، والممارسة تأخذ مفعولها بتدرجات بطيئة، وبدون فهم مفاجئ للحقيقة المطلقة»(86).

القصة التراثية تدور حول غوتاما جالساً تحت شجرة bodhi في أيكة جميلة قرب مدينة uruvela قرب نهر نيرا نجارا. تخبرنا الكتب المقدسة البالية pali أنه في مسار تأمل واحد نال بصيرة حولته إلى الأبد، وكان مقتنعاً أنه قد حرر نفسه من دورة الولادة ثانية(87). لكن يبدو أن هناك القليل مما هو جديد في بصيرته، وتسمى عادة / الحقائق النبيلة الأربع/ قَبِلَ معظم النساك الثلاث الأول: أن الوجود معاناة، والرغبة هي سبب معاناتنا، وأن هناك طريقاً للخروج من هذا المأزق. أما الرابعة فقد شكلت اختراقاً: قال غوتاما إنه اكتشف السبيل الذي يقود من المعاناة والألم إلى إيقافه عبر الاستنارة. سميت هذه الطريقة /الطريقة النبيلة الثمانية المراحل / وبالتالي كانت خطة عمل تتألف من الأخلاقية: رعاية الحالات الماهرة، التأمل، والحكمة التي مكنت الطامح أن يفهم تعاليم غوتاما مباشرة عبر ممارسة اليوغا ويكملها بحياته اليومية. لم يزعم غوتاما أبداً أن الحقائق النبيلة فريدة، بل أنه كان أول شخص ـ في هذه الحقبة التاريخية ـ أدركها

وجعلها واقعاً في حياته الخاصة، لقد وجد أنه قد أخمد التوق، والكراهية، والجهل التي كانت تبقي البشرية في عبودية. لقد بلغ الاستنارة على الرغم من أنه كان يعاني من علل جسدية وتقلبات أخرى، مع ذلك لم يستطع شيء أن ينال من سلامه الداخلي، أو أن يسبب له ألماً عقلياً، وبالتالي نجحت طريقته «الحياة المقدسة قد عيشت حتى نهايتها» صاح منتصراً في نهاية تأمله تحت شجرة bodhi: «ما كان ينبغي فعله قد أُنجز، ليس هناك شيء آخر لأفعله»(88).

ماذا كانت ماهية الاستنارة nibbana؟ الكلمة ـ كما رأينا ـ أن غوتاما بعد بلوغ الاستنارة كان «مُخْمَدَاً». بعد استنارته كان غالباً يسمى تاثاغاتا tathagata أي «مضى» لتعني أنه لم يعد هناك. لكن هذا لم يكن يعني انقراضاً شخصياً، فما تم إخماده لم يكن غوتاما الإنسان بل نيران الجشع، والكراهية، والضلال. عن طريق استئصال حالات العقل غير المقيدة فإن البوذا (كما يتوجب علينا أن نسميه الآن) قد نال سلام فناء النفس التام. كانت هذه حالة، لا يستطيع العالقون في أفعال النزعة الأنانية أن يبدؤوا بتخيلها. لهذا السبب كان بوذا يرفض دائماً تعريف الاستنارة: سيكون من غير اللائق فعل ذلك، لعدم وجود كلمات تصف هذه الحالة إلى شخص غير مستنير(89). البوذا سوف يعاني، وسوف يشيخ، ويمرض مثل كل امرئ آخر، لكن عن طريق التأمل المستمر، والجهد الأخلاقي، فقد وجد ملاذاً داخلياً مكن رجلاً أو امرأة أن يطبق هذا النظام في الممارسة أن يعيش مع الألم، وأن يتملكه، ويثبته، ويشعر بهدوء عميق في خضم المعاناة. فلربما اكتشف سقراط شيئاً مماثلاً عبر التزامه طوال حياته بالنزاهة الصارمة التي جعلته قادراً على الحُلْم. بينما كان يتعرض لإعدام جائر لقد وجدت الاستنارة داخل كيان كل شخص، وكانت حالة طبيعية تماماً. لقد كانت مركزاً ساكناً أعطى للحياة معنى. فالناس الذين يفقدون الصلة بهذا المكان الهادئ داخلهم قد يتداعون، لكن إذا ما تعلموا الوصول إلى هذه الواحة الهادئة، فإنهم لن يندفعوا هنا وهناك بدوافع المخاوف، والرغبات المتنازعة، ويكتشفوا قوة كانت متمركزة بشكل صحيح خارج متناول الأنانية.

كان البوذا مقتنعاً أن الاستنارة لم تكن حقيقة فوق طبيعية، بل كانت حالة تسام تقع خارج قدرات الذين لم يبلغوا هذه اليقظة الداخلية. ليس هناك كلمات تصفها، لأن لغتنا مستمدة من المعلومات الحسية لوجودنا غير السعيد، الذي لا نستطيع أن نستوعب فيه حياة خالية تماماً من الأنا. بكلمات دنيوية صرفة الاستنارة كانت «لا شيء» لأنها لا تشبه أية حقيقة يمكننا التعرف عليها. لكن الذين استطاعوا أن يجدوا هذا السلام المقدس، اكتشفوا أنهم قد عاشوا حياة أكثر غنى بما لا يقاس(90). الموحدون اللاحقون سوف يتكلمون عن الله بكلمات مماثلة قائلين إن الله كان «لا شيء» لأنه «هو» ما كان، وجوداً آخر، وأن الأكثر صحة القول أنه لم يوجد، لأن مفاهيمنا للوجود كانت محدودة جداً لا نستطيع أن نطبقها على الإله(91). إنهم سوف يقولون أيضاً أن حياة رحمة دون ذات سوف تجلب الناس إلى الحضرة الإلهية. وجد البوذا ـ مثلما وجد حكماء ومتصوفون هنود آخرون ـ فكرة إله مشخصن مُحدِّدَة جداً. لقد أنكر البوذا وجود كيان being أسمى متعال لأن إلهاً متسلطاً، مراقباً من علٍ، سيكون سنداً آخر أو قيداً سيعرقل الاستنارة. نصوص بالي pali لا تذكر أبداً براهمن. أتى البوذا من جمهورية ساكا Sakka البعيدة عن قلب موطن البراهمانية، ولربما كان غير عارف للمفهوم. لكن إنكاره الله أو الآلهة كان هادئاً ومحسوباً. لقد وضعها بكل هدوء خارج عقله. والتنديد الساخط بهذه المعتقدات سيكون تأكيداً للأنا لا ينم عن ذكاء. فالآلهة القديمة لعبت ـ أحياناً ـ دوراً في حياته. فعلى سبيل المثال، مارا mara إله الموت ظهر أحياناً في نصوص بالي أنه المغوي لبوذا، ناصحاً إياه أن يأخذ الطريق الأسهل، وكأنه كان جانباً من عقل بوذا تقريباً.

مع ذلك عندما حاول البوذا أن يقدم لتلاميذه لمحة عن ماهية الاستنارة، غالباً ما كان يمزج كلمات سلبية مع كلمات إيجابية. نيبانا (الاستنارة) كانت «إخماد الجشع، والكراهية والوهم»، إنها كانت «ليس فيها ما يعيبها»، لا «تضعف» ولا «تتحلل» و«ل تنتهك» «لا قلق» و«ولا عداوة». إنها ألغت كل شيء

نجده لا يحتمل. واحدة من أكثر الصفات تكراراً المستخدمة لوصف النيبانا هي «deathless أي لا يعتريها الموت». لكن بالإمكان قول أشياء إيجابية عن النيبانا: إنها كانت «الحقيقة»، «الذكية»، «الشاطئ الآخر»، «السلام»، «الأزلي»، «الغاية الأسمى، النقاء، الحرية، الاستقلالية، الجزيرة، الملجأ، المرفأ، المأوى، الماوراء»(92). إنها الغاية الأسمى للبشر والآلهة على السواء، هدوء لا يمكن فهمه، وملجأ آمن تماماً. الكثير من هذه الصور هي بقايا من كلمات استخدمها الموحدون لوصف تجربتهم مع الإله الذي جل عن الوصف.

في العثور على استنارة، بلغ البوذا غايته، لكن هذه لم تكن نهاية رسالته وحياته. في البداية، كان يريد فقط أن يترفه في هذا السلام المتسامي. لقد خطر بباله أن عليه أن ينشر الخبر السعيد، لكنه رفض الفكرة لأنها كانت مجهدة ومحبطة. استنارته كانت شديدة الصعوبة بحيث يتعذر شرحها. فالذين لا يرغبون بالتخلي عن أنفسهم كمعظم الناس الذين يستمرؤون ارتباطاتهم، لا يريدون سماع هذه الرسالة عن إنكار النفس(93). لكن بعدئذ، الإله براهما (تجلي مشهور للبراهمان في شرقي الغانج) قرر أن يتدخل. في النص البالي pali تبدا مثل الإله ماراكي يمثل جانباً من شخصية البوذا: عند مستوى دفين أدرك غوتاما أنه ببساطة لم يستطع أن يهمل أخوته المخلوقات. في نقيض تام لأدوار الآلهة المعتادة، غادر الإله سماءه ونزل إلى الأرض، وركع أمام الإنسان المستنير. صلى قائلاً: «يا رب، أتوسل إليك علّم الدهاما، انظر إلى الجنس البشري الغارق في الألم، وامض إلى كل مكان كي تنقذ العالم». استمع البوذا باهتمام، ويخبرنا نص بالي pali «من منطلق الرحمة نظر ملياً إلى العالم بعين بوذا»(94). كانت هذه ملاحظة مهمة. بوذا لم يكن مجرد شخص أنجز خلاصه الذاتي فقط، بل واحداً ما يزال باستطاعته أن يتعاطف مع ألم الآخرين. الرحمة وطيبة ـ محبة ـ موجهة إلى زوايا العالم الأربع قد جلبته إلى الاستنارة. إن انسحاباً أنانياً سيخرق جوهر دينامية استنارته التي طالبته أن يعود إلى أي مكان في السوق وأن يغدو مهتماً بأسى العالم. جزء مهم من البصيرة التي نالها تحت شجرة bodhi كان أن يعيش أخلاقياً يعني أن يعيش لأجل الآخرين. طوال 45 سنة التالية من حياته، تجول البوذا دون

كلل عبر المدن والبلدات في سهل الغانج حاملاً تعاليمه إلى الآلهة، والحيوانات، وإلى الرجال والنساء.

حواريو بوذا الأول كانوا نساكاً مسبقاً، وقيل أن أحدهم قد بلغ الاستنارة أثناء الموعظة الأولى لبوذا. لقد وضعت النصوص دائماً السيرورة بنفس الطريقة، بينما كان كوندانا يستمع إلى بوذا وهو يشرح الحقائق النبيلة، بدأ يشعر بالتعليم «مباشرة» إنها «تعالت» فيه وكأنها آتية من أعماق كيانه، وكأنه كان قد عرفها، وميزها دائماً(95).

لم يمض وقت طويل حتى بدأ شبان من طبقتي الكاشتريا والبراهمن بالانضمام إلى بوذا. تجار vaishya جذبوا أيضاً بإصراره على الاعتماد على النفس، والذين لم يصبحوا رهباناً غالباً ما أصبحوا أتباعاً ورعاة له. وسرعان ما أصبح سلك بوذا Samgha طائفة كبيرة. قضى الرهبان ساعات كل يوم يمارسون الرحمة البوذية، والتركيز الذهني في اليوغا. لكن كان عليهم أن يعلموا الطريقة إلى آخرين. هذه لم تكن ديناً للنخبة ذات الامتيازات، مثلما كانت الطقوس الفيدية القديمة. إنها كانت «من أجل الكثيرين». غالباً ما عاش الرهبان في متنزهات في ضواحي المدن، مما سهل على سكان المدينة أن تستشيرهم، وحشود من تجار، ونبلاء، ورجالات البلاط يعرجون للاستمتاع إلى البوذا لدى وصوله إلى منطقتهم. لكن معظم الوقت كان الرهبان على الطريق متنقلين «من أجل صالح وسعادة الناس بدافع الرحمة من أجل العالم»(96).

إحدى أكثر السبل شعبية لنيل الاستنارة كان التأمل في المعتقد البوذي المميز anatta أي اللانفس no - self. لم يعتقد البوذا أن الحياة الخالدة (أتمان، أو البوروشا) كانت الحقيقة الأسمى. ممارسة التركيز الذهني جعلته مدركاً أن الكائنات البشرية كانت في حالة تغير مستمر، وأجسامهم، ومشاعرهم تتغير من لحظة إلى اللحظة التالية. بعد تقصٍ منهجي لقناعاته المتغيرة، ولعواطفه، ومفاهيمه فإن شخصاً نزيهاً كان عليه أن يستنتج أن ما من واحدة من هؤلاء يمكن أن تكون النفس التي يسعى إليها نساك كثيرون، لأنهم كان فيهم

عيوب، وهم مؤقتون: «هذا ليس لي، هذا ليس هو أنا ما أكون فعلاً: هذه ليست ذاتي»(97). لكن البوذا مضى إلى ما هو أبعد حتى وأنكر وجود نفس ثابتة «حالة أدنى». كلمتا self النفس و«نفسي myself» كانتا ـ كما اعتقد مجرد اصطلاحين، لأن كل كائن يشعر بتعاقب حالات وجود متغيرة مؤقتة. في يومنا هذا، بعض من فلاسفة ما بعد الحداثة ونقاد أوربيون قد توصلوا إلى نتيجة مماثلة.

كان البوذا يحب أن يستخدم الكنايات مثل: نار متوهجة، أو نهر جار، كي يصف الشخصية البشرية، كان لها نوع من هوية، لكنها لم تكن أبداً هي نفسها من لحظة إلى اللحظة التالية. الاستنارة ـ لا تشبه فكرة ما بعد حداثية ـ لم تكن عقيدة ميتافيزيقية مجردة، بل مثل جميع تعاليمه برنامج عمل. الاستنارة ـ أناتا ـ طالبت البوذيين أن يتصرفوا يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة وكأن النفس لم تكن موجودة. ليس فقط مفهوم النفس يؤدي إلى أفكار غير ذكية حول (me، وmine) بل جعل النفس أولوية أدى إلى الغيرة، وكراهية المنافسين، والغش، والصلف، والقسوة، وعندما تشعر النفس أنها مهددة كانت تلجأ إلى العنف. حاول البوذا أن يجعل تلاميذه يدركون أنهم لم يكن لديهم نفس بحاجة لأن يدافع عنها، تتضخم، وتداور، أو تتعالى على حساب آخرين. وعندما كان يصبح راهب خبيراً في ممارسة التركيز الذهني، فلن يشغل نفسه في حالات عقلية عابرة، بل يعتبر مخاوفه ورغباته ظواهر عابرة وبعيدة وأن لها علاقة قليلة به. ما أن يبلغ الراهب هذا المستوى من إماتة مشاعره فإنه يصبح ناضجاً من أجل تلقي الاستنارة «جشعه سوف يتلاشى، وبعد أن تختفي شهواته فإنه يشعر بانعتاق العقل»(98).

تخبرنا النصوص أن عندما سمع التلاميذ الأول لبوذا إلى شرحه للأناتا امتلأت قلوبهم بالسعادة، وفي الحال شعروا بالاستنارة. لماذا كان ينبغي أن يكونوا سعداء جداً أن يسمعوا أن النفس التي نذللها جميعاً لم تكن موجودة. البوذا كان يعرف أن أناتا قد تبدو مخيفة. فشخص من الخارج قد يحزن معتقداً «أنا سوف يقضى عليَّ وسوف أُدمر، إنني لن أوجد بعد ذلك»(99)، لكن نصوص

بالي تظهر لنا أناساً يتقلبون أناتا بارتياح وسرور. بعد أن عاشوا وكأنما النفس لم تكن موجودة، كانوا يجدون أنهم أكثر سعادة ويشعرون بنفس الانبساط في كيانهم مثلما شعروا وهم يمارسون الأشياء التي لا سبيل لقياسها. أن نعيش خارج مدى الحقد، والجشع، والمخاوف على مكانتنا وبقائنا أثبت أنه محرر.

لكن لم يكن هناك سبيل للبرهنة على هذا عقلانياً. السبيل الوحيد لتقويم الطريقة البوذية كانت أن توضع في الممارسة. لم يكن لديه وقت للصيغ المعتقدية المجردة المعزولة عن التطبيق. لاهوت شخص كان مسألة لامبالاة إجمالية بالنسبة للبوذا. حقاً قبول عقيدة بناء على مرجعية شخص ما آخر كان أمراً لا ينم عن البراعة، ولم يكن بوسعها أن تفضي إلى استنارة، لأنه يعوّل على التخلي عن المسؤولية الشخصية. الإيمان كان يعني الثقة بأنك تلك النيبانا كانت موجودة، وتصميماً على تحقيقها. لقد أكد دائماً أن تلاميذه يختبرون كل شيء كان يعلمهم إياه. فكرة دينية قد تصبح بكل سهولة معبوداً عقلياً، شيء آخر أكثر للتعلق به، بينما هدف النيبانا كان أن تساعد الناس على الانطلاق والتحرر. فحتى تعاليمه هو يجب التخلي عنها بعد تأديتها لوظيفتها. أحب أن يروي قصة مسافر وصل إلى مسطح واسع من الماء، وكان مضطراً للعبور. لكن لم يكن هناك جسر أو قارب، لذلك صنع طوفاً وسار فوقه، لكن بعدئذ، كان بوذا يسأل مستمعيه، ماذا كان على المسافر أن يفعل بالطوف؟ هل كان عليه أن يقرر بما أن الطوف كان مفيداً جداً له، فهل يجب عليه أن يحمله على ظهره ويمضي به أينما يذهب؟ أم يرسيه ويتابع رحلته؟ الإجابة كانت واضحة. «بالطريقة ذاتها أيها الرهبان فإن تعاليمي هي مثل طوف يستخدم لعبور النهر، وليست للتشبث بها» اختتم قائلاً(100): لم تكن مهمته إصدار بيانات معصومة لإشباع الفضول الفكري، بل لتمكن الناس من عبور الألم والوصول إلى «الشاطئ الأبعد». وأي شيء لم يكن يخدم تلك الغاية فليس له علاقة.

لم يكن لدى البوذا نظريات عن خلق العالم أو وجود الله. كانت الموضوعات جذابة جداً، لكنه رفض أن يناقشها. لماذا؟ «لأنها يا تلاميذي لن تساعدكم، إنها ليست مفيدة في السعي إلى القداسة، إنها تؤدي إلى السلام وإلى المعرفة

المباشرة للنيبانا»(101). لقد أخبر راهباً كان يلح على خلق الكون إلى ردع يوغاه والممارسة الأخلاقية، لدرجة أنه كان مثل رجل جريح يرفض العلاج حتى يعرف اسم الشخص الذي أطلق السهم عليه، ومن أي قرية جاء. وبالتالي سيموت قبل أن يحصل على هذه المعلومة التي لا فائدة منها. فما الفارق أن نعرف أن إلهاً قد خلق العالم؟ فالحزن، والمعاناة والألم ستكون موجودة «إنني أبشر بعلاج لهذه الظروف غير السعيدة هنا والآن». هذا ما شرحه البوذا إلى الراهب ذي الميول الغيبية. «لذلك تذكر دائماً ما قد شرحته لك، والسبب الذي جعلني أرفض أن أشرح لك»(102).

كان البوذا يحب إبقاء الشروحات في حدها الأدنى بوذا ـ مثل سقراط ـ كان يريد التلميذ أن يكتشف الحقيقة داخل نفسه. وهذا كان ينطبق على العامة. في إحدى مناسبات «الكالامان Kalamans، أناس قبليون كانوا يعيشون على الضفة الشمالية لنهر الغانج، أرسلوا مندوباً إلى البوذا. كل ناسك كان يقلل من شأن معتقدات الآخر. فكيف كان باستطاعتهم أن يعرفوا من كان محقاً؟ أجاب البوذا أنه استطاع أن يرى لماذا كان الكالامان مربكين. إنه لم يضف إلى حيرتهم بإخبارهم الحقائق النبيلة الأربع، بل عقد جلسة تعليمية إرتجالية، كان الكالامان يتوقعون أناساً آخرين أن يخبروهم الإجابات ـ كما شرح ـ لكنهم لو أنهم نظروا داخل قلوبهم لكانوا وجدوا أنهم كانوا ـ يعرفون مسبقاً الطريق القويم للعيش. فعلى سبيل المثال هل كان الجشع جيداً أم سيئاً؟ هل لاحظ الكالامان أن إذا ما كان شخص تأكله الرغبة، من المحتمل أن يسرق، أو يكذب، أو حتى يقتل؟ ألم يجعل هذا النوع من السلوك الشخص الأناني غير محبوب، ولذلك غير سعيد؟ أفلا تؤدي الكراهية والوهم إلى الألم والمعاناة؟ عند نهاية النقاش وجد الكالامان أنهم كانوا يعرفون dhamma البوذا كلها. «لذلك السبب طلبت منكم ألا تعتمدوا على أي معلم» اختتم البوذا نقاشه. «عندما تعرفون في أنفسكم أن هناك أشياء مفيدة، وأخرى غير مفيدة، يجب عليكم أن تمارسوا هذه القيم المعنوية وتتشبثوا بها، بغض النظر عما يقوله لكم أي امرئ آخر»(103). لقد عدَّل شكلاً من التأمل في «ما لا يمكن قياسه» إلى عامة الناس كي يساعدهم في اكتشاف الموقف الذكي الموصوف في قصيدة بوذية قديمة.

دع جميع الأشياء تكون سعيدة، سواء من مكانة ضعيفة، أو قوية، عالية أو متدنية،

صغيرة أو عظيمة، مرئية أو خفية، قريبة أم بعيدة
حية أو ما تزال ستولد، فلتكن جميعها سعيدة تماماً!
دع لا أحد يكذب على أي أحد، أو يكره أي كائن واحد في أي مكان.
لا يتمنى شخص أذى لمخلوق واحد، نابع من الغضب أو الكراهية.
دعنا نرعى جميع المخلوقات، مثلما ترعى أم طفلها الوحيد!
فلتملأ أفكارنا المحبة العالم كله، فوق، وتحت، وعبر.
دون حدود. إرادة خير لا محدودة تجاه العالم كله،
غير مقيدة، خالية من الكراهية والعداوة(114)

إذا ما تصرفوا بهذه الطريقة، وكان هناك حياة مستقبلية ـ اختتم البوذا ـ فإن الكالامان قد يراكمون كارما خيرة ويولدون آلهة من جديد. لكن إذا لم يكن هناك حياة أخرى، فإن أسلوب حياتهم الأنيس المراعي لحقوق الآخرين قد يشجع الآخرين على الاستجابة لهم بالطريقة ذاتها. في الحد الأدنى سيعرف الكالامان أنهم قد تصرفوا حسناً، وهذا كان دائماً راحة(105).

البوذا كان دائماً يدخل في الموقف الذي كان يتبناه الناس الذين كان يخاطبهم، حتى لو لم يكونوا يتفقون معه. كما هي الحال دائماً، الرحمة كانت المفتاح. أحد أتباعه كان ملك pasenadi ملك كوسالا، الذي لَمَّحَ ذات يوم إلى أنه هو وزوجته قد اعترف كل منهما للآخر أنه ما من شيء كان أعز عليهما من نفسيهما. بكل وضوح هذا لم يكن وجهة نظر يستطيع البوذا أن يشاطرها، لكنه لم يوبخ الملك أو ينطلق في نقاش أناتا، بدلاً من ذلك طلب من الملك أن يفكر في هذا: إذا كان الملك وجد أنه ليس هناك أعز عليه من نفسه، فإن آخرين يجب أن يشعروا الشيء ذاته. اختتم البوذا قائلاً «الشخص الذي يحب النفس يجب ألا يؤذي نفس الآخرين»(106). هذه كانت رؤيته للقاعدة الذهبية.

عامة الناس لم يكن باستطاعتهم أن يميزوا نزعتهم الأنانية تماماً مثلما يفعل راهب، الذي كان مكرساً كل وقته إلى مهمته، لكن باستطاعتهم أن يستخدموا تجربتهم بالأنانية كي يتعاطفوا مع ضعف الناس الآخرين. هذا سيأخذهم خارج مبالغات الأنا ويعرفهم على جوهر قيمة الرحمة.

في نحو نهاية حياته توفيت زوجة الملك Pasenadi، وهو وقع في إحباط مزمن. أخذ يقود العربة في الريف دون هدف، وذات يوم اكتشف متنزهاً مليئاً بالأشجار المعمرة الرائعة. بعد أن ترجل من عربته، سار بين الجذوع الضخمة، ولاحظ الكيفية التي «أمدته بالثقة». «إنها كانت هادئة، لا أصوات متنافرة أزعجت سلامها، لقد أصدرت إحساساً بأنها كانت منفصلة عن العالم العادي، وقدمت ملجأ من قسوة الحياة». النظر إلى هذه الأشجار الرائعة جعل الملك يفكر مباشرة بالبوذا، فقفز إلى عربته، وانطلق أميالاً حتى وصل إلى المسكن الذي كان فيه بوذا ـ كان حينها رجلاً عجوزاً في الثمانين(107) ـ بالنسبة للعديد من معاصريه كان البوذا ملاذاً للسلم في عالم عنيف مليء بالأسى. البحث عن مكان منعزل، بعيداً عن العالم ومع ذلك رائع داخله ـ أي غير منحاز، عادل تماماً، هادئ يملؤنا بالثقة ـ ضد جميع المفاجآت ـ توجد جدوى في حياتنا. هذا ما سعى إليه أناس كثيرون في العصر المحوري عندما بحثوا عن الله ـ براهمن أونيبانا. لقد بدا أن البوذا يحتوي كل هذا في شخصه، لم يكن الناس ينفرون من عدم اندفاعه، ولا يتضايقون من افتقاره إلى تفضيل شيء أو شخص على آخر، إنه لا يبدو أنه أصبح فاقد الدعابة، قاسياً، غير إنساني، بل ألهم عاطفة غير عادية في جميع من قابلوه: لطفه الدائم، وداعته، وعدالته بدت أنها تلامس قوساً، وتردد أصداء توقها الأعمق. مثل سقراط وكونفوشيوس. لقد أصبح بوذا ما أسماه كارل غاسبار شخصية تحتذى، شخصية جسدت ما كان بإمكان الكائن البشري أن يكون أو يجب أن يكون(108). هذه الأعلام المضيئة في العصر المحوري قد أصبحوا نماذج، ومحاكاتهم ستجعل أناساً آخرين ينجزون بشرية سامية جسدوها.

ذات يوم وجد براهمي البوذا جالساً تحت شجرة، ومنظر الوداعة، والسكون وضبط النفس ملأت الكاهن بالرهبة. ذكره البوذا بفيل: كان هناك نفس الإحساس بالقوة الهائلة، والقدرة الكبيرة كانت تحت التحكم، ومنسرية في سلام استثنائي. لم يكن البراهمي قد رأى رجلاً مثل البوذا من قبل. سأله البراهمي: «هل أنت إله يا سيدي؟ هل أنت ملاك أم شبح؟» أجاب بوذا كلا. لقد كشف ببساطة عن قدرة جديدة في طبيعته البشرية. كان ممكناً العيش في هذا العالم المليء بالألم في سلام، وفي تحكم، وبانسجام مع زملائه المخلوقات. بعد قطع الناس جذور نزعتهم الأنانية، فإنهم عاشوا في ذروة قدرتهم، وسوف ينشطون أجزاء من كينوناتهم التي كانت عادة هاجعة. كيف كان يجب على الإبراهمي أن يصفه؟ قال البوذا له: «تذكرني كامرئ مستيقظ»(109).

الفصل الثامن

الكل واحد

400 ق.م إلى 300 ق.م

ما أن حل القرن الرابع حتى كان التحول السياسي والاقتصادي الصيني يتقدم بسرعة مذهلة. استمرت الحروب، فكان الأمراء بحاجة إلى تمويل حملاتهم المكلفة، ولذلك شجعوا التطور الاقتصادي التجاري الجديد(1). وفي أواخر القرن الخامس، كان الصينيون قد اكتشفوا كيفية صب الحديد، وبأدواتهم الحديدية القوية كانوا قادرين أن يقطعوا مساحات شاسعة من الغابات. ومع حلول القرن الرابع كان وادي wei، وحوض Chengdu والسهل الأوسط تحت زراعة مستمرة. تعلم المزارعون استخدام السماد العضوي للتمييز بين أنواع التربة المختلفة، وأفضل الأوقات للحراثة والبذار أو لتصريف المياه. فتحسنت المحاصيل، وحدث نمو سريع بأعداد السكان على الرغم من شؤون الحرب المدمرة. نشأت طبقة جديدة من التجار الذين كانوا يعملون مع الأمراء ببناء أماكن للسباكة وتطوير المناجم. بينما أسس التجار الأكثر طموحاً امبراطوريات تجارية ضخمة، ونقلوا بضائعهم إلى كوريا الشمالية، والسهوب، وإلى الهند، تاجروا بالمنسوجات والحبوب، والملح، والمعادن، والجلود، واستخدموا عدداً متزايداً من الحرفيين والوكلاء وأساطيل من العربات والقوارب.

لم تعد المدن مجرد عواصم سياسية ودينية، بل أصبحت مراكز للتجارة والصناعة، يقطنها آلاف المواطنين. في الفترة الإقطاعية كان يبلغ أسوار البلدات والقصور الصغيرة نحو 500 ياردة، فأصبحت أسوار بعض المدن أكثر من مائتي ميل طولاً.

في القرن الرابع كانت Linzi عاصمة ولاية Qi أكبر مدينة في الصين ويسكنها ثلاث مائة ألف نسمة، طبقة مدينية من الحرفيين والمهنيين لم يعودوا مرتبطين بالقصر الملكي، ونعم الأغنياء بوسائل ترف جديدة وصناعة وسائل الترفيه. أصبح أمراء Qi رعاة للعلماء البارزين في الصين، وفي عام 357 أسسوا أكاديمية Jixia قرب البوابة الغربية لـ linzi حيث عاش متعلمو Shi في شقق جيدة التجهيز، وتقاضوا رواتب سخية(2).

نعم الكثيرون بهذه التحولات، لكن آخرين كانوا يصبحون مدركين أن حياتهم كانت مختلفة جداً عن الحياة المطقسنة لأجدادهم. أمراء الدول المزدهرة الكبيرة لم يعودوا محاطين بقيود طقوسية. فبدلاً من «لا تفعل شيئاً» كما كانت Li تطالب الملك، سعى الحكام متحمسين وراء سياساتهم الطموحة، وكانوا مصممين على احتكار السلطة. في مطلع القرن الرابع استبدل ملك wei البارونات الوراثيين والوزراء بالخدمة المدنية قوامها موظفون يتقاضون رواتب. كانت الدوائر الإدارية القديمة مرتبطة بالعائلات الكبيرة، لكن أصبح باستطاعة الملك أن ينتقي موظفيه، وإذا لم يكونوا طيعين كان يتخلص منهم بكل بساطة. وكان السياسيون غير المقنعين يتعرضون للنفي أو الإعدام. أخذت دول أخرى تحذو حذو wei، وبالتالي أصبحت السياسة لعبة شديدة الخطورة. كان الأمراء لا يستشيرون القيمين الأخلاقيين من طبقة shi، لكنهم كانوا يعيرون جل اهتمامهم إلى طبقة التجار. لقد عكست سياساتهم ـ وبشكل متزايد ـ النزعة البراغماتية الذكية وحسابات الروح العامة التجارية الجديدة.

فالنمو الاقتصادي زاد المظالم، وسبب شرخاً اجتماعياً هائلاً. كان الفلاحون يساقون إلى الجيش، ويبعدون عن بيوتهم وأرضهم، فبعضهم أصبحوا مزارعين ناجحين، وآخرون غرقوا في الديون وطردوا من أراضيهم، أما الحكام فسرقوا العديد من المستنقعات والغابات حيث كان الفلاحون يصطادون، أو يجمعون الحطب. لقد تضررت المجتمعات القروية كثيراً، وكان فلاحون كثيرون مجبرين أن يعملوا في المصانع وفي أماكن السباكة. بعض العائلات

الأرستقراطية قد دمرت، وبعض الإمارات القديمة كانت تتعرض لخطر انقراض مستمر. خواء كبير قد حدث في حياة أناس كثيرين. سأل Ku yuan أمير وشاعر chu «ما هو القانوني، وما هو غير القانوني؟». هذا البلد هو قطعة كآبة، لم يعد هناك شيء نقي أبداً. المخربون مُعَظَّمون. والحكماء من مولد جيد دون شهرة»(3). لقد توسل لأميره أن يستشير رجلاً مقدساً وأن يعود إلى الطريقة The way of Heave، لكنه طردوا ونفي وانتحر في عام 299. بينما آخرون لم يكونوا يريدون أن يفعلوا شيئاً مهما كان لهذا العالم الجديد الشجاع، فانسحبوا إلى الغابة. فالنساك كانوا يختارون العيش خارج المدينة لبعض الوقت. التقى كونفوشيوس بعضاً من هؤلاء النساك الذين سخروا من محاولاته لإصلاح المجتمع(4). لم يكن هؤلاء المعتكفين مثل زهاد الهند. بكل بساطة كانوا يريدون حياة هادئة. فاتخذ بعضهم الأرضية الأخلاقية العالية، وتحدثوا بأسلوب «انتقادي وساخر» من حالة الشؤون الراهنة. بطلهم كان Shen Nong الملك الحكيم الأسطوري الذي ابتكر الزراعة(6). لم يكونوا مثل الحكام الطموحين في عصرهم. لم يحاول شين نونغ أن يجعل إمبراطوريته مركزية، فسمح لكل إقطاعية أن تبقى مستقلة ذاتياً، ولم يرعب وزرائه - عدا عن تفتيش منتظم للمحاصيل - لقد حكم من خلال «عدم فعل شيء». كان نساك آخرون راضين أن يعيشوا حياة خمول يصطادون في البر وفي المياه وفي الغابات والمستنقعات(7). لكن مع حلول منتصف القرن الرابع طوروا فلسفة نسبوها إلى امرئ يدعى «ماستريانغ أي المعلم يانغ»(8).

لم يخلف يانغزي yangzi وراءه كتاباً، لكن أفكاره كانت محفوظة في نصوص أخرى. لقد أصدر تحدياً مزعجاً ومباشراً إلى الكونفوشيوسيين والموهيين Li Mohistis.. الأسرة أكدت أن حياة شخص ليست ملكاً له، وأن السماء حددت للبشر مدة ثابتة من الحياة، لذلك إن تضع حياتك في خطر، فإن تنتهك إرادة السماء. أما وقد أصبحت الحياة في البلاط خطرة جداً، لذلك فإن السعي إلى منصب سياسي كان يعد خطأ واضحاً(9). قام أتباع المعلم يانغ بالانسحاب من الحكومة - ليس بسبب التواضع - كما اعتقد كونفوشيوس - بل لأنهم رفضوا أن يعرضوا حياتهم أو حياة الآخرين للخطر. كان اليانغيون يحبون

إيراد نموذج تام فو Tan Fu ـ أحد أسلاف ملوك الزهو الذي تنازل عن العرش بدلاً من قتال جيش غازٍ: «أن يرسل الأبناء والأخوة الأصغر ممن أعيش معهم إلى حتفهم، هو أمر لا أستطيع أن أحتمله»، كما قال في خطاب تنازله عن العرش(10).

لم يكن لدى اليانغيين سوى ren أو «الاهتمام بكل واحد». فلسفتهم كانت «كل امرئ لنفسه»(11). بدا هذا أنانياً جداً عند أتباع كونفوشيوس الذين تذمروا من «إذا كان باستطاعة يانغزي أن يفيد الإمبراطورية إذا ما شد المرء شعره، فإنه لن يفعل ذلك»(12). لكن أتباع يانغ أكدوا أن التورط مع أناس آخرين أو مؤسسات هو أمر لا يتسم بالمسؤولية، واجبك الأول هو أن تحافظ على حياتك الخاصة وأن تفعل فقط ما كان يأتي بشكل طبيعي(13). يجب على أتباع يانغ ألا يتدخلوا بطبيعتهم البشرية، بل يجب أن يتبعوا الطريقة The way التي رسختها السماء. رفض السرور أو الخضوع لحياة البلاد الطقسية الاصطناعية التي كانت تشوه العلاقات البشرية كان يعد أمراً خاطئاً. لم يكن باستطاعتك القيام بصلة حقيقية مع الناس إذا ما اتبعت Li بدلاً من مشاعرك. الحياة يجب أن تكون عفوية وصادقة.

المثل الأعلى اليانغي جذب أناساً كثيرين في الصين، بينما وجده آخرون مصدر قلق(14). لقد اعتقدوا أن الطقوس ترسخ طريقة السماء على الأرض. فهل كانت هذه Li مضرة حقاً؟ فإذا كان يانغزي محقاً فإن الملوك الصالحين الذين حرموا أنفسهم من المتعة من أجل رعاياهم كانوا ملوكاً أغبياء، وتفكيرهم خاطئ، بينما طغاة لا أخلاقيون كانوا يمتعون أنفسهم كانوا أكثر قرباً إلى السماء.

هل كان البشر ـ بالأساس ـ أنانيين؟ إذا كان الأمر كذلك ما الذي بالإمكان فعله لجعل العالم مكاناً أفضل؟ وما هي أسس الأخلاق؟ هل كان المثال الأعلى الكونفوشيوسي تشذيب النفس فاسداً؟ وما هي ماهية الطبيعة البشرية التي كان أتباع يانغ يقدرونها عالياً جداً؟ ناقش علماء أكاديمية Jixia هذه المسائل، وكتب أحدهم إجابة لاذعة كونفوشيوسية على النزعة اليانغية في مقالة صوفية تدعى / التدريب الداخلي Inward Training كدليل للحاكم.

قال المؤلف إن ren لم تكن تشويهاً للطبيعة البشرية بل إنجازاً لها، كلمة ren بحد ذاتها كانت مرادفة لكلمة الإنسانية. فإذا ما أراد أمير أن يصبح حقاً «إنساني القلب» عليه أن يكتشف لب كيانه. بدلاً من الهروب إلى الغابة ليجد السلام والأمن، عليه أن ينمي هدوءاً داخلياً عن طريق التأمل من خلال تعلمه أن يكبح عواطفه، ويهدئ رغباته، ويفرغ عقله من الأفكار المشتتة، سيجد الأمير نفسه الحقة. إنه سيجلي قدراته العقلية، وستتحسن صحته الجسدية، وسيكتشف ـ دون القيام بجهد أكبر ـ أنه قد أصبح «بشكل طبيعي» إنسان ren. لقد اكتشف الصينيون الاستبطان، وبحلول القرن الرابع طوروا نسختهم الخاصة بهم من اليوغا. إننا نعرف القليل جداً عن هذه الأشكال المبكرة من التأمل. لكنها ـ كما يبدو ـ كانت تتضمن تدريبات على التركيز والتنفس المنضبط. في الأيام الغابرة رَسَّخَ الملوك الطريقة The way من خلال تبنيهم لتوجيه جسدي. أما الآن، وفقاً للتدريب الداخلي كان باستطاعة أمير أن يشكل العالم وفقاً للأشياء الصحيحة عن طريق إيجاده لمركزه الحقيقي في داخله.

كان التأمل الصيني قائماً على إدارة qi، وهذه كلمة يصعب ترجمتها. Qi كانت المادة الخام للحياة، طاقتها الأساسية، وروحها البدئية. إنها أحيت جميع الكائنات، وأعطت كل شيء قوامه وشكله المميزين. الـ qi الدينامية ـ بنيان فرعي للحقيقة فعال دون توقف ـ كانت مثل ذرات ديمقريط، عدا أنها كانت أكثر غموضاً. تحت توجيه الطريقة The way القوة المسيطرة المطلقة، ومن فترة لأخرى تتراكم في اندماجات متنوعة لتشكل صخرة أو نباتاً أو كائناً بشرياً. لكن ما من واحدة من هذه الخلائق كانت خالدة. في نهاية المطاف، qi سوف تتوارى، سيموت الشخص أو النبات، والصخرة سوف تتفكك. لكن qi كانت ما تزال حية، وسوف تستمر في مرجل تغير لا يتوقف، وفي النهاية تتجمع ثانية وتتخذ شكلاً مغايراً. كل شيء في الكون كان يشترك في نفس الحياة، على الرغم من درجات تكثيف متفاوتة.

الشكل الأكثر تركيزاً ونقاءً لـ qi كان أن تكون نفسها، جوهر الحقيقة. في التأمل تعلم المتأمل أن يحرر his qi. عن طريق إزالة منهجية لجميع الرغبات، والكراهية، والنشاط العقلي القلق الذي أعاق مسار qi الطبيعي، فإن المتأمل

كان يمكن his qi أن تنساب دون إعاقة عبر قلبه، وعقله، وجسده بالطريقة التي أرادتها السماء. بعد أن ينجز هذا الانحياز الكلي إلى الطريقة، كان يسقط في غيبوبة وسلام مقدس كان ينبثق من داخله، هذه كانت الـ shen، نفسه الأكثر إلهية وعمقاً، التي كانت واحدة مع جوهر الوجود. ولذلك، في التأمل، كان الأمير المستنير يكتشف طبيعته الحقة. وكان يكتمل ليس فقط قلبه - عضو التفكير - بل سمعه، وبصره - وأعضاؤه كانت تصبح أكثر صحة أيضاً(15). وبذلك سيكون قادراً أن ينهي مدة الحياة المقدرة له. ولأنه كان واحداً مع Jing جوهر كل شيء موجود، كان يشعر بإحساس اتحاد مع كلية الحقيقة، وكان باستطاعته أن يسأل: «جميع الأشياء هي تحت طلبي، داخل نفسي»(16).

في زمن كانت الصين فيه ممزقة في حروب مرعبة، كان النساك الصينيون يكتشفون هدوءاً داخل أنفسهم كان يشد كل شيء سوياً. هذه الرغبة من أجل التوحيد ألهمت أيضاً الأسلوب الجديد بالجدل والمناظرة، أدت النقاشات المكثفة بين الموهيين، والكونفوشيوسيين، واليانغيين إلى افتتان بآليات الجدل. مثل الحكماء الإغريق «كان المناظرون يستمتعون بقدرتهم على إثبات كلا جانبي النقاش ونقض الأفكار المتداولة. وجدها أناس كثيرون سخيفة وغير مسؤولة، لكن المناظرين رأوا عملهم كقوة متماسكة جعلت موضوعات كانت تبدو مفككة جمعتها سوياً، وكشفت عن وحدة كامنة فيما بين هذه الموضوعات. قال أحدهم متعجباً «لقد جلبت سوياً تشابهاً واختلافاً، صلابة مرئية، وبياضاً، ما كان مؤكداً وما لم يكن مؤكداً، ما كان ممكناً، وما لم يكن ممكناً»(17).

الرجل الأشهر بين هؤلاء المجادلين الأول كان رجلاً مرموقاً يدعى هوزي Huizi (370 ـ 319) كان رئيس وزراء wei إحدى أكثر الدول المتحاربة تطوراً. لم يبق سوى نذر يسير من مؤلفاته، لكنه يبدو أنه كان على صلة قوية مع الموهية Mohism. المؤلف الوحيد الذي وصل إلينا مجموعة من عشر مفارقات كشفت عدم الثبات الذي تبينه في قلب الوجود(19). أرد هوزي أن يوضح أن الكلمات كانت مضللة لأنها كانت تعطي ديمومة وصلابة مضللتين. قال «اليوم غادرت إلى

ueh y ووصلت البارحة». الزمن كان نسبياً تماماً. البارحة اليوم كان يوم البارحة، ويوم اليوم سيكون البارحة غداً. في مفارقة أخرى أوضح نسبية مفاهيمنا عن المكان: «أنا أعرف أين يقع مركز العالم كله: شمال yen وجنوب yuen» لأن yan كانت في شمال الصين، وyuen كانت في الجنوب، «المركز» يجب أن يكون منطقياً واقعاً بين هذين الطرفين. لكن إذا خطوت خارج منظور صيني دقيق، كان واضحاً أن أية بقعة قد تكون مركز العالم، مثل أية نقطة على خط قد تكون هي نقطة البداية لدائرة.

الأطروحات كانت ـ في الحقيقة أفكاراً ـ للتأمل، مصممة لتبين أن الفروقات التي نتخيل أننا نراها كانت أوهاماً. حتى الحياة والموت كانا جانبين كل منهما للآخر. «عندما تكون الشمس في المركز، فإنها تكون في انحسار، وأن كل مولود ميت» كما قال هويزي. كل شيء في حالة حركة منذ اللحظة الأولى لوجوده، وحياة أي مخلوق تبدأ بالاضمحلال. لقد استخدم الناس كلمات مثل «عالٍ» و«منخفض» بمعنى مطلق دون إدراك أن أي جسم يكون عالياً بالمقارنة مع شيء آخر. وبذلك «السماء هي على نفس المستوى مثل الأرض والجبال المستوية مع المستنقعات». من الخطأ أن نضع الأشياء في تصنيفات صلبة وسريعة، لأن كل شيء هو فريد حتى الأجسام التي كانت متشابهة سطحياً. «فما هو متصل هو منفصل». وبالتالي جميع الأشياء كانت واحدة: السماء والأرض، الحياة والموت، العالي والمنخفض. كسياسي وناشط وموهي Mohist، ربما أراد هويزي أن يوحي أن جميع الكائنات لها قيمة متساوية، والحظوة الاجتماعية كانت أيضاً عرضة للتغير.

في أولى هذه الطروحات أشار هويزي إلى حقيقة تقع وراء أي شيء نشعر به في حياتنا العادية. «الشيء الأعظم ليس له شيء خارجه، ونحن نسمي هذا الواحد العظيم، الشيء الأصغر ليس له شيء داخله، ونسمي هذا الواحد الأصغر». لقد قلنا أن جسماً «كبيراً» فقط لأنه كان أكبر من شيء ما آخر. مع ذلك تصنيفات «الأكبر» و«الأصغر» موجودة في عقولنا التي أوضحت أن لدينا المقدرة على أن نتخيل المطلق. فاللغة جردت تعالياً كان موجوداً في بنية تفكيرنا. لاقت مفارقات

هـويزي صدى روحانيـاً واجتماعياً لم تلاقه مفارقات زينـون، وأطروحاته كانت مـؤطرة بمفـاهيم التعـالي والرحمـة. في الأطروحـة الأولى وجـه هـويزي انتباهنـا إلى الواحد العظيم الذي لا يمكن أن يوجد شيء خلفه. الأطروحتان العاشرة والأخيرة كانتا موهية Mohist «المحبة تضم جميع أشكال الحياة، والسماء والأرض هما من الواحد One: لأن الفوارق التي نبني عليها ما نحب وما نكره كانت أوهاماً، لذلك يجب أن نشعر باهتمام مساوٍ تجاه جميع الكائنات. نظرت الأطروحة الأولى إلى الخلف إلى الأولى لأن «الواحد العظيم» كان يحتوي كل الوجود، السماء والأرض ليستا مفارقتين ومتمايزتين بل واحداً»(21). ولذلك كل شيء كان يستحق حبنا واهتمامنا المطلق.

هذه النظرة الروحية تساعد في تفسير الصداقة غير المحتملة بين هوزي وزهو أنغزي Zhuangzi (370 ـ 311) واحد من أهم الشخصيات في العصر المحوري الصيني. كان يانغياً وناسكاً يبدو للوهلة الأولى أنه كان لديه القليل المشترك مع رئيس الوزراء الموقر لـ Wei. لقد بقي لا منتمياً طوال حياته. ذات مرة زار ملك wei مرتدياً رداءً ممزقاً، وحذاؤه مربوطاً بخيط، وطوال سنوات قليلة عاش في حي فقير يكسب عيشه من حياكة الصنادل. لكن زهو آنغزي كان عقلاً أصيلاً وذكياً، ولم يكن يشعر أبداً أنه في متاهة أمام الأغنياء والمتنفذين. كان يحب النقاش مع هويزي، وبعد وفاته اشتكى أنه لم يعد لديه من يتحدث إليه. لكن في نهاية المطاف شعر زهوآنغزي أن الديالكتيك كان شديد الضيق. فهو يرى مثلاً أنه كان موهياً Mohist، لكن أليس ممكناً أن يكون أتباع كونفوشيوس محقين؟ فإذا كان كل شيء نسبياً ـ كما اقترح هويزي، فلماذا يجب أن تكون فلسفة واحدة فقط هي الصحيحة؟ ففي رأيه الفلاسفة المتنازعون المسجلون للنقاط كانوا ذوي نزعة أنانية محضة: الطريقة The way كانت خارج المفاهيم البشرية المحدودة كما هو صحيح أو خاطئ للحقيقة أو الزيف.

الكتاب الذي ينسب إلى زهو أنغزي هو مجموعة نصوص تعود إلى القرن الرابع حتى نهاية القرن الثالث. وتراثياً، الفصول السبعة الأولى فقط يعتقد أنها تحتوي على تعاليم زهو آنغزي الخاصة، لكن التحليل المعاصر أوضح أن هذه

«الفصول الداخلية» تتضمن مادة لاحقة، وأن بعضاً من الفصول الأخرى هي أقرب أسلوباً إلى زهوآنغزي التاريخي. يبدأ الكتاب كدفاع عن الحياة الخاصة. زهوآنغزي أغضبه الموهيون Mohists والكونفوشيوسيون الذين ـ كما اعتقد ـ كانوا ينفجرون بإيجابية بأهمية النفس، ومقتنعين بتباءٍ أن لديهم رسالة إنقاذ العالم. فالسياسة لم تستطع أن تغير الطبيعة البشرية: عندما يتدخل الملوك والسياسيون في حياة رعاياهم، فإنهم يجعلون الأمور أكثر سوءاً. لقد آمن زهو أنغزي باللاحكومة. فإجبار الناس على إطاعة قوانين صاغها البشر كان أمراً غير طبيعي وتناقضاً، لأن هذه مثل تقصير سيقان الغرنوق، أو وضع رسن حول رقبة حصان، أو خيط في أنف ثور(23).

عندما انسحب زهو آنغزي من الحياة العامة ـ لأول مرة ـ بحثاً عن السلام والأمن كان ما يزال يانغياً. لكن ذات يوم أدرك أنه كان محالاً لأي مخلوق أن يعيش آمناً تماماً وحياته محمية(24). لقد شارك في لعبة ـ كاحتياط ـ كي يصطاد طائراً بعد أن حدد مكان طائر أبو زريق mapie، وصوب نحوه بدقة، متوقعاً أن يطير الطائر. لكن لم ير الطائر زهوآنغزي لأن عيناه كانتا مركزتين على زيز لذيذ، وكان يتشمس في بقعة ظليلة غير مكترث بسلامته الذاتية. سرعوف مفترس كان متأهباً للقفز على الزيز، وكان مصمماً على المطاردة لدرجة أنه تجاهل طائر أبا زريق، فانقض على فريسته بحماسة عالية وأمسكها غير عابئ بزهو. تنهد زهوآنغزي شفقة «آهٍ إذن إن شيئاً يجلب كارثة على آخر، ثم على نفسه». لم يكن أي من هذه المخلوقات مدركاً للخطر المحيق به لأن كلاهما كان مبرمجين أن يصطاد أحدهما الآخر. وسواء أرادا أم لا كانا منخرطين في سلسلة تدمير متبادلة. ما من أحد باستطاعته أن يعيش حياته معزولاً تماماً ـ حتى ولا الناسك: زهو أنغزي شخصياً كان منشغلاً جداً وهو يصوب إلى الطائر الذي لم يلحظ الظهور المفاجئ لحارس المباراة الذي طارده غاضباً من المنتزه. كان لهذه الحادثة تأثيراً قوياً على زهو آنغزي، وبقي محبطاً طوال ثلاثة شهور. استطاع أن يرى ـ الآن ـ أن العقيدة اليانغية كانت قائمة على وهم: كان من المحال أن تحمي نفسك بالطريقة التي علمها يانغزي.

كان مفروضاً علينا أن ندمِّر وندَّمر، أن نأكل، ونؤكل.. لم يكن في وسعنا أن نهرب من قدرنا. حتى نصبح متصالحين مع عملية التدمير والانحلال التي لا نهاية لها، لن يكون لنا سلام.

بعد هذه الحادثة في المنتزه وجد زهوآنغزي أنه بدأ ينظر إلى العالم بطريقة مختلفة تماماً. بدأ يدرك أن كل شيء في حالة تغير وباستمرار في سيرورة أن يصبح شيئاً ما آخر ـ مع أننا كنا نحاول دائماً أن نجمد أفكارنا وتجاربنا، ونجعلها مطلقة. هذا لم يكن الكيفية التي تعمل بها طريقة السماء. فأي شيء حاول أن يغلق نفسه عن التحول الحياتي الذي لا نهاية له في محاولة لأن يصبح مستقلاً ذاتياً ومحتوىً ـ ذاتياً، كان يسير ضد الإيقاع الطبيعي للكون. أما وقد أدرك هذا تماماً، فقد شعر زهو آنغزي بحرية منعشة، فوجد أنه لم يعد خائفاً من الموت، لأن من غير المجدي محاولة صون حياتك إلى ما لا نهاية. فالموت والحياة، والسعادة والحزن يتلوان بعضهما مثلما يتلو النهار الليل. وبعد وفاة زهوآنغزي لن يتغير شيء، سيبقى ما كانه بالأساس: جزءاً صغيراً من المشهد الكوني المتغير إلى ما لا نهاية.

كان زهو آنغزي يستخدم أحياناً تكتيكات الصدمة كي يجلب هذه الحقيقة إلى البيت، وإلى الأصدقاء والتلاميذ. وعندما توفيت زوجته، حاول أن يدفع لنداء عزاء، وشعر برعب عندما وجده جالساً متصالب الساقين يغني بصخب، ويهشم طشتاً قديماً، منتهكاً الطقوس التي تجل فترة الحداد. احتج هويزي قائلاً: «هي كانت زوجتك، وولدت أطفالك، أقل ما تستطيع فعله هو أن تذرف دمعة لأجلها». ابتسم زهوآنغزي لدى موتها وأقام الحداد عليها مثلما يفعل كل امرئ آخر. لكنه بعد ذلك، حول ذهنه إلى الوراء إلى الزمن قبل أن تولد، عندما كانت مجرد جزء من qi مخضوضة لا نهاية لها، المادة الخام للكون. ذات يوم حدث تغير رائع: امتزجت الـ qi سوياً بطريقة جديدة، وفجأة كانت هناك زوجته العزيزة! الآن كانت ميتة، وببساطة قد مضت في تغير آخر. «إنها مثل الفصول الأربعة في الطريقة التي تتالى فيها، كل فصل يتلو الآخر» كما فكر

زهوآنغزي. كانت الآن في سلام، مستلقية في حضن الـ dao، أعظم القصور. فلو أنه بكى، واشتكى سيكون مخالفاً تماماً للطريقة The way التي كانت عليها الأشياء»(25).

لقد أبدى زهوآنغزي وأصدقاؤه سروراً منفصلاً مسلياً في التغير، والموت، والتحلل التي ملأت العديد من حكماء العصر المحوري باليأس. فذات يوم المعلم Li أحد تلاميذ زهوآنغزي زار صديقاً يحتضر، ولمقته، وجد زوجته وأطفاله يبكون قرب فراشه، فصاح «اغربوا من هنا shoo، لا تزعجوا التغير أن يحدث الحدوث». ثم متكئاً على باب غرفة نوم صديقه المريض أبدى ملاحظة عابرة: «إنه لأمر مذهل ـ أنه صانع الأشياء! ماذا سيصنع منك تالياً؟ أين سوف يرسلك؟ هل سيحولك إلى كبد جرذ؟ هل سيحولك إلى ذراع عثة bug؟» أجاب الرجل المحتضر: «آباؤنا هم جزء منا».

الشرق والغرب، الشمال والجنوب حيثما نذهب إننا نتبع
رغباتهم. ونحن نطيع ين yin ويانغ بشكل أكثر اكتمالاً حتى.
لقد جلبوني إلى هنا إلى حافة الموت، وأن أقاوم رغباتهم سيكون ذلك وقاحة كبيرة.
إننا نسمي حياتنا بركة، لذلك موتنا يجب أن يكون بركة أيضاً.

افترض أن حداداً قديراً يصب قطعة من المعدن قفزت وقالت:

«كلا، كلا، أنا يجب أن أكون واحداً من تلك السيوف Moyeh الأسطورية!»
ألن يعتبرها الحداد معدناً مشؤوماً؟ وافترض أنني على شكل بشري «بشري، بشري، ولا شيء إلا بشري!» ألن يعتبرني صانع التغير شخصاً مشؤوماً؟ إني أرى السماء والأرض كمسبك قوي وصانع التغير مثل حداد قوي. لذلك حيثما يرسلاني، فأني لي أن أتذمر؟ سوف أنام بعمق، ومن ثم سوف أستيقظ فجأة.(26).

أما وقد تخلوا عن اعتبار أنفسهم كأفراد فريدين وذي قيمة نفيسة وأن حياتهم يجب أن تصان مهما كلف الأمر، وجد زهوآنغزي وأصدقاؤه أنهم استطاعوا أن يراقبوا محنتهم باهتمام سعيد ومنفصلين عنها وأن يبقوا هادئين وارضين(27). بعد أن تصبح متصالحاً مع طريقة السماء، فإنك كنت في سلام لأنك كنت متناغماً مع الواقع.

ما هي ماهية الطريقة The way بالضبط؟ لقد أكد زهوآنغزي مراراً أن الطريقة لا يمكن التفكير فيها، ولا يمكن التعبير عنها، ومن المحال تعريفها، ليس لها سمات، ولا شكل، بالإمكان خوضها، لكن لا يمكن رؤيتها أبداً. إنها لم تكن إلهاً، وأنها وجدت قبل السماء والأرض، وكانت خارج الألوهة، لقد كانت أكثر قدماً من الأزمنة الغابرة، مع ذلك كانت ليست قديمة. لقد كانت وجوداً، ولا وجود(28). لقد مثلت جميع النماذج العديدة والأشكال، والقدرات التي جعلت الطبيعة بالكيفية التي كانت عليها(29). الطريقة the way بطريقة غامضة رتبت التحولات المتغيرة لـ qi، لكنها وجدت عند نقطة حيث جميع التمايزات التي تسم حالاتنا العادية في التفكير أن تتوقف. أية محاولة لتعظيم هذه المسائل التي لا يمكن وصفها أدت ـ بكل بساطة ـ إلى مناكفات أنانية غير مناسبة. كان علينا أن ندرك أننا كنا لا نعرف شيئاً. فإذا ما اخترنا نظرية ورفضنا أخرى، فإننا نشوه الحقيقة، محاولين إجبار انسياب الحياة الخلاق في قناة من صنعنا نحن.

التأكيد الوحيد الصحيح كان مسألة غمرتنا في شك وإحساس مضيء من عدم المعرفة. يحب ألا نيأس أن نجد أنه لم يكن هناك شيء كهذا كاليقين، لأن هذا الإرباك باستطاعته أن يقودنا إلى الطريقة the way:

نزعة الأنانية كانت العائق الأكبر إلى الاستنارة. لقد كانت إحساساً مضخماً بالنفس جعلنا نتماهى مع أكثر من رأي آخر، الأنا جعلتنا محبين للشجار، ونقدم النصح لأننا أردنا أن نغير أناساً بما يتلاءم مع أنفسنا. استخدم زهوآنغزي غالباً بخبث شخصية كونفوشيوس كي يعبر عن بعض أفكاره.

فكما قال: ذات يوم قال يان هوي لكونفوشيوس أنه كان ذاهباً لإصلاح ملك wei شاب لا يتحلى بالمسؤولية، ومتهور وعنيف. قال كونفوشيوس ممتعضاً رائع، لكن يان هوي لم يفهم نفسه تماماً بعد. فكيف كان ممكناً أن يغير أي شخص آخر؟ كل ما استطاع أن يفعله هو أن يسن القانون وأن يشرح بضعة مبادئ كونفوشيوسية. كيف ستؤثر هذه التوجيهات الخارجية على الدوافع ما دون الشعورية الغامضة التي كانت مصدر قسوة الملك؟ كان هناك شيء واحد فقط كان في وسع يان هوي فعله: يجب عليه أن يفرغ ذهنه، أن يتخلص من الإحساس بأهمية النفس، وأن يجد نواته الداخلية.

«بدأ كونفوشيوس بالقول «ركز انتباهك، توقف عن السماع بأذنيك واستمع بعقلك. ثم توقف عن السماع بعقلك واستمع بروحك البدئية [qi]. السماع مقتصر على الأذن. والعقل محدد لحساب الأشياء. لكن الروح البدئية فارغة: إنها ببساطة تلك التي بانتظار الأشياء. tao هو فراغ انبثق والفراغ هو رسوخ العقل»(30).

بدلاً من استخدام كل فرصة لتغذية الأنا، كان علينا أن نجوعها. فحتى أفضل نوايانا قد تكون طحناً لطاحونة أنانيتنا. لكن qi لم يكن لها جدول أعمال، إنها فقط سمحت لنفسها أن تُشكل وتُحولَّ بالطريقة the way، ولذلك تحول كل شيء بشكل حسن. لو أن يان هوي توقف عن عرقلة qi حارفاً إياها عن مسارها الطبيعي، لاستطاعت الـ qi أن تفعل من خلاله. فقط عندئذ باستطاعته أن يصبح قوة لصالح الخير في العالم. وعند نهاية المحادثة بدا يان هوي أنه قد فقد كل اهتمام بالمشروع.

إذا توقف الناس عن الجدال حول العقائد والنظريات، سوف يستطيعون اكتساب ما أسماه زهو أنغزي «المعرفة العظيمة. فبدلاً من الزعم أن هذا لا يمكن أن يعني ذلك، فإنهم بدأوا يرون أن جميع هذه التناقضات الظاهرية قد شكلت وحدة خفية غامضة. هذا التزامن للنقائض جلبهم إلى قُبِّ الدولاب، محور الطريقة the way «القطب في مركز الدائرة، لأنها تستطيع أن تتفاعل بالتساوي

مع ذلك الذي يكون، ومع ذلك الذي لا يكون»(31). الدولة غير المستنيرة كانت مثل منظر ضفدع عاش في بئر وكان باستطاعته أن يرى فقط بقعة صغيرة من السماء التي كان يظن أنها كل السماء. وبعد أن رأى كل الحقيقة، تغيرت نظرته إلى الأبد(32). لا يمكن تعريف المعرفة العظيمة أبداً، ويصف زهوآنغزي تأثيراتها فقط. إنها أعطت الحكيم استجابة ذكية وحساسة في كل ظروف كما ظهر. إنه لم يخطط كيف سوف يتصرف أمام الزمن. إنه لم يتألم على مسارات عمل بديلة، أو يلتزم بمجموعة قواعد صارمة. وما أن يكون قد توقف عن عرقلة الطريقة the way، حتى يكتسب عفوية تشبه صنعة حرفي موهوب.

روى زهوآنغزي قصة أخرى عن كونفوشيوس الذي كان مسافراً مع تلاميذه عبر غابة والتقى أحدباً كان ينصب أفخاخاً للزيزان بعود لزج. ويا لدهشة كونفوشيوس لم يخطئ الأحدب زنيراً واحداً. كيف استطاع القيام بذلك؟ بكل وضوح كان قد استجمع كل قدراته على التذكير لدرجة أنه كان مستغرقاً تماماً في عمله، وأنجز نسيان النفس التي جعلته في حالة انسجام تام مع الطريقة the way. سأله كونفوشيوس: هل لديك الطريقة؟ فأجابه الأحدب، فعلاً لدي الطريقة. لم يكن لديه فكرة كيف كان يفعل ذلك. لكنه تدرب لأشهر واستطاع الآن أن ينقل نفسه إلى حالة ركز فيها كلياً على اصطياد الزيزان. «غير متعب أبداً، وغير متكئ، وغير مدرك أبداً للعدد الهائل من الكائنات الحية عدا الزيزان. باتباع هذا الأسلوب، كيف لي أن أفشل؟» لقد ترك ذاته الواعية خلفه، وترك الـ qi تسيطر ـ فكما. شرح كونفوشيوس لتلاميذه: «إنه يبقى إرادته غير مقسمة، وروحه مشحونة بالطاقة» لدرجة أن يديه كانتا تتحركان تلقائياً. التخطيط الواعي المتعمد سيكون مُشَتِّتاً وغير منتج. ذكر الأحدب زهوآنغزي بالنجار بيان Bian: «عندما أعمل على دولاب، إذا طرقته بلين شديد فإن ذلك لن يجدي في صناعة دولاب جيد. وإذا طرقته بقوة فإنني أتعب، والشيء لن يفعل، بالتالي يجب أن يكون الطرق لا قوياً ولا ليناً جداً. إنني أفهم ذلك في يدي، وأحفظه في قلبي، لا أستطيع أن أعبر عن هذا بكلمة الفم. أنا فقط أعرفها. لا

أستطيع أن أعلم هذا لإبني، ولا يستطيع ابني أن يتعلمه مني»(33). بالأسلوب ذاته، الحكيم الذي تعلم ألا يحلل، ويضع فروقات، ويوازن بدائل، قد ترك مبدأ الأنا خلفه، فعل ما كان يأتي بشكل طبيعي وأصبح واحداً مع الإيقاع الإلهي الأكثر عمقاً في الكون. ماذا كان يشبه هذا؟ أخبر زهوآنغزي تلاميذه عن ziqi المتأمل الذي جاءه أصدقاؤه ذات يوم «محدقاً في السماء، النَفَس ليس عميقاً، والوجه خال من التفكير، وكأنما كان قد أضاع نفسه» هذا لم يحدث أبداً من قبل. لقد بدا زكي مثل شخص مختلف كلياً. ما الذي قد حدث؟ هل تفهمون أشياء كهذه؟ سأل زيكي: «فقط عندئذ فقدت نفسي تماماً». لقد مضى في نفس الطريق مثل حرفي اختفى في عمله. عندما حاولنا أن نمسك أنفسنا، كنا مبعدين عن «التحول العظيم» للطريقة. ولأن زكي فقد نفسه فقد حُرر من قيود الأنانية. استطاع أن يرى بوضوح أكثر مما كان من قبل. «ربما سمعتم موسيقا البشر، لكنكم لم تسمعوا موسيقى الأرض. وإذا سمعتم موسيقى الأرض، فإنكم لم تسمعوا موسيقا السماء». وعندما تبلغون هذه النظرة الأعم، فإنكم تسمعون كل شيء يغرد سوياً، مع ذلك باستطاعتكم أن تميزوا كل شيء بشكل منفصل. هذه كانت المعرفة العظيمة، كانت «شاسعة وليست على عجلة» بينما «فهم صغير هو فهم ضيق ومكثف»(34).

ليس باستطاعتك بلوغ هذه الاستنارة ما لم تكن قد تخيلت عن عادات التفكير السابقة. فالحكيم حقاً لا يكوم معرفة، بل تعلم أن ينسى شيئاً تلو آخر، حتى يصبح أخيراً ينسى نفسه، وينغمس بكل غبطة في الطريقة the way.

روى زهوآنغزي قصة أخرى عن كونفوشيوس وتلميذه يان هوي:

أعلن يان هوي ذات يوم «إنني أكسب أرضاً»

سأله كونفوشيوس «ماذا تعني؟»

أجابه يان هوي: «لقد نسيت البشرية [ren] والمواجب [yi] تماماً».

أجابه كونفوشيوس: «ليس سيئاً، لكن لا يزال الأمر ليس القضية»

بعد بضعة أيام تالية قال يان هو متعجباً: «لقد نسيت الطقس والموسيقى تماماً»

قال كونفوشيوس «ما يزال الأمر ليس القضية».

لكن في النهاية فاجأ يان هوي معلمه قائلاً: «أنا أكسب أرضاً»، «إنني أجلس بهدوء وأنسى».

تحول كونفوشيوس قلقاً وسأله «ماذا تعني؟»

أجاب يان هوي: «تركت الجسد يتداعى والفكر يخبو، إنني ألقي بالشكل، وأتخلى عن الفهم، ومن ثم أتحرك بحرية شاقاً طريقاً في التحول العظيم. ذلك هو ما أعنيه بقولي أجلس بهدوء وأنسى».

شحب وجه كونفوشيوس، تلميذه قد تفوق عليه. وقال: «إن تشق طريقاً كذلك، فإنه خالٍ مما تحب وما تكره، إن تكن كلك تحول، فإنك خال من الديمومة، لذلك في النهاية الحكيم الحق هنا هو أنت. لذلك ليس لديك مانع أن أتبعك من الآن فصاعداً، أليس كذلك»(35).

أن تعرف شيئاً يعني أن تميزه عن كل شيء آخر، وأن تنسى هذه الفوارق هو أن تصبح مدركاً للوحدة التي لا يمكن تفريقها، وأن تفقد كل إحساس بكونك فرداً منفصلاً.

كانت استنارة زهوآنغزي مختلفة عن استنارة البوذا، لأنها لم تبدو أنها قد حدثت مرة وطوال الزمن. لم يستطع أن يطوف في غيبوبة أبدية، كانت هناك أوقات كان عليه أن يحلل أشياء، ويقيم فروقات لكي تفعل في حياة عادية(36). فأحياناً كان «مع السماء» وفي أوقات أخرى كان «واحداً مع البشرية»(37). لكن في قلب حياته كان يشعر أنه في سلام مع الطريقة the way، «الجذر» أو «البذرة» التي تنمو منها جميع الأشياء، والمحور الذي تدور حوله الأشياء.

لم يكن زهوآنغزي سعيداً تماماً بالمثل الأعلى Mo hist «الحب»، أو «الاهتمام» لأنه كان يطالب الناس أن يركزوا اهتمامهم على كائنات فردية كانت محيطية جداً بالنسبة لهذه الدرجة من الاهتمام، لكنه دعا إلى روحانية

الشعور بالآخر. اعتقد أن الحكيم كان أساساً غير أناني. «الإنسان الكامل ليس له نَفْسٌ» كما شرح(38). إنه ينظر إلى الآخرين مثل «أنا I»، «الناس يبكون لذلك يبكي، إنه يعتبر كل شيء مثل كيانه هو»، لأنه قد فقد كل إحساس بنفسه على أنه منفصل وخاص(39). لقد أصبح قلبه «فارغاً» وفقط، عكس كائنات أخرى في تكاملها، مثل مرآة دون عدسة الأنا المُشَوِّهة(40). الحكيم حقاً لم يكن بحاجة إلى قواعد عن ren. إنه بعفوية كان يسعى إلى خير الآخرين، دون تمحيص فكري لنفسه على أنه مهتم بالناس الآخرين(41). فبعد امتلاكه المعرفة العظيمة، يكون قد اكتسب وعياً غير ذاتي بالتسامح.

من المحتمل أن زهوآنغزي اعتبر معاصره مينغ كي Meng ke (371 ـ 288) المعروف في الغرب باسم مينسيوس Mencius شخصية أنانية لأنه كان تواقاً جداً لأن يلعب دوراً فعالاً في الحياة العامة(42). كونه كونفوشيوسياً ورعاً، أصبح مينسويس علاّمة في أكاديمية Jixia، لكن طموحه الحقيقي كان أن يخدم في الحكومة. لكنه لم يحرز نجاحاً، مثلما حدث لكونفوشيوس. لقد فشل في كسب ثقة إما ملك زوان Zuan، من Qi، أو ملك هوي Hui liang اللذان وجدا أفكاره غير عملية بشكل يدعو للسخرية. لكنه لم يستسلم بسهولة، وطوال سنوات تنقل من ولاية إلى أخرى محاولاً إقناع الأمراء بالعودة إلى الطريقة The way، إنه لم يستطع أن يدير ظهره إلى العالم مثلما فعل زهو أنغزي، بل اعتقد أنه مكلف من قبل السماء كي ينقذ العالم.

رأى مينسيوس أنموذجاً في التاريخ، ملك حكيم كان يظهر كل 500 سنة أو نحو ذلك، وفي الفترة الفاصلة كان الناس يحكمون من قبل «أناس عاديين مشهورين». وبما أن مدة 700 سنة قد انقضت على حكم ملوك الزهو الأوائل، فإن الحاكم الحكيم كان قد حان موعده. كان مينسيوس مدركاً تماماً أن الصين قد تغيرت ـ حسب رأيه ـ إلى الأسوأ. «الناس لم يعانوا أبداً تحت حكم استبدادي أكثر ممّا كانوا يعانون اليوم» كما ندب. «لا بد أن تكون السماء لا ترغب أن تجلب السلام إلى العالم». لكن السماء لو كانت تريد فعلاً أن تنقذ العالم، فمن غيره الذي باستطاعته أن يفعل ذلك(43)؟ بما أنه فرد من عامة الناس

ليس باستطاعته أن يكون ملكاً حكيماً، لكنه اعتقد فعلاً أنه قد تم تعيينه كرسول السماء إلى الأمراء. الناس كانوا يصرخون مطالبين بقيادة صالحة. وأنهم سوف يتقاطرون زرافات إلى أي حاكم يعاملهم بلطف وتسامح وعدل. عندما كان واضحاً أن الأمراء لن يأخذوه بجدية، انسحب مينسوس وألف كتاباً دوَّن فيه نقاشاته مع الحكام الذين حاول أن يخدمهم. اعتقد أنه كان من المحال الحكم بالقوة. الناس كانوا يخضعون لحكم جائر لأنهم لم يكن لديهم خيار آخر، لكن إذا جاء ملك محب للسلم إلى السلطة، فإنهم سوف يتقاطرون إليه «وقلوبهم معجبة به» لأن الخير كان له قدرة تغييرية»(44). بدلاً من الاعتماد على القوة العسكرية قال للملك هوي Hui «أن عليه أن يقلل العقوبات ويخفض الضرائب، وأن يحفز الناس كي يحرثوا الأرض ويعزقوها حالاً». وفي أوقات فراغ الشبان الأقوياء، يجب أن يتعلموا أن يعيشوا من خلال Li الأسرة، وأن يصبحوا أخوة وأبناء صالحين. بعد تلقيهم لهذه الأرضية سيكونون مخلصين لرعاياهم ومصدراً لقوة عظيمة. «سيلحقون الهزيمة بالدروع القوية والأسلحة الحادة»، في الدول الأكبر، حتى ولو لم يكونوا «مسلحين إلا بالعصي»(45) لماذا؟ لأن جميع أفضل الوزراء يودون أن يخدموا في الإدارة لدى حاكم عادل ورحيم، وسيود المزارعون زراعة أراضيه، وأن يتاجر التجار في مدنه. «وأي شخص يتعرض لظلم سوف يأتي ويشتكي إلى جلالتك» هذا ما قاله مينسيوس إلى ملك هوي. «فإن يحدث ذلك فمن باستطاعته أن يوقفه؟»(46).

اعتقد كونفوشيوس أن الطقس وحده بإمكانه أن يغير المجتمع، لكن مينسيوس كان قد شاهد الثورات الاقتصادية والزراعية في فترة الدول المتحاربة. وبدلاً من أن يعجب بالكفاءة الطقسية فيها، عَظَّم مينسيوس كلاً من ياو yao وشون shun كمهندسين، ورجلين عمليين في مجال التنفيذ. في عهد ياو غمر فيضان هائل الصين، وياو لوحده من بين كل الناس «كان ممتلئاً قلقاً»(47)، شق القنوات لتصريف الماء إلى البحر، فأصبح الناس قادرين أن يسووا الأرض وجعلها قابلة للسكن. شون عين يو yu وزيره للأشغال، وطوال ثمان سنوات جرّف يو الأنهار، وعمق أَسِرَّتها، وبنى سدوداً جديدة. في هذا الوقت كله لم ينم أبداً

ليلة واحدة في منزله. لم يكن لديه وقت فراغ يخصصه للزراعة لذلك عيّن شون هوشي Hou chi ليعلم الناس كيف يزرعوا الحبوب. لكن بعد أن امتلأت بطون الناس تراجعت المعايير الأخلاقية مما سبب لشون قلقاً كبيراً. لذلك عيَّن Fang xun فانغ زون وزيراً للتربية كي يعلم الناس في العلاقات الإنسانية حسبما جاء في Li(48).

شدد مينسيوس على الاهتمام المحب الذي شعر به الملوك الحكماء تجاه الناس في عرضه، الدليل الأول على ظهور الحكمة في ياو وشون كان أنهما كانا قلقين على شعبهما، وقلقا على بلاء الناس، فامتلاءا اهتماماً وقلقاً. لم يكن باستطاعة حكيم أن يحتمل رؤية الناس يعانون. كل منهما كان لديه «قلب حساس تجاه ألم الآخرين... وهذا عبر عن نفسه في حكومة رحيمة» كما قال مينسيوس، لم يكن الملوك الحكماء يرضيهم فقط أن يشعروا بالحزن على شعوبهم، بل ترجموا قلقهم إلى فعل محبة بكل نشاط وإبداع. حكومتهم العملية والخيرة نبعت من الرحمة ren، والمقدرة على النظر خارج الاهتمام الذاتي «اتساع مدى منظور المرء للفاعلية بحيث يشمل الآخرين»(49). قد لا تتوافر هذه المواهب الاستثنائية لدى كل من شاو وشون في فترة أمراء الدول المتحاربة، بل باستطاعتها ويجب أن تحاكي نزعة الإيثار لديهما. لقد رفض كونفوشيوس أن يقدم تعريفاً لـ ren، بينما أعطاها مينسيوس معنى ضيقاً واضحاً: «التسامح» الفضيلة الأساسية التي جعلت من المحال - بالنسبة له - أن يدير ظهره إلى العالم. إنه لم يثق بالاهتمام بكل واحد» الذي نادى به موزي، لخشيته من أن هذه الإرادة الصالحة المعممة قد تقوض الروابط الأسرية التي كانت أساسية للمجتمع، مع أنه وافق أن الاهتمام لا يمكن أن يتوقف عند الأسرة(50). طلب من الملك زوان Xuan أن يعامل الأفراد الكهول من أفراد أسرته بكل احترام. لأن بعد أن يكون قد اكتسب عادة الاحترام هذه، فإنه سوف يوسعها بشكل طبيعي بحيث تشمل أناساً آخرين في أسر أخرى. وفي نهاية المطاف سيكون قادراً أن يعامل جميع رعاياه بتسامح، ومن ثم سيخضعون لحكمه بكل سرور(51).

لم يوافق مينسيوس على أن قواعد ren كانت اصطناعية، بل من الطبيعي أن يستجيب الناس للمعاناة برحمة. ذكر الملك زوان أنه قد أبقى مؤخراً على حياة ثور كان يُساق ليقدم قرباناً. وعندما رأى البهيمة المسكين تجتاز قاعته، وسمع صرخته طالباً الرحمة، نادى الخادم وقال «ابق عليه، لا أستطيع أن أحتمل رؤيته وهو ينكمش خوفاً، مثل رجل ذاهب كي يقتل»(52). كان ذلك دافعاً جيداً، لكنه البداية فقط. بعد ذلك يجب على الملك أن يطبق هذا الشعور الغريزي على رعاياه، وأن يعاملهم بلطف أكثر، وأخيراً عليه أن يوسع اهتمامه إلى دول أخرى. اعتقد مينسيوس أن الطبيعة البشرية كانت أساساً خيرة، أي ميالة إلى ren بكل عفوية. اعتقد الموهيون أن المصلحة الذاتية تحرك الناس، وأن الخير يجب أن يُنَقَّب عنه في داخلهم. بينما قال مينسيوس أن من الطبيعي أن نسلك أخلاقياً، مثلما من الطبيعي لأجسامنا أن تتطور في شكل بشري ناضج. وأن باستطاعتنا أن نقضي على نمونا الجسدي والأخلاقي بعادات سيئة، لكن الميل الغريزي إلى الخير كان باقياً.

كل شخص كان لديه أربعة دوافع أساسية (tuam)، وإذا ما نميت بشكل صحيح سوف تتحول إلى الفضائل الرئيسية الأربع: التسامح، العدل، اللباقة، والحكمة لتمييز الصح عن الخطأ، إنها كانت مثل الأغصان الغضة التي ستنمو لتشكل نباتاً ذات يوم(53). هذه الأغصان الغضة كانت طبيعية بالنسبة لنا مثلما هي أذرعتنا وسيقاننا. ما من أحد خالٍ تماماً من العاطفة تجاه الآخرين. وإن نرى طفلاً منكباً على حافة بئر وعلى وشك أن يسقط فيه، فإن المرء يندفع إلى الأمام كي ينقذه، وليس كي ينال مكافأة من والديه، أو كي ينال مكافأة من والديه، أو كي ينال إعجاب أصدقائه، أو لأن صراخ الطفل قد حركه، بل لأنه كان مدفوعاً بدافع الرحمة الغريزي. سيكون هناك شيء ما خاطئ في الشخص الذي يشاهد الطفل يسقط إلى حتفه دون أية علامة قلق. وبالطريقة ذاتها، شخص ليس لديه أي إحساس بالخجل، أو من يفتقر إلى إحساس أولي بالصح أو الخطأ، فإنه شخص سيكون إنساناً ناقصاً. تستطيع أن تترك بصمتك على هذه الأغصان الغضة، مثلما تستطيع أن تعوق أو أن تشوه نفسك، لكن إذا ما تمت رعايتها

كما يجب، فإنها تكتسب قدرة ديناميـة متحركة خاصة بها. وبعد أن تصبح فعالة فإنها تحول ليس الشخص فقط الذي مارسها، بل كل ما يحتك به. مثل طاقة الملك. وشخص رعى بنجاح هذه الأغصان الغضة الأربعة، فإن باستطاعته أن ينقذ العالم.

عاش مينيسيوس في فترة الدول المتحاربة المضطربة، وعرف أن البذور الجنينية للخير كانت تدمر بسهولة. في كل مكان نظر إليه، كان باستطاعته أن يرى أمثلة على الجشع، والأنانية اللذان يعيقان انسياب qi، ويمنعان الميل الطبيعي نحو الخير، الأغصان كانت تستقر بشكل طبيعي في «القلب» و«التفكير» لكن أناساً كثيرون كانوا يرمون قلوبهم بعيداً. وقد تم إفساد الناس العاديين بالقسوة، والجوع والاستغلال. الطبقات العليا كانت تواقة إلى الترف والمتعة والسلطة والشهرة لدرجة أنها قد أهملت الأغصان الغضة وتركتها تذوي وتموت. الجونزي فقط ـ الشخص الناضج ـ الذي قد أبقى قلبه حياً(55). معظم قلوب الناس كانت تشبه ثوراً جبلياً كان مغطى ـ فيما مضى ـ بأيكات وافرة الأوراق، لكنها أصبحت جرداء عارية من قطع أشجار الغابة الجائر دون مبالاة. كان صعباً تخيل أنه كان هناك أشجار على جبل الثيران، مثلما كان صعباً تخيل أن شخصاً أنانياً بهيمياً لديه أية صفات خيرة. لكن الطاقة الكامنة كانت هناك. «إذا لم تعطى التغذية الصحيحة فلن يكون هناك شيء كي ينمو، وإذا ما حرم من التغذية فلن يكون هناك شيء لن يذوي ويذبل»(56).

كان مينسيوس متفائلاً. حتى إذا فقدت قلبك، كان من الممكن دائماً أن تجده ثانية. «ألا تفعل شيئاً» لم تكن الإجابة، فالعالم بحاجة إلى «جهد شخصي» يجعل الكائنات البشرية في حالة انسجام مع السماء. فالهدف من التربية الكونفوشيوسية كان البحث عن القلب الرحيم الذي ضل. كم كان الأمر غريباً أن يكون الناس غير مهتمين تجاه انتقاص إنسانيتهم، لقد هدروا زمناً كثيراً، وطاقة كبيرة باحثين عن فراخ أو كلاب ضالة، لكنهم لم يفعلوا شيئاً كي يستعيدوا قلوبهم(57). كل امرئ ـ دون استثناء ـ كان لديه المقدرة على تنمية الفضائل الأربع الأساسية، وأن يصبح حكيماً مثل ياو أو شون. فحالما يتم

تأسيسها وترميمها فإن القلب المتعاطف كان يبنى لدرجة أنه سوف يتوهج مثل حريق غابة، أو ينفجر في الهواء مثل نبع شق طريقه إلى أعلى من أعماق الأرض. الحكيم ـ بكل بساطة ـ شخص أدرك إنسانيته تماماً، وأصبح واحداً مع السماء(58). يجد معظمنا الرحمة صعبة في البداية، لكن علينا أن نرعى فضيلتنا الفطرية من خلال أعمال رحمة متكررة، والتقدير، والعدل، والمساواة. فكل مرة نعمل عملاً حسناً فإننا نقوي الأغصان حتى تصبح الفضائل الرئيسية اعتيادية فينا. حملة قوية في مملكة يو وي yu wei سوف تؤدي إلى خلق قلب «لا يتأثر» أو «ثابت» باستطاعته أن يبقي عواطف غير مناسبة قيد اللجم.

الشخص الذي واظب في هذا الصراع من أجل الخير، سوف يصل إلى ما أسماه مينسيوس «qi كالطوفان» عبارة صاغها بنفسه، ووجد أن من الصعب شرحها. لقد كانت نوعاً خاصاً من qi يرفع الكائنات البشرية إلى الإلهي:

هذه هي lachi التي هي في الدرجة الأعلى، شاسعة ولا تستسلم. غذها بالتكامل، ولا تضع عائقاً في طريقها، وهي ستملأ الفضاء بين السماء والأرض. إنها chi التي توحد الصراط القويم والطريقة the way. وإذا حرمتها من هؤلاء فإنها سوف تضمحل لأنها مولودة من صراط قويم متراكم، ولا يمكن أن ينتحلها أي امرئ عبر عرض متقطع للصراط(59).

ممارسة ren ستجعل الكائنات البشرية العادية الضعيفة في انسجام مع الطريقة the way. لقد مر زهوآنغزى بشيء مماثل، لكنه قال أن الوعي الذاتي قد يعيق تدفق qi، أجاب مينسيوس، الأمر ليس كذلك، الواحدة مع الطريقة بالإمكان بلوغها بالجهد الأخلاقي المنضبط المستمر.

القاعدة الذهبية كانت حاسمة. هذه كانت الفضيلة التي جعلت الجونزي إنسانياً حقاً، وجعلت الفرد في علاقة غامضة مع الكون كله. «لا توجد هناك سعادة أعظم عندي من أجد ـ بعد تقصٍ لنفسي ـ أنني صادق مع نفسي. أبذل كل ما في وسعك أن تعامل الآخرين مثلما تحب أن يعاملوك، وستجد أن هذه هي أقصر طريق إلى التسامح ren»(69). عن طريق التعريف وكأن الناس الآخرين مهمين مثل نفسك، فإنك تستطيع أن تشعر بوحدة مفرحة مع كل الأشياء.

الجونزي ما عاد يشعر أن هناك فارق بينه وبين المخلوقات الأخرى. شخص كهذا أصبح قوة إلهية لصالح الخير في عالم مضطرب.

عندما نظر إلى الخلف إلى الفترة الإقطاعية ـ عندما كانت نزعة الأنانية عند الملوك تقيدها Li، اعتقد مينسيوس أن رعاياه كانوا راضين. بدت تلك الأيام البعيدة مثل عصر ذهبي مقارنة مع عنف ورعب فترة الدول المتحاربة. لقد شَعَّ الملك طاقة الطريقة the wey، ومارس تأثيراً أخلاقياً عميقاً على شعبه الذي كان سعيداً ومنبسطاً وراضياً. «لقد تحركوا يومياً نحو الخير دون إدراك من الذي قد أنتج هذا». لم يعد هناك ملوك من هذا العيار اليوم، لكن باستطاعة أي امرئ أن يصبح جونزي شخصاً ناضجاً تماماً، وأن يكون له نفس التأثير على بيئته. «الجونزي يغير حيث يمر ويفعل العجائب حيث يقيم، إنه في نفس التيار مثل السماء فوق والأرض تحت. فهل بالإمكان القول أنه لن يجلب فائدة صغيرة؟»(61).

* * *

في الصين، كان العصر المحوري قد بدأ متأخراً، لكنه الآن كان في حالة ازدهار تام. في المناطق الأخرى، كان إما يجري أو أنه في سيرورة أن يصبح شيئاً ما مختلفاً. نرى هذا بوضوح في المهابهاراتا الملحمة الهندية العظيمة(62). تجري أحداث القصة في منطقة كورو ـ بانشالا خلال فترة البراهماتيين قبل ظهور نظم الدولة، لكن النقل الشفوي للملحمة بدأ في نحو عام 500ق.م لكنها لم تدوَّن حتى القرن الأولى من التأريخ الميلادي عندما بلغت شكلها النهائي. إنها نص معقد ومتعدد المستويات، ومجموعة من خطوط متعددة من التراث. من المحتمل أن الخطوط العريضة للقصة قد استقرت بحلول نهاية القرن الرابع. إنها ليست على شاكلة النصوص المحددة في العصر المحوري التي أُلفت في حلقات كهنوت ونساك، تعكس الملحمة الروح العامة لطبقة محاربي الكاشتريا. فالثورة الدينية التي حدثت في العصر المحوري تركتهم مع لغز محير، كيف كان باستطاعة ملك أو محارب معجب بالمثل الأعلى Ahimsa أن يصبح متصالحاً مع مهنته التي كانت تتطلب منه أن يحارب ويقتل دفاعاً عن مجتمعه؟

واجبات كل طبقة كانت مقدسة، فكل طبقة كان لها دهارما dharma خاصة بها لا تنتهك، وطريقة حياة مرسومة إلهياً فواجب براهمي كان أن يصبح خبيراً بالتراث الفيدي، وكان الكاشتريا مسؤولاً عن القانون، والاستقرار، والدفاع، والـ Vaishya الفايشيا كان عليه أن يكرس طاقاته إلى إنتاج الثروة. اعتمد النساك على دعم المحاربين والتجار الذين كانوا يعطوهم الصدقات، والطعام والأمن، ومكنوهم من أن يكرسوا أنفسهم إلى التفرغ للبحث الديني. مع ذلك، كي يؤدوا واجباتهم بنجاح كان الملوك والمحاربون مجبرين أن يسلكوا أساليب ـ بلغة بوذية ـ غير بارعة أو حتى تودي إلى الخطيئة. كان على الفيشيا أن يكونوا طموحين، وأن يسعوا إلى سلع مادية دنيوية، وأن ينافسوا بعدوانية منافسيهم، وهذه «الرغبة ربطتهم لا محالة بدورة الموت والولادة ثانية «لكن مهنة الكاشتريا كانت إشكالية بشكل خاص». فأثناء حملة عسكرية كان مجبراً أحياناً أن يقتصد في الحقيقة، أو أن يروي أكاذيب حتى، وربما كان عليه أن يخون أصدقاءه وحلفاءه السابقين، وأن يقتل أناساً بريئين. إن أياً من هذه الفعاليات لا ينسجم مع الروح اليوغية العامة التي كانت تطالب باللاعنف، وبالالتزام الصارم بالصدق طيلة الوقت. الكاشتريا كان يأمل أن يصبح راهباً في حياته التالية، لكن وقد أعطي كرماه Karma اليومية، فقد بدا أن من غير المرجح أن يكون باستطاعته إنجاز حتى هذا الهدف المحدد. ألم يكن هناك أمل؟ المهابهاراتا تعبر عن ألم حيال هذه المسائل، لكنها لم تستطع أن تجد حلاً مُرْضياً.

من الصعب جداً أن نحدد تاريخاً لأية فقرة من المهابهاراتا بدقة، أو حتى أن نعزل القصة الأصل. في السيرورة الطويلة للنقل أصبحت مادة قديمة وجديدة مندمجتان لا يمكن فصلهما. وفي القرون الأولى من تأريخنا قام علماء كهنوت بإعادة شرح الملحمة. مع ذلك لا تقدم الحركة العامة للقصة رؤية داخل هواجس الكاشتريا بينما كان العصر المحوري يقترب من نهايته. «تروي الملحمة قصة حرب كارثية بين مجموعتين من أبناء العمومة: المجموعة الأولى Kauravas والثانية Pandavas اللتين كانتا تتنافسان على السيطرة على منطقة كورو ـ

بانشالا. ليس فقط العائلة كانت ممزقة، بل أدت الحرب إلى إبادة الجنس البشري كله تقريباً. لقد جلبت العصر الملحمي إلى نهايته وبدأت بـ kaliy yuga كالي يوغا أي حقيقتنا ذات العيوب حتى الأعماق.»

كانت هذه حرباً آبوكا لبتية ـ كيوم القيامة، مع ذلك ليست مصورة في المهابهاراتا كصراع بين الخير والشر. كان مقدراً للبازرافا أن يفوزوا، لكنهم انتصروا باللجوء إلى بعض المناورات الملتبسة التي اقترحها عليهم صديقهم وحليفهم كريشنا زعيم قبيلة يادافا yadava. على الرغم من انه لم يكن لديهم خيار سوى أن يفعلوا ما فعلوه، شعر الباندااف أنهم متضررين بعمق من سلوكهم غير المشرف، وعندما أحصوا العالم المدمر الخالي من السكان عند نهاية الحرب، بدا انتصارهم أجوفاً. بالمقابل بدا الكثيرون من الكاورافا نبلاء وأنموذجاً للمحاربين، عندما قتل قائدهم دوريودهانا في إحدى المعارك، صعدت روحه إلى السماء، ووابل من تويجات الورود السماوية غطت جثمانه.

في بعض الجوانب، يبدو العالم الديني للمهابهاراتا لم يلامسه العصر المحوري. تذكرنا الملحمة أن فقط مجموعة من النخبة فقط كانت منخرطة في التحول العظيم. لقد حافظ معظم الناس على الممارسات الدينية الأقدم، وبدوا أنهم ـ سطحياً على الأقل ـ غير متأثرين بالتطورات الجديدة. إندرا ـ على سبيل المثال ـ كان الإله الأكثر أهمية في المهابهاراتا، وبكل وضوح بقي محبوباً بين الكاشتريا لفترة طويلة بعد أن توارى من التأملات الكهنوتية المعقدة. في الملحمة، الأحداث الكونية للأساطير الفيدية القديمة كانت موضوعة في خلفية تاريخية مغايرة: حرب البانداڤا، والكاورافا كانت نسخة عن الحروب بين devas وasuras، وكل واحدة من أخوة باندافا كان ابناً ونظيراً أرضياً لإله فيدي. لقد بنيت الملحمة على لاهوت الفترة الفيدية المبكرة. محارب مات في معركة، فذهب مباشرة إلى عالم الآلهة، دون وجود إشارة إلى أن عليه أن يعود ويعاني موتاً آخر. لم يكن في القصيدة نساك حديثون، بل نساك على الطراز القديم يهتمون بنيرانهم القربانية في الغابة. في المهابهاراتا بضع يوغيين، لكنهم أكثر اهتماماً باستغلال القدرة السحرية لقدراتهم الذهنية العالية، من اهتمامهم بلجم أناهم.

فالعصر المحوري أكد على مسؤولية الفرد الشخصية، لكن في الملحمة لم يكن لدى الشخصيات الرئيسية أي خيار على الإطلاق، وكانوا مجبرين ـ من قبل الآلهة ـ أن يسلكوا عكس أفضل تقديراتهم. الروح القديمة للمهابهاراتا جلية في هاجسها بالتراث القرباني القديم. الأخوة الباندافا الخمس على سبيل المثال كانوا متزوجين جميعاً من أختهم دراوبادي Draupadi، هذا كان أمراً غير مألوف أبداً، لكن الزواج استدعى الطقس القديم Asmave dya، قربان الحصان الذي أسبغ السلطة على الملك: أثناء الشعيرة، كان هناك نوع من جنس محاكاة مع الحصان القرباني، وبالتالي كانت قادرة أن تنقل المجال الذي تمثله إلى زوجها. في الملحمة مثلت دراوبادي السلطة الملكية التي كانت تنقلها إلى أخوتها.

لكن المهابهاراتا تعكس أيضاً الرعب المستلهم من المنافسات القربانية قبل أن يتم الطقوسيون إصلاحها. عند بداية القصة يا ديشتريا yadishthiria الأخ الأكبر بين الباندافا، فاز بقوة السلاح بالمملكة، ودعا الزعماء إلى ترسيمه ملكاً. كان عليه أن يبرهن أنه كان لديه براهمن من خلال الخضوع للتحدي واختبار الطقس. وبالتالي تم ترسيمه ملكاً ممسوحاً بالزيت، لكن rajasuya كان لديه نتيجة كارثية. Durgodhama الذي أكلته الغيرة، تحدى yudishthria في لعبة النرد التي كانت إجبارية أثناء الشعائر. لكن الآلهة حمّلت النرد ضد يوديشتيرا الذي خسر زوجته، وأملاكه، ومملكته. وهكذا أجبر الباندافا على الذهاب إلى المنفى طوال 12 سنة، وسينجم عن الحرب دمار العالم حتماً. تعطينا النظرة الكارثية للقصة عن المنافسة القربانية نظرة عن القلق الذي أدى إلى إصلاح الطقس لدى البراهميين.

توضح محنة يوديشتيرا أن المهابهاراتا ـ في نهاية المطاف ـ لم يلامسها العصر المحوري، يبدو أنها كانت متأثرة بعمق بالمثل العليا الجديدة. وبالرغم من استياء أخوته، كان لطيفاً، متسامحاً، ويفتقر إلى الروح العامة عند المحارب. لم تكن لديه رغبة أن يؤكد نفسه، ويمتدح أناه بالطريقة التقليدية، بل بدا أن من المحال أن يفعل ذلك، كما اعتبر الحرب شراً، وهمجية ووحشية(63). كان بوديشترا رجلاً من العصر المحوري، وهذا أثبت أنه عرقلة تكاد لا تغتفر. لم يستطع أن

ينطلق إلى الغابة ويمارس ahimsa. إنه كان ابن الإله دهارما Dharma تجسيداً لفارونا Varuna المسؤول عن الاستقرار الذي جعل الحياة ممكنة. بصفته ممثلاً أرضياً لفارونا، كان من واجبه أن ينجز السلطة التي وحدها من باستطاعتها جلب الاستقرار إلى العالم. وكإبن للإله دهارما كان مضطراً أن يمارس الفضائل التراثية، من مصداقية مطلقة، والولاء إلى سيفه الذي أقسم عليه اليمين، والذي بدونه لا يمكن الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي، بالرغم من كذلك كان يوديشترا مجبراً أن يكذب.

في مساء معركة دامت ثمانية عشر يوماً كان على الباندافا أن يقتلوا اثنين من المقالتين إلى جانب كاورافا، وبما أن الملحمة تجري في العصر البطولي - ولا واحد من هؤلاء الرجال كان رجلاً عادياً - كانوا أشباه آلهة بقدرات فوق عادية. فعندما ركب الباندافا عرباتهم في المعركة، لم تكن عرباتهم تلامس الأرض. لم يكن المحاربون يخضعون لنفس المحاذير التي يخضع لها البشر من أمثال kali yuga وBhishma وDrona الذين قادوا جيوش كاورافا، والذين لم يكن ممكناً قتلهم بالوسائل النظامية. لقد أوقعوا إصابات كثيرة بجيش باندافا لدرجة أن الأخوة يئسوا من النصر. مستقبل العالم كان معلقاً في الميزان، لأن إذا ما فشل يوديشترا في الوصول إلى السلطة، فإن الاستقرار الإلهي سوف يُنْتَهَك حكماً. في هذه اللحظة الرهيبة تدخل كريشنا بنصيحة ملأت الأخوة باليأس.

كان الباندافا يعرفون ويحترمون القادة الذين كانوا رجالاً ذوي شجاعة وشرف مشهودين. عندما كانوا صبية، Bhishma كان قد أدخل الباندافا في عرف الكاشتريا، والفنون القتالية. لقد كان محارباً كاملاً، مشهوراً بإخلاصه التام. درونا قد علم الباندفا على رمي السهام وقيادة العربات، وكابراهمي كان رجلاً متديناً ورعاً. فلم يكن ليحلم أن يكذب أو يحنث يميناً، وسيجدون أن من المحال أن يصدقوا أن يوديشترا ابن دهارما يكذب، أو يحاول أن يستغلهم. مع ذلك، هذا كان ما نصحه به كريشنا، في مجلسين حربيين متتالين. يجب أن يُخْدَعَ يوديشتيرا Bishma في إظهار صدقه الدقيق المعهود، وهي الطريقة الممكنة الوحيدة لتقبله. ويجب عليه أن يخبر درونا كذبة فاضحة بأن ابنه Aswatt hamman قد قُتل في المعركة، مما يجعل درونا يلقي أسلحته، ويعرض نفسه للهجوم.

عندما وضع كريشنا هذه الخطط بكل تفاصيلها شعر الأخوة باندافا بالرعب. محترقين بالحزن والعار، أرجونا Arjuna ـ المحارب الأعظم بين الأخوة جميعاً، رفض في البداية أن يشارك في خطة كريشنا، الذي قد أخبره أنه سيتعين عليه أن يتسلل خلسة وينقض على Bhishma، مختبئاً خلف محارب آخر، ليضيف إهانة إلى الأذى، كما لو أنه كان امرأة في حياة ماضية. أرجونا كان ابن إندرا فكيف كان ممكناً أن يسلك مثل هذا السلوك؟ لكن كريشنا قد أوضح أن أرجونا قد أقسم أن يقتل Bhishma، وهذه كانت هي الطريقة الوحيدة التي من خلالها يستطيع أن يفي بكلمته. كيف استطاع ابن إندرا أن يحنث يميناً مقدسة(64)؟

عندما قتل Bhishma وفقاً لحظة كريشا، نتعرف كل واحد نبيل قدر المستطاع. أرجونا أحضر الماء من أعماق الأرض بإحدى سهامه، حتى أن معلمه العجوز استطاع أن يروي ظمأه ويغسل جراحه، وجثة Bhishma المحتضر لم تلامس الأرض: بقي في حالة ترفع أخلاقي وبطولي. لكن موت درونا قد ألحق ضرراً لا يرمم وسط الباندافا.

أخبر كريشنا أرجونا أن عليهم أن ينحوا الفضيلة جانباً من أجل أن ينقذوا العالم، ووعد يوديشترا متردداً «وبصعوبة» أن يخبر درونا بكذبته القاسية(65). «عدم الصدق قد يكون أفضل من الصدق» قل كريشنا: «فعن طريق إخبار كذبة لتنقذ الحياة، فإن عدم الصدق لا يلامسنا»(66).

لكن على الرغم من إعادة تأكيد كريشنا، فإن يوديشترا كان ملطخاً. فعربته كانت تطير دائماً على ارتفاع شبر عن الأرض، لكن حالما أخبر درونا أن ابنه قد قُتل فإن عربته سقطت بقوة فوراً إلى الأرض. درونا ـ على أية حال ـ مات أقدس ميتة وأُخذ مباشرة إلى السماء. عندما أخبره يوديشتر أن ابنه As watthaman كان ميتاً، في البداية تابع درونا القتال، لكن أُقنع أن يرمي سلاحه من قبل مجموعة rishis ظهروا له في حلم وحذروه من أنه على وشك أن يموت، كبراهمي، ينبغي عليه ألا يقضي لحظاته الأخيرة محارباً. في الحال، ألقى درونا

سلاحه، وجلس في عربته في وضع يوغي، وغط في غيبوبة، وصعد بسلام إلى عالم الآلهة. كانت الحياة قد فارقت جسده عندما قطع حليف للباندافا رأسه. النقيض لسقوط دويشترا من النعمة الإلهية وصعود درونا في غيبوبة كان مدمراً في مضامينه. أرجونا لام بمرارة يوديشترا على أن كذبته الفاضحة سوف تدنسهم جميعاً(67).

ما الذي علينا أن نفهمه من دوركريشنا الملتبس؟ إنه لم يكن شيطاناً، مغوياً الباندافا إلى الخطيئة. مثل الأخوة، كريشنا كان أيضاً ابن أحد الآلهة الفيدية، فوالده هو فيشنو المكلف بالقربان(68). في Brahmans مهمة فيشنو هي «إصلاح» القربان المعطوب من خلال خطأ في الطقس، ولذلك كان ما يزال باستطاعته تأدية وظيفته، وأن يجدد الاستقرار الكوني. في المهابهاراتا، كريشنا هو النظير الأرضي لفيشنو. فبينما كان العصر البطولي يقترب من نهايته العنيفة، كان يتوجب إعادة الاستقرار من خلال طقس قرباني ضخم. المعركة كانت هي هذا القربان، ضحاياها المحاربون الذين ماتوا أثناء القتال سوف يعيدون التاريخ إلى المسار، عن طريق إعادة السيادة إلى يوديشترا. لكن لم يكن ممكناً كسب الحرب بوسائل عادية: درونا وBhishma ـ كما أوضح كريشنا ـ كانوا رجالاً خارقين «لم يكن ممكناً قتلهم في قتال عادل»(69). استراتجياته اليائسة كانت مثل الإجراءات الطقوسية الخاصة التي يستخدمها كاهن ليضع القربان على المسار ثانية.

من حيث الروح العامة الفيدية القديمة، كان نقاش كريشنا لا عيب فيه، وكان قادراً أن يشتهر بسابقة إندرا الذي لجأ إلى كذبة مماثلة عندما قتل الغول فريترا vritra، وجلب الاستقرار من العماء. بيد أن يوديشترا كان رجل العصر المحوري، لأنه لم يكن مقتنعاً بهذا التراث الطقسي القديم، لقد كان غير قابل للعزاء. وطوال القصيدة استمر في صحيته اليائسة «لا شيء أكثر شراً من دهارما الكشتريا»(70). لم يكن خوض الحرب قرباناً دموياً مقبولاً عند الآلهة، بل كانت مذبحة. لقد أوضحت القصة الملحمية أن العنف كان يولد مزيداً من العنف، وأن خيانة شائنة أدت إلى خيانة أخرى.

ابن درونا الغارق في حزنه أقسم أن ينتقم لمقتل أبيه، ونذر نفسه إلى شيفا.. الإله القديم لسكان الهند الأصليين «كقربان شخصي». استشهاده كان محاكاة مرعبة لإنكار النفس غير العنفي الذي مارسه النساك، سلمه شيفا سيفاً متلألأ، واستحوذ على جسده الذي أصبح يسطع بإشعاع غير أرضي. في سخط إلهي دخل إلى معسكر الباندافا بينما كان الكل نياماً، وبدأ بقتل أعدائه في غارة كانت غير مشرفة مثل خيانة يوديشرا لوالده Aswatthaman كان براهمياً، لقد ارتكب المذبحة كطقس مقدس، لكنها كانت في حقيقتها قرباناً خارج السيطرة. في الطقس الفيدي من المفترض أن يُذْبَح الحيوان بسرعة دون ألم. لكن أسواتهامان عندما أمسك أول ضحية له - الرجل الذي قطع رأس والده - ظل يرفسه حتى الموت، رافضاً أن يميته بسرعة «جعله يموت ميتة حيوان..... مهشماً رأسه»(71).

أما الأخوة باندافا فقد نجوا من الغارة، لأن كريشنا قد نصحهم أن يناموا تلك الليلة خارج المعسكر، بينما معظم أسرتهم وأطفالهم قد قتلوا. وعندما أمسك الأخوة بأسواتهامان - أخيراً - وجدوه جالساً بكل هدوء على ضفة الغانج في لباس طقوسي، وفي وضع براهمي كلاسيكي مع جماعة من الزهاد. وحالما رأى الباندافا، قطف ورقة عشب وحولها إلى سلاح ذي قدرة تدمير جماعي أطلقها صائحاً «إلى الإبادة أيها الباندافا». حدث حريق هائل هدد بالقضاء على العالم. ومن أجل إبطال مفعول سلاح أسواتهامان أ"لق أرجونا سلاحه ذا القدرة على التدمير الجماعي الخاص به، الذي بدوره اشتعل مثل النار عند نهاية yuga(72).

كان هناك مأزق قاتل - ومن جديد - كان مصير العالم في الميزان. لكن وضع اثنان من الزهاد نفسيهما بين السلاحين المزعومين. في الروح المحورية «الرغبة في صالح جميع المخلوقات وجميع العوالم»، طلبا من كلا المحاربين أن يستعيدا صواريخهما. أرجونا كان ملتزماً «بالحياة المقدسة» للمحارب، فمارس شكلاً من اليوغا، والتزم بدقة بفضائل الكشتريا المقدسة من صدق وإخلاص(73)، استطاع أن يتحكم بغضبه، وبما أنه لم يطلق سلاحه وهو

غاضب، كان قادراً أن يسترده. لقد أطلق أسواتهامان سلاحه في حالة غضب شديد، فلم يستطع أن يسترده، لكنه استطاع أن يغير مساره: السلاح سيمضي إلى أرحام زوجات الباندافا، فلن يلدن مزيداً من الأطفال، وسلالة الباندافا فاستصبح منقرضة، لعنة كريشنا على أسواتهامان ستدوم ثلاثة آلاف سنة بأن عليه أن يهيم في الأرض وحيداً، زاهداً يعيش في الغابات والمناطق غير المأهولة من الأرض.

حكم يوديشترا مدة خمس عشرة سنة، لكن النور قد مضى من حياته. لم يستطع أبداً أن يتصالح مع مهنة الكشتريا العنيفة مع دهارما Ahimsa والرحمة التي وجدها في قلبه، هناك فقرات لا تحصى في المهاباراتا التي تدافع عن مهنة المحارب، والتي تمجد في القتال والقتل، لكن شكوكاً أساسية تبقى. توضح الملحمة التأثير غير الحاسم للروحانية المحورية على بعض الناس العاديين في الهند، الذين شعروا أنهم مرميين في مكان منسي، عالقين في دهارما دنيوية، فلم يستطيعوا الانضمام إلى الزهاد واليوغيين، بل وجدوا أن الدين الفيدي القديم لم يعد يمدهم بالحياة. في الحقيقة بدا أحياناً شيطانياً «القربان الذاتي لأسواتهامان قد دمر العالم تقريباً. وقصة غارته الليلية، بذكرياتها: المذبحة، والشهادة، والثأر المتصاعد، والإطلاق المتهور للأسلحة، كانت لها صداها التنبؤي بالنسبة لنا هذه الأيام. حلقة عنف مدمرة، خيانة، وقلة في الصدق، قد يؤدي إلى عدمية مأساوية:

الإلهة الأرض Earth ارتجفت، والجبال اهتزت، والريح لم تهب، وكذلك النار مع أنها أشعلت لكنها لم تتوهج. حتى النجوم في السماء غضبت فهامت متجولة. الشمس لم تشرق، وقرص القمر فقد بريقه. كل شيء تبلبل، أصبح الفضاء مغلفاً بالظلام. بعدئذ الآلهة مهزومة لم تعرف عوالمها، والقربان لم يعد يسطع، والفيديون تخلوا عنها»(74).

الشيء الوحيد الذي قد أنقذ العالم من الدمار كان الروح المحورية للحكيمين اللذين كانا يريدان «مصلحة جميع المخلوقات من جميع العوالم». بطريقة ما هذه الروح كان عليها أن تصبح بالإمكان بلوغها بالنسبة للمحارب العادي ولرب الأسرة، الذين بعض منهم كانوا في خطر السقوط في لجة اليأس.

* * *

عندما قتلت الديمقراطية الأثينية سقراط في عام 399، كان تلميذه أفلاطون في الثلاثين من عمره. فتركت هنا المأساة تأثيراً لا يمحى على الشاب، وأثرت على فلسفته تأثيراً عميقاً(75). كان أفلاطون يأمل أن يعمل في السياسة. إنه لم يكن مثل بطله سقراط، بل كان سليل أسرة أرستقراطية غنية: كان والده من أحفاد الملك الأخير لأثينا، وكان زوج أمه صديقاً حميماً لبرقليس، وكان اثنان من أخواله فاعلين في حكومة الطغاة الثلاثين بعد هزيمة أثينا في حرب البلبونيز. دعا هؤلاء أفلاطون للانضمام إليهم. بدت أنها فرصة عظيمة، لكن أفلاطون استطاع أن يرى عيوب هذه الإدارة الكارثية. سُرَّ أفلاطون عندما أعيدت الديمقراطية، فاعتقد أن وقته قد حان، لكن محاكمة ومقتل سقراط حطما آماله لدرجة أنه أصبح لا يمكن أن يخدع، فانسحب من الحياة العامة في حالة قرف.. فحيثما نظر إلى أي من دول ـ المدينة كان يرى أن نظام الحكم فيها كان سيئاً:

> ***ولذلك كنت مجبراً أن أقول... أن الجنس البشري لن ير أياداً أفضل حتى، إما جميع أولئك الين يتبعون حقاً وبصدق الفلسفة ينالون سلطة سياسية أو أن الطبقة التي لديها سيطرة سياسية أن تقاد من قبل مقدار من العناية الإلهية لأن تصبح فلاسفة حقيقيين(76).***

كيف كان ممكناً لرؤى العصر المحوري أن تندمج في عالم السياسة غير النزية والعنيف؟ تبدو فلسفة أفلاطون غالباً أنها مهتمة بدنيا الآخرة، وأنها تتضمن هروباً من الدنيوي إلى النقاء البارد للتجريد. مع ذلك لم يكن أفلاطون يريد من فلاسفته أن ينسحبوا من العالم.

لقد اعتقد - مثل الكونفوشيوسيين - أن حكيماً يجب أن يكون رجل فعل وتأثير على السياسة العامة. مثالياً، فيلسوف يجب أن يحكم الناس بنفسه، ومثل البوذا، أكد أفلاطون أن الحكيم بعد بلوغه الاستنارة يجب عليه أن يعود إلى مكان اجتماع الناس في السوق، ويعمل هناك من أجل ما هو أفضل للبشرية.

بعد وفاة سقراط سافر أفلاطون في شرق المتوسط آملاً أن يتلقى إلهاماً. أقام بعض الوقت مع إقليدس في ميجارا Megara - أحد الفلاسفة الأيليين الذي كان تلميذاً لسقراط، وشارك أفلاطون إعجابه ببرمنديز. كان أفلاطون معجباً بالجماعات الفيثاغورثية التي عقد معها صداقات طوال حياته. كان يلهمه شغفهم بالرياضيات التي كانت تدرب عقولهم بعيداً عن الورطة المريكة لما هو خاص إلى عالم الأعداد النقي والأشكال الهندسية. تنقل في مصر وليبيا وفي بلاد الطاغية ديونيسيوس الأول السرقسطي. التقى بديون Dion الذي أصبح متحمساً لأفكار أفلاطون، ولربما كان أفلاطون يريد أن يصبح ديون ناشطاً فلسفياً في صقلية. لكن زيارته الأولى إلى سيراقسطا انتهت بطريقة سيئة. لقد قيل إن ديونسيوس قد رتب أمر بيع أفلاطون في العبودية، وأنه قد تم إنقاذه من قبل أصدقائه في الدقيقة الأخيرة. تأذى من هذه التجربة فعاد إلى الوطن إلى أثينا في عام 387.

لم يكن هناك سوى القليل مما يسره. حاولت أثينا أن تتعافى من حرب البلبونيز بعقد تحالف مع طيبة ضد إسبارطة. لكن لم يكن هناك سلام دائم. لقد أوضحت أحداث السنوات الثلاثين التالية عدم الاستقرار المزمن في السياسة الداخلية على البر الإغريقي. استمرت دول المدن في القتال، ما من مدينة كانت قادرة أن تطبق سياسة خارجية متماسكة، وجميع المدن كان منهكة بالنزاعات التي لا تتوقف، فتراجعت التجارة، وكان هناك نزاع متجدد بين الفقراء والأغنياء، وأحياناً كانت هذه النزاعات الداخلية تتفجر في قالب وحشي.. في عام 370 جلد الديمقراطيون في أرغوس بوحشية 1200 أرستقراطياً حتى الموت، وفي Tegea قتل الرعاع قادة الأوليغارشيا بعنف.

رد أفلاطون على هذا الجرم كان تأسيس مدرسة للرياضيات والفلسفة، وأسميت «الآكاديمية» لأن العلماء كانوا يلتقون في أيكة مقدسة في ضواحي أثينا مخصصة للبطل أكاديموس. التعليم كان يتم من خلال النقاش بالأسلوب السقراطي، عوضاً عن المحاضرات. في هذه المرحلة المبكرة لم يسعى أفلاطون إلى فرض آرائه على تلاميذه، بل كان يشجع التفكير المستقل. وفي الوقت ذاته، طور أفكاره الشخصية في الكتابة، وأصبح الفيلسوف الأول الذي بقيت مؤلفاته كلها. إنه لم يدون رؤاه بطريقة دوغمائية، بل استخدام الحوار الذي يتم فيه التعبير عن أراء مختلفة. بما أن البطل كان سقراط في هذه الحوارات، فإنها لم تتوصل إلى نتائج راسخة. لم تكن حوارات أفلاطون نقاشات تعريفية، بل دعوات لمزيد من التفكير الذي يشد قراءه إلى إدراك أعمق لتعقيدات القضايا المناقشة. لم يكن أفلاطون مثل آكاديمي عصري. فبدلاً من شرح أفكاره برصانة وبشكل منطقي، كان غالباً ما يقدمها بطريقة لعوبة، وغير مباشرة، وبشكل مراوغ، وارداً أمثالاً، ومشيراً إلى حقائق رئيسية بإيجاز وغموض. اعتقد أن الوصول إلى الحقيقة كان أمراً صعباً، ويتطلب تدريباً مستمراً وطويلاً في الجدل. لكنه في مؤلفاته حافظ أيضاً على طرق النقل القديمة شفوياً، التي أقرت أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة من خلال تكرار بسيط للحقائق، بل كان يتطلب بصيرة حدسية، وجمالية، ومخيلة، إضافة إلى ملاحظة إمبريقية ومنطق منظم.

«عقيدة المُثُلْ» تسيطر على فلسفة المثل، مع أن هذه العقيدة لم تصبح أبداً نظرية متماسكة. لقد تتبع علماء حديثون تطوراً في فكره، ويعتقد البعض أن في نحو نهاية حياته قد تخلى عن المثل تماماً، لكن من الخطأ البحث عن تطور فكري واضح في مؤلفات أفلاطون(77). من المحتمل أنه يبدأ حواراً جديداً، قبل أن ينهي حواراً سابقاً، مشتغلاً على عدة حوارات دفعة واحدة. فأحياناً كان يجرب طريقة، وأحياناً طريقة أخرى، وفي بعض الأحيان وصف المثل بطريقة غامضة على أنها أشكال إلهية، وفي أوقات أخرى كان يعترضها بطريقة عقلية أكثر. في كل حوار كان يتناول هذا المفهوم الصعب من منطلق مختلف، لدرجة

أن ما يبقى هو سلسلة نقاشات متداخلة تقدم فكرة عامة لمثال كموضوع فكري مجرد من خلال طرح عدد من أسئلة فلسفية مختلفة. لكن حاول دائماً أن يوضح كيف هذا المفهوم الذي يبدو عويصاً كان له علاقة مرجعية في العالم غير المستقر والمزعج في القرن الرابع.

لقد حاول سقراط أن يكتشف طبيعة الخير الحقيقية، لكنه لا يبدو أنه صاغ هذا بأسلوب أرضى أي واحد ـ وربما لم يرضه هو شخصياً. في الحوارات الأولى، من المحتمل أن أفلاطون تشبث كثيراً بأساليب معلمه. فكما رأينا جعل سقراط يطلب من محاوره أن يفكر في أمثلة مختلفة لفضيلة ما ـ كالشجاعة على أمل إيجاد قاسم مشترك. إذا كان هذا النوع من السلوك شجاعاً، وذلك النوع لم يكن، فما الذي يخبرنا به هذا الأسلوب عن طبيعة الشجاعة بحد ذاتها؟ كيف باستطاعتك أن تتصرف بطريقة فاضلة إذا لم تكن تعرف ماهية الفضيلة؟ في الاضطراب السياسي في عصره ــ كان أنصار السياسات المتنافسة: الديمقراطية، الأوليغارشيون المستبدون، الأرستقراطية، والملكية ــ يناقشون قضيتهم بحدة، لكن أفلاطون كان يعتقد أن الأمل الوحيد للتوصل إلى أي حل كان أن يجد المبادئ الكامنة للحكم الصالح، كان أفلاطون ـ مثلما كان سقراط ـ منزعجاً من النسبية لدى الحكماء. فأراد أن يجد بعداً من الواقع ثابتاً وغير متغير، لكن بالإمكان إدراك ذلك من خلال محاولة دؤوبة من التفكير العقلاني.

مع ذلك افترق أفلاطون عن سقراط بطرحه اقتراحاً غير عادي. قال: إن الفضيلة لم تكن مفهوماً بالإمكان بناؤه عن طريق مراكمة نماذج سلوكية في الحياة اليومية، بل كانت كياناً مستقلاً، حقيقة موضوعية وجدت في مستوى أعلى من العالم المادي. مثل الخير، والعدل، والجمال لا يمكن إدراكها بالحواس، إذ ليس في استطاعتنا أن نراها، أو نسمعها، أو نلمسها، بل بالإمكان فهمها من خلال القدرة على المحاكمة العقلية المستقرة في النفس لدى كل كائن بشري. كل شيء في عالمنا المادي كان له شكل أزلي وغير متغير: الشجاعة، والعدل، والضخامة ـ حتى الطاولة. إذا وقفنا على ضفة نهر فإننا ندرك

أن كمية الماء أمامنا هي نهر، بدلاً من بركة أو بحر لأنه لدينا شكل النهر في عقولنا. لكن هذا المفهوم الشامل لم يكن شيئاً اخترعناه نحن من أجل فائدتنا، بل كان موجوداً بحد ذاته. في هذا العالم - على سبيل المثال - لا يوجد شيئان متساويان تماماً، مع ذلك كانت لدينا فكرة مساواة مطلقة، مع أننا نعرفها في حياتنا ليومية. الأشياء تمتلك وجوداً ثابتاً ما أو جوهراً خاصاً بها». جعل أفلاطون سقراط يقول: «الأشياء ليست في علاقة معنا، وليست موجودة كي تتغير بالكيفية التي تبدو لنا. هي موجودة بمفردها، في علاقة مع كيانها الخاص أو جوهرها، الذي هو خاص بها بطبيعتها»(78).

الكلمة اليونانية idea لم تكن تعني «فكرة» بالمعنى الإنجليزي الحديث. فكلمة idea أو eidos لم تكن بنية عقلية ذاتية خاصة، بل «شكل»، «نموذج» أو «جوهر». شكل أو idea كان نمطاً بدئياً، النموذج الأصل الذي أعطى كل كيان محدد شكله وحالته المميزين. المفهوم الفلسفي عند أفلاطون بالإمكان فهمه كتعبير مُسْتَدْخَل، ومعقلن للفلسفة المستمرة القديمة التي فيها كل جسم مادي أو تجربة له نظيره في العالم الإلهي(79). هذا التصور كان شديد الأهمية لدين ما قبل المحوري، لذلك فكرة أفلاطون عن عالم مطلقات كانت ممثلة بشكل ناقص في العالم الدنيوي لكانت بدت أقل غرابة لدى معاصريه مما تبدو لقارئ حديث. الأشكال أظهرت أنفسها في عالم الزمن، لكنها كانت أعلى superior ومقدسة، وأزلية. إنها أعطت شكلاً لحيواتنا لكنها تسامت عنها. كل شيء هنا على الأرض كان متغيراً باستمرار وزائلاً. لقد أوضح أفلاطون أن حتى فتاة جميلة كانت تفقد محاسنها وتموت، الجمال بحد ذاته استمر في الوجود. إنها لم تستحوذ على الجمال المطلق - وما من كيان أرضي يمتلكه، لكنها قد أعُلمت من قبل الجمال وشاركت في هذه المزية الخالدة. جمالها كان شديد الاختلاف عن جمال أختها، أو عن جمال قصيدة، أو جبل أو بناية، لكن الناس تعرفوا على الجمال لأن كل واحد منا كان لديه معرفة فطرية بالمثل الأزلية. عندما نقع في حب فتاة جميلة، فإننا نستسلم إلى الجمال التي تكشف فيها. الشخص المستنير سيكون قد دربه أو دربها (اعتقد أفلاطون أن باستطاعة النساء

أن ينعمن بهذه المعرفة أيضاً) أن يرى من خلال التجسيد الأرضي غير المكتمل للجمال إلى المثال الأزلي الذي يقع خلفه.

عالم المثل كان أساسياً، وعالم المادة كان ثانوياً واشتقاقياً ـ تماماً كما ـ في الفلسفة الدائمة العالم السماوي كان أسمى superior وأكثر ديمومة من العالم الدنيوي. كان للمثل تكثيف من الحقيقة لم يكن باستطاعة الظواهر العابرة أن تمتلكه. عندما لمحنا المثال الذي تبدى بشكل غير مكتمل في شخص، أو عمل، أو جسم، فإننا رأينا جوهره الخفي، وقابلنا مستوى وجود كان أكثر مصداقية من تمظهره الأرضي. على شاكلة زهوآنغزي والبوذا، أدرك أفلاطون أن كل شيء كنا نراه هنا تحت كان باستمرار يصبح شيئاً ما آخر... المثل ـ على أية حال ـ لم تكن مشمولة في تغير الصيرورة. لأنها ساكنة، لا تتغير وأزلية. لقد سعى الفيلسوف إلى التعرف على مستوى أكثر عمقاً للمعنى عن طريقة تنمية معرفة مبنية على ممارسة العقل المحض بدلاً من المعلومات الحسية، التي كانت دائماً بطبيعتها غير مقنعة ـ أو dukkha ـ لربما قال عنها لبوذا.

ربما رجع أفلاطون إلى تصور أسطوري قديم، لكنه كان أيضاً يستمد إلهاماً من الرياضيات في عصره.. محفوراً فوق باب الأكاديمية الشعار التالي: «لا تسمح لشخص غير ملم بالهندسة أن يدخل إلى هنا». التدريب في الرياضيات كان أساسياً. على شاكلة الفيثاغورثيين، اعتقد أفلاطون أن الكون كان مستقراً على الأفكار الأساسية للعدد والهندسة. إننا لم نرى دائرة كاملة، أو مثلثاً في أشياء طبيعية، لكن هذه الأشكال تكمن خلف جميع الأجسام الملحوظة إمبريقياً. اعتقد أفلاطون أنها لم تكن مفروضة من قبل العقل المرتب ordering على العالم غير المرتب حولنا، بل وجدت بشكل مستقل، متعالية عن العقل الذي أدركها. إنها ـ لذلك كانت موجودة، واكتشفت ليس من قبل طرائق الفكر العادية بل عن طريق الذكاء المدرب. الرياضيات كان تمثل الأنموذج للمعرفة اليقينية المطلقة التي سعى إليها أفلاطون، لكن ذلك لم يكن بالإمكان أن نستمدها من تجربتنا العادية(80). حتى في يومنا هذا، علماء الرياضيات يتحدثون عن منهجهم بطريقة أفلاطونية، «عندما يرى شخص حقيقة رياضية»، كما قال

روجر بنروز «فإن وعي المرء يخترق عبر عالم الأفكار هذا ويقوم باحتكاك معها»(81). لكن مع أن بالإمكان اكتساب هذه المعرفة بدأب وجهد مؤلم، فإنها ـ كما كان يعتقد أفلاطون ـ مقدرة بشرية طبيعية كلياً. إننا مولودون معها، وببساطة كان يجب أن تُوقَظ فقط. الحقيقة لا يتم إدخالها في العقل من الخارج، بل كان ينبغي أن يتم استدعاؤها من وجود ما قبل ولادي عندما كان كل رجل أو امرأة ينعم بمعرفة مباشرة بهذه المثل. كل نفس قد ولدت مرات عديدة، كما شرح أفلاطون وسقراط، «وقد رأت جميع الأشياء هنا وفي العالم السفلي. لا يوجد شيء لم تتعلمه لذلك لا داعي للاستغراب أن النفس تستذكر الأشياء التي عرفتها من قبل، عن كلا الفضيلة والأشياء الأخرى... لأن البحث والتعلم هما ـ ككل ـ عملية تذكر»(82). لقد أوضح نظريته بالطلب من صبي عبد أن يقف بجانبه ومساعدته أن يجد الحل لمسألة هندسية صعبة، زاعماً، أنه ذكّر الصبي فقط بشيء كان قد عرفه في وجود سابق لكنه قد نسيه(83).

شارك أفلاطون العديد من الفلاسفة المحوريين في اقتناعهم أن هناك بعداً للحقيقة الذي يتجاوز خبرتنا العادية، والذي كان بالإمكان أن نصل إليه، وكان طبيعياً لبشريتنا. مع ذلك حيث اعتقد آخرون هذه البصيرة insight لم يكن بالإمكان بلوغها من خلال الاستدلال المنطقي، إلا أن أفلاطون اعتقد أن بإمكاننا ذلك. لكن إصراره على أن المعرفة كانت بالأساس تذكراً يوضح أن هذا الديالكتيك المتماسك لم يكن تحليلياً بارداً، بل حدسياً، استعادة هذه المعرفة الفطرية بدت أنها تأخذ العقل ذاته على حين غرة. صحيح أن في بعض هذه الحوارات استخدم المثل كي يتحرى مفهماً أو كي يصل إلى جذر مشكلة(84). لكن من الصحيح أيضاً أن البحث العقلاني لأفلاطون كان عاطفياً ورومانسياً. في اليونان القديمة، العقل لم يكن «بارداً» بل «ساخناً»، بحث روحي عن معنى وقيمة(85). لقد ساعد النفس أن تحدد أهدافها، وتكبح رغباتها من أجل بلوغ أهدافها. حتى الآن، قدر ما نستطيع نقوله من النصوص المجتزأة التي وصلتنا فقد قصر الفلاسفة الإغريق أنفسهم على تفسير دماغي مفهومي للتجربة. في الأكاديمية، أصبحت التربية الإغريقية أكثر روحانية.

استخدم أفلاطون كثيراً رموز ومفردات الأسرار الإليوسينية، والديونيسية كي يصف عملية الاستثارة والتذكر. بدلاً من إنجاز البصيرة insight من خلال الطقوس والعروض الدرامية، توصل تلاميذه إلى نظرتهم للمثل من خلال ممارسة ديالكتيك الذي كان متماسكاً ودقيقاً جداً لدرجة أنه بدا أنه قد دفعهم في حالة وعي بديلة. لقد وصف العملية أنها مثل صعود غامض إلى حالة وجود أعلى، إدخال لم يكن مختلفاً كلياً عن الإدخال الذي يمر به المريد mystai في إليوسيز، الذي قد أدخل المريد إلى حالة مباركة. في /المأدبة/ جعل أفلاطون سقراط يصف البحث مثل قصة حب استوعبت كلية كيان الساعي، حتى كان يصل إلى حالة غيبوبة كانت تحمله بعيداً خارج الفهم العادي./ فسر سقراط ذلك أنه قد تلقى هذه المعلومات من كاهنة كانت تدعي ديوتيما Diotima التي بينت لمريدها كيف أن حبهما لجسد جميل بالإمكان تنقيته وتحويله إلى تأمل نشوي ecstatic للجمال المثالي.

في البداية المُدْخَل الفلسفي كان منتشياً بالكمال الجسدي فقط لمحبوبته، ثم بدأ يرى أن هذا الشخص كان فقط إحدى تمظهرات جمال كان موجوداً في كائنات أخرى أيضاً. في المرحلة التالية من إدخاله، أدرك أن جمال الجسد كان أقل مرتبة من جمال الروح الأكثر مراوغة. الذي قد يوجد حتى في شخص قبيح القسمات.

شرحت ديوتيما أخيراً، «بينما يقترب من نهاية الإدخال، كانت تحط عليه الرؤيا العجيبة التي هي روح الجمال ذاتها، الجمال الذي قد عمل جاهداً لمدة طويلة كي يجده». هذا الجمال كان خالداً، ولم يعد مقتصراً على جسم محدد، بل «كان مطلقاً، موجوداً لوحده وبذاته، فريد، وأزلي». جميع الأشياء الأخرى ساهمت فيه، ومع ذلك بهيئة ما، بينما الأشياء تأتي إلى الوجود، وتزول، فإنه لا يتعرض لزيادة أو نقصان، ولا يعاني من أي تغير. النفس قد تم «إدخالها في أسرار الحب». قد غادرت عالم المادة خلفها، ونالت معرفة نشوية بالجمال المطلق ذاته(86).

نحن المعاصرون نعرّف التفكير على أنه شيء ما نفعله. لكن أفلاطون تصوره كشيء ما قد حدث للعقل: موضوعات التفكير كانت وقائع حية في نفس الشخص الذي تعلم أن يراها. هذه النظرة للجمال لم تكن مجرد تجربة جمالية. ما أن يشعر به الناس، حتى كانوا يجدون أنهم قد مروا بتغير أخلاقي عميق، ولم يعد باستطاعتهم أن يعيشوا بطريقة غير أخلاقية رثة. الشخص الذي نال هذه المعرفة أصبح باستطاعته أن يُولِّد ليس فقط صوراً منعكسة للخير، بل الخير حقاً، لأنه سوف يكون على احتكاك ليس بصوره بل بالحقيقة. لقد خضع إلى تحول أساسي: «بعد أن ولد، ورعى الخير الحق، سيكون لديه امتياز أن يكون حبيب الله، وأن يصير ـ إذا ما كان باستطاعة البشر ـ خالداً»(87). وصف أفلاطون للجمال كان بكل وضوح مشابهاً لما أسماه آخرون الله God أو الطريقة The way.

هذا الجمال لن يظهر للمخيلة مثل جمال وجه أو يدين أو أي شيء آخر جسماني، أو مثل جمال فكر أو علم، أو مثل جمال له مكانه في شيء ما آخر غير ذاته، سواء كان في شيء حي، أو الأرض، أو السماء أو أي شيء آخر مهما كان.

مثل الله God، براهمن، أو nibbana نيبانا، لقد كان متعالياً كلياً:

«مطلق، موجود لوحده، داخل ذاته، فريد، وأزلي»(88).

لكن رؤية الجمال لم تكن نهاية البحث. إنه كان يشير لا محالة إلى الخير، جوهر كل شيء تتمناه الكائنات البشرية. جميع المثل الأخرى كانت مدرجة ضمن الخير، وهو يغذيها. في الخير، جميع الأشياء تصبح واحداً. ليس بالإمكان وصف الخير، وأفلاطون وسقراط يتحدثان عنه فقط في مثل، وفي حكاية الكهف التي تبقى في الذاكرة في كتابه /الجمهورية/(89). تخيل مجموعة من الرجال المقيدين بسلاسل طوال حياتهم سجناء في كهف. حرموا نور الشمس، وكان باستطاعتهم أن يروا فقط ظلالاً منعكسة من العالم الخارجي على الجدار الصخري. كانت هذه هي صورة الشرط البشري غير المستنير التي

من المحال رؤية المثل مباشرة. إننا كنا رهن شرطنا كذلك، لدرجة أننا أخذنا هذه الظلال الزائلة على أنها الحقيقة حقاً. فلو أننا حررنا من هذا الأسر، سنكون مبهرين ومريكين بنور الشمس الساطع والوجود النابض للعالم خارج الكهف. من المحتمل أن الأمر سيكون كثيراً جداً بالنسبة لنا، وسنريد العودة إلى وجودنا الغسقي المألوف.

فكما شرح سقراط، لذلك الصعود إلى النور يجب أن يحدث بالتدريج. ضوء الشمس كان يرمز إلى الخير، تماماً مثل النور المادي مكننا أن نرى بوضوح، كذلك كان الخير مصدر المعرفة الحقة. الشمس مكنت هذه الأشياء أن تنمو وتزدهر، مثل الخير، إنه علة الوجود، ولذلك يقع خارج أي شيء نعرفه في حياتنا العادية. في نهاية إدخالها المديد، ستكون النفس المستنيرة قادرة أن ترى الخير بوضوح مثلما يرى الناس العاديون الشمس. لكن حتى هذه لم تكن نهاية الرحلة. من المحتمل أن الناس المُحرَّرين أرادوا أن يبقوا خارجاً، ويصطلوا في ضوء الشمس، مثلما أراد البوذا أن ينعم في سلام النيبانا، لكن كان لديهم واجب العودة إلى ظلمة الكهف كي يساعدوا رفاقهم. «لذلك كل واحد منكم بدوره يجب أن ينزل إلى أسفل كي يعيش في مكان سكن الآخرين المعروف»، كما أكد سقراط. «إنك سوف ترى أفضل كثيراً مما يرى الناس هناك. ولأنك قد رأيت حقيقة الأشياء الجميلة، والعادلة والخيرة، فإنك سوف تعرف إلى ماذا ترمز كل صورة»(90). من المحتمل أنهم قد يستقبلون بعدائية. وسيكونون مريكين بالظلمة، رفاقهم السابقون قد يسخرون منهم لأنهم قد ضللوا.

كيف باستطاعة إنسان مستنير «أن ينافس ثانية مع السجناء الأبديين في التعرف على الظلال؟»(91). الأسرى قد ينقلبون على محرريهم ويقتلونهم، مثلما فعل الأثنييون بإعدام سقراط التاريخي - كما أراد أفلاطون أن يقول.

كانت حكاية الكهف جزءاً أساسياً من الوصف السياسي الذي قدمه أفلاطون للجمهورية المثالية. كان يعود دائماً إلى التطبيق العملي لمثله، والظلال على الحائط، بالإضافة إلى تصوير النظرة المفقرة لغير المستنيرين، عبرت أيضاً

عن الأوهام الزائلة للسياسات المعاصرة التي اعتمدت على الإكراه وأوهام خدمة النفس. في /الجمهورية/ أراد أفلاطون أن يبين أن العدالة كانت عقلانية، وأن باستطاعة الناس أن يعيشوا بالطريقة التي عليهم أن يعيشوا فيها فقط إذا ما تربوا في مجتمع لائق، حيث الحكام يحكمهم العقل. في هذا النص الكثير مما هو مستنكر ونخبوي. فعلى سبيل المثال، سيكون هناك هندسة وراثية في مدينة أفلاطون الخيالية: لا يشجع المواطنون الأقل قدرة مادية على إنجاب الأطفال، والأطفال الرضع المشوهين يتم التخلص منهم بكل تكتم، والأطفال الواعدون يؤخذون من أسرهم، ويربون في رياض حكومية في قسم منعزل من المدينة. أما الموهوبون فيخضعون لتعليم جاد وطويل، يبلغ ذروته في صعودهم من الكهف. عند نهاية إدخالهم في الحياة المدنية المستنيرة، سوف يرون الخير بأنفسهم وبذلك يبلغون استقراراً داخلياً سيجلب السلم والعدل إلى الجمهورية:

> ***وهكذا، لمصلحتك ومصلحتنا، ستحكم المدينة، ليس مثلما تحكم معظم المدن هذه الأيام، من قبل الشعب الذي يتقاتل على الظلال، ويتصارع كل منهم ضد الآخر كي يحكم ـ وكأن ذلك كان خيراً عظيماً ـ لكن من أناس هم يقظون بدلاً من حالمون، لأن الحقيقة هي بالتأكيد هذه: مدينة حكامها المأمولون هم أقل لهفة لأن يحكموا، يجب بداعي الضرورة أن يكونوا ممن لم يخوضوا حرباً أهلية(92).***

بشكل مؤكد تقريباً لم يكن أفلاطون يعتبر جمهوريته الخيالية أنموذجاً لدولة فعلية، ومن المحتمل أنه استخدمها فقط كي يحفز النقاش، لكن الوحشية المتأصلة في طوباوتيه قد ابتعدت عن الروح العامة الرحيمة في العصر المحوري.

/الجمهورية/ كانت سلطوية. فرضت نظرتها على الآخرين ـ ذريعة لكان وجدها بوذا على سبيل المثال «غير بارعة». لم يكن لدى أفلاطون وقت للإنسانيات. لقد نظر متسائلاً إلى التراتبية الإغريقية التقليدية، بتأكيدها على

الشعر، والموسيقى، لأنه اعتقد أن الفنون كانت تثير انفعالات غير عقلانية. جمهورية أفلاطون لن تشجع العلاقات الشخصية: الجنس كان مجرد وسيلة لغاية إنجاب مواطنين مقبولين وراثياً. وأراد أفلاطون منع المأساة من مدينته المثالية. في القرن الرابع، استمرت مسرحيات مأساوية في جذب أعداد ضخمة من المتفرجين من جميع أنحاء أتيكا(93)، لكن الأثينيين نظروا بحنين إلى الخلف إلى أيام أسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس العظيمة، ومازالوا يتوقون إلى بصيرتهم المأساوية(94). لكن أفلاطون أدار ظهره إلى المأساة، لأنه لم يكن يثق بتشاؤمها، وحكمها السلبي على المقدرة البشرية، كما اعتقد أن نظرتها المشككة بالآلهة قد تفضي إلى عدمية قاتلة. فأن تتعاطف مع أبطال مأساويين كان يعني ضمنياً أن تتغاضى عن التقييم الكئيب في نظرتهم للحياة، وبذلك تشجع الأسى الذي لا يقبل العزاء، والغضب الذي لا يمكن التحكم به. المأساة كانت لها المقدرة أن «تعقر» حتى نفوس المواطنين الفاضلين، وتجعل حياة أولئك المعرضين لها «أكثر سوءاً وبؤساً». فقبل كل شيء كانت المأساة تلامس ميلاً طبيعياً إلى الأسى وبوسعها أن تلهم «استسلاماً عاطفياً»(95). إلا أن حزن المرء على نفسه، والشفقة على الآخرين يجب التحكم بهما، وأن يبقيا تحت السيطرة. التعاطف مع آخرين، ومشاركتهم معاناتهم كما وجه الكورس المتفرجين ـ كان ينسف تماماً الاعتدال وضبط النفس لدى الرجل الصالح. يجب أن يأخذ المجتمع خطوات فاعلة كي يكبت هذا التعاطف الطبيعي، لأنه لم يكن يتوائم مع الفضيلة(96).

فبدلاً من رعاية «أغصان» الرحمة كما طالب مينسيوس، أراد أفلاطون أن يستأصلها. وفي مؤلفاته التالية نلمس قسوة قد زادتها مغامرته الصقيلة الثانية. بعد وفاة الطاغية ديونيسيوس الأول، أصبح أفلاطون ـ دون أن يدري ـ متورطاً في المؤامرة السياسية التي أدت إلى اغتيال صنيعه القديم ديون Dion في عام 354 ففي مرحلة وضع أفلاطون تحت الإقامة الجبرية، وبصعوبة نجا من الإعدام. فأفكاره الفلسفية أثبتت عدم فعاليتها، وهو شخصياً قد تأذى، ومن هذا الوقت فصاعداً تبنى خطاً أكثر تشدداً.

نظرة أفلاطون إلى المثل قد أدخلت دينامية جديدة في الدين الإغريقي، فمنذ عهد هوميروس كان الإغريق يلقون تشجيعاً على قبول الواقع كما كان، ولم يعد لديهم طموح لتجاوزه أو أن يغيروا ظروفهم جذرياً. لقد أكد الشعراء، والعلماء، والتراجيديون أن الوجود كان عابراً، في أنفاسه الأخيرة، وغالباً مدمر بكل وحشية. الحياة البشرية كانت معاناة، حتى الآلهة لم يكن باستطاعتها تغيير هذه الحالة غير المرضية للأمور. هذا كان الواقع حقاً، ويجب على الإنسان البالغ أن يصمد في وجهه، إما في تحدٍ بطولي أو ببصيرة مأساوية أو فلسفية. وهذا ما عكسه أفلاطون. حياتنا الأرضية الحسية كانت فعلاً بائسة وملتوية، لكنها لم تكن الواقع حقاً. لكنها كانت غير حقيقية مقارنة مع عالم المثل الخالد الذي لا يتغير، وهذا العالم المثالي كان في متناول البشر. لم يكن لزاماً على الناس تحمل المعاناة والموت. فإذا كانوا مستعدين أن يكرسوا أنفسهم إلى إدخال فلسفي مديد ومصحِّح، فإن باستطاعة أرواحهم أن تصعد إلى عالم الإلهي دون أية مساعدة من الآلهة، وأن تبلغ الخلود الذي كان فيما مضى حكراً على الأولمبيين. بعد أفلاطون كان هناك توق إلى واقع لا يوصف موجود خارج الآلهة.

في سنواته الأخيرة عاد أفلاطون إلى العالم، وأصبح لاهوته ملموساً أكثر. في /تيماخوس/ اقترح أفلاطون أن العالم قد خلقه حرفي إلهي demiourgos الذي كان الخالد والخيِّر كلياً، لكنه لم يكن كلي القدرة، ولم يكن حراً أن يشكل الكون كما أراد، بل كان عليه أن ينمذج خلقه وفقاً للمثل. هذا الحرفي لم يكن شخصاً بوسعه أن يلهم مسعى دينياً، لأنه لم يكن لديه اهتمام بالبشرية، إنه لم يكن الإله الأعلى، إله علي موجود، بل كان أيضاً لا علاقة له بالمأزق البشري. ألمح أفلاطون «أن تجد صانع وأبا هذا الكون أمر صعب بما فيه الكفاية، وحتى إذا ما نجحت أنا في ذلك، فمن المحال أن أبوح به لأي شخص»(97). لم يكون هدف أفلاطون دينياً. ببساطة أراد أن يستنبط نشأة كون عقلانية. مخلوق وفقاً للمثل، مشبع بالعقل، كونه كان له أنموذج قابل للفهم، وبالإمكان تقصيه إمبريقياً. لن يكن فيه المزيد من التدخلات الأولمبية التعسفية. الكون كان محكوماً بخطة شاملة باستطاعة الناس فهمها إذا ما كيفوا أنفسهم وفقاً لها منطقياً.

فعلاً، الكون المخلوق كذلك، كان بحد ذاته وجوداً حياً، بعقل عقلاني no us ونفس بالإمكان إدراكها في نسب الكون الرياضية وفي التوازنات المنتظمة للأجرام السماوية. فالنجوم ذاتها شاركت في ألوهة الخالق، فهي كانت مرئية وولدت آلهة، وGaia ـ الأرض ـ كانت «قبل كل شيء، الواحدة ذات الأولوية الأكبر». وهي أيضاً قد خلقت وفقاً للنموذج الكامل(98). بالطريقة ذاتها، عقل كل كائن بشري كان إلهياً، كل امرئ كان له daimon ـ جذوة إلهية داخله أو داخلها التي هدفها كان «أن ترفعنا إلى أعلى بعيداً عن الأرض ونحو ما هو شبيه لنا في السماء»(99). لذلك عاشت الكائنات البشرية في عالم عقلاني بشكل كامل، واستكشافه كان مشروعاً علمياً وروحياً. لقد صاغ أفلاطون ديناً عالمياً جديداً حل محل النظرة الأولمبية القديمة، وأصبح دين الفيلسوف المستنير. لقد لاقى قبولاً لدى جميع تلاميذ أفلاطون. مع أنه كان يشرح بشكل مختلف، وبعد إدماجه بالنظرة الوحدانية سيبقى النظرة الكوسمولوجية لأوروبا الغربية حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

الكون المقدس ـ عند أفلاطون ـ كانت مصدر إلهام إلى الفلاسفة، لقد شجعهم أن يتقصوا الكون إمبريقياً، وأن يعتقدوا أن حل أسرار الطبيعة كان أمراً ممكناً. لقد أكد لهم أن عقولهم التي كانت تحتوي على أثر من المقدس كان مجهزة لهذه المهمة. إنه جلب الإلهي في إطار بشري وجعله ممكناً فهمه. كان ممكناً رؤية الآلهة: الشمس، القمر، والنجوم كل يوم ساطعة في السماء. عندما تحروا الأرض علمياً، كانوا ينبشون أسرار الإلهي، لكن الدين الكوني لدى أفلاطون كان يعني لا شيء عند عامة الناس الذين لم يتلقوا تدريباً فلسفياً. فإله غير مهتم بالجنس البشري لم يكن باستطاعته أن يعطي معنى لحيواتهم. لقد حاول أفلاطون أن يعالج هذا. آلهة وأبطال الأوليمب أصبحوا الآن يعتبرون daimons، آلهة أدنى مرتبة كانت تعمل كأرواح حمائية، وحملت رسائل إلى ومن العالم السماوي الذي لا سبيل إلى وصفه. لم يستطع أحد أن يجري أي اتصال مع الله العلي الذي لا يدرك، لكن كان باستطاعتهم أنيبجلوا زيوس، حامي حدود المدينة الذي كان يهتم بالغرباء، وهيرا، راعية الزواج، وأثينا، وأريس Ares

اللذان يهتمان بالجنود أثناء حملة عسكرية(100)، لقد تم تخفيض مكانة آلهة الأوليمب إلى مرتبة ملائكة حارسة مماثلة لأرواح الطبيعة التي تم استبعادها من الأديان المحورية.

آلهة الأوليمب قد فقدت مكانتها، لكن أفلاطون أصر على أن عبادتها كانت أساسية للمدينة. في مؤلفه الأخير /القوانين/ وصف أفلاطون مدينة فاضلة أخرى بقيت فيها العبادة القديمة أمراً مهماً. لقد أنكر وجود صراع بين العقل والتقوى الإغريقية التقليدية. لم يكن هناك براهين قوية على وجود جذوات أولمبية، لكن كان من غير العقلاني ولا ينم عن ذكاء إذا ما أنكر الأساطير القديمة، لأنها مثل حكايات خرافية ـ تحتوي على قليل من الحقيقة. أراد أفلاطون أن يصلح العبادة، وأصر أن آلهة الأوليمب لا يمكن أن تتأثر بالقرابين أو بالصلاة، لكن الناس كانوا يعبرون عن امتنانهم لهؤلاء الوسطاء عند من لا سبيل إلى وصفه، أي العالم الإلهي(101). هيستر Hester، وزيوس، وأثينا يجب أن يكون لها مقاماتها على أكروبوليس مدينته الفاضلة، وساحتها ستكون محاطة بالمعابد، والاحتفالات والمواكب، والقرابين والصلوات يجب أن تنفذ بكل دقة. الآلهة الأكثر أهمية في مدينته الخيالية هي أبولو وهليوس Helios اللذين كانا يعرفان بالشمس منذ زمن طويل، وبالإمكان إدماجهما باللاهوت الكوني عند أفلاطون. لقد حاول أفلاطون دمج القديم والجديد. أثناء احتفالات مدينته الآلهة ترقص متخفية بجانب المحتفلين البشر. هدف هذه الطقوس كان مشاركة الآلهة في أيام عطلاتها(102). الاحتفال كان يضم orgiazein ـ كلمة استخدمت لوصف الاحتفالات السرية النشوية. لم يكن باستطاعة القرابين استرضاء آلهة الأوليمب، لكن كان ما يزال باستطاعتها رفع المعنويات وأن تمد البشر بلمحات التسامي. مع ذلك، بالرغم من قبول أفلاطون الدين القديم، إلا أنه اعتبره أدنى مرتبة من الفلسفة. لم يكن باستطاعته أن يجلب حقيقة. بالإمكان فهم المثل من خلال قدرات المحاكمة العقلية فقط، وليس من رؤى insights أسطورة أو دراما مقدسة للطقس.. الدين التقليدي قد أُنْزِلتْ مكانته، والأساطير أصبحت خاضعة للوغوس الصوفي لدى أفلاطون.

كان هناك توجيه مشؤوم في /القوانين/ أخذ أفلاطون بعيداً عن العصر المحوري(104) مدينته الخيالية كانت ثيوقراطية. أول واجب للمدينة كان تلقين «الأفكار الصحيحة عن الآلهة، وبعد ذلك العيش وفقاً لذلك: سواء عيش جيد، أم غير جيد»(105). الاعتقاد الصحيح أتى أولاً، والسلوك الأخلاقي في المرتبة الثانية. اللاهوت المتشدد كان الشرط المسبق للأخلاق «ما من أحد يؤمن بآلهة، كما يوجه القانون يرتكب طوعياً عملاً غير مقدس أو يدع أية كلمة غير قانونية تصدر عن شفتيه»(106).

لم يضع أيمن المفكرين المحوريين أي تأكيد كيد على الميتافيزيقا، بل اعتبر بعضهم أن هذا النوع من الفكر على أنه ضال. الفعل الأخلاقي أتى في المرتبة الأولى، العمل الرحيم وليس العقيدة مكنت الكائنات البشرية من أن تخاف المقدس. لكن ـ بالنسبة لأفلاطون ـ الاعتقاد الصحيح كان إجبارياً، ومهم جداً لدرجة أن «مجلساً ليلياً» يجب أن يشرف على آراء المواطنين اللاهوتية. كانت هناك ثلاثة بنود رئيسية إلزامية للإيمان: أن الآلهة موجودة وأنها كانت تهتم بالبشر، وأنها لا تتأثر بالقرابين والصلاة. نزعة الإلحاد والإيمان بالخرافات في مردود الطقس عملياً ستكون جرائم كبرى في مدينة أفلاطون المثالية. لأن هذه الأفكار تلحق الضرر بالدولة. لن يُسمَح للمواطنين أن يشككوا بوجود آلهة الأوليمب أو أن يطرحوا أسئلة باحثة عن أشياء تتعلق بها. باستطاعة الشعراء أن يستخدموا حكاياتهم كي يعلموا الجماهير، لكن قصصهم يجب ألا تكون مغرقة في الخيال. يجب عليهم أن يركزوا على أهمية العدالة، وعلى تقمص الأرواح، والعقوبات التي ستنزل بالمذنبين بعد الحياة. هذه العقائد كان بوسعها أن تضمن السلوك الصالح وسط غير المتعلمين. كان أفلاطون مدركاً أن بعض الملحدين كانوا يعيشون حياة نموذجية، لذلك سمح لكافر محكوم بخمس سنوات أن يشق طريقه عائداً إلى الحظيرة. خلال هذه المدة سيتم احتجازه في مكان منعزل كي يفكر، فإذا ما استمر في رفضه الخضوع للإيمان الصحيح سوف يقتل(107).

في بداية بحثه الفلسفي أصيب أفلاطون بالرعب من قتل سقراط، بدعوى تعليم أفكار دينية زائفة. وفي نهاية حياته دافع عن إيقاع عقوبة الموت على من لم يشاركوه آراءه. نظرة أفلاطون كانت قد حمضت soured، وغدت قهرية، وتأديبية غير متسامحة. لقد سعى إلى فرض الفضيلة من الخارج، ولم يكن يثق بدافع الرحمة، وجعل دينه الفلسفي فكرياً بالكامل. وسيقدم العصر المحوري في اليونان مساهمات رائعة إلى الرياضيات، والديالكتيك، والطب والعلم، لكنه كان يتحرك بعيداً عن الروحانية.

لقد جعل أذكى تلاميذ أفلاطون هذا الانقسام مطلقاً أكثر حتى. لم يكن أرسطو أثينياً أصلياً، بل أتى من مستعمرة إغريقية على جزيرة chalcidice، كان والده صديق وطبيب الملك Amyntoas الثاني المقدوني، وترعرع أرسطو مع فيليب ابن الملك، وفي سن الثامنة عشرة حط رحاله في أثينا. درس على يدي أفلاطون طوال عشرين سنة في الأكاديمية، خلال هذه الفترة من حياته كان تلميذاً وفياً لأفلاطون وقَبِلَ نظرية المثل. لكن مع الزمن أصبح مقتنعاً أن المثل لم يكن لها وجود موضوعي مستقل. الصفات مثل الشجاعة أو الجمال أو الشكل الدائري، أو البياض، وجدت فقط في الأشياء المادية، والتي تطبع فيها. أصبح أرسطو شديد الانتقاد لمفهوم أن العالم المثالي كان حقيقياً أكثر من الكون المادي. بعض الجواهر Substance كانت فعلاً أزلية، إلهية، وأعلى من الأشياء الفانية، لكن كان من الصعب جداً أن نحصل على أية معرفة دقيقة عنها، لأنها وجدت خارج متناول حواسنا. كان من الأفضل أن نركز على ما هو موجود ضمن مجال فهمنا، مثل بنية النباتات والحيوانات.

عندما توفي أفلاطون في عام 347، غادر أرسطو أثينا، من المحتمل أن أمله قد خاب لأنه لم يعين رئيساً للأكاديمية، ولربما قد أصبح شخصاً غير مرغوب فيه في أثينا بسبب ارتباطاته المقدونية. صديقه فيليب خلف والده على العرش في عام 360. جعل فيليب الجندي والسياسي العبقري من الدولة المنعزلة، المتخلفة والفاشلة مقدونياً قوة رئيسية في المنطقة حتى أنها أصبحت تمثل تهديداً للمصالح الأثينية. بعد سلسلة هزائم عسكرية كانت أثينا مجبرة أن توقع معاهدة مع

مقدونيا في عام 346، لكنها بقيت معادية وساخطة على هذه الدولة الجديدة الديناميكية، التي كانت توسع باستمرار منطقتها وتزحف على البر الإغريقي.

في عام 342 دعا فيليب أرسطو كي يستقر في مقدونيا ويعلم ابنه الإسكندر. علمه طوال ثلاث سنوات، فكان فيليب قد أصبح سيد اليونان، وبعد أن ألحق هزيمة ساحقة بأثينا عام 338 جلب استقرار جيداً إلى المنطقة. استفادت جميع دول المدينة من الظروف الأكثر سلماً، ونعمت أثينا ـ بشكل خاص ـ بفترة رخاء جديدة. كان فيليب قد خطط لغزو فارس، لكنه اغتيل في عام 336 فخلفه ابنه الاسكندر، في السنة التالية رجع أرسطو إلى أثينا، وأسس مدرسة خاصة به تعرف باسم الليسيوم لأنها كانت قريبة من معبد أبولوليسيوس Lyceus.

في هذه الفترة كان قد أصبح عالم أحياء، أمضى سنوات في آسيا الصغرى يشرّح الحيوانات والنباتات، ويكتب أوصافاً تفصيلية لأبحاثه. فأرسطو أنزل الفلسفة إلى الأرض، وأصبح مهتماً ـ بشكل خاص ـ في سيرورة التطور والفناء. ذات مرة كسر بيضة كل يوم كي يتتبع نمو جنين الدجاج. فحيث كان أفلاطون وحكماء محوريون آخرون يشعرون بالقلق حيال التدفق وقابلية التغير، كان أرسطو منشغلاً بكامل عملية الصيرورة. التغير لم يكن دوكها، بل كان طبيعياً لجميع الكائنات الحية. بدلاً من البحث عن معنى في العالم اللامادي، فقد وجد أرسطو المعنى في أشكال التحول المادية. بالنسبة له «الشكل» لم يكن حقيقة أزلية خارج عالم الحواس، بل بنية ملازمة داخل كل مادة التي تتحكم بتطورها حتى تبلغ النضج. كل شخص أو شيء له دينامية dynamis تجبره أن ينمو في شكله، مثلما حبة البلوط تحتوي داخلها «القدرة الكامنة» لأن تصبح شجرة سنديان. بالتالي يجب ألا يخاف الناس من التغير، بل أن يحتفوا به، إنه يمثل سعياً شاملاً من أجل الاكتمال.

لكن هذا كان إنجازاً دنيوياً صرفاً. لم يكن لدى أرسطو طموح أن يغادر كهف أفلاطون. كان هناك جمال كثير ممكن العثور عليه في عالم الظواهر، إذا ما عرف فيلسوف كيف يستخدم عقله. بعد عودته إلى أثينا، بدأ أرسطو

يحول اهتمامه إلى الموضوعات الميتافيزيقية والأخلاقية، لكن تركيزه بقي على قدرة العقل وتدريبه. لقد كان أرسطو رجل اللوغوس. فالذي ميز الكائنات البشرية عن الحيوانات الأخرى، هو المقدرة على التفكير عقلانياً. فكل مخلوق سعى جاهداً كي يبلغ الشكل داخله. theoria، البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها، كان الشكل النهائي، أو غاية الإنسان. فأرسطو (كانت نظرة أرسطو للأنثى دونية، التي رأها شكلاً ناقصاً من البشر)... صلاح الإنسان يكمن في ذكائه. «خيره» كان يتكون من التفكير بوضوح وفاعلية، مخططاً، حاسباً، دارساً، وصانعاً أشياء. السلامة الأخلاقية للإنسان تعتمد أيضاً على اللوغوس، لأن صفات مثل الشجاعة أو الكرم كان يتوجب أن ينظمها العقل. «الحياة وفقاً للعقل، هي الأفضل والأجمل» كما كتب في إحدى رسائله «لأن العقل ـ أكثر من أي شيء آخر ـ هو الإنسان»(108). عقل الإنسان كان إلهياً وخالداً، إنه يربطه بالآلهة، وأعطاه المقدرة على فهم الحقيقة المطلقة. فمسرات theoria ليست على شاكلة المتعة الحسية، إنها لا تتحسر، ولا تفيض، بل كانت بهجة مستمرة، معطية المفكر تلك الكفاية الذاتية التي تسم الحياة الأعلى من كل شيء. يجب علينا ـ قدر ما نستطيع ـ أن نشد كل عصب كي نعيش وفقاً لما هو الأفضل فينا. كما أكد أرسطو، يستطيع الإنسان التوجه نحو هذه الخاصية الإلهية «طالما أن شيئاً ما إلهي موجود فيه»(109).

في بعض الجوانب theoria كانت مماثلة لحالات الغيبوبة التي كان يمر بها بعض حكماء العصر المحوري الآخرين، الذين كانوا أيضاً يسعون إلى تحقيق طاقتهم الإنسانية، باحثين عن غبطة لا تزيد ولا تنقص، وعن كفاية ذاتية مطلقة. لكنهم حاولوا المضي إلى ما خلف اللوغوس والعقل. لا نعرف ما كانت تتضمنه theoria أرسطو(110). هل ضمنها دراساته العلمية؟ أم أنه كان مشغولاً في نشاط أكثر تأملاً وتسامياً؟ بالتأكيد «الفكر noeton» كان بالنسبة لأرسطو جوداً بحد ذاته، إنه كان أصل جميع الأشياء، وكان سمة خاصة لحياة الله God الخفية.

مثل أفلاطون، اعتقد أرسطو أن Theologia (أي دراسة الله God) كانت الفلسفة الأولى لأنها كانت معنية بالعلة الأسمى للوجود. لقد قبل الدين الكوني لدى أفلاطون، الذي يرى الكون أنه إلهي، والنجوم آلهة حية، ومتخيلاً وجوداً أسمى موجوداً خلف الحري الإلهي وخلقه. إله أرسطو لم يكن العلة الأولى، لأن الكون كان إلهياً وخالداً. بدلاً من ذلك رأى الله أنه المحرك الذي لا يُحرَّك umoved mover. لقد لاحظ أن كل شيء كان يتحرك قد فعَّله شيء ما آخر. ما الذي وضع النجوم والأجرام السماوية الأخرى في دوراتها الثابتة حول الأرض؟ أياً كان ما قد جعلها تدور، لا بد أنه بحد ذاته ثابت غير متحرك، وإلا سيتعين علينا أن نفترض وجوداً أعلى كي يبدأ هذا العمل أيضاً. لقد طالب العقل أن سلسلة العلة والنتيجة يجب أن يكون لها نقطة بداية واحدة، فإله أرسطو كان ـ لذلك ـ النتيجة المنطقية لنظريته عن نشأة الكون، بدلاً من أن تكون حقيقة تم التوصل إليها بالمعرفة الحدسية. في عالم الحيوان ـ كما قال أرسطو ـ الرغبة استطاعت أن تلهم الحركة. فأسد جائع يقتل حملاً بسبب رغبته أن يأكل، وكذلك النجوم ربما قد وضعت في حالة حركة من قبل رغبة ـ إنها كانت بحد ذاتها كاملة جداً لدرجة أن كان بوسعها أن تحن فقط باتجاه كمال أعظم، مدفوعة بحب فكري من أجل وجود منخرط في الفاعلية الأسمى. إله أرسطو كان غارقاً في تأمل ذاته.

ومن هنا المحرك الذي لا يُحرَّك عند أرسطو كان أزلياً، الشكل الأسمى، لأنه كان الشكل الوحيد الموجود بمعزل عن المادة. بما أنه الإله الأعلى، فقد كان عقلاً محضاً، مستغرق بذاته، ومكتف بذاته، لأنه لم يكن مهتماً بأي شيء أدنى من ذاته.

كان الله Theoria نقياً. من جديد ـ كما في لاهوت أفلاطون ـ لم يكن يوجد شيء هنا للشخص العادي(111). ليس فقط المحرك الذي لا يحرك غير معني بالجنس البشري، بل ألقى أرسطو شكاً على فكرة آلهة الأوليمب الأقل شأناً وليس لديها أي اهتمام بالبشرية. بالنسبة لأفلاطون انخراط آلهة الأوليمب في الشؤون البشرية كان بنداً من الإيمان، وبالنسبة لأرسطو كان مجرد

فرضية(112). مع ذلك ـ أرسطو مثل أفلاطون ـ لم يكن يريد أن يلغي العبادة التقليدية. فالناس كانوا دائماً يتوقون إلى وجودات أسمى. فكان من الطبيعي بالنسبة لهم أن يعظموا الآلهة، وهذا النوع من العبادة يجب أن يقبل كمسألة واقعة. الأساطير القديمة كانت عرضة لشك كبير، لكن من المحتمل أنها كانت تنطوي على بضع بقايا حكمة قديمة، مثل أن تنسب الألوهة إلى الأجرام السماوية، فالدين بوسعه أيضاً أن يكون مفيداً في إعطاء مسوغ إلهي إلى قوانين وتشريعات دولة المدينة(113).

لقد أنتجت الفلسفة إلهاً جديداً، لكنه لم يكن لها شيء مشترك مع يهوه. ولكان أرسطو وجد فكرة إله أعلى قرر فجأة أن يخلق العالم، وشغل نفسه في التاريخ البشري أنها فكرة تدعو إلى السخرية التامة، مع أن الموحدين سيستخدمون لاحقاً براهين أرسطو الملتبسة على المحرك الذي لا يحرك كي يوضحوا وجود إلهم، إله الفلاسفة كان يعتبر في نهاية المطاف ـ ومن قبل أكثرهم تبصراً على أنه deus otious، وعديم الفائدة للبحث الروحاني(114). ولو علم أرسطو بذلك لكان وافق عليه. لم يكن هناك شيء مقدس حول ميتافيزيقاه. «هذه الكلمة صاغها محررون ومكتبيون جمعوا مؤلفاته المتناثرة، وملاحظات محاضراته. لقد جمعوا أربع عشرة مقالة في موضوعات غير مترابطة في مجلد واحد، عنونوه «ميتافيزيقا» أي «بعد المادة».

في بعض النواحي، يبدو أن أرسطو كان لديه فهماً أفضل للروحانية التراثية من فهم أفلاطون. إنه لم يكن مستغرقاً بالعقيدة، ومستنتجاً أن المدخلين الذين كانوا يشاركون في الأسرار لم يفعلوا ذلك كي يتعلموا حقائق ومعتقدات، بل «كي يشعروا بانفعالات محددة، وأن يتم وضعهم في حالة انقطاع محددة»(115). هذا النوع من الدين كان حول الشعور، لا التفكير. بدا أرسطو أكثر ارتياحاً مع العاطفة مما كان أفلاطون. فعلى سبيل المثال، كان من المفيد أن يكون المرء غاضباً، طالما لا يسمح لغضبه أن يصبح شديداً. فبينما استبعد أفلاطون المأساة من جمهوريته المثالية، اعتقد أرسطو أنها ما تزال تؤدي وظيفة. كان من الصواب

أن تشعر بالشفقة والخوف في بعض المناسبات، كما أن المأساة ساعدت في تشذيب العواطف وتعليم الناس أن يشعروها كما ينبغي(116). فعلى سبيل المثال، عند مشاهدة عذابات أوديب، رجل متخاذل سوف يدرك أن متاعبه لم تكن شديدة السوء في نهاية المطاف، وشخص صلف سيتعلم أن يشعر الرحمة على من هم أضعف منه. من خلال محاكاة أحداث خطرة ومرعبة، فقد أنجزت المأساة تطهير مثل هذه المشاعر(117). العواطف كانت مستنفذة من طاقتها الخطرة، وأصبحت مفيدة للفرد والجماعة حقاً. كانت هذه الأحاسيس أساسية للمتعة الخاصة بالمأساة. لقد فهم أرسطو عقلانياً ما الذي كانت تفعله الطقوس: إعادة تمثيل طقسي، أسطوري أو رمزي لأحداث لن يكون ممكناً احتمالها في الحياة اليومية، استطاعت أن تحول أعمق المخاوف إلى شيء ما نقي، متسامٍ، وممكن الاستمتاع به حتى: ومع ذلك رأى أرسطو المآسي كنصوص أدبية للقراءة الفردية. في نقاشه للمأساة أكد على تأثيرها على الفرد بدلاً من وظيفتها المدنية والسياسية. إنه لم يناقش بعدها الطقوسي وأنها أظهرت اهتماماً سطحياً بالآلهة. كان نقده الأدبي متمحوراً حول الإنسان ومثل فلسفته كان متوجهاً كلياً إلى العالم الدنيوي. فما كان تجربة دينية عميقة قد خضع لتغير دقيق من قبل العقل العقلاني الأرسطي إلى شيء ما أكثر براغماتية.

كان أرسطو رائداً ذو عبقرية عظيمة. وتقريباً لوحده قد أرسى الأساسات للعلم، والمنطق والفلسفة الغربية. لسوء الحظ، ترك تأثيراً لا يمحى على المسيحية الغربية. فمنذ أن اكتشف الأوروبيون مؤلفاته في القرن الثاني عشر الميلادي، أصبح الكثيرون شغوفين ببراهينه العقلية للمحرك الذي لا يحرك، إحدى أقل إنجازاته إلهاماً. لم يكن المراد من إله أرسطو أن يكون قيمة دينية، كان غريباً عن الدافعة الرئيسية للعصر المحوري، الذي أكد أن الحقيقة المطلقة لا يمكن وصفها ولا يمكن فهمها. ـ مع ذلك شيء ما استطاع البشر أن يحسوا به، لكن ليس عن طريق العقل. لكن أرسطو قد وضع الغرب على مساره العلمي الذي بعد ما يقارب من ألفي سنة تالية على العصر المحوري سيدخل تحولاً عظيماً ثانياً.

الفصل التاسع

إمبراطورية

من 300 ق.م إلى 220 ق.م

عند بداية القرن الثالث كان العصر المحوري يشرف على نهايته في المناطق الأخرى، لكنه كان ما يزال مزدهراً في الصين، وأصبح بعض المثل الأصلية العليا أكثر صلابة. فطوال أجيال كانت مملكتا wei وQin الأكثر قوة في المنطقة، أما الدول الأصغر فكانت في حالة صراع من أجل البقاء، وبالتالي أصبح الناس منهكين من صراع لا نهاية له. وكان الناس يتطلعون إلى حاكم قوي بما يكفي لخلق إمبراطورية صينية متحدة كما كانت في عهد ياو yao وشون Shun، كما هناك توق ملموس إلى السلم. لم يكن الصينيون مهتمين بالمسائل العلمية، والميتافيزيقية، والمنطقية التي جذبت الإغريق. فالحالة السياسية كانت خطرة لدرجة أن مثل هذه القضايا بدت سخيفة. كانت أولويتهم هي إعادة القانون والاستقرار، ولهذا السبب ركز الفلاسفة، ورجال الأخلاق، والمتصوفون على حل مشكلات الحكم. وما أن بدأ القرن الثالث حتى أصبح واضحاً أن مقاربة جديدة كانت ضرورة. كان معدل التحول متسارعاً جداً لدرجة أن كان باستطاعة الناس أن يروا أن فوارق كبيرة كانت تحدث بين جيل والجيل الذي يليه. كانت هناك قناعة متصاعدة بأن إذا ما خرجت من فوضى فترة الدول المتحاربة، فلن يكون ممكناً إدارتها مثلما حكمت مملكتا باو وشون المنقرضتين، أو حتى مثل ممالك الزهو الغابرة. في الممالك الأكبر التي تتوسع باستمرار لم يكن الأمراء يعتمدون على قوة daode السحرية لمناصبهم. كان

هناك واقعيون، يرون أن الاقتصاد كان مفتاح النجاح. فالنصر حليف الحاكم الذي لديه مناطق أكبر، وعدد رجال أكبر، وموارده أكثر، ومخزونات حبوب أكبر.

مع حلول نهاية القرن الرابع، كان الحكام قد تخلوا عن الاستماع إلى المستشارين الكونفوشيوسيين والموهيين Mohists، وتحولوا عنهم إلى رجال من طبقة التجار الجديدة، التي كانت تشاركهم نزعتهم الواقعية المتشددة. لقد اعتمد التجار على الحسابات، والقوانين المالية بدلاً من تأمل الطريقة The way، وفكروا بالرغبة من أجل الربح والرفاهية، ومن خلال المال والعقود المكتوبة «بيد أن مدرسة فلسفية أخرى كانت تصعد أيضاً إلى المقدمة. ففي دولة بعد أخرى، كان الحكام يتحولون إلى علماء في السياسة رجال الطريقة». هؤلاء الذين أسماهم المؤرخون الصينيون جميعاً «Fajia» التي غالباً ما تترجم «مدرسة القانون»(1). لكن هذه التسمية قد تكون مضللة. فرجال الأسلوب كانوا بالتأكيد مهتمين بالقانون، لكنهم لم يكونوا مستغرقين بفقه القانون. كلمة Fa كانت تعني «معياراً، أو نموذجاً» وكانت تستخدم لوصف أداة مثل الفادن plumb line أو مربع النجار الذي يعيد تشكيل المواد الخام بحيث أنها كانت طبقاً لنموذج ثابت(2). أراد المشرعون القانونيون المتمسكون بنص القانون أن يجعلوا الناس متكيفين مع مثلهم الأعلى، لذلك وسعوا معنى الكلمة لتشمل الطرائق المعدة للتحكم بالسلوك الاجتماعي. ولذلك كانت كلمة Fa مقترنة بكلمة Xing «أي عقاب». قالوا إن الدولة يجب أن تفرض عقوبات صارمة لإصلاح الرجال والنساء، بنفس الطريقة التي كانت الزاوية القائمة ـ L تجبر مادة غير منظمة في خط. اعتقد الموهيون Mohists والكونفوشيوسيون أن ملكاً حكيماً مشبعاً بالتسامح والأخلاق فقط من باستطاعته إصلاح المجتمع. بينما لم يكن القانونيون Legalists مهتمين بأخلاق الأمير، لأنهم كانوا يعتقدون أن طريقتهم إذا ما صيغت كما يجب فإنها سوف تؤدي عملها آلياً، شرط أن تدعمها عقوبات قاسية ومدونة قوانين جزائية صارمة.

من المحتمل أن رجال الطريقة كانوا دائماً فاعلين في الدوائر الحكومية، وحتى في العهود الإقطاعية المثالية، لا بد أنه كان فيها درجة من القسر في السياسة، لكن الأزمنة قد تغيرت. فخلال القرن الأخير حدث انفجار سكاني هائل في السهل العظيم، وبسبب الحروب التوسعية التي لا تتوقف كانت الدول تصبح أكبر بكثير من الإمارات الإقطاعية الصغيرة. فالأميركان بحاجة إلى ما هو أكثر من ren والطقس كي يدير هذه الممالك الضخمة. أراد القانونيون أن يخلقوا طبقة سياسة ستعمل فعلاً. إنهم لم يروا التاريخ تراجعاً عن عصر ذهبي يبكى عليه، لأن هذا سيؤدي فقط إلى حنين إلى الماضي، بينما الخلاص يجب أن يكون في فهم عقلاني للحاضر. دول مزدهرة مثل wei وQi اللتان كانتا تتوسعان باستمرار، كان عليهما أن تفرضا حكمهما على الناس الساخطين المقهورين، وبالتالي كانتا بحاجة إلى أسلوب إدارة كفوءة لم يكن يعتمد على جاذبية الحاكم، بل يطبق على جميع الرعايا على السواء، على الأغنياء والفقراء، الصينيين أو على البرابرة.

كان أنصار القانون يحبون أن يقارنوا آلية الحكم لديهم بالميزان الذي كان يقدم عياراً للوزن. فقد يريد التجار، وأصحاب الدكاكين أن يبتزوا مزيداً من المال من زبائنهم، لكن الميزان كان يخبرهم كمية المال التي كانوا يستطيعون فرضها، «الناس لا يحاولون أن يغيروا الميزان لأنهم يعرفون أن ذلك عديم الجدوى»، كما كتب مؤلف من القرن الرابع:

> ***«لذلك عندما يكون حاكم واضح النظرة على العرش، فلن يكون أمام الموظفين فرصة للي القانون، ولن يكون أمام القضاة فرصة لممارسة الإنحياز، الناس سيعرفون أنه سيكون من غير المجدي محاولة التأثير على القضاة لأن الميزان صحيح وعادل منتظراً الوزن. لذلك الخونة والمحتالون لن يكون لديهم فرصة الحصول على قرارات منحازة لصالحهم»(3).***

بقدر إقرار نظريتهم السياسية، فإنها ستعمل آلياً ودون انحياز. لقد قام القانونيون بالانتقال الفكري المهم من حكم ينتقل من شخص إلى شخص كما

في النزعة الإقطاعية إلى نظام قانوني موضوعي الذي كان يشبه مفهوم القانون في الغرب الحديث، ما عدا أن في الصين القديمة لم يكن القانون مصمماً لحماية الفرد بل لتحقيق السيطرة من الأعلى. المكانة الفكرية أو الأخلاقية لم تكن لها علاقة، لأن النظام باستطاعته أن يؤدي وظيفته دون التدخل الشخصي للحاكم، الذي كان باستطاعته أن يجلس ولا يفعل شيئاً «do nothing».

لقد شعر القانونيون أنهم مثل الداويين Daoists، مثل زهوآنغزي الذي طالب بأهمية «لا تفعل شيئاً»، وأكد أن طريقه للسماء كانت تعمل بشكل مستقل عن نوايا البشر. لقد وافق القانونيون الأول على ذلك. وهكذا فإن شن داو Shen Dao الذي كان معاصراً لمنسيوس في أكاديمية Jixia شبه المؤسسات غير الشخصية للسلطة في الدولة الجيدة التنظيم بفاعلية طريقة السماء التي لا يمكن أن تتأثر برغبات ومناصب الأفراد من البشر. فتماماً مثلما امتنع الحكيم عن «عدم فعل شيء» الهادفة، لأنها كانت تعيق أفعال الطريقة The way، كذلك الأمر يجب أن يمتنع الحاكم عن أية تدخلات شخصية تعرقل العمل الآلي للنظام. أراد شين داو أن يجد سياقاً آيديولوجياً لنظرته البراغماتية تماماً في الحكم، والمثال الأعلى للموقف السلبي غير الفاعل في الملك عند القانونيين كان له جذوراً عميقة في الصين. القانون الطقوسي في الفترة الإقطاعية كان يقضي أن الأمير يجب «ألا يفعل شيئاً»، بل ببساطة عليه أن يسمح للطاقة السحرية للطريقة The way أن تفعل فعلها من خلاله.

هذه النزعة القانونية Legalism تطورت أولاً في ممالك wei، وهان، وزهو، التي قد انسلخت عن دولة Jin القديمة في مطلع القرن الخامس. هذه الممالك كانت دولاً احتيال، وكان حكامها أقل التزاماً بالتراث، وأكثر انفتاحاً على نظريات حكم راديكالية. في نحو عام 370 شاب طموح يدعى شانغ يانغ Shang yang (390 ـ 338) كان قد استقر في wei، وانضم إلى نقاشات علماء السياسة المحليين، الذين لم يكن لديهم برنامج روحي عظيم، بل ببساطة أرادوا أن يصلحوا الجيش، ويزيدوا الإنتاج الزراعي، وليعززوا سلطة الحاكم عن طريق

إضعاف طبقة النبلاء المحلية، وأن يطوروا مدونة قانونية فعّالة وواضحة. لكن شانغ فشل في كسب رضا ملك wei، وفي عام 361 تمكن من أن يصبح كبير مستشاري أمير Qin، فكانت هذه فرصة عظيمة له. كانت هذه الإمارة تضم عدداً ضخماً من السكان البرابرة الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن تراث ملوك الزهو، وكان النبلاء ضعفاء لدرجة أنهم لم يكن بإمكانهم تشكيل معارضة فعالة مناهضة للبرنامج الثوري لشانغ. إصلاحه الذي ازدرى العديد من مبادئ أساسية في العصر المحوري جعل من مملكة Qin المنعزلة المتخلفة الدولة الأقوى والأكثر تطوراً في الصين. وفي نهاية القرن الثالث، وكنتيجة للإجراءات الواسعة التي نفذها شانغ، استطاعت Qin أن تهزم جميع الدول الأخرى، وفي عام 221 أصبح حاكمها الإمبراطور التاريخي الأول للصين.

لم يكن اللورد شانغ يشعر بأي ولاء إلى تراث الماضي «عندما تصبح المبادئ الموجهة للناس غير مناسبة لظروفهم، فإن معيارهم [FA] القيمي يجب أن يتغير. فمثلما تتغير الظروف كذلك تطبق المبادئ المغايرة»(4). لم يكن مفيداً الحلم بعصر ذهبي ملوكه حكماء رحماء. وإذا كان الناس أكثر كرماً في الماضي، فهذا ليس لأنهم مارسوا ren، بل لأن السكان كانوا أقل عدداً، وكان هناك طعام كافٍ. وكذلك، الفساد وفترة الدول المتحاربة لم تكن ناجمة عن عدم النزاهة، بل سقطت لأن الموارد كانت نادرة(5). وبدلاً من الترويج لعدم العنف، أراد اللورد شانغ من شعب Qin أن يكونوا تواقين للحرب وسفك الدماء، مثل ذئب جائع. هدفه الوحيد هو «إغناء الدولة وتقوية قدراتها العسكرية.». قلة من الناس أرادت أن تعرض نفسها لمخاطر حرب حديثة، لكن شانغ فرض عقوبات قاسية على الهاربين لدرجة أن الموت في ساحة المعركة بدا أمراً مفضلاً. كما أنه كان يمنح مكافأة على تأدية الخدمة العسكرية بتوزيع أرض زراعية على النبلاء والفلاحين على حد سواء.

الإصلاح العقلاني الممنهج للوردشانغ قد غير كلياً الحياة اليومية في Qin التي أصبحت برعايته آلة حربية عالية الكفاءة. كان التجنيد الإلزامي في الجيش، والسخرة إجباريين، وانضباط الحياة العسكرية القاسي كان مفروضاً

على البلاد كلها. أما التجديد الأكثر أهمية للورد شانغ كان ربط الإنتاج الزراعي بالجيش، فأصبح الجنود الفلاحون الناجحون ملاك أراضي، وأُعطوا ألقاباً ورواتب، بينما كانت طبقة النبلاء القديمة قد تم تفككيها. والأرستقراطيون الذين لا يبلون بلاء حسناً في المعركة كانوا تُخَفّضُ رتبهم، وأصبحوا من عامة الناس، ومن لم يشاركوا بكفاءة في الخطط الطموحة لقطع الغابات كانوا يباعون عبيداً. كل امرئ كان خاضعاً للقوانين ذاتها: حتى ولي العهد تم إعدامه عندما وجد أنه كان مذنباً بجنحة طفيفة.

لم يكن اللورد شانغ غير مهتم فقط بأخلاق الأمير، إذ اعتقد أن حكيماً فاضلاً سيكون في حال توليه الحكم ملكاً كارثياً. «دولة تستخدم أناساً فاضلين لحكم الأشرار، ستكون مبتلاة بعدم الاستقرار والدمار، ودولة تستخدم الأشرار لحكم الفاضلين ستتعم دائماً بالاستقرار، وستصبح قوية»(7). الكونفوشيوسيون الذين كانوا يدعون إلى السلم كانوا خطرين. فإذا مارس كل شخص Li فإن الناس يصبحون معتدلين ومقيدين، لدرجة أن الأمير لن يكون بإمكانه أن يقنع أي امرئ أن يحارب. كان اللورد شانغ يحتقر القاعدة الذهبية. الأمير الفعّال سوف يوقع بالعدو ما لا يتمنى أن يحدث لجنوده. «إن تؤدي في الحرب ما لا يغامر العدو أن يقوم به، فإنك ستكون قوياً» كما قال لمرؤوسيه. «وفي الحملات، إن تفعل ما يخجل أن يقوم العدو به، فإن الفائدة ستكون لك»(8).

كانت إصلاحاته القاسية جداً نجاحاً عظيماً. ففي عام 340 ألحقت Qi هزيمة منكرة بـ wei منافستها الرئيسية، فأصبحت منافساً رئيسياً على قوة إمبريالية. لقد توقع اللورد شانغ أن ينال هبة سخية ـ قطعة من الأرض ـ كمكافأة على خدماته، لكن بدلاً من ذلك أصبح ضحية القسوة الجديدة. ففي عام 338 ـ بعد وفاة الراعي الملكي سيطر منافسوه على عقل الأمير الجديد، فمُزِّق شانغ إرباً بعربات لحرب التي كسبها لـ Qin. لكن جيلاً جديداً من القانونيين Legausts سيستمرون في المسارات التي خطط لها، كما بدأت دول أخرى تسير وفق نموذج Qin.

واحد من أفضل القانونيين كان هان في Han Fei (280 ـ 233) الذي أصبح وزير ملك Qin هوانغ دي. كان أقل سخرية بكثير من اللورد شانغ، كما أنه كان يعتقد أن لديه مهمة نبيلة لمساعدة البشر. في مقالته /غضب عزلة/ رأى نفسه أنه مختلف تماماً عن shi الجوالين الآخرين الذين أشاعوا ـ ما كان حسب رأيه ـ أفكاراً لا جدوى منها، وغير عملية. إنه هو وقانونيون آخرون يجب أن يكونوا رجال أخلاق لا يُظَّن بهم، ويجب أن يكرسوا أنفسهم ودون تردد إلى مصالح الأمير العليا(9). كان هان في يعلم أنه من غير المرجح أن يكون ملك برنامجاً لفضيلة، لكنه أراد أن يساعد الكائن البشري العادي أن يصبح حاكماً مؤثراً من خلال إقامة نظام كفء. يجب على الحاكم أن يجد الموظفين المناسبين كي يعملوا لصالحه، ويجب أن تلهمه الرغبة لأن يساعد الناس. «فقط أن ينظر إلى الأمام إلى ما سيفيد الناس. ولذلك عندما يفرض عقوبات عليهم، فإنه يفعل ذلك لا بدافع كراهية للناس، بل بسبب اهتمامه بهم»(10). يجب أن يكون غير منحاز وغير أناني، يعاقب الأصدقاء والأسرة إذا ما دعت الضرورة ذلك، ويكافئ أعداءه. قصيدة تنسب إلى هان قدمت كقاعدة الحكم «لا تفعل شيئاً» معنى صوفياً:

عن طريق العمل دون معرفة، فإنه يمتلك وضوح الرؤية،

عن طريق العمل دون جدارة، فإنه يحصل على نتائج.

عن طريق العمل دون شجاعة، فإنه ينال قوة.(11).

لم يكن من المفترض أن يكون القانون طريقة للعقاب والقمع، بل كان تربية تُعوِّدُ الملك ورعاياه أن يسلكوا بطريقة مختلفة. وبعد أن يكتمل هذا الإصلاح لن يكون هناك حاجة أكبر للعقوبات، كل واحد سوف يسلك وفقاً لأفضل مصالح الدولة. بالرغم من كل نوايا هان في الطيبة، فقد لاقى نهاية عنيفة. لقد تعرض للإفتراء عليه، وسُجن، وفي عام 233 قَبِلَ أن ينتحر بدلاً من أن يُقْتَلَ.

قبل أن يصبح هان في أحد القانونيين، درس على يدي أهم فيلسوف كونفوشيوسي في عصره، ومن المحتمل أنه اكتسب الكثير من نزعته المثالية من معلمه زو نزي Xunzi (340 ــ 245) مفكر عقلاني صلب، وشاعري، ومتحمس تمكن أن يستوعب رؤى فلاسفة آخرين في نظرته الكونفوشيوسية الخاصة به، وأوجد توليفة قوية جداً(12). إنه لم يكن يعتقد أن الموهيين Mohists، واليانغيين، والقانويين على خطأ، بل أنهم شددوا فقط على جانب واحد من نقاش معقد، وكان ممكناً تعلم شيء منهم جميعاً. كان زونزي متأثراً بعمق بأفكار الداوية D aoist أيضاً. كتابه كان نقاشه متماسكاً ومنظماً أكثر من أي نص آخر من العصر المحوري الصيني، مع ذلك أحياناً نثره كان يتحول بسهولة إلى قالب شعري، ومنطقه إلى بصرية صوفية.

النزعة البراغماتية الجديدة راعت زونزي، اعتقد أنها أدت إلى انحطاط في المعايير الأخلاقية. فحيثما ذهب كان يرى «التآمر والمكائد» والسعي الشخصي وراء الثروة والسلطة، والترف(13). وبما أن الأمراء رفضوا الالتزام بـ Li، فإنهم كانوا يسعون وراء طموحاتهم دون رحمة، وأصبح العنف والحروب متفشية. لم يقبل زونزي النزعة الواقعية عند القانونيين، وكان لا يزال يعتقد أن ملكاً رحيماً كان الشخص الوحيد الذي باستطاعته إعادة السلم والاستقرار، لكنه كان مستعداً أن يناقش أي نظام يمكنه أن يجلب الخلاص، حتى ولو افترق عن المبادئ الكونفوشيوسية التقليدية. كان زونزي ناشطاً يتطلع إلى وظيفة حكومية، لكنه لم يكن أكثر نجاحاً من كونفوشيوس ومينسيوس. لقد عُيِّنَ ثلاث مرات مديراً لأكاديمية Jixia، لكن كان عليه أن يترك هذا المنصب عندما طرد ملك Qi المستبد مين Min طرد العلماء من مملكته. في عام 255 انتقل إلى Chu حيث عينه رئيس الوزراء قاضياً، لكنه خسر وظيفته في عام 238 عندما اغتيل ربيب نعمته. فانسحب زونزي من الحياة العامة حزيناً، وحرر مقالاته المجموعة.

وصفت إحدى مقالاته زيارته إلى Qin. فمع أن المثل الأعلى القانوني Legalist لم يكن بعيداً عن مثله الأعلى، إلا أن زونزي كان متأثراً بما كان يراه. الموظفون كانوا يعملون بكفاءة وكرامة، ولم يكن هناك فساد، ولا اقتتال

داخلي في الإدارة، وكان الناس العاديون بسطاء وأيديهم نظيفة. ربما كانوا يخافون الحكومة، لكنهم أطاعوها، وقدروا عالياً الاستقرار وعدم إنحياز القوانين الجديدة(14). لم تكن Qin مثالية ـ على أية حال ـ لقد أدرك زونزى أن الإصلاحات كانت ممكنة لأن الناس لم تكن لديهم تجربة حضارة عالية. اعتقد أن مدونة العقوبات القاسية ربما كانت ضرورية، لكنه نوه أيضاً أن Qin كانت مكاناً مضطرباً، بدا أن الناس كانوا خائفين باستمرار من أن «العالم يسوف يتحد كي يسحق Qin»(15). إن Qin لن تحكم الصين كلها ـ كما اعتقد ـ وستبقى فقط إذا قبلت توجيه الجونزي، حاكم إنساني النزعة، وناضج. كان زونزي مصيباً ومخطئاً معاً. Qin تمكنت من هزيمة الدول الأخرى، وأسست إمبراطورية، لكن أساليبها التي لا ترحم في الحكم أدت إلى انهيار السلالة الحاكمة التي سقطت بعد 14 سنة فقط. مع ذلك، كان Qin تحدياً لكونفوشيوسي. أثناء مقابلة مع الملك زهاو Zhao أخبره زونزي أنه كان حزيناً لعدم وجود طقوسيين في إدارة Qin. فأجابه الملك بصراحة «الكونفوشيوسيون لا فائدة منهم في إدارة دولة»(16). كان صعباً أن يجادل الملك بعد أن قدم له سجلهم الكئيب، ولم يستطع أن يجد جواباً شافياً لتلميذه الشاب الطموح Li si xunzi الذي اقترح أن إذا ما تسلم جونزي السلطة سيحل السلام، لأن نزعته الأخلاقية (yi)، وتسامحه (ren) سيكونان قوة لا تقاوم من أجل الخير. لقد كانت نظرة كونفوشيسية جميلة. رحمة الأمير سوف تشع منه، مثل طاقة الملوك الحكماء، كما شرح زونزي، حيثما يذهب فإنه سوف يغير بيئة دون جهد، أمير كهذا لن يهاجم دولة أخرى كي يوسع طموحه الخاص:

> ***إنه يحمل السلاح كي يضع حداً للعنف، ولكي يقضي على الأذى، وليس لينافس الآخرين على الغنائم. لذلك عندما يعسكر جنود الرجل المتسامح فإنهم ينالون احتراماً شبيهاً باحترام الآلهة، وحيثما يمرون فإنهم يغيرون الناس. إنهم مثل المطر الموسمي الذي هطوله يسعد الناس جميعاً.***

قال الملك متعجباً «تابع حلمك». كيف فسر زنوزي نجاح Qin التي كانت دائماً منتصرة طوال أربعة أجيال؟ «جيوشها هي الأقوى في العالم، وسلطتها تهز الإقطاعيين الآخرين، إنها لم تفعل هذا من خلال ren وyi، بل بانتهاز فرصها، هنا كل ما في الأمر»(17). بعد مدة ليست طويلة هجر Li si زونزي وتحول إلى Legalism، وهاجر إلى Qin وأصبح رئيس وزرائها، وترأس حملة البرق التي نجم عنها آخر نصر لـ Qin في عام 221.

في عام 260، وبعد بضع سنوات من زيارة زونزي، هزم جيش Qin دولة زونزي الأصلية (الزهاو Zhao). مع أن الأمير استسلم، إلا أن جيوش Qin قتلت أربعمائة ألف جندي من الزهاو. كيف باستطاعة جونزي ـ الذي لم يستطع أن يحتفظ بوظيفة بسيطة في الإدارة ـ أن يمارس أي تأثير كابح على النظام الذي لا يرحم؟ لكن بينما كان الظرف السياسي يزداد حلكة، ومزيد من الدول تبنت نظام Ligalist، إلا أن زونزي لم يفقد إيمانه. وعكساً لجميع التوقعات استمر في اعتقاده أن روح الاستسلام للطقوس وخلق ren الرحمة باستطاعتهما أن يجلبا السلم والاستقرار إلى الصين. وعلى الرغم من أنه اعترف أن عليهم في هذه الأوقات العصيبة أن ينتظموا من خلال عقوبات ومكافآت. والحكمة لم تكن مثالاً أعلى مستحيلاً. فلو قام بمحاولة صادقة وملتزمة ليغيّر نفسه، لكان باستطاعة أي رجل في الشارع أن يصبح مثل ياو yao وينقذ العالم.

في دعوة زونزي نجد دعوة ملحة من أجل «لا تفعل شيئاً» جهداً واعياً ومنضبطاً. لقد تعلم من زيارته إلى Qin أنهم إذا ما حاولوا بجدية كافية، فإن باستطاعة البشر أن يغيروا مجتمعهم. لكن يجب أن يتحملوا المسؤولية بأنفسهم. فالسماء لم تكن إلهاً يتدخل في شؤون العالم، وبالتالي ليس هناك فائدة من الاتكال على السماء طلباً للعون، أو محاولة ثني إرادة السماء من خلال استشارة النبوءات. كان زونزي يكره هذه الخرافات الاحتيالية. فالسماء بحد ذاتها كانت الطبيعة ذاتها، وبالإمكان رؤية طريقة السماء في استقرار وانتظام الأجرام السماوية، وفي تعاقب الفصول. طريقة السماء كانت منفصلة تماماً عن

البشر. وليس في وسعها أن تقدم دليلاً أو مساعدة، لكنها جعلت الموارد متوفرة، لكي يجدوا الطريق إليها. هذه كانت مهمة الجونزي، ولا جدوى من تأمل طريق السماء وإهمال شؤون البشر مثلما فعل زهوآنغزي، من الخطأ الانسحاب من المجتمع. والحضارة إنجاز رائع، أعطى البشر مكانة مقدسة، جعلتهم شركاء متساوين مع السماء والأرض. «هل من الأفضل أن نطيع السماء ونرتل الترانيم لها» كما سأل زونزي أم أن نفهم تكليف السماء وأن نستفيد منه؟. هل كان من الأفضل أن نحن إلى السماء مثل الداويين Daoists أم أن نستغل الموارد التي قدمتها السماء و«نجلبها إلى الكمال»(18). فإذا ركزنا على السماء وأهملنا ما باستطاعة الناس فعله، «فإننا سوف نفشل في فهم طبيعة الأشياء»(19). كما أكد زونزي مرة تلو أخرى.

لكن هذا كان يتطلب جهداً شاقاً مخلصاً. لقد تعلم زونزي من القانونيين Legalists أن الشعب كان بحاجة إلى إصلاح. لم يكن مثل مينسيوس، اعتقد أن الطبيعة البشرية لم تكن خيرة بل شريرة. قال «إن كل واحد يولد ومعه مشاعر الغيرة، والكراهية، وإذا ما استغرق في هذه المشاعر، فإنها ستقوده إلى العنف والجريمة، وسيختفي كل إحساس بالولاء والإيمان الجيد(20)، لقد استخدم الصورة نفسها التي استخدمها القانونيون «قطعة خشب ملفوفة، يجب أن تنتظر حتى يتم وضعها مقابل لوح مستقيم، وتعرض إلى النجار، وتضغط في شكل، قبل أن تصبح مستقيمة»(21). فإذا ما عمل كل واحد بجدية كافية فبوسعه أن يصبح حكيماً. وليس باستطاعته أن ينجز هذا لوحده. فأولاً عليه أن يجد معلماً، وأن يُسلّم نفسه إلى شعائر Li: عندئذ فقط سيكون قادراً أن يلتزم بأوامر الكياسة والتواضع، ويطيع قواعد المجتمع، ويحقق الاستقرار(22). لم يكن مفيداً القيام بما يأتي بشكل طبيعي، مثل اليانغيين والداويين Daoists. الخير كان نتيجة للسعي الواعي. والجونزي استخدم البراعة كي يعيد توجيه عواطفه في قنوات بناءة. هذا لن يعيق الطبيعة البشرية، بل سيطلق كل طاقتها.

كان زونزي مقتنعاً أن إذا ما استخدم الناس قدراتهم على المحاكمة وذكاءهم فإنهم سيدركون أن الطريق الوحيد لاستعادة السلم والاستقرار الجيد

كان خلق مجتمع أخلاقي. وبالتالي كانت التربية أمراً حاسماً. لقد أخذ ورقة من كتاب القانونيين بالاعتراف أن الأقل ذكاء لن يفهم ما كتب فيها، وسيكون مجبراً - من قبل نظام قضائي وقانون عقوبات - أن يخضع لبرنامج تربية أخلاقية. لكن الناس الأكثر حكمة سيختارون طوعاً تغيير أنفسهم بدراسة حكمة الماضي. عندما كان ياو، وشون، ويو Yu يتأملون العالم، أدركوا أن بإمكانهم إنهاء البؤس المدقع الذي كانوا يرونهم حولهم من خلال جهد عقلي هائل فقط، الذي يبدأ بتغيير أنفسهم. لذلك أوجدوا طقوس الاحترام. والكياسة، والاستسلام، لقد كيفوا عواطفهم بحيث أنهم قد أنجزوا سلامهم الداخلي. عن طريق النظر في داخل قلوبهم نقدياً، مراقبين سلوكهم، وردود أفعالهم على ألم وبهجة الحياة، اكتشف الحكماء كيف ينظمون العلاقات الاجتماعية(23). ولذلك الـ Li كانت مبنية على مبدأ Shu «المماثلة مع النفس». فقط عندما يسيطر حاكم على نفسه فإن بإمكانه أن يجلب السلم والاستقرار إلى المجتمع ككل.

لم يفرض الحكماء مجموعة من القواعد الغريبة على رعاياهم، ولذلك، Li كانت مستلهمة من تحليلهم للبشر. الشعائر أنسنت العواطف، مشكلة إياها مثلما يشكل فنان شكلاً وجمالاً من مواد غير واعدة: «يقصر ما هو طويل جداً، ويطول ما هو قصير جداً، ويستأصلون الزوائد، ويرممون العيوب، ويوسعون أشكال الحب والاحترام. وخطوة تلو خطوة يتقدمون إلى إنجاز جماليات منتج لائق»(24). Li كانت نوعاً من قانون طبيعي. فحتى الكون ذاته يجب أن يطيع القوانين التي جلبت الاستقرار من الفوضى، وحتى الأجرام السماوية، والفصول الأربعة، كان عليها أن تخضع بدلاً من أن تقتحم بعدوانية إحداها الأخرى. Li قد خلقت الانسجام بين السماء والأرض. والشمس والقمر قد أضيئا بـ Li، والفصول الأربعة تستمد تراتبها منها. والنجوم والكواكب تتحرك من خلال Li» كما أوضح زونزي، وإذا لم تفعل Li ذلك سيكون هناك فوضى. Li نفسها التي طالبت أن تلتزم جميع الأشياء بأماكنها المحددة في نظام الكون، هي التي ستتقي العواطف البشرية(25).

Li بعيدة عن أن تكون غير طبيعية، ستأخذ الناس إلى قلب الحقيقة. كرر زونزي مؤكداً أن معنى الطقس عميق حقاً، والشخص الذي يحاول إدخالها بالنظريات الغريبة الفارغة لصناع النظام سوف ينتهون هناك»(26).

مع أن زونزي قد ركز على الأرض بدلاً عن السماء، فإنه لم يكن داعية إنسانياً علمانياً. مثله مثل جميع الصينيين، بَجَّلَ الطبيعة «كشبه إله»، وكانت نزعته العقلانية مبنية على صمت صوفي. لقد شجب ما أسماه هاجس الإصرار الأناني على موقف عقائدي وحيد. قبل أن يحاول أي امرئ أن يصلح المجتمع، عليه أن يفهم الطريقة The way ولن يستطيع فعل ذلك من خلال الإصرار أن آراءه كانت سليمة وآراء الآخرين خاطئة.

بالإمكان فهم الطريقة The way بالعقل الفارغ الموحد والساكن فقط، وإذا كان منفتحاً على تأثيرات جديدة بدلاً من التشبث برأيه الخاص به. وهنا كان زونزي متفقاً مع زهوآنغزي العقل كان «فارغاً» إذا كان منفتحاً على التأثيرات الجديدة، بدلاً من التشبث برأيه الخاص به، وكان موحداً إذا لم يكن يجبر تعقيد الحياة في نظام خدمة ذاتية متسق، وكان هادئاً إذا لم يستغرق في «أحلام وأوهام صاخبة»، ويغذي طموحات «مؤامرات ومكائد» تعيق الفهم الصحيح(27). شرح زونزي «الفراغ، والوحدة، والسكون هذه هي سمات الاستنارة النقية العظيمة».

كائن بشري عادي مجرد من هاجس أناني النزعة باستطاعته أن يبلغ النظرة السليمة لحكيم. بدلاً من أن يكون سجين وجهة نظر أنانية مدرسية، فإنه اكتسب معرفة حدسية للمبادئ الأكثر عمقاً للحكم.

من يمتلك هذه الاستنارة يمكنه أن يجلس في غرفته وينظر إلى كامل المنطقة ضمن البحار الأربعة، يمكنه أن يعيش في الحاضر ومع ذلك يناقش حول أزمنة قديمة. إنه يمتلك بصيرة ثاقبة داخل جميع الكائنات ويفهم طبيعتها الحقيقية، ويدرس أزمنة الاستقرار وأزمنة الفوضى ويفهم المبدأ خلفها. هو يتصفح كل السماء والأرض،

ويدير جميع الكائنات، ويتقن المبدأ العظيم وكل ما هو موجود في الكون(28).

ذكاؤه قد أصبح «شبه إله»، والقانونيون لم يكونوا طموحين بما فيه الكفاية. فالشخص الذي تم إصلاحه لم يكن مجرد قرص في الآلة الاقتصادية أو العسكرية، بل كائناً إلهياً. «واسع، شاسع. فمن يعرف حدود إنسان كهذا؟» كما سأل زونزي، «متألق وشمولي، من يعرف فضيلته؟ ظلي ومتغير دائماً، من يعرف شكله؟ تألقه يشبه الشمس والقمر، وعظمته تملأ الاتجاهات الثمانية، هذا هو الرجل العظيم»(29). إنسان قد حقق طاقة إنسانيته بهذه الطريقة باستطاعته أن ينقذ العالم.

لم يأخذ أحد أفكار زونزي السياسية على محمل الجد، لكن بحلول منتصف القرن الثالث كل واحد كان يتحدث عن الدليل الصوفي لفن إدارة الدولة لدرجة أنه نال اهتماماً واسعاً فورياً(30). والقانونيون على وجه الخصوص كانوا متحمسين لهذا النص الجديد. The Daodejing (classic of the way andits potency)، قد أصبح رائعة شعبية في الغرب. لم يكن مكتوباً أصلاً للفرد العادي، بل من أجل حاكم دولة صغيرة. إننا نعرف القليل عن مؤلفه الذي استخدم اسماً مستعاراً لاوتسي laozi أي «المعلم القديم». حكيت قصص متنوعة عنه، لكن لم تحظى أية قصة بوثوقية تاريخية، والمؤلف الذي موضوعه إغفال الاسم وإنكار الذات، قد راوغنا ـ ومن المحتمل، كما تمنى ذلك.

يتألف كتاب داود جنغ من واحد وثمانين فصلاً في قالب شعري ملغز. مع أن لاوتسي كان روحانياً أكثر بكثير من القانونيين، إلا أن هناك تشابهاً بينهما، وسرعان ما حدد القانونيون أوجه التشابه، كلاهما كرها الكونفوشيوسيين، وكلاهما كان لديهما آراء متناقضة عن العالم، بالإمكان بلوغ الأهداف عن طريق ملاحقة أضدادها، واعتقد كلاهما أن على الحاكم «أن لا يفعل شيئاً»، وأن يقلل تدخله في حياة الدولة إلى أقل حد ممكن. لكن لاوتسي لم يكن على شاكلة القانونيين، إذ أراد أن يكون ملكه فاضلاً ـ لكن ليس مثل حكيم

كونفوشيوس - يحاول إلى ما لانهاية أن يفعل أشياء لصالح شعبه. بدلاً من ذلك، أمير مارس مواجهة النفس، وعدم انحياز كلي «لعدم فعل شيء» ستضع حداً لعنف الدول المتحاربة. الملوك القدماء - كما قيل - حكموا بقدرة سحرية رسخت طريقة السماء على الأرض من خلال تأدية سلسلة طقوس خارجية. ولاوتسي قد استبطن هذه الشعائر القديمة، ونصح الأمراء باكتساب التزام داخلي روحاني بالطريقة The way.

هذه كانت أوقات مرعبة لجميع الإمارات الصغيرة التي كانت على وشك الزوال على يد مملكة Qin. الخوف من إبادة حتمية يجري مثل فكرة مهيمنة في أرجاء الداودجنغ الذي يقدم للأمير الضعيف استراتيجية من أجل البقاء. بدلاً من موقف عدائي، عليه أن يتراجع وأن يجعل نفسه صغيراً. وبدلاً من المكائد والتآمر عليه أن يتخلى عن التفكير، ويهدئ عقله، ويسترخي جسدياً، ويحرر نفسه من الطرق التقليدية في النظر إلى العالم. عليه أن يسمح لمشاكله أن تحل نفسها من خلال «لا تفعل شيئاً»(31). بالإمكان تحقيق ذلك إذا ما أصلح قلبه الذي يجب أن يكون متجذراً في الهدوء والفراغ. لهذا السبب كرس لاوتسي ثلاثين فصلاً من كتابه للطريقة الصوفية التي سوف تغير حياة الأمير الداخلية، وتعطيه القدرة كي يملأ ويستعيد العالم، مثلما فعل الملوك القدماء.

يعرفنا الفصل الأول بطريقة لاوتسي. الحاكم الحكيم كان عليه أن يتعلم أن يفكر بطريقة مختلفة كلياً. لأن التفكير العقلي العادي سيكون دون فائدة. فالعقائد، والنظريات، والنظم قد تعيق تقدمه، لكن كان عليه أن يدخل بعداً موجوداً خلف اللغة والمفاهيم، بدأ لاوتسي:

الطريقة التي بالإمكان التحدث عنها ليست طريقة ثابتة،

الاسم الذي بالإمكان تسميته ليس الاسم الدائم،

الذي لا يسمى كان بداية السماء والأرض.

كل شيء في العالم له اسم، لكن لاوتسي كان يتحدث عما هو وراء الدنيوي وأكثر أهمية من أي شيء يمكننا أن نتصوره: ولذلك كان لا اسم له

وغير مرئي. لكن معظم الناس كانوا غير مدركين لهذا البعد الخفي. بالإمكان معرفته فقط من قبل الشخص الذي خلص نفسه من الرغبة. وشخص لم يستأصل الرغبة من عقله يستطيع أن يرى مظهر هذه الحقيقة فقط التي لا اسم لها، عالم الظواهر. غير المرئي، والظاهر كانا كلاهما متجذرين في مستوى وجودي أكثر عمقاً، الجوهر السري لجميع الأشياء «سر على سر». ماذا يجب علينا أن نسمي هذا؟ استنتج لاوتسي أن علينا أن نسميه «الظلام The dark» كي نذكر أنفسنا بغموضه العميق «البوابة المتعددة الأسرار»(32).

كشف لاوتسي تدرجات حقيقية أعمق، وكأنه كان يقشر طبقات بصلة. قبل أن يستطيع الحاكم الحكيم البدء ببحثه عليه أن يفهم عدم كفاية اللغة، تماماً مثلما ظن أنه قد لمح غير المرئي، لقد أصبح مدركاً لسر ما لا يزال أكثر عمقاً. بعد ذلك تم تحذيره أن هذه المعرفة لم تكن مسألة اكتساب معلومات مرموقة، بل كانت تتطلب إنكار النفس التي أكد عليها جميع حكماء العصر المحوري. كان عليه أن يتخلى عن الرغبة التي تصرخ باستمرار «أنا أريد». حتى بعد أن يكون قد أدرك هذا فإنه يكون عند «بوابة» السر النهائي. في وضع الطريقة The way في مركز نظرته، فقد أكد لاوتسي على سلاسة الحياة الروحية، الهدف كان خفياً، ولا يمكن بلوغه، والممر كان فيه دائماً انعطاف والتواء جديد، تحثنا باستمرار إلى ما هو أبعد، وفي الوقت ذاته بينما كانت تتراجع في المسافة:

يوجد شيء متشكل بشكل مريك

مولد قبل السماء والأرض

صامت وفارغ void

إنه يقف وحيداً ولا يتغير،

يدور ولا يتعب.

إنه قادر أن يكون أم العالم.

أنا لا أعرف اسمه

لذلك أسميه «الطريقة The way»

كونه عظيماً، فإنه يوصف بالمتراجع receding(33).

هناك لا مبالاة في محاولة لاوشي تسمية هذا الشيء «المتراجع المراوغ الذي أطلق عليه اسم «make shift». ليس باستطاعتنا أن نتحدث عن هذا الشيء، لكن إذا ما قولبنا أنفسنا وفقاً له، فإنه كان يصبح ـ بطريقة ما ـ معروفاً لنا».

قصائد لاوتسي المقتضبة لم تقدم معنى منطقياً. لقد شوش قراءه عن عمد بإيقاعهم في مفارقات. لقد أخبرهم أن السامي Sublime كان لا اسم له، ومع ذلك بعد أبيات قليلة قال إن «المسمى» و«اللاسم له» أتيا من المصدر نفسه. كان من المفترض أن يحفظ الحاكم الحكيم هذه التناقضات في قلبه، وأن يصبح مدركاً لعدم كفاءة عمليات الفكر العادي لديه. فصول لاوتسي لم تكن تخمينات بل أفكار من أجل التأمل. لقد دون فقط الاستنتاجات، ولم يتتبع الخطوات التي قادت إلى هذه الرؤى insights. لأن الحاكم الحكيم كان عليه يقوم برحلة مع الطريقة The way بمفرده، ذاهباً من الظاهر إلى غير المرئي، وأخيراً إلى أحلك نقطة في الظلام. لم يكن باستطاعته إنجاز هذه الرؤى المنقولة، معتمداً على روايات أناس آخرين عن الطريقة The way. كان لدى الصينيين شكلاً خاصاً بهم من اليوغا (zuo-wang) التي علمتهم أن يغلقوا العالم الخارجي، وأن ينغلقوا على طرقهم العادية في التفكير. زهوآنغزي أسمى هذه الطريقة «النسيان»، إهمال المعرفة. كان لاوتسي يرجع أحياناً إلى هذه التمارين اليوغية(34)، لكنه لم يصفها بشكل مفصل، لقد كانت ـ على أية حال ـ جوهرية للعملية الصوفية التي أوجزها. والطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها القارئ أن يقوّم هذه الاستنتاجات هي أن يقوم بالرحلة. غالباً ما أسمى لاوتسي الحقيقة الخفية «الخلاء The void» لأنها ليس بالإمكان تعريفها، اسم يعني فراغاً كان يخشاه ذهن «لا تفعل شيئاً». طبيعتنا تمقت الفراغ، ونحن نملأ عقولنا بمثل، وكلمات، وأفكار تبدو أنها مليئة بالحياة، لكنها تأخذنا إلى لا مكان.

في كتاب داودجنغ الخلاء void يسمى أيضاً رحم كل الوجود، لأنه يولّد حياة جديدة(35). صور لاوتسي للخلاء، الوادي، والفارغ كلها تتحدث عن شيء ما ليس موجوداً هناك. إضافة إلى الإشارة إلى سر وجود لا يمكن وصفه، فإنها تشير إلى إنكار النفس في فعل «لا تفعل شيئاً»، بعد أن تكون الأنا قد فُقِدَتْ. يجب أن يكون هناك خلاء في كيان الحاكم الحكيم. في غيبوبة التأمل يستطيع أن يحس «بالفراغ» الذي ـ وفقاً للاوتسي ـ كان عودة إلى الإنسانية الصادقة التي نَعِمَ بها الناس قبل أن يبتلوا بالحضارة التي قد أدخلت وسيلة زائفة إلى داخل الحياة الإنسانية، لقد فقدت الكائنات البشرية طريقها way من خلال تدخلهم في الطبيعة.

بينما مخلوقات أخرى التزمت بالطريقة The way المصممة من أجلهم، فقد فصل البشر أنفسهم عن Their dao من خلال تفكير دائم مستمر بـ «لا تفعل شيئاً»: لقد أوجدوا فروقات لم تكن موجودة، وصاغوا مبادئ عمل جدية كانت مجرد إسقاطات أنانية النزعة. لقد اتفق لاوتسي مع زهوآنغزي حول هذا. عندما درب الحكيم نفسه أن يضع جانباً هذه العادات العقلية، استطاع أن يعود إلى طبيعته الأصلية، وأن يعود إلى الصراط المستقيم:

إنني أبذل قصارى جهدي كي أبلغ الفراغ

وأتشبث بقوة بالسكون

المخلوقات التي لا تحصى، جميعها تنهض سوياً،

وأنا أشاهد عودتها.

المخلوقات الولّادة

جميعها تعود إلى جذورها المنفصلة.

العودة إلى جذور المرء تُعْرف بالسكون (stillness). (36)

كل شيء آخر عاد إلى أصوله، بنفس الطريقة التي تسقط فيها الأوراق إلى جذور الشجرة، لتصبح سماداً، وتدخل ثانية في دورة الحياة. الأوراق قد انبثقت من

العالم غير المرئي، قد أصبحت ظاهرة لمدة وجيزة، ومن ثم عادت إلى الظلام. الحاكم الحكيم المستتير وقف بعيداً عن هذا التغير. بعد أن يكون قد آلف نفسه مع غير المرئي، يكون قد نال حكمة كاملة وعدم الانحياز. يستطيع أن يماهي نفسه مع الطريقة way، كما ختمت القصيدة: «يستطيع أن يدوم، وحتى نهاية أيامه لن يلاقي خطراً»(37).

الفراغ جلب انعتاقاً من الخوف الذي تخلل داودجنغ. الحاكم الذي كان يخاف الفناء كان خائفاً من Chi mera. يجب ألا نخاف من العدم nothingness لأنه كان في قلب الحقيقة «العصي الثلاثين في دولاب العجلة تتشارك محوراً واحداً». كما أوضح لاوتسي «لكن حيث لا يوجد شيء (ثقب محور الدولاب) هناك تكمن قوة العربة»(38). كذلك أيضاً عندما نصنع قدراً فإننا نطوع الطين في شكل جذاب، لكن سبب وجود الوعاء، كان المكان حيث لم يكن فيه شيء». يختتم لاوشي:

هكذا نظن أننا نستفيد من الأشياء المحسوسة

لكن في المكان الذي نحس عدم وجود شيء فيه، هناك تكمن القوة الحقيقية(39).

وينطبق الشيء ذاته على السياسة العامة. بعد اكتشافه للفراغ الخصب داخل نفسه، فإن الأمير كان مستعداً لأن يحكم. لقد نال «ملوكية» مقولبة وفق نموذج السماء والداو dao(40). الحاكم الحكيم يجب أن يسلك مثل السماء التي تسير وفق مسارها الذي لا يدرك دون تدخل بمسارات المخلوقات الأخرى. هذه هي الطريقة The way التي يجب أن تكون عليها الأشياء، وهذه الفاعلية الهادفة التي لا تتوقف ـ سوف تجل بالسلم إلى العالم.

في كل مكان كان الحكام، والسياسيون، والموظفون الإداريون يحيكون مؤامرات، ويكيدون لبعضهم. العديد من الفلاسفة أحدثوا ضرراً أكثر مما فعلوا خيراً، Mohists الموهيون قد شددوا على أهمية التحليل، والاستراتيجيا، والعمل، ومجد الكونفوشيوسيون التربية التي ـ كما اعتقد لاوتسي ـ قد قطعت

انسياب الداو dao. الأبطال الكونفوشيوسيون ياو، وشون، ويو yu قد تدخلوا بالطبيعة ـ عن طريق توجيه تدفق الأنهار، وإشعال الحرائق في الغابات والجبال، لإيجاد أرض زراعية. وعن طريق فرض طقوسهم على المجتمع فقد شجع الكونفوشيوسيون الناس أن يركزوا على روحانية خارجية محضة. كان هناك توجيه أكثر مما يتطلب الهدف، فاعليه «لا تفعل شيئاً»، كانت غير منسجمة مع المسار التلقائي غير المؤكد واللطيف في الطريقة way التي تركت المخلوقات وحيدة:

الطريقة لا تفعل أبداً، مع ذلك لا شيء يترك دون أن ينجز.

هل يجب على اللوردات والأمراء أن يكونوا قادرين أن يتشبثوا بها،

المخلوقات القديرة سيتم تحويلها بموافقتها هي.

واختتم: الحاكم الداوي daois «إذا ما توقفت عن أن أرغب، وأظل ساكناً، فإن الإمبراطورية ستكون في حالة سلام بموافقتها هي»(41).

كان سر البقاء هو أن تفعل عكساً لما يمليه الحدس(42). ففي الحياة السياسية كان الناس يفضلون دائماً الفاعلية الغاضبة لأن «لا تفعل شيئاً»، والمعرفة على الجهل، والقوة على الضعف ـ لكن يالدهشة معاصريه ـ الذين خدعوا بهذه الفكرة الجديدة(43) ـ أصر لاوتسي أن عليهم أن يفعلوا العكس تماماً.

في العالم لا شيء مطواع وضعيف أكثر من الماء

مع ذلك في مهاجمة ما هو قاس وقوي لا شيء يتفوق على الماء.

هذا لأنه لا يوجد شيء يستطيع أن يأخذ مكانه.

أن الضعيف يتغلب على القوي،

والمطواع يتغلب على القاسي،

كل واحد في العالم يعرف ذلك، مع ذلك ما من واحد يستطيع أن يضع هذه المعرفة قيد الممارسة.(44)

كل الجهد البشري كان موجهاً ضد السلبية، لذلك أن تفعل عكس ما كان متوقعاً من قبل السياسيين المتآمرين العدوانيين، كان أن تعود إلى عفوية الطريقة The way(45).

قانون الطبيعة أن كل شيء صعد لا بد أن يهبط، وكذلك في تقوية عدوك عن طريق الخضوع، فإنك في الحقيقة تسرع سقوطه.. السبب الذي جعل السماء والأرض تدومان إلى الأبد كان بكل دقة لأنهما لم تتصارعا كي تطيلا مدة وجودهما:

لذلك يضع الحكيم شخصه أخيراً ويأتي أولاً..

ألم يكن ذلك لأنه دون تفكير بنفسه أنه قادر أن يحقق غايته الخاصة؟ (46)

مثل هذا الإفراغ للنفس كان يتطلب تدريباً صوفياً جديداً، لكن بعد أن ينجز الحاكم الحكيم هذا الخلاء الداخلي، فإنه سيصبح فاعلاً، ومنساباً، وخصباً مثل ما تسمى الأشياء الأضعف في الحياة.

القوة والقسر كانا تدميراً للنفس فطرياً. عاد لاوتسي هنا إلى روحية طقوس الحرب القديمة التي حثت المحاربين أن يستسلموا للعدو. «الأسلحة أدوات مشؤومة، وليست أدوات الحكيم» إنه يستخدمها فقط عندما لا يكون لديه خيار آخر»(47). كما قال لاوتسي. فأحياناً كانت الحرب ضرورة مؤسفة لكن إذا ما كان مجبراً أن يحارب، يجب على الحكيم أن يحمل أسلحته وهو نادم. يجب ألا يكون هناك نزعة للنصر أنانية، ولا شوفينية وحشية، ولا نزعة بطولية ظاهرة. يجب على الحكيم ألا يخيف العالم بعرض للأسلحة، لأن هذا الحب للحروب سوف يرتد عليه. الحكيم يجب عليه دائماً أن يحاول أن يضع نهاية لحملة عسكرية: «ضع نهاية لها، لكن لا تتباهى، ضع حداً لها، لكن لا تتفاخر، ضع حداً لها، لكن لا تكن متعجرفاً، ضع حداً لها لكن حيث لا يكون هناك خيار، ضع نهاية لها، لكن لا توقع الرعب»(48).

لذلك «لا تفعل شيئاً» لم تكن تعني الامتناع التام عن الفعل، بل موقف غير عدواني وغير جازم منع تصاعد الكراهية:

القائد الجيد في حرب لا يحب الحرب،

المقاتل الجيد ليس متهوراً ،

أفضل قاهر للعدو هو الذي لا يبدأ بالهجوم.

الرجل الذي ينال معظم ما لدى الرجال هو الشخص

الذي يعاملهم بتواضع.(49)

اختتم لاوتسي قائلاً: «هذا ما أسميه فضيلة اللاعنف (de)»، وعن طريق التصرف بهذه الطريقة فإن المحارب الحكيم «كان شبيهاً بسمو السماء»(50).

لقد كان موقفنا، وليس فعلنا، هو ما يحدد نتيجة ما كنا نفعله. كان الناس دائماً قادرين أن يحسوا دائماً الشعور والدوافع الكامنين وراء كلماتنا وأعمالنا. يجب أن يتعلم الحكيم امتصاص العداوة، وإذا ما انتقم لمذبحة سيكون هناك هجوم جديد بالتأكيد. يجب تجاهل التحديات. «أن تستسلم هو أن تكون مصاناً تماماً... لأن الحكيم لا ينازع، ولا أحد في العالم في موقف كي يتنازع معه»(51). الطغاة كانوا يحفرون قبرهم، لأن عندما حاول أمير أن يفعل على كائنات بشرية أخرى، فإنها كانت تقاومه آلياً، وكانت النتيجة عادة عكس ما كانوا ينونه. «لا تفعل شيئاً» يجب أن تترافق مع التواضع. فالحكيم لا يعلن مبادئه من أسطحة المنازل، لأنه في حقيقة الأمر لم يكن لديه آراء ثابتة. لم يحاول الحكيم أن يجعل الناس يصبرون ما كان يريدهم أن يكونوا، «بل كان يعتبر عقل الناس هو عقل له»(52). كان لاوتسي مقتنعاً أن الطبيعة البشرية كانت أصلاً طيبة وخيرة، وقد أصبحت عنيفة، فقط عندما شعر الناس بالقسر من القوانين التفصيلية والأعراف الأخلاقية(53). الحاكم الحكيم ـ كلما كان يقابل عدوان دولة أكبر ـ يجب أن يسأل ما إذا الكراهية كانت ستولد كراهية أكثر. أو ما إذا كانت تقل رداً على الرحمة، فضيلة نادراً ما ذكرها لاوتسي بوضوح لكنها كانت متضمنة في سعيه كي يضع نفسه في مكان الآخر:

سبب وجود بلاء عظيم هو أن لدي نفس

لو لم يكن لدي نفس، فما هو البلاء الذي سيكون لدي؟

لذلك، شخص يكرم العالم كما يكرم نفسه

فإن العالم يغدو بالإمكان الوثوق به،
وإلى امرئ يحب العالم مثلما يحب نفسه
قد يكون العالم وديعة(54).

كان لاوتسي الحكيم الصيني الأخير من عصر المحور. ما نادى به كان أساسياً مثلاً أعلى طوباوياً. من الصعب أن نرى كيف أن حكيماً قد بلغ هذا المستوى من «الفراغ» سيتولى سلطة، لأنه سيكون غير قادر على الحسبة calculation التي كانت ضرورية للفوز بهذا المنصب(55). مثله مثل منيسيوس، ربما راود لاوتسي أمل خلاصي لدرجة أن مخاوف عصره سوف تجبر الناس أن ينجذبوا تلقائياً نحو حاكم لديه ميل صوفي. لكن طبعاً، لم يكن حكيماً داوياً Daoist بل دولة legalist دولة Qin التي أنهت عنف الدول المتحاربة ووحدت الإمبراطورية. هذا النجاح الرائع بدا أنه يثبت أن الملكية الشمولية لا يمكن تحقيقها دون اللجوء إلى قدرة عسكرية. لقد جلبت سلاماً متعدد الأنواع، لكنها دقت جرس الموت إلى الآمال المحورية بالأخلاقية والتسامح واللاعنف. في ظل الإمبراطورية، روحانيات عصر المحور سوف ينجم عنها تركيبة، وستتحول إلى شيء ما آخر مختلف تماماً.

* * *

كان الصينيون معزولين عن الشعوب المحورية الأخرى، لذلك لم يعرفوا شيئاً عن حياة الاسكندر الكبير غير العادية، التلميذ القديم لدى أرسطو الذي هزم الإمبراطورية الفارسية في عام 333 حين هزم جيش داريوس الثالث عندئذ إسوس Issus في كيليكيا Cilicia، ثم قاد جيشه في حملة عبر آسيا، منشئاً إمبراطورية شملت معظم العالم المعروف. تقدمه كان عنيفاً ودون رحمة. إنه لم يحتمل معارضة، بل دمر دون رحمة أي مدن كان لديها القدرة على الوقوف في طريقه، وقتل سكانها. كانت إمبراطوريته قائمة على الخوف، مع ذلك كانت لديه نظرة ذات وحدة سياسية وثقافية. لكن الإمبراطورية لم تبق بعد موته المبكر في بابل

عام 323. فبعد وفاته مباشرة تقريباً، اندلع الاقتتال بين قادته البارزين، وطوال العقدين التاليين دمرت معارك الذين خلفوه البلدان التي فتحها الاسكندر. «سلام» الإمبراطورية قد أفسح المجال لحروب مدمرة. أخيراً، عند نهاية القرن، قضى اثنان من خلفائه على منافسيهم واقتسما مناطق الاسكندر فيما بينهما. بطليموس واحد من أدهى قادة الاسكندر أخذ مصر والساحل الإفريقي، وفلسطين وجنوب سوريا، بينما أخذ سلوقوس الذي كان قد عينه الاسكندر حاكماً على بابل سيطر على أجزاء واسعة من الإمبراطورية الفارسية القديمة، حسم سلوقوس حدود الشرق الأقصى بتخليه عن المناطق الهندية التي اتضح أن من المحال الاحتفاظ بها.

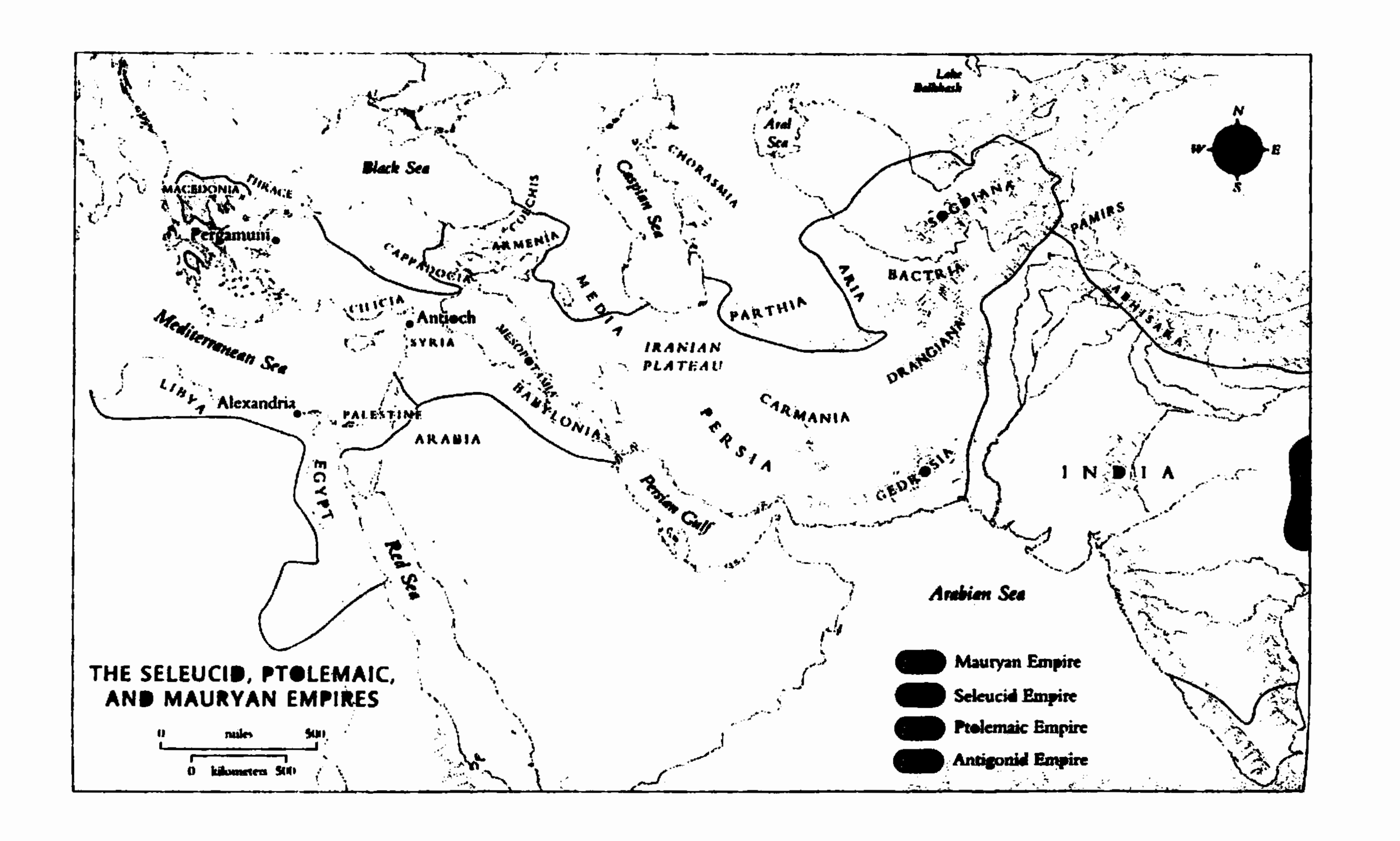
لم يترك الاسكندر سوى تأثير قليل على سكان الهند. لقد هزم فقط قبائل ثانوية قليلة، وحتى أن غزوه لم يذكره حتى بعض من المؤرخين الهنود الأوائل. لم يكن إنجازه فتح الهند، بل مأثرة الوصول إلى هناك. والسنتان اللتان أمضاهما في الهند كانتا رحلة استكشاف جغرافية أكثر مما كانت حملة عسكرية. بدا الاسكندر أنه التجسيد للروح العامة الإغريقية. لقد تربى على الأساطير الهوميرية، وألهمته المثل العليا لأثينا، وتعلم على يدي أرسطو. لم تشارك اليونان تماماً في النظرة الدينية لعصر المحور مثل مناطق أخرى. بعض إنجازاتها «المحورية» الأكثر إذهالاً كانت إنجازات عسكرية. مغامرة الاسكندر طوال سنتين في الهند كانت لحظة أخرى. الجيش الإغريقي قد وصل إلى ما كانوا يعتبرونه نهاية الأرض. لقد أثبتوا أنفسهم مقابل الآخرين أنهم شجعان مثلما كافح اليوغيون كي ينفذوا عبر حدود النفس البشرية. فحيث كان الزهاد قد فتحوا فضاءً داخلياً، كان الاسكندر يستكشف أقاصي العالم المادي. مثله مثل العديد من الحكماء المحوريين، كان باستمرار يسعى وراء المزيد»(56). أراد أن يمضي إلى ما هو أبعد في الهند مما مضى إليه ملوك الفرس، وأن يصل إلى المحيط الذي اعتقد أنه كان يحيط بالأرض. كان ذلك نوعاً من «استنارة» سوف يعجب بها دائماً المستكشفون الأوروبيون(97). لكنها كانت مختلفة جداً عن النيبانا أو

الموكشا، اللتان تتسمان بمواجهة النفس ahimsa، والرحمة اللتانِ كان يسعى إليهما النساك الهنود.

الجنود الإغريق فتنوا بالهند وخافوا روعتها، بأمطارها الموسمية المخيفة، وفيلتها الحربية المدهشة، وصيفها اللاهب، وممراتها الجبلية الصعبة. والفلاسفة العراة كانوا يثيرون فضولهم، هؤلاء الذين كانوا يلتقونهم ربما كانوا Jains. لكن مع أن الهنود لم يعيروا الإغريق اهتماماً، إلا أن الاسكندر وخلفاؤه قد غيروا ـ بشكل حاسم أقدار شعوب أخرى قابلناها في هذا الكتاب. تذكر زرادشتيو إيران الاسكندر على أنه المذنب الأكثر سوءاً في التاريخ، لأنه قتل كهنة وعلماء كثيرين، وأطفأ الكثير من نيرانهم المقدسة. لقد كان «الملعون»، لقب يتشاركه وحده مع الروح الشرير Hostile spirit. قتل الكهنة كان الخسارة التي لا تعوض، لأن النصوص الزرادشتية كانت ما تزال تنقل شفوياً، ومعظمها كان موجوداً في أذهان الكهنة المقتولين فقط، ولم يكن بالإمكان استعادتها.

كان اليهود أكثر تأثراً بخلفاء الاسكندر من تأثرهم به. منذ زمن عزرا ونحميا بقيت أورشليم مقلباً لماء راكد. إنها لم تكن على أي من طرق التجارة الرئيسية، لأن القوافل التي كانت تتوقف في البتراء أو غزة لم يكن لديها سبب لتذهب إلى أورشليم التي كانت تفتقر إلى المواد الخام كي تطور صناعتها الخاصة بها. لكن أثناء حروب خلفاء الاسكندر، تعرضت يهودا للغزو باستمرار من جيش تلو آخر، من آسيا الصغرى، وسوريا، ومصر، مع أمتعتهم، ومعداتهم، وعائلاتهم وعبيدهم. وأورشليم تناقلتها الأيدي أكثر من ستة مرات بين عام 320 وعام 301. يهود أورشليم كانوا يعرفون الإغريق على أنهم تدميريون، عنيفون، وعسكريو النزعة. وفي عام 301 استولت جيوش بطليموس (ص350 خريطة) الأول على يهودا، وفينيقيا، والسامرة، وكل السهل الساحلي وطوال المائة سنة التالية بقيت أورشليم تحت سيطرة البطالمة الذين لم يتدخلوا كثيراً في الشؤون المحلية.

لكن المنطقة كانت تتغير. أسس الاسكندر وخلفاؤه مدناً في الشرق الأدنى أصبحت مراكز هلنستية للتعليم والثقافة: الإسكندرية في مصر، وأنطاكيا في


THE SELEUCID, PTOLEMAIC, AND MAURYAN EMPIRES
0 miles 500
0 kilometers 500
Mauryan Empire
Seleucid Empire
Ptolemaic Empire
Antigonid Empire
N
W
E
S
Lake Balkhash
Aral Sea
Black Sea
Caspian Sea
Mediterranean Sea
Red Sea
Persian Gulf
Arabian Sea
MACEDONIA
THRACE
Pergamum
COLCHIS
ARMENIA
CAPPADOCIA
CILICIA
Antioch
SYRIA
MESOPOTAMIA
BABYLONIA
MEDIA
CHORASMIA
PARTHIA
ARIA
SOGDIANA
BACTRIA
PAMIRS
ABHISARA
DRANGIANA
IRANIAN PLATEAU
CARMANIA
PERSIA
GEDROSIA
INDIA
LIBYA
Alexandria
PALESTINE
ARABIA
EGYPT

سوريا، وبيرغامو في آسيا الصغرى. هذه كانت دول ـ مدينة إغريقية استبعدت عادة السكان الأصليين وبنيت وفق طراز لم يكن مرئياً من قبل في العالم الهليني. كان الطراز Cosmo polis أي «المدينة العالمية». لقد كان عصر هجرة عظيماً. لم يعد الإغريق متعلقين بدولة مولدهم الصغيرة. حملة الاسكندر البطولية قد وسعت آفاقهم، وأصبح الكثيرون منهم يشعرون أنهم مواطنون عالميون. وهكذا أصبح الإغريق رحالة، وتجاراً، ومرتزقة، وسفراء عالميين، وبدأ الكثيرون يجدون المدينة صغيرة وإقليمية. كما أسس البعض مدناً جديدة في الشرق الأدنى. فالاسكندر وطن المقدونيين في samerina، وحط المستعمرون الإغريق اللاحقون رحالهم في سوريا، وحولوا مدناً قديمة مثل غزة، وشكيم، وMarissa وعمان إلى دول ـ مدينة على النموذج الهليني. جنود، وتجار، وأصحاب مشاريع استقروا في هذه المدن للإفادة من الفرص الجديدة. والسكان الأصليون الذين تعلموا التحدث والكتابة باللغة الإغريقية أصبحوا هيلينيين، وكان يسمح لهم الدخول في المراتب الدنيا من الجيش والإدارة.

من هنا نشأ صدام حضارات. بعض من السكان المحليين كان مفتوناً بالثقافة الإغريقية، وبمنظر الشبان الذين كانوا يتدربون عراة في قاعات الألعاب الرياضية. أما اليهود فكانوا منقسمين في استجابتهم للإغريق. ففي الإسكندرية رفض البطالمة قبول المصريين في الألعاب الرياضية، لكنهم كانوا يسمحون للأجانب بالدخول، ولذلك تدرب اليهود المحليون هناك، وحققوا انصهاراً فريداً بين الثقافة اليهودية والإغريقية. أما في أورشليم ـ التي كانت محافظة أكثر ـ ظهر فريقان. أحدهما تزعمته قبيلة Tobiad أحفاد Tob iah الذين سببوا لنحميا متاعب كثيرة. فهؤلاء شعروا أنهم مرتاحين في العالم الإغريقي، وأصبحوا رواداً للأفكار الجديدة في أورشليم. بينما وجد آخرون أن هذا التأثير الأجنبي كان خطراً جداً فتثبتوا دفاعياً بتراثاتهم القديمة، وانجذبوا إلى أسرة كهنوتية تدعى oniads كانت مصممة على الحفاظ على الشرائع والعادات القديمة. القرن الثالث فترة ظليلة في تاريخ أورشليم، لكن كما يبدو في هذه الفترة أن التوتر بين

المعسكرين بقي تحت السيطرة. وفي نهاية العصر المحوري حدث نزاع خطير عندما حاول بعض اليهود تحويل أورشليم إلى مدينة سميت «انطاكيا في يهودا».

هذه السنوات المضطربة أثرت على تاريخ أورشليم بطريقة أخرى: حدثت هناك تمردات قليلة جداً ضد بلاد فارس الإمبريالية. فملوك الفرس كانوا قد نشروا أسطورة أنهم قد ورثوا إمبراطورية ستدوم إلى الأبد: دشنها الآشوريون، ثم انتقلت إلى البابليين، وأخيراً إلى قورش. ولذلك أية ثورة كانت محكومة بالفشل، لكن بينما كان سكان الشرق الأدنى يرون خلفاء الاسكندر يقتتلون على السيطرة على المنطقة واحد يخلف الآخر، فإن مزاجهم تغير. العالم كان قد قلب رأساً على عقب، وبدأت آمال الاستقلال تساور بعض اليهود على يد ـ المسيا ـ المخلص الخاص بهم. وعندما طُرد البطالمة من يهودا على يد السلوقيين انتعشت آمالهم ثانية. وسلوك الملك السلوقي أنطيخوس Antiochus الرابع، في القرن الثاني أدى إلى نشوء موجة من شغف أبوكالبتي ـ كيوم القيامة ـ يهودي كان مستمداً من اللاهوت القديم لملكة داؤود، لكن هذا الإيمان الخلاصي لم يكن له جذور في العصر المحوري، وأخذ النزعة اليهودية في اتجاه ما بعد محوري مختلف تماماً.

لقد ظفر الاسكندر بإمبراطوريته عندما كان الانجاز الفكري الإغريقي في أوجه، وكانت حياته نقطة علام لحقبة جديدة. وعقب وفاته، بعض دول المدينة على البر الإغريقي من ضمنها أثينا ثارت ضد الحكم المقدوني، أنتيباتر Antipater ـ أحد الخلفاء الستة الأصلاء ـ قام بانتقامات همجية، وهذا أنهى الديمقراطية الأثينية. وبينما كان المهاجرون والمستعمرون الإغريق يستوطنون في المناطق الجديدة، بدأت الحضارة الإغريقية تندمج بحضارات الشرق. أسمى علماء القرن التاسع عشر هذا الاندماج الهلننة. تحدي هذه المواجهة كان مصدر غنى، لكن في عملية الاندماج كثافة التجربة الإغريقية أصبحت رقيقة. أما وقد انتشرت بشكل رقيق على منطقة أجنبية شاسعة فقد تجزأت وأصبحت إغريقية الصبغة بدلاً من أن تكون إغريقية بالكامل. إن أية فترة تحدث فيها تحولات اجتماعية رئيسية تكون فترة مضطربة. «انهيار النظام القديم والتمزق السياسي الحتمي كان مقلقاً»(58). كان هناك ارتباك وقلق واسعي الانتشار. الاستقلالية

الشخصية والسياسية كانتا على الدوام حاسمين للإحساس الإغريقي بالهوية، لكن الآن عالمهم قد اتسع بشكل متسارع لدرجة أن الناس شعروا أن مصيرهم كانت تسيره قوى غير شخصية هائلة.

خلال القرن الثالث حاولت ثلاث فلسفات جديدة متجذرة في ألم الفترة أن تلطف هذا الإحساس بالاستلاب(59). فعلى سبيل المثال أبيقور (341 ـ 270) أحس بأمن قليل طوال السنوات الخمس والثلاثين الأولى من حياته. طردت عائلته من ساموس Samos على يد المقدونيين، وتجول من مدينة إلى مدينة قبل أن يحط رحاله في أثينا في عام 306. اشترى منزلاً هناك قرب الأكاديمية، وأسس جماعة من أصدقاء مقربين. نادى أن المتعة كانت هي الغاية الأساسية من الوجود البشري، لكن هذا لم يكن يعني ـ كما اعتقد منتقدوه ـ أنه رمى نفسه في جولة ملذات محمومة. في الحقيقة، تبنت المجموعة نظاماً بسيطاً، هادئاً في «الحديقة» The Garden. المتعة لم تكن مبنية على الشهوانية الحسية والانغماس الذاتي بل على «الانعتاق من الألم». أعرض الأبيقوريون عن جميع الاضطرابات العقلية. فالحياة في المدينة كانت شديدة التوتر ولا يمكن التنبؤ بها، ومن كان لديهم الوسائل كان عليهم أن ينسحبوا من الشؤون العامة ويتمتعوا بوجود هادئ مع أناس هادئين. يجب عليهم تجنب أي شيء كان يسبب لهم الكرب ومن ضمن ذلك الإيمان الخرافي بآلهة متقلبة كانت توقع معاناة كبيرة على الرجال والنساء المساكين. فوق كل ذلك، يجب على الأبيقوريين ألا يسمحوا لأخلاقهم أن تسمم عقولهم. يجب أن يدركوا أن الموت كان فقط اختفاء الوعي «رؤية أننا عندما نوجد، فإن الموت لا يكون حاضراً»، و«عندما يحضر الموت فإننا لا نكون موجودين» كما أوضح أبيقور. وبالتالي لم يكن مجدياً القلق من الموت. «فهم صحيح بأن الموت هو لا شيء لنا، يجعل أخلاقية الحياة أمراً ممتعاً، ليس بإضافة زمن لا نهائي، بل عن طريق تحريرنا من الرغبة بالخلود»(60).

في الوقت نفسه الذي كان فيه أبيقور وأصدقاؤه يستمتعون بالعزلة في الحديقة كان زينون zeno (342ـ 270) فينقي متهلنن من قبرص كان يعلم في Painted stoa ـ رواق في الساحة العامة الأثينية. ومن هنا أتت تسمية هو وأتباعه

بالراوقيين. كان زينون يستمد إلهامه من اللحظة الاستثنائية عندما بدا أن الاسكندر يوحد العالم تحت حكمه. لقد اعتقد زينون أن الكون كان وحده. لم يكن هناك شرخ بين الجسد والروح. وكل الحقيقة كانت مادية أحياها ونظمها بنوع من نَفَسٍ بخاري ناري أسماه اللوغوس «العقل reason، الروح Spirit أو الله» هذه القدرة الإلهية الذكية تنتشر في كل شيء. كانت محايثة بشكل كلي. وباستطاعة البشر أن يبلغوا السعادة من خلال العيش فقط بما يتوافق مع اللوغوس العقلاني، الذي كان جلياً في النظام الطبيعي. الحرية كانت مبنية على الاستسلام لإرادة الله، لأن الله قد قدر مسبقاً كل شيء، لذلك كان من غير المجدي التمرد ضد القدر. الموقف الصحيح كان موقف طاعة تامة. يجب على الرواقيين أن يسافروا بخفة عبر الحياة، وغير مبالين بظروفهم الخارجية. يجب عليهم أن ينموا سلاماً داخلياً، وأن يتجنبوا جميع المناسبات غير الهادئة، وأن يقوموا بواجباتهم بطريقة وجدانية، وأن يسيروا أنفسهم بتعفف، وأن يتحاشوا كل ما هو متطرف. الغاية كانت العيش في حالة انسجام مع عمليات اللوغوس الإلهي التي لا تلين، وألا يعملوا ضدها.

الانعتاق من الألم كان أيضاً الغاية عند فيرون Pyrro الأيلي (365 ـ 275) مؤسس الريبية. لا نعرف سوى القليل عنه: إنه لم يكتب شيئاً، وفي الحقيقة لم تقدم نصوص ريبية حتى حوالي خمسمائة سنة على وفاته، يبدو أنه قد أكد أنه كان من المحال أن نكون متأكدين حيال أي شيء، لذلك الطريقة الأفضل كي نعيش في سلام كانت أن نؤجل الحكم Judgemen. الناس الذين كانوا دوغمائيين ومؤكدين لذواتهم كان مقدراً عليهم التعاسة. «لا شيء مجيد أو تافه أو عادل أو غير عادل» كما ورد عنه قد قال: «العرف والعادة هما أساس كل شيء يفعله البشر، لأن كل شيء هو ليس هذا أكثر مما هو ذاك»(61).

طبعاً كان هذا غير متسق. فإذا كان صحيحاً أننا كنا نعرف شيئاً، كيف استطاع فيرون أن يعرف حتى أن هذا كان صحيحاً، أو أن يطور فلسفة على الإطلاق؟ لكنه كما يبدو رأى النزعة الريبية كعلاج، وليست كنظرة معرفية.

«أصبح الناس تحركهم آراؤهم القوية، كانوا قلقين أكثر مما ينبغي كي يكتشفوا الحقيقة. لذلك فإن ريبياً سيقوض بلطف يقينيتهم، مزيلاً كل هذه الجلبة الفكرية من نظمهم. بيكتوس إميريقوس، الكاتب الريبي الأول الذي عاش في القرن الثالث الميلادي شرح أن فيرون وتلاميذه بدأوا بمحاولة اكتشاف الحقيقة لكي يحصلوا على راحة البال. لكن عندما كانوا غير قادرين على بلوغ هذا بما يرضيهم، توقفوا وشعروا فوراً أنهم كانوا أفضل حالاً. «عندما أجلوا الحكم حدث الهدوء وكأنها كانت بقوة مثل ظل يتبع جسداً»(62). ولذلك عرفوا باسم الريبيين لأنهم كانوا ما يزالون ينظرون ولم يفعلوا عقولهم، لكنهم قد تعلموا أن موقفاً غير مشوش منفتح على جميع الممكنات كان سر السعادة.

العصر المحوري كان جيداً، وبحق أعلى بالنسبة لهؤلاء الفلاسفة الهلنستيين، ومع ذلك في أعمالهم نجد بقايا ظليلة للروحانية الريادية التي كان الحكماء وأنبياء يستكشفونها طوال أكثر من خمسمائة سنة. الكفاح البطولي الذي قام به كل من كونفوشيوس، وبوذا، وحزقيال، وسقراط قد تم استبداله بنسخة أكثر تواضعاً وممكن الوصول إليها وكأنها كانت نسخة من رزمة budget. في المثل الأعلى لدى زينون عن حياة متناغمة مع الطبيعة كان فيها لمحة من الداوية Daoism، لكن بدلاً من التوق إلى تغيير العالم عن طريق تغريب نفسه عن السيرورة الطبيعية، فقد أسلم الرواقي نفسه إلى الواقع الراهن. توجد نزعة قدرية في جميع هذه الفلسفات الإغريقية في القرن الثالث التي كانت لعنة للعصر المحوري. لقد حذر البوذا تلاميذه من أن يصبحوا مقيدين بآراء ميتافيزيقية، ومتصوفو الأبانيشاد قد خفضوا محاوريهم إلى الصمت عن طريق إيضاح خطل الفكر العقلاني، لكنهم لم يؤجلوا الحكم بكل بساطة مثلما فعل الريبيون. لقد استخدموا تجربة تعرية عادات التفكير العادي كي يقدموا للناس إلماحات لسر يقع خلف الكلمات والأفكار المفهومية. نساك الهند قد تركوا العالم خلفهم، لكن لا كي يعيشوا في الحديقة الأبيقورية في الضواحي، وبوذا شدد على أن رهبانه يجب أن يعودوا إلى الساحات العامة ويمارسوا الرحمة تجاه جميع الكائنات الحية.

هنا يكمن الفرق. هؤلاء الفلاسفة الهيلينستيون لم يتقدموا بمطالب أخلاقية بطولية. بل طالبوا أن يضعوا جانباً ميتافيزيقا أفلاطون وأرسطو المبهمة وأن يعودوا إلى سقراط الذي حاول أن يعلمهم كيف يعيشون. أرادوا راحة البال التي قد امتلكها سقراط عندما واجه موته الجائر بكل رباطة جأش. لقد كانوا دعاة مثل سقراط الذي كان يتحدث إلى كل شخص سواءً كان متعلماً أم لا. لكن سقراط لم يطالب أبداً أن الهدف الوحيد للكائن البشري يجب أن يكون القضاء على الاضطراب. فزنيون، وأبيقور، وفيرون أرادوا حياة هادئة، وكانوا مصممين على تجنب الإفراط والكفاح لدى فلاسفة العصر المحوري. بكل بساطة أرادوا الانعتاق من الألم، وأن يكونوا خالين من المتاعب. جميع حكماء العصر المحوري استنتجوا أن الوجود كان غير مُرضٍ، ومؤلم فطرياً، وأرادوا تجاوز هذه المعاناة. لكنهم لم يكونوا مقتنعين فقط بتجنب القلق والتوقف عن الاهتمام بأي شيء أو أي شخص، بل أكدوا أن الخلاص يكمن في التصدي للمعاناة وليس في الانسحاب في حالة إنكار. في حديقة أبيقور المنعزلة هناك أكثر من إشارة إلى حديقة المتعة عند بوذا. فالتشابه يصبح محدداً أكثر عندما نعلم أن معظم الأبيقوريين كان لديهم وسائل خاصة لتمويل معتكفهم، وهذا لم يكن متوفراً لدى عامة الناس العاديين.

فبدلاً من السَعي إلى الانعتاق من الألم، أجبر مفكرو العصر المحوري معاصريهم على تقبل حقيقة الألم. فأرميا قد عَرَّضَ بالذين انسحبوا في حالة استنكار على أنهم «أنبياء زائفون». بينما وضع تراجيديو أثينا المعاناة على خشبة المسرح، وطلبوا من المتفرجين أن يبكوا. باستطاعتك أن تنجز الانعتاق عبر خوض الحزن، وليس عبر المضي إلى أبعاد تفصيلية للتأكد من أنه لن يمس أبداً وجودك المصان. تجربة المعاناة كانت شرطاً أساسياً لبلوغ الاستنارة، لأنها مكنت المريد أن يتعاطف مع أسى الآخرين. لكن الفلسفات الهلنستيين كانت تركز كلياً على النفس. صحيح أن الرواقيين كانوا مدفوعين للمشاركة في الحياة العامة، وأن يعملوا جاهدين من أجل خير الآخرين، لكن لم يكن مسموحاً لهم أن

يتعاطفوا مع الناس الذين كانوا يخدمونهم، لأن ذلك سوف يخل بتوازنهم. الاكتفاء الذاتي البارد كان غريباً عن العصر المحوري. الصداقة والطيبة كانتا حاسمتين في كمونة أبيقور، لكنها لم توسعها خارج الحديقة. ومهما كانت النية طيبة، كان هناك أكثر من إشارة عدوان في العلاج لدى الريبيين بينما كانوا يمضون متجولين كي يجرون نقاشات مع أناس آخرين كي يقوضوا قناعتهم. المقاربة كانت مختلفة بشكل جلي عن مقاربة بوذا وسقراط اللذين كان يبدأان من المكان الذي وجدا فيه محاوريهم، وليس من المكان الذي اعتقدا أنه يجب أن يكون المحاورون فيه.

الكثيرون من المفكرين المحوريين كانوا لا يثقون باللوغوس المحض والعقل. لكن الفلسفات الهلنستية كانت قائمة على العلم بدلاً من المعرفة الحدسية. فأبيقور ـ مثلاً ـ طور المذهب الذري atomism كي يبين أن الخوف من الموت كان مجرد هدر لحياتنا الثمينة، الموت الذي سوف يحدث حتماً عندما تسقط الذرات منفصلة عن بعضها. كان من غير المجدي طلب المساعدة من الآلهة، لأن الآلهة كانت مكونة من الذرات ومحكومة بها. بشر الرواقيون أن من الممكن أن تكيف نفسك مع السيرورة الإلهية للطبيعة فقط إذا فهمت علمياً أن هذه السيرورة كانت مبرمجة من قبل اللوغوس وليس بالإمكان تغييرها. كان القرن الثالث العصر العظيم للعلم الإغريقي. مملكتا بطليموس وسلوقوس الهيلينية الجديدة كانتا أكثر غنى بكثير من دول المدينة القديمة، وتنافس الملكان مع بعضهما لجذب العلماء إلى عاصمتيهما، يغريانهم بالمنح والرواتب. إقليدس وأرخميدس عاشا كلاهما في الإسكندرية. الفلاسفة Milesian والأيليون قد ركزوا على تلك الجوانب من علم الطبيعة المتعلقة بالبشر ـ كانوا بالأحرى مثل العلماء المشهورين في يومنا هذا ـ بينما العلماء الجدد في القرن الثالث كانوا عند الحد الفاصل للرياضيات، والفيزياء، والفلك، والهندسة. كان العلم ـ في هذه الفترة ـ قد فقد توجهه الديني المبكر، ليصبح بحثاً دنيوياً بالكامل.

لم تؤثر الفلسفات الهلنستية على الدين الوثني القديم: القرابين، والاحتفالات والطقوس استمرت دون انقطاع. وأصبحت الأسرار أكثر شعبية حتى، وفي أغلب

الأحيان تندمج بعبادات شرقية ملائمة. في عام 399 كان قد قتل سقراط لأنه كان يحول الناس بعيداً عن الآلهة التقليدية. بعد القرن الرابع، لم يتعرض فيلسوف للاضطهاد بناءً على آرائه الدينية، مع أن أبيقور وزينون وفيرون حاولوا أن يشوهوا المعتقدات الدينية. كان هناك تسامح جديد لم يكن مصادقاً عليه رسمياً من قبل المؤسسة الحاكمة، بل كسب أرضية في أوساط النخبة(63). استمر معظم الناس في ممارسة الشعائر القديمة التي بقيت إلى حد كبير دون أن تُمَسَّ من قبل العصر المحوري، وستبقى في مكانتها حتى فُرضت المسيحية بالقوة ديناً رسمياً للدولة في القرن الخامس الميلادي.

ربما لم يكن الفلاسفة الهيلنستيون ثوريين مثلما كان سابقوهم، لكن كان لهم تأثير دائم، وبأشكال عدة كانوا خلاصة الروح الغربية الصاعدة. في الغرب انجذب الناس نحو العلم واللوغوس، وكانوا أقل طموحاً روحياً من حكماء الهند والصين. فبدلاً من بذل الجهد البطولي ليكتشفوا عالم سلام متسام في داخل النفس، كان الفلاسفة الهلينستيون مستعدون أن يركنوا من أجل حياة هادئة: بدلاً من تدريب قدرات العقل الحدسية، تحولوا إلى اللوغوس العلمي. بدلاً من بلوغ استنارة صوفية، كان الغرب محتمياً باستنارة أكثر دنيوية. العبقرية الغربية تجاه العلم أخيراً حولت العالم، وفي القرن السادس عشر قدمت ثورته العلمية عصراً محورياً جديداً. هذا سيفيد كثيراً البشر، لكنه كان يستمد إلهامه من نوع عبقرية مختلف. بدلاً من بوذا، وسقراط وكونفوشيوس، أبطال العصر المحوري الثاني سيكونون نيوتن، وفرويد، وآنيشتاين.

* * *

إمبراطورية جديدة كانت قد أسست في الهند، لكنها كانت شديدة الاختلاف عن إمبراطورية الإسكندر. لقد سيطرت ماجداها Magadha على وادي الغانج منذ القرن الرابع، ووسعت منطقتها كثيراً في عهد حكم سلالة ناندا Nanda القوية. لكن في عام 321 شاندراغوبتا موريا avaishya، ربما كان ينحدر من إحدى الجمهوريات القبلية ـ استولى على العرش بعد أن كان قد أسس قاعدة

سلطة في البنجاب حيث قد ترك رحيل الإغريق فراغاً في السلطة. ولا نعرف سوى القليل عنه أو عن حملته العسكرية. امتدت الإمبراطورية الماورية من البنغال إلى أفغانستان، وبدأ شاندرا غوبتا بعدئذ بالتغلغل في وسط وجنوب الهند. متحدرين من الولايات القبلية المحيطية كان الأباطرة الماوريون على علاقات مع الدين الفيدي. وكانوا أكثر اهتماماً بالطوائف غير المتشددة. شاندراغوبتا شخصياً كان يفضل طائفة Jains الذين رافقوا جيشه واستوطنوا في الجنوب. وابنه بندوسارا رَوَّجَ لـ Ajivakas، بينما الإمبراطور الثالث أشوكا Ashoka الذي تسلم العرش في عام 268 كان راعي البوذيين، وأخوه فيتاشوكا vitashoka أصبح راهباً بوذياً. المصادر البالية pali تقول إن قبل اعتناقه الدين كان أشوكا حاكماً منغمساً في ملذاته، وقاسياً، تمكن من الفوز بالعرش بقتل أخوته الآخرين. عقب تسلمه العرش اتخذ لنفسه لقب «محبوب الآلهة» واستمر في فتح منطقة جديدة حتى عانى من صدمة قاسية.

في عام 2600 الجيش الماوري هزم كالينغا في منطقة أوريسا Orissa الحديثة. سجل أشوكا انتصاره في مرسوم نقشه على صخرة هائلة. لم يقل شيئاً عن استراتيجيته العسكرية، وبدلاً من الاحتفال بانتصاره، ركز على العدد المأساوي لقتلاه مائة ألف جندي من كالينغا قتلوا أثناء المعركة. «أضعاف هذا العدد» قضوا من الجراح والجوع، وتم ترحيل مائة وخمسين ألفاً. لقد دُمّر أشوكا بمنظر هذه المعاناة: قال «محبوب الآلهة» أنه شعر بتأنيب الضمير:

> ***لأن عندما يهزم بلد مستقل فإن القتل والموت والترحيل محزن جداً للآلهة ويثقل على عقلها .. حتى أولئك الذين كانوا محظوظين بما يكفي ليهربوا، الذين حبهم غير منقوص، يعانون من سوء حظوظ أصدقائهم ومعارفهم، وزملائهم وأقاربهم.. اليوم إذا الجزء المائة أو الألف من أولئك الناس الذين قتلوا أو ماتوا أو رُحلوا عندما ضُمت كالينغا كانوا يعانون، فإن ذلك سيثقل في عبئه على عقل محبوب الآلهة.(64).***

الهدف من المرسوم كان تحذير الملوك الآخرين من شن المزيد من حروب الفتوحات. وإذا ما قادوا حملة فيجب خوض الحرب بطريقة إنسانية، والنصر يجب أن يحقق «بالصبر، وعقاب خفيف». الفتح الحقيقي الوحيد كان dhamma ـ كان أشوكا يعني بها جهد أخلاقي يفيد الناس في هذه الحياة والحياة التالية»(65).

هذه كانت لحظة مهمة. Arthashastra كتيب في فن الحكم ألفه البراهمي كاوتيليا Kautilya المستشار لدى شاندراغوبتا موريا، أوضح أن فتح المناطق المجاورة كان إحدى واجبات الملك المقدسة. وأشوكا ـ على أية حال ـ اقترح أن يستبدل القوة العسكرية باللاعنف. هناك شك حول تفاصيل هذه الحادثة. من المحتمل أن أشوكا بالغ في أعداد القتلى: الجيش الموري كان تعداده فقط ستون ألفاً، لذلك يصعب أن نفهم كيف استطاع أن يقتل مائة ألف من جيش كالينغا. كان جيشاً جيد الانضباط، وعادة لا يضايق غير المحاربين. إذا كان أشوكا متضايقاً جداً من بلاء المرحلين فلماذا لم يعيدهم؟ ربما أراد أن يردع تمرداً عن طريق التأكيد على جاذبية وعدم الرحمة في انتصاره، وبالتأكيد لم يكره الحروب من ذلك اليوم فصاعداً. في مراسيم أخرى، اعترف أشوكا أن الحرب كانت أحياناً ضرورية، ولم يحل جيشه(66).

لكن ربما كان هذا كي نتوقع الكثير. من الواضح أن أشوكا قد هزه فعلاً العنف والمعاناة في كالينغا، وأنه حاول إدخال سياسة معتمدة على دهاما. كان في ذلك الوقت يحكم مملكة هندية اتساعها غير مسبوق. في طول وعرض مملكته المراسيم المنقوشة الملخصة لسياسته المبتكرة موجودة على صخور الجروف والأعمدة الحجرية. كانت موضوعة في أماكن بارزة، ومن المحتمل أنها كانت تقرأ بصوت عالٍ إلى العامة في مناسبات رسمية. المراسيم مكتوبة بلغة بالي Pali، منقوشة مع أشكال حيوانات، ودوافع مثل «الدولاب البوذي»، كل واحد يبدأ.

«هذا ما يقوله محبوب الآلهة» ويبشر بخلق إنساني عدم العنف. وإصلاح أخلاقي. طول هذه المراسيم مذهل، إنه مثيل إيجاد حروف طلاسم مشابهة في Grampiams، وإيطاليا، وألمانيا، وجبل طارق(67).

حقيقة أن أشوكا شعر أن سياسة كهذه كانت عملية يعني أن الفضائل المحورية الرحمة وahimsa كانت قد ضربت جذوراً عميقة، حتى ولو لم يكن يطبقها سياسي. ولربما اعتقد أن أشوكا مخلصاً أن العنف كان يولد مزيداً من العنف فقط، وأن القتل والفتح قد يكونان ناراً خلفية his d hamma. لم تكن بالتحديد بوذية، بل قد تلقى استحساناً لدى أي من المدارس الرئيسية.

من المحتمل أن أشوكا كان يأمل في الترويج لسياسة مبنية على الإجماع التي باستطاعتها أن تضم رعايا إمبراطوريته المترامية. لم تذكر الدهاما المعتقد البوذي الفريد anatta (أي اللانفس)، أو ممارسة اليوغا، بل ركزت على فضيلتي الطيبة والتسامح(68). «ليس هناك نعمة مماثلة لنعمة الدهاما...» كما كتب أشوكا في المرسوم الحادي عشر على الصخرة الكبيرة، هذا كان يتألف من:

> ***سلوك جيد مع العبيد والخدم، طاعة للوالد والوالدة، الكرم مع الأصدقاء والمعارف والأقارب، ومع النساك والبراهميين، والامتناع عن قتل الكائنات الحية. الوالد، والابن، والأخ، والمعلم، والصديق، وأحد المعارف، والقريب، والجار يجب أن يقولوا: «هذا جيد، وسوف نفعله». عن طريق فعل ذلك، سيكون هناك مكسب في هذا العالم وفي العالم التالي هناك ميزة لا نهائية من خلال نعمة الدهاما.(69).***

بعيداً عن فرض البوذية على رعاياه، أصرت المراسيم على أنه يجب ألا يكون هناك تعصب ديني. كان يجب تعظيم البراهميين بالإضافة إلى أولئك النساك الذين تخلوا عن النظام الفيدي. الملك «يحترم جميع الطوائف ويكرم الزهاد والناس العاديين بالهبات والاعتراف بهم»، كما جاء في المرسوم الثاني عشر. «ارتقاء جميع المعتقدات الأساسية من كل المعتقدات المتبقية» كان ذا أهمية قصوى. لا ينتقص أحد من تعاليم آخر. بهذه الطريقة، استطاعت جميع المدارس أن تزدهر. «الوفاق يجب أن يزكّى، بحيث يستطيع الناس احترام مبادئ الآخرين»(70).

كان أشوكا واقعياً. إنه لم يحرم العنف، فهناك مناسبات قد يكون استخدام العنف فيها أمر لا يمكن تجنبه ـ فعلى سبيل المثال. إذا أثار سكان الغابة متاعب. والعقوبة الكبيرة بقيت خياراً. لكن أشوكا لم يمتنع عن أكل اللحم في منزله، وكان بالإمكان اصطياد قوائم من الطيور، والحيوانات والأسماك. لقد كانت تجربة شجاعة لكنها فشلت. أثناء السنوات العشر الأخيرة من عهده، لم يجر أشوكا نقوشات جديدة، ولربما كانت إمبراطوريته التاسعة تتداعى. بعد وفاته في عام 231 اختفت الدهاما. وانطلقت توترات اجتماعية ونزاعات طائفية، فبدأت الإمبراطورية تتفكك، لقد قيل إن هاجس أشوكا باللاعنف قد أوهن الجيش، وجعل الدولة عرضة للغزو. لكن أشوكا لم يكن أبداً متشبثاً معتقدياً باللاعنف. من المحتمل أكثر أن الإمبراطورية كانت تنضب مواردها. لكن أشوكا لم يُنْسى. في التراث البوذي هو ملك عالمي الذي أدار عهده عجلة القانون. قادة لاحقون مثل غورونانك ـ مؤسس السيخية، والمهاتماغاندي سوف يحيون مثل التوافق والوحدة بين الانقسامات الطائفية والاجتماعية.

بعد وفاة أشوكا دخلت الهند عصراً مظلماً. على الرغم من أنه ليس لدينا سوى القليل من المعلومات الموثوقة عن الممالك والسلالات التي ظهرت وسقطت خلال هذه القرون من عدم الاستقرار السياسي التي استمرت حتى صعود سلالة غوبتا Gupta في عام 320. لكننا نعرف أن الهند مرت بتحول روحي رئيسي. خلال هذا الزمن، أصبح الدين الهندي، إيماناً بوجود الله، والناس اكتشفوا الله God. الدين aniconic البحت لدى الفيديين والنساك الذين خفضوا كثيراً دور الآلهة قد أفسح المجال إلى البذخ الهنوسي لمعابد رائعة الرسوم، ومواكب زاهية، ورحلات حج شعبية وولاء لتماثيل فيها حشد غريب من الآلهة.

بالإمكان رؤية الإشارة الأولى لهذا التطور من شيفتشفاتارا أبانيشاد، أي «تعاليم، الحكيم والمَغْزَلِ الأبيض» الذي ربما أُلف في أواخر القرن الرابع. لم يكن الدين الفيدي التقليدي أبداً بصرياً جداً. حتى في عنفوانهم لم يكن أحد يهتم بشكل إندرا أوفيشنو. كان الناس يشعرون بالإله في ترانيم ومانترات،

وليس في تماثيل وأيقونات. شيفتشفاتارا أبانيشاد متأثرة بقوة بتعاليم سامكهيا يوغا. مدرسة تؤمن أصلاً بوجد الله، لكن هنا براهمن ـ الحقيقة المطلقة كان مجسداً بالإله المشخصن رودرا Rudra/ شيفا shiva وهو الذي سيحرر اليوغي من دورة السامسار المؤلمة. بعد أن ينجز هذه الموكشا، سوف يرى اليوغي المستتير الإله داخل نفسه.

من المحتمل أن هذا لم يكن تجديداً كاملاً. فالدين الفيدي كانت مارسه وتشجعه الطبقات العليا، لكن من الممكن أن المتعبدين العاديين قد صنعوا تماثيل للآلهة من مواد قابلة للفناء بحيث أنها لم تصل إلينا(71). مع حلول نهاية العصر المحوري، هذا الدين الشعبي الذي ربما قد وجد باستمرار منذ أيام حضارة وادي الهندوس، قد بدأ يندمج مع ممارسات الحكماء المعقدة. في الريغ فيدا، رودرا كان إلهاً هامشياً. أما الآن فقد ظهر مع الإله المحلي شيفا، وقد ظهر في المقدمة على أنه التجسيد المشخصن لبراهمن ورب الكون، الذي عرف عن نفسه لعابديه في ممارسة اليوغا. وهكذا استطاع اليوغي أن يحطم قيود السامسارا فقط عن طريق أن يصير واحداً مع الرب Lord، حاكم الطبيعة والنفس (أتمان): «عندما يأتي ليعرف الله God، فإنه يُحَّرر من جميع القيود... عن طريق التأمل فيه، وبالسعي إليه، وفي النهاية أن يصير نفس الحقيقة مثل الله، فإن كل وهم يختفي»(72). جميع العوائق تسقط، وعند لحظة الموت تتحد النفس دون أن تتحلل بالرب رودرا.

الرب لم يكن كائناً متعالياً، بل كان يعيش داخل النفس، بالأحرى بنفس الطريقة مثل شكل نار كانت قدرتها أساساً في الخشب: لم يكن باستطاعتنا رؤيتها حتى احتكاك الخشب يسبب توهج اللهب. الرب استقر داخلنا مثل الزيت في بذور السمسم أو مثل الزبدة في اللبن الرائب. التأمل كان يجعل اليوغي في حالة اتصال مباشر مع الطبيعة الحقة للبراهمن التي ما عادت حقيقة غير شخصية بل الإله رودرا «غير المولود، والذي لا يتغير» ساكن الجبل(73). لقد كان «أعلى من البراهمن» الواحد الهائل المستتر في جميع الكائنات، في كل كائن وفقاً

لنوعه، والذي لوحده يسيِّر الكون كله»(74). مع ذلك رودرا كان أيضاً «بحجم إبهام الإصبع» متخفياً ضمن النفس(75). التأمل قد مَكَّنَ اليوغي أن يرى الشكل المادي للإله (mutri) في المناطق الأكثر عمقاً من شخصيته.

لخلق نظرة متماسكة لوجود الله استمتدت شيفتشفا تارا أبانيشاد من عدد من روحانيات متباينة عديدة: على مفهوم أبانيشاد لذات البراهمن وأتمان، وعلى مفهومي إعادة الولادة والموكشا، وعلى السامكهيا، واليوغا، وترتيل المقطع المقدس أوم Om. لقد دمجت جميع هذه الطرائق التي تؤمن بوجود الله مع صورة الإله الخالق. في الهندوسية الكلاسيكية اللاحقة، هذه التركيبة ستخلق لاهوتاً جديداً بالإمكان أن ينطبق على أي إله، وليس فقط على رودرا/ شيفا. الهوية المحددة للرب المعني كانت أقل أهمية من حقيقة أنه قد أصبح ممكن الوصول إليه في التأمل. كان اليوغي يعرف أن هذا الإله وُجد، ليس بسبب مجموعة من براهين ميتافيزيقية، بل بسبب أنه قد رآه.

في نفس السطر الأخير من شيفتشفاتارا نجد كلمة جديدة مهمة. شرحت الأبانيشاد أن الانعتاق الذي وصفته سوف يسطع «فقط في رجل يمتلك أعمق حب (بهاكتي) لله God، والذي يظهر الحب نفسه تجاه معلمه»(76) ثورة دينية كانت قد انطلقت. الناس الذين شعروا أنهم مستثنون من الصوفية العويصة في الأبانيشاد والزهاد الذين يعتزلون العالم كانوا يبدؤون يخلقون روحانية كانت مناسبة لأسلوبهم في الحياة. لقد أرادوا أن يساهموا في رؤى العصر المحوري، لكنهم كانوا بحاجة إلى دين أقل تجريداً وأكثر تحفيزاً. ولذلك طوروا فكرة بهاكتي «الولاء» إلى إله كان يحب ويهتم بعابديه(77). الفعل المركزي لبهاكتي كان استسلام النفس: المؤمنون توقفوا عن مقاومة الرب، ومدركين لعجزهم، كانوا واثقين أن إلههم سوف يساعدهم.

الكلمة بهاكتي كلمة معقدة. يعتقد بعض العلماء أنها مستمدة من كلمة bharij «أي الانفصال»: أصبح الناس مدركين لوجود برزخ بينهم وبين الإله، ومع ذلك، في ذات الوقت، الإله الذي وقع اختيارهم عليه، أبعد نفسه ببطء عن

الكون الذي خلقه، وواجههم، شخص مقابل شخص. ويعتقد علماء آخرون أن الكلمة ترتبط بكلمة bhaj التي تعني يشارك، أو يساهم في ـ مثل اليوغي في شيفتشافاتارا يصير واحداً مع الرب رودرا. عند هذه المرحلة بهاكتي كانت ماتزال في مرحلة طفولتها. نص مهم كان بها جافاد جيتا الذي يعتقد بعض العلماء أنه قد كتب أثناء أواخر القرن الثالث. لقد طور لاهوت شيفتشا فاتارا أبانيشاد، آخذاً إياه في اتجاه جديد كان له تأثيراً عميقاً على الروحانية الهندوسية التي ظهرت أثناء العصر المظلم.

بهاجافاد ـ جيتا (أي أنشودة الرب) ربما كانت أصلاً نصاً منفصلاً، لكن في مرحلة ما تم إدخاله في الجزء السادس من المهابهاراتا. إنه يتخذ شكل حوار بين أرجونا أعظم المحاربين بين الأخوة باندافا Pandava، وصديقه كريشنا. الحرب الرهيبة التي كان يأمل أخو يوديشترا ـ أخ أرجونا الأكبر ـ أن يتجنبها كانت على وشك أن تبدأ. واقفاً في عربته الحربية ومعه كريشنا كسائق له، تأمل أرجونا في رعب أرض المعركة. حتى هذه المرحلة في القصة، كان أرجونا أقل انزعاجاً من يوديشترا حول نتيجة الحرب. لكنه الآن قد صُعِقَ بجسامة ما كان على وشك أن يحدث. لقد انقسمت العائلة على نفسها، والباندافا كانوا على وشك أن يهاجموا أقاربهم. وفقاً لأحد التعاليم القديمة، المحارب الذي كان يقتل أقاربه كان يحيل العائلة بأكملها إلى جهنم. إنه كان يفضل أن يتخلى عن المملكة على أن يقتل أبناء عمومته الشجعان ومعلميه المحبوبين بيشما Bhishma ودرونا Drona. ستحدث فوضى وسيدمر الاستقرار الاجتماعي. فإذا كان مسؤولاً عن مقتل أبناء عمومته، فإنه لن يعرف السعادة أبداً ثانية، والشر سوف ينغص الباندافا طوال حياتهم. «ما فائدة الملكية لنا، والمسرات، أو الحياة نفسها» سأل كريشنا(78). سيكون من المشرف أكثر أن نقتل في معركة، غير مسلحين، ولا نبدي مقاومة.

قائلاً هذا في وقت الحرب،

أرجونا قفز في عربته

وأنزل قوسه وسهامه

عقله مبرحاً حزناً(79).

البهاجافاد ـ جيتا كان واحداً من آخر النصوص العظيمة في العصر المحوري، وهو نقطة علاّم للحظة انتقال ديني. كما يحدث غالباً في قصتنا بصيرة دينية جديدة كانت مستلهمة من مقت للعنف. حاول كريشنا أن يرفع من معنويات أرجونا من خلال إيراده بعض النقاشات التقليدية حول الحرب. المحاربون الذين سقطوا في المعركة القادمة، لن يموتوا فعلياً ـ كما قال ـ إنهم سوف يذهبون مباشرة إلى السماء، وأرجونا سيسدي معروفاً لأبناء عمومته. وإذا رفض أن يحارب، فقد يتهم أرجونا بالجبن، وما هو أخطر من ذلك أنه سوف ينتهك الدهارما dharma طبقة المحاربين. كمحارب، كان واجبه المقدس أن يحارب. كانت الآلهة تطالبه أن يحارب. كذلك النظام الإلهي للكون، والمجتمع. مثل أخيه يوديشترا، أرجونا كان يواجه معضلة مأساوية «دهارما» المحاربين. الإمبراطور أشوكا كان ملتزماً باللاعنف، لكن لم يكن باستطاعته أن يتنازل عن قيادة جيشه. كان الكهنة البراهميون يمقتون الحرب، وكان باستطاعة النساك أن يديروا ظهورهم إلى كل هذه الفوضى المحزنة، ويلتجئون إلى الغابة. لكن كان على شخص ما أن يدافع عن الجماعة، وأن يحافظ على القانون والاستقرار. وذلك ـ لسوء الحظ ـ كان يعني أن يحارب، ولو في حالة الدفاع عن النفس. كيف كان باستطاعة محارب أن يؤدي واجبه المقدس تجاه المجتمع دون إحداث آثار سيئة للكارما العنيف التي كان مجبراً أن يلتزم بها؟

لم تعجب أرجونا أول مجموعة من نقاشات كريشنا. فأصر قائلاً: «لن أحارب»، الحرب بناء على هذا المقياس كانت خطأ. ولن يكون من الصواب سفك دم من أجل مكاسب دنيوية. ربما كان عليه أن يصبح ناسكاً؟ لكنه كان يحترم كريشنا، وأدار ظهره إليه يائساً، متوسلاً إليه طالباً للعون. في موافقة كريشنا أن يكون معلم أرجونا، كان تولي كريشنا المهمة الصعبة أن يناقض مناقشات jains، والبوذيين، والنساك الذين كانوا يعتقدون أن كل عمل

دنيوي كان غير منسجم مع الانعتاق. لكن هذا كان يعني أن الأغلبية الكاسحة لم يكن لديها أمل بالخلاص. لقد وضع أرجونا إصبعه على عيب كبير في العصر المحوري الهندي. لقد أراده كريشنا أن يفكر في الأمر من منظور مختلف، لكن بدلاً من اقتراح أحد التعاليم الجديدة تماماً، الذي كان يلغي المدارس الأخرى، فقد حاول توليفة جديدة من الطرق الروحية القديمة مع المفهوم الجديد للبهاكتي.

اقترح كريشنا أن يمارس أرجونا نوعاً من اليوغا بديلاً: كارما ـ يوغا. لقد قدم اقتراحاً صادماً: حتى محارب كان يخوض معركة قاتلة باستطاعته أن ينجز الموكشا. لإنجاز هذا كان عليه أن يفك علاقة عمله عن نتيجة فعله ـ في هذه الحالة ـ المعركة، ومقتل أقاربه. مثل أي يوغي، رجل الفعل (كارما) يجب أن يتخلى عن الرغبة. لم يكن بوسعه أن يسمح لنفسه أن يشتهي الشهرة، أو الثروة أو السلطة التي سوف تنتج عن الحملة العسكرية. وبذلك ليست الأفعال بحد ذاتها التي تقيد الكائنات البشرية بدورة ولادة جديدة لا تنتهي، بل الارتباط بثمار هذه الأفعال. يجب على المحارب أن يؤدي واجبه دون أمل بمكسب شخصي، ومبدياً عدم الارتباط ذاته الذي يبديه يوغي:

كن ناوياً على الفعل
وليس فقط على ثمار الفعل
تجنب الانجذاب إلى الثمار
والانشداد إلى الانغماس في العمل.

أدي الأفعال ثابتاً في الطريقة
متخلياً عن الارتباط،
كن غير منحاز للفشل أو النجاح
رباطة الجأش هذه تسمى الانضباط(81)

لكن الطمع والطموح كانا متجذرين عميقاً في الوعي البشري، لذلك استطاع المحارب أن يحقق هذه الحالة من عدم الحماسة فقط من خلال ممارسة اليوغا التي سوف تفكك أناه. المحارب يجب أن يأخذ الـ «me» و«mine» خارج أفعاله، بحيث أنه يتصرف بطريقة غير شخصية أبداً. ما أن ينجز هذا، فإنه سيكون خامداً لأنه لن يكون مشاركاً في الحرب: «دائماً راضياً، مستقلاً، لا يفعل شيئاً على الإطلاق حتى عندما ينخرط في عمل»(82). محارب الكشتريا كان لديه مسؤوليات، لم يكن يستطيع أن ينسحب إلى الغابة. لكن عن طريق ممارسة كارما ـ يوغا سيكون في حقيقة الأمر منفصلاً عن العالم، حتى بينما كان يعيش، وفعالاً في العالم. كريشنا قد علّم أرجونا الطرق اليوغية المعتادة، لكن التأمل الذي اقترحه كان مفصلاً على قياس الكشتريا، الذي لم يكن باستطاعته أن يقضي ساعات كل يوم في التأمل. كان هناك شكل تأمل أكثر دقة خاص بالزاهد المحترف. لكن كارما ـ يوغا بإمكان رجل أو امرأة، اللذان لديهما واجبات دنيوية، أن يمارسها. اليوغا التراثية لم تركز أبداً على إله، بينما كارما ـ يوغا ركزت على إله.

شيفتشفاتارا أبانيشاد قد لقنت اليوغي أن يركز على رودرا/شيفا، لكن كريشنا أخبر أرجونا أن عليه أن يتأمل في الإله فينشنو.

كريشنا كان لديه مفاجأة لأرجونا. شرح أن كريشنا لم يكن فقط ابن فيشنو، بل في الحقيقة كان الإله في شكل بشري. على الرغم من أنه كان «غير مولود، ولا يموت، ورب المخلوقات» فقد حَلَّ فيشنو في جسم بشري مرات كثيرة(83). فيشنو كان خالق العالم، وأبقاه في الوجود، لكن كلما كان هناك محنة خطيرة. «كلما كان يتحلل واجب مقدس، وتهيمن فوضى ـ كان يخلق شكلاً دنيوياً لنفسه ويأتي إلى العالم:

كي يحمي البشر الفاضلين

وليدمر البشر الذين يفعلون الشر

ليضع المعيار لواجب مقدس،

أنا أظهر في عصر تلو عصر»(84)

وبعد أن نقل هذا الخبر المدهش، كان باستطاعة كريشنا أن يتحدث بصراحة أكثر إلى أرجونا عن الإيمان ببهاكتي. استطاع أرونا أن يتعلم كيف يفصل نفسه عن رغباته المتمركزة حول أناه عن طريق محاكاة كريشنا شخصياً. كرب وحاكم للعالم، كريشنا/فيشنو كان فاعلاً باستمرار، لكن أفعاله Karman لم تلحق ضرراً به:

هذه الأفعال لا تقيدني

لأنني أبقى منفصلاً

في كل أعمالي، يا أرجونا،

وكأنما كنت أقف بعيداً عنها(85).

لكن إذا أراد أرجونا أن يحاكي كريشنا، كان عليه أن يفهم طبيعة الألوهة، كان عليه أن يرى /كريشنا/ فيشنو كما كان حقاً.

تماماً هناك على أرض المعركة كشف كريشنا طبيعته الإلهية إلى أرجونا، الذي كان مذهولاً وممتلئاً رعباً عندما رأى الشكل الأزلي لصديقه على أنه الإله فيشنو، الخالق والمدمر، والذي يجب أن تعود إليه جميع الكائنات، لقد رأى كريشنا متجلياً بالنور الإلهي الذي كان يحتوي الكون بأكمله. فصاح:

«أنا أرى الآلهة في جسمك!»

أنا أرى شكلك اللامحدود

في كل مكان

الأذرعة التي لا تحصى،

والبطون، والأفواه، والعيون،

رب الجميع

إني لا أرى نهاية

أو منتصفاً أو بداية

لكليتك Totality(86)

كل شيء ـ سواء بشري أو إلهي ـ كان بطريقة ما حاضراً في جسم كريشنا، الذي ملأ الفضاء، واحتوى داخل ذاته جميع الأشكال الممكنة للألوهة. «آلهة العواصف القوية، آلهة الشمس، آلهة النور، وآلهة الطقوس». لكن كريشنا/ فيشنو كان أيضاً «روح الإنسان التي لا تتعب»، جوهر البشرية(87). جميع الأشياء اندفعت نحوه، مثلما تنساب الأنهار إلى البحر، والفراشات تتجذب قسراً إلى لهب متوهج. وهناك أيضاً رأى أرجونا محاربي الباندا فاو الكاورافا، جميعهم يتهاوون في أفواه الإله المشتعلة.

لقد ظن أرجونا أنه كان يعرف كريشنا تماماً، لكن الآن، صاح مرتبكاً «من أنت؟».

أجابه كريشنا: «أنا الزمن وقد شاخ» ـ الزمن الذي وضع العالم في حالة حركة، وأفناه أيضاً. كريشنا/ فيشنو كان أزلياً، لقد تعالى عن السيرورة التاريخية. كمدمر كريشنا/ فيشنو أباد الجيوش التي كانت ـ كما يبدو ـ ترسم مسارات معاركها، مع أن ـ من المنظور البشري لأرجونا ـ القتال لم يكن قد بدأ حتى. النتيجة كانت ثابتة ولا تتغير. من أجل إبقاء الكون في الوجود، جيل يجب أن يخلف جيلاً آخر. الحرب بين الباندافا والكاورافا ستجلب الحقبة البطولية إلى نهايتها، وتدشن حقبة تاريخية جديدة. أخبر كريشنا أرجونا: «حتى من دونك، جميع هؤلاء المحاربين الواقفين في أرتال متعادية سوف لن تكون موجودة».

إنهم قد قتلوا مسبقاً

من قبلي

كن أداتي فقط

رامي السهام إلى جانبي(88)

ولذلك يجب على أرجونا دخول المعركة، ويلعب الدور المحدد له في إعادة الدهارما إلى العالم.

لقد كانت نظرة محيرة. يبدو معتقد كريشنا أنه يعفي البشرية من أية مسؤولية عن المذبحة التي ارتكبتها. لقد أكد سياسيون ومحاربون كثيرون على أنهم كانوا مجرد أدوات بيد القدر، واستخدموا هذا كي يبرروا أفعالهم الشنيعة. لكن قلة من الناس قد أفرغوا أنفسهم من الرغبة من أجل مكسب شخصي ـ كما أكد كريشنا ـ كان أمراً أساسياً. فقط الفعل المنضبط لدى اليوغي المحارب استطاع جلب الاستقرار إلى عالم مُدَمَّر. بدا كريشنا غير مشفق، مع ذلك أخبر أرجونا، أنه كان إلهاً منقذاً، الذي استطاع أن ينقذ الذين أحبوه من النتائج السيئة لكرماهم Karma. فقط أناس البهاكتي استطاعوا رؤية الطبيعة الحقيقية لكريشنا، وهذا الولاء كان يتطلب استلاماً تاماً للنفس.

أن تعمل فقط لأجلي، معتمداً عليّ
خالياً من الارتباط،
معادياً إلى لا مخلوق يا أرجونا،
إنسان مؤمن يستطيع أن يأتي إلي(89)

عدم الارتباط واللامبالاة كانا الخطوتين الأوليتين باتجاه الاتحاد مع الله God، الذي باستطاعته أن ينقذ الكائنات البشرية من كل معاناة الحياة(90).

ربما كانت البهاجافاد ـ جيتا الأكثر تأثيراً من أي كتاب هندي مقدس. ميزتها العظيمة كانت إمكانية الوصول إليها. بينما روحانيات أخرى جعلت الخلاص حكراً على قلة من الزهاد البطوليين الموهوبين بينما كان هذا دين لكل واحد. قلة قليلة جداً من الناس كان لديها الوقت أو الموهبة كي تكرس حياتها إلى اليوغا. لم يكن بوسع الكثيرين أن يتخلوا عن عائلتهم وأن ينسحبوا إلى الغابة. لكن كريشنا وعد: «إن يعتمدوا عليَّ، يا أرجونا، فإن النساء، وvaishyas، والشودرا، وحتى بشر مولودون في رحم الشر، يصلون الطريق الأعلى»(91). أي واحد كان باستطاعته أن يحب ويحاكي الرب، ويتعلم أن يتجاوز الأنانية في الواجبات العادية في الحياة اليومية، فحتى محارب الذي أجبرته دهارماه أن يقتل، استطاع أن يمارس كارما ـ يوغا. بعد التجلي العظيم، شرح

كريشنا أن كل العالم المادي كان أرض معركة تكافح فيها جميع الكائنات الفانية من أجل بلوغ الاستنارة بأسلحة فك الارتباط، والتواضع واللاعنف، والنزاهة، وضبط النفس(92). إن البهاجافاد ـ جيتا لم تنفي روحانية العصر المحوري بل جعلت ممارستها أمراً ممكناً من قبل أي امرئ.

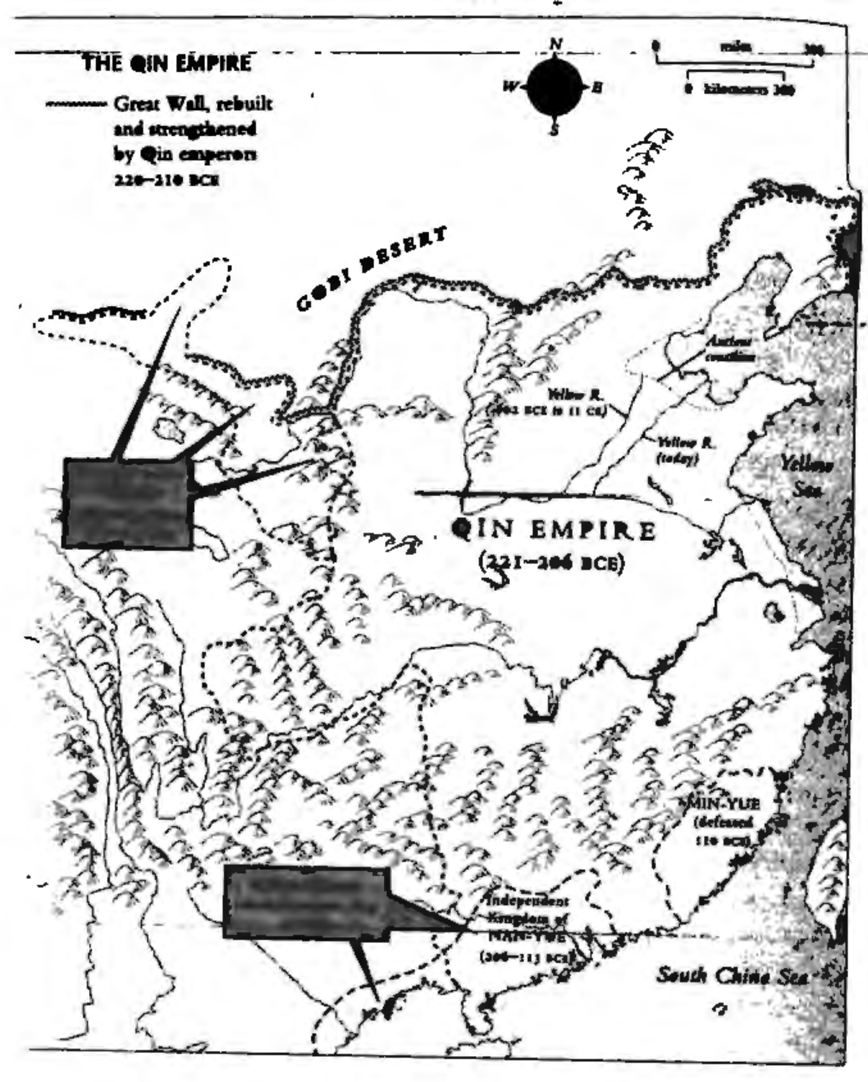
الفصل العاشر

الطريق إلى الأمام

لقد حدثت ثورة العصر المحوري الروحية على خلفية اضطراب، وهجرة، وفتوحات. حدثت ـ غالباً ـ بين مشروعين إمبرياليي الأسلوب. في الصين، توارى العصر المحوري بعد انهيار سلالة الزهو، وبلغ نهايته عندما وحدت Qin الدول المتحاربة. أما العصر المحوري الهندي فقد حدث بعد تفكك حضارة هارابان Harappan وانتهى مع إمبراطورية ماوري Mauryan. والتحول الإغريقي حدث بين المملكة المسينية والإمبراطورية المقدونية. لقد عاش الحكماء المحوريون في مجتمعات كانت منقطعة عن وسائل أمانها. اقترح كارل جاسبرز Karl Jaspers «بالإمكان تسمية عصر المحور فترة انتقالية ـ دون قيادة ـ بين حقبتي إمبراطورية عظيمة، توقف من أجل الحرية، ونَفَسٌ عميق جالباً الوعي الأكثر إشراقاً»(1). حتى اليهود الذين عانوا كثيراً من المغامرات الإمبريالية في الشرق الأوسط، قد دُفِعُوا في عصرهم المحوري بالحرية المخيفة التي تلت تدمير موطنهم والرض النفسي للترحيل الذي قوى رابطتهم بالماضي، وأجبرهم أن يبدأوا ثانية. لكن مع حلول نهاية القرن الثاني، كان العالم قد استقر في الإمبراطوريات التي نشأت بعد العصر المحوري، كان التحدي هو إيجاد روحانية تؤكد عملية التوحيد السياسي الجديد.

كان الصينيون يحنون إلى السلام والاندماج لفترة طويلة من الزمن. عندما هزمت Qin الدول السبع المتبقية وأسست إمبراطورية مركزية في عام 221، لا بد أن الكثيرين قد شعروا بالارتياح، لكنهم تعرضوا لدخول صادم لحكم

امبريـالي. انتـصار Qin كـان نـصراً عظيمـاً للقـانونيين Legalists. حتـى الملـوك الحكماء الأسطوريين الذين كانوا أسياداً إقطاعيين لم ينجزوا إمبراطورية من هـذا النـوع. Qin كانـت تعـرف أن لا سـابقة في الـصين، والملـك لقـب نفـسه «الإمبراطور الأول». مؤرخ البلاط قال سعيداً «الآن ضمن البحار الأربعة في كل مكان، كان هناك قيادات، ومقاطعات، ومراسيم تصدر من مركز وحيد، شيء لم يحدث أبداً منذ الماضي الغابر»(2).



وبما أن هذه كانت حقبة جديدة، لم يزعم الإمبراطور أنه تلقى تفويضاً من السماء. بدلاً من ذلك، انقطع عن التراث وتوجه إلى مدرسة فلاسفة لم يلعبوا دوراً في العصر المحوري الصيني، عرافو البلاط، وحوليون، وفلكيون من المحتمل أنهم كانوا دائماً أكثر أهمية من الموهيين Mohists أو الكونفوشيوسيين عند حكام الدول المتنافسة الكبيرة، وقدموا ـ الآن ـ مبرراً لحكم Qin: لاحقاً، هذه الكوسبمولوجيا ـ شكل من علم نمطي سحري ـ سيكون معروفاً باسم مدرسة ين yin ويانغ yang، وبين القرن الثالث والأول كانت تحكم قبضتها على المخيلة الصينية(3). وكما رأينا، مفهوم الين ويانغ من المحتمل أنه نشأ مع الجماعات الفلاحية في الصين، والكوسمولوجيا الملازمة التي تبنتها Qin قد تعود إلى الفترة النيوليتك neolithic. وانبعاثها عند هذه المرحلة قد مثل تراجعاً فكرياً، تقريباً كهروب من متطلبات عصر المحور المتحدية. هدفها كان إيجاد توافق بين الظواهر البشرية والظواهر الطبيعية. زعم فلاسفة البلاط أن بالإمكان التنبؤ بالأحداث الراهنة، وأنها محكومة بقوانين كونية أكبر منها، وهذا أعطى الناس إحساساً مريحاً أنهم كانوا «على علم» في هذا الوقت من مرحلة انتقال رئيسي.

لقد صيغت النظرية من قبل فيلسوف من القرن الرابع يدعى Zou yan زو ـ يان الذي جادل أن العناصر الخمسة الأساسية ـ التراب، الخشب، المعدن، النار، والماء ـ كل منهما يتبع الآخر في تسلسل دقيق: الخشب وَلَّدَ النار، النار أنتجت الرماد أو التراب، والتراب أنتج المعدن، والمعدن أنتج الماء. وكل معدن كان مرتبطاً بأحد الفصول، وكل منها نال السيادة على ما دونه، بنفس الطريقة التي يتلو فيها الخريف الصيف. فالنار ـ على سبيل المثال ـ كانت تستهلك الحطب، والتربة تطفئ النار. لم يكن لدى الفلاسفة المحوريين سوى وقت قليل لهذا النوع من التفكير.

لقد أوضح الموهيون بإيجاز: «العناصر الأربعة ليس لها دائماً الأولوية على بعضها»(4). زو ـ يان اعتقد أنه كان باستطاعته أن يطبق هذا المخطط على

التعاقب التاريخي للسلالات لعظيمة، الإمبراطور الأصفر كان مرتبطاً بالتربة الصينية الصفراء، وxia بالخشب، وshang بمعدنهم البرونزي، والزهو بالنار. سلالة Qin الجديدة يجب أن يهيمن الماء عليها بالماء، الذي كان مرتبطاً بفصل الشتاء.

تشبث الإمبراطور الأول بهذه الفكرة كمصادقة على حكمه. ارتدى الملابس السوداء، لون الشتاء - الذي بدا ملائماً لسياسات النزعة القانونية الباردة الحالكة، «بقسوتها الحاسمة، مقررة جميع الأشياء عن طريق القانون، مقررة ولاغية دون تساهل، أو كرم، أو لطف، أو righteusness على الصراط القويم»(5). وفي الوقت ذاته دعم أحدث التجارب للعثور على إكسير الحياة. بعض من تلاميذ زو - يان في بلاط Qin كانوا يحاولون أن يستخلصوا الوصفات من الأعشاب والأملاح المعدنية من أجل بلوغ الخلود. شكل متدن من الفلسفة سوف يربط لاحقاً بالداوية الفلسفية Daoism(6). جرب بعض هؤلاء العلماء الأوائل الأدوية، وآخرون جربوا إطالة العمر عن طريق التنفس والتمارين الرياضية، وأرسلت البعثات الاستكشافية لاكتشاف جزر Blest مقابل الساحل الشمالي الشرقي للصين، حيث كان يعتقد الناس أن البشر ذوي الامتيازات يعيشون إلى الأبد. هذا كله كان يمثل رغبة في التوصل إلى التحكم والتنبؤ بالمستقبل ولإبقاء الموت بعيداً من خلال وسائل مادية بدلاً من أن تكون وسائل روحية، لكن ذلك كان أيضاً تراجعاً عن نظرة الحكماء المحوريين الذين اعتقدوا أن البحث عن هذا النوع من الاستمرارية والأمن غير ناضج وغير واقعي.

كان على الإمبراطور الأول أن يقرر كيف ينظم المناطق الشاسعة التي فتحها. فهل كان عليه أن يعطي أبناءه مناطق إقطاعية مثلما فعل ملوك الزهو؟ رئيس وزرائه Lisi تلميذ زونزي Xunzi نصحه أن يعطي أبناءه رواتب بدلاً من أن يهبهم آراضٍ، وأن يحتفظ بسيطرة مطلقة على إمبراطوريته. وفي عام 213 انتقد أحد مؤرخي البلاط هذا الخرق للتراث، وقدم لي - سي مذكرة حاسمة إلى الإمبراطور. قال فيها أن في الأيام الغابرة كان الناس يستشيرون علماء مستقلين،

وكانوا يتبعون مدارس فكرية متباينة، لكن هذا لا يمكن أن يسمح له بالاستمرار:

جلالتك قد وحدت العالم. مع ذلك، البعض بتعاليمهم الخاصة يحرضون بعضهم بعضاً بشكل متبادل، ويسيئون إلى قوانيننا وعاداتنا.

وإذا لم تمنع مثل هذه الحالات، فإن السلطة الإمبريالية تتراجع من فوق، والتحزبات سوف تنشأ من الأسفل(7).

ولذلك نصح لي ـ سي أن «جميع السجلات التاريخية ـ ما عدا سجلات Qin. وجميع مؤلفات المائة مدرسة، وجميع الآداب الأخرى ما عدا المحفوظة لدى العلماء الرسميين وبعض المؤلفات في الزراعة، والطب، والصيدلة، والتنجيم، وزراعة نباتات الزينة، يجب أن تُسلَّم إلى الحكومة، وتحرق»(8). ما حدث ليس فقط حرق كميات هائلة من الكتب فقط بل تم إعدام 460 مدرساً. الفلاسفة المحوريون في الصين قد توصلوا إلى فهم روحي لوحدة جميع الأشياء. أما بالنسبة لـ لي ـ سي ، كان التوحيد يعني تدميراً عنيفاً للمعارضة، كان هناك عالم واحد، وحكومة واحدة، وتاريخ واحد، وإيديولوجيا واحدة.

لكن ـ لحسن الحظ ـ سمح الإمبراطور للفلاسفة الرسميين في النظام أن يحتفظوا بنسخ عن الكلاسيكيات الصينية، وإلا لربما كان قد فُقِدَ كل شيء. لكن هذه السياسات الهمجية غير منتجة. بعد وفاة الإمبراطور الأول عام 209 انتفض سكان الإمبراطورية في تمرد. بعد ثلاث سنوات من الفوضى فرد من عامة الشعب يدعى ليو بانغ Liu Bang الذي كان قد بدأ حياته كإداري محلي، قاد قواته إلى النصر وأنس سلالة هان Han. أراد الحفاظ على النظام السياسي المركزي لـ Qin، مع أنه استطاع أن يفهم أن سياسة لي ـ سي قد أسيء توجيهها، فقد عرف أن الإمبراطورية كانت بحاجة إلى النزعة الواقعية لدى القانونيين بالإضافة إلى آيديولوجيا تنويرية أكثر. لقد أوجد تسوية في الفلسفة المعروفة باسم هوانغ لو Huang lo: تركيبة من Legalism والداوية Daoism(9).

كانت المدرستان تشعران بأوجه تشابه بينهما، ومن المحتمل أنهما اختارتا هوانغ دي Huang Di الإمبراطور الأصفر الأسطوري، على أنه راعياً لهما لأنه لم يكن مهماً عند الكونفوشيوسيين أو الموهيين Mohists. كان الناس منهكين من الحكم الإمبريالي التعسفي، وقيل إن هوانغ دي قد حكم من خلال «فعل لا شيء». الإمبراطور يجب أن يفوض السلطة إلى وزرائه، وأن يمتنع عن التدخل شخصياً في السياسة العامة، سيكون هناك قانون عقوبات عقلاني، لكن لن تكون هناك عقوبات وحشية.

آخر الحكماء عصر المحور الصيني كانوا حذرين من الالتزام الدوغمائي بموقف معتقدي متشدد، وكانوا ينتقلون نحو التوفيقية. لكن شعر أناس كثيرون أنهم مربكين، ووجدوا صعوبة في الاختيار بين المدارس المختلفة. مؤلف المقالة «تحت الإمبراطور» التي من المحتمل أنها كتبت في السنوات الأولى من عهد هان، كان يشعر كاتبها أن العالم الروحي للصين كان يتهاوى. تعاليم الملوك الحكماء كانت واضحة كالبلور. لكن الآن:

كل مكان تحت السماء، هو في حالة فوضى عارمة، الناس الجديرون والحكماء ليس لديهم ضوء كي يسلطوه. التاو Tao والفضيلة [de] ما عادتا متحدتين، والعالم كله يميل لأن يرى فقط جانباً واحداً، ويعتقد أنهم قد فهموه بكليته(10).

لقد استوعب الصينيون درساً مهماً من العصر المحوري. لقد عرفوا أن ما من مدرسة يمكنها أن تدعي احتكار الحقيقة، لأن dao كانت متعالية وعصية على الفهم. في هذه الفترة، كانت الداوية Daoism في حالة صعود. بالنسبة لمؤلف مقالة «تحت الإمبراطور» جميع الحكماء تقريباً كان لديهم رؤى مهمة، لكن زهوآنغزي كان الأكثر موثوقية. لقد «علّم ما كان يعتقده، مع ذلك لم يكن متحزباً، ولم يكن ينظر إلى الأشياء من منظور واحد فقط». وبما أنه كان منفتح الذهن، وغير مقيد بأية عقيدة متشددة، كان «على انسجام مع Dao ومضى إلى أعلى الذرى العالية»(11).

لكن مزايا الكونفوشيوسية أصبحت ظاهرة بشكل تدريجي(12). أباطرة سلالة هان قد ثمنوا دائماً أهمية الاحتفال والطقس. الإمبراطور هان الأول كلّف الطقوسيين المحليين أن يخططوا لطقس قربان بإشراف البلاط، وعندما تمت تأديته للمرة الأولى، صاح: «الآن أدرك نبل أن أكون ابن السماء»(13). بعد أن تعافى الناس من الرض النفسي لحملة التفتيش التي جرت في Qin، بدأت الداوية تبدو غير عملية. كان فيها دائماً أكثر من مسحة من الفوضى وغياب القانون، وكان الناس يشعرون أنهم بحاجة إلى نوع من توجيه أخلاقي. مهما كانت مزايا «لا تفعل شيئاً»، لم يكن باستطاعة الأباطرة أن يحكموا عن طريق الفراغ كلياً. شعبية هوانغ لو بلغت ذروتها خلال عهد الإمبراطور wen (197 ـ 157)، وبعد ذلك، كان النظام مستعداً لحدوث تغيير.

في عام 136 علاّمة البلاط دونغ زهنكشو zhongshu قدم مذكرة إلى الإمبراطور wu (140 ـ 187) يدافع فيها أن كان هناك مدارس متنافسة كثيرة، وينصح أن الكلاسيكيات الست التي يعلمها الكونفوشيوسيون يجب أن تصبح التعليم الرسمي للدولة. وافق الإمبراطور على ذلك، لكن بدلاً من إلغاء جميع المدارس، مثلما فعلت Qin، سمح للمدارس الأخرى أن تستمر. لقد صادقت فلسفة كونفوشيوس على نظام الاختيار الذي وضعه هان، الذي كان يختار ـ الآن ـ موظفيه المدنيين عن طريق امتحان علني. الكونفوشيوسيون اعتقدوا دائماً أن رجلاً فاضلاً وذا علم يجب أن يشغل منصباً عالياً في الحكومة، بصرف النظر عن مولده. كما أنهم دعموا الأسرة، الوحدة الأساسية في المجتمع، وفوق كل شيء، كانوا علماء ومفكرين أيضاً، عارفين بالتاريخ الثقافي الذي كان أساسياً للهوية القومية الصينية.

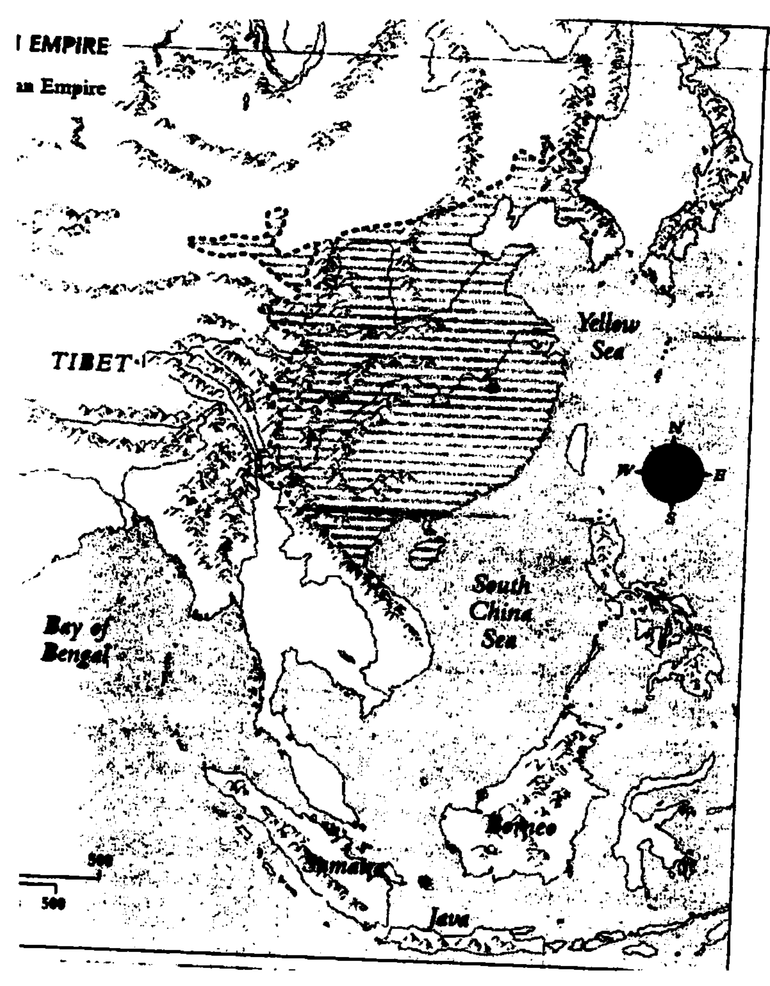
بحلول القرن الأول، كانت الكونفوشيوسيه تحظى بتقدير عالٍ، لكن الصينيين مازالوا يقدرون رؤى فلسفات العصر المحوري الأخرى. المؤرخ Liu Xin ليو زن (46 ق.م ـ 23) ـ في عرضه للمدارس الرئيسية في الصين دافع أن الطريقة The way عند الطقوسيين كانت «الأكثر رفعة من جميع المدارس». إنها «تأخذ السرور في أناقة الكلاسيكيات الستة، وتنزل آراءها داخل حدود التسامح

والصواب، وتمر على تراث ياوو شون، وتجعل من الملكين wen وwu كمرجعين لها، وكونفوشيوس بصفته المؤسس لها». لكن الكونفوشيوسية لم تكن تملك الحقيقة كلها: «هناك ثغرات في معرفتها التي بالإمكان ملؤها من قبل المدارس الأخرى». كل فلسفة كانت تمتلك نقاط قوة وضعف خاصة بها. لقد عرف الداويون كيف يصلون إلى مركز الحياة الروحية، «افهم الجوهري، تعلق بالأساسي، والحفاظ على النفس بالوضوح والفراغ، إعلاء المرء لنفسه عن طريق التواضع والتسليم»، لكنهم قللوا من شأن الطقس والقواعد الأخلاقية. كان باستطاعة الكوسمولوجيين أن يعلموا الناس في علم الطبيعة، لكن هذه المدرسة انحدرت حتى دخلت الخرافة. القانونيون كانوا يعرفون أن الحكومة كانت تعتمد على القوانين والروادع، وفشلهم كان في تقليل دور التسامح والأخلاق. إدانة الموهيون للبذخ والقدرية و«اهتمامهم بكل واحد» كانت قيّمة، لكن ليو زن لم يكن سعيداً برفضهم للطقوس وميلهم إلى تجاهل «التمييز بين القريب والغريب»(14).

لقد فهم الصينيون أن لا أحد كان يمتلك الكلمة الأخيرة في موضوع الحقيقة، فلا العقيدة المتشددة باستطاعتها أن تدعي بالولاء الكلي لدى أي شخص. كان احترام آراء الآخرين أكثر أهمية من إنجاز نظرة وحيدة معصومة. الروح الصينية الجامعة فريدة(15). لاحقاً، سيكون الصينيون قادرين أن يستوعبوا البوذية إلى جانب روحانياتهم التي نمت في وطنهم. في الهند والغرب، الأديان هي في أغلب الأحيان متنافسة بطريقة عدوانية، لكن في الصين - يقال غالباً - أن شخصاً ما بإمكانه أن يكون كونفوشيوسياً في النهار، وداوياً Daoist في الليل. فحتى Legalism لم تُهْمَلْ. كان الصينيون بحاجة إلى رؤاها بينما كانت الإمبراطورية تتسع، لدرجة أن الكونفوشيوسيين المتشددين غالباً ما اتهموا حكامهم بكونهم «كونفوشيوسيين في المظهر، لكنهم Legalists في الممارسة»(16). يُقَرُّ عموماً أن لكل دين جوه الملائم - موقف محوري، نحتاجه حاجة ماسة في عصرنا نحن.

* * *

في الهند، تفككت إمبراطورية ماوري بسرعة بعد وفاة أشوكا في عام 232. الممالك المحلية التي ظهرت في الجنوب، Magadha طواها النسيان، بينما كان الغزاة الإغريق من المستعمرة الفارسية ـ الإغريقية Bactria في الجزء الشمالي من أفغانستان يفوزون بالسيطرة على وادي الهندوس. لكن مع حلول منتصف القرن الأول، كان الإغريق تقتلعهم غزوات قبائل Scythian وParthian من إيران وآسيا الوسطى. هؤلاء الحكام الأجانب كانوا معادين للدين الهندي، لكن بما أن البارهميين كانوا يعتبرونهم غير نظيفين، أبدوا ميلاً للانجذاب نحو الطوائف غير الفيدية.



الفترة بين 200 ق.م و200 م كانت البوذية وJainsim الأكثر شعبية في الهند. كان هناك انفجار قوي للإيمان ببهاكتي bhakti، مما يعكس حنيناً إلى روحانية عاطفية، شخصية ودية أكثر والذي تصاعد تقريباً ليبلغ ثورة شعبية.

لدينا فكرة بسيطة مجتزأة فقط عن الأحداث بعد سقوط الدولة الماورية، لأن الهند دخلت عصراً مظلماً دام حتى ظهور سلالة غوبتا Gupta في منطقة ماثورا Mathura في الشمال (319 ـ 415)، وحكام البالافا Pallava في القسم الجنوبي من الهند (300 ـ 888) التي أزالت ما يسمى بالحركات الهرطقية. على أية حال، مدت البوذية جذورها في سيريلانكا، واليابان، وجنوب شرق آسيا، والصين. في الهند، الهندوسية الكلاسيكية بلغت مركزاً مرموقاً، لكنها كانت مختلفة جداً عن الدين الفيدي في العصر المحوري «الإيمان الصارم aniconic حل محله عرض مذهل من آلهة زاهية الألوان، وتماثيل، ومعابد. الهنود الذين اعتادوا أن يشعروا بالإله في الصوت، أرادوا الآن أن يروا المقدس في صور ـ التي كانوا يعتقدون ـ أنها كانت تحتوي على الحضور الجسدي للإله. وبما أن الإله كان لا نهائياً، لم يكن بالإمكان حصره في تعبير وحيد، كل إله كان يمثل جانباً محدداً من براهمن غير الشخصي. لكن الإلهين الأكثر شعبية كانا شيفا وفيشنو، إلها البهاكتي. في بعض النواحي بدا أن دين النخبة لدى vedas قد غمره دين الجماهير الأقل تطوراً.

على أية حال، ليس من الحكمة أن نتحدث عن طريقة مرسومة عن تطور الدين الهندي، بعض هذه الولاءات الجديدة «الظاهرية» كما يبدو ـ بالإمكان إرجاعها إلى حضارة وادي الهندوس أو إلى الثقافة Dravidian ـ غير الآرية في القسم الجنوبي من الهند(17). وبالرغم من المظاهر، كان الدين الفيدي في منأى عن الانقراض. في الحقيقة الدين البراهمي قام بتطورات مهمة بعد سقوط الإمبراطورية الماورية(18). نصوص طقوسية جديدة أعادت تفسير القرابين المحلية لدى رب العائلة وفق مسارات محورية. لم تعد تُرى ظلاً باهتاً للشعائر العامة، بل كخلاصة لها، شرط أن يعرف رب المنزل ما الذي كان يفعله، عمل بسيط، مثل

رمـي فنجـان مـن الحليـب في النـار المقدسـة قـد يلخـص الطقس المعقـد بأكمله، وبالتالي يعفيه من جميع التزاماته القربانية. قلة قليلة جداً من الناس كانت لـديهم المقدرة المالية لتأدية طقس فيدي، لكن أي امرئ كان باستطاعته أن يرمي عود حطب في النار كرمز لمشاركة ذاتية في القربان. عليه أن يتلو قطعة من الفيدا، حتى ولو كانت المقطع أوم Om، وذلك كان ينجز القربان إلى براهمن(19). عن خلال الحد الأدنى من هذه الأعمال، فإن رب المنزل لم يكن يدفع فقط «ديونه» إلى الآهلة، بل كان يقوم بإعادة توزيع للعنف الحتمي في حياته العادية. المثل الأعلى المحوري «اللاعنف» أصبح متجذراً بعمق في الوعي الديني الهندي. كان الناس مدركين تماماً للضرر الذي قد يوقع على أشياء كانت تبدو غير حية. أشارت هذه النصوص الجديدة أن على رب المنزل أن يكون لديه خمسة أماكن للذبح في منزله ـ الموقد، وحجر الرحى، والمكنسة، والهاون، وجرة الماء ـ التي تحيط به كل يوم بذنب «القتل». الأداء الواعي لهذه الشعائر المنزلية المرتبة تنازلياً كان يشكل فعل «خلاص»(20).

تسجل هذه النصوص أيضاً تطوراً انحرف بشدة عن المثل الأعلى المحوري(21). كان هناك ـ من المحتمل لمدة طويلة ـ جماعة المنبوذين في الهند (untouchable) لقد قيل إن البراهمين Brahmin وطبقات المنبوذين قد تأسستا في حوالي الوقت ذاته، كقطبين نقيضين للتراتبية(22). لكن قانون مانو Manu لم ينكر هذه الفكرة القديمة وأكد تراتبية الطبقات الثلاث الدنيا، النجارين، والنحاتين، والمنبوذين كانوا نتيجة زيجات مختلطة بين vaishyas والكشتريا، وبين البراهمين بشكل خاص. يجب استبعادهم تماماً من المجتمع الفيدي، وأن يعيشوا في ضواحي القرى، وأن يزاولوا أعمالاً وضيعة وملوثة مثل الدباغة، وكنس الروث من القرية(23).

حاولت ثورة البهاكتي أن تعدل الدين القاسي لدى براهمانا Brahmanas وتحول النساك إلى عاديين. شعبية هذه العقائد العباداتية كشفت الجوع الجديد إلى الإيمان بوجود الله. لم يكن كل واحد يريد أن يندمج مع البراهمن غير

الشخصي، وفضلوا مقابلة بشرية مع إله باستطاعتهم أن يقيموا علاقة معه.

لقد عُرِّفَتْ البهاكتي «التوق العاطفي إلى الرب من كل قلب المرء»، حب الرب سيأخذ الناس خارج أنانيتهم، وتجعلهم، كاملين، راضين، وخالين من الكراهية، والصلف، والمصلحة الذاتية(24). لذلك كانت بهاكتي طريقة أخرى لإفراغ القلب من النزعة الأنانية والعدوان. الناس الذين لم يستطيعوا قولبة حياتهم وفقاً لمخطط داخلي فكري للبشرية، كان باستطاعتهم أن يحاكوا إلهاً محبته ولا ذاتيته كانتا بسهولة ظاهرتين. وبذلك كريشنا قد لقن أرجونا في بهاجافاد ـ جيتا:

ركز عقلك عَليّ

دع فهمك يدخلني،

بعدئذ أنت سوف تسكن

في دون شك.

إن لا تستطع أن تركز

أفكارك بثبات عليّ

أن تسعى كي تصل إليّ، يا أرجونا،

إلا عن طريق الانضباط في التطبيق(25).

لقد أقرت أديان البهاكتي أن ليس كل شخص لديه نفس القدرات من التركيز، فقد يجد البعض المحاكاة المنضبطة لكريشنا في حيواتهم اليومية أسهل من ساعات طويلة من التأمل.

هذا لم يكن إيماناً مخيفاً، بل بالإمكان تنميته مع الزمن عن طريق أفعال عبادة بسيطة. كان باستطاعة المؤمنين أن يبدؤوا بالاستماع إلى أحاديث عن فيشنو/كريشنا، ومن ثم باستطاعتهم البدء بترديد أسمائه، بينما يفكرون بمآثره العظيمة من حبه للبشرية. باستطاعتهم تقديم نذر بسيط أمام مقامه،

ويتعلموا أن يعتبروه صديقاً، حتى في نهاية المطاف كانوا قادرين دون أي جهد مبالغ به، أن يسلموا أنفسهم كلياً له(26). تسليم النفس كان الفعل المركزي للبهاكتي: لقد كان فعل نكران للنفس الذي حول الشخص إلى bhakta. عند هذه المرحلة، كان العابدون يتوقفون عن مقاومة الرب وتعلموا أن يسلكوا بمحبة تجاه الآخرين، مثلما فعل الرب ذلك. لقد قدمت البهاجافاد ـ جيتا أعلى درجات المديح إلى البهاكتا التي تعلم أن يمارس ما أسماه الكونفوشيوسيون shu: أي «المماثلة مع النفس»

عندما يرى هوية في كل شيء

سواء بهجة أو معاناة،

من خلال المماثلة مع النفس،

فإنه يُعَدّ إنساناً ذا انضباط تام(27).

بهاكتي شجعت المتعبد أن يقر بعجزه وحاجته، وهذا الإحساس بضعفه جعل من الممكن أن يشعر بشعور الآخرين. الروحانية الجديدة كانت متناغمة بكل عمق مع العصر المحوري.

الرب نفسه كان المثال الأعلى للحب. المركزي في عبادة فيشنو كان avatara، أي «التجلي» أو «حلول» الإله في شكل أرضي أو بشري. في أوقات أزمة تاريخية، فيشنو تخلى عن نعيم السماء كي ينقذ العالم(28). لقد قيل أنه قام بعشر ظهورات: كريشنا كان الأكثر أهمية من بين هذه التجليات، لكن فيشنو قد أصبح أيضاً متجلياً كسمكة، كدب، كقزم، وكسلحفاة ـ مخلوقات ربما كانت الرموز لآلهة محلية، مصاغة وفق النظام الفيدي. تطور فكرة التجلي معقد: من المحتمل أنها كانت مستمدة من خليط عبادات مختلفة عديدة، بعضها ربما كان مغرقاً في القدم. لكن في بهاكتي، فقد اكتسبت أهمية محورية. عن طريق جعل الحلول الإلهي في التجلي، فقد كشف فيشنو عن نفسه بكونه الإله المنقذ بامتياز، مما وضع جانباً المظاهر الخارجية للألوهية كي يساعد البشرية المعذبة.

كان فيشنو يمتلك دائماً هذه القدرة. لقد ورد ذكره لماماً في الريغ ـ فيدا، لكن اسمه ـ من المحتمل ـ مشتق من كلمة Vish أي «أن يدخل»(29). فإنه لم يشارك فقط في العالم أو يترأسه، بل كان المحور الذي حمل الأرض على كتفيه دون أن يتعب.

لقد كان أيضاً إلهاً خالقاً، لكن ليس على شاكلة إندرا إنه لم يجلب الاستقرار من العماء عن طريق الخداع والعنف. بدلاً من ذلك أخضع العالم من أجل الآلهة والبشر عن طريق القيام بثلاث خطوات عملاقة حددت اتجاهات الكون كله. «ثلاث خطوات عريضة فوق العوالم الأرضية من أجل الانعتاق، ومن أجل الحياة»(30). كان إلهاً متسامحاً كان صديق البشر، وحامي الطفل غير المولود(31). لقد عرفه البراهميون بقدرة القربان الشافية. في التراث الفيدي كان مرتبطاً بالبوروشا Purusha الشخص البدئي الذي تخلى طوعاً عن حياته ليمكن العالم من أن يأتي إلى الوجود، وبذلك أعلى مبدأ حب إفراغ النفس.

شيفا الإله الآخر للبهاكتي كان مختلفاً جداً(32). مرتبطاً بالإله المخيف رودرا، إله الجبال الغامض الذي توسل الناس إليه كي يبقى بعيداً عن مستوطناتهم وأبقارهم. كان مرعباً بالإضافة إلى كونه كريماً. كان هناك عنف في أساطيره، لكنه كان أيضاً المصدر لسعادة عظيمة. كان شيفالا يعفو إن لم تكن تعبده، لكنه كان ينقذ دائماً المؤمنين به. مع ذلك كان إلهاً غيوراً. في واحدة من أقدم الحكايات، قتل داكشا Daksha أحد أتباع فيشنو، الذي رفض أن يدعو شيفا إلى قربانه، حدثت منافسة شرسة بين الطائفتين. على أية حال، كمحب لـ Parvati أصبح شيفا الرب الساحر للرقص وأيقونة الخلاص: القزم تحت قدم شيفا كان صورة للشيطان الذي هزمه شيفا، يده الممدودة دلالة على النعمة، وقدمه المرفوعة رمزاً للحرية، والأفعى حول رقبته رمز للخلود. شيفا كان خالقاً ومدمراً، ورب منزل إضافة إلى كونه يوغي عظيم. في شخصه ولَّفَ التناقضات الظاهرية للحياة الروحية وأعطى عابديه إلماحات التعالي والوحدة التي مضت خلف المجالات الأرضية.

التمثال كان مهماً جداً في بهاكتي: تمثال شيفا، فيشنو، أوكريشنا، كان تجسيداً لها، ويعتقد أنه يحتوي على حضور إلهي متجلٍ جسدياً وحقيقي(33). الإله قد حَلَّ في تمثاله عند لحظة تقديسه، بحيث أن التمثال أصبح مستقر الإله. في بعض المعابد القديمة، قيل أنه قد «وجد» وقد أرسله إله أو مكان وجوده موحى في حلم. ولذلك كان التمثال بحد ذاته تجلياً، مظهراً حب الإله المضحي بنفسه. وبعض النصوص تحدثت عن معاناة الإله عندما كان يضغط نفسه في داخل الصورة التي صنعها الإنسان بدافع الرحمة من أجل البشرية. وعندما أصبح مركز التأمل، كان التمثال أيقونة لنزعة الإيثار. كان البوذيون وJains متأثرين أيضاً بهذا الإيمان الهندوسي، في القرن الأول الميلادي، كما لم يحدث من قبل ـ بدأوا بخلق تماثيل لبوذا وللقادة الروحيين الأربع والعشرين الذين يسمونهم Ford - makers الذين سبقوا ماهافيرا في رسم الطريق إلى الاستنارة. هذه الصور ظهرت أولاً في قندهار في شمال غرب الهند وماثورا Mathura على نهر يامونا Yamuna.

لقد شجب البوذا دائماً عبادة الشخصية، وكان دون كلل يحرف اهتمام تلاميذه عن نفسه إلى الرسالة والطريقة التي علَّمها. الولاء لكائن بشري قد يكون «قيداً» كان يشجع عادات الاستقلالية غير المستنيرة، والارتباط. في القرون التي تلت وفاته، شعر البوذيون أن من غير اللائق أن يعظموا تمثالاً لبوذا لأنه قد مضى في نعيم النيبانا. لكن أيقونات بوذا أصبحت شديدة الأهمية عندما كانوا ينظرون إلى وداعة وإشراقة وجهه، كان الناس يصبحون مدركين لما باستطاعة الكائن البشري أن يصير. لقد كانت صورة البشرية مستنيرة، مغموراً جداً بالنيبانا التي لا سبيل إلى فهمها، لدرجة أنه كان متماهياً معها. في معنى مهم، هو كان النيبانا، وعبّر عن الحقيقة المتعالية في شكل بشري.

في هذه الفترة انقسمت البوذية إلى مدرستين منفصلتين، وكلاهما اعتبرتا نسختين موثوقتين للدين. وتاريخياً هناك ما يشبه عداوة أو تنافساً بين الاثنتين. المدرسة الأكثر صرامة ومدرسية كانت Theravada التي انسحبت من العالم

وسعت إلى الاستنارة في العزلة. بينما كانت المهايانا أكثر ديمقراطية. وأكدت على فضيلة الرحمة. لقد استنتجتا أن البوذا قد عاد إلى مكان السوق بعد استنارته وعمل طوال أربعين سنة كي يبين للناس كيف يتعاملون مع الألم الموجود في الحياة. في القرن الأول الميلادي أدى هذا إلى ظهور بطل بوذي جديد: البودهيستافا ـ شخص كان على وشك أن يبلغ الاستنارة. بدلاً من أن يختفي في نعيم النيبانا، كان البودهيستافيون يضحكون بسعادتهم من أجل الناس، وعادوا إلى عالم السامسارا كي يعلموا أناساً آخرين أن يجدوا الانعتاق. إنهم كانوا مثل الآلهة المنقذة، البهاكتي التي هبطت من السماء لتساعد البشرية المعذبة. وكما يشرح نص يعود إلى القرن الأول، البودهيسافيون لم يكونوا مهتمين في بلوغ النيبانا الخاصة بهم:

> ***على العكس من ذلك، لقد تحروا عالم الوجود المؤلم جداً، ومع ذلك راغبين بالفوز بالاستنارة الأسمى، إنهم لم يرتجفوا عند الولادة والموت. لقد انطلقوا من أجل فائدة العالم، ولراحة العالم، مدفوعين بالشفقة على العالم. لقد قرروا: «أننا سوف نصبح ملجأ للعالم، مكان العالم المريح، الخلاص النهائي للعالم، جزر العالم، أنوار العالم، ومرشدي وسائل الخلاص للعالم»(34).***

كانت البودهيستافا نموذج رحمة جديد، نموذجاً ترجم المثل الأعلى القديم للعصر المحوري في شكل جديد.

* * *

العصر المحوري اليهودي كان قد اختُصِرَ، وخُنِقَ، ربما قبل أوانه على يد صعوبات الشتات وإعادة الاستيطان، لكنه دُفع إلى الإنجاز بفترات إزهار رائعة من الدرجتين الثالثة والثانية. خلال القرن الأول الميلادي عندما كانت الإمبراطورية الرومانية تحتل الأرض المقدسة، كانت البلاد في حالة اضطراب. جماعة يهودية سياسية متحمسة عارضت بشراسة الحكم الروماني، وفي عام 66

نظمت تمرداً استطاع أن يبقي الجيوش الرومانية في أماكنها طوال أربع سنوات. خشيت السلطات الرومانية من أن يمتد هذا التمرد إلى يهود الشتات، فقامت بسحقه دون رحمة. في عام 70 ميلادية هزم الإمبراطور فيسبسيان أورشليم وحرق الهيكل حتى الأرض. هذا التدمير الثاني كان صدمة مريرة، لكن كان له تبعاته. إذ يبدو أن يهود فلسطين الذين كانوا ميالين إلى أن يكونوا محافظين أكثر من يهود الشتات، كانا قد أعدوا أنفسهم مسبقاً للكارثة. طائفتا Essens، وطائفة قمران كانتا قد انسحبتا من التيار الرئيسي في المجتمع، لاعتقادهما أن هيكل أورشليم كان فاسداً، وجماعتهم المتطهرة ستكون هيكلاً جديداً للنفس. لقد تشربوا تقوى أبوكالبتية نشأت بعد العصر المحوري، ومثل الزرادشتيين ـ كانوا يتطلعون إلى المستقبل، إلى معركة ضخمة في نهاية الزمن بين أبناء النور وبين أبناء الظلام، ولذلك استبطنوا عنف زمنهم وأعطوه تصديقاً مقدساً.

لكن اليهود الأكثر ازدهاراً في فلسطين كانوا الفريسيين الذين طوروا بعض روحانيات جامعة ومتطورة من العصر المحوري اليهودي. لقد اعتقدوا أن كل إسرائيل كانت مطالبة أن تكون أمة كهنة مقدسة، وأن بالإمكان أن يشعروا بالرب في أفقر بيت مما كان في الهيكل أيضاً. لقد كان حاضراً في أصغر تفاصيل الحياة اليومية وباستطاعة اليهود التوجه إليه دون طقس معقد. وباستطاعتهم أن يكفروا عن ذنوبهم من خلال أفعال الطيبة ـ المحبة بدلاً من تقديم قربان حيواني. المحبة كانت الوصية الأكثر أهمية في الشريعة. ربما أعظم الفريسيين كان الحبر هليل (80ق.م ـ 30م) الذي هاجر إلى فلسطين من بابل. في رأيه، جوهر التوراة لم يكن رسالة الشريعة بل روحها التي لخصها في القاعدة الذهبية. في قصة تلمودية شهيرة، قيل أن وثنياً جاء إلى هليل ذات يوم، ووعده أن يعتنق اليهودية إذا تمكن الحبر أن يعلمه التوراة كلها وهو واقف على ساق وحادة. فأجابه بكل بساطة: «ما تكرهه لنفسك لا تفعله لأخيك الإنسان. هذا هو التوراة كله، وما تبقى ليس إلا شرح اذهب وتعلمه»(35).

لم يرد الفريسيون المشاركة في العنف الذي كان ينفجر مدمراً ما حولهم. عند حدوث التمرد ضد روما كان قائدهم الحبر يونان بن زكاي Zakkai أعظم تلميذ لدى هليل. لقد أدرك أن من غير الممكن أن يهزم اليهود الإمبراطورية الرومانية، وكان يناقش ضد الحرب، لكن الحفاظ على الدين كان أكثر أهمية من الاستقلال القومي. عندما رفت نصيحته تسلل هارباً من أورشليم مختبئاً في تابوت لكي يستطيع المرور من المتحمسين اليهود الذين كانوا يحرسون بوابات المدينة. بعد ذلك شق طريقه إلى المعسكر الروماني وطلب من فيسبسيان أن يسمح له أن يعيش مع تلاميذه في Javne على الساحر الجنوبي من فلسطين. بعد تدمير الهيكل أصحبت Javne العاصمة الجديدة للدين اليهودي. في يهودية الأحبار، كان العصر المحوري قد بلغ سن الرشد.

القاعدة الذهبية، والرحمة، وطيبة محبة كانت مركزية لهذه اليهودية الجديدة، وفي الفترة التي كان فيها الهيكل قد دمر كان بعض الفريسيين قد فهموا أنهم لم يكونوا بحاجة إلى هيكل ليتعبدوا الرب، كما توضح هذه القصة التلمودية:

> ***حدث أن الحبر يونان بن زاكاي خرج من أورشليم، والحبر يشوع تبعه ورأى الآثار المحترقة للهيكل، وقال: «يا للويل هل ذاك هو المكان حيث ذنوب إسرائيل تجد الغفران قد غدا أنقاضاً». ثم قال الحبر يونان «لا تحزن لدينا كفارة مساوية للهيكل، القيام بأعمال المحبة - كما يقال: «إنني أرغب بالمحبة وليس بالقربان»(36).***

الطيبة كانت المفتاح إلى المستقبل، يجب على اليهود الابتعاد عن العنف والانقسام طيلة سنوات الحرب، وأن يشكلوا مجتمعاً متحداً «بجسد واحد، وروح واحدة»(37). وعندما يتكامل المجتمع في المحبة والاحترام المتبادل، فإن الرب كان معهم، لكن عندما كانوا يتنازعون فيما بينهم، فإن الرب كان يعود إلى السماء حيث كانت الملائكة تردد بصوت واحد، وإيقاع واحد»(38) عندما كان يهوديان أو ثلاثة يجلسون ويتدارسون سوياً بانسجام، فإن الحضور الإلهي كان في وسطهم(39).

الحبر أكيبا Akiba الذي قتله الرومان في عام 132م. نادى أن الوصية: «أن تحب جارك مثلما تحب نفسك» كانت هي المبدأ العظيم في التوراة(40). وإظهار عدم الاحترام لأي كائن بشري، الذي قد خلقه الرب على صورته، عده الأحبار إنكاراً للرب ذاته، وبحكم الإلحاد. كما أن القتل كان محرماً «فالكتاب المقدس يعلمنا أن من يسفك دماً بشرياً، فإنه يهين الصورة الإلهية»(41). فعند بداية الزمن، خلق الرب رجلاً واحداً فقط، وإنقاذ حياة يعد إنقاذاً للبشرية كلها(42). وأن تذل أي امرئ حتى ولو كان عبداً أو غير يهودي كان مساوياً لجريمة قتل، وانتهاكاً فاضحاً وتشويهاً لصورة الرب(43). ونشر قصة كاذبة فضائحية عن شخص آخر كان يعد إنكاراً لوجود الرب(44). لم يكن الدين منفصلاً عن ممارسة عادة الاحترام تجاه جميع البشر. لم يكن باستطاعتك أن تعبد الرب إلا إذا مارست القاعدة الذهبية، وكرمت أخوتك البشر، أياً كانوا.

في يهودية الأحبار، كانت الدراسة مهمة مثل تأمل التراثات الأخرى. لقد كانت بحثاً روحياً: الكلمة التي تعني يدرس هي darash أي «يبحث» أو «الذهاب سعياً وراء». إنها كانت تفضي ليس إلى فهم فكري لأفكار شخص آخر، بل إلى بصيرة جديدة. لذلك المدراش الحبري، تفسير الكتاب المقدس، قد يمضي إلى ما هو أبعد من النص الأصلي، وتكتشف ما يقله النص، وتجد تفسيراً جديداً تماماً، كما شرح نص حبري: «المسائل التي تتكشف لموسى قد تكشفت للحبر أكيبا وجيله»(45). كانت الدراسة غير منفصلة أيضاً عن العمل. عندما شرح الحبر هليل القاعدة الذهبية إلى الوثني المشكك، قال له «اذهبْ وادرسها». حقيقة القاعدة الذهبية سوف تتكشف فقط عندما تضعها في الممارسة في حياتك اليومية.

كانت الدراسة مواجهة ديناميكية مع الرب. ذات يوم جاء شخص إلى الحبر أكيبا وأخبره أن ابن عزاي كان جالساً يشرح الكتاب المقدس والنار تتوهج حوله. فمضي الحبر أكيباكي يحقق في الأمر. هل كان بن عزاي - ربما - يناقش رؤيا حزقيال للعربة التي ألهمت ذوي الميول الصوفية كي يقوموا بصعودهم إلى السماء؟ فأجابه بن عزاي كلا:

أنا كنت أربط كلمات التوراة كل كلمة بكلمة أخرى، وبعدئذ مع كلمات الأنبياء، وكلمات الأنبياء بكلمات الكتابات، فابتهجت الكلمات، وكأنها كانت عندما نزلت على جبل سيناء، وكانت الكلمات عذبة جداً مثلما كانت عندما نُطِقَتْ في المرة الأولى(46).

لم يكن الكتاب المقدس كتاباً مغلقاً، والوحي لم يكن حدثاً تاريخياً حدث في زمن بعيد. إنه كان يتجدد في كل مرة كان يواجه فيه يهودي النص، فتح نفسه إليه، وطبقه على ظرفه الخاص به. هذه النظرة الديناميكية استطاعت أن تجعل العالم متوهجاً.

لذلك لم يكن هناك معتقدات متشددة. ما من أحد ـ ولا حتى صوت الرب نفسه ـ كان يستطيع أن يخبر يهودياً ماذا يفكر. في قصة مهمة كان الحبر اليعيزر بن هيركانوس منخرطاً في نقاش صعب مع زملائه حول نقطة في الشريعة اليهودية. لم يستطع إقناعهم بوجهة نظره، لذلك طلب من الرب أن يساعده من خلال القيام ببعض معجزات مشهودة. فتحركت شجرة خرنوب نحو مائة ذراع من تلقاء نفسها. والماء في قناة تدفق إلى الخلف، وجدران منزل الدراسة اهتزت بقوة لدرجة أن البناء بدا وكأنه على وشك أن ينهار. لكن زملاء الحبر اليعيزر لم يقتنعوا. وأخيراً في حالة يأس طالب «بهاتف من السماء» أن يأتي لمساعدته. وبشكل ملزم أعلن الصوت الإلهي: «ما هي مشكلتكم مع الحبر اليعيزر؟ القرار الشرعي هو دائماً وفقاً لوجهة نظره». لكن الحبر يشوع وقف على قدميه وأورد شاهداً من سفر التثنية «الأمر ليس في السماء». تعاليم الرب لم تعد حكراً على العالم الإلهي. لقد أعلنت على جبل سيناء، وبذلك كانت ملكاً لا يستلب من كل فرد يهودي. إنها لم تعد ملكاً للرب «لذلك نحن لا نعير اهتماماً بهاتف السماء»(47).

لقد تبنى الأحبار المبدأ المحوري تماماً بأن الحقيقة المطلقة كانت متعالية ولا يمكن وصفها. ما من أحد يستطيع أن يمتلك الكلمة الأخيرة في موضوع الرب.

لقد مُنع اليهود من لفظ اسم الرب، كمذكر قوي أن أية محاولة للتعبير عن الإلهي كانت قاصرة جداً وتُعَدُّ تجديفاً بالكامل، لقد حذر الأحبار حتى الإسرائيليين ألا يمجدوا الرب أكثر من اللازم في صلواتهم، لأن كلماتهم قد تكون فقط غير كافية. عندما تحدثوا عن حضور الرب على الأرض، كانوا حريصين أن يميزوا بين صفات الرب التي سمحت لنا أن نرى بعضاً من السر الإلهي الذي سيكون دائماً ليس بإمكاننا بلوغه.

كانوا يحبون استخدام عبارات مثل «المجد Kavod للرب، والشيكنه Shekhinah أي الحضور الإلهي، والروح القدس بدلاً من «الرب، tout court »، كمذكر ثابت بالربوبية. ما من لاهوت بالإمكان أن يكن تحديدياً. كثيراً ما قال الأحبار أن على جبل سيناء كل من الإسرائيليين قد شعر بحضور الرب بشكل مختلف، فالرب، وكأنه قد كَيَّفَ ذاته وفقاً لكل شخص «وفقاً لمعرفة كل منهم»(48). وما نسميه «الرب» لم يكن هو نفسه بالنسبة لكل شخص. كل من الأنبياء قد شعر «برب» مختلف لأنه شخصيته قد أثرت على تصوره للإله. هذا التحفظ العميق سوف يكون سمة مميزة للاهوت والتصوف اليهوديين.

بدأت المسيحية كحركة أخرى من حركات القرن الأول، التي حاولت أن تجد طريقة جديدة لأن تكون يهودية. لقد ركزت على الحياة والموت لعراف مؤمن من الجيل صلبه الرومان في نحو عام 30م. وقال أتباعه أنه قد قام من عالم الموتى. لقد اعتقدوا أن يسوع الناصري كان المسيا اليهودي المنتظر منذ أمد طويل، الذي سوف يعود قريباً في مجده كي يدشن ملكوت الرب على الأرض. لقد كان مصطلح «ابن الرب» مصطلح مستخدماً بالمعنى اليهودي لشخص ما كان مكلفاً بمهمة خاصة من قبل الرب، وحظي بمودة خاصة معه. اللاهوت الملكي القديم قد رأى ملك إسرائيل على أنه ابن وخادم يهوه، العبد المعذب في أشعيا الثاني الذي كان يرتبط بيسوع، قد عانى الذل نيابة عن أخوته البشر، ورفعه الرب إلى مكانة عالية استثنائية(49). لم يكن لدى يسوع نية تأسيس دين جديد، وكان يهودياً بعمق. الكثير من أقواله المدونة في الإنجيل ـ كانت مماثلة

لتعاليم الفريسيين. مثل هيليل ـ لقد عَلَّم يسوع نسخة عن القاعدة الذهبية(50). ومثل الأحبار، اعتقد أن وصايا محبة الرب بكل قلبك ونفسك، ومحبة جارك كما تحب نفسك كانت أعظم وصايا التوراة(51).

الشخص الذي جعل المسيحية ديناً غير يهودي كان بولص، أول كاتب مسيحي اعتقد أن يسوع كان أيضاً المسيا، الممسوح بالزيت (في اللغة اليونانية خريستو Christo). كان بولص يهودياً في الشتات في ترسوس Tarsus في كيليكيا، فريسي سابق كتب باليونانية القونية Koine. أقام جسراً بين كلا العالمين، كان مقتنعاً أنه كان لديه رسالة إلى الغوييم ـ أي غير اليهود، الأمم الأجنبية: يسوع كان مسيا للأغيار واليهود أيضاً. كانت لدى بولص النظرة الكونية ـ التي لا يمكن قياسها ـ لعصر المحور. الرب كان يشعر «بالاهتمام تجاه كل واحد. كان مقتنعاً أن موت يسوع وقيامته قد خلقتنا إسرائيل جديداً، منفتحاً على البشرية كلها.

كاتباً إلى أتباعه في فيليبي في ماسيدونيا خلال منتصف الخمسينات، بعد نحو خمس وعشرين سنة على وفاة يسوع، اقتبس بولص ترنيمة مسيحية مبكرة تبين أن المسيحيين قد فهموا رسالة يسوع أنها إنكار للنفس(52). بدأت الترنيمة بإيضاح أن يسوع ـ مثل جميع الكائنات البشرية ـ كان على صورة الرب، ومع ذلك لم يتشبث بهذه المكانة العالية:

لكنه أفرغ نفسه [heauton ekenosen]

لكي يتخذ حالة عَبْد...

وكان أكثر تواضعاً حتى، حتى لقبول الموت، الموت على صليب.

لكن بسبب هذا «الهبوط» المذل، رفعه الرب عالياً وأعطاه اللقب الأسمى «lord» رب إلى مجد الرب الآب. هذه النظرة لم تكن غير مشابهة للمثل الأعلى في البود هيستافا الذي بملئ إرادته وضع جانباً نعمة النيبانا من أجل البشرية المعذبة. والمسيحيون سوف يتوصلون إلى رؤية يسوع كتجسيد للرب، الذي قام بنزول مؤلم بدافع الحب كي ينقذ الجنس البشري. لكن بولص لم يورد الترنيمة كي

يشرح عقيدة التقمص. وكونه فريسياً سابقاً، كان يعرف أن الحقيقة الدينية كان يجب أن تترجم إلى عمل. ولذلك أدخل الترنيمة مع هذا التوجيه إلى مسيحي فيليبي:

«في عقولكم، يجب أن تكونوا مثل يسوع المسيح تماماً». أي يجب عليهم أن يفرغوا قلوبهم من أناهم، ومن أنانيتهم، ومن الصلف. يجب أن يكونوا موحدين في محبة، «حول هدف مشترك، وبعقل مشترك»(53).

يجب ألا يكون هناك تنافس بينكم، لا غش، بل كل واحد يواجه نفسه.

دائماً انظروا إلى الشخص الآخر أنه أفضل منكم، بحيث لا يفكر أي واحد بمصالحه الخاصة أولاً، بل يفكر كل واحد بمصالح الناس الآخرين بدلاً من مصلحته(54).

إذا ما قدروا الآخرين بهذه الطريقة الخالية من الأنانية، فإنهم سيفهمون أسطورة إفراغ النفس من الأنا عند يسوع.

كان يسوع الأنموذج المثالي لدى المسيحيين. من خلال محاكاته، فإنهم سينعمون بحياة سامية «كأبناء الرب». في طقوس الكنيسة الجديدة كانوا يقومون بنزول رمزي مع المسيح في القبر عندما كانوا يُعمَّدون، ويتماهون مع موته، والآن عاشوا حياة مختلفة نوعاً(55)، سيتركون ذواتهم الدنيوية خلفهم ويشاركون في البشرية المتسامية (Kyrios)(56) لقد قال بولص شخصياً، أنه قد تجاوز نفسه الفردية المحدودة: «أنا الآن أعيش ليس مع حياتي الخاصة بي، بل مع حياة المسيح الذي يعيش فيَّ»(75). لقد كان الديني البدئي النمطي في شكل محوري جديد، تهيمن عليه فضيلة الحب. المسيحيون اللاحقون سيضعون مخزوناً عظيماً عن طريق التشدد، وقبول «التعاليم الصحيحة». وسوف يساوون في نهاية المطاف الإيمان مع الاعتقاد. لكن بولص لكان وجد أن من الصعب عليه أن يفهم هذا. بالنسبة لبولص، الدين كان حول إنكار النفس والحب. في عيني بولص الإثنان كانا لا ينفصمان. فقد يكون لديك إيمان باستطاعته أن يزيح جبالاً،

لكنه كان لا قيمة له دون حب، والذي كان يتطلب التعالي المستمر عن نزعة الأنانية.

المحبة دائماً صبورة وطيبة، إنها ليست غيورة، المحبة ليست أبداً مزهوة أو متباهية. إنها ليست وقحة أو أنانية. إنها لا ترتكب خطأ، وليست حاقدة. المحبة لا تُسَّرُ في ذنوب الآخرين بل تفرحها الحقيقة. إنها دائماً مستعدة لأن تعذر، أن تثق، أن تأمل، وأن تتحمل أي شيء يأتي مهما كان(58).

الحب لم يكن انفجاراً بأهمية النفس، أو التشبث بفكرة سطحية عن النفس، بل كانت النفس فارغة، غافلة عن نفسها، ومحترمة الآخرين دون حدود.

الأناجيل المكتوبة بين عام 70م وحوالي 100م. تتبع مسار بولص. إنها لم تقدم يسوع وهو يعلم عقائد، مثل الثالوث، أو الخطيئة الأصلية التي ستصبح لاحقاً بحكم عرف الكياسة. بدلاً من ذلك صورته الأناجيل ممارساً ما أسماه موزي Jianai أي «الاهتمام بكل شخص». ولجزع بعض معاصريه كان يسوع يتعاطف دائماً مع «الخطاة» ـ العاهرات، المجذومين، والمصروعين، وأولئك المنبوذين الذين كانوا يجمعون الضرائب الرومانية. غالباً ما يستحضر سلوكه مدى «الأشياء التي لا يمكن قياسها» البوذية، لأنه بدا أنه لم يكن يستثني أحداً من مجال اهتمامه. لقد أكد أن أتباعه يجب ألا يحكموا على الآخرين(59). والناس الذين سيتم قبولهم في الملكوت سيكونون أولئك الذين مارسوا رحمة عملية، يُطعمون الجائعين، ويزورون المرضى، أو من في السجن(60). يجب على أتباعه أن يعطوا ثروتهم إلى الفقراء(61). ويجب ألا يذيعوا أعمالهم الخيرة، بل أن يعيشوا حياة مواجهة مع النفس، لطيفة(62).

يبدو أن يسوع كان أيضاً رجل اللاعنف. لقد سمعتم كيف قيل «العين بالعين، والسن بالسن» كما قال في الموعظة على الجبل «لكنني أقول هذا إليكم: لا تقدموا للشرير مقاومة»(63)، على العكس، إن يضربكم امرؤ على الخد الأيمن، أديروا الخد الأيسر أيضاً. وعندما ألقي القبض عليه لم يسمح

لأتباعه أن يقاتلوا نيابة عنه: «كل من يجرد السيف، سوف يموت بالسيف»(64). ومات غافراً لقاتليه. واحد من أكثر تعاليمه إذهالاً ـ كما يخبرنا العلماء الأكثر مصداقية ـ كيف أن توجيهاته منعت كل حقد:

> *لقد سمعتم كيف قيل: يجب أن تحب جارك، وأن تكره عدوك: لكني أقول هذا لكم. أحبوا أعداءكم، وصلوا لمن يضطهدونكم، في هذه الطريقة ستكونون أبناء أباكم في السماء، لأنه يجعل شمسه تشرق على الأشرار مثلما تشرق على الأخيار، ومطره يهطل على الشرفاء على السواء. لأنكم إن تحبوا الذين يحبونكم فاي فضل في ذلك لكم؟ حتى جامعو الضرائب والوثنيون يفعلون كثيراً، الا يفعلون ذلك؟ وإن تقصروا سلامكم على إخوتكم فهل تقومون بأي شيء استثنائي؟ يجب أن تكونوا كاملين مثل أبيكم السماوي كامل(66).*

مفارقة «أحبوا أعداءكم» من المحتمل أنها كانت موضوعة كي تصدم مستمعيه بهذه البصيرة الجديدة، إنها كانت تتطلب إنكاراً للنفس، لأنه كان عليك أن تقدم التسامح حيث لن يكون هناك أمل بمقابل.

حدث الإزهار الأخير للعصر المحوري في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع، عندما جلب النبي محمد القرآن، كتاب موحى إلهياً، إلى سكان الحجاز. محمد ـ طبعاً ـ لم يكن قد سمع أبداً بعصر المحور، لكن من المحتمل أنه قد فهم الفكرة. لم يزعم القرآن أنه كان وحياً جديداً، بل ببساطة كان يعيد الرسالة التي أعطيت إلى آدم أبو البشرية، والذي كان أيضاً النبي الأول. لقد أكد أن محمداً لم يأت كي يحل محل أنبياء الماضي بل كي يعيد الدين الأول ـ دين إبراهيم الذي عاش قبل التوراة والإنجيل قبل أن تتقسم أديان الله إلى طوائف متحاربة(67). الله قد أرسل رسله إلى كل شعب على وجه الأرض، وفي أيامنا هذه، يقول الفقهاء المسلمون أنه لو عرف العرب عن بوذا أو كونفوشيوس، لكان القرآن قد صادق على تعاليمهما أيضاً. رسالة القرآن الأساسية لم تكن

عقيدة. في حقيقة الأمر كان شكاكاً حيال التفكير اللاهوتي الذي أسماه زنا «استغراق في عمل ظني»، بل كان آمراً بالرحمة العملية. فجمع ثروة خاصة بطريقة أنانية على حساب الآخرين كان أمراً خاطئاً، ومن الخير أن تقسم ثروتك بالعدل وتخلق مجتمعاً عادلاً ولائقاً، فيه الفقراء والمستضعفون يعاملون باحترام.

محمد ـ مثل جميع الحكماء المحوريين العظام ـ عاش في مجتمع عنيف عندما كانت القيم القديمة تتهاوى. كانت الجزيرة العربية عالقة في دورة حروب قبلية شديدة، فيها الثأر كان يفضي إلى ثأر آخر حتماً. كما كانت هذه الفترة أيضاً فترة ازدهار اقتصادي ومادي. الأرض القاحلة والمناخ القاسي لشبه الجزيرة العربية قد عزل العرب. لكن في أواخر القرن السادس كانت مكة قد أنشأت اقتصاد سوق مزدهر، وتجار مكة كانوا يأخذون قوافلهم إلى المناطق الأكثر تطوراً مثل فارس، وسوريا، وبيزنطة. ومحمد ـ شخصياً ـ كان تجراً ناجحاً، وقدم رسالته إلى المكيين في جو من رأسمالية خانقة ومال وفير. كان المكيون ـ في هذه الفترة ـ أغنياء أكثر مما تخيلوه في أحلامهم. لكن في سعيهم إلى الثروة، القيم القبلية القديمة التي كانت تطالب المجتمع أن يهتم بأفراد العشيرة الأكثر ضعفاً، كانت قد نُسيت. كان هناك قلق واسع الانتشار، والدين الوثني القديم الذي خدم العرب جيداً في أيام بداوتهم في الصحراء، لم يعد يلبي ظروفهم التي تغيرت.

عندما تلقى محمد أول وحي في نحو نهاية عام 610م. كان الكثير من العرب قد أصبح مقتنعاً أن الله ـ الله العلي في مجمع آلهتهم، كان مماثلاً لإله اليهود والمسيحيين. كان المسيحيون العرب يؤدون الحج إلى الكعبة التي تعتبر مقام الله في مكة، مثلما كان يفعل الوثنيون. أحد أول الأشياء التي طلب محمد من أتباعه أن يفعلوها هو أن يصلوا متجهين إلى أورشليم، مدينة اليهود والمسيحيين، الذين كانوا يعبدون ربهم. لم يكن المسيحيون ولا اليهود مطالبين بالانضمام إلى الدين العربي الجديد إلا إذا رغبوا بذلك، لأنهم قد تلقى كلاً منهما الوحي الخاص به.

وفي القرآن طلب الله من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقالوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون}. (68)

وبقيت هذه السياسة هي سياسة الإمبراطورية الإسلامية بعد وفاة محمد. فحتى منتصف القرن الثامن الميلادي لم يكن اعتناق الإسلام يلقى تشجيعاً. كان يعتقد أن الإسلام كان دين العرب، أحفاد إسماعيل بن إبراهيم، مثلما كانت اليهودية دين أبناء اسحاق ويعقوب، والمسيحية كانت لأتباع الإنجيل. في يومنا هذا يشوه بعض المسلمين سمعة اليهودية والمسيحية، ويتحدث بعض المتطرفين عن الواجب الإسلامي يفتح العالم كله لصالح الإسلام. لكن هذه بدع تتنكر لقرون من تراث مقدس.

في نهاية المطاف دين محمد سوف يسمى الإسلام من «التسليم» المسلمون هم رجال ونساء قاموا بتسليم وجودهم إلى الله، وهذا يأخذنا مباشرة إلى قلب العصر المحوري. عندما طلب محمد أن يقفوا للصلاة عدة مرات في اليوم، كان هذا صعباً على العرب الذين لم يتقبلوا النظام الملكي، ووجدوا من المهين أن يسجدوا إلى الأرض مثل عبيد. لكن وضعية أجسادهم كانت مصممة كي تعلمهم في مستوى أكثر عمقاً في المستوى العقلاني ما كان يطالب به الإسلام: تسامي الأنا، التي تتبختر، وتتأنق، وتتضب، وباستمرار تجذب الانتباه إلى نفسها.

كان المسلمون مطالبين أيضاً أن يعطوا قسماً محدداً من دخلهم إلى الفقراء. هذه الزكاة «تطهير» تطهر قلوبهم من الأنانية المعتادة. في البداية - كما يبدو - أن دين محمد كان يسمى «تزكية»، كلمة غامضة مرتبطة بالزكاة يصعب ترجمتها: «تشذيب» «كرم» و«فروسية» لقد اقترحت هذه الكلمات كمعادلات إنجليزية لها، لكن ولا واحدة منها كافية تماماً بكلمة تزكى. كان المسلمون مطالبين أن يلبسوا أنفسهم فضائل الرحمة والكرم. يجب عليهم أن يستخدموا عقولهم كي ينمو روحاً مسؤولة ومهتمة، جعلتهم يريدون أن يعطوا بسخاء مما

كان لديهم إلى جميع مخلوقات الله. عليهم الالتزام الدقيق بالسلوك الكريم لله تجاه جميع الكائنات البشرية من خلال ملاحظة آيات الطبيعة:

{والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان} (69)

من خلال التفكير في أسرار الخلق، يجب أن يتعلم المسلمون أن يتصرفوا بكرم مماثل. وبلطف من الله كان هناك استقرار وإثمار بدلاً من العماء والعقم. فإذا ما اتبع المسلمون نموذجه، فإنهم سوف يجدون أن حياتهم قد تغيرت، وبدلاً من أن يتصفوا بالبربرية والأنانية سوف يكتسبون تشذيباً روحياً.

آثار الدين الجديد حفيظة المؤسسة المكية التي لم توافق على روح المساواة فيه، فالعائلات الأغنى اضطهدت المسلمين، وحاولت اغتيال النبي، وأخيراً أجبر محمد وسبعون أسرة مسلمة على الهروب إلى المدينة التي تبعد نحو 250 ميلاً إلى الشمال من مكة. في سياق شبه الجزيرة الوثنية حيث رابطة الدم كانت القيمة الأكثر قداسة، تصاعدت حتى بلغت حد التجديف. أمر لم يسمح به أن أحداً ترك أقاربه ليقيم بشكل دائم مع قبيلة لا ينتمي إليها برابطة. بعد هجرتهم، واجه المسلمون حرباً محتملة مع مكة. المدينة الأكثر نفوذاً في شبه الجزيرة العربية، طوال خمس سنوات، خاضوا معركة يائسة من أجل البقاء. في الجزيرة ما قبل الإسلام كان المحاربون دون رحمة. فلو أنهم تمكنوا من هزيمة الجماعة المسلمة، لكان المكيون - بكل تأكيد - قتلوا كل رجل، واستعبدوا كل امرأة وطفل.

خلال هذا العصر المظلم، بعض الآيات القرآنية علمت المسلمين كيف يسلكوا على أرض المعركة. لم يكن الإسلام دين اللاعنف، لكن القرآن سمح فقط بالحرب الدفاعية لقد أدان الحرب على أنها «شر رهيب» ومنع المسلمين من إثارة العداوات(70). العدوان كان ممنوعاً تماماً، ويجب ألا يكون هناك ضربات استباقية، لكن أحياناً كان ضرورياً - ويا للأسف - أن تدافع عن نفسك إذا ما تعرضت لهجوم، وأثناء استمرار الحرب يجب أن يقاتل المسلمون من كل قلوبهم، ويلاحقوا العدو بقوة كي يعيدوا الأمور إلى حالتها العادية. لكن إذا ما أراد العدو

السلم، يجب أن تتوقف العداوات، ويجب على المسلمين قبول أية شروط تعرض(72). لم تكن الحرب الطريقة الأفضل للتعامل مع نزاع. كان من الأفضل الجلوس واستخدام العقل مع العدو، طالما كانت النقاشات جارية. «بالطريقة الأكثر لطفاً». كان أفضل كثيراً أن يسامح المرء، وأن تكون صبوراً {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولأنك في ضيق مما يمكرون} (73).

كلمة الجهاد لم تكن تعني «حرباً مقدسة». معناها الأساسي كان «الكفاح». لقد كان صعباً وضع مشيئة الله في حيز الممارسة في عالم قاسٍ خطر، وكان المسلمون مأمورين أن يبذلوا جهداً على جميع الجبهات: اجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً وروحياً. فأحياناً قد يكون من الضروري خوض القتال، لكن تراثاً مهماً ومؤثراً جداً يضع الحرب في مرتبة ثانوية. يقال أن عقب العودة من إحدى المعارك أن محمداً قال لأتباعه: إننا نغادر الجهاد الأصغر (الحرب) ونعود إلى الجهاد الأكبر، التحدي العاجل والملح لإصلاح مجتمعاتنا وقلوبنا. وفي مرحلة لاحقة فصَّل الشرع الإسلامي في هذه الأوامر القرآنية، لقد منع المسلمون أن يقاتلوا إلا دفاعاً عن النفس، والانتقام يجب أن يكون متناسباً بدقة، ولم يكن مسموحاً شن حرب على بلد المسلمون فيه كانوا قادرين أن يمارسوا دينهم بحرية. قتل المدنيين يجب أن يتم تجنبه، ولا أن تقطع شجرة، ولا أن تحرق الأبنية.

أثناء الحرب التي دامت خمس سنوات مع مكة، ارتكبت مجازر من كلا الطرفين، كما كانت العادة في حمام الدم في شبه الجزيرة قبل الإسلام، كانت تقطع الجثث، وبعد أن حاولت إحدى القبائل اليهودية في المدينة أن تغتال النبي وتآمرت مع مكة لفتح بوابات المستوطنة أثناء الحصار، قُتِلَ رجال القبيلة. لكن حالما تحول الميزان إلى صالحه، أوقف محمد حلقة التدمير والضربات المضادة، واتبع سياسة جريئة مذهلة اتسمت باللاعنف.

في عام 628م، أعلن محمد أنه سيقوم برحلة الحج ودعا المتطوعين المسلمين إلى مرافقته، وهذا أمر شديد الخطورة. أثناء الحج لم يكن باستطاعة الحجاج

العرب حمل السلاح، وكل عنف كان ممنوعاً في المنطقة الحرام المكية. وحتى كان ممنوعاً تكلم كلمة نابية أو قتل حشرة. في الذهاب دون سلاح إلى مكة كان محمد يدخل إلى عرين الأسد. مع ذلك اختار ألف مسلم أن يرافقوه. أرسل المكيون فرسانهم لقتل الحجاج، لكن بدواً دلوهم للدخول إلى المنطقة الحرام من طريق ثانية. فبعد دخولهم المنطقة المقدسة طلب محمد من المسلمين الجلوس في استعراض سلمي، عارفاً أنه كان يضع المكيين في موقف صعب. فإذا ما آذوا الحجاج في أقدس مكان في الجزيرة، فإنهم ينتهكون قدسية الكعبة، وبالتالي فإن قضيتهم سوف يلحقها ضرر لا يعوض. أخيراً أرسل المكيون مندوباً كي يفاوض. وبالرعب المسلمين الحاضرين، امتثل محمد للأوامر القرآنية وقبل شروطاً بدت ليس فقط مهينة بل كانت تطيح بجميع الفوائد التي قاتل ومات من أجلها المسلمون. مع ذلك، وقع محمد المعاهدة. كان الحجاج المسلمون غاضبين، وكاد أن يحصل تمرد، وبدأوا يركبون خيولهم عائدين في صمت متجهم.

لكن أثناء رحلة العودة إلى بيوتهم، تلقى محمد وحياً من الله الذي أسمى هذه الهزيمة الظاهرية «فتحاً مبيناً»(74). بينما المكيون الذين ألهمهم عنف الدين القديم، قد أضمروا ذلاً عنيداً في قلوبهم، أنزل الله نعمة السكينة على المسلمين، بحيث أنهم كانوا قادرين أن يردوا على أعدائهم بهدوء رصين(75). لقد تميزوا باستسلام تام لله، وهذا فصلهم عن المكيين المشركين وربطهم كما سوف نسميه أديان العصر المحوري. روح السلم ـ كما قال القرآن، ـ كان رابطتهم مع التوراة والإنجيل:

{مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}(76).

المعاهدة التي بدت غير واعدة أدت إلى سلم نهائي. بعد سنتين تاليتين، فتح المكيون طواعية أبوابهم إلى محمد الذي أخذ المدينة دون سفك دماء.

* * *

في كل دين من أديان العصر المحوري، فشل الأفراد في الارتفاع إلى مستوى مثلها العليا. في جميع هذه الأديان، وقع الناس ضحية للاستبعاد، والبطش، والخرافة، وحتى المجازر. لكن في لب هذه الأديان، أديان العصر المحوري تشترك في المثل العليا التعاطف، الاحترام، والاهتمام الشامل. الحكماء كانوا جميعاً يعيشون في مجتمعات عنيفة مثل مجتمعاتنا. ما خلقوه كان تقانة روحية استخدمت القدرات البشرية الطبيعية لمواجهة هذا العدوان. والأكثر موهبة من بينهم أدركوا أنك.

أديان العصر المحوري اليوم

المسيحيون	1.965.993000
المسلمون	1.719.326.000
الهندوس	767.424.000
البوذيون	356.875.000
السيخ	22.874.000
الداويون	20.050.000
اليهود	15.050.000
الكونفوشيوسيون	5.067.000
jain	4.152.000
الزرادشتيون	479.000

إذا أردت أن تجرم السلوك الاستبدادي الوحشي، لم يكن مفيداً إصدار أوامر خارجية فقط. فكما أوضح زهوآنغزي، كان من غير المجدي أن يحاول يان هوي حتى أن يحاول إصلاح الأمير wei عن طريق التبشير بالمبادئ النبيلة للكونفوشيوسية، لأن هذا لن يلامس الانحياز اللاشعوري في قلب الحاكم، والذي أدى إلى سلوكه الوحشي.

عندما تنتشر الحرب والرعب في مجتمع، فهذا يؤثر على كل شيء يفعله الناس. الكراهية والرعب يتسللان إلى أحلامهم، وعلاقاتهم، ورغباتهم، وطموحاتهم. الحكماء المحوريون رأوا هذا وهو يحدث لمعاصريهم وصاغوا تربية متجذرة في المستويات الأعمق الأقل شعورية في النفس كي تساعدهم في التغلب على هذا. حقيقة أنهم جميعاً قد توصلوا إلى حلول متشابهة بعمق من خلال دروب مختلفة كثيرة، فقد اكتشفوا فعلاً شيئاً ما مهماً حول الطريقة التي عملت بها الكائنات البشرية. فبغض النظر عن عقائدهم اللاهوتية التي لم تقلق الحكماء كثيراً ـ كما رأينا ـ فقد توصلوا إلى نتيجة مفادها أن إذا ما قام الناس بجهد منضبط كي يعيدوا تربية أنفسهم، فإنهم سوف يشعرون بإعلاء إنسانيتهم. بطريقة أو بأخرى، كانت برامجهم موضوعة لاستئصال نزعة الأنانية المسؤولة إلى حد بعيد عن عنفنا، وشجعت على الروحانية التعاطفية في القاعدة الذهبية.

لقد وجدوا أن هذا كان يعرف الناس على بعد مختلف من التجربة الإنسانية. وأعطاهم ecstasies «أي الخروج من» وعيهم المقيد بالنفس عادة، والذي مكنهم من فهم حقيقة أسموها «الله»، أو نيبانا، أو براهمن، أو أتمان، أو الطريقة the way . لم يكن الأمر مسألة إيمانك بالله أولاً، ومن ثم عيش حياة رحيمة. فممارسة تعاطف منضبط بحد ذاتها سوف تفضي إلى لمحات من التسامي. من المحتمل أن الكائنات البشرية مضطرة للدفاع عن النفس، فمنذ أن كنا نعيش في كهوف ونحن مهددون بالضواري الحيوانية والبشرية. ففي مجتمعاتنا وأسرنا، يعارض أناس آخرون مصالحنا، ويلحقون الضرر بتقديرنا لذواتنا، لذلك فإننا معرضون فعلياً وعقلياً، وجسدياً لهجوم مضاد، ولضربة استباقية. لكن إذا نمينا منهجياً مجموعة عقلية مختلفة كلياً، فقد اكتشف الحكماء ـ أننا نحس بحالة وعي بديلة. عودة الحكماء المحوريون المستمرة ـ وبشكل مستقل ـ إلى القاعدة الذهبية بإمكانها أن تخبرنا شيئاً مهماً عن بنية طبيعتنا.

فإذا ـ على سبيل المثال. أُغرينا لأن نقول شيئاً عدائياً عن زميل، أو قريب أو بلد معاد، وإذا فكرنا بشعورنا إذا ما أبديت ملاحظة كهذه عنا ـ وامتنعنا عن

ذلك فإننا في تلك اللحظة نكون قد خرجنا إلى ما هو خارج أنفسنا، إنها تكون لحظة تسام. فإذا ما أصبح هذا الموقف اعتيادياً، سيكون باستطاعة الناس أن يعيشوا في تعاطف دائم، ليس لأنهم كانوا عالقين في غيبوبة غريبة، بل لأنهم سيعيشون خارج أكفان نزعة الأنانية. لقد شجعت جميع البرامج المحورية هذا الموقف. فكما أشار الحبر هليل، هذا كان هو جوهر الدين. فالطقوس الكونفوشيوسية «التسليم» كانت مصممة لتنمية عادة احترام الآخرين. فقبل أن يقوم مريد بتمرين يوغي واحد، كان عليه أن يصبح بارعاً في اللاعنف، وألا يخون أبداً عدم كونه بطلاً بكلمة أو حركة واحدة. فحتى هذا كان طبيعة ثانية، ومعلمه لن يسمح له أن يبدأ بالتأمل، وفي سيرورة اكتساب عدم الإيذاء فإنه سوف يشعر بغبطة لا توصف ـ كما شرحت النصوص.

لقد وضع الحكماء المحوريون التخلي عن الأنانية، وروحانية الرحمة في قمة جدول أولوياتهم. بالنسبة لهم، الدين كان هو القاعدة الذهبية. لقد ركزوا على ما كان من المفترض أن يقوم به الناس: أن يتخلوا عن جشعهم، ونزعة الأنانية، والحقد، والعنف. فما كانوا سوف يتجاوزن لبلوغه لم يكن مكاناً أو شخصاً يمكن تعريفه بسهولة، بل حالة من الجمال المطلق التي لا يمكن أن يتصورها الشخص غير المستنير، لأنه ما يزال عالقاً في أحابيل مبدأ الأنا: إذا ما ركز الناس على ما يأملون بالتسامي إليه، وأصبحوا دوغمائيين حياله، فإن باستطاعتهم أن يطوروا بحثياً ما يسمى في كلمة بوذية «أمر لا يتسم بالبراعة unskillful».

هذا لا لأقول أن كل اللاهوت بحب إلغاؤه أو أن المعتقدات التقليدية عن الله أو المطلق «خاطئة». لكن بكل بساطة، إنها لا تستطيع أن تعبر عن كلية الحقيقة. قيمة متسامية هي قيمة ـ بطبيعتها لا يمكن «تعريفها» ـ كلمة بمعناها الأصلي تعني «وضع حدود على» فالمسيحية ـ على سبيل المثال ـ قد أدخلت مخزوناً كبيراً عن طريق التشدد العقائدي، لكن مسيحيين كثيرين لم يستطيعوا تخيل دين دون معتقداتهم التقليدية. هذا حسن تماماً، لأن هذه العقائد غالباً ما تعبر عن حقيقة روحية عميقة. الاختبار بسيط: إذا كانت عقائد الناس سواءً علمانية أم

دينية ـ تجعلهم ميالين للحرب، غير متسامحين، وغير طيبين تجاه دين أناس آخرين، فإنها تكون «غير بارعة unskillful». وإذا كانت قناعاتهم تجبرهم أن يتصرفوا برحمة، وأن يحترموا الغريب، إذن هي خيّرة، ومفيدة، وسليمة. هذا هو الاختبار للتدين الصحيح في كل دين من أديان التراثات الرئيسية.

بدلاً من إلغاء عقائد دينية، علينا أن نبحث عن جوهرها الروحي، إن أحد التعاليم الدينية ليس فقط بيان حقيقة موضوعية: إنه برنامج من أجل العمل. لقد اقتبس بولص الترنيمة المسيحية المبكرة إلى أهالي فيليبي لا ليرسي القانون المتعلق بالتقمص، بل كي يحثهم أن يمارسوا إنكار الذات بأنفسهم. إذا ما تصرفوا مثل المسيح سوف يكتشفون حقيقة معتقداتهم المتعلقة بالمسيح. بالمثل كان المراد من الاعتقاد بالثالوث من ناحية أن يذكر المسيحيين أن ليس باستطاعتهم أن يفكروا بالله كشخصية واحدة، وأن الجوهر الإلهي يقع خارج فهمهم. فالبعض قد رأى عقيدة الثالوث كمحاولة لرؤية الإلهي في كلمات علامة أو جماعة، وآخرون رأوا إنكاراً للنفس في قلب الثالوث. لكن غاية المعتقد هي أن يلهم التأمل والفعل الأخلاقي. في القرن الرابع عشر الميلادي، طور علماء لاهوت متشددون يونانيون مبدأ لاهوتياً يأخذنا إلى قلب العصر المحوري. أي قول عن الله ـ كما قالوا ـ يجب أن يمتلك صفتين: يجب أن يكون متناقضاً Paradoxical ليذكرنا أن الإلهي لا يمكن إدخاله في مجالاتنا البشرية المحدودة، وأن يؤدي إلى الصمت(77). ولذلك إن نقاشاً لاهوتياً يجب ألا يجيب على جميع تساؤلاتنا عن الألوهة التي لا سبيل إلى فهمهما، بل يجب أن يكون مثل brahmodya أي «صمت» كان يقلل منزلة المتنافسين إلى خشوع دون كلام.

قرون من تطور فكري، وسياسي، ومؤسساتي قد أبدى ميلاً إلى طمس أهمية الرحمة في الدين. ففي أغلب الأحيان، الدين الذي يهيمن على الخطاب العام يبدو أنه يعبر عن نزعة أنانية مؤسساتية: ديني أفضل من دينك! كما نوه زهوآنغزي، ما أن يقحم الناس أنفسهم في معتقداتهم، فإنهم يصبحون ميالين للشجار، ومدعين، أو حتى غير لطفاء. الرحمة ليست فضيلة شعبية لأنها تطالب

بوضع الأنا جانباً، الأنا التي تتماهى معها ذاتنا الأعمق، ولذلك يفضل الناس أن يكونوا على صواب على أن يكونوا رحماء. الدين الأصولي قد استوعب عنف زمننا، وطور نظرة أحادية القطب، لدرجة أن مثلهم مثل الزرادشتيين الأوائل - يقسم الأصوليون البشر إلى معسكرين متعاديين، فيهما المؤمنون المقاتلون منخرطون في حرب قاتلة ضد «فاعلي الشر». كما رأينا على حسابنا، هذا الموقف بإمكانه أن يتصاعد إلى مذبحة، وهو أيضاً غير منتج. فكما أوضحت الدوادجينغ Daodejing، العنف غالباً ما يرتد على من يرتكبه، بصرف النظر عن من قد تكون نيته حسنة. إنك لا تستطيع أن تجبر الناس أن يسلكوا كما تريد أنت. في الحقيقة، فالإجراءات القسرية من المرجح أن تدفعهم في الاتجاه المعاكس.

جميع الأديان العالمية قد رأت انفجار هذه التقوى القتالية، وكنتيجة فقد توصل الناس إلى استنتاج إما أن الدين بحد ذاته هو عنيف حتماً أو أن العنف وعدم التسامح هما مرض مزمن في تراث محدد. لكن قصة العصر المحوري تبين أن في حقيقة الأمر العكس هو القضية. كل دين من هذه الأديان بدأ بنفور مبدئي وظاهري من العنف غير المسبوق في عصره. بدأ العصر المحوري في الهند عندما بدأ مصلحو الطقوس باستبعاد النزاع والعدوان من التنافس القرباني. وبدأ العصر المحوري في إسرائيل في لهفة بعد تدمير أورشليم والترحيل القسري للمنفيين إلى بابل حيث الكتبة الكهنة بدأوا يطورون مثلاً أعلى للمصالحة واللاعنف. العصر المحوري الصيني - خلال فترة الدولة المتحاربة عندما الكونفوشيسيون، والموهيون Mohists والداويون، جميعاً وجدوا أساليب لمواجهة غياب القانون الواسع الانتشار والعدوان القاتل. في اليونان حيث العنف حين كانت دولة المدينة تصادق على العنف رسمياً، بالرغم من بعض مساهمات مرموقة للمثل الأعلى المحوري - خاصة في مجال المأساة - لم يحدث هناك إطلاقاً تحول ديني.

مع ذلك، منتقدو الدين محقون في الإشارة إلى علاقة بين العنف والمقدس، لأن الإنسان المتدين كان على الدوام منشغلاً بقسوة الحياة. القربان الحيواني -

ممارسة كونية في القديم ـ كان عمل عنف صارخ مصمم لتصريف وضبط عدوانيتنا الفطرية. ولربما كان هذا العنف متجذراً في الشعور بالذنب عند الصيادين في فترة الباليولتيك Paleolithé عندما كانوا الصيادون يقتلون أخوتهم المخلوقات. وغالباً ما تعكس الكتب المقدسة السياق المتوتر المؤلم الذي انبثقت منه هذه الأديان. فإيجاد مبرر ديني للقتل أمر ليس صعباً. إذا ما نظر إلى القتل بمعزل عن التراث ككل، فإن نصوصاً في الكتاب المقدس العبري ـ على سبيل المثال، وفي العهد الجديد، أو القرآن يمكن استخدامها بسهولة كي تجيز العنف غير الأخلاقي، والقسوة. لقد استخدمت الكتب المقدسة باستمرار على هذا المنوال، ومعظم التراثات الدينية تضم أحداثاً مخزية في ماضيها. أما في يومنا هذا، فإن الناس في كل أنحاء العالم يلجأون إلى إرهاب ألهمه الدين. فأحياناً يكونون مسيرين بالخوف واليأس والإحباط، وأحياناً أخرى بالكراهية والسخط، وهذا يشكل انتهاكاً للمثل الأعلى المحوري. كنتيجة لقد تم توريط الدين في بعض الأحداث الأكثر ظلامية في التاريخ الحديث.

ماذا ينبغي أن تكون ردة فعلنا؟ يعطينا الحكماء المحوريون نصيحتين مهمتين: الأولى يجب أن يكون هناك نقد ذاتي. فبدلاً من لوم الجانب الآخر فقط، يجب على الناس التدقيق في سلوكهم. فالأنبياء اليهود قدموا مثالاً قوياً هنا. فعندما كانت إسرائيل ويهودا مهددتين من القوى الإمبريالية، أخبر عاموس وهوشع، وإرميا الناس أن يتفحصوا سلوكهم. فبدلاً من تشجيع صراط قويم خطر righteousnes، أرادوا أن يثقبوا الأنا القومية. فأن تتخيل أن الله هو آلياً إلى جانبك، وضد أعدائك ليس موقفاً دينياً ناضجاً. فعاموس رأى يهوه ـ الإله المحارب ـ مستخدماً آشور كأداة له لمعاقبة إسرائيل على ظلمها المنهجي، وعلى عدم المسؤولية الاجتماعية. بعد ترحيله إلى بابل حين كان المنفيون ضحايا عدوان حكومي جماعي أصر حزقيال أن على سكان يهودا أن يدققوا في سلوكهم العنيف. ويسوع أخبر لاحقاً أتباعه ألا يدينوا القشة التي في عين جارهم، بينما يتجاهلون العصا في عيونهم(78). لقد طالبت تقوى العصر المحوري أن يتحمل

الناس مسؤولية أفعالهم. لقد أكد معتقد الكارما الهندي أن جميع أعمالنا لها عواقب تدوم طويلاً، ولوم الآخرين دون استقصاء كيف أن إخفاقاتنا ربما شاركت في ظرف كارثي كان «غير بارع»، وغير واقعي، وغير ديني.

كذلك أيضاً في مأزقنا الراهن، من المحتمل أن الحكماء المحوريين لكانوا قالوا لنا أن الإصلاح يجب أن يبدأ من البيت. فقبل الإصرار على أن ديناً آخر ينظف فعله، يتوجب علينا أن ننظر في تراثاتنا نحن، وفي كتبنا المقدسة وتاريخنا، وأن نعدل سلوكنا. لا نستطيع أن نأمل بأن نصلح الآخرين ما لم نكن قد أصلحنا أنفسنا. والعلمانيون ـ الذين يرفضون الدين ـ عليهم أن يبحثوا عن دلائل على نزعة أصولية علمانية، والتي تكون غالباً متعصبة جداً حيال الدين، لأن بعض أشكال الدين هي حول العلمانية. فالعلمانية ـ في تاريخها القصير ـ كان لها أيضاً كوارثها: هتلر، وستالين، وصدام حسين، فهؤلاء يوضحون أن الاستبعاد القسري للدين من السياسة العامة قد يكون قاتلاً مثل أي صليبي تقي.

النصيحة الثانية: يجب أن نتبع مثال الحكماء المحوريين، ونقوم بفعل عملي وفعّال. فعندما واجهوا العدوان في تراثاتهم فإنهم لم يزعموا أن العدوان ليس موجوداً، بل عملوا بكل نشاط لإحداث تغيير في دينهم، كتبوا من جديد، وأعادوا تنظيم طقوسهم وكتبهم المقدسة من أجل اجتثاث العنف الذي تراكم مع مرور السنين. فمصلحو الطقوس في الهند قد انتزعوا الصراع من القربان، وحاول كونفوشيوس أن ينتزع النزعة الأنانية المقاتلة التي شوهت Li، واستبعد «P» العدوان من قصص الخلق القديمة. مقدماً قصة نشأة الكون، فيها يهوه يبارك كل مخلوقاته ـ ومن ضمنها لويثان الذي قتله يهوه في الحكايات القديمة.

في يومنا هذا، لقد شوه المتطرفون التراثات المحورية من خلال إبراز العناصر المحاربة التي نشأت عبر القرون على حساب العوامل التي تتحدث عن الرحمة والاحترام لحقوق الآخرين المقدسة. من أجل أن يصلحوا دينهم يجب أن يبدأ أخوتهم المتدينون بمشروع دراسة إبداعية ومنضبطة، ونقاش، وتفكر، وعمل. فبدلاً من إزالة النصوص المزعجة، والكوارث التاريخية إلى تحت السجادة من

أجل الحفاظ على «سيادة» المؤسسة، يجب على العلماء، ورجال الدين، وجمهور الناس أن يدرسوا نصوصاً صعبة، ويطرحوا أسئلة باحثة، ويحللوا إخفاقات الماضي. وفي الوقت ذاته، يجب علينا جميعاً أن نسعى جاهدين لاستعادة نظرة الرحمة وأن نجد سبيلاً للتعبير عنها بطريقة طموحة مبتكرة ـ تماماً مثلما فعل الحكماء المحوريون.

فهذا ليس بحاجة لأن تحدث حملة فكرية فقط، بل يجب أن تكون عملية روحية. في هذه الأوقات الخطرة، إننا نحتاج إلى نظرة جديدة، لكن كما شرح حكماء المحور دون كلل فهماً دينياً وليس فقط مفهومياً. لقد عارض كثيرون فكرة كتاب مقدس مكتوب، لأنهم خشوا أنه قد ينجم عنه معرفة سطحية مبتذلة. مواجهة النفس، والرحمة، ونمط حياة غير عنفي، كانت مهمة مثل دراسة النصوص. فحتى إندرا كان عليه أن يغير أسلوب حياته الحربي، وأن يعيش كطالب فيدي متواضع قبل أن يستطيع فهم الحقائق الأعمق في التراث. لقد استغرق ذلك منه فترة طويلة. بما أننا نعيش في مجتمع اتصالات فورية، فإننا نتوقع أن نفهم ديننا فوراً أيضاً، ونستطيع حتى أن نشعر أن هناك شيئاً ما خطئ، إن لم نستطع أن نعرفه مباشرة. لكن الحكماء المحوريين قد شرحوا دون كلل أن المعرفة الحقة هي دائماً مراوغة.. لقد اعتقد سقراط أن لديه رسالة لجعل الإغريق العقلاء يدركون أن حتى عندما نكون منطقيين لأقصى الدرجات، فإن جانباً من الحقيقة سوف يتملص دائماً منا. فالفهم يأتي بعد إنكار للنفس فكري، عندما ندرك أننا لا نعرف شيئاً، وعقلنا «مُفْرَغٌ» من الأفكار المتداولة. لم يكن الحكماء المحوريون يهابون من مساءلة افتراضات أساسية، وبما أننا نواجه مشكلات عصرنا، فإننا بحاجة لأن تكون عقولنا منفتحة باستمرار على أفكار جديدة.

إننا نعيش في فترة خوف وألم كبيرين. إلا أن العصر المحوري قد علمنا أن نحتمل المعاناة كحقيقة لا مفر منها في الحياة البشرية. فقط عند تقبلنا لألمنا نستطيع أن نتعلم الإحساس بالآخرين. وفي أيامنا هذه، تغرقنا المزيد من صور

المعاناة أكثر من أي جيل سابق: الحرب، والكوارث الطبيعية، والمجاعة، والفقر والمرض، تجتمع كل ليلة في غرف معيشتنا. الحياة هي فعلاً ـ معاناة. من المغري أن ننسحب من هذا الرعب الكلي الحضور، وأن ننكر أنه ليس له علاقة بنا، وأن ننمي موقفاً إيجابياً عن عمد يستبعد ألم أي واحد ما عدا ألمنا. بيد أن الحكماء المحوريين أكدوا أن هذا لم يكن خياراً. فالذين ينكرون معاناة الحياة ويدفنون رؤوسهم في الرمل مثل النعامة هم «أنبياء زائفون». فما لم نسمح للأسى الذي يضغط على جميع الجوانب أن يغزو وعينا، لن نستطيع أن نبدأ مسعانا الروحي. في حقبتنا التي يسيطر فيها الرعب الدولي، يصعب على أي منا أن يتخيل أننا نستطيع أن نعيش في حديقة السعادة البوذية. وسواء عاجلاً أم آجلاً سوف تحل المعاناة في حياتنا، حتى في مجتمعات العالم الأولى المصانة.

بدلاً من الاستياء من هذه الحال، يخبرنا الحكماء المحوريون، أنه ينبغي علينا أن نتعامل معها كمناسبة دينية. وبدلاً من السماح لألمنا أن يتقيح وينفجر في أشكال عنف وعدم تسامح، وكراهية، يجب علينا القيام بمحاولة بطولية كي نستخدمه بطريقة بناءة. لقد أخبر إرميا المنفيين أن الخدعة يجب ألا تطلق العنان للسخط. وأن الانتقام لم يكن الجواب.. وقال «P» لليهود المنفيين كرموا الغريب في وسطكم، لأنكم أنتم كنتم غرباء في مصر. ذكرى محنة ماضية تعيدنا إلى القاعدة الذهبية، ويجب أن تساعدنا أن نرى معاناة الناس الآخرين، بمثل أهمية معاناتنا نحن، وبشكل خاص ألم أعدائنا. لقد وضع الإغريق البؤس البشري على خشبة المسرح كي يستطيع المتفرجون الأثينيون أن يتعلموا التعاطف مع الفرس الذين دمروا مدينتهم قبل بضع سنوات. في المسرحيات المأساوية، كان الكورس يعلم المتفرجين أن يبكوا على الناس الذين جرائمهم تملؤهم عادة بالاشمئزاز. فالمأساة لا يمكن إنكارها، وبالتالي كان يتوجب إدخالها إلى داخل قلب المدينة المقدسة، وأن تصنع قوة من أجل الخير، مثلما في نهاية مأساة أوريستيا Oresteia إرنيس المشحونة بالانتقام تحولت إلى إيومنذيز Eumenides «الناس المقدرين well-disposed ones»، وأعطيت مقاماً على الأكروبوليس.

وعند نهاية الإلياذة بكى أخيل وبريام قائلين: كان علينا أن نتعلم أن نتعاطف مع الناس الذين كرهناهم وآذيناهم. الغضب والسخط الشرير باستطاعتهما أن يجعلاننا غير إنسانيين. وعندما شارك أخيل حزنه مع بريام، ورآه على أنه صورته في مرآة، عندئذ فقط استعاد إنسانيته التي قد فقدها.

يجب أن نذكر أنفسنا باستمرار أن الحكماء المحوريين قد طوروا خُلُقَ الرحمة في ظروف مرعبة ومخيفة. إنهم لم يكونوا يتأملون في بروج عاجية، بل كانوا يعيشون في مجتمعات مرعبة تمزقها الحروب، حيث القيم القديمة كانت تختفي. إنهم كانوا مثلنا، واعين للخواء والهاوية. لم يكن الحكماء حالمين طوباويين، بل رجالاً عمليين، وكثيرون كانا منشغلين بالسياسة والحكم. إنهم كانوا مقتنعين أن الشعور بالآخر لم يكن يبدو تويبيرياً، بل كان له دور فعال. الرحمة والاهتمام بكل واحد كانا السياسة الأفضل. يجب أن نأخذ رؤاهم بجدية لأنهم كانوا هم الخبراء. لقد كرسوا قسماً كبيراً من طاقتهم الإبداعية باحثين عن علاج للعلة الروحية المزمنة لدى البشرية، مثلما يقضي العلماء اليوم وقتهم محاولين التوصل إلى علاج لمرض السرطان. فنحن لدينا مشاغل مختلفة. كان العصر المحوري فترة عبقرية روحية، ونعيش الآن في عصر عبقرية علمية وتقنية. وتربيتنا الروحية في أغلب الأحيان غير مُطوَّرة.

كان العصر المحوري بحاجة لأن يصوغ نظرة جديدة لأن البشرية قد قامت بقفزة اجتماعية ونفسية إلى الأمام. لقد اكتشف الناس أن كل شخص كان فريداً. والمبدأ الأخلاقي القبلي القديم الذي طور ذهنية جماعية لضمان بقاء الجماعة - كان يحل محله نزعة فردية جديدة. لهذا السبب كان العديد من الروحانيات المحورية منشغلاً باكتشاف النفس. الناسك - مثل التاجر - كان إنساناً صنع نفسه بنفسه. طالب الحكماء أن يصبح كل شخص مدركاً لذاته، وعارفاً ما كان يفعل، والطقوس يجب أن يتم تعديلها من قبل كل مضحي، وأن علىَ الأفراد أن يتحملوا مسؤولية أعمالهم.

في يومنا هذا إننا نقوم بقفزة نوعية إلى الأمام. لقد خلقت تقانتنا مجتمعاً عالمياً، يتواصل مترابطاً إلكترونياً سواء من الناحية العسكرية، والاقتصادية والسياسية. يتوجب علينا الآن أن نطور وعياً عالمياً، لأننا سواء أحببنا ذلك أم لا ـ نعيش في عالم واحد. مع أن مشكلتنا مختلفة عن مشكلة الحكماء المحوريين، إلا أنه لا يزال باستطاعتهم أن يساعدوننا. إنهم لم يخففوا من رؤى الدين القديم، بل عمقوها ووسعوها. وبالطريقة ذاتها، يجب علينا أن نطور رؤى العصر المحوري.

كان الحكماء متقدمين علينا في إدراك أن التعاطف لا يمكن أن يقتصر على جماعتنا الخاصة بنا. علينا أن ننمي ما يسميه البوذيون نظرة «لا يمكن قياسها immeasurable» تتسع حتى أطراف الأرض دون استبعاد مخلوق واحد من دائرة الاهتمام هذه. فالقاعدة الذهبية كانت تذكر الأفراد الناشئين في العصر المحوري إنني أقدر نفسي بمثل ما تقدر نفسك. فإذا ما جعلت من نفسي الفردية قيمة مطلقة، فإن المجتمع البشري سيصبح مستحيلاً، لذلك يجب علينا جميعاً أن نتعلم أن «يتنازل» كل منا للآخر، فتحدينا هو أن نطور هذه النظرة ونعطيها معنى عالمياً. أكد «P» في مدونة القداسة أن ما من مخلوق غير نظيف، وكل واحد ـ حتى العبد ـ لديه حرية تامة. علينا أن نحب جارنا مثلما نحب أنفسنا. وكما رأينا، فإن «P» لم يكن يعني أنه كان علينا أن نكون ممتلئين برقة عاطفية تجاه كل واحد، ففي مفردات مدونته «الحب» كان يعني تقديم العون، والإخلاص، وتقديم دعم عملي إلى جارنا. وفي أيامنا هذه كل واحد على هذا الكوكب هو جار لنا. لقد حاول موزي Mozi أن يقنع أمراء زمنه أن من الخير، ومعنى عملي أن ننمي Jian ai «أي الاهتمام بكل واحد» دون انحياز مقصود. قال موزي إن ذلك سوف يؤدي إلى خدمة أفضل مصالحهم. إننا نعرف أن هذه هي القضية الآن. فما يحدث في أفغانستان أو العراق اليوم سيكون له ـ بشكل ما ـ ارتدادات في لندن أو واشنطن غداً. في الملجأ الأخير «الحب» و«الاهتمام» يفيدان كل امرئ أكثر من السياسات القائمة على المصالح الذاتية أو القصيرة النظر.

في مأساة الباخوسيات ليوروبيديس، قد بينت أن رفض الغريب كان أمراً

خطيراً، لكن قبول الغريب والأجنبي يستغرق وقتاً، ولإزاحة النفس من مركز نظرتنا العالمية تتطلب جهداً جدياً. لقد نصح البوذيون التأمل في «المبادئ التي لا يمكن قياسها Immeasurables لتنمية عقلية مختلفة. لكن الناس الذين ليس لديهم الوقت ولا الموهبة من أجل ممارسة اليوغا باستطاعتهم تكرار قصيدة بوذا «دع جميع الكائنات أن تكون سعيدة»، وهذه دعوة لا تتطلب معتقداً لاهوتياً أو طائفياً. لقد أدرك الكونفوشيوسيون أيضاً أهمية برنامج لتهذيب النفس. فالطقوس كانت مصممة لخلق جونزي Junzi ـ كائن بشري مكتمل التطور والنضج، لا يعامل الآخرين دون اهتمام، وبلا مبالاة أو بطريقة أنانية. لكن الطقوس قد حولت الشخص الذي هو موضوع الاهتمام الطقسي، وأخرجت قداسته الفريدة. من المحتمل أن احتراماً عملياً تجاه الآخر أمر لا غنى عنه من أجل مجتمع عالمي مسالم، وربما هو الطريقة الوحيدة «لإصلاح» الدول الخبيثة. لكن هذا الاحترام يجب أن يكون صادقاً. فكما أوضحت داود جنغ Dao dejing يشعر الناس دائماً بالدوافع الكامنة وراء أفعالنا. وستكون الشعوب مدركة أيضاً ما إذا كانت مستغلّة أو إذا ما أبعدت عن مصالحها الذاتية.

إن المعاناة تهشم لاهوتاً عقلانياً أنيقاً. رؤيا حزقيال المريكة والمرعبة كانت مختلفة جداً عن الآيديولوجيا ذات المسارات لمؤلفي سفر التثينة. لقد كشف كل من أوشفيتز، والبوسنة، وتفجير مركز التجارة العالمي مدى ظلمة القلب البشري. ففي أيامنا هذه نعيش في عالم مأساوي حيث من المحال أن توجد فيه إجابات بسيطة ـ كما عرف الإغريق. فجنس المأساة يطالبنا أن نتعلم رؤية الأشياء من وجهة نظر الآخرين. إذا كان الدين سيجلب نوراً إلى عالمنا المحطم، فإننا بحاجة ـ كما قال مينسيوس ـ لأن نذهب في بحث عن القلب المفقود، أي عن روح الرحمة التي تكمن في قلب جميع تراثاتنا.

فهرس المصطلحات

Achean	ـ آخي	كلمة تصف الإغريق المسينيين، الذين عاش الكثيرون منهم: في آخيا Achea.
Acropolis	الأكروبوليس	التلة المقدسة خارج أثينا (يونانية)
Agnicayana	أجنيكيانا	(سنسكريتة) طقس فيدي: بناء مذبح قرميدي للنار للإله أجني، إله النهار.
Agon	أجون	منافسة. مسابقة: (يونانية)
Agora	أجورا	ساحة مكشوفة في وسط مدينة إغريقية (يونانية): مكان اجتماع مركزي.
Ahimsa	أهمسا	اللاعنف و«عدم الأذى» (سنسكريتية)
Ahura	أهورا	لقب أهم إله في هيكل «الرب» (أفستية) الآلهة الآرية. ahuras أصبحت الآلهة التي عبدها الزرداشتيون.
Amha - aretz	أها أريتس	«الخالدون» (عبرية) في القرن السابع ق. م الأرستقراطية الريفية في يهودا. بعد العودة من المنفى، أطلقت الكلمة على الأجانب الذين استوطنوا في كنعان بعد الحروب البابلية، وأيضاً على الإسرائيليين واليهوديين الذين لم يرحلوا إلى بابل.
Amesh	آميش	«الخالدون»: (أفستية) في الدين الزرادشتي تعني الآلهة السبعة في حاشية أهورا مازدا الإله الأعلى.

Anata	أناتا	(no-self: لا ذات: (لغة بالية): المعتقد البوذي الذي أنكر وجود شخصية متميزة ثابتة دائمة لتشجيع البوذيين أن يعيشوا وكأنما النفس لم تكن موجودة.
Apeiron	أبيرون	(يونانية) الجوهر الأصل اللامحدود للكون في فلسفة أنكسيمندر.
Aranya	أرانيا	غابة. دغل (سنسكريتة)
The aron yakas		(نصوص الغابة). تعطي تفسيراً باطنياً للشعائر الفيدية
Archetype		المخطط أو النموذج الأصلي: (يونانية) النمط الأصلي ترتبط هذه الكلمة بالفلسفة المستمرة التي ترى كل شيء أرضي أو تجربة كنسخة، أو ظل باهت لحقيقة أكثر غنى وقوة في العالم السماوي. في الدين القديم، العودة إلى الحقيقة النمطية الأصلية كانت تعتبر بمثابة اكتمال الشخص أو الشيء. وبذلك يكون قد حاز على وجود أكثر اكتمالاً وغنى.
Areopagus	أريوباغوس	تلة صخرية قرب الساحة العامة في أثينا (يوانية) التي كانت مكان عقد الاجتماعات لمجلس الشيوخ الأرستقراطي (الذي غالباً ما يعرف باسم مجلس أريوباغوس).

Aristeia	أريستيا	هياج النصر لدى المحارب الإغريقي (يونانية) الذي كان يفقد نفسه في نشوة هياج المعركة.
Arya, Aryan	نبيل آريا	حرفياً تعني المشرف، الشعوب الهندو - أوربية التي نشأت في السهوب في روسيا الجنوبية وهاجرت لاحقاً إلى الهند وإيران.
Asana	أسانا	الوضع الصحيح للتأمل اليوغي، ظهر مستقيم وساقان متصالبتان (الجلوس)
Asha	أشا	النظام المقدس الذي أبقى الكون متماسكاً جعل الحياة ممكنة. (أفستية)
Ashavan	أشافان	أبطال أشا في الدين الزرادشتي. (أفستية)
Asura	أسورا	أنزل الآريون الفيديون مرتبة أسورا (الآلهة) (سنسكريتية) التي عبدها الزرادشتيون. اعتبروها سلبية ومستقرة، بالمقارنة مع الآلهة الحركية devas.
Ataraxia	أتراكسيا	الانعتاق من الألم (يونانية) النفس الخالدة والأزلية التي يسعى إليها (سنسكريتية): Atman أتمان النساك ومتصوفو الأبانيشاد، التي كان يعتقد أنها متطابقة مع براهمن.
Avatara	أفاتارا	«تجلي» «نزول. التجلي الأرضي لأحد الآلهة. (سنسكريتية): كريشنا على سبيل المثال هو تجلٍ للإله الفيدي فيشنو.
Bandhu	باندهو	في علم الطقوس الفيدي، المضحي والكاهن كان من، «رابطة»: المفترض أن يبحثا عن روابط بين الحقائق السماوية والأرضية. عند تأدية القربان، الباندو هو كان قائماً على تشابه وظيفة أو مظهر أو على رابطة أسطورية بين شيئين.

Basileus	باسيليوس	الأرستقراطيون الإغريق «لوردات» basileis جمعها (يونانية)
bhakti	بهاكتي	«الولاء» «الحب» (سنسكريتية) أعطي الاسم إلى الدين الهندي المبني على استسلام عاطفي لأحد الآلهة. bhakta موالٍ لشيفا أو فيشنو.
bin	بن	أعطي الاسم إلى المأدبة الطقوسية تكريماً «استضافة». (صينية): الذين للأسلاف، كانوا يعتقدون أنهم كانت تحضر المأدبة. وغالباً ما يقوم بدور الأسلاف الأفراد الأحدث سناً في العائلة الذين كان يعتقد أن روح أقاربهم المتوفين تستحوذ عليهم أثناء الشعيرة.
brahmacarya	براهما كاريا	«الحياة المقدسة» (سنسكريتية) للطالب الفيدي خلال تدربه على مدرس كان يدخله في تراث قرباني. كان عليه أن يعيش حياة مواجهة النفس، متواضعة للاعنف والعفة بينما يدرس النصوص الفيدية.
Brahman	براهمن	كلية الحقيقة، جوهر الوجود، «الكل» أساس كل (سنسكريتية): شيء مجود، الوجود ذاته. القدرة التي تبقى الكون متماسكاً. وممكنة من أن تنمو وتتطور. الحقيقة الأعلى في الدين الفيدي.
brahaisiris		سلاح أسطوري للتدمير الجماعي (سنسكريتية)

brahmin	**براهمين**	فرد من طبقة الكهنة، كاهن فيدي (سنسكريتية)
brahmodya	**براهموديا**	مسابقة طقوسية (سنسكريتية)
Buddha	**البودها**	يحاول كل من المتسابقين العثور على صيغة فعلية كانت تعبر عن حقيقة البراهمن الغامضة التي لا يمكن وصفها. ودائماً كانت المسابقة تنتهي بالصمت لأن المتسابقين قد نزلوا إلى رهبة دون كلام. في الصمت كانوا يشعرون بحضور براهمن. شخص مستنير أو «تم إيقاظه» (سنسكريتية، وبالية)
buddhi	**بودهي**	المجال البشري الأعلى في: «العقل»: (السنسكريتية) نظام السامكهيا، الجزء الوحيد من الشخص البشري الذي كان قادراً أن يعكس البوروشا الأزلية
Cheng	**شينغ**	شخص من المفترض أن يؤدي الطقوس: «الإخلاص» (صينية) الصينية من كل قلبه، وليس نفاقاً أو إدعاءً.
Chthonian		تعني الكلمة الآلهة الإغريقية التي (اشتقاق يوناني) آلهة العالم السفلي التي استقرت في الأرض أو تحتها مثل الآلهة Erinyes.
City Dionysia	**مدينة ديونيسيا**	الاحتفال السنوي على شرف الإله يونيسيوس، عندما: كانت المآسي تقدم على المسرح على المنحدرات الجنوبية من الأكروبوليس.
		(لاتينية): Coincidentia o ppositorum وحدة الأضداد «تزامن الأضداد» تجربة غبطة لوحدة توجد وراء التناقضات الظاهرية للحياة الأرضية.

Daeva	دايفا	الآلهة و«الواحدون الجالسون» جمعها daevas (أفستية) توصل الزرادشتيون إلى أن يعدوا الآلهة شيطانية، وعبدوا asuras «أرباب adevas» الذين كانوا حارسي الحقيقة والاستقرار.
Daimon		وجود إلهي أدنى، وسيط بين الآلهة العالية (يونانية) وبين البشر.
Dao	الداو	الصراط المستقيم أو الدرب الصحيح، الطريقة: (صينية) غاية معظم الطقوس الصينية كانت لضمان أن المسائل البشرية كانت ملتزمة بطريقة السماء. الفضيلة البشرية قوامها العيش وفقاً لـ de القدرة التي تعبر عن dao على الأرض. في الداوية Daoism المدرسة التي مثلها زهوآنغزي في العصر المحوري ولاوتسي، أصبحت dao هي المطلق، الحقيقة التي لا يمكن وصفها، المصدر الذي يستمد منه كل ظهور مولّد غير مولود لكل شيء موجود، الذي يضمن الاستقرار والنظام في العالم.
Daode	داودي	«قدرة الطريقة» (صينية): المعبر عنها من خلال الملك أو الأمير. قدرة سحرية تجلب الاستقرار إلى العالم وإلى المملكة. الشعب (يونانية): Demo.s

Deva	ديفا	الآلهــة الفيديــة، «الواحــدون المــشرقون» (سنسكريتية): أنزل الزرادشتيون مرتبة هؤلاء وعدوهم شيطانيين، عنيفين، وشريرين. لكن الهنود الفيديين أغرموا بحيوية هؤلاء، وعبدوها بدلاً من asuras
Dhamma	دهاما	في المفردات البوذية كانت تعني عموماً (بالية): تعاليم مدرسة بعينها. طريق الخلاص.
Dharma	دهارما	كلمة معقدة، لها طيف من معاني مختلفة (سنسكريتية) بالأصل كانت تعني الحالة الطبيعية للأشياء، جوهرها، القانون الأساسي لوجودها. بعدئذ، أصبحت تعني قوانين وواجبات كل طبقة من المجتمع الفيدي، التي حددت وظيفتها وأسلوب حياتها. وأخيراً أصبحت تشير إلى حقيقة دينية: المعتقدات والممارسات التي تكون نظاماً اجتماعياً محدداً. باللغة البالية دهارما أصبحت dhamma
Diadochoi	ديادوشي	الخلفاء الستة الذين خلفوا الإسكندر (يونانية) الكبير الذين حاربوا من أجل السلطة بعد وفاته.
Dike	ديكي	إحدى بنات زيوس إلهة العدالة، العدالة: (يونانية)
Dukkha	دوكها	غير مرضٍ، منقوص، مقلق (سنسكريتية) غالباً ما تترجم «معاناة».

Dysnomia	ديسنوميا	«الفوضى» (سنسكريتية) سياسة اجتماعية غير متوازية تسمح لبعض شرائح من السكان. أن تصبح مهيمنة أكثر مما يجب.
Ekagrata	إكجاراتا	التركيز على نقطة واحدة، انضباط يوغي (سنسكريتية) حرفياً تعني «الخروج من». غيبوبة، نشوة (يونانية) Ekstasis نشوة الذهاب إلى ما وراء النفس، تجاوز التجربة العادية.
Elohim	إيلوهيم	مصطلح يلخص كل ما تعنيه الآلهة للبشر (عبرية) وغالباً ما تستخدم كلقب رسمي ليهوه وتترجم «الرب».
En mesoi	ميسوي	عبارة تعبر عن الطبيعة المنفتحة: «في المركز» (يونانية): إن للديمقراطية الأثينية.
Entheos	إن ثيوس	حرفياً تعني «إله في الداخل»، (يونانية): التجربة النشوية للاستحواذ الإلهي، خاصة أثناء أسرار ديونيسيوس
Eunomia	إيونوميا	مجتمع مستقر، النظام: (يونانية): لايسمح لشريحة اجتماعية أن تهيمن على الشرائح الأخرى. هذه هي الكلمة التي أطلقت على السياسة التي أسسها سولون في أثينا في القرن السادس ق. م طريقة، نموذج، معيار (صينية): Fa غالباً ما تترجم «شريعة» مفهوم مهم في مدرسة legalist الصينية.

Gathas	غاثاس	الكتب المقدسة الزرادشتية، (أفستية) سبع عشرة ترنيمة موحاة تنسب إلى زرادشت.
Golah	غولاه	جماعة المنفيين العائدين في يهودا (عبرية)
Goyim	غوييم	الأقوام الأجنبية (عبرية)
Grama	غراما	أصلاً كانت تعني محاربون متسلقو الجبال. قرية: (سنسكريتية)
Haoma	هاوما	نبات مخدر يسبب الهلوسة استخدم في (أفستية) العبادة الآرية. كانت سوق هذا النبات تجمع طقوسياً، وتستحق وتمزج بالماء لصنع مشروب مسكر مقدس. كانت مبجلة كإله Haoma
Helots	هيلتوس	الناس العاديون المسينيون Messenia الذين كانت (يونانية) إسبارطة تستعبدهم عند احتلال مناطقهم.
Herem	هريم	الحرب المقدسة في إسرائيل القديمة «المحرم» (عبرية)
Hesed	هسيد	غالباً ما تترجم «محبة» أو «رحمة»، لكنها أصلاً كلمة (عبرية): قبلية تعني الولاء لعلاقة القرابة التي كانت تتطلب سلوكاً. إيثارياً تجاه الجماعة الأسرية.
Henneni	هنيني	صرخة كان يطلقها أنبياء وبطاركة «ها أنا ذا»: (عبرية): ليعبروا عن حضورهم الكلي أمام الرب

		واستعدادهم للقيام بما كان يريده، تعبيراً عن الاستسلام والولاء. لقب مواطني إسبارطة، الناس «الأنداد» أو «المنسجمين» (يوانية): Homoioi
Hoplite	هوبليت	مشتقة من الكلمة اليونانية hopla أي «أسلحة». (يوانية) المواطن الإغريقي الذي كان يسلح نفسه.
Hotr	هوتر	الكاهن الذي كان خبيراً في الترتيل المقدس (سنسكريتية، أفبتية) -
Hubris	هوبرس	سلوك فعالٍ «الأنانية، الصلف» (يونانية) رفض البقاء ضمن حدود مرعية. نزعة الأنانية.
isonomia	إسونوميا	أعطي الاسم إلى الحكومة. «نظام مساواة» (يونانية) التي صاغها Cleisthenes في أثينا في مطلع القرن السادس.
Jian ai	جيان آي	الفضيلة الأساسية في المدرسة الموهية Mohix (صينية) غالباً ما تترجم «محبة عالمية، لكن بدقة أكثر تعني «اهتمام بكل واحد» عدم انحياز مبدئي.
Jina	جينا	الذي بلغ الاستنارة أهمسا. «فاتح» روحي (سنسكريتية): كانت دين Jinas -
Jing	جينغ	الشكل الأعلى لـ qi جوهر الوجود المقدس، Jains (صينية): الوجود ذاته، الخلاصة الإلهية لجميع الأشياء
Jiva	جيفا	روح، كيان حي كان مشعاً وذكياً. اعتقد Jains (سنسكريتية):

		أن كل مخلوق ـ بشر، نباتات، حيوانات، حتى الصخور والشجر. كل منها تملك Jiva تستطيع أن تشعر بالألم والكرب، ولذلك يجب حمايتها وتكريمها.
Junzi	جونزي	أصلاً كانت تعني سيداً مهذباً، فرد من النبلاء الصينيين (صينية) سحب كونفوشيوس مضمونها الطبقي وجعلها ديمقراطية. بالنسبة لأتباع كونفوشيوس: الجونزي كان كائناً بشرياً ناضجاً مكتمل التطور الذي شذب قدراته الداخلية. تترجم أحياناً: شخص «عميق» أو «خارق».
Karma	كارما	في البداية كانت تعني الفاعلية الطقسية: «الفعل» (سنسكريتية) لكن لاحقاً توسعت لتشمل جميع الأفعال، من بينها الأعمال الذهنية مثل الخوف، الارتباط، الرغبة أو الحقد.
Karma - yoga	كارما ـ يوغا	هذه العبارة صاغها كريشنا في (سنسكريتية): بها جافاد ـ جيتاكي يصف يوغا المحارب الذي تعلم أن يفصل نفسه عن أعماله بحيث أنه لا يعود مهماً بالحصول على أية فائدة منها.
Katharsis	كاثرسيسز	«التطهير، التنقية» أصلاً. كانت تعني (يونانية) تنقية الأضحية والطقس: في المأساة، المتفرجون ينقون عواطفهم من الحقد والرعب.

Kenosis	كينوسيس	في الروحانية، تستخدم الكلمة. «إفراغ»: (يوانية) كي تصف إفراغ النفس: تفكيك نزعة الأنانية.
Kshatriya	كشتريا	طبقة المحاربين الهنود. «الواحدون المقتدرون» (سنسكريتية) المسؤولون عن الحكومة والدفاع عن المجتمع.
Li	لي	مجال الكنز الطقوسي، احتفال، شعيره: (صينية) الذي كان ينظم كل حياة الجونزي.
Logos	لوغوس	فكر علمي، منطقي معلل، كلام حواري (يونانية) في بعض الفلسفات ـ مثل الرواقية، تعني المبدأ المسيّر. العقلاني للطبيعة.
Mandala	ماندالا	شكل تصويري رمزي للكون الذي (سنسكريتية) هو دائماً دائري الشكل ليعني أن سرياناً يضم كل شيء، أيقونة للتأمل.
Mantra	مانترا	صيغة نثرية قصيرة، تردد أثناء طقس. (سنسكريتية) الصوت كان مقدساً في الدين الفيدي، بالتالي المانترا كانت إلهية. المانترات باستطاعتها أن تغلف الإلهي في شكل الكلام البشري.
Messiach	المسيا	أصلاً كانت الكلمة تعني: الممسوح بالزيت (عبرية) إلى ملك إسرائيل ويهودا الذي كان يمسح بالزيت أثناء احتفال تنصيبه، وأنجز قرباً معتقدياً خاصاً من يهوه. لقد أصبح «ابن الرب»، ولديه مهمة إلهية خاصة. أطلق أشعيا الثاني

الكلمة على قورش كسرى فارس الذي كان ملك يهوه ويقوم بعمل يهوه.

Miasma **مياسما** طاقة ملوثة معدية تنشأ في مذبحة عنف ضد (يونانية): أحد أفراد من الأسرة أو ضد جارة كان لها حياتها الخاصة بها، وبإمكانها أن تعدي كائنات بشرية بريئة تماماً تربطهم علاقة قرابة بالمرتكب أو فقط لأنه كان في الجوار. إنها مثل النشاط الإشعاعي. ما أن ترتكب فعلة نكراء فإن عدواها لا يمكن استئصالها إلا بالعقاب ـ عادة موتاً عنيفاً أو قربانياً للمرتكب. الإلاهات Erinyes كن مسؤلات عن استئصال العدوى، ويتعقبن المذنب.

Mitzvah **ميتزفا** الوصايا في توراة يهوه (عبرية)

Moksha **موكشا** الانعتاق من دورة إعادة الولادة والسامسارا (سنسكريتية): التي لا تتوقف، واليقظة الناجمة لنفس الإنسان الحقة.

(مشتقة من اليونانية): Monolatry تعني عبادة إله واحد، وهذه الكلمة مختلفة عن الوحدانية Monotheism التي تعني أن إلهاً واحداً فقط موجود. وشخص يمارس عبادة إله واحد قد يؤمن بوجود عدة آلهة، لكنه قرر أن يعبد إحداها، من المحتمل أن أنبياء إسرائيل

		كانوا يعتقدون بوجود آلهة أخرى، لكنهم كانوا يريدون من الناس أن يعبدوا يهوه فقط، ،ألا يقوموا بدور في عبادات آلهة أخرى.
Muni	موني	ناسك، «حكيم صامت»: (سنسكريتية)
Mystai	ميستاي	أناس يخضعون لإدخال في دين سري إغريقي (يونانية) يعطيهم تجربة شخصية ومكثفة بالإلهي.
Mythos	ميثوسي	حقيقة حدثت مرة واحدة (في أحد معانيها)، myth (يونانية) لكنها حدثت أيضاً طوال الزمن. الخطاب الأسطوري الذي يعالج حقيقة لا زمنية مراوغة والبحث عن المعنى النهائي الذي توصل إليه اللوغوس.
Nibbana	نيبانا	إخماد النفس «الإخماد»، «الانقراض» (بالية): الذي يجلب الاستنارة والانعتاق من الألم والمعاناة. في السنسكريتية هذه الكلمة تصبح نيرفانا.
Niyama	نياما	التمارين التحضيرية لليوغي، متضمنة (سنسكريتية): دراسة تعاليم الغورو، والهدوء، والطيبة مع الجميع.
Nous	نوس	«العقل» (يونانية)
Panathenaea	باناثينيا	احتفال أثينا بالسنة الجديدة الذي (يونانية): كان يحتفي بولادة المدينة. كان يتألف من موكب في الشوارع

		حتى الأكروبوليس، حيث يقدم رداء إلى أثينا، أي لتمثال عبادتها.
Pesach	بيذاخ	اسم عيد الفصح الربيعي الذي كان يحتفل: «العبور» (عبدية) بتحرر الإسرائيليين من مصر، عندما ملك الموت كان يمر فوق مساكن. الإسرائيليين، لكن كان يقتل الأبناء البكر المصريين.
		«علماء فيزياء» (يونانية): Physikoi
Miletus Elea	ميلتوس وإيليا	علماء الطبيعة في في جنوب إيطاليا.
Purusha	بوروشا	تعني الشخص البشري الأول: «شخص»: (سنسكريتية): الذي سمح للآلهة أن تقدمه قرباناً كي تجلب العالم إلى الوجود. القربان النمطي البدئي كان يحتفى به في ترنيمة بوروشا في الريغ - فيدا. وفي مرحلة لاحقة ظهرت البوروشا بشخصية الإله الخالق براجاباتي، وبذلك أصبحت حاسمة للإصلاح الطقوسي الذي بدأ العصر المحوري الهندي. في فلسفة السامكهيا، البوروشا كانت تعني النفس المقدسة الأزلية لكل فرد، التي كان يجب أن تتحرر من الطبيعة.
Polis	بوليس	تعني دولة - المدينة الإغريقية (يونانية)
Pranayama	البرانايama	تمارين التنفس اليوغية التي (سنسكريتية) تسبب حالة غيبوبة والسلامة.

Prophet	بروفت	شخص يخاطب الله، أو يتكلم بالنيابة عنه «مشتقة من اليونانية»
Qaddosh	قدوس	ومقدس «آخر، ومنفصل» (عبرية)
Qi	كي	المادة الخام للحاة، قدرتها الأساسية، وروحها (صينية): البدئية إنها تحيي جميع الكائنات. إنها نشطة إلى ما لا نهاية، وهي تندمج في اندماجات مختلفة، تحت إشراف الدوا dao، لتشكل مخلوقات فردية، وبعد مدة تغادر qi فتموت المخلوقات أو تتحلل، لكن qi تستمر في الحياة مندمجة في طرق جديدة لكي تجلب كائنات مختلفة تماماً إلى الوجود. Qi تعطي كل شيء شكله وقوامه المميزين. لتسمح qi أن تنساب بحرية من خلال الشخص البشري فقد أصبحت الهدف الرئيسي للصوفية الصينية: إنها كانت أساس الشخصية، قاع وجود الكائن ولذلك هي في حالة انسجام تام مع الداو dao.
Raja	راجا	«ملك، زعيم» (سنسكريتية)
Rajasuya	راجاسويا	احتفال الترسيم الملكي (سنسكريتية)
Rang	رانغ	«التسليم» الموقف الذي تلقنه الطقوس الصينية (صينية): للدلالة على التبجيل والاحترام.
ren	رِنْ	أصلاً، تعني «كائناً بشرياً». أعطى كونفوشيوس (صينية): الكلمة معنى جديداً، لكنه رفض أن يصفه

لأنه يتعالى على أي من المجالات الفكرية في عصره. كانت قيمة متسامية، الخير الأسمى. Ren سوف تربط دائماً بمفهوم الإنسانية، وقد ترجمت «قلب مشبع بالإنسانية». وفي مرحلة لاحقة ساواها كونفوشيوس مع التسامح أو الرحمة. إنها الفضيلة الأساسية عند كونفوشيوس. «المعرفة في قلب شعري»

Rigveda ريغ فيدا (سنسكريتية) الجزء الأكثر قدسية من بين الكتب المقدسة الفيدية يتألف من أكثر من ألف ترنيمة.

Rishi ريشي (سنسكريتية) أطلقت الكلمة على الشعراء الملهمين في الريغ فيدا. وتعني أيضاً حكيم، أو متصوف، أو رؤيوي. العراف أطلقت الكلمة على الشعراء الملهمين في الريغ فيدا وتعني أيضاً حكيم، أو متصوف، أو رؤيوي.

Rita ريتا انظر asha، الإستقرار المقدس (سنسكريتية)

Ru رو خبراء الطقوس في الصين (صينية)

Sabaoth صبوات اللقب الرئيس ليهوه رب «الجيوش» (عبرية)

Samkhya سامكهيا «التمييز» (سنسكريتية) فلسفة تشبه اليوغا حللت الكون إلى 24 مجالاً مختلفاً،

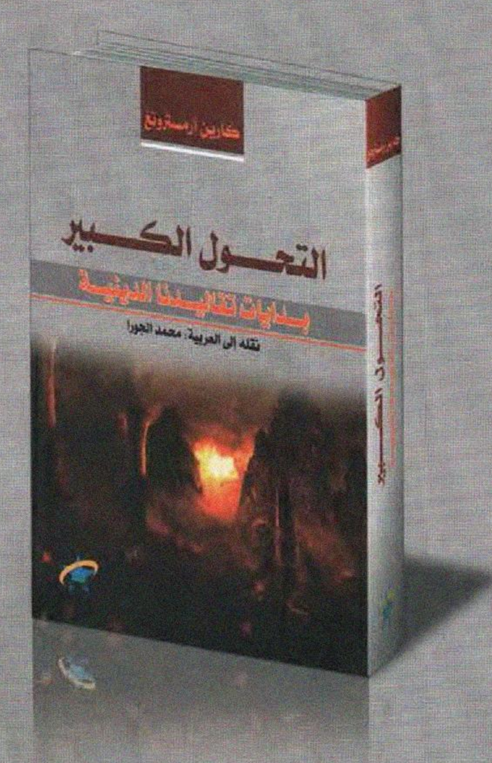
Moksha موكشا وشكلت نظرية كونية كي تكون موضوع تأمل لكي تستميل.

Samsara سامسارا الاستمرارية «عدم التوقف» (سنسكريتية) حلقة الموت والولادة ثانية التي كانت تنقل الناس من حياة إلى الحياة التالية. وغالباً ما كانت تعني القلق وآنية الظرف البشري.

Samgha	سانغها	أصلاً تعني الاجتماع القبلي للعشائر (سنسكريتية) الآرية. اتسع معناها: الفرق الدينية للنساك.
Satrap	ستراب	والي، حاكم (فارسية)
Sefes torah	سفرتوراة	لفاقة الشريعة المكتشفة في (عبرية) هيكل أورشيلم في عام 622 ق. م
Shen	شن	صفة خارقة جعلت: الإلهي (صينية): كل شخص فريداً. إنها كانت Shen الذي مكّن شخصاً أن يعيش كفرد في السماء وأن يصبح سلفاً مقدساً في العبادة. في الصوفية الصينية، Shen أ"لقت على النفس الإلهية الأعمق لدى شخص التي هي واحد مع Jing الوجود.
Shi	شي	الأرستقراطية الأدنى في الصين، (صينية) السيد المهذب العادي، غالباً ما كان يقوم بأعمال أقل مكانة في الإدارة، ويخدم كمتطوع في الجيش، وأخصائي في فروع المعرفة المختلفة، وحارس التراثات المدونة، وكتبة. حكماء العصر المحوري الصيني كانوا يتحدرون غالباً من هذه الطبقة.
Shruti	شروتي	«الوحي، ذلك المسموع» (سنسكريتية)
Shu	شو	«المماثلة مع الذات» (صينية): فضيلة الاحترام عند كونفوشيوس، المرتبطة بالقاعدة الذهبية: «لا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوه لك»
Shudra	شودرا	سكان الهند غير الآريين. (سنسكريتية) الطبقة الدنيا من المجتمع الفيدي الذي عملها هو أن تقدم الشغل.

Soma	سوما	نبات مخدر يسبب الهلوسة (سنسكريتية): المستخدم في الطقوس الآرية. في الهند، كانت السوما كاهناً مقدساً كان يحمي الناس من المجاعة ويعتني بأبقارهم.
Sympathia	سيمباثيا	«الإحساس مع» (يونانية): صلة عميقة بالطقوس، وفي مرحلة لاحقة أصبحت تعني الإحساس بمعاناة الكائنات البشرية الأخرى.
Tapas	تاباز	«الحرارة» (سنسكريتية): تمرين نسكي، يجلس الناس قرب النار المقدسة، ويتعرقون ويشعرون بموجة من الدفء تعلو داخلهم التي كانت تعتبر قوة إبداعية وإلهية. اتسع معناها لتعني غالباً نزعة الزهد. تقانة (يونانية): Techne
Theoria	تيوريا	التأمل (يونانية):
thetes	ثيتس	الطبقات الدنيا في المجتمع الإغريقي (يونانية)
Torah	توراة	«التعليم» (عبرية): الشريعة الإلهية لإسرائيل، قيل أن الرب نقلها إلى موسى على جبل سيناء.
upanishads	أنيشاد	«الجلوس قريباً من» (سنسكريتية) كتب مقدسة صوفية باطنية تُعظَّم على أنها ذروة الفيدا. ثلاثة عشرة أبانيشاد كلاسيكية قد جمعت بين القرن السابع والثاني ق.م.
Vaishya	فايشيا	القبلي (سنسكريتية):

		الطبقة الثالثة في المجتمع الفيدي التي عملها هو خلق ثروة الجماعة، أولاً بإكثار الحيوانات، والزراعة، ولاحقاً عن طريق الحرف والتجارة.
Veda	فيدا	«معرفة»: (سنسكريتية): استخدمت الكلمة لتعني الكمية الضخمة من التراث المقدس لدى الهنود الآريين.
Wu Wei	وو وي	«فعل لا شيء» (صينية)
Xian	زيان	«الرجال المقتدرون» (صينية) رجال العقل العمليون
Xie	زي	مجموعات من أخصائيين عسكريين مشاة
yamas	ياماس	الممنوعات الخمس في التدريب (سنسكريتية): الأولي لليوغي، الذي عليه أن يتقنها قبل أن يبدأ أن يتأمل، وتسمى أيضاً «الأيمان» الخمسة. إنها تمنع العنف والسرقة، والكذب، والجنس، والمواد المسكرة التي تبلد الذهن وتعيق التركيز. في البداية كانت تعني «وضع النير» (سنسكريتية) yoga يوغا سرج حيوانات الجر إلى العربات الحربية في بداية غارة. ولاحقاً استخدمت تسخير القدرات العقلية لبلوغ الإستنارة. الإنضباط التأملي مصمم لإستئصال الأنانية التي تعيقنا عن الموكشا والنيبانا ممارس اليوغا: yogin يوغي
yu wei	يو وي	عمل هادف منضبط (صينية)
yuga		دورة تاريخية وحقبة وعصر. (سنسكريتية)



إننا نغامر بكارثة بيئية لأننا لم نعد نرى الأرض مقدسة، بل نعدّها بكل بساطة مجرد مصدر للموارد. وما لم يكن هناك نوع من ثورة روحية تستطيع أن تحتضن عبقريتنا التقانية، فليس من المرجح أن نتمكن من إنقاذ كوكبنا. إن تربية عقلانية محضة لن تكون كافية. لقد رأينا أنه قد توجد جامعة عظيمة قربنا، مثلما يوجد معسكر اعتقال رهيب. والدين، الذي من المفترض أن يساعدنا على تصحيح هذا الوضع، يبدو في أغلب الأحيان، وراء العنف واليأس في أزماتنا. ففي كل يوم تقريباً، نرى أمثلة على الإرهاب والكراهية وعدم التسامح محركها ديني، وفي الوقت نفسه، يجد عدد متزايد من الناس أن العقائد والممارسات الدينية التقليدية غير ذات جدوى ويتحولون إلى الفن والأدب والموسيقى والرياضة، أو المخدرات كي تعطيهم تجربة متسامية يحتاجها البشر.

كارين أرمسترونغ خير من كتب حول الأديان وبحث هذه المسألة في البلدان المتقدمة.


9 789933 505813

دار الفرقد

للطباعة والنشر - دمشق - سوريا